موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القرآن الكريم

تفسير سورة النساء

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(01-69): تفسير الآية 1 ، طاعة الله وصلة الرحم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-02-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله تعالى عامة الناس بأصول الدين و المؤمنين بفروع الدين :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الأول من سورة النساء ومع الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

الله جل جلاله يخاطب تارة عامة الناس، ويخاطب تارة أخرى المؤمنين، وفي الأصل أن الله يخاطب عامة الناس بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

ويخاطب المؤمنين بفروع الدين:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

[سورة البقرة: 43]

إن آمن الإنسان بالله يهديه ويرفعه إلى مرتبة عالية :

هناك آيات كثيرة تأتي التفاصيل مع يا أيها الذين آمنوا، والمعنى أنه يا من آمنت بالله، يا من آمنت به خالقاً، آمنت به رباً، آمنت به مسيراً، يا من آمنت به موجوداً، واحداً كاملاً، يا من آمنت بأسمائه الحسنى، بصفاته الفضلى، يا من آمنت بقدرته بأنه المطلق في كل شيء، يقتضي إيمانك به أن تطيعه، إذاً افعل كذا وكذا، أما حينما يخاطب عامة الناس يخاطبون بأصول الدين، جبلة الإنسان أي فطرته وعقله يقتضيان أن لهذا الكون خالقاً، وهؤلاء الناس جميعاً عبيده، وأن الإنسان إذا تطاول على عبد فأخذ ماله، أو انتهب رزقه، أو قهره، أو ظلمه، فإنّ الذي خلق هذا الكون سيقتص منه، أنت لست وحدك في الحياة، أنت لست مطلقاً، أنت مقيد:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

أي أنت في بلد، ولنضرب على هذا مثلاً قريباً، يوجد بلد فيه جيش وشرطة، وأمن، وقوانين، وأنظمة، ليس من السهل أن تتحرك كما تريد من دون ضوابط، يوجد سجن، وقتل إذا ارتكبت جريمة، وغرامة مالية إن ارتكبت مخالفة مدنية، مجتمع فيه نظام، فيه قوة، فيه سلطة، فيه محاكم،

فيه واجبات، فإنسان يتحرك بلا ضابط، بلا نظام، بلا قيم، لا يبالي، فيدفع الثمن باهظاً، لذلك إن آمن الإنسان بالله، قال الله عز وجل:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الهدى رفعهم، رفعهم إلى مرتبة عالية، رفعهم وسما بهم عن الظلم، رفعهم وسما بهم عن أن يأخذوا ما ليس لهم، رفعهم وسما بهم عن السفاسف والأشياء الوضيعة، رفعهم وسما بهم إلى مكانة علية، حيث الحرية، والكرامة، حيث السعادة:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

في الهدى رفعة وفي الضلال قيد وغمّ وهمّ :

أما الذين كفروا فـ:

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الزمر: 22]

معنى (في): ضمن قيد، ضمن كآبة، ضمن سجن، ففي الهدى رفعة، وفي الضلال قيد، أو غم، أو هم، أو كآبة، أو انتحار، دور القمار ماذا تخرج؟ منتحرين أحياناً**!!** النازل في هذه الدار قد ينتهي به إلى الانتحار:

تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الدمار

نصيب النازلين بها سهاد وإفلاس فيأس فانتحار

* * *

أنت حينما تضل سواء السبيل فقد دخلت في قوقعة، دخلت في قهر، دخلت في العقاب، في كآبة، ولو نجوت من عقاب الدنيا دخلت في عقاب النفس، الكآبة عقاب، الشعور بالذنب عقاب، الشعور بالدناءة عقاب، قد تكون عند الناس عظيماً، لكنك أمام نفسك محتقر، هذا يسمى في علم النفس الانهيار الداخلي، لو عظمك الناس، لو أثنوا عليك، لو رفعوك، لو بجلوك، إن لم تكن أنت على حق تشعر أمام نفسك أنك دنيء، إذاً الهدى يرفعك:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

أما الكافرون فـ:

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الزمر: 22]

(في)، دخل في قوقعة، دخل في حبس، دخل في قهر، دخل في قلق، دخل في حزن، دخل في ندم، دخل في كآبة، دخل في سجن، دخل في قبر بالنهاية، فشتان بين أن ترتفع بالهدى وأن تسقط بالضلال.

من الغباء أن تعتقد أن هذا الكون المعجز بلا حساب :

مثل بسيط، في مجتمع متواضع فيه قوانين، وأنظمة، وفيه شرطة، وفيه جيش، فيه محاكم، فيه قضاء، فيه قوانين، فيه واجبات، ومسؤولية، ومحاسبة، وتحقيق، فإنسان متفلت عاقبة أمره إلى السجن، العصابات تتفلت، تسرق، تنهب، يصورورهم أذلاء في الجريدة، ثم إلى السجن، وإن ارتكبوا جريمة إلى الإعدام. الآن كبِّر الأمر، كون معجز بلا حساب؟!

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

هكذا تأكل مال أخيك ظلماً، وتستهزئ به، وتنجو من عقاب الله؟! تعتدي على عرضه دون أن يدري، وتنجو من عقاب الله؟! تكذب عليه، وهو يصدقك، كفى بها خيانة أن تحدث أخيك حديثاً هو لك به صادق وأنت له كاذب، تظلم امرأتك وتنجو؟! تحتال على شريكك وتنجو؟! تحتال على من حولك وتنجو؟! تبيع السلعة للمضطر بأضعاف مضاعفة وتنجو من عقاب الله؟! تنجو من مصادرة، من ضبط، من تلف بضاعة، من سجن أحياناً، من السذاجة والغباء والحمق أن تظن أنك إن تصرفت كما تشاء لن تحاسب كما يجب، هذه المعاني من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

قبل أن تعصي، قبل أن ترتكب الحرام، قبل أن تأخذ ما ليس لك، قبل أن تدلي بتصريح كاذب، أو أن تحتال على إنسان ضعيف، قبل أن تستغل ثقة الناس فيك، في مهن راقية جداً، لو فرضنا أنك تعمل في القضاء، والموكل واثق، تقول له: سوف أربح لك الدعوى، فإن كنت موقناً يقيناً قطعياً أن القوانين ليست معك، مع موكلك، بل هي مع خصمك، وأن هذه الدعوى خاسرة سلفاً، لكنك أردت أن تبتز ماله إلى حين، هل تنجو من عقاب الله؟! هذا في مستوى المحاماة، والطب، والهندسة، والتعليم، لو أوهمت أباً أن ابنه ضعيف، ويحتاج إلى دروس خاصة، وكسَّرت له في العلامات، كي يضطر إلى أن يأخذ درساً خصوصياً، هل تنجو من عقاب الله؟! قد يغش الإنسان في البيع والشراء، قد يقدم مواصفات عالية جداً لا يكشفها المشتري المحدود، هل تنجو من عقاب الله؟! قد تشتهي امرأة غيرك، وتملأ عينيك من محاسنها، وتظن أنك مستريح بهذا، وأنك تحدثها، هل تنجو من عقاب الله؟!

أدقُّ الخواطر يعلمها الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

أي إذا خدعت المؤمنين وصليت معهم، خدعت المؤمنين وتحدثت بما يتحدثون، إذا خدعت المؤمنين فأظهرت الورع وأنت لست كذلك، فهل تنجو من عقاب الله؟! هل تنجو من فضيحة يفضحك الله بها؟!

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

اتق هذا الإله العظيم، الذي يعلم السر وأخفى، يعلم ما خفي عنك، لا تخفى عليه خافية، أضرب مثلا بسيطاً، جاءت صديقة زوجتك، والوقت شتاء، وغرفة الضيوف باردة، وغرفة الجلوس دافئة، وقلت لزوجتك: تعاليْ مع هذه الصديقة إلى هذه الغرفة، لأنها أكثر دفئاً من تلك الغرفة، وأنت لا تريد هذا المعنى، بل تريد شيئاً آخر، الذي خلقك ألا يعلم ذلك؟! تريد أن تنظر إليها، وأن تراها، وأن تحدثها مثلاً، فأدقُّ الخواطر يعلمها الله.

(خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

أنت كطبيب متاح لك أن ترى جسم المرأة، لكن لو أنها تشتكي من مكان ونظرت إلى مكان آخر لا تشتكي منه، لا يعلم هذا إلا الله، من الذي سيحاسبك؟ الله جل جلاله.

(خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي :

هذا الكون العظيم لا يعقل أن ينتهي هكذا، يوجد ظالم ومظلومين، ويوجد أقوياء ويوجد ضعفاء، وأناس قهروا وأناس مقهورون، هكذا تنتهي الحياة ببساطة؟! لذلك أحد كبار العلماء يرى أن الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، وأن العقل لا يقبل أن يكون في الأرض قوي وضعيف، فشعوب في الأرض تقصف فتموت عن آخرها، والذين أمروا بقصف هذه الشعوب وقتلها وتدميرها، بمساكنها ومساجدها ومستشفياتها، وتقتيل أبنائها، وإذلالهم، كي يتغطرسوا، هل ينجون من عقاب الله؟ هذا يتناقض مع وجود الله.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

علينا أن نتقي الله في حركاتنا وسكناتنا لأنه رقيب علينا :

قبل أن تظلم، قبل أن تكذب، قبل أن تحتال، قبل أن تسيطر، قبل أن ترغم أنف الآخرين، قبل أن تذلهم، قبل أن تستعلي عليهم، قبل أن تقول كلاماً فوق طاقتك، اتق الله.

سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله عين رجلاً عالماً ليكون معه دائماً، اسمه عمر، قال له: يا عمر قم معي، إن رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت.

قد تكون قوياً، قد يكون الطرف الآخر ضعيف، قد تأتيك امرأة لا تعرف ما تقول، فتستغل جهلها، وتبيعها سلعة بعشرة أضعاف ثمنها، قد يأتيك طفل صغير، ليشتري لحماً من عندك، قد تبيعه لحماً سيئاً جداً، الطفل لا يدري ولا يفقه، ولا يستطيع أن يقول كلمة، فهل تنجو من عقاب الله؟ أبداً.

أيها الأخوة، أردت من هذه الآية أن يعلم الأخوة الكرام أن الله كان عليكم رقيباً، كما في آخر الآية:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

إذا كنت تحت رقابة الله كيف الأمر؟ تحت رقابة خالق الأكوان، تحت رقابة مبدع الإنسان.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

ألا يعلم من خلق؟

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم ما خفي عنك، الذي يعلمه عنك لا تعلمه أنت.

الله تعالى خلق البشر من طبيعة واحدة و خصائص واحدة ولدعوة واحدة :

قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

يوجد عدل، من طبيعة واحدة، من خصائص واحدة، لدعوة واحدة، المؤمنون مدعوون إلى الله، والكفار مدعوون إلى الله.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[سورة الزخرف: 33]

لو أن الله سبحانه وتعالى خلق أناساً للجنة، وأناساً للنار لما عذب الكفار، بل إن الكفار مدعوون إلى الله عز وجل:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

علينا أن نطيع الله وحده لأنه الخبير بأسباب سعادتنا وأسباب شقائنا :

لماذا ينبغي أن نتقي الله؟ لأنه خالقنا، وأعلم بسعادتنا، قد تسأل إنسان: ماذا أفعل؟ يشير عليك ما هو صانعٌ لنفسه، فإن كان إنساناً غارقاً باللذات الحسية يقول لك: افعل ما أفعل، هو ليس خالقك حتى يعلم حقيقة سعادتك، يعطيك تجربته الشخصية، سألت غنياً: كيف أكون غنياً؟ قد يعطيك تجربته الشخصية، أما إذا سألت الله عز وجل أن يهديك إلى سواء السبيل، الله خالق الكون، هو الخبير، هو وحده يعلم ما يسعدك وما يشقيك، لذلك لماذا ينبغي أن نطيع الله؟ لأنه خالقنا، ولأنه الخبير بأسباب سعادتنا، ولأنه الخبير بأسباب شقائنا.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 19]

أي أنك من الممكن أن تقتني جهازاً غالياً جداً، معقداً جداً، له نفع كبير، ولك جار طيب سموح، لكنه غير متعلم، هل تدفع له هذا الجهاز المعقد لإصلاحه؟ مع أنك تحبه، الحب شيء، والخبرة شيء آخر، لا تدفع بهذا الجهاز إلا للوكيل، للخبير، والله تعالى هو الخبير.

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أي أن البشر متساوون، أينما ذهب الإنسان فهو الإنسان، الفطرة هي الفطرة، الصبغة هي الصبغة، الخصائص هي الخصائص، القوانين التي تحكم النفس هي نفسها، أينما ذهبت، لو ذهبت إلى أطراف الدنيا، الإنسان يحب الإحسان، يحب العطاء، يحب النوال، يحب الكمال، يحب الجمال، يحب التفوق، يحب الراحة، يحب أن يكون أخلاقياً، لأن هذه فطرته، فلذلك الإنسان مخلوق من

طبيعة واحدة، يوجد تفاوت بالقدرات، لكن لا يوجد تفاوت بالخصائص، الخصائص واحدة، القدرات متباينة، يوجد إنسان ذاكرته أقوى، ويوجد إنسان طليق اللسان أكثر، يوجد إنسان عنده قوة إقناع، ويوجد إنسان عنده قوة أن يظهر بحجم أكبر من حجمه، القدرات متفاوتة، قال الله سبحانه:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

[سورة فاطر: 1]

التفاوت عند الناس بالقدرات لا بالخصائص :

يوجد إنسان لديه مقياس الذكاء يزيد عن مئة وأربعين، يقاس الذكاء كالتالي: الوسط مئة، العباقرة مئة وأربعون، الأغبياء ثمانون. فالقدرات متفاوتة لحكمة يريدها الله ولصالح الإنسان، أما الخصائص فواحدة، مثلاً أحسنْ لأيّ إنسان في أي مكان من العالم يحببْك، أسئْ له يبغضك، أي إنسان يرتاح إن كان متفوقاً، ويتضايق إن كان متخلفاً، فمعنى قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

نفوس المؤمنين واحدة، الكفر واحد، ملة الكفر واحدة، يوجد كفر مع وثنية، كفار الرومان ككفار اليونان، ككفار الشرقيين، الكفر ملته واحدة، كبر وقسوة، ظلم وعدوان، ودناءة وعبادة الشهوات، تتغير الأسماء فقط، تتغير الأساليب، أما الكفر فهو كفر، والإيمان إيمان، أينما ذهبت المؤمن مؤمن، فالإنسان له خصيصة واحدة، فأنا أرى بناءً على ما جاء في القرآن الكريم أن الناس على اختلاف اتجاهاتهم، ونزعاتهم، وانتماءاتهم، وأجناسهم، ومللهم، ومذاهبهم، ونحلهم، هم رجلان: رجل عرف الله، وانضبط بمنهجه، أحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، وتفلت من منهجه، أساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

المرأة مساوية للرجل من حيث التشريف و التكليف :

هذه الزوجة مِن نِعَم الله أنها إنسان، أنت إنسان، وهي من جنسِك، أنت إنسان لك، فكر وهي إنسان لها فكر، أنت إنسان تحب الحقيقة وهي إنسان تحب الحقيقة، أنت إنسان تسعى إلى الراحة النفسية، وهي كذلك، والله تعالى قال:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى)

[سورة آل عمران: 36]

الخصائص الجسمية مختلفة، والعقلية مختلفة، من دون تفضيل لكن مختلفة، والجسمية مختلفة، والاجتماعية مختلفة، والنفسية مختلفة، ومع ذلك متساويان من حيث التكليف والتشريف والمسؤولية، شيء رائع، متساويان في الشرف، فالنبي الكريم حينما فتح مكة أين ينام؟ ما من بيت

إلا وتمنى أن يكون بيتاً لرسول الله، ماذا فعل فيما ترويه بعض السير قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، وركز راية النصر عند قبرها، ليشعر الناس أن هذا الفتح المبين لها منه نصيب، هي سنده من الداخل، الإنسان إن ترك عملاً عظيماً في الحياة، هذه المرأة التي معه، والتي تخدمه، والتي تصبر عليه، والتي تهيئ له الجو المناسب، تأليف مثلاً للإنجاز، والتي ترضى أن يغيب عنها طويلاً ليقوم بأعمال جليلة، هذه سند من الداخل، النبي ما نسي أن السيدة خديجة مع أنها ماتت هذا الفتح المبين لها منه نصيب، فالمرأة مساوية للرجل من حيث التشريف، ومن حيث التكليف، كلفها بالصلاة والصيام والحج والزكاة، وكلفها بأركان الإسلام، بأن تنطق الشهادتين، وأن تصلي وتصوم، وأن تحج، وكلفها بأركان الإيمان، أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، وجعلها مسؤولة عن أولادها وزوجها:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

إذاً:

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

مرة كنت في مؤتمر فقام أحد المؤتمرين، وألقى كلمة عن هذه الآية، والله أعجبتني الفكرة، لأنها طريفة، قال: ليشكر الإنسانُ اللهَ، لأنه يستيقظ ليجد زوجته بقربه، وأن زوجته إنسان، وليست بضبع مثلاً، هكذا قال: إنسان! لو كانت من جنس آخر فهذا شيء مخيف، إنسان تكلمها وتكلمك، تلاطفها وتلاطفك، تبتسم لها فتبتسم لك.

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

الزواج من آيات الله الدالة على عظمته :

هي إنسان، ولكن من طبيعة ثانية، أنت وإياها تتكاملان، هي تسكن إلى قوتك، وأنت تسكن إلى عاطفتها المتأججة، هي تسكن له لأنه يحميها، وهو يسكن لها، لأنها تلبي له حاجات هو بحاجة إليها.

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

الزواج من آيات الله الدالة على عظمته، لأن الله إذا قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 29]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

نظام الأمومة والأبوة بحدّ ذاته دال على رحمة الله :

يوجد معنى دقيق أرجو أن يكون واضحاً لديكم، كيف يعرفنا الله عز وجل بذاته العلية؟ كيف يعرفنا برحمته؟ من قلب الأم تعرف رحمة الله، تجد امرأةً كل حياتها من أجل أولادها، يسعدها أن يأكلوا، وأن يشربوا، وأن يتفوقوا، وأن يناموا، كل سعادتها بسلامة أولادها، إذاً تمنحهم كل شيء دون أن تأخذ منهم شيئاً، فإذا كان قلب الأم هكذا فكيف الله عز وجل؟ والنبي استغل هذا المعنى حينما سأل أصحابه مرة، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيّاً فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

[البخاري عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

يمكنك أن تعرف رحمة الله من رحمة الأم، يمكنك أن تعرف رحمة الله من رحمة الأب، فنظام الأمومة والأبوة بحد ذاته دال على رحمة الله، لذلك قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

[سورة البلد: 1-3]

الأب لا همَّ له إلا أولاده مستعد أن يقدم كل شيء من أجلهم ـ الأب الطبيعي طبعاً، لكن يوجد آباء نادرون، وحوش ـ مستعد أن يقدم كل شيء من أجل أولاده، هذه هي الأبوة، لذلك حينما قال عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

كل إنسان عمره أكثر من ستين، إن أحصيت ذريته، وجدتها أكثر من الخمسين، عنده ست بنات متزوجات، وكل واحدة منهن عندها أربعة أو خمسة أولاد، مع الأصهار، وأولاده الذكور، وأولاد الذكور، تجدهم في العام الخمسين، وهو حي يرزق، ومن أجل أن يجمعهم كلهم يريد مكاناً كبيراً.

الحكمة من جعل نسبة الرجال أكبر من نسبة النساء :

قال تعالى:

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

لكن يوجد في القرآن إشارات علمية، الشيء المحير أن نسب النساء إلى الرجال نسب دقيقة جداً، دائماً تجد بالمئة خمسة زيادة رجال، لأن الرجل معرض للحوادث والحروب أكثر من النساء، فلو فرضنا أن حرباً جرت بين بلدين، ومات مليون شهيد، لو أحصيت نسب الولادات شيء لا يصدق، أكثرها ذكور، إلى أن ترجع النسبة، مئة وخمسة إلى خمسة وتسعين، هكذا هو التصميم الإلهي، فالرجال أكثر، لأنهم معرضون للأخطار أكثر.

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

هذه الآية أيها الأخوة من أدق الآيات، لولا أن الله أودع في قلب الأب أو الأم محبة هذا الطفل فهل يستطيع الطفل أن يسأل أباه شيئاً؟ طفل في الطريق هل يجرؤ أن يسأل رجلاً: يا عم أعطني ألف ليرة؟! هذا مستحيل، أما من أبيه فيطلب وبإلحاح، وأحياناً يرفع صوته، لأنه موقن أن هناك رحمة، من أودع هذه الرحمة؟!

ثمة قصة رمزية، هكذا ترويها الكتب، لها دلالة كبيرة، سيدنا موسى يمشي في الطريق، رأى أمّاً تخبز على التنور، كلما وضعت رغيفاً قبَّلتْ ابنها، قال: يا رب ما هذه الرحمة؟ قال: يا موسى هذه رحمتي أودعتها في قلب أمه، وسأنزعها! فلما بكى ألقته في التنور!! هل هنالك من أم في الأرض إذا بكى ابنها ألقته في التنور؟ بل تقبِّله، وتضمه، وتخشى عليه من الهواء، لذلك اتق هذا الإله العظيم الذي يحبك، وعلامة حبه لك أنه أودع محبتك في قلب أمك وأبيك.

لك أن تسأل إنساناً لوجه الله لكن دون أن تشركه بالله عز وجل :

والله أيها الأخوة، ما محبة الأب والأم إلا من محبة الله، والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: 39]

أي لو كان لديك أب وأم، وتدللت عليهم، وطلبت منهم، وألححت، وغبت عن المنزل حتى يعطونك حصة، وطالبتهم بقسوة لثقتك أنهم يحبونك، فمن هذا الذي أودع حبك في قلوبهم؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)

لولا أن أودع في قلب الأب والأم رحمة لما سألت أباك وأمك شيئاً، تلاحظ الابن يطلب من أبيه، وقد يطلب من أمه بإلحاح، لأنه واثق أنه سيجاب، لأن الله أودع في قلب الأم والأب محبة هذا الطفل، هذا معنى.

لكن هناك معنى آخر، لك أن تسأل الناس لوجه الله، تقول لشخص: أسألك لوجه الله أن تعطيني، ويوجد أحاديث متنوعة بعضها يؤكد أنه ملعون من سأل بغير الله، بالله، الجواب الدقيق هو أنك إن سألت إنساناً، وظننت أنه مستقل في إرادته عن الله، وأن علاقتك معك مباشرة فهذا شرك، أما إن سألت الله، واتبعت الوسيلة، بأن سألت من يحل هذه المشكلة، وأنت واثق من الله، تسأله أنت دون أن تشركه بالله عز وجل قال: هذا ينبغي، إذاً لك أن تسأل بالله عز وجل مع التوحيد، أما إذا سألت غير الله، ولو سألته بالله مع الشرك فأنت آثم، ولو قلت له: أسألك بالله أن تعطيني. وظنك أنه يعطيك، وأنه قوي، وتركن إلى قوته، وإلى غناه، هذا نوع من الشرك.

للأرحام قراءتان :

قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

الأرحام لها قراءتان:

(وَالْأَرْحَامَ)

1 ـ القراءة الأولى أي اتقوا الله أن تعصوه واتقوا الأرحام أن تقطعوها :

أي واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، والشيء الدقيق أيها الأخوة أن الله جل جلاله جعل ما يسمى بالضمان الاجتماعي على أساس أسري، فأنت مكلف بزوجتك وأولادك، وأمك وأبيك، ويوجد عندنا نظام النفقة في الإسلام نظام دقيق جداً، أي لا بد من إنسان مكلف بالإنفاق على إنسان، إن وجد الأب أو الأم، الأب والأم، والزوج زوج، والابن ابن، والبنت بنت، أحياناً يكون العم، أحياناً يكون الخال، فالله جعل الضمان الاجتماعي أساسه الأسرة، لذلك: واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، لذلك عَن الزُّهْرِيِّ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ))

[مسلم عَن الزُّهْرِيِّ]

وهناك في الأحاديث الشريفة ما يزيد عن ثلاثين حديثاً صحيحاً كلها تعد قاطع الرحم بالنار، بل إن الرحم مشتقة من اسم الله الرحمن.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)

أن تعصوه، واتقوا:

(وَالْأَرْحَامَ)

أن تقطعوها، والذي يصل رحمه يزيد الله في عمره، بمعنى من معاني الزيادة، أي يجعل عمره غنياً بالأعمال الصالحة.

أيها الأخوة، صلة الرحم تعني أن تزور أرحامك، وبالتعريف الدقيق للأرحام: مطلق أقربائك، من دون تدقيق، أقرباء الأم والأب، مطلق أقربائك، أن تزورهم، وأن تتفقدهم، وأن تعينهم، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، لأن الله عز وجل قال:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

إذاً أنت مكلف أن تزورهم، وأن تتفقد أحوالهم، وأن تمد لهم يد العون، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، فاتقوا الأرحام أن تقطعوها.

2 ـ القراءة الثانية لك أن تسأل بالله وبالأرحام :

وهناك قراءة ثانية:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)

والأرحامِ: بالكسرة، لك أن تسأل بالله، ولك أن تسأل بحكم قرابتك من فلان، نحن أخوان من أم واحدة، أي لك أن تسأل بالله وبالأرحام، هذه قراءة، ولك أن تتقي الله أن تعصيه، والأرحام أن تقطعها.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

أحاديث شريفة تؤكد أن صلة الرحم واجبة في الإسلام وجوباً عينياً :

أيها الأخوة، روى الشيخان البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

قد تجد إنساناً فقيراً له أقرباء أغنياء، ولفقره يقطعونه، تجده متألماً أشد الألم، لو أن هؤلاء الأقرباء الأغنياء أو الأقوياء أطلوا عليه من حين إلى آخر لملؤوا قلبه سعادة، والله حدثني أخ قال لي: لي أرحام لا أعرفهم أبداً، فأخذت بسنة النبي أن أزورهم، وزرتهم في العيد، وعرفتهم على نفسي، هم لا يعرفونه إطلاقاً، فهؤلاء من أهل الغنى ردوا له الزيارة، وأقسم بالله العظيم أنه ما قصد من زيارتهم إلا تطبيق السنة، هؤلاء محسنون، رأوا بيتاً مظلماً تحت الأرض لا يصلح للسكنى، قال له: اذهب وابحث عن بيت، له مواصفات جيدة، بعد حين وجد بيتاً بمبلغ يقارب المليونين والنصف

مليون، وأعطوه الثمن، ونقلوه من هذا البيت الذي هو كالقبر تماماً إلى بيت، قال لي: والله ما قصدت إلا أن أطبق سنة النبي، أنت موكل بأقربائك بالدرجة الأولى، بمعونتهم وهدايتهم:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

((الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: إِنَّ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ))

[مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ عن جبير بْنِ مُطْعِمٍ]

أي قاطع رحم. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

لذلك فيما يروى عن رسول الله قوله صلى الله عليه وسلم مما ورد في الأثر:

((أمرني ربي بتسع خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، القصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأن أعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

في حديث رابع عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((..وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ...))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

كل هذه الأحاديث تؤكد أن صلة الرحم واجبة في الإسلام وجوباً عينياً. لذلك:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

أن تقطعوها.

الإنسان تحت علم الله وسمعه وبصره في كل حركاته وسكناته :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

لاحظ لو أنك أحسست أنك مراقب، ماذا تفعل؟ تحاسب نفسك على الكلمة، لو أنك مراقب عبر الهاتف لا تقول كلمة لها معنيان، تحتاط، لا تقول روشيش بل تقول: رشاش ماء، لأن الأولى تفهم بمعنى آخر، إذا كنت مراقباً تضبط كلامك وحركاتك وسكناتك، وتضبط سيرك، لا تمشي على رصيف في سفارة، إذا كنت مراقباً من إنسان فكيف من الواحد الديان؟

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

تحت علم الله وسمعه وبصره، اعملوا ما شئتم، هذه الآية منهج:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع الحديث عن آية ثانية.

***

س: هل تجبر الفتاة على تغطية الوجه؟

ج: طبعاً إن كانت الفتنة قائمة في الوجه، لأن أجمل ما في الفتاة وجهها.

س: هل تسقط صلة الأرحام عن المرأة المتزوجة إذا منعها زوجها؟

ج: إن كان الزوج مؤمناً، وفي هذا البيت تفلت وعري واختلاط، وإن بعث بزوجته إليهم فسيراها ابن خالتها، وابن عمتها، وسيضحكون معها ويمزحون، والبيت غير منضبط، والزوج منضبط، فإنْ منَعَها فلا مانع، بل الأولى أن يمنعها، ودع خيراً عليه الشر يربو، ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(02-69): تفسير الآيتان 2-3، أموال اليتيم وتعدد الزوجات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-03-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف اليتيم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، في الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)

اتقوا أن تعصوه، اتقوا أن تخالفوا أمره، اتقوا أن تحيدوا عن صراطه، ومن تفصيلات هذا الانحراف وهذا التقصير موضوع اليتامى.

اليتيم أيها الأخوة من فَقَدَ أباه أو أمه أو فَقَدَ كليهما، والنبي عليه الصلاة والسلام يبين أنه لا يتم بعد الحلم، ولو أخذنا نص التعريف أن كل من فقد أباه أو أمه، أو فقد كليهما يتيم فكلُّنا أيتام، أو معظمنا أيتام، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى أنه لا يُتْمَ بعد حلم، من كان بالغاً لا يسمى يتيماً، وشيء آخر، حينما يقول الله تعالى:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

[سورة الشعراء: 46]

لا يمكن لساحر أن يسجد، فإذا سجد لم يكن ساحراً، بل هو عابد لله، يعني ألقي من كانوا من قبل سحرة، فإذا تحدث الله عن الأيتام فهم مَن كانوا أيتاماً سابقين.

رعاية اليتيم واجب على كل مسلم :

أيها الأخوة الكرام، في قوله تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[سورة الضحى: 9]

اليتيم فَقَدَ أباه، والأب أكبر دعم للإنسان.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وإخوانكم وَأَزْوَاجُكُمْ)

[سورة التوبة: 24]

بدأ بالأب لأنه موطن اعتزاز، وموطن قوة، والأب يرعى ابنه، أودع الله في قلب الأب رحمة تكفي كي يرعى أولاده، لذلك ربما لا تجد في القرآن وصية للآباء بأبنائهم، لأن رعاية الابن طبع في الإنسان، أو جزء من طبعه، فكأن الله سبحانه وتعالى من أجل أن تستمر الحياة، ومن أجل أن يعتني بالصغار، أودع في قلب الآباء والأمهات ابتداءً محبة أولادهم، فالأب المؤمن وغير المؤمن، والأم الفاسقة وغير الفاسقة، أيّة أم وأيّ أب في الأصل، وهذا في الأعم الأغلب عنده رغبة قوية أن يرعى أولاده، أما إذا فقد الابن أباه بموت أو شيء من هذا القبيل فقدْ فَقَدَ الدعم، فَقَدَ الإمداد، فَقَدَ الرعاية، فَقَدَ التوجيه، فَقَدَ العطف، فَقَدَ الحنان، فَقَدَ الإنفاق، لذلك أنت مكلف أن ترعى اليتيم، وأن تقدم له جزءاً مما فقدَ من حنان الأب، وهذا واجب اجتماعي، وواجب على كل مسلم، وبيت فيه يتيم مكرم هذا بيت يحبه الله عز وجل، لذلك ينبغي أن ترعى اليتيم، فإن لم ترْعَ اليتيم فأنت آثم، فإن آذيت اليتيم فأنت مجرم.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[سورة الضحى: 9 - 10]

حضنا الإسلام والنبي الكريم على رعاية اليتيم واستثمار ماله بالمعروف :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ*فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1 - 2]

أي يضربه ويؤذيه، وكأن الله سبحانه وتعالى أظهر أن من أشنع الأعمال عند الله أن تدفع يتيماً، أو أن تؤذيه، بل إنك إن لم تقدم له شيئاً فأنت آثم، فكيف إذا آذيته، فكيف إذا بالغت في إيذائه، لكن هذا اليتيم بعد أن يبلغ سن الرشد لا يبقى يتيماً، بل من حقه أن يأخذ ماله، والأموال كما تعلمون قد يرثها اليتيم عن أبيه، لكن لأنه صغير لا يستطيع أن يدير هذا المال فقد نظم الشرع نظاماً رائعاً، أن لكل يتيم وصيّاً يتولى أمره، وفي الأعم الأغلب ينبغي أن يكون هذا الوصي من أقربائه، ممن عرفوا بالصلاح والاستقامة والعدل والرحمة والورع، فما من وصي إلا وهو من الأقرباء إجمالاً، ويبالغون في هذا فيضعون ناظراً للوصي، وصي ومن يراقب هذا الوصي، لحرمة مال اليتيم، لكن هذا اليتيم لا يعطى ماله، لأنه لا يستطيع أن يديره، وكذلك السفيه الكبير، السفيه الكبير أيضاً يحجر على أمواله، فالذي لا يستطيع إدارة أمواله، أو الذي ينفق ماله إنفاقاً عشوائياً فيه إتلاف للمال، فإذا كان كبيراً فهو سفيه، والسفيه محظور عليه أن يدير ماله، يلقى ما يسمى بالحجر على تصرفاته، فلا يستطيع أن يبيع، ولا أن يشتري، والصغير كذلك لضعف إدراكه لا يستطيع، أما إذا كبر هذا اليتيم

فينبغي أن يدفع إليه ماله، أما إذا كان صغيراً يدفع إليه مال كي يأكل منه، وكي يكتسي منه، فمن كان دون سن الرشد ينبغي أن يُدفع إليه مال من ريع ماله.

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

[سورة النساء: 5]

ينبغي أن تنفق عليه من ربح ماله لا من أصل ماله، كي تنمي ماله، والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن أننا إذا لم نستثمر مال اليتيم تأكله الزكاة، فلا بد من دفع زكاة مال اليتيم، فإن لم يكن في الاستثمار أكلته الزكاة، إذاً كأن النبي عليه الصلاة والسلام حضنا على أن نستثمر مال اليتيم، بالمعروف طبعاً، إذاً اليتيم ما دام صغيراً، وله وصي معروف بالصلاح والورع والتدين والحرص والأمانة والنزاهة هذا الوصي ينبغي أن ينفق على اليتيم من ريع ماله، هذا هو الصواب، فإن لم يكن، وأنفق من ماله المال صار في طريق النفاذ، وهذه مشكلة، وأكبر خسارة أن يخسر الإنسان رأس ماله، هنا أمر إلهي يقول الله عز وجل:

(وَآتُوا الْيَتَامَى)

بعضهم قال: إذا كان اليتيم دون سن البلوغ معنى الإيتاء هنا أن تنفقوا عليهم نفقة تصلح معاشهم، يأكلوا ويشربوا ويلبسوا، أما إذا بلغوا سن الرشد ينبغي أن تمتحنوا هؤلاء اليتامى، أن تمتحنوا خبراتهم في الحياة، أن تمتحنوا دقتهم في التعامل، أن تمتحنوا عقلهم الراجح.

من بنود التقوى حسن التعامل مع مال اليتيم :

قال تعالى:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

[سورة النساء: 6]

وقال بعض الفقهاء: إذا بلغ اليتيم خمساً وعشرين سنة ينبغي أن يأخذ ماله كله من دون قيد أو شرط، ما لم يكن سفيهاً أو مجنوناً، إذاً كأن هذه الآية بعد الإيجاز الأول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ) تفيد أن من بنود التقوى حسن التعامل مع مال اليتيم، ولحكمة أرادها الله عز وجل هناك من يموت في سن مبكرة، هناك من يموت في الحرب أحياناً، هناك من يموت موتاً طبيعياً، وله أولاد صغار، هؤلاء الصغار من يرعاهم؟ من ينفق عليهم؟ من يدير شؤونهم؟ لا بد من أن يعين القاضي وصياً عليهم بمثابة أبيهم تقريباً، ولهذا الوصي أيضاً من ينظر في أمره ويمتحن فعله فهنا الآية:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ)

إن كان دون سن الرشد ينبغي أن تنفق عليه، وإن بلغ سن الرشد ينبغي أن تمتحنوا هؤلاء اليتامى، امتحان رشدٍ، وامتحان عقل، وامتحان دقة،

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

إلا إذا كانوا سفهاء، لكن ما دام الله عز وجل قد وجهنا أن ننفق عليهم من ريع أموالهم، إذاً الأولى أن نستثمر أموالهم، العلماء لهم وقفة لطيفة متأنية، أنه في الأعم الأغلب إذا كان الذي يستثمر أموال اليتامى غنياً ينبغي أن يستعفف عن أن يأخذ شيئاً مقابل هذا الاستثمار، أما إذا كان فقيراً محتاجاً فله أن يأكل بالمعروف، والأكل بالمعروف حدده العلماء بالقاعدة التالية؛ أن يأخذ أجر المثل أو حاجته أيهما أقل، لو أن يتيماً وضع مع إنسان مليون ليرة، وكان ريع هذا المبلغ مئة ألف في العام، وكان هذا الذي يدير أمواله يكفيه خمسون ألفاً فرضاً، الأرقام لا تعني شيئاً، لو أن هذا الذي يدير أمواله يكفيه خمسون ألفاً ينبغي أن يكتفي بالخمسين، إن كان الربح أربعين ألفاً، وهو محتاج إلى خمسين ينبغي أن يكتفي بالأربعين، يأخذ حاجته، أو يأخذ أجر المثل أيهما أقل، هذه قاعدة رائعة في أخذ الأجر على استثمار أموال اليتامى، وكل هذه المعاني لفظها الفقهاء في قوله تعالى:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

على الإنسان أن يتعامل مع مال اليتيم وكأنه ماله من أجل حفظه وصيانته :

تروي كتب التفسير أنه في الجاهلية كان هناك عادات سيئة، منها أن وصي اليتيم يأخذ بقرته الجيدة، ويعطيه بقرةً هزيلة مكانها، يأخذ شاةً حلوباً، ويعطيه شاةً عجفاء مكانها، يعني يأخذ من مال اليتيم جيده، ويدفع إليه من ماله سيئه، لأن المشكلة أن الوصي هو وصي، وأمره نافذ، وهو موكل عن اليتيم فقد يبيع له بضاعته بأبخس الأثمان، إذا كان وصي اليتيم تاجراً فاشترى له من بضاعته، من نوع بضاعته لهذا اليتيم، هو وصي، هو وكيل، لو أنه اشتراها بثمن بخس، يعني اشترى من نفسه، هو يمثل التاجر ويمثل الوكيل في آن واحد، فربنا عز وجل يقول: (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) أن تأخذوا أطيب أموال اليتيم، وأن تدفعوا بدلاً منه أسوأ أموالكم، هذا أيضاً ممنوع، هذا يذكرني بقوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 19]

قال بعض العلماء: ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، لو طبقنا هذه القاعدة ليست الوصاية على مال اليتم تعني عن تمتنع عن إيقاع الأذى بماله، بل أن تتحمل بعض المتاعب من أجل صيانة ماله، ومن أجل تثمير ماله، ولا تنسوا أيها الأخوة الآية الكريمة الرائعة:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة: 188]

الآية فيها ملمح رائع، لا تأكل مالك، مالي هو، لمَ لا آكله؟ هو في الحقيقة مال أخيك، وإنما وصف بأنه مالك من أجل أن تتعامل معه وكأنه مالك من حيث حفظه وصيانته، يجب أن تتعامل مع مال

اليتيم، وكأنه مالك من أجل حفظه وصيانته، أو من زاوية حفظه وصيانته، أوضح مثل قد تعير إنساناً سيارتك، تقول له: اجعلها كأنها سيارتك، من أي ناحية؟ بالتملك؟ لا، من حيث العناية بها، والحفاظ على جاهزيتها، إذاً:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

يعني هذا المال الذي هو مال اليتيم هو في الحقيقة مالك، من زاوية أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله بالحرام من باب أولى.

إن لم تحرص على مال أخيك نقص هذا المال وصار أخوك عبئاً عليك :

شيء آخر: أنك إذا حفظت مال أخيك نما هذا المال، وكان أخوك مكتفياً، فإن لم تحرص على مال أخيك نقص هذا المال، وصار أخوك عبئاً عليك، المؤمن العاقل يرى في قوة المؤمنين قوة له، ويرى في ضعفهم ضعفاً له، فإذا قواهم قوي معهم، وإذا أضعفهم ضعف معهم، إذاً

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

لأنك أنت الوصي، وأنت المشتري، وأنت البائع، وأنت المجيب، وأنت القابض، فلذلك هناك خطورة أن تأخذ من أمواله ما ليس لك

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)

تأكلوا هنا بمعنى تضموا، لا تضموا أموالهم إلى أموالكم، أي أنتم هنا أغنياء، وكأن الله سبحانه وتعالى نهانا عن أشنع صورة من صور الاحتيال، أن تأكل مال يتيم وأنت غني، هذه صورة لا توصف، أن تأكل مال اليتيم الضعيف الفقير وأنت غني.

(تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

إنه كان إثماً كبيراً، الحوب هو الإثم، أي تأثموا إثماً كبيرا، ليس معنى ذلك أن تأكل ماله إذا كنت فقيراً، لأنّ الله جل جلاله قد يأتي بالحالة الدنيا لينهى عما فوقها.

محرم أن تجعل من مال اليتيم مجساً للسوق أو ذريعة تحفظ بها مالك :

قال تعالى:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

[سورة الإسراء: 23]

هذه حال الدنيا، كلمة أف يحرم أن تقولها لأمك وأبيك، طبعاً أن تقسو عليهما بالكلام من باب أولى، أن تدفعهما بيدك من باب أولى، هنا معكوسة، هنا جاء الشارع الحكيم بأشنع صورة أن تأكل ماله،

وأنت غني، طبعاً هذه شناعة ما بعدها شناعة، (تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)، أي لا تضموا أموالهم إلى أموالكم، المشكلة أن الطفل الصغير ليس في قدرته أن يحاسبك، يعني مثلاً ماذا يفعل بعضهم؟ معه أموال يتيم، هو تاجر، البضاعة غير المعروفة ربحها غير معروف، يا ترى تباع أو لا تباع؟ هذه في علم الله، يستثمر بها مال اليتيم، فإن خسر ماذا يقول؟ سبحان الله! هذا قدر الله وترتيبه، وإن ربح جس بها السوق، أدخل ماله الذي يملكه هو في هذه الصفقات، فجعل مال اليتيم ذريعة جس بها السوق، فإن ربحت هذه الصفقة أدخل ماله الأساسي، وإن لم تربح، يعني عرف على حساب غيره، عرف نوع هذه البضاعة، ومدى صلاحيتها، ورواجها على حساب اليتيم، هذا المعنى أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: ولا تجعل ماله دون مالك، تجس به السوق، فإن ربحت هذه الصفقة أدخلت مالك الأساسي، وإن لم تربح اعتذرت بالقضاء والقدر، لكن ما الذي ينبغي أن تفعله في مثل هذه الحالة؟ ينبغي أن تستثمر مال اليتيم في صفقة ربحها شبه مضمون، كل تاجر عنده بضاعة تباع بشكل مستمر وأرباحها ثابتة، وليس فيها إشكال إطلاقاً، ينبغي أن تستثمر مال اليتيم في مثل هذه الصفقات، الصفقات التي تباع بوقت قصير، وأرباحها مجزية، من يعرفها؟ الذي يستثمر يعرفها، لذلك محرم أن تجعل من مال هذا اليتيم مجساً للسوق، أو ذريعةً تحفظ بها مالك، ولا تجعل ماله دون مالك،

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

إنه كان إثماً كبيراً، هذه القضايا المالية.

وهناك تفاصيل في كتب الفقه، كيف يمتحن اليتيم؟ وكيف يدفع له ماله؟ وكيف على وصي اليتيم أن يُشهد على ماله الذي أخذه شهوداً عدولاً؟ وكيف ينفق على اليتيم قبل أن يبلغ سن الرشد؟ كيف ينفق؟ مستوى الإنفاق؟ حجم الإنفاق؟ كيف يعامل هذا اليتيم؟ كيف يؤدب هذا اليتيم؟ أيضربه؟

((قال رجل: يا رسول الله إن في حجري يتيما أفأضربه؟ قال: نعم، مما كنت تضرب منه ولدك))

[رواه أبو يعلى من حديث الحجاج بن أرطاة عن عبد الملك بن رزين عن بلال]

إذا ارتكب ولدك إثماً يقتضي أن يؤدب فينبغي أن تؤدب هذا اليتيم، الآن في قضية اجتماعية دقيقة جداً مرتبطة بهذا الموضوع، أنت قريب وتحت وصايتك يتيمة، أعجبك جمالها، ولك أن تتزوجها، أو أعجبك وفرة مالها، ولك أن تتزوجها، من هو الذي يبت في قضية زواجها؟ أنت، أنت وكيل عنها، أنت وصي عليها، وأنت الطرف الثاني في آن واحد، فما الذي يحصل؟ عندك يتيمة أعجبك حسنها، أو عندك يتيمة أعجبتك أموالها، فأنت الذي أجبت، وأنت الذي قبلت، وأنت زوجت نفسك من هذه اليتيمة، من الذي يعرف ما إذا ظلمتها أو لم تظلمها؟ الله جل جلاله، أعطيتها حقها أعطيتها مهر المثل، إن كنت طامعاً في مالها، عاملتها كزوجة، أم أنك طمعت بمالها وأهملتها كزوجة.

بعض المذاهب منع أن يبيع الإنسان نفسه :

قال الله عز وجل :

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

أي إن كانت عندك يتيمة، وأنت وصي عليها، وأردت أن تتزوجها هناك مزلق خطير أن تظلمها، إما بعدم إعطائها المهر الذي يناسبها، والذي يكافئ مستواها، أو بعدم التفاتك إليها كزوجة إذا كنت طامعاً في مالها، هذه ماذا تتمنى؟ تتمنى زوجاً يحبها، ويحترمها، ويكرمها، وإن توافر هذا في الوصي تتمنى أيضاً مهراً يتناسب مع قدرها، فحينما يبيع الإنسان نفسه هنا في مشكلة كبيرة جداً، أضرب لكم مثلاً يوضح هذه الفكرة، لو أن لك قريبة وضعت معك مالاً للاستثمار، وأنت عندك معمل نسيج، خبرتك جيدة في الخيوط، فهذه القريبة أعطتك مبلغ من المال بقصد أن تستثمره، وأن يكون الربح بينكما، اشتريت به خيطاً، في وقت ما أنت بحاجة إلى هذا الخيط كصاحب معمل نسيج، أنت الآن شخصية مزدوجة، أنت وكيل هذه القريبة التي وضعت معك مالاً للاستثمار وأنت طرف آخر في شراء هذه الصفقة كصاحب معمل، ما الذي يمنع أن تشتري هذه البضاعة بثلثي قيمتها، التي أعطتك المال لا تعلم بالأسعار، وضعته عندك ووثقت بأمانتك، فأنت حينما تبيع نفسك أو تشتري من نفسك هناك مزلق خطير، لذلك بعض المذاهب منع أن يبيع الإنسان نفسه، ممنوع، لا ينعقد هذا البيع ما دمت أنت المشتري، وأنت البائع، فهناك مزلق خطير جداً؛ أن تشتريها بأبخس الأثمان، أو إن بعتها لهذه المستثمرة أن تبيعها بأغلى الأثمان، تشتري بأبخس وتبيع بأغلى، لذلك بعض المذاهب منع أن يبيع الإنسان نفسه، لكن بعض المذاهب الأخرى قالوا: لو أنك أردت أن تبيع هذا الخيط الذي هو لقريبة لك تستثمر عندك مالها، لو سألت أسعار الخيط بالسوق الكيلو بمئة ليرة، وكتبت أن سألنا فلاناً، سألنا فلاناً، سألنا فلاناً، الكيلو بمئة ليرة، وأنت اشتريت منها بمئة وخمس ليرات، في معك استقصاء، معك معلومات مسجلة، وأنت ورعاً ودفعاً للشبهة اشتريت بأغلى مما ينبغي، ما في مشكلة، طبعاً سقت هذا المثل لأنه دقيق جداً، وهذا اليتيم الذي بيدك ماله هذه حالة مشابهة تماماً، أنت البائع وأنت المشتري، أن المجيب وأنت القابض، إذاً:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

إن رأيت أن هذه اليتيمة إذا تزوجتها هضمت حقها، أو إن رأيت أن هذه اليتيمة إن تزوجتها ربما لن تعاملها كزوجة، لأنه لا يعجبك حسنها، لكنك طمعت بمالها، فأنت إذاً تظلمها، ماذا ينبغي أن تفعل؟ ورعاً أن تتزوج غيرها ممن لها ولي، ممن يحاسبك إذا قصرت، ممن يطلب منك إذا أقررت.

الله عز وجل سمح بالتعدد ولم يطالب ببيان السبب بل طالب بالعدل :

قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)

والحقيقة بموضوع التعدد، موضوع خاض فيه أناس، فالذين عددوا يتوهمون أن التعدد هو الأصل، والذين لم يعددوا يظنون أن تبقى على واحدة هو الأصل، والحقيقة الدقيقة أن التعدد ليس إلزامياً، لكن الله سمح به، كلام دقيق واضح جداً، وسُمح به لأسباب أساسية في الحياة، لكن الشيء الذي يدهش أن الله سمح به، ولم يطالبك ببيان السبب، بل طالبك بالعدل، فلو أن الله سمح لك بالتعدد، وطالبك ببيان السبب لاضطررت أن تفضح نفسك، ومن أشد العلاقات خصوصية ما كان بين الزوجين، فقد تقول: إنها لا تحصنني، اتهمتها، وقد تقول: إنها مريضة، وربما لا تكون كذلك، فحينما سمح الله لنا بالتعدد أعفانا من ذكر السبب، ولكن طالبنا بالعدل التام.

ذكرت لكم سابقاً أن برنامجاً حول التعدد، بني هذا البرنامج على أسئلة لكبار المعنيين بهذه الأمر في الشرق، فجاء سؤال إلى أستاذة في الجامعة تسأل عبر الهاتف عن رأيها بالتعدد، بالفعل كانت إجابتها رائعة، قالت: كيف أدلي برأي في التعدد، وقد سمح الله به؟ خالق السماوات والأرض سمح بالتعدد، ذلك أنه في دين الإسلام ليس هناك زوجة وخليلة، ليس هناك زوجة وعشيقة، ليس في الإسلام إلا زوجة، إنها علاقة واضحة وضوح الشمس، تكون تحت ضوء النهار دون خوف ولا وجل، ولا تستّر ولا سرية ولا كتمان، الزواج من السنة أن يشهر، وهذا الذي يفعله الأزواج يوم عرسهم يشهرون هذا الزواج بأساليب عديدة، فنحن ليس في الإسلام شيء نستحي أن نفعله علناً، فإذا كان هناك أسباب تقتضي أن يكون لهذا الزوج زوجة ثانية، لو أن الأولى لا تنجب أنلقيها في الطريق؟ لا، نبقيها، ونعاملها أكرم معاملة، ونبحث عن زوجة تنجب، لو أن هذه الزوجة مريضة نلقيها في الطريق لأنها مريضة؟ لا، نبقيها أكرم زوجة، ونبحث عن زوجة صحيحة، هناك أسباب كثيرة.

العدل التام بين الزوجات لا العدل المطلق :

في أيام الحروب قد يفقد بلد مليون شهيد، فصار في نقص بالرجال، فهل يعقل أن تبقى امرأة لرجل فقط، ما الذي يمنع من التعدد في أزمات الحروب؟ فثمة أمراض، وعقم، وعدم إحصان، في أسباب كثيرة، لكن عظمة الشرع أعفتك من بيان السبب، وأوجبت عليك العدل التام، والعدل التام أن تعدل بين الزوجتين، أو بين الثلاثة، أو بين الأربعة في الإنفاق، وأن تعدل في المنزل، في البيت، وأن تعدل في الوقت، وقت واحد، ليلة بليلة، ليلتان بليلتين، وبيت في مستوى واحد، وبيتان في مستوى واحد، ونوع الإنفاق واحد، أما حينما يشترط الزوج ألاّ ينام معها إطلاقاً، يأتيها من حين لآخر

ظهراً، هذا مجانب للعدل، امرأة تتمتع بزوجها معها طوال الليل ومع أولادها، وامرأة لا يستطيع إلا أن يكون عندها ساعة في النهار، هذا ليس من العدل، لذلك طالبنا الشرع بالعدل التام، ولم يطالبنا بالعدل المطلق، المطلق في الميل، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))

[رواه الإمام احمد وأبو داود والدارمي عن عائشة]

قلبك ليس بملكك، قد تميل لمن لها كلام طيب، من لها شكل مقبول، أو شكل جيد، من لها رقة، وقد تنفر ممن لها قسوة في حديثها، وقد يعلو صوتها على صوتك، فأنت لم تطالب بالعدل في الميل، لكنك طولبت بالعدل في الإنفاق والمسكن والوقت لذلك:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

يعني تزوجت هذه اليتيمة فظلمتها من حيث المهر، أو ظلمتها من حيث الإنفاق، أو ظلمتها من حيث الحب، فإن خفت أن تحملك وصايتك لهذه اليتيمة على أن تظلمها فَدَعْها، وخذ من تأخذ حقها منك بالتمام والكمال.

قد يقول قائل: لو أن إنساناً توفي أخوه، فهؤلاء البنات هن بناته حكماً، بحكم وصايته عليهن، وخشي من التردد على بيت أخيه بعد موته، فيسيء الناس الظن به، ما الذي يمنع أن يتزوج أمهم؟ لا مانع، بالعكس هذا أولى، يعني حسماً للقيل والقال، هو مكلف أن يرعى هؤلاء البنات وأمهم أجنبية بالنسبة إليه، فإن تزوجها حل مشكلة كبيرة،

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)

هذا من يقول: إن مثنى اثنتان، وثُلاثاً ثلاث نسوة، مما يساوي خمساً، وإنّ رباعاً أربعُ نسوة فصاروا تسعاً، هذا كلام لا أصل له إطلاقاً، لك أن تتزوج امرأتين، أو ثلاث نساء، أو أربعاً.

من لم يأنس من نفسه العدل في معاملة زوجتيه فعليه أن يكتفي بواحدة :

تروي بعض الكتب أن امرأة جاءت سيدنا عمر تشكو زوجها بلطف بالغ، قالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي صوام بالنهار قوام بالليل، يبدو أن سيدنا عمر كان مشغولاً، فقال لها: بارك الله لكِ بزوجك، فعنده أحد الصحابة، قال: يا أمير المؤمنين، إنها لا تمدحه، إنما تشكوه، ولكن بأدب، فَحَكَّم بينها وبينه، وألزمه أن يتفرغ يوماً لها كل أربعة أيام، لو أنه تزوج أربعاً فلها حق في يوم، فحكم لها أن يكون معها لا صواماً ولا قواماً في هذه الليلة، وحينما رأت السيدة عائشة امرأة عثمان بن مظعون في صورة مزرية تهمل نفسها، سألتها، قالت: ما لي وله، هو صوام قوام، فاستدعاه النبي، وقال له: يا عثمان أليس لك بي أسوة؟ إنني أصوم وأفطر، أنام وأقوم، فتوجه عثمان بن مظعون إلى زوجته، وأعطاها نصيباً من اهتمامه، فجاءت في اليوم التالي عطرةً نضرة، فسألتها أخواتها، قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

أيها الأخوة، من يظن نفسه لا يعدل بين زوجتين ينبغي أن يبقى على واحدة، لأن هذا ظلم شديد، ويأتي يوم القيامة ليحاسب عن عمله حساباً عسيراً، وأنا والله أصدقكم أن عدداً كبيراً لا يطبق هذه التعليمات، واحدة مهضومة الحق، والثانية تأخذ كل شيء، وأكثر الذين عددوا ولم يعدلوا ندموا أشد الندم، ودائماً يشعر أنه ظالم، فإن استجاب إلى ضغوط الأولى أو الثانية وقع في ظلم الأخرى، فمن لم يأنس من نفسه العدل في معاملة زوجتيه فعليه أن يكتفي بواحدة.

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)

أي ألا تنحرفوا وتظلموا وتأتوا يوم القيامة في شكل محاسَبين عند الله أشد الحساب.

في درس آخر إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات وهي قوله تعالى:

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(03-69): تفسير الآيتان 4-5، الزواج والأسرة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

عقد الزواج هو أقدس عقد على الإطلاق :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة، وهي قوله تعالى:

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

أيها الأخوة الكرام، إن أقدس عقد على وجه الأرض عقد الزواج، لأن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الذكر والأنثى جعل العلاقة بينهما من خلال الزواج فقط، وليس ثمة علاقة أخرى، علاقة الذكر بالأنثى علاقة زواج، لا علاقة صداقة، ولا علاقة مخادعة، ولا علاقة عشق، ولا علاقة تسلية، هناك عشرات العلاقات الآن في جاهلية القرن العشرين علاقات بين الذكر والأنثى لا على أساس الزواج، على أساس التسلية أحياناً، أو على أساس الحب، على أساسٍ ما أنزل الله بها من سلطان، لأن القناة الوحيدة النظيفة في العلاقة بين الجنسين هي الزواج، إذاً عقد الزواج هو أقدس عقد على الإطلاق.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

[سورة النساء: 21]



ما يتاح للزوج ليرى من زوجته لا يتاح لأقرب الناس إليها، أبيها، وأخيها، ولا ابنها، ولا أي إنسان آخر يتاح له من امرأة ما يتاح للزوج من زوجته، بل إن بعض العلماء، وهذا رأي الجمهور أن الزواج إن لم يكن على التأبيد فهو زنى، لأن الزواج المؤقت فيه غش للمرأة، يمكن أن تطلق لأسباب يقبلها الله منك، لكن حينما تعقد العقد، وفي نيتك أن يكون الطلاق بعد حين هذا خداع، وهذا غش للمرأة، لكن حالة العالم اليوم لا تصدق، أحد الإحصاءات في أمريكا أن تسعين بالمئة من حالات الزواج من غير عقد، ولا اتفاق، ولا ورق، ولا تسجيل، إنما هي مساكنة تستغل كزوجة، وتلفظ في أية لحظة، وتركل بالقدم

في أي ثانية، فوضى، لذلك الانهيار في المجتمعات الغربية ليس له حدود، لكننا ولله الحمد مع بقية الدين التي أنعم الله بها علينا، مع بقية الوفاء، بقية الحياء، ينعم العالم الإسلامي بأسر متماسكة في الأعم الأغلب، وكلما قلد الغرب انحلت هذه الأواصر.

يقاس تماسك المجتمع وقوته بتماسك أسره :

حدثني أخ قاضٍ شرعي أن نسب الطلاق في بلاد المسلمين تقل عن خمسة عشرة بالألف، بينما في بعض البلاد تزيد عن خمسة وستين في المئة، نسب الخيانة الزوجية في بعض البلاد تزيد عن سبعين في المئة من حالات الزواج، فالمجتمع يقاس تماسكه وقوته بتماسك أسره، يعني شاءت حكمة الله أن يكون هذا المجتمع، هذا الصرح الكبير مؤلف من خلايا، الأسرة هي الخلية لذلك أي نظام يرعى الأسرة، ويقويها، ويدعمها ويزيل العقبات أمام إنشائها هو نظام يسهم في تقوية المجتمع، وأي نظام يسهم في تحلل الأسرة، وفي تفككها، وفي انحرافها هو نظام يهدم المجتمع، وكأنني سمعت أن أقوى رئيس في العالم قال: هناك خمسة أخطار تهدد أمريكا، قبل سنوات؛ أنا تصورتُ الصين أكبر تجمع بشري في الأرض، تصورت الاتحاد الأوربي، إنه تفكك الأسرة، إن أكبر خطر يهدد أمريكا تفكك الأسرة، لذلك لا زلنا بخير، لا زالت أسرنا بخير هذه بقية الدين، بقية، لأن هذه الأسرة هي الخلية الأولى في المجتمع، تماماً كالحجر في حائط كبير، فكلما تضعضعت أحجار الأساس انهار البناء، لذلك أيها الأخوة، وأنا أقول لكم بكل وضوح: إن العالم الغربي يسعى لا إلى أن ينتصر علينا عسكرياً، هذه قد تتم له أحياناً، ولكن يسعى إلى أن ينتصر علينا ثقافياً، بمعنى أن يهدم قواعد الأسرة المبنية على الشرع، لعلي ذكرت هذا من قبل، لكن لا بأس أن أعيده عليكم.


الأسرة عماد المجتمع

سفير أقوى بلد في العالم من تقاليد تعيينه كسفير أن يقام حفل في وزارة الخارجية، يحضره وزير الخارجية، ويعطيه أوراق اعتماده التي سوف يقدمها إلى رئيس البلد الذي يذهب إليه، هذا السفير معين في بوخارست في رومانيا، ومن تقاليد هذا البلد أن كل احتفال لا بد أن تكون الزوجة مع زوجها إلى جانبه، لتشهد أيامه العظيمة، هذا السفير وفي وزارة الخارجية، وفي وجود وزير الخارجية يأتي إلى الحفل مع شريكه الجنسي، ليس مع امرأته، لكن مع شريك جنسي، فحينما يصل

المجتمع إلى هذا المستوى فاقرأ على الحضارة السلام، هي قوية جداً، لكنها في ميزان القيم في الوحل والحضيض، وحينما قال الله عز وجل:

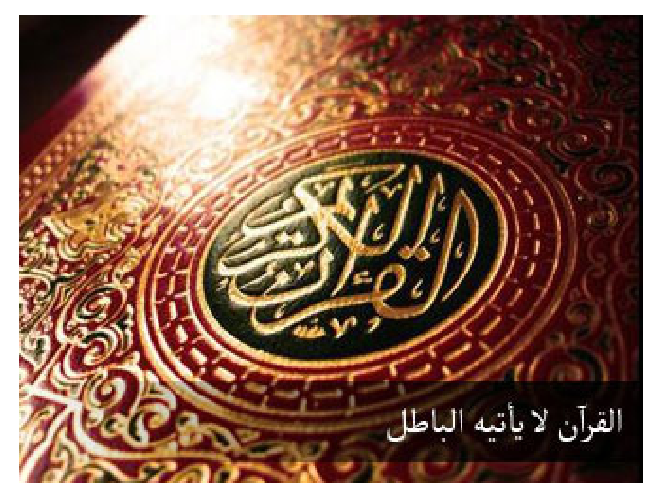
(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

أي أنه لن تؤمن بالله قبل أن تكفر بالكفر، وما دامت جهة قوية طاغية في موضع احترام من قبل المسلمين فالطريق إلى الله ليست سالكة.

أي انحراف عن وحي السماء له آثار خطيرة لا يعلمها إلا الله :

لذلك أيها الأخوة، قواعد الزواج التي جاء بها الشرع مهمة جداً، وكما قلت قبل قليل العالم الغربي بدأ يحارب المسلمين لا بالأسلحة الفتاكة، بل بأن يفرض على المسلمين أنظمة في الأحوال الشخصية، كأن يقول، وهذا الكلام أنا عندي موثق، هذا الكلام هو توصيات مؤتمري السكان اللذين عقد أحدهما في القاهرة والثاني في بكين، والقرارات والتوصيات ارتقت إلى مستوى الإلزام، وأي بلد لا ينفذ هذه التوصيات تنتظره عقوبات قاسية جداً، أن يكون الزواج شيئاً، والعلاقة الجنسية شيئاً، والإنجاب شيئاً آخر، تزوج امرأةً، ولك علاقة مع امرأة، وتنجب من امرأة، وأن تكون الزوجة في حل من أن تساكن زوجها، أو أن تنصاع لأمره، لها أن تسافر متى شاءت من دون إذنه، ولها أن تعمل أي عمل من



دون إذنه، وأن يسمح بالإجهاض الآمن كما يقولون، وأن يمنع الزواج قبل سن الثلاثين، وأن يسمح لمن دون هذا السن بعلاقات تحت سمع الآباء وبصرهم، والحديث طويل حول هذا، ونحن بخير والحمد لله، رفضت هذه التوصيات جملة وتفصيلاً، لأنها تتناقض مع أصل ديننا، فنحن معنا وحي السماء، نحن معنا تشريع خالق الأرض والسماء

نحن معنا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأي انحراف عن وحي السماء فهناك آثار خطيرة لا يعلمها إلا الله، في بلد كالصين منع الإنسان من إنجاب أكثر من ولد واحد، بقانون فيما أظن مطبق قبل سنوات ليس أكثر، ما هي نتائج هذا القانون، أن كل أسرة تنجب بنتاً تخنق إلى أن يأتيها الذكر فتسجله، قرأت خبراً موثقاً أن خمسين مليون شاب لا يجدون فتيات يتزوجونهن،

لذلك نشأت هناك عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج، لما حددنا إنجاب طفل واحد لهذه الأسرة اختل توازن المجتمع.

لذلك أيها الأخوة، حينما أمرنا الزوج أن يدفع لزوجته نصف ممتلكاته تهرب معظم الأزواج من تسجيل عقود القران، مساكنة فقط، ليس معها وثيقة إطلاقاً، والشيء العجيب أن أي تغيير بمنهج الله نحصد سلبيات لا تعقل.

ذكر لي أخ كريم من شمالي إفريقيا: صدر قرار بتقليد الغرب بمنح المرأة نصف أملاك زوجها عند الطلاق، قال لي أخ كريم: إن سوق الزواج قد بار، فصار والد الفتاة يقدم لخاطب ابنته وصل أمانة بمبلغ فلكي، إن طالبناك بنصف أملاكك طالبنا بهذا السند، حتى يستمر الزواج.

إن كنت حريصاً على سلامتك وسعادتك فينبغي أن تأتمر بأمر الخبير :

يا أيها الأخوة، هذه الأنظمة، أو هذه الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن، وبيّنها النبي العدنان ليست من صنع بشر، إنها من عند خالق البشر، من عند الخبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

هو الخبير، وأنت حينما تمتلك آلة بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النفع، وتصاب بخلل، ماذا تفعل؟ لك جار يبيع الخضراوات، وهو طيب جداً هل تدفع إليه هذه الآلة؟ طيبة نفسه شيء، وخبرته شيء آخر، لا تدفعها إلا إلى وكالة البيع، حيث الخبراء من قبل الشركات المصنعة، إذاً إن كنت حريصاً على سلامتك وعلى سعادتك فينبغي أن تأتمر بأمر الخبير، فالله هو الخبير، وهو الصانع الحكيم، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، هذه مقدمة.

نحن معنا تعليمات الخالق، تعليمات الصانع، معنا تعليمات الخبير، والخبير ينبغي أن يطاع، ولأن الله كان من الممكن أن يأتي بالناس جميعاً إلى الدنيا دفعة واحدة، وأن يأخذهم منها دفعة واحدة، إذاً ليس ثمة يتم، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتيها تباعاً، وأن نغادرها تباعاً، ما دام الأمر هكذا إذاً من الممكن أن يغادر الأب الدنيا وأولاده صغار.

عناية الأبناء بالآباء تكليف وليس بطبع بينما عناية الآباء بالأبناء طبع :

إذاً هناك مشكلة أن أكبر داعم للطفل هو الأب، والعرب إن أرادت أن تسب إنساناً تقول له: لا أبا لك، أكبر داعم للطفل هو الأب، لأن الله أودع فيه حب أولاده والرغبة في تربيتهم وتنشئتهم، لذلك هذا طبع لا تكليف، وهل يعقل أن يصدر مرسوم تشريعي يلزم الناس أن يتناولوا الطعام؟ مستحيل، لأن تناول الطعام طبع، لذلك أوصى الله عز وجل الأولاد بالآباء، لأن عناية الأبناء بالآباء تكليف، وليس بطبع، بينما عناية الآباء بالأبناء طبع، فحينما يحرص الأب على إطعام ابنه، وعلى كسائه،

وعلى نومه نوماً مريحاً، أنا لا أقول ليس له أجر، أقول أجره ضعيف جداً، لأن هذا من طبعه، هذه رحمة ليست كسبية، إنما هي وهبية، متى يؤجر؟ إذا حرص على دين ابنه، إذا حرص على أخلاقه، إذا حرص على أن يدخل الجنة، إذا كان سبباً في دخول الجنة، أقول لكم هذه الحقيقة أيها



الأب أكبر داعم للطفل

الأخوة لو أن أباً عارض ابنه في سعيه لطلب الله عز وجل، لو أن أباً لم يرضَ لابنه أن يكون متديناً، ثم صار ابنه من كبار علماء الدنيا فلا أجر له، لأن هذا الأب ما أراد لهذا الابن أن يكون كذلك، فإن كان كذلك فليس له أجر، إنما الأعمال بالنيات، فالأب الذي يتمنى أن يكون ابنه صالحاً مؤمناً ولياً لله عز وجل، وكان ابنه كذلك فله أجر كبير، فإذاً لأن الناس يأتون إلى الدنيا تباعاً، ويغادرونها تباعاً نشأت حالة الموت، ومع الموت اليتم، ومع اليتم الترمل، هذه ظاهرة في العالم كله، كتشريع لهذه الظاهرة يقول الله عز وجل:

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

طبعاً في الدرس الماضي قال الله عز وجل:

(وَآَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ)

[سورة النساء: 2]

الآن كتشريع آخر متعلق بالزواج عقد الزواج أقدس عقد على الإطلاق، وأن الله سبحانه وتعالى أوجب للمرأة مهراً، وهذا المهر نحله اللهُ المرأةَ، هذا الحق نحلة من الله، لذلك أمر الأزواج أن يؤتوا نساءهم صدقاتهن، يقول الله عز وجل:

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

الصدقات هي المهور، وأي عقد زواج ليس فيه مهر هو عقد فاسد، لكن العقد الفاسد شيء والعقد الباطل شيء أخر.

العقد الباطل والعقد الفاسد :

العقد الباطل لا يصحح، بينما العقد الفاسد يصحح، يصحح بمهر المثل:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

[سورة القصص: 27]

هذا الإيجاب:

(عَلَى أنْ تَأْجُرَنِي)

[سورة القصص: 27]

المهر:

(ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ)

[سورة القصص: 27]

هذا الموقف الكامل من أولياء الفتيات، فسيدنا موسى رد عليه فقال:

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)

[سورة القصص: 27]

قبلت:

(أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

[سورة القصص: 28]

إذاً لا بد من إيجاب وقبول ومهر وشاهدين، هذا هو عقد الزواج.

ضرورة المهر لأن الله فرضه وأمر به :

من أحد شروط الزواج تسمية المهر،

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

الذي يحصل أنك إذا تزوجت امرأة من دون مهر، أو بمهر رمزي جداً كدرهم فضة تصبح الزوجة هينة على زوجها، لأتفه سبب يطلقها، أما إذا كان ثمة مهر معقول، فالمهر يجعله يفكر في قضية الطلاق، المهر يجعله يحسب حسابه، ويراجع نفسه، هناك مبلغ مئتا ألف مثلاً ينبغي أن تدفع، أنا لست مع مغالاة المهور، لأن أعظم النساء بركة أقلهن مهراً، ولست مع إلغاء المهور، إلغاء المهور تطرف، ومهور بالملايين المملينة أيضاً تطرف، لكن مع المهر المعتدل، مع المهر الذي تقره العادات الإسلامية، فالمهر ضروري، ولأن الله فرضه، ولأن الله أمر به ولأن الله أمر الأزواج أن يقدموه لزوجاتهم:

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

أي؛ عطاء من الله، وقال بعض المفسرين: نحلة أي أن تدفع مهرها إليها عن طيب نفس دون أن تفكر في استرداده.

أذكر قصة لعلها مناسبة في هذا المقام، خطب شاب فتاةً أعجبه حسنها، ولم يعجبه دينها، متمسكة، فلما انتقلت إلى بيته كانت عقبة أمام رغباته ونزواته، لم تقبل أن تكون مع أصدقاءه، ولا أن تسهر معهم، ولا أن تجلس بينهم، هو يفكر بخلاف ذلك، يريدها زوجة عصرية، متفلتة، أعجبه حسنها، ولم يعجبه دينها، ومهرها كبير جداً، فخططت له أمه أن يضايقها مضايقة لا تحتمل حتى تجود له بمهرها، والذي توقعت حصل، فضايقها، وضربها، وأهانها، وغاب عنها كثيراً، وجعلها تجوع

وتعرى، إلى أن طلبت منه المخالعة دون أن تأخذ منه شيئاً، وكل هذا بتخطيط الأم، وكان الأب يستنكر ذلك، حدثني أخ كريم عن هذه القصة، لأنه يعرف الأطراف كلها، عندئذٍ خلعها ولم يعطها شيئاً، ثم تزوج فتاةً كما يتمنى، وصارت معظم نوادره بين أصدقائه كلما نجا من مشكلة يقول: نجونا من هذه المشكلة كما نجونا من مهر فلانة، وفي مرة كان يركب مركبته من مكان إلى مكان، ولحكمة بالغة ركبت زوجته إلى جنبه، وأمه خلفه، وأباه خلف زوجته، وكلما مشى بين مركبتين يحذره أبوه أن يبطئ من سرعته يقول له: نجونا كما نجونا من مهر فلانة، وفي مكان ما قرب دمشق لم ينج فدخل بين مركبتين فشق نصفين، وأمه كذلك، ونجت الزوجة والأب الذي كان ينكر عليه فعله، هذا الذي يستهين بحقوق المرأة يجب أن يعلم أن الله كبير وأنه سينتقم، يقول الله عز وجل:



(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

لذلك ورد في بعض الأحاديث أنه:

((أيما رجل تزوج امرأة على صداق ولا يريد أن يعطيها فهو زان))

[البيهقي عن أبي هريرة]

نحلة؛ منحة من الله، إذاً أنت كمؤمن ينبغي أن تنفذ، ونحلة؛ أن تطيب نفسك بدفع هذا المهر، خرج من نفسك، ونحلةً؛ ألاّ تنوي استرداده، فأناس كثيرون إذا فرض عليهم مهر كبير، يقول لك: اكتب، عندي الحل، الحل يضايقها، يهددها بالطلاق، إلا أن تتنازل له عن مهرها، فلذلك نحلةً؛ أن تعطيه إياها طيبة نفسك، أن تعطيه إياها دون أن تنوي استرداده، أن تعطيه إياها، لأن الله في عليائه فرضه لها، وأنت بهذا تذعن لأمر الله عز وجل.

المرأة تمتلك مهرها ولها أن تتصرف به إلا في حالات نادرة طبعاً :

لماذا قال الله قبل قليل:

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)

يعني عندك يتيمة، وأنت وليها، وأمرها بيدك، وأنت وكيلها، لماذا أرشدك الله إلى عدم الزواج منها، بل أن تتزوج ما طاب لك من النساء، لئلا تظلمها في مهرها، هي لن تطالبك، تستحي منك، أنت ولي نعمتها، فإذا خفت ألا تقسط في اليتامى فانكح غير اليتامى لذلك:

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً)

لكن هؤلاء النساء حينما يكرمها الله بزوج وفي، بزوج مؤمن، بزوج كريم يرعاها، ويحترم مشاعرها، ويحترم إنسانيتها، ويؤدي لها حقوقها، ويعطيها ما تستحق هي تحبه حباً جماً، فإن كان في ضائقة مالية، وقدمت له بعض مهرها قال:

(فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

إذا قالت لك زوجتك: خذ هذه الأساور، وبعها، وانتفع بثمنها، وهي صادقة ومحبة، وأنت كل حياتها، وأنت كل أملها في الحياة، فلا مانع أبداً، لكن أن تكرهها إذا ورثت، إذا لم تعطني أطلقك، لا، هذا إكراه، بالمناسبة من عظمة هذا الشرع أن المرأة تمتلك مهرها، ولها أن تتصرف به، وهي صاحبة القرار فيه، إلا في حالات نادرة طبعاً، لو أنها أرادت أن تتجر به ببضاعة محرمة فلك أن تمنعها، أو بطريقة محرمة، أن تهرب مثلاً، لك أن تمنعها، لأن هذا قد يصيبها بالأذى، أنت العاقل، أنت صاحب الرؤية، نساء كثيرات يتجرن بمادة محرمة أحياناً، هي بعيدة عن جو الأسواق، يقول لك: الربح عالٍ، لكن هذا فندق، خمس نجوم، فيه موبقات، وخمر، فلك أن تمنعها إذا أساءت التصرف بمالها، أما إن لم تسئ التصرف بمالها فهي حرة في أن تدير أموالها، وهذا الحق لم تكن تحظى به امرأة في العالم القديم، الإسلام وحده هو الذي أعطاها ذلك الحق، بل إن المرأة في بعض البلدان القديمة كانت تنتقل إرثاً من الأب إلى ابنه، كأنها قطعة أثاث، ولا شك أن النبي عليه الصلاة والسلام لعظم هذا العقد بين الزوجين لم يشأ أن يضع مكانته النبوية في شأن شخصي، فحينما كرهت امرأة زوجها، وطلبت من رسول الله أن يخالعها زوجها، فقال لها عليه الصلاة والسلام: لو تراجعيه، هي فقيهة، فقالت: أفتأمرني؟ قال: لا، إنما أنا شفيع، فأبت، قالت: إني أكره الكفر بعد الإيمان، لا تحبه، قال له النبي عليه الصلاة والسلام: طلقها تطليقة، وردي له الحديقة، هذه مخالعة:

(فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

أحد أكبر أنواع العبادات أن تكسب المال الحلال لتصون به عرضك وتتقرب به إلى ربك :

بعض الأقوال لسيدنا عمر: إن المرأة قد يضغط عليها زوجها، وقد يستعطفها، وقد يستميلها، فتعطيه بعض مالها إن صحت من غيبوبتها، وإن خطأت نفسها فلها أن تسترد ما أعطت لزوجها، هذا رأي سيدنا عمر رضي الله عنه، كل هذا من أجل أن تكون المرأة في أعلى درجة من التكريم، ومن الحرية، ومن الكرامة من دون أن تستخدم هذا استخداماً لا يرضي الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)

بصراحة تقوم حياتك على المال الذي بين يديك، بهذا المال تزوجت، بهذا المال اشتريت بيت، بهذا المال أنفقت على أهلك ثمن الطعام والشراب، بهذا المال كسوت أولادك، بهذا المال استرضيت


قوام الحياة المال وببذله يكون الرقي

زوجتك، بهذا المال عالجت أولادك المرضى عند الطبيب، بهذا المال أدخلتهم المدارس وتعلموا، بهذا المال أنفقت منه على الفقراء والمساكين فارتقيت عند الله، فالمال قوام الحياة، وهذا الذي يزهد بالمال زهداً أبله غبياً، ثم يحتاج الناس يضع نفسه في مكان ذليل، يعني أنا أدعو الله عز وجل لي ولكم الدعاء المشهور: اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت يا رب من فوقهم ولي العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء، وبصراحة الآن أعداء المسلمين أحد أكبر خططهم أن يفقروا المسلمين بعبارة جديدة؛ تجفيف منابع الجمعيات الخيرية، أحد أكبر خططهم إفقار المسلمين، وأنا أقول وأحد أكبر أنواع العبادات اليوم أن تكسب المال الحلال لتصون به عرضك، ولتتقرب به إلى ربك، والله ما رأيت كلمة لصحابي جامعة مانعة كهذه الكلمة، قال: حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، حبذا المال، أطعم أولادي، أكسوهم، أسكن بيتاً صحياً، أقدم لهم الطعام والشراب، أعالجهم إذا مرضوا، حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، إذاً الذي يتقن عمله، ويلزم عمله، ويبدع في عمله، لتكون يده هي العليا هو في أعلى درجات العبادة، بل إن من العبادة أن تكسب رزقك بيدك، ما دامت حرفتك مشروعة في الأصل، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك وأهلك، ونفع المسلمين، ولن تشغلك عن واجب ديني، ولا عن طاعة انقلبت هذه الحرفة إلى عبادة، لأنك بهذه الحرفة تصون عرضك وتتقرب إلى ربك.

ربع دين المرأة طاعتها لزوجها :


المودة بين الزوجين من نعم الله

أيها الأخوة، عظمة الزواج الإسلامي أن الزواج الإسلامي يكون الله بين الزوجين، فكل طرف يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرف يتقرب إلى الله لخدمة الطرف الآخر، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 32]

السماوات والأرض تعبير قرآني، أو مصطلح

الكون، والكون ما سوى الله، الكون كله دليل على عظمة الله.

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل، لذلك حينما سئل النبي عليه الصلاة والسلام: من أعظم الرجال حقاً على المرأة؟ قال زوجها، يعني أن أول رجل في عالم المرأة هو زوجها، هو الأصل، وكم من امرأة مسلمة تهتم بغير زوجها أضعافاً مضاعفة عما تهتم بزوجها، أحيانا تغيب شهراً، تقول لك: عند ابني، وزوجك؟ كبر، فهذه المرأة التي لا تهتم بزوجها، ولا تطيع الله عز وجل، بل إن ربع دين المرأة طاعتها لزوجها:

((المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها وأحصنت فرجها وأطاعت بعلها فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت))

[ابن زنجوية و الديلمي عن أنس]

((لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه))

[البزار والحاكم وصححه عن ابن عمرو]

بل:

((ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم؛ رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها..))

[الحاكم عن أبي موسى]

لأن مئات وألوف النساء يتمنين زوجاً، وهذه لها زوج، ولها بيت، ولها أولاد، تأكل وتشرب وتتنعم، وتسيء معاملته.

ليست البطولة أن تتزوج بل البطولة أن تبقى متزوجاً :

أيها الأخوة، أي زوج يسيء إلى زوجته إنما هو يكفر نعمة الزواج، وأية امرأة تسيء إلى زوجها إنما هي تكفر نعمة الزواج:

((لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه))

[البزار والحاكم وصححه عن ابن عمرو]

((أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة))

[أبو داود والترمذي عن ثوبان]

طلقني تقول له، لماذا؟ لأسباب تافهة، ثم إنه أيضاً لأسباب تافهة يطلقها، لأسباب مضحكة، فقلت لأحد هؤلاء: أنت حينما تطلق زوجتك لأسباب تافهة ينبغي أن تتسكع على أبواب العلماء ممن يفتي لك أن تعود إليك، تشك في علمه، والذي يقسو عليك في الفتوى لا تحتمله، فأنت بين منتقد ومتألم، وأنت تتسكع على أبواب العلماء لأنك ارتكبت أحموقة، وطلقت زوجتك لأسباب تافهة، الإنسان

العاقل هذه زوجته جملةً وتفصيلاً مقبولة، يعاتبها، يهجرها، ليبتعد عن الطلاق، لذلك قال بن عباس: أيرتكب أحدكم أحموقته، ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، والله ما رأيت سؤالاً يتردد في المساجد أكثر من سؤال الطلاق، تجد الشاب زوجته ممتازة لسبب تافه يطلقها، أو يحلف عليها بالطلاق، والذي لا أصدقه أن معظم الزوجات لأن زوجها حلف عليها ألا تذهب إلى بيت فلان فليس في حياتها شيء أهم من أن تزورهم، كي تكسر يمين زوجها، إنه حمق ما بعده حمق من الزوجة، فيا أيها الأخوة هذا الزواج أقدس عقد، ليست البطولة أن تتزوج بل أن تبقى متزوجاً، والبطولة أيتها المرأة لا أن تتزوجي أن تكوني تحت رجل صالح، وإلا تطلقين، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

" لكن أروع ما في الآية:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

المودة؛ قالوا: إنها سلوك يعبر به عن الحب، لأنك تحب زوجتك فتبتسم في وجهها، ولأنها تحبك تسعى لمرضاتك، فإذا انقطعت هذه المنفعة أصاحبها مرض عضال معنى ذلك أنه صار لزاماً أن تطلقها، لا، قال:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

فإن لم يكن عامل المودة قائماً، هناك عامل الرحمة، فكم من امرأة تعمل في البيوت لتطعم زوجها المشلول؟! فلذلك لما قلت لكم: نسب الطلاق في العالم الإسلامي خمسة عشر بالألف نسبة مثالية، لكن مع الأسف أصبحت الآن خمسة عشر بالمئة، وهذه الظاهرة جاءت مع انتشار الصحون، فلذلك أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون كل منا سعيداً في بيته، وأن يفعل مع امرأته الأسباب التي تدعوها إلى محبته وطاعته، وأن تفعل المرأة مع زوجها الأسباب التي تدعوه إلى محبتها وخدمتها:

(وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

من الطرف، قال بعض العلماء: اطلب من زوجتك درهماً من مهرها واشتر به عسلاً، واجعله يذوب بماء السماء، واشربه، لأن الله قال:

(فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً)

[سورة ق: 9]

وهذا من باب الطرفة درهم من مهر الزوجة يشترى به عسل يذاب في ماء السماء ويشرب، ففيه الشفاء إن شاء الله.

أسئلة تتعلق بموضوع الزواج :

سؤال: يقول أخ أنه: من كان تحته امرأة سيئة ولم يطلقها فإنه لم يقبل له دعاء.

جواب: هذا حديث صحيح للنبي الكريم، تبالغ في الإساءة، تتحدى زوجها، تشتمه، تضربه أحياناً، وليس لها أحد غيره، طيب هذه هل نبقى معها أذلة؟ لا، يجب أن تؤدَّب، يجب أن تبقى بلا زوج، أن تكون مطلقة، أن تقبع خادمة عند أخيها، طبعاً عندها زوج، عندها بيت، وعندها أولاد، حينما تفعل هذا فإنما هي تكفر نعمة الزواج، ليس فيها رحمة، ساذجة، إذاً ثمة إساءة بالغة، وعصيان، وتحدٍّ، وكبر، ضغط غير معقول، لماذا نسكت عن الخطأ؟ هذا حديث صحيح.

جواب: والله لا بد أن يكون النص موثقاً، من كان تحته امرأة سيئة فلم يطلقها فإنه لا يقبل له دعاء، أو كما قال.

هناك فهم آخر، أن زوجي لا يطلقني، يخاف مثلاً، هذا الفهم لا ينبغي أن يكون موجوداً، ثمة خطأ يستلزم الطلاق، ليس ثمة خطأ ثمة طمأنينة وأمن.

سؤال: ابن المبارك كانت تحته زوجة سيئة، وكان يصبر عليها، كيف نوفق بين توجيه النبي وبين فعل ابن المبارك؟

جواب: سهل جداً، إن غلب على ظنك أن صبرك عليها يصلحها فينبغي أن تصبر عليها، وإن رأت صبرك عليها ضعفاً وخوفاً وخضوعاً وذلاً فلا ينبغي أن تصبر عليها، وقال النبي الكريم:

((علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم))

[عبد الرزاق والطبراني والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس]

يعني أنت معك سلاح، لا تلغ السلاح، اتركه معك، لكن أنا لا أقر الحمقى كلما قامت يده عن رجله حلف عليها بالطلاق الثلاث، وكلما أحل لك شيخ يحرمك عشرة، لا هذا عمل أحمق، مع امرأة مؤمنة طاهرة عفيفة طائعة، والله حينما تطلقها فكأن عرش الرحمن اهتز، طبعاً أنا لا أتكلم من فراغ، أنا حينما أتكلم بحدة عندي آلاف الحالات، والله في الأسبوع الواحد تأتيني عدة مشكلات، امرأة شاردة متفتلة تحتقر زوجها، تسارع إلى ضربه أحياناً، تسب أمه وأباه، ولا تقبل بشيء، وتحمله على كسب المال الحرام، هذه امرأة لا ينبغي أن نسكت عن خطأها، أنا أقول عن تلك الحالات الخاصة، لا تقل: الشيخ أفتى بالطلاق، وغداً يلصقون لي مشكلة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(04-69): تفسير الآية 6 ، أعمار الإنسان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

إسلام مكة إسلام عقيدة وإسلام المدينة إسلام تشريع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

أيها الأخوة الكرام، الإسلام في مكة كان ترسيخاً لأصول العقيدة، وفي المدينة كان تشريعاً للعباد، إسلام مكة إسلام عقيدة، وإسلام المدينة إسلام تشريع، ولا يستغنَى عن أحدهما، فلا بد من عقيدة سليمة، ولا بد من تشريع حكيم، لا بد من إيمان، ولا بد من عمل، وأنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، هناك علاقة دقيقة وخطيرة، وهي أنك إذا عرفت خالق الأكوان، مبدع السماوات والأرض، رب العالمين، من بيده ملكوت كل شيء، تشعر بحاجة إلى أن تتقرب منه، الإنسان في أصل فطرته يحب الجمال والكمال والنوال، فإذا ثبت لك اعتقاداً أن أصل الجمال عنده، وأن أصل الكمال عنده، وأن العطاء كله منه ينبغي أن تتجه إليه، في العلاقات اليومية يكون للإنسان مكانة، غني، له منصب رفيع، تجد الناس يتحلقون حوله، يطمحون إليه، يزورونه في كل مناسبة، يقدمون له آيات الولاء في كل وقت، لأن عنده شيء؛ إما علم، أو جاه، أو مكانة، أو مال، فالناس يقبلون على العظيم طمعاً بما عنده، فإذا ثبت لك يقيناً أن الكمال كله عند الله، وأن النوال كله من عند الله، وأن أصل الجمال هو الله فلا بد أن تتقرب منه، كيف؟ كيف تتقرب منه؟ بعبادته، بطاعته، أنت إذاً بحاجة ماسة إلى أن تعرف أمره ونهيه. قد تتقرب لإنسان بهدية، قد تتقرب إلى إنسان بزيارة، لكن علاقتك مع خالق الأكوان كيف تتقرب منه؟ أنت حينما تعبده وتطيعه تكون قد تقربت منه. هل يمكن أن تكون عبادة بلا علم بالأمر والنهي؟ نعود إلى قاعدة خطيرة ذكرتها في الخطبة؛ ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله بعبادته حتماً ينبغي أن تعرف بنود عبادته؛ الأمر والنهي، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن:

((طلب الفقه حتم واجب على كل مسلم))

[الحاكم في تاريخه عن أنس]

كيف تعبده؟ بطاعته، بتنفيذ أمره والبعد عن نهيه، هكذا يُعبد الله، لذلك معرفة الأحكام الشرعية جزء من الدين، بل إن معرفة الأحكام الشرعية تأتي مرحلة حتمية لازمة بعد معرفة الله.

آيات الجزء الأخير كلها آيات مكية وكلها في العقيدة إلا سورة واحدة :

ذكرت أن أخاً اصطلح مع الله، يعمل في إصلاح المركبات فتاب توبة نصوحاً، أنا أعتقد لأنه تاب توبة نصوحاً، ولأنه اصطلح مع الله، ولأنه أراد أن يبقى وفق منهج الله، أتعبني في أسئلته في مصلحته، شعرت أنه صادق في التوبة، ما دام صادقاً في التوبة فهو يسأل: ما حكم هذا؟ ما حكم هذا؟ كيف أفعل مع فلان؟ ما حكم القطعة التي جددتها؟ هل أستعمل هذه القطعة التي بليت؟ لي الحق أن آخذها؟ أمطرني بوابل من الأسئلة، لماذا؟ لأنه عرف الله وأراد أن يطيعه، فهذا الذي لا يبالي بأمر الله ونهيه في الأساس إيمانه ضعيف، كلما اهتممت لأمره ونهيه كلما كان هذا دليلاً على اهتمامك بالله عز وجل، فلذلك حينما نقرأ آيات التشريع فإنها لا تقِلُّ في قيمتها عن آيات العقيدة. هناك ملمح رائع في الجزء الأخير من القرآن الكريم، آيات الجزء الأخير كلها آيات مكية، وكلها في العقيدة، في الإيمان بالله واليوم الآخر، من دون استثناء.

(وَالْفَجْرِ * ولَيَالٍ عَشْرٍ)

[سورة الفجر: 1-2]

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

[سورة الشمس: 1]

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

[سورة الليل: 1-2]

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

[سورة التين: 1]

أبداً: إلا سورة واحدة هي المطففين، لو أن فهم الإنسان سطحي وساذج يراها قد أُقحِمت إقحاماً.

الويل هو الهلاك للمطففين :

قال تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة المطففين: 1-5]

من أجمل ما قرأت عن هذه السورة، وعن علاقتها بالسياق العام، وكيف أنها ليست مقحمة عليك، أنك إذا فرطت في حق مخلوق يعد هذا التفريط سبب هلاكك، فكيف إذا فرطت في حق الخالق؟ إذا طففت، إذا أعطيته أقلَّ من حقه وزناً، أو مساحة، أو طولاً، أو كمية، أو نوعية، فالتطفيف أن تعطيه

أقلَّ من حقّه، فإذا قست القماش الذي تبيعه مشدوداً، وقست القماش الذي تشتريه مرخياً فهذا تطفيف، إذا وزنت الكيس لما تبيعه مع البضاعة، وقد تكون بضاعة غالية جداً فصار ثمن الكيس من ثمن البضاعة فقد طففت، أما إذا اشتريت حذفت وزن الكيس، وأخذت الصافي فقد طففت، فالويل لك، والويل هو الهلاك للمطففين، فإذا طففت في حق مخلوق كان هذا التطفيف سبب هلاكك، فكيف إذا بخست حق خالقك؟ كيف إذا بخست حق الذي أوجدك؟ حق الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد؟ كيف إذا بخست حق هذا النبي العظيم الذي جاء لإنقاذنا، فلم تعبأ بسنته، ولم تعرف قدره، ولم تصلِّ عليه:

((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال: "آمين آمين آمين": فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: "أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين. فقلت آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين))

[رواه البزار في مسنده عن أنس]

أن تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله هذا استثمار للوقت وليس استهلاكاً له :

إذاً كما أننا في أمس الحاجة إلى أن نعتقد بالله اعتقاداً صحيحاً بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، بالله خالقاً ورباً ومسيراً، بالله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، وبرسول الله رسولاً ونبياً، وباليوم الآخر جزاءً ومصيراً، وبالملائكة والكتب والأنبياء ينبغي أن نتعلم شرع الله عز وجل.
مثلاً: من دخل السوق دون أن يتفقه أكل الربا، شاء أم أبى، أنا أذكر لكم دائماً مثل، هنا محل إعادته، أنّ المظلي قد يجهل أشياء كثيرة لا علاقة لها بسلامته، وقد يجهل شيئاً واحداً يكون سبب هلاكه، قد يجهل شكل المظلة، دائري، مربع، بيضوي، مستطيل، وقد يجهل نوع قماش المظلة، من خيوط صناعية أو طبيعية، وقد يجهل عدد الحبال وألوان الحبال، ونوع خيوط الحبال، هذا كله لا يؤثر على سلامته، أما إذا جهل طريقة فتحها ينزل ميتاً، في الدين جانب من العلم سماه العلماء، علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، فمن لم يتعلم هذا العلم هلك، مثقف، غير مثقف، مشغول، غير مشغول، متفرغ، غير متفرغ، أمي، متعلم، هذا العلم سماه العلماء علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، لأنه فرض عين على كل مسلم، تقول ليس لديّ وقت، إذا درس الرجل، وجاء إلى بلده، واشترى عيادة بالدَّين، والآلات بالدَّين، وعليه ديون باهظة، وحدد موعد الزيارة من الخامسة حتى السابعة، وجاءه مريض في الساعة السادسة، قال له: ما عندي وقت، الجواب اللطيف: لأي شيء خصصت وقتك إذاً، هذا اختصاصك، وهذا وقتك، فإذا قال إنسان لك: أنا ما عندي وقت أعرف الله عز وجل فجوابه قوله تعالى:

(مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النمل: 84]

ما هو الشيء الذي هو أعظم من أن تعرف الله، ما هو الشيء الذي هو أعظم من أن تعرف منهجه، ما هو الشيء الذي هو أعظم من أن تعرف الطريق الموصلة إليه، إذاً أن تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله، لمعرفة كتابه، لمعرفة سنة نبيه، لمعرفة أحكام الفقه، لمعرفة سير الصحابة والتابعين، لمعرفة العقيدة السليمة، لمعرفة سر وجودك وغاية وجودك، هذا استثمار للوقت وليس استهلاكاً له، إنسان متعلم، معه اختصاص نادر، يدرس عشر سنوات هذه السنوات العشر فهل هي استهلاك للوقت أم استثمار له؟ بعد التخرج يقول لك: دخلي في اليوم ثمانمئة ألف، من هذا العلم الذي تعلمه، هناك اختصاصات نادرة جداً ودخلها فلكي، فالوقت الذي أمضاه في الدراسة والتعلم هل يعد ضياعاً واستهلاكاً له أم يعد استثماراً؟ إنه استثمار.

العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال :

حينما تأتي إلى مجلس علم، ماذا تعمل؟ أنت حصنت نفسك، يا بني العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال.

سائق سيارة أشارت إليه امرأة فوقف، ركبت معه سألها: إلى أين؟ قالت له: حيث تشاء، فهم، وعدَّها غنيمة، وقضى حاجته، وأعطته ظرفين، قصة وقعت في الشام، وقرأتها في الجريدة، أعطته ظرفين، فتح الأول فإذا فيه خمسة آلاف دولار، وفتح الثاني، فإذا فيه رسالة، فيها سطر واحد: مرحباً بك في نادي الإيدز، والمبلغ مزور، فأودع السجنَ، ولو حضر درس علم واحد، وعرف حدود الله عز وجل لنجا، فحينما تقول له: خذني إلى أي مكان تريده، يفتح الباب، ويركلها بقدمه، وينجو من المرض والسجن.

والله أذكر أنه في أول خطبة خطبتها في شهر آب في عام 1974 في هذا المسجد سألني أخ كريم بعد الخطبة في صحن المسجد، وصار يبكي، قلت له: خير إن شاء الله، قال: زوجتي تخونني، قلت له: مع من؟ قال: مع الجار، قلت: وكيف عرفته؟ قال لي: والله الحق علي، كان الجار عندنا يوماً فأردت ألا تبقى وحدها، فقلت لها: تعالي اجلسي معنا، هذا مثل أخيك، لأنه جاهل، إنه يجهل طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، وعنده خمسة أولاد، وتخونه من سنتين كل يوم، وتعطيه مع كأس الشاي مادة مخدرة، قلت: العلم حصن، العلم حارس، يا بني العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، لا يقبل أن تقول: ليس عندي وقت لمعرفة الله، معرفة كتاب الله أصل في الدين، ومعرفة سنة رسول الله أصل في الدين، ومعرفة الأحكام الفقهية، كم إنسان في هذا البلد المسلم يستثمر أمواله بنسبة ثابتة، عين الربا، يسمعك كلاماً مضحكاً، أكثر راحة من الحسابات والجرد، على الألف مئة ليرة في الشهر فرضاً، عين الربا، كم

إنسان يسهم مع إنسان في شراء بيت، يطالبه بالأجرة من حقه، لكن لأنه يضمن حقه بالتمام والكمال أصبحت الأجرة فائدة ربوية، إذا أراد أن يبيع حصته، فقيَّم البيت تقييماً جديداً فلا مشكلة، والأجرة يستحقها، أما دفع مليون، فالمليون ثابت لا يزيد ولا ينقص، ويريد عليه أجرة، فهذا عين الربا، مئات الحالات التي يتعامل الناس بها في الأسواق هي عين الربا، ولا يشعرون، لضعف ثقافتهم الفقهية، حتى في العلاقات الاجتماعية، حتى في المناسبات، في الأفراح، في البيع والشراء، من دخل السوق دون أن يتفقه أكل الربا شاء أم أبى، هكذا قال سيدنا عمر، فأنت حينما تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله من خلال كتابه، ولمعرفة رسول الله من خلال سنته، ولمعرفة أحكام الفقه، ولمعرفة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام تنجو من مطبات الحياة.

الإنسان كما أن له عمراً زمنياً له عمر عقلي :

مرة قال لي أحدهم: هناك اتصال هاتفي مع زوجتي، أنا لا أحتمل ذلك، إنسان سفيه يتكلم معها كلمات لا تليق، قال لي: والله أنا أعرفها طاهرة معرفة يقينية، قلت له: ألم تقرأ في السيرة أن السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وهي بنت الصديق اتهمت بالزنى، قال لي: الله أكبر، والله لا أعلم ذلك، وكأن هذه القصة جاءت على قلبه برداً وسلاماً، لو قرأ السيرة لعرف، على كل أيها الأخوة هذا تقديم، لأننا قادمون على سلسلة آيات تتعلق بالمواريث، إنسان يقول لك: موضوعات ثانوية، هي صلب الدين، المواريث من صلب الدين، بعد قليل إن شاء الله نصل إلى هذه الآيات، ونقف عندها وقفة متأنية.

آية اليوم الآية السادسة:

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى)

الابتلاء هو الامتحان،

(حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ)

ورد في كتب الفقه أن الصغير يبلغ الحلم إذا بلغ الخامسة عشرة من عمره، أو يبلغ الحلم إذا ظهرت عنده صفات المراهقة، كخشونة الصوت، وظهور الشعر في أماكن مختلفة من جسمه، أو حينما يحتلم، طبعاً عند الفتاة قضية واضحة جداً، حينما تأتيها الدورة فهذه علامة البلوغ قولاً واحداً، الشاب حينما يحتلم، أو حينما تظهر علامات الرجولة في جسمه، أو بنبت شعر في بعض الأماكن، أو صوت خشن، أو إذا بلغ الخامسة عشرة فهو بالغ حكماً، هذا بعض ما ورد في كتب الفقه،

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ)

يعني بلغوا سناً يتاح لهم أن يتزوجوا، بالمناسبة أنا من أنصار الزواج المبكر، ولا سيما في هذا العصر، نعم،

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً)

يعني بالسؤال والجواب والامتحان، ثمة مواضيع معينة، وأسئلة دقيقة، وثمة إجابات رائعة، وإجابات ساذجة، فاسأله في شأن البيع والشراء والتجارة والاستثمار فرضاً والادخار، موضوعات مالية يعيشها كل إنسان، وموضوعات تعاملية يعيشها كل إنسان، ينبغي أن تمتحنه،

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً)

يعني عقلاً وفهماً وحكمة فادفع إليه ماله، وعلماء النفس قالوا: هناك عمر زمني، وهو أتفه أعمار الإنسان، وهناك عمر عقلي، قد تجد طالباً في الصف التاسع عمره العقلي في الصف الثاني عشر، وقد تجد طالباً في الصف التاسع عمره العقلي في الصف السابع، الإنسان كما أن له عمراً زمنياً له عمر عقلي.

أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني الذي لا يقدم ولا يؤخر :

مرة كان معنا مدرس رياضيات يدرِّس الشهادة الثانوية، جاء رمضان قال هكذا في مجلس المدرسين: ماما قالت له صم فصام، مدرس رياضيات، ماما قالت له: صم فصام، فهذا عمره العقلي متخلف جداً، لكن قد يكون معه شهادة عليا في الرياضيات، عمره التحصيلي جيد، فعندنا عمر تحصيلي، وعمر عقلي، وعمر اجتماعي، وعمر انفعالي، هناك إنسان ذكي اجتماعياً، يرضي الناس جميعاً دون أن يعطيهم شيئاً، كلامه لطيف معسول، وهناك إنسان عنده غلظة اجتماعية، كل يوم يلقي قنابل مِن حوله، يفجر مشكلات باستمرار، كل يوم يصنع أعداء، بغير حساب، فهذا متخلف في عمره الاجتماعي، هناك إنسان عنده عمر انفعالي متدنٍ، يبكي مباشرة، ينهار مباشرة، وثمة إنسان متماسك، تأتيه مصائب تهد الجبال، ويبقى متماسكاً، فهناك عمر اجتماعي، وعمر انفعالي، وعمر تحصيلي متعلق بالدراسة، وعمر عقلي، وعمر زمني، والعمر الزمني أتفه أعمار الإنسان.

يروى أن أحد كبار علماء الذرة أينشتاين الذي جاء بالنظرية النسبية أقام في أمريكا، وطاف بخمس وثلاثين ولاية يتحدث عن نظريته النسبية، في آخر ولاية عنده سائق ذكي جداً، حفظ هذه المحاضرة عن ظهر قلب، وكان صاحب دعابة، فرجا أينشتاين أن يسمح له أن يلقي عنه المحاضرة، وأن يقدمه لهذه الجامعة على أنه هو أينشتاين، ويبدو أن العالم نفسه أينشتاين صاحب دعابة، فقدم سائقه على أنه هو أينشتاين، وصعد إلى المنصة، وألقى المحاضرة تماماً كما ذكر، لأنه حفظها عن غيب، فقام أحد الأساتذة يسأله سؤال عويصاً، وهو يحفظ المحاضرة بصماً، وغيباً، لكن ليس عنده إمكانية للجواب، فلما سئل قال: السؤال سخيف جداً، والدليل أني سأكلف سائقي أن يجيبك، هذا عنده ذكاء، عنده ذكاء حاد، لكن عقله التحصيلي ضعيف.

فيا أيها الأخوة،

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً)

مرة أحد الخلفاء وجد شاباً، والقصة طويلة، لكن ملخصها أنه أعجب بإجابته فأعطاه ديناراً، اعتذر أن يأخذه، لِمَ؟ قال: والله يا سيدي لو قلت لأمي: إن هذا الدينار أعطانيه الملك لضَرَبتْني وكذبتني، إن هذا الدينار ليس من عطاء الملك، فاضطر أن يعطيه ألف دينار، فقد تجد إنساناً ألمعيّاً، لكن بالمناسبة أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني، لا يقدم ولا يؤخر، سيدنا الشافعي عاش خمسين سنة، بل ما أتم الخمسين، سيدنا النووي ما أتم الخمسين، توفي في السادسة والأربعين، وترك علماً، وترك كتباً لا يعلم خيرها إلا الله، الأذكار، كتاب فقه مشهور، بغية المحتاج، شرح صحيح مسلم، رياض الصالحين، كتب لا يعلم خيرها إلا الله، فالعمر الزمني لا قيمة له إطلاقاً.

من أدَّ عباداته أعطاه الله بركة في عمره :

الآن إذا فتح إنسان محلا تجارياً، كم ساعة فتح؟ إذا فتح إنسان ساعة واحدة جمع مليون ليرة، وإنسان فتح اثنتي عشرة ساعة جمع مئة ليرة، الوقت ما له قيمة أبداً، العبرة بالغلَّة التي يجمعها في هذا الوقت، فالإنسان كلما كان قريباً من الله بارك الله له في عمره، ومن أدَّ عباداته أعطاه الله بركة في عمره، فقال:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً)

والله أيها الأخوة هاتان الكلمتان في هذه الآية لا يعرفهما إلا الخبير، أنت ذاهب لشراء صفقة لهذا اليتيم في حلب، تذهب بالطائرة من أجل راحتك، لست مضطراً لتنام في فندق خمس نجوم، يأتيك عشاء إلى الغرفة، والسعر مضاعف، هي كلها مصاريف الصفقة، لكن لو أن المال مالك هل تفعل هكذا؟ مستحيل، فهناك من يتجر بمال اليتيم، وينفق نفقات غير مقبولة، إن في الطعام، أو في الشراب، أو في التنقل، أو في المصاريف، بل لو أن اليتيم كلفك بحاجة في أثناء السفر تسجل عليه قسماً من مصروف الرحلة، أخدمه لوجه الله،

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً)

إياك أن تسرف، عندنا قاعدة رائعة؛ عامل الناس كما تحب أن يعاملوك،

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً)

بداراً؛ أن تبادر إلى أكلها قبل أن يكبر، فيأخذ ماله، يعني أن تبادر إلى أكلها بطريقة أو بأخرى قبل أن يكبر، فإذا بلغ السن التي ينبغي أن يعطى فيه ماله دفعت له ماله، فقبل أن يبلغ هذه السن ينبغي أن تستنزف ماله كله، ولا تأكلوها بداراً، من يحاسبك؟ الله وحده، أنت مؤتمن، أنت ولي أمر اليتيم، لأنك مؤتمن كلفت بذلك، لأنك مظنة صلاح كلفت بذلك، لأن الناس يثقون بك كلفت بذلك، فإذا كنت موضع ثقة الناس فينبغي ألا تخيب ظنهم فيك، أن تحاسب نفسك حساباً دقيقاً، أنت في متجر من مال اليتيم، وأنت شريك مضارب، جاء أخوك فأكرمته بضيافة غالية، هذه ثمنها مئة ليرة، على المصروف، ما علاقة اليتيم بالضيافة؟ قد يأتي إنسان ليشتري، قد تقيم له طعام الغذاء فلا مانع،

لمصلحة التجارة، قد يأتي إنسان، وقد تدعوه لطعام، وعلى حساب المصروف، لأن هذا الإنسان قد يشتري صفقة كبيرة جداً، فلا بد من إكرامه، أما حينما يأتي صديقك الشخصي، وتقدم له ضيافة في المحل من مال اليتيم فقد خنت الأمانة، الضيافة على حسابك.

المعروف هو حاجتك أو أجر المثل أيهما أقلّ :

هناك شيء أدق من ذلك، في عالم التجارة صفقات رابحة أساسية، فالتاجر ماله في هذه الصفقة، لكن هناك صفقة جديدة لعلها تربح كثيراً، ولعلها لا تربح، أجسُّ نبض السوق فيها بمال اليتيم، فإن ربحت أنزلت مالي بعده فيها، وإن لم تربح أقل له: هذا ترتيب الله، ماذا نريد أن نفعل؟ كلام معسول، كله نفاق، أخي هو الربح نصيب من الله، أنت اخترت له صفقة مجهولة، اخترت له صفقة اسمها لغم، قد تنفجر، ربما لا تربح، فإذا ربحت عرفت السوق من خلالها فأدخلت بعدئذ مالك فيها، لذلك ورد في بعض الأحاديث: ولا تجعل ماله دون مالك، هذه خيانة، إذا كان معك مال ليتيم فينبغي أن تستثمره في صفقة رابحة، ليس بالمئة مئة، فهذه لا يملكها أحد، لكن في الأعم الأغلب، وفي أغلب الظن أنها رابحة، بضاعة أساسية في السوق، وقديمة، وأرباحها ثابتة وسعرها ثابت، هكذا،

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا)

دققوا في توجيه الله عز وجل لهذا الإنسان،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

فليستثمر له هذا المال دون أن يأخذ شيئاً،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

عنده محل، وشركة طويلة عريضة، وأموال طائلة بين يديه، وقال لك: مئة ألف ليتيم، اشترِ له بها صفقة، وبعها، وأعطه كل الربح إليه، هذا،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

أما أنت مهندس مثلاً، ولا تملك شيئاً من الدنيا، وعندك يتيم صغير عمره أربع سنوات، معه مال جيد، وأنت أمين، وليس عندك دخل ثانٍ، فلك أن تستثمره في عمل معين بحسب خبرتك، وأن تأخذ نصف الربح لك، أو أربعين بالمئة حسب الاتفاق، أو حسب العرف، هذا يجوز،

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

ما هو المعروف الذي تحدث عنه الفقهاء؟

المعروف الذي تحدث عنه الفقهاء بقاعدة رائعة: أجر المثل، أو حاجتك، أيّهما أقلُّ، كيف؟ وضع معك مليون ليرة، ربحت مئتي ألف، وأنت فقير، والعرف بالمئة خمسون، مئة ألف لك ومئة ألف له، أنت تحتاج في الشهر إلى عشرة آلاف، فأنت بحاجة إلى مئة وعشرين ألفاً، ينبغي أن تأخذ مئة ألف فقط، أجر المثل، أنت بحاجة إلى خمسة آلاف في الشهر، ليس عندك زوجة ولا أولاد، وتسكن

عند والدك، بحاجة إلى خمسة آلاف، يكفيك ستون ألفاً، فينبغي أن تعطيه مئة وأربعين، وأن تأخذ الستين، يعني حاجتك أو أجر المثل أيهما أقلّ، هذا معنى بالمعروف،

(وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ)

وقبلها:

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ)

أهمية المواثيق والعقود :

مرة سأل أحدُ الخلفاء أحد أكبرِ دهاة العرب، قال له: يا فلان ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا وعرفت كيف أخرج منه، فقال له: لست بداهية، أمَا أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، في جو معين تدفع لهذا اليتيم ماله، ولا يخطر في بالك أن هناك مشكلة، تمضي السنوات، تفجر مشكلة، يقول لك: لم آخذ منك شيئاً، أين البينة؟ تقع في إشكال كبير، المؤمن الصادق، المؤمن الواعي، المؤمن الحذر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

دفعت اكتب وثيقة، وسجل، وأشهد عليه شاهدين، كل شيء مكتوب مريح، والله أيها الأخوة آلاف المشكلات التي دمرت أسر بأكملها بسبب عدم الكتابة، مشروع تجاري اشتري بعشرين ألفاً، في وقت معين، وقتٍ صعب جداً، أحدهم دفع عشرة، والثاني عشرة، الثاني يعمل في هذا المشروع، بعد عدة سنوات المشروع قيِّم بمليوني ليرة، وثمنه عشرون ألفاً، فالأول طلب الأرباح فدفع له خمسة آلاف ثم خمسة آلاف، فلما طالبه مرة ثالثة، قال له: أنت أخذت رأس مالك، وما كتبا عقداً بهذه الشركة، القضية كيفية، والرجلان حيان يرزقان، الثاني طمع لأنه ليس ثمة وثيقة، فاعتبرها ديناً، رد له خمسة بخمسة، ومن حقه يأخذ مليوناً، مئات الحوادث المؤسفة سببها عدم الكتابة، سببها عدم الوعي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

(وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ)

[سورة البقرة: 282]

بشكل عميق، أنك إذا لم تقيد الطرف الآخر بعقد أصولي موثقٍ في محكمة البداية ربما أعنت عليه الشيطان فأغراه أن يأكل هذا المال كله، وأنت لك مسؤولية على هذا، أنت حينما لا تقيد الطرف الآخر بمواثيق وعهود وكتب وعقود وسندات موثقة تغريه أن يأكل مالك، وأن يدعك بلا مال، فإذا أكل هذا المال، وأفسدته بهذا المال تتحمل أنت نصيباً وافراً من الإثم والمسؤولية، لذلك،

(فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

هذه الآية تتعلق بأموال اليتامى، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون وقافين عند حدود الله، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقَّافاً عند كتاب الله، يأتمر بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر.

أخ كريم الحديث الذي ذكرته في الأسبوع الماضي جاءني به موثقاً فله الشكر. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل أتى ماله سفيهاً))

[رواه الحاكم في المستدرك والديلمي في المسند وصححه الألباني عن أبي موسى الأشعري]

هؤلاء الثلاثة إذا دعوا الله عز وجل لا يستجاب لهم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(05-69): تفسير الآيات 7-10 ، الإرث وأموال اليتامى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-03-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق بين الفرض والواجب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة، وهي قوله تعالى:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

المفروض يحتاج إلى فارض، فمن هو الفارض؟ إنه الله، قضية الإرث فرضها الله بذاته العلية، ولم يسمح لأحد من خلقه أن يتدخل فيها، ولو أنه تركها للخلق لكانت العلاقات الاجتماعية والضغوط والمحاباة سبباً في ظلم الناس بعضهم بعضاً، فلذلك أمور الإرث فرضها الله بنفسه، ولم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق أن يكون الأمر فيها إليه، الأمر لله وحده:

(نَصِيباً مَفْرُوضاً)

والفارض هو الله، وهناك فرق بين الفرض والواجب، الفرض يأتي من الأعلى، أما الواجب فينبع من الأدنى، فلان يقوم بواجبه طوعية، وفلان فرض عليه هذا الأمر من أعلى، فالفرض من أعلى، أما الواجب فمن أدنى.

أيها الأخوة الكرام، يروي العلماء أن هذه الآية نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي، وترك امرأة يقال لها: أم كجة، وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت، ووصياه يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله، ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء.

عدم إعطاء البنات حقهن أحد أنواع الجاهلية :

الآن إذا احتال الأب الغني، وخص بماله أولاده الذكور، وحرم الإناث أليس هذا العمل جاهلياً؟ ويفعل هذا العمل كثير من أغنياء المسلمين، ويفعل هذا العمل كثير من أبناء بعض المناطق، ظنّاً منهم أن البنت إذا نالت من أبيها شيئاً انتقل المال إلى زوجها، وهو غريب عن العائلة، وهذا كلام مخالف للحقيقة، ومخالف لمنهج الله عز وجل، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما روي عنه:

((إن أحدكم ليعمل في طاعة الله ستين عام ثم يضار في الوصية فتجب له النار))

[ورد في الأثر]

يعبد الله ستين عاماً، فإذا اقترب أجله حرم البنات وخص الذكور، بشتى الدعاوى، قد يكتب الذكور على أبيهم سندات عالية جداً، فإذا أبرزوا هذه السندات أخذوا كل مال أبيهم، هذا الإله العظيم الذي أمرك أن تعبده لا تخفى عليه خافية، هناك من يهرب من إعطاء البنات حقهن، هذا له عند الله عقاب شديد، لأن المرأة عند الله مساوية للرجل في حقوقها، وفي واجباتها، مساوية له في التكليف والتشريف والمسؤولية، فكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء.

كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف.

مع أن المنطق أن تعطي الصغير قبل الكبير، لأن الكبير اشتد عوده، له بيت، وله سيارة، وله زوجة، أما هذا الصغير إذا مات أبوه، وتركه صغيراً لا شيء عنده، لذلك الجاهلية في بعض الآيات وصفت بأنها الجاهلية الأولى، وفي هذا إشارة إلى أنه سوف تكون هناك جاهلية ثانية، فعدم إعطاء البنات حقهن من آبائهن أحد أنواع الجاهلية.

ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة، فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهما، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدواً، فقال عليه الصلاة والسلام: انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن، فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

لذلك التلاعب بالإرث تلاعب بدين الله، لا شأن لك أن تقول: هذا فقير، وهذا غني، وهذه البنت لها زوج ميسور الحال لا أعطيها، هذا ليس من شأنك، هذا شأن الشرع، والشرع محكم في حياتنا، وليس منطقنا الأعوج محكماً في الشرع.

الإرث من حق الأولاد جميعاً بحسب الفرائض التي فرضها الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، أتمنى على كل أخ كريم مسلم أن يكون دقيقاً في توزيع ماله وفق شريعة الله لا وفق مزاجه الشخصي، والله أنا أستمع أحياناً إلى شكاوى من بعض الأخوات لا يسامحن آباءهن ولا قيد أنملة، لأنه حرمهن من الإرث، فهذا الإرث من حق الأولاد جميعاً بحسب الفرائض التي فرضها الله عز وجل:

(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ)

أثبت الله تعالى للبنات نصيباً في الميراث، ولم يبين كم هو، قال:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

من قِبَل الله عز وجل، النقطة الدقيقة أن الله تولى بنفسه توزيع أموال المتوفى، ولم يَدَعْ هذا للنبي عليه الصلاة والسلام، لذلك لا يملك أحد على وجه الأرض أن يعدل في نظام الميراث، لأنه نصيب مفروض من قبل خالق الكون، ولم يبين كم هو، قال:

(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ)

[سورة النساء: 11]

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سويد وعرفجة ألا ينفقا من مال أوس شيئاً، فإن الله جعل لبناته نصيباً، ولم يبين كم هو حتى أنزل الله عز وجل: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ).

الله تعالى جعل أصل التوزيع نصيب المرأة :

ما هي الوحدة التي بموجبها توزع الأموال؟ نصيب الأنثى، ما قال: للنساء نصف حظ الرجال، الأصل هي المرأة، قال:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

فجعل الله أصل التوزيع نصيب المرأة، لا تدققوا فيما آلت إليه المرأة في عصور التخلف، التي آلت إليه جاهلية ثانية، أما المرأة في أصل القرآن الكريم ونصوص النبي عليه الصلاة والتسليم لها حقوق لا تدانيها حقوق في أية أمة من أمم الأرض، من منكم يصدق أن المرأة في الجاهلية كانت تُوَرَّث وكأنها قطعة أثاث، تورث؛ ترك بيتاً وسريراً وخزانة وزوجة، هكذا، كانت المرأة تورث، فإذا هي في الإسلام كائن له شخصية مستقلة ترث وتورث، ولها الحق في إدارة مالها، بشرط ألا تسبب للأسرة متاعب هي في غنى عنها.

قال بعض العلماء: نَصِيباً مَفْرُوضاً، هو كقولك قسماً واجباً، وحقاً لازماً، أيها الأخوة، هذا الكلام يدعونا إلى أن نقدس نظام الميراث في الإسلام، لو عندك من الوقت لتقرأ القوانين التي ابتدعها كبار العلماء في الأمم السابقة لوجدت أن نظام الإسلام أروع نظام على وجه الأرض، لأنه نظام خالق الكون، لأنه تشريع الصانع، والصانع هو الخبير، لكن ما الذي يحدث؟ رجل ترك أموالاً، وترك ورثة، وحول هؤلاء الورثة أقرباء وجيران وفقراء، فهؤلاء الأقرباء والجيران والفقراء ينظرون إلى هذه الأموال كيف توزع؟ كي نستل الحقد من قلوبهم، وكي نطيب نفوسهم، وكي نجعلهم يلتفون حول هذا الذي توفي، أو حول ورثته بالعناية والرعاية، يقول الله عز وجل:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

الزكاة تطهر نفس الغني من الشح و نفس الفقير من الحقد و الحسد :

أرأيت إلى هذا الشرع:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

ماذا نفهم من هذا الحكم؟ تطلب أحيانا طعاماً، فيحمل لك الطعامَ صانع فقير، ألا يشتهي هذا الذي نقل لك الطعام أن يأكل قطعة، إن أخذت هذا الطعام النفيس منه، وصرفته ألا يحقد عليك؟ هو إنسان يشتهي أن يأكل، فكل إنسان حضر قسمة، أو حضر طعاماً، أو حضر توزيعاً، ينبغي أن تطعمه من هذا الطعام، طبعاً الأصل أن هؤلاء الأقرباء الذين لا يرثون، وأن هؤلاء الجيران الذين لا نصيب لهم من هذا الإرث، لكنهم حولكم أيها الورثة، هؤلاء الذين حضروا القسمة رأوا كيف توزع الأموال، كيف تقسم هذه الأموال غير المنقولة والمنقولة، ما الذي يمنع أن تعطي هؤلاء الذين حولك من الفقراء والمساكين والجيران والأقرباء شيئاً تطيب به قلوبهم، أساساً حينما قال الله تعالى عن الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 103]

إذا دفع الإنسان زكاة ماله طهر من الشح، وإذا أخذ الفقير زكاة الغني طهر من الحقد، والآن حينما يرى الفقير البيوت والمركبات والمطاعم والفنادق والطعام النفيس، والثياب الجميلة، والنساء السافرات الكاسيات العاريات، وهو محروم من مأوى يسكنه، من طعام يأكله، من ثياب تستره، ماذا يفعل الغني حينما يخرج بزينته أمام الفقير؟ يملأ قلبه حقداً، ويملأ قلبه جريمة أحياناً، لذلك المجتمع الإسلامي فيه تعاون، وفيه تكافل، المجتمع الإسلامي فيه تراحم، المجتمع الإسلامي غنيه متواضع وسخي، وفقيره متجمل وعفيف، أما حينما خرج على قومه بزينته كقارون فقد قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص: 81]

خسفنا به، فإياك أن تتباهى بطعامك وشرابك وبيتك، إياك أن تزرع الألم في قلوب الآخرين، إياك أن تزرع في قلوبهم الحقد، إياك أن تتباهى بما أكلت، وما شربت، وأين سافرت، وفي أي فندق نزلت، ومع من سهرت، هذا كلام الجهلاء، قل كلاماً يؤلف القلوب، ولا تقل كلاماً يبث الأحقاد، تحدث عن الله يجتمع الناس حولك، تحدث عن نفسك يتألم الناس منك، فعوِّد نفسك على أنّ هذا الذي أمامك إنسان.

الوصية الواجبة من الآية التالية :

مثل بسيط، يركب إنسان بمركبة عامة، ويجلس إلى جانبه إنسان مع طفل صغير، يأكل الفستق والفواكه والموز، ولا يخطر بباله أن يضيِّفَ الصغير شيئاً مما يأكل، هذا وحش، إنسان يشتهي ما

تأكل، بالمقابل لا تعطِ ابنك إلى مدرسته شيئاً غالي الثمن، أحيانا يعطيه خمسمئة ليرة، وهو في الحضانة، يعطيه أكلات ثمنها مئة ليرة فما فوق، له رفيق فقير:

((ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقُتَار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[ابن عدي والخرائطي في مكارم الأخلاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

الإسلام فيه تعاطف، المؤمن الكريم متواضع، يشعر بمن حوله، لا ينفرد في طعام أو شراب:

((وإذا اشتريت فاكهة فأهد له فإن لم تفعل فأدخلها سِرًّا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقُتَار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[ابن عدى ، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

آية واحدة يبنى منها مئة حكم.

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ)

قريب محجوب، محجوب بالمصطلح الفقهي، والمعنى أنه لا يرث، العلماء استنبطوا الوصية الواجبة الآن من هذه الآية، يعني إنسان مات في حياة والده، أولاده لا يرثون، الوصية الواجبة انطلاقاً من هذه الآية أعطتهم نصيباً، لآن المتوفى جدهم، ولأن أباهم مات في حياة جدهم يأخذون شيئاً، إذاً الوصية الواجبة جاءت لتقرر هذه الآية هؤلاء حضروا القسمة، توفي جدهم، وأعمامهم أخذوا، هم لم يأخذوا، لأن والدهم توفي في حياة جدهم.

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)

قس عليها حالات لا تعد ولا تحصى، جاء إليك إنسان بطعام فأطعمه منه، جاء لك بفاكهة فأطعمه منها، قدم لك خدمة فأعطه ما يقابلها كي تستل منه الحق، وكي تزرع في قلبه الحب.

الإنسان مأمور بالعدل والإحسان :

أخواننا الكرام، نحن الآن في أمس الحاجة إلى الحب، عندنا مساجد، وعندنا مكتبات، ونعقد مؤتمرات، لكن الحب الذي كان بين الصحابة نفتقده اليوم، ينبغي أن نؤسس هذا الحب، على التبادل، وجبت محبتي، كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاورِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني]

((والمُتَحَابّونَ فيّ جَلاَلِي لَهُمْ مَنَابرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النّبيّونَ وَالشّهَدَاءُ))

[رواه أحمد عن عبادة بن الصامت]

أنا أرى أنه من واجبنا جميعاً أن يحب بعضنا بعضاً لا بالكلام ولكن بالفعل، إذا زرت أخاك، إذا أعنته، إذا تفقدت أحواله، إذا أعطيته، إذا استنصحته، إذا رفقت به أحبَّك، فالنبي أمرنا بأسباب الحب، ونهانا عن أسباب البغضاء:

((كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه، وعرضه، وماله))

[مسلم عن أبي هريرة]

بالعكس في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

كيف؟ لي جيبان نقلت ألف ليرة من جيب إلى جيب، فماذا فعلت؟

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

أي؛ لا تأكل مال أخيك، الله سماه مالك، هو مالك من زاوية واحدة، من زاوية وجوب الحفاظ عليه فقط، فإذا كنت مكلفاً أن تحافظ عليه فلأن تمتنع من أكله من باب أولى، تماماً لو قلت لرجل أعرته مركبتك: عدَّها سيارتك، ما معنى ذلك، تتملكها يعني؟ لا، أن تعتني بها وكأنها سيارتك،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

يعني مال أخيك مالك، من زاوية وجوب الحفاظ عليه وكأنه ماله، إذاً:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى)

الأقرباء الذين لا يرثون بالنصيب المفروض، بالمناسبة:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

كما أنك مأمور بالعدل فأنت مأمور بالإحسان، العدل: توزيع الأموال وفق النصيب المفروض، والإحسان:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)

العدل: قسري، والإحسان: طوعي لكنك مأمور بالعدل والإحسان.

العدل نصيب مفروض فهو قسري أما الإحسان فهو طوعي :

أيها الأخوة الكرام، ألف قضية لا تستقيم على العدل، لكنها تستقيم على الإحسان، قال لي مرةً أخ: أنا اشتريت هذا المحضر في دكان لإنسان فقير هدمها له بحسب القانون، فسألته: لمَ فعلت هذا؟ قال: ليس له عندي شيء، أنا اشتريت هذا المحضر، وهذا الإنسان ينبغي أن يقدم لي هذا المحل فهدمته، قلت: والله شيء رائع، هذا هو العدل، فأين الإحسان؟ فسكت، والله دفع شيئاً من زكاة ماله، واشترى لصاحب هذا المحل محل في مكان آخر، فإذا كانت القضية لا تستقيم على العدل يسعها الإحسان، عود نفسك أن تكون منفذاً لهذه الآية التي يقرؤها ويتلوها خطباء المساجد من ألف عام عقب كل خطبة:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

والله التقيت بشخص، طلقت زوجة أبيه، أعطيت حقها كاملة، فابنه من أهل اليسار والغنى، يجعل لها راتباً شهرياً من عشرين عاماً، لا يتغير أبداً، قضية الإحسان قضية واسعة جداً، بالإحسان تحل كل مشكلاتنا، العدل قسري، العدل نصيب مفروض، أما الإحسان فهو طوعي:

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

الله عز وجل له مقاييس غير مقاييس البشر :

أيها الأخوة الكرام، يقول بعض العلماء: ضيع الناس هذه الآية، وقال الحسن: لكن الناس شحوا أي؛ بخلوا، لكن هذا الحق حق على المحسنين، وعلى المتقين، وعلى المؤمنين (فارزقوهم منه)، يعني أعطوهم جزءاً من هذا الميراث:

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

قال: إذا كانت الأموال قليلة جداً لا تسع من حضر القسمة، ترك شيئاً لا يذكر، لا يحتمل أن تعطي آخر، فإن لم تعطه قال:

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

يعني اعذرونا الوضع في ضيق، والورثة فقراء، والمبلغ قليل، هؤلاء أيتام إن لم تعطهم فلا بد أن تقول لهم قولاً معروفاً، وإن أعطيتهم فينبغي أن تقول لهم كما قال بعض العلماء، هذا المبلغ قليل، لكن إن شاء الله في مناسبات أخرى لا نقصر معك، اعذرنا لقلة هذا المبلغ، وفي كلام آخر هذه هدية، هناك من يعطي ويؤذي، خذ زكاة مالي، لماذا هذه الغلظة يمكن أن تؤدي زكاة مالك دون أن تقول: هذه زكاة مالي، على شكل هدية، على شكل مناسبة، انتهز مناسبة، انتهز أول العام الدراسي فرضاً، بأيام رمضان، بالعيد، يمكن أن تستشف ما يحتاجه هذا البيت، وأن تأتيه بحاجة أساسية دون أن تذله، وأن تقول له: أنت فقير وهذه زكاة مالي:

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

قال بعضهم: من القول المعروف خذ بورك لك فيه، من القول المعروف وددت لو كان أكثر من هذا، من القول المعروف لا تستحي من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه، انتق كلاماً لطيفاً، طيب به قلب الفقير، ولعل هذا الفقير أقرب إلى الله منك، ولعل قلامة ظفر هذا الفقير أعظم عند الله من مئة من أمثالك، لعل الله له مقاييس غير مقاييس البشر.

((ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه مسلم وابن حبان عن أبي هريرة]

المنطلق من الآية التالية عامل الناس كما تحب أن يعاملوك :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

المنطلق من هذه الآية عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، لو أنك غادرت الدنيا، ولك أولاد ضعاف كيف تحب أن يعاملوا بعد موتك؟ فإذا كنت وصياً على أيتام فعاملهم كما تحب أن يعامَل أولادك بعد وفاتك، ارعَ حقهم، وارع أموالهم، وأدبهم، وعلمهم، واعتن بهم:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ)

في الأيتام الذين تحت وصايتهم، ليعاملوا الأيتام التي تحت وصايتهم كما يتمنون أن تعامل ذريتهم الضعيفة بعد موتهم، هذا المعنى الدقيق:

(فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

لا تنصح بغير كلام الله وسنة رسوله :

أيها الأخوة الكرام، إذا سألك رجل: نويتُ أن أكتب هذا البيت لأولاد الزوجة الجديدة، أحبها كثيراً، وأحرم أولاد الزوجة القديمة، لا تقل له: معك الحق، وتجامله، تكلم بالقول السديد، قل له: لا يجوز، هذا يوجب لك النار، لا تجامله، لا:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ)

لمن يستنصحهم:

(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

ذكره بالآخرة، ذكره أن هذه البنت الذي حرمتها ربما تقف يوم القيامة تحت العرش، وتقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه حرمني، حينما تميز الذكور على الإناث فأنت جاهلي، جاهلي بالكلمة العريضة:

(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

إذا استنصحوا، لا تنصح بغير كلام الله، لا تنصح بغير سنة رسول الله، لا تجامل أحداً، قال: يا رسول الله اشهد ـ النعمان بن البشير ـ أني نحلت ابني حديقة، قال: يا نعمان ألك ولد غيره؟ قال نعم، قال: هل نحلتهم جميعاً كما نحلت هذا؟ قال: لا، قال: فأشهد غيري فإني لا أشهد على جور:

(وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

((الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم))

[رواه مسلم عن أبي رقية تميم الداري رضي الله عنه]

قصة عن أكل أموال اليتامى تؤكد عدل الله وحكمته ورحمته :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً)

يعني إنما يأكلون في بطونهم مالاً سوف يوجب لهم دخول النار، هذا اسمه مجاز عقلي بما سيأتي، كأن تقول: رعينا الغيث، الماء لا يرعى ولكن يرعى الكلأ، فإذا قلت رعينا الغيث لما سيكون.

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

أيها الأخوة، قضية الأموال قضية خطيرة جداً:

((يغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين))

[مسلم عن عبد الله بن عَمْرو وعن أبي قتادة]

وقد استوقفني مرة إنسان في الطريق، وخرج من دكانه غاضباً، وقال: سمعت اليوم قصة لم أستطع تفسيرها، قلت: تفضل، قال: جاء إنسان إلى محلي التجاري في أحد أسواق دمشق القديمة ليبيع الأقمشة، وليسترزق رزقاً حلالاً لأولاده، سمع صوت إطلاق النار، مد رأسه ليرى من يطلق النار فإذا برصاصة تستقر بعموده الفقري، فشُلَّ فوراً، هو أخذ الحادثة على ظاهرها، قال: ما ذنبه؟ جاء ليسترزق، جاء ليفتح دكانه، والعمل عبادة، فما تفسير هذا؟ قلت: والله لا أعلم، لا يمكن أن تفهم عدل الله من خلال أفعاله، إلا أن يكون لك علم كعلم الله، والله لا أعرف، أنا مؤمن بعدل الله وحكمته ورحمته، أخ كريم بعد عشرين يوماً حدثني عن قصة لم يعلم ما أبعادها عندي، قال لي: لي جار يسكن فوقي، وقد أكل أموال الأيتام، يعني أولاد أخيه لهم عنده ثمن بيت تقريباً، وأكله زوراً وبهتاناً، احتكموا إلى أحد علماء دمشق ممن توفاهم الله عز وجل، هذا العالم جاء بهذا العم ليحمله على إعطاء أولاد أخيه حقهم، فركب رأسه، وقال: أنا لا أعطيهم شيئاً هذا الحاضر، اتجه هذا العالم لأولاد الأخ فقال: يا بني هذا عمكم لا تشكوه إلى القضاء، هو عمكم، ولكن اشكوه إلى الله، هو نفسه الذي أطل من دكانه فاستقرت رصاصة جعلته مشلولاً ثاني يوم الساعة التاسعة، هو نفسه، سألته: أين هو؟ قال: هو له محل في السوق الفلاني، قلت: منذ متى؟ قال: من عشرين يوماً، هو نفسه، فالله كبير.

على الإنسان أن يجعل بينه وبين مال اليتيم هامشاً واسعاً :

بموضوع الأموال يجب أن نخاف الله خوفاً لا حدود له، لأنك لو بذلت أثمن ما تملك، وهي روحك، وعليك دين لا تنجو من عذاب الله، فكيف لو أكلت أموال اليتامى ظلماً؟!

كان عليه الصلاة والسلام إذا دعي للصلاة على أحد أصحابه يقول: أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، ما كان يصلي عليه، فكيف إذا أكل أموال اليتامى ظلماً:

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

هذا العمل سوف يوصلهم إلى جهنم، فالإنسان يعد للمليون قبل أن يأكل درهماً حراماً ليخشَ الله عز وجل، ولاسيما إذا كان المال مال يتيم، بل إن مال اليتيم يقول الله فيه:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152] z

اجعل بينك وبينه هامشاً واسعاً، هذا هو حكم الشرع، في درس قادم إن شاء الله نتحدث عن آيات المواريث.

أسئلة عامة :

سؤال: قال أحدهم إغلاق العينين في الصلاة من أجل الخشوع يبطل الصلاة؟

الجواب: لا، لا يبطلها، لكن إذا أغمضت عينيك، وأنت تصلي في مكان فيه أفاع، وفيه عقارب، وفيه أخطار لا تستقيم صلاتك، أما إذا دخلت إلى مسجد ورأيته مزخرفاً، هذه الآية والله خطها جميل، وأنت تصلي، وهذه المروحة ما نوعها، وأنت تصلي، لا، أغمض عينيك، أغمضها وارتَحْ، إذا أردت أن تفتح عينيك، وأن تتأمل ما حولك وأنت في الصلاة، لا، الأولى أن تغمض عينيك، أما إذا في مكان، والمكان فيه خطر إذا أغمضت عينيك لا تستقيم صلاتك، تقلق، افتح عينيك.

سؤال: ما حكم الاحتفال بعيد الأم؟

الجواب: أخواننا نحن عندنا ثلاثمئة وخمسة وستين يومَ عيد أم، والأصح عندنا ثلاثمئة وخمسة وستين ضرب اثنين، إذا كانت والدتك قريبة منك، تريد أن تزورها صباحاً ومساء، نحن لسنا أولاداً عاقين، من السنة للسنة مرة، فنحن عندنا في إسلامنا ثلاثمئة وخمسة وستين يوم عيد أم، أما هذا العيد فهو لغيرنا، هذا العيد لإنسانة تنتظر ثلاثمئة وخمسة وستين يوم يطل عليها بالسنة يوم، ولا يأتي أيام، والله حدثني أخ زار ألمانيا بمعرض، لم يجد فندق، سكن في بيت، قال لي: ما وقعت عيني على حديقة في حياتي أجمل من هذه الحديقة فسألت صاحبة البيت: ما سر ذلك؟ قالت: والله أنا أزينها، لعل أولادي يأتون في العام مرة، أصنع لهم أطيب الطعام، وأعتني بالحديقة كي يجلسوا جلسة، بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً تنتظر مجيئهم، يوم كان عندها اعتذروا، فبكت بكاء كادت

تموت فيه من الألم، فذهب إلى السوق، واشترى لها الهدايا هو، هذا العيد ليس لنا، هذا العيد لأناس عاقين، قال لي رجل: أنا جئت من بريطانيا لأسكن في الشام، وأنا في بحبوحة كبيرة جداً، وسيارته فخمة جداً، ولديه فيلا، قلت له مداعباً: ما الذي حملك على أن تأتي إلينا؟ قال لي: والله يسكن في بناء مجاور في الطابق الأخير إنسان، في لندن الجو بارد جداً، والأبواب محكمة، والنوافذ محكمة، فمات هذا الجار، ومضى على موته ستة أشهر، وله في لندن أربعة أولاد أو خمسة، لم يخطر في بال أحد أولاده أن يأتيه مرة زائراً في هذه الأشهر فرأى مصيره، أراد أن يعود إلى بلده، هذا العيد لهؤلاء، لهؤلاء العاقين، أما نحن فعندنا ثلاثمئة وخمسة وستين عيد أم، كل يوم.

ما حكم النظر إلى النساء؟

لزوجتك مباح من دون قيد أو شرط، لمحارمك بثياب الخدمة، للأجنبيات محرم.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

سؤال: قال معظم المسلمين ممن يكونون مؤدين لأمور العبادة بشكل كامل، من صلاة، وزكاة، وصيام، وغير ذلك، ولكنهم لا يقومون بتقويم أسرهم، وإرشادهم، حيث إنك تجد معظم الأسر يتبعون المسلسلات والأفلام، ويستمعون إلى الأغاني دون أن يوجهون أهليهم بالنصح والتوجيه، فهل هذه العبادات تصح منهم بحيث أنها أصبحت عبادة سلبية لا أثر فيها.

الجواب: لا بد أن يستمروا على عبادة الله، ولكن ينبغي أن يجمعوا معها الاستقامة على أمر الله، من أجل أن يقطفوا الثمار الصحيحة.

سؤال: هل يجوز توزيع الزكاة خارج البلد الذي جمعت فيه؟

الجواب: الأصل أن توزع الزكاة في البلد التي جمعت منه الزكاة، لأن فقراء هذا البلد أولى بزكاة الأغنياء الذين هم سبب غناهم من بلد آخر، إلا لمصلحة راجحة، إذا أنت عندك بيت لكن غيرك ليس عنده بيت، هدم بيته، فإذا كان في مصلحة راجحة، ولك طريق آمن إليهم، يجوز أن تنقل أموال الزكاة من بلد إلى بلد.

سؤال: هل يجوز الدعاء في صلاة الفرض؟

الجواب: هي الصلاة دعاء، أما يا رب زوجني فلانة بنت فلان خائنة، ومثل هذه التفاصيل في الدعاء تفسد الصلاة، يا رب أريد دولارات مثلاً، أي اسم لم يرد في الأدعية المأثورة فثمة مشكلة، لأن الصلاة دعاء.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(06-69): تفسير الآيات 11-14، موضوع المواريث

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-03-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية متعلقة بموضوع المواريث :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من دروس سورة النساء، ومع الآية الحادية عشرة وما بعدها، والآيات متعلقة بموضوع المواريث، الآية الأولى هي قوله تعالى:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

أيها الأخوة، يبين الله تعالى ويفصِّل في هذه الآية ما أجمله في قوله تعالى السابق:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

ما تفصيل هذا النصيب؟ تفصيل هذا النصيب ورد في آية المواريث:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

علم الفرائض نصف العلم :

أيها الأخوة الكرام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا الفرائض وعلموه الناس، فإنه نصف العلم))

[أخرجه ابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

علم الفرائض كما قال عليه الصلاة والسلام نصف العلم؛ وهو يُنسَى، وهو أول شيء يُنزَع من أمتي، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا القرآن، وعلموه الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض حتى يختلف الرجلان في الفريضة لا يجدان من يخبرهما))

[رواه أبو يعلى والبزار عن ابن مسعود]

لاحظتم: تعلموا وعلموا، لذلك قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

هذه أركان النجاة، تتعلم وتعمل بما علمت، وتعلم الذي تعلمته، وتصبر على التعلم والتعليم، تتعلم، وتعمل، وتعلم، وتصبر، تصبر إذا طلبت العلم، وتصبر على من تعلمه إذا علمته العلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منهم، وتواضعوا لمن تعلمونهم، هذه أركان النجاة، العلم هو الحاجة العليا في الإنسان، أنت إنسان إذا طلبت العلم، فإن لم تطلب العلم فأنت مع بقية المخلوقات.

العلم ثلاثة :

أيها الأخوة، يقول بعض الصحابة: من لم يتعلم الفرائض والطلاق والحج فبمَ يفضل أهل البادية؟ وفي قول آخر لأحد التابعين: من تعلم الفرائض من غير علم بها من القرآن ما أسرع ما ينساها، إذا ربطت الفرائض بالقرآن وبالآيات لا تنساها، أما إذا درستها بعيدة عن كتاب الله سرعان ما تنساها، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة))

[أخرجه أبو داود وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن ابن عمرو]

يعني أن تعرف كتاب الله، لا شيء في حياتك يعلو على هذا الشيء، وهذا الدرس بفضل الله درس تفسير من ست وعشرين سنة،

((العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل))

1 ـ آيات محكمة لمجرد أن تقرأها تعرف معناها :

أما الأصل فـ(آية محكمة)، أن تفهم كتاب الله، ولا سيما أن تفهم آياته المحكمة، هناك بعض الآيات المتشابهة، هذه أوكل معناها إلى الله عز وجل، أما الذي هو مفروض عليك فريضة عين هو الآيات المحكمة، يعني معظم آيات الكتاب لا تحتاج إلى تفسير.

إن الله يحب الصادقين، أنت لا تحتاج لا إلى تفسير الزمخشري، ولا إلى البيضاوي، ولا إلى القرطبي، ولا إلى ابن كثير، لا تحتاج أبداً.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة: 222]

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة الإنسان: 30]

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

هذه كلها آيات محكمة لمجرد أن تقرأها تعرف معناها.

2 ـ سنة قائمة فسنة النبي تفسير لكلام الله :

العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، سنة النبي شرح الآيات.

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

[سورة النحل: 44]

قد يقول قائل: لو أن النبي فسر القرآن فكل أحاديثه هي في الحقيقة بيان وتفصيل لما في القرآن.

3 ـ فريضة عادلة أن تحكم بين الناس بالعدل وفق منهج صحيح :

أو فريضة عادلة، يعني أن تعرف كيف تؤدي الحقوق إلى أصحابها، أن تعرف كتاب الله، وأن تستوعب سنة النبي التي هي تفسير لكلام الله، ثم أن تحكم بين الناس بالعدل وفق منهج صحيح.

الشهداء أحياء بكل معاني هذه الكلمة :

أيها الأخوة، عن جَابِرِ بن عَبْدِ الله:

((أنّ امْرَأَةَ سَعْدِ بن الرّبيع قالَتْ: يَا رَسُولَ الله إنّ سَعْداً هَلَكَ))

[أخرجه أبُو دَاوُدَ عن جَابِر بن عَبْدِ الله]

هذا سعد بن الربيع تفقده النبي في أحد، فقال: ابحثوا عنه، فانطلق أحد أصحاب النبي إلى ساحة المعركة، فإذا هو بين القتلى، لكنه يئن، قال: يا سعد أنت مع الأموات أم مع الأحياء، قال: أنا مع الأموات، ذكر له أن النبي تفقده، فقال هذا الإنسان وهو على مشارف الموت: أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ أصحابه: أنه لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، هكذا كان حال هذا الصحابي الجليل وهو يفارق الدنيا، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

ما دمنا قد تحدثنا عن الشهادة.

((من جهز غازياً في سبيل اللَّه فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد]

((ومن سأل الله الشهادة مخلصا أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه))

[أخرجه الطبراني عن معاذ]

وتعلمون أن الله سبحانه وتعالى يجعل لهؤلاء الشهداء جنات تجري من تحتها الأنهار، وهم أحياء، بكل معاني هذه الكلمة.

علم المواريث أو علم الفرائض هو أول علم ينزع بين المسلمين :

((جاءت امرأة سعد ابن الربيع فقالت لرسول الله: إن سعد هلك وترك ابنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما تنكح النساء على أموالهن ـ هذه إشارة لطيفة جداً، يعني إذا كان الرجل ميسوراً فكتب لإحدى بناته بيت، فهذه البنت مع البيت تغدو مرغوبة في الزواج منها، وسيلة من الوسائل أن تسهم في تزويج ابنتك، الحياة صعبة، وشاب مؤمن فقير، لكن لا يملك بيتاً، فالأب الرحيم الأب الميسور يسهم في تزويج بناته عن طريق معونة الأصهار، معونة الخاطبين، وإنما تنكح النساء على أموالهن ـ فلم يجبها في مجلسها ذلك، ثم جاءته فقالت: يا رسول الله، ابنتا سعد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع لي أخاه، فجاءه، فقال: ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي.))

[روى الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، عن جابر]

وروى جابر أيضاً فقال:

((مرضت فعادني رسول الله وأبو بكر في بني سلمة، فوجداني لا أعقل ـ في غيبوبة ـ فدعا رسول الله بماء فتوضأ، ثم رش منه عليَّ فأفقت، قلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ}))

[صحيح البخاري عن جابر]

أيها الأخوة، إذاً هذا علم مهم علم المواريث، أو علم الفرائض، وأول علم ينزع بين المسلمين:

((تعلموا الفرائض وعلموه الناس، تعلموا القرآن وعلموه الناس، فإني امرؤ مقبوض))

[رواه الدارمي عن ابن مسعود]

ولكن الأمر أصبح ميسراً جداً، وقد اطلعت على برنامج للفرائض يستطيع أن يتعلمه أيُّ إنسان، حيث يستخدمه فيعرف كل المسائل مع تعليلاتها، وقوانينها، ومراجعها، وأدلتها، وحساباتها الدقيقة.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

الآن في هذا العصر لا عذر للجهل إطلاقاً، كل شيء واضح، كل شيء ميسر، كل شيء سهل، تعلمون في الدرس الماضي أن أهل الجاهلية لا يورثون إلا من كان يحارب، ويقاتل، لذلك نزلت هذه الآية تبياناً أن كل صغيرٍ وكبيرٍ له حظٌ في الإرث يقول الله عز وجل:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

حقيقة الولد الصلبي الذي منك، ومجازاً ابن الابن، أولادكم تعني أولادكم من أصلابكم، وأولاد أولادكم، كما أن الأب يعني أباك الذي أنجبك ويعني أيضاً والد والدك، مهما علا.

لا يرث المسلم من كافر ولا يرث الكافر من مسلم وهذا استثناء من عموم الآية :

أيها الأخوة:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

طبعاً المطلق في القرآن على إطلاقه، أي جميع الأولاد، القريبين منك، والبعيدين عنك، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

أي أن يكون الميراث لجميع الأولاد، لكن لا يرث المسلم الكافر، ولا يرث الكافر من مسلم، ما دام قد خرج من دين الإسلام لا يستحق الإرث، إذاً هذا استثناء من عموم الآية:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

يعني في جميع أولادكم الصغار، والكبار، الذكور، والإناث، الأقرباء، والبعيدين، هذا ما عليه الجمهور، لكن بعضهم يرى، ومنهم سيدنا معاذ ومعاوية أن المسلم يرث الكافر، فإذا كان لإنسان مسلم أب كافر فإنه يرثه، لكن جمهور العلماء على أن المسلم لا يرث الكافر، والكافر لا يرث المسلم، وقد أجمع العلماء أيضاً على أن الأولاد إذا كان معهم من له فريضة تؤدى هذه الفريضة أولاً، ثم ما بقي فهو لهم:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

الدَّين مقدم على كل شيء ولا يغفر للمسلم الدَّين ولو كان شهيداً :

هناك إرث بالتعصيب، وإرث بالفريضة، فلو أن الأولاد معهم مَن له فريضة بالإرث يعطى أصحاب الفرائض أولاً، وما بقي يوزع بين الأولاد:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألحقوا الفرائض بأهلها))

[متفق عليه عن ابن عباس]

الشيء الدقيق الآية:

(يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)

الدَّين مقدم على كل شيء، ولا يغفر للمسلم الدَّين ولو كان شهيداً:

((يغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين))

[مسلم عن عبد الله بن عَمْرو وعن أبي قتادة]

وكان عليه الصلاة والسلام إذا مات أحد أصحابه يسأل: أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، لذلك قبل أن تقترض عد إلى المليون، هل تستطيع أن تؤدي هذا الدين، لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

لا ميراث إلا بعد أداء الدَّين والوصية :

قال تعالى:

(مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)

أول شيء يوزع من تركة المتوفى الدَّين، بعد الدَّين الوصية، والوصية ينبغي ألا تزيد على الثلث، فإن زادت فلا تنفذ، والأولى أن تقل عن الثلث إلى الربع، لكن مثلاً إنسان ترك بيت مئة متر، وعنده أولاد خمسة، فإذا أوصى بثلث ماله فلا بد من بيع البيت، وهذه مشقة كبيرة جداً، بيت يأوون إليه، فأنت إذا أوصيت، ولم تترك إلا بيتاً صغيراً هو مأوى أولادك وزوجتك فأنت تأثم بهذه الوصية، ما دام بيت صغيراً فلا توصِ، أما إذا ثمة أموال كثيرة فلك أن توصي في حدود الثلث، والثلث كثير، والأولى أن تبقي الوصية في حدود الربع، لا ميراث إلا بعد أداء الدَّين والوصية، فإذا مات المتوفى، إياكم أن تقولوا المتوفي، إنه الله، مرة سألت امرأةٌ عالمَ لغة، وكان أستاذنا في الجامعة، قالت له: يا أخي من المتوفي؟ قال لها: الله، قالت له: كفرت، هو لم يكفر، المتوفي هو الله، لكن هذا الذي في النعش متوفى، إذا مات المتوفى أخرج من تركته الحقوق المعينات، ثم ما يلزم من تكفينه، ودفنه، ثم الديون التي على مراتبها، ثم يخرج من الثلث الوصايا، وما كان في معناها، والباقي يكون ميراثاً.

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

يتناول كل ولد ولو كان جنيناً، فإن الجنين في بطن أمه يرث، لذلك ينبغي أن يعلق توزيع الإرث على ولادة الجنين، فإذا نزل ميتاً لا يرث، أما إذا نزل، وصرخ صرخة واحدة يرث، ويورث إذا مات، إذا خرج منه صوت بعد الولادة، وقد يكون نصيبه مئة مليون، فإذا خرج منه صوت يورث، فإن لم يخرج منه صوت، ونزل ميتاً لا يرث، إذاً:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

في جميع أولادكم، حتى الجنين في بطن أمه، قريباً أو بعيداً، ذكراً أو أنثى، ما عدا الكافر كما تقدم.

حظ الأنثى أصل في توزيع الميراث :

قال تعالى:

(يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

ما هي الوحدة؟ الوحدة هي حظ الأنثى، حظ الأنثى أصل في توزيع الميراث، قال:

(فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ)

إذا ترك نساء، يعني بنات فوق اثنتين:

(فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ)

وإن ترك واحدة:

(وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

الآية:

(فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

أريت إلى هذا التكريم، بنت تأخذ نصف مال أبيها والبنتان تأخذان الثلثين.

بعض المعالجة الفقهية لموضوع إرث الاثنتين :

لكن ثمة شيء لطيف جداً، البنت لها النصف، والبنات فوق الاثنتين لهن ثلثا ما ترك، والاثنتان هذه قضية خلافية، أطلعكم على بعض المعالجة الفقهية.

إذاً: لم يفرض الله في القرآن للاثنتين فرضاً منصوصاً في كتابه، فتكلم العلماء في الدليل الذي يوجب لهما الثلثين، ما هو؟ أولاً: عن ابن عباس أنه أعطى البنتين النصف، والبنت الواحدة لها النصف، وما فوق الاثنتين لهن الثلثان، أما البنتان فابن عباس أعطاهما النصف، وعاملهما معاملة البنت الواحدة، لأن الله عز وجل يقول: فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، فهذا شرط وجزاء، فلا أعطي البنتين الثلثين، وقيل: أعطيت الثلثين بالقياس على الأختين، فإن الله سبحانه وتعالى لما قال في آخر السورة:

(وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ)

[سورة النساء: 176]

صحابة كبار قاسوا على البنتين حكم الأختين، فأعطوهما الثلثين، فألحقت البنتان بالأختين في الاشتراك في الثلثين، وألحقت الأخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين، وفي الآية أيضاً ما يدل على أن للبنتين الثلثين، ذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث إذا انفردت معه علم أن للاثنتين إذا كن معه لهما الثلثان.

كتب المواريث تعد آلاف الصفحات كلها مستنبطة من صفحة واحدة من كتاب الله :

أيها الأخوة، هذه قضية أيضاً في المواريث:

(وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

إن كانت المولودة واحدة فلها النصف:

(فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً)

يعني كثيرات، فإن كان مع بنات الصلب بنات ابن، الآن بنت واحدة، لكن هناك بنات ابن، وكان بنات الصلب اثنتين فصاعداً حجبن بنات الابن أن يرثن بالفرض، وإن كانت بنت الصلب واحدة فإن ابنة الابن أو بنات الابن يرثن مع بنات الصلب تكملة للثلثين، هذه رياضيات المواريث، أما العجيب أن كتب المواريث تعد آلاف الصفحات كلها مستنبطة من صفحة واحدة من كتاب الله، هل يستطيع واحد أن تعطيه ألف صفحة ليضغطها في صفحة واحدة، الآية:

(يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)

الجنين إذا خرج ميتاً لا يرث فإذا رفع صوته بالبكاء ثم مات يرث ويورث :

الآن إذا مات الرجل، وترك زوجة حاملاً، فإن المال يقف حتى يتبين ما تضع، وأجمع أهل العلم على أن الرجل إذا مات وزوجته حامل أن الولد الذي في بطنها يرث ويورث إذا خرج حياً واستهل، أي رفع صوته بالبكاء عند الولادة، فقالوا جميعاً: إذا خرج ميتاً لا يرث، فإذا رفع صوته بالبكاء ثم مات يرث ويورث، هذا هو الحكم الشرعي:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

أيضاً:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

(وَلِأَبَوَيْهِ)

أي لأبوي الميت، يعني أمه وأباه على التغليب، كأن تقول: الشمسان، وتقصد الشمس والقمر، أو القمران، وتقصد القمر والشمس، وأن تقول: العمران، وتقصد أبا بكر وعمر، وأن تقول: الوالدان، وتقصد الأم والأب:

(وَلِأَبَوَيْهِ)

من علا من الآباء دخل، ومن سفل من الأبناء ـ أنا لا أستخدم هذه الكلمة ـ من نزل، الآباء مهما علوا أي الأجداد، والأبناء في قول مهما سفلوا ـ السفالة ليست مستحبة أن نستخدمها ـ فالأولاد مهما نزلوا هم أولاد.

وجود الأخوة قد يحجب نصيب الأم من الثلث إلى السدس حجب نقصان :

قال تعالى:

(وَلِأَبَوَيْهِ)

أي لأمه ولأبيه:

(لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ)

فالحكم الشرعي:

(لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ)

فرض الله تعالى لكل واحد من الأبوين مع الولد السدس:

(فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ)

من الثلث إلى السدس، من دون أولاد ثلث، مع الأولاد سدس، الأخوة إذاً يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وهذا هو حجب نقصان، سواء أكان الأخوة أشقاء لأب أو لأم، إذاً فرض الله جل جلاله للأبويين لكل واحد منهما السدس مع الولد، فرض الله سبحانه وتعالى لكل واحد من الأبويين السدس مع وجود الولد، لكن وجود الأخوة قد يحجب نصيب الأم من الثلث إلى السدس حجب نقصان.

لا تُبنى المواريث على مقدار نفع الأولاد وبرهم أو عقوقهم :

ثم يقول الله عز وجل:

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً)

الأبناء ينفعون آبائهم بالدعاء والصدقة بعد موتهم، وقد ينفعونهم في حياتهم بالمعاونة، فإذا بنيت المواريث على مقدار نفع الأولاد وبرهم أو عقوقهم، هذه المقاييس غير ثابتة، نشأت فتن لا يعلمها إلا الله، لذلك موضوع أي الأبناء بار وأيهما أقل براً؟ من هو العاق؟ من هو الذي ينفعني؟ من الذي لا ينفعني؟ لو أدخلنا هذه المقاييس في نظام المواريث لكنا أمام مشكلة كبيرة جداً، إذاً:

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً)

أي في الدنيا، في الصدقة والدعاء، إن الرجل ـ كما جاء في الأثر ـ ليرفع بدعاء ولده من بعده.

((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وقد ورد في بعض كتب التفسير أن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سأل الله فرفع إليه أباه، وكذلك الأب إذا كان أرفع من ابنه يسأل الله فيرفع له ابنه، وهذا تشجيع لنا على أن نعتني بآبائنا وبأولادنا.

هذا التوزيع فريضة من الله، لم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام مع أنه سيد الخلق وحبيب الحق، لم يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يوزع المواريث، فريضة من الله، إذاً علاقات الأقارب، البر وعدم البر، العقوق وعدم العقوق، الخير، النفع، اللطف الزائد، هذا كله لا يدخل في توزيع المواريث، وهناك أناس كثيرون يدخلون هذه العلاقات في توزيع الإرث.

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ)

إذا كان ثمة أولاد فلكم الربع، نصيب الزوج من زوجته النصف إن لم يكن له ولد، فإن كان له ولد فنصيبه الربع، نصيب المرأة من زوجها الربع إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فنصيبها الثمن، فإرث الزوج من زوجته نصف أو ربع، وإرث الزوجة من زوجها ربع أو ثمن.

حينما يضر الإنسان الورثة فله جهنم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ)

يعني لا أب له ولا ابن، هذا رأي الصديق، سيدنا عمر يرى أن من لم يكن له ابن فقط، على خلاف بين العلماء، على كلٍ الكلالة هو الذي يتوفى وليس له ولد. يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ)

أساليب الإضرار أنْ يكتب الابن سنداً وهمياً على أبيه، بمبلغ ضخم، هذا السند دين، هذا السند الصوري الوهمي إضرار ببقية الورثة، هناك أساليب لا تعد ولا تحصى، حينما يضر الإنسان الورثة فله جهنم، والدليل حديث خطير جداً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنْ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فلذلك هناك أساليب لا تعد ولا تحصى في الإضرار بالورثة، عن طريق بيع وهمي، أو شراء وهمي، أو قرض وهمي، أو سندات وهمية، هذه كلها تضر بالورثة، فينبغي أن تكون دقيقاً في

توزيع أموالك بين أولادك وأقربائك وفق هذه الفرائض التي فرضها الله عز وجل، ولم يسمح لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يتدخل في تحديدها.

الفرائض والحصص هي حدود الله :

ثم يقول الله عز وجل:

(فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ)

الأخوة لأم، أي الأخ لأم الواحد له السدس، والأخت لأم الواحدة لها سدس، فإذا كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ* تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

أي هذه الفرائض، وهذه الحصص، وهذه الأنصبة هي حدود الله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في قسمة المواريث، ينفذها كما جاءت، ويعمل بها كما وردت.

(يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في قسمة المواريث، ويتعدى حدوده، فيخالف أمر الله عز وجل.

(يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا)

آيات درس اليوم واضحة ومعبرة عن أن المواريث فرائض من الله تعالى :

أيها الأخوة، طبعاً هذا كلام موجز، وللمواريث بحوث طويلة جداً، ومسائل دقيقة جداً، وتفريعات لا يستوعبها درس عام، هذه تدرس في المعاهد الشرعية، ولطلبة العلم المتفرغين، والمتخصصين، والمتبحرين، على كلٍ هذه فكرة إجمالية عن توزيع المواريث، وقد جاءت هذه الآيات واضحة ومعبرة عن أن المواريث فرائض من الله تعالى، وبقدر إيمانك بالله، وتعظيمك له تجل وتقدر أمره في توزيع المواريث، هناك مسلمون لا يورثون البنات إطلاقاً، أعرف أسرة ترك الأب المتوفى أموالاً طائلة، فأجبر الأخ الأكبر أخواته البنات على توكيله في إدارة أموال أبيهم، ولم يعطهم شيئاً، بدعوى أن هذا المال سينتهي للأصهار، هذا كلام الجاهلية، فيا أيها الأخوة، أنا أذكركم بهذا الحديث الخطير:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنْ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(07-69): تفسير الآيتان 15-16 ، الشهوة وأحكام الزنى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-04-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات وهي حيادية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

الحقيقة في هذه السورة التي سميت بسورة النساء شأن المرأة في الإسلام كبير، وكرامتها مصونة، وحقوقها مضمونة، وليس معنى هذا أن لها أن تفعل ما تشاء، إن انحرفت فأمامها عقاب أليم، وأي نظام ليس فيه مؤيدات وروادع فلا قيمة له إطلاقاً، فبعد الحديث عن مكانتها، وعن كرامتها، وعن حقوقها، وميراثها، ومساواتها للرجل في التشريف والتكليف وفي المسؤولية بيّن الله سبحانه وتعالى أنه وضع لخلقه منهجاً، فيبدو أن علاقة المرأة بالرجل علاقة تدخل في صميم كيان الإنسان، لذلك ترى لها من التشريعات، وله من التشريعات ما تغطي هذه الخصيصة اللصيقة بهم.

النقطة الأولى أيها الأخوة: أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات، وهي حيادية، لأنه مخير، يمكن أن تكون سلماً نرقى به إلى رب الأرض والسماوات، أو تكون دركات نهوي بها في الظلمات ونيران جهنم، فهي حيادية، يمكن أن توظف في الحق أو في الباطل، والشهوة الجنسية التي أودعها الله في المرأة والرجل معاً شهوة حيادية، يمكن أن تكون سبب إنشاء أسرة سعيدة متفاهمة، تنجب أولاداً أطهاراً أبراراً، تكون هذه الأسرة مباركة في حياتها، وبعد انتهاء عقد الزواج، وفي ذرية هذه الأسرة إلى يوم القيامة، ويمكن أن تكون هذه الشهوة نفسها التي أودعها الله في المرأة والرجل سبباً لفساد عريض، وشقاء أبدي! فإما أن تكون الشهوة سلماً إلى سعادة أبدية في الدنيا والآخرة، أو تكون دركات يهوي بها الإنسان إلى شقاء أبدي في الدنيا والآخرة.

الشهوات توظف في الحق كما توظف في الباطل لأن الإنسان مخير :

الحقيقة الأولى أن هذه الشهوات حيادية، وأن الإنسان مخير، وأن هذه الشهوات توظف في الحق كما توظف في الباطل، توظف في مرضاة الله:

((..وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ يَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ وَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ))

[أحمد ومسلم عن أبي ذر]

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

عظمة الإسلام أنه ليس فيه حرمان، لكن فيه تنظيم، وفيه نظافة أخلاقية، وعفة، وعلاقات واضحة، هذه زوجة فلان، وأوضح مثل: أنك إذا رأيت شاباً يمشي مع فتاة هو خائف أن يفتضح، وهي خائفة أن يراها أحد، فإذا خطبها من أهلها يجلس في بيت أهلها، وقد يمضي وقتاً طويلاً معها في خلوة، ولا أحد يعترض، لا أبوها، ولا إخوتها الذكور، ولا أخوتها البنات، فالشيء الذي وفق منهج الله نفتخر به.

أرأيت إلى أصوات السيارات حينما تطلق بمناسبة عرس؟ ألا يستحيون؟ لماذا يستحيون؟ هذا شرع الله عز وجل، هكذا صممت المرأة والرجل.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

أي نظام اجتماعي يدعم الأسرة هو نظام صحيح :

حدثني صديق، طُرق بابه الساعة الرابعة صباحاً، وجِلَ مِن هذا الطَّرْق في هذا الوقت، فتح الباب لم ير أحدا! ألقى بنظره نحو الأسفل فإذا كيس أسود فيه طفل ولد لتوه! أنا وازنت بين أن ينجب زوجان ابناً، وتُهيأ له كل وسائل الراحة، والألبسة، والسرير، وغيرها، وحينما يأتي المولود يأتي المهنئون ومعهم الهدايا، ويقيمون الاحتفالات، وبين أن يأتي الطفل من طريق حرام، إما يوضع في حاوية القمامة، وإما أن يلقى في طرف المدينة، وقد نجد الآن في بعض الحاويات أطفالاً ولدوا بالحرام! أما في بلاد الغرب فعدد الأطفال اللقطاء لا يعدون ولا يحصون، لذلك قد تجد شخصيات كبيرة عندهم ليس لهم أب، وأعجبني تعقيب أحد خطباء المساجد في عيد الأم: لماذا يحتفلون بعيد الأم، ولا يحتفلون بعيد الأب؟ فكان جوابه أن الأب غير معروف! وأناس وصلوا إلى أعلى مناصب في بلاد الغرب هم لقطاء، أولاد زنى، لذلك إذا فشا الزنى في مجتمع فهناك انهيار عام يصيب

المجتمع، وأي نظام اجتماعي يدعم الأسرة فهو نظام صحيح، وأي نظام اجتماعي يسمح للإنسان أن يلبي حاجات جسده بعيداً عن الأسرة فهو نظام مهدم للمجتمع.

هذه حقيقة أولى، الشهوات التي أودعها الله في الإنسان شهوات حيادية، إنما أودعت في الإنسان ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، والفرق واضح جداً بين أن تخطب فتاة واضحة مؤمنة طيبة فتسعد بها في الدنيا والآخرة، وبين أن تؤدي هذه الرغبة بطريق غير مشروع، فتشقى في الدنيا والآخرة، والشعور بالكآبة والذنب لا يقف عند المسلمين، لأن الزنى محرم تحريماً قطعياً في دينهم، لكن يبدو أن هذا مركب في أصل الفطرة. إذا أرادوا أن يفضحوا إنساناً في عالم الغرب، فيتهم بإحدى فضيحتين؛ فضيحة مالية أو جنسية، لماذا تسمونها فضيحة؟

الذي كان في أعلى منصب في العالم فضيحته الكبرى أنه أقام علاقة مع هذه المتدربة في بيته الأبيض أو الأسود...

فالعلاقة التي لم يشرعها الله عز وجل علاقة آثمة فاحشة، ويستحيا بها، ويخجل الإنسان منها، لذلك تسمى فضيحة.

ليس في الإسلام حرمان لكن فيه تنظيم :

حدثني قريب مقيم بفرنسا أنه سمع في الليل إطلاق رصاص في بيت جاره، تحرى الخبر فإذا الجار قد تأكد أن زوجته تعمل في مؤسسة كمديرة مكتب المدير العام، وأنها تقيم علاقة معه، فأطلق عليها النار، وقتلها! أنا أسأل نفسي لماذا قتلها؟ أليس الزنى مباحاً عندهم؟ مباح، لكنه محرم بالفطرة، أكبر وسائل الإعلام حينما تريد أن تنال من إنسان تتهمه بالفاحشة، وتقول: فضيحة جنسية، أو أخلاقية.

ليس في الإسلام حرمان، لكن فيه تنظيم، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها قناة نظيفة تسري خلالها، لكن بالمقابل هناك عقوبات رادعة جداً، ولكن الذي يسهل على الناس اقتراف الفواحش أنه لا عقوبات رادعة مطبقة في المجتمع! فلذلك بسبب ضعف إيمان الناس، وضعف الضبط الاجتماعي العام يقعون في هذه المخالفات.

إلا أن قضية الزواج وقضية النساء قضية دقيقة جداً، أساسها أن هذه الشهوة يجب أن يكون بينك وبينها هامش أمان، فإذا ضحينا بهامش الأمان كان احتمال الوقوع في هذه المعصية كبيراً جداً، وهامش الأمان أن تغض بصرك، ألاّ تخلو بامرأة أجنبية، ألاّ تتبرج المرأة. أقول لكم كلمة واضحة كالشمس: المرأة التي تتبرج، والمرأة التي تتزين لغير زوجها ومحارمها، والتي تعرض مفاتنها هي بلسان حالها تدعوهم إلى التحرش بها! هل تصدقون أن امرأة محجبة عفيفة مؤمنة طيبة طاهرة يجرؤ إنسان في الأرض أن يسمعها كلمة؟ هي محط إعجاب، وتوقير، وتقدير، ورفعة، الآية الكريمة:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)

[سورة الأحزاب: 32]

علاقات الرجال بالنساء في عالم المسلمين علاقات نظامية كاملة :

حينما تحدث الله عن الحجاب قال:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ)

[سورة الأحزاب: 59]

لأنهن عفيفات طاهرات مؤمنات تقيات، فلا يؤذين بكلمة نابية، أو كلمة تجرح حياء المرأة، فالمرأة التي تتكشف، وتبرز مفاتنها لغير زوجها هي امرأة تدعو ـ شاءت أم أبت ـ بلسان حالها الناس إلى التحرش بها، لذلك مع التقدير الشديد لمكانة المرأة في الإسلام، ومع التقدير الشديد لكرامتها، ولسمو شأنها في المجتمع، وكيف أنها في الإسلام أم، وزوجة، وأخت، وبنت، وعمة، وخالة ليس في حياة المؤمن امرأة إلا أن تكون أمه، أو ابنته، أو زوجته، أو عمته، أو خالته، وليس في حياته امرأة هي عشيقته، علاقات الرجال بالنساء في عالم المسلمين علاقات نظامية كاملة.

كنت أروي هذه الطرفة دائماً، لكنها واقعة، هذا الذي أحب فتاة فاستأذن والده في الزواج منها، فقال له: لا يا بني، فإنها أختك، وأمك لا تدري! فلما أحب ثانية قال: لا يا بني إنها أختك، وأمك لا تدري، فلما أحب ثالثة قال: لا يا بني، فإنها أختك وأمك لا تدري، كان زير نساء، فلما ضجر وحدث أمه بما جرى له مع أبيه قالت له: خذ أياً شئت فأنت لست ابنه، وهو لا يدري!

هذا هو مجتمع الغرب، والله الذي لا إله إلا هو في هذه البلدة الطيبة قد يحتفل بعض الأجانب، ومضى على إقامتهم في دمشق سنتان أو أكثر، لأن زوجتهم أنجبت مولوداً قبل شهر يجمع أصدقاءه، ويحتفل بهذا الإنجاب، فالقضية عندهم الزواج شيء، والإنجاب شيء، والعلاقة الجنسية شيء آخر، وهذه الحرية المتفلتة، وليست المنضبطة يريدون أن يعمموها على العالم كله، وهذا ما يسمى اليوم بالعولمة أي الحيونة، أن يعود الإنسان حيواناً!

هذه الأحكام في الزنى لا تطبق إلا على المسلمات :

لذلك الآن نبدأ بآيات رادعة للمرأة، ذلك أن الله عز وجل حينما حدثنا عن الزنى قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

[سورة النور: 2]

بدأ بالمرأة، لأن الرجل تثيره المناظر المثيرة، أمر بغض البصر، وأمرت المرأة بالحجاب، فإذا لم تتحجب وغض بصره نجا، إذا تحجبت وأطلق بصره لم يحدث شيء، أما إذا تبرجت، وتفلتت، وأطلق الثاني بصره وقعت المشكلة. يقول الله عز وجل:

(وَاللَّاتِي)

اسم موصول لجمع الإناث:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ)

الفاحشة هي الزنى، ونسائكم أي المسلمات، لأن هذه الأحكام لا تطبق إلا على المسلمات، بينما المرأة من غير دين الإسلام لا علاقة لها بهذه الأحكام، المقصود من نسائكم، أي من نسائكم المسلمات، وهو انتماء إلى الإسلام.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ)

ما قال الله عز وجل: فارجموهما، هذه تهمة خطيرة ماحقة ساحقة فاضحة، تعيش مع الإنسان إلى نهاية حياته، لأنها تهمة خطيرة ومدمرة، لا تثبت إلا بأربعة رجال! أول حكمة لهذا القيد لا تقوم هذه التهمة إلا على أربع شهادات من رجال، والشهادة ينبغي أن تكون في واقعة الزنى الكاملة الواضحة الصارخة التي لا يشك فيها.

الفرق بين المعصية والفجور :

بالمناسبة حينما وضع الشارع الحكيم هذا القيد أنا لا أقول: قيد تعجيزي، لكن ليس من السهل أن يتوافر هذا الشرط إلا أن تكون المرأة فاجرة! وفرق بين المعصية والفجور، المعصية قد تقترف في حصن في غرف مغلقة، أما الفجور فأن تقترف هذه المعصية على قارعة الطريق كما يجري في العالم الغربي، وقد أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أنه: في آخر الزمان قد تقترف معصية الزنى على قارعة الطريق.

والله حدثني أخ كريم حضر من ألمانيا، أقسم بالله أنه كان في نزهة يمشي في حديقة عامة في ألمانيا قال: فوجئت بشيء لا يصدق، أن الزنى يجري في الحديقة أمام الناس جميعاً من دون تستر، أو حياء، أو خجل! هذا يقع هناك.

كنت مرة في بلد بعيد جداً في أقصى جنوب الأرض، وقد حدثنا أحد الأخوة الكرام أن له بيتاً مطلاً على حديقة، وفي يوم الأحد جاءت رحلة لمدرسة ثانوية فيها شباب وشابات، وأن الذي جرى بين الشباب والشابات في الحديقة يجري بين الزوجين في غرف النوم! هكذا الفاحشة تجري على قارعة الطريق، فلذلك أن تطالب المرأة أن تأتي بأربعة شهود معنى ذلك أنها مستهترة جداً، أنها تزني، ولا تعبأ بمن يراها، أما إذا أغلقت الباب فليس هناك شهود، فكأن الله عز وجل أراد بالأربعة شهود أن يكون الاتهام بالعرض عسيراً، ثلاثة شهود يجلدون ثمانين جلدة، حينما يتهم إنسان امرأة دون أن يأتي بأربعة شهود يجلد ثمانين جلدة.

قصة تروى، ولا أدري مبلغ صحتها لعلها قصة رمزية: امرأة تغسل امرأة ميتة، يبدو أنها اتهمتها بالزنى في أثناء الغسل، هكذا تروي القصص، وهي من باب القصص، فالتصقت يدها بجسمها، ولا

سبيل إلى نزع هذه اليد عن جسم هذه المرأة، يبدو أنها امرأة صالحة، واتهمت بالزنى في أثناء التغسيل، فسألوا الإمام مالك إمام دار الهجرة فقال: اجلدوها ثمانين جلدة تفك يدها! لأنها اتهمتها بالزنى في نفسها، على كل لمكانة المرأة العلية في المجتمع لا تستطيع أن تتهمها بالزنى إلا أن تأتي بأربعة شهود من الرجال رأوا واقعة الزنى رؤيا العين، كما يرى الميل في المكحلة، هكذا جاء في بعض التفاسير.

الشيء الثاني: حفاظاً على سمعة المرأة ومكانتها، وقد ورد في الأثر أن قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة.

حدّ الرجم أو الجلد هو حدّ لا للمرأة العاصية فحسب بل للمرأة العاصية الفاجرة:

أنا والله العبد الفقير أقيس على قذف المحصنة أنك إذا ذكرت امرأة فحركت قميصك هكذا فهذا نوع من الاتهام بالزنى، إذا ذكرت امرأة وقلت: الله يسترها لا نعرف، هذا نوع من الاتهام بالزنى، ويجب أن يكون الشاهد رجلاً.

وكأن هذا الحد، حد إقامة حد الرجم أو الجلد هو حد لا للمرأة العاصية فحسب، بل للمرأة العاصية الفاجرة، التي لا تعبأ أن يراها الناس وهي تزني.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

الحقيقة يوجد مفسر توفي قبل سنوات رحمه الله راجعت تفسيره في هذه الآية له رأي، لكن معه دليل قال:

(وَاللَّاتِي)

جمع الإناث، لو أن امرأة ورجلاً لقال واللذان، لأن اللغة العربية تغلب الذكور على الأنوثة، أما هنا:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ)

هذا العالم الجليل يرى أن هذه الآية أن تكتفي المرأة بالمرأة، هذه الآية تغطي هذا ذلك أن في المجتمعات المحافظة كما يسمونها يصعب لقاء الرجال بالنساء، لكن يسهل لقاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، فهناك معصيتان كبيرتان جداً ترتكب في هذه المجتمعات، أن تكتفي المرأة بالمرأة، والرجل بالرجل، وزرت مدينة في أمريكا تعد من أجمل مدن أمريكا، خمسة وسبعون بالمئة من سكانها يكتفي النساء بالنساء، والرجال يكتفون بالرجال، هنا السياق:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ)

أكبر خطر يتأتى من التكشف بين النساء :

هناك وهم عند عامة المسلمين، المرأة على المرأة ليس هناك خطر من أن تبدي جسمها للأخرى، مع أن أكبر خطر يتأتى من التكشف بين النساء، هذه الفاحشة أن تكتفي النساء بالنساء، والمطلعون على خبايا الأمور يعرفون أن هذه الفاحشة منتشرة في معظم البلاد انتشاراً واسعاً جداً، بسبب عدم انضباط المرأة مع المرأة، وأكثر هذه الفواحش تبدأ من التكشف، وهل تصدقون أن الأم لا يحق لها أن ترى عورة ابنتها، وعورة البنت على أمها من سرتها إلى أسفل ركبتها**!** لا يجوز.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ)

كان من الاختلاط لذلك هو محرم، لأنه أحد أكبر أسباب الانحرافات الجنسية سواء بين ذكر وأنثى، أو أنثى وأنثى، أو بين ذكر وذكر، لذلك جاءتنا مؤتمرات السكان بتعريف جديد؛ الزواج هو عقد بين شخصين، وطالعتنا الأخبار قبل شهرين بأن سفير أمريكا في بوخارست عُيِّن، وعليه أن يأخذ أوراق اعتماده في حفل رسمي تقيمه وزارة الخارجية في أمريكا، ويحضر هذا الحفل وزير الخارجية، والعادة أن يأتي السفير مع زوجته، فهذا الشريك جاء مع سفيره الجنسي**!**

الحكم الشرعي: منعهن من الاختلاط، لأنه كان سبب هذه الفاحشة.

(فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

بالتوبة، أو بشيء آخر.

الشذوذ عقابه القتل لأن الشاذ خالف فطرة الإنسان بينما العاصي خالف منهج الرحمن :

شيء دقيق أحب أن يكون واضحاً لديكم: الإله العظيم صمم الرجل على أن يرسل، وفهمكم كاف، وصمم المرأة على أن تستقبل، فالرجل مرسل، والمرأة مستقبل، هذا هو تصميم خالق الكون، فإذا استقبلت المرأة مستقبلاً لم تحقق الهدف، وإذا أرسل الرجل إلى مرسل لم يحقق الهدف، فالإرسال يحتاج إلى استقبال، والاستقبال يحتاج إلى إرسال، أما أن يكون الطرفان مرسلين، أو أن يكون الطرفان مستقبلتين فالأمر فيه خلل كبير، وهو خلاف منهج الله، لذلك قد تجدون أن عقوبة الزاني الجلد إن كانا غير محصنين، وقد تكون رجماً إن كانا محصنين، لماذا الشذوذ عقابه القتل كما عند معظم الفقهاء؟ القتل نهائياً، لأن الشاذ خالف فطرة الإنسان، بينما العاصي خالف منهج الرحمن، فمخالفة الحكم شيء، ومخالفة الفطرة أكبر بكثير، مخالفة الفطرة أن تغير تصميم الله عز وجل في العلاقة بين الأنثى والذكر، تجعلها أنثى مع أنثى، أو ذكراً مع ذكر، أو ذكراً مع بهيمة، أما الزنى وفق تصميم الإله، ولكن فيه مخالفة للشرع، ليس هناك عقد يبيح هذه المرأة لهذا الرجل.

الآية الثانية:

(وَاللَّذَانِ)

إذا كان الطرفان ذكرين:

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

كأن هاتين الآيتين في وجهة نظر معاصرة، لكن معظم المفسرين حملوا هاتين الآيتين على الزنى العادي بين الرجال والنساء.

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

الزاني غير المحصن عقابه مئة جلدة بينما الزاني المحصن عقابه الرجم حتى الموت :

بالمناسبة أيها الأخوة، الزاني غير المحصن عقابه مئة جلدة، بينما الزاني المحصن عقابه الرجم حتى الموت، لماذا؟ الرجم ثبت بفعل النبي عليه الصلاة والسلام، وعند علماء الأصول فعل النبي أبلغ من قوله، الفعل لا يؤوّل، بينما القول قد يؤوّل، لذلك فعل النبي أبلغ، ففهمه لكتاب الله من كلامه، فالنبي رجم، لكن قال العلماء: هذا الذي زنى بامرأة غير محصنة فضيحتها تقف عند أهلها فقط، أما هذا الذي زنى بامرأة محصنة فضيحتها تمتد إلى زوجها وأولادها. زارني شاب لا أعرفه قال: أمي تزني كل يوم! أتمنى أن أنتحر.

بالمناسبة، أخواننا الكرام، العلاقة بين المرأة والرجل بعد الإنجاب ليست ملك الرجل والمرأة، كلام دقيق، هي ملك الأولاد، هذا الطفل هذا أبوه وهذه أمه، فإذا اختلفا أو تنازعا يمزق الأولاد، فلذلك سمعة الأب والأم ملك أولادهم، الابن لو عانى من فقر أبويه لكنه يرفع رأسه بهما، هذا أبوه أمام الناس، والبنت ترفع رأسها بأمها العفيفة الطاهرة، ولو كانت فقيرة، أما حينما تعلم البنت أن أمها منحرفة فهي وصمة عار تلحقها إلى نهاية حياتها، لذلك الزاني المحصن يرجم حتى الموت. رأي أعجبني:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة المائدة: 33]

حينما يعطل المسلمون حدود الله تقام على الزناة حدود من نوع آخر :

بربكم هل من فساد أعظم من أن تعتدي على امرأة متزوجة لها زوج وأولاد؟ وأن هذا الزوج سوف يصعق حينما يعلم أن زوجته تخونه، وأن هؤلاء الأولاد سوف يصعقون حينما يعلمون أن أمهم تزني، إنك تعتدي على امرأة لها أب، وأم، وأخوة، وأخوات، وأعمام، وأخوال، وعمات، وخالات، أما إن كانت متزوجة تضيف إلى جريمة الزنى أنك تلطخ سمعة أولادها، وسمعة زوجها،

وأهل زوجها، فما من فساد أكبر من أن يقع الزنى بين المحصنين، فالنبي عليه الصلاة والسلام رجم امرأة زانية حتى الموت، لكن هذه المرأة لها حالة خاصة، هي نجت من الشهود، لم يشهد على زناها أحد، لكن من شدة خوفها من الله بعد أن وقعت في هذه المعصية سألت النبي أن يرجمها، فأغفل ذلك قال: انتظري حتى تلدي، ولدت، فجاءته بالمولود، قال: حتى يفطم، ثم جاءته وبيده كسرة خبز، عندئذ رجمها، لأنها عرضت نفسها باختيارها لحد الرجم، فرجمها النبي، لأن ولي أمر المسلمين إذا رفع له أمر الزنى فلم يقم حد الله يقول عليه الصلاة والسلام: لا عفا الله عنه إن عفا، لكن ليس من شأن أي مسلم أن يبلغ عن حالة زنى، إذا كان بيت دعارة فهذا موضوع ثان.

ليس من اختصاص المسلم أن يبلغ، كما أنه ليس من واجب من اقترف هذه المعصية أن يبلغ عن نفسه رحمة بالعباد، أما ولي أمر المسلمين إذا كلف إنسان لمتابعة هذه الجريمة، وضبط الإنسان متلبساً بهذه الجريمة، ولم يقم حد الله عز وجل نقول: لا عفا الله عنه إن عفا، لأنه عطل حد من حدود الله.

إني أقول: إن المسلمين حينما يعطلون حدود الله عز وجل تقام على الزناة حدود من نوع آخر، أليس الإيدز حداً إلهياً أنزله الله بالعصاة؟ إذا سرق إنسان قطعت يده، أليس الله قادراً أن يوقع هذا الإنسان السارق فتقطع يده إثر حادث أليم؟ ممكن، فهذه الحدود إن لم تقم في بلاد المسلمين بحكم القرآن الكريم يقيمها الله عز وجل مباشرة بفعله التكويني، فالذي ينجو من عقاب الزنى في نص القرآن الكريم ربما لا ينجو من عقابه بقدرة العليم الخبير، والله حدثني أخ عن إنسان أصيب بورم خبيث في أداة الزنى التي كان يزني بها، ومات بهذا المرض، فحينما يبطش الله عز وجل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

القرآن فيه أدب عال جداً :

قال تعالى:

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

في سورة النور تأتي تفاصيل هذه الأحكام، هناك من يرى أن هذه الآيات نسخت بآيات سورة النور، وهناك من يرى أن الآية الأولى:

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)

هذه منسوخة بالآية التي تليها:

(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً)

لو فهمنا الآيتين على أن الأولى هي اكتفاء المرأة بالمرأة، والثانية اكتفاء الرجل بالرجل لكانت الآيتان محكمتين. أيها الأخوة، كتعقيب على هذه الآيات المتعلقة بما قاله الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون: 5-7]

القرآن فيه أدب عال جداً، كل ما سوى ذلك مما هو غير مباح ومشروع غطي بكلمة:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون: 7]

الشهوة متغلغلة أعمق التغلغل في الإنسان ولا تثور إلا في مجتمع الاختلاط :

أيها الأخوة، النقطة الأولى أن هذه الشهوة متغلغلة أعمق التغلغل في الإنسان، وما كثرة الأحكام الشرعية المتعلقة بها إلا لأنها شهوة مسعدة أو مدمرة! كهذا الوقود السائل الذي في السيارة، إذا وضع في المستودعات المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب ولد حركة نافعة، أقلتك هذه المركبة إلى مكان جميل أنت وأهلك، أما إذا خرج هذا الوقود عن مساره، وأصاب المركبة شرارة أحرقت المركبة ومن فيها، ففي هذه الشهوة ليس هناك مؤمن وغير مؤمن، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[الترمذي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

لو تتبعت حالات الزنى أو الانحراف الآخر لما وجدت أكبر من الخلوة سبباً لذلك:

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[الترمذي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

الشيء الثاني: التعري من الرجال والنساء معاً مع غير الزوجة، أيضاً هذا التعري أحد أسباب إيقاظ الشهوة، ففي حقيقة علمية دقيقة جداً: أنك إذا قبعت في غرفة، وليس في الغرفة شيء يشير إلى الطعام لا صورة ولا رائحة ـ أحياناً الإنسان يشم رائحة طعام نفيس فيشتهي أن يأكل ـ يقولون: يسيل لعابه، لكن لو قبعت في غرفة لا ترى شيئاً، ولا تسمع باسم الطعام، ولا بصورته، ولا بشكله، ولا برائحته تجوع جوعاً شديداً، لذلك يمكن أن تأكل عند الضرورة لحم الخنزير.

(فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

[سورة البقرة: 173]

فالشهوة إلى الطعام شهوة تنبع من الداخل، بينما الشهوة الأخرى شهوة الجنس لا تتأتى إلا من الخارج، لا تثور الشهوة إلا في مجتمع الاختلاط، وفي المناظر المثيرة، وإلا في تفلت الفتيات من

منهج الله، وإلا من صحبة الأراذل، وسماع قصصهم، كل هذه مثيرات، فالشريف ليس الذي يهرب من الخطيئة بل من يهرب من أسباب الخطيئة، هذا القول للسيد المسيح عليه السلام.

نهي الله عز وجل الناس عن أسباب الزنى :

إذا أراد الإنسان أن يكون عفيفاً، وأن يكون محصناً فليطبق هذه الآية:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

أي كلمة، وأي علاقة أو مشي في طريق، لذلك من تنزه في الطرقات تجرح عدالته، من جلس مع أناس يتحدثون عن النساء تجرح عدالته، من كان حديثه عن النساء تجرح عدالته، من صحب الأراذل تجرح عدالته، فلذلك يجب ألا تصاحب صديقاً منحرفاً، كما ينبغي ألاّ تأتي الأماكن الموبوءة، حفلة ماجنة، فعليك أن تعتذر، بعض الأعراس مختلطة في الفنادق الكبرى، تأتي دعوة فخمة جداً، فالاختلاط، والعلاقات، وإطلاق البصر، والتفلت، والتبرج، هذه كلها أسباب، لذلك قال الله عز وجل:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

نهانا عن أسبابه، لأنك إن فعلت أسبابه فأغلب الظن أنك لا تستطيع أن تكبح جماح نفسك فيها، والذي يلفت النظر أن الإنسان ـ وقد قرأت هذه المقالة ممن لا يعرف القرآن إطلاقاً ـ إذا استثيرت شهوته يفرز الدماغ مادة تعطل محاكمته، وهذا ما يفسر أن الإنسان يقع في حماقة كبيرة، وهو في أعلى مكانة، يجلس في البيت الأبيض! فحينما يسمح الإنسان لنفسه أن يتجاوز حدود الله بخلوة مع امرأة أجنبية لا تحل له، أو بعلاقة آثمة مع إنسان منحرف، أو بصحبة الأراذل، أو بتعريض نفسه لمثيرات جنسية بشكل مستمر، هذا أيضاً يسبب الوقوع في الفاحشة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

مواقف ومشكلات سببت انحرافات خطيرة :

كلمة تدعو إلى الألم، بحكم علاقتي بشريحة في المجتمع كبيرة جداً، وبحكم عملي في الدعوة إلى الله، وبحكم أن بعض الناس يثقون بي فيعرضون علي مشكلاتهم، أجد أن الانحرافات كبيرة جداً، حتى في هذا البلد الطيب! الانحرافات بأنواعها، وحتى زنى المحارم، وأعني ما أقول، لا أتكلم من فراغ، بل من وقائع، مع انتشار هذه الثقافات الغربية، وهذه الفضائيات، فالذي يحرص على سلامة أولاده فليكن دقيقاً جداً فيما يأتيه من البيت من أجهزة.

والله مرة في هذا الصحن وقف رجل وقور، وبكى بكاء كأنه طفل، خير إن شاء الله، قال: ابنتي حامل من ابني، وكلاهما في السجن! هذه مصيبة!

إنسان آخر رجا أحد خطباء دمشق اللامعين، قال: قل هذه القصة على المنبر: وهو جالس مع أولاده يقلبون هذه المحطات، منظر منحط جداً، فوراً نقله الأب لمحطة أخرى، الابن انتبه لرقم المحطة بعد أن آوى الوالدان لفراشهما في الساعة الثانية ليلاً سمع الأب أنيناً، فاستيقظ ليرى ابنه فوق ابنته، فقال للخطيب: أرجوك أن تذكر هذه القصة على المنبر.

أخواننا الكرام هناك مآسٍ لا يعلمها إلا الله، هل تصدقون أن تسعين بالمئة من حالات الاغتصاب لا يبلَّغ عنها! وأن هذه العشرة بالمئة المبلّغ عنها تغدو رقماً كبيراً جداً! فإذا عافاك الله، وأهلك، وبناتك، وأولادك من هذه المعاصي والآثام فهو في نعمة ما بعدها نعمة، لأن سيدنا جعفر حينما قال: حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه.

أحد أكبر صفات المؤمن أنه عفيف، إن حدثك فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنون: 5-6]

الذي يحرص على سلامته وعفته فليحفظ أمر الله عز وجل :

إذا غض الإنسان بصره، ولم يعرض نفسه لمثيرات، وما أكثرها في هذه الأيام، في الأعم الأغلب أنّ الله عز وجل يحفظه، أما إذا عرض نفسه لهذه المثيرات، وأطلق بصره، وصحب الأراذل، واستمع إلى مغامراتهم، وسمح لنفسه أن يتجاوز حدود الله، والله عز وجل يقول:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة: 229]

هامش الأمان اخترقه، فكأنه كان يمشي على شاطئ نهر مستو جاف، وله شاطئ ثان، له ميل شديد، لكنه زلق، ثم نهر عميق، فمن يتعدى حدود الله فكأنه سار على شاطئ مائل زلق، سرعان ما يسقط في الماء، ومن ابتعد عن موجبات الزنى، وعن مسبباته فكأنه يمشي على شاطئ مستو جاف، فالذي يحرص على سلامته وعفته فليحفظ أمر الله عز وجل.

يا غلام احفظ الله يحفظك، وأقول لهؤلاء الشباب الأطهار التائبين: عفتكم قبل الزواج وسام شرف لكم، وهي سبب للتوفيق الإلهي لزوجة صالحة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إن غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها.

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار)

[سورة البقرة: 201]

أثمن شيء بعد الإيمان بالله زوجة صالحة :

قال علماء التفسير: حسنة الدنيا الزوجة الصالحة، أثمن شيء بعد الإيمان بالله زوجة صالحة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إن غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها، وما من شاب يتعفف عن الحرام إلا هيأ الله له زوجة صالحة، هذا وعد إلهي. حديث في الجامع الصغير للسيوطي، اقرأه فيقشعر جلدك!

((ثلاثة حقّ على الله عَوْنُهم... والناكحُ الذي يريد العَفَافَ))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

لقد أنشأ الله عز وجل لك حقاً عليه! هناك قصص لا تعد ولا تحصى، الشاب الذي يعف عن الحرام، ويبتغي الحلال، والله هناك شاب، وهذه القصة من أربعين سنة تقريباً، كان محرماً لأمه في الحج، عاد إلى الشام حاجاً، فتح مكتبة في أحد أحياء دمشق، وكان ثمة حافلات كهربائية، المتقدمون في السن وأنا مثلكم يعرفوها، فجاءته فتاة لعوب ماجنة، غمزته فغمزها، فأغلق محله، وتبعها، إلى أين ذاهب؟ إلى الزنى، تذكّر أنه حج بيت الله الحرام، فغلبته خشية الله، وجد حافلة صعد فيها، وترك هذا العمل، هو الآن حي يرزق، يقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي، قال له: يا بني أنت متزوج؟ قال: لا، قال: عندي بنت تناسبك، فتوهم أن هذه البنت فيها عيب كبير حتى عرضها أبوها، فلما أرسل أمه إليها وجدتها فتاة رائعة الجمال، فلما عاد الأب إلى هذا الفتى قال: يا سيدي البنت رائعة، لكن أنا لا أملك شيئاً، قال: هذا ليس عملك، أبوها تاجر زيت كبير هيأ له بيتاً، وأثث البيت، وجعله شريكاً له في العمل، وهو الآن حي يرزق من أحد كبار تجار الزيت، لا يوجد شاب على وجه الأرض يغض بصره عن محارم الله، ويرجو رحمة الله، ولا يهون عليه أن يعصي الله إلا أكرمه الله، ولو بدا الأمر صعباً عند العبد، قصص كثيرة جداً، لكن لا وقت لنحكيها، والحمد لله رب العالمين.

أسئلة عامة :

سؤال: هل يستجيب الله للمؤمن إذا دعاه أن يطيل في عمره؟

الجواب: العمر لا يزيد، العلماء حلوا هذه المشكلة بأن قيمة العمر لا في مدته الزمنية فهي ثابتة، ولكن في غناه بالعمل الصالح، وأوضح مثل: تفتح محلك بأربع ساعات تبيع بمليون ليرة، وقد يفتح أحد محله أربع ساعات يبيع بمئة ليرة، فالوقت لا قيمة له، العبرة بالغلة، فالإنسان يطيل عمره بالعمل الصالح هذا المعنى.

سؤال: هل تجوز الصلاة عند سماع الأذان مباشرة؟

الجواب: يكون بقي دقيقتين، أما إذا كان بوقت عندك ركب بسيارة عامة وسفر إذا دخل الوقت تجوز الصلاة، أما في المسجد هل معقول أن يقول الله أكبر فتقوم فوراً للصلاة وتذهب؟

سؤال: أنا زوجة ولي ولدان لزوج يتعامل بالفائدة، هل أعتبر أنا وأولادي آكلين لمال حرام؟

الجواب: الحقيقة حرمة المال لا من عينه بل من طريقة كسبه، فالزوج طبعاً يكسب المال الحرام، أما الزوجة ينفق عليها زوجها ليست آثمة في أن تأكل الحد الأدنى من طعامه وشرابه هي وأولادها وليس عليها إثم، لا دخل آخر ولا طريق أخرى فهي ليست آثمة فيما تأخذ في الحد الأدنى، أما هو آثم قطعاً.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(08-69): تفسير الآيتان 17-18، التوبة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-12

بسم الله الرحمن الرحيم

التوبة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة السابعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أيها الأخوة، لا شك أنكم مؤمنون أن المسلمون في محنة كبيرة، والمقولة الثابتة: أنه ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة، وأي تصور للمسلمين أن مشكلتهم تحل بكذا، أو بكذا، أو بالصلح مع كذا، أو بتقديم التنازلات لهؤلاء... أي حركة للخلاص مما هم فيه أرضية لا تنفعهم**!** لا ينفعهم إلا أن يتوبوا، وآيات اليوم عن التوبة، أو بعبارة أخرى ما من وقت يحتاج فيه المسلمون إلى أن يتوبوا، وأن يرجعوا فيه إلى ربهم حتى يزيح الله عنهم هذا الكابوس كهذا الوقت الذي نحن فيه، فدرسنا متصل بالأحداث أشد الاتصال، يقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

إنما تفيد الحصر والقصر، فإنما، والنفي مع الاستثناء هي أدوات حصر، وثمة فرق كبير أن تقول: دخل خالد إلى الصف، أو أن تقول: ما دخل إلى الصف إلا خالد، الحصر والقصر قد يؤخذ من النفي والاستثناء، وقد يؤخذ من التقديم والتأخير، وقد يؤخذ من كلمة إنما، فإنما أداة حصر وقصر، إذا قلنا: إنما فلان تاجر، لا يعمل إلا في التجارة، أما: فلان تاجر، وقد يكون له عمل آخر لا يتناقض مع التجارة، بالتقديم: إياك نعبد وإياك نستعين، إذا قلنا: إياك نعبد، أي لا نعبد إلا إياك، أما إذا قلنا: نعبد إياك، بالترتيب الطبيعي فالمعنى نعبد إياك وقد نعبد غيرك معك**!**

معان كثيرة تؤخذ من صيغة الحصر والقصر :

آيات كثيرة بهذا المعنى:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

لو أن الله عز وجل قال: تطمئن القلوب بذكر الله، لكان المفهوم أيضاً: وتطمئن بغير ذكر الله، أما حينما قال:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

فالاطمئنان لا يكون إلا بذكر الله حصراً.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

العبادة محصورة بخالق الأكوان فقط، معان كثيرة تؤخذ من هذه الصيغة، صيغة الحصر والقصر. أيها الأخوة:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

أي التوبة مقصورة على كذا وكذا، ومحصورة في كذا وكذا.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

حيثما تأتي كلمة (على) مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، الله عز وجل ليس من شأن الألوهية أن يلزمها أحد، ليس من شأن مقام الألوهية أن جهة أخرى تلزمها بشيء، أما إذا جاءت كلمة على قبل مقام الربوبية أو الألوهية معنى ذلك أن الله ألزم نفسه بهذا العمل.

حيثما تأتي كلمة (على) مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي :

الآية الدقيقة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ*إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

الله عز وجل ألزم ذاته العلية إلزاماً ذاتياً أن يعدل بين خلقه، فالأمر بيد الله، وما أكثر الدواب الآن!

(مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

وقد تكون هذه الدواب في أعلى مقام دنيوي، يتربعون على رأس أكبر دولة في العالم، أو أقوى دولة، أو دولة عميلة لهذه الدولة.

(مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

الله عز وجل ألزم ذاته العلية بهدى العباد، هذا شأن الله عز وجل، على الله أن يهدينا، وعلينا أن نستجيب، وربما لا نستجيب، فحيثما وردت كلمة (على) قبل لفظ الجلالة فإنما تعني أن الله ألزم ذاته العلية بهداية الخلق، وألزم ذاته العلية بالعدل بين الخلق.

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

وألزم ذاته العلية أن يفتح باب التوبة على مصراعيه.

أكبر شيء في الذات العلية يؤكد رحمته بالعباد أنه فتح باب التوبة :

أخواننا الكرام: لو تصورنا أنه ليس في الدين توبة ما الذي يقع؟ انظر إلى مسجد قد تجد فيه ألف، ألفين، ثلاثة، أربعة، أنا متأكد أن أربعة أخماس المستمعين والحاضرين ساقهم الله إليه بسلسلة من المصائب، فاصطلحوا معه، وتابوا إليه، لو أن باب التوبة مغلق لا تجد في المسجد شخصاً، لمجرد أن تذنب فقد قطع عنك باب التوبة، أغلق باب التوبة، وأنت حينما ترى أنه لا أمل تفاقم الأمر، ويزداد الإنسان معصية إذا أُغلق باب التوبة دونه، وإذا فُتح باب يُلغى ويُغفر أكبر ذنب، أما إذا أغلق يمكن أن يفجر الإنسان بدءاً من أصغر ذنب، فلو أنه أطلق بصره في الحرام، وهو يائس من توبة الله عليه، وما دام أنه لا توبة هناك، ولا رحمة لما اكتفى بإطلاق البصر؟ ولانتقل إلى أكبر من ذلك؟ لو أغلق باب التوبة لانقلبت الصغائر إلى كبائر حقيقة، ولأن باب التوبة مفتوح تغدو الكبائر صغائر، أعظم عطاء إلهي، أكبر شيء في الذات العلية يؤكد رحمته بالعباد أنه فتح باب التوبة، عبدي لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

ما قال الذين أخطؤوا، الذين عصوا.

(الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

[سورة الزمر: 53]

التائب تحت مظلة الله عز وجل :

والله في خلال هذه الدعوة إن شاء الله المباركة أشخاص يزيدون عن عشرين شخصاً كأن أقوالهم متشابهة، يقول لي أحدهم: ما من معصية تتصورها إلا فعلتها! وتاب الله علي، وعاد إلى حظيرة القدس، وأصبح من المؤمنين، حتى من عملتْ في ظروف ساقطة إذا تابت يتوب الله عليها، فأول شيء:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 53]

الحديث الشريف:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

والله أيها الأخوة لا أشعر أن كلمة هنيئاً تقال إلا لمن تاب إلى الله، لو أنك اشتريت بيتاً فخماً، وجاءك الناس مهنئين، ولم تكن على ما يرضي الله، هذا البيت يزول بعد حين، لا بد أن تغادره إلى القبر، لو أن لك زوجة في أعلى مستوى فلا بد أن تفارقها أو تفارقك، لو أن معك مال قارون فلا بد أن تدعه وترحل، أما الشيء الذي يبقى إلى أبد الآبدين فهو أن تتوب إلى الله عز وجل، لذلك إحساس التائب لا يوصف، أقول لكم: يشعر أنه خفيف، وأن الله يحبه، وراض عنه، ومعه، ومؤيده، وناصره، وحافظه، والتائب تحت مظلة الله.

الله سبحانه وتعالى ألزم ذاته العلية أن يتوب على عباده رحمة بهم :

للتقريب: موظف بقصر ملكي، معه الملك، فلا يجرؤ مواطن أن يناله بأي أذى، لأنه يشعر بحماية كبيرة جداً من القصر الملكي، فأنت حينما تتوب أنت مع الله، والله معك.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

وكأن الله سبحانه وتعالى ألزم ذاته العلية أن يتوب على عباده رحمة بهم، تصور لو أن باب التوبة مغلق لوجدت أقل المعاصي تنقلب إلى أكبر الكبائر لا أمل.

هذا الذي سأل أحد الرهبان، وقد قتل تسعة وتسعين رجلاً ألي توبة؟ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَاناً ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ فَأَتَى رَاهِباً فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما دام ليس هناك توبة فيجب أن أتابع القتل، أما مع التوبة فكل شيء له حل، ولو تعاظمت عليك ذنوبك، يجب أن تذكر رحمة الله عز وجل، الله عز وجل قال:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

ألست شيئاً أيها العبد؟ بالمناقشة المنطقية أنت شيء:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

حينما تتوب معنى ذلك أنك دخلت في مظلة الله عز وجل، أنت في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ)

الله بذاته العلية ألزم نفسه بقبول التوبة على العباد.

للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

1 ـ الإنسان إن لم يكن يعلم أن هذه معصية فتوبته سهلة جداً :

لهذه الآية معنيان: المعنى الأول: أن الإنسان إن لم يكن يعلم أن هذه معصية، فتوبته سهلة جداً، حتى إن بعض الفقهاء من أحكامهم الدقيقة أن الذي يسمى حديثَ عهد بالإسلام لو أنه أفطر في رمضان بغير سبب الطعام والشراب، بل بسبب آخر، ولا يعلم أن هذا محرم في أثناء الصيام فلا شيء عليه، القضية إن لم تكن تعلم أن هذا ذنب فالتوبة منه هينة جداً، وكلما ازداد علمك بهذا الذنب تصعب التوبة شيئاً فشيئاً، وكلما كررت الذنب تصعب التوبة منه شيئاً فشيئاً، التوبة تصعب حينما تعلم أنه ذنب، وحينما تكرر هذا الذنب، والتوبة تسهل حينما تجهل أن هذا ذنب أو تتوب سريعاً من هذا الذنب، فلذلك يقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

هناك ملمح دقيق في الآية: ما من إنسان على وجه الأرض إلا إذا عصى عُدّ عند الله جاهلاً، لو كان يعلم لما عصى، لو علم أثر الذنب في حجبه عن الله، أو في بُعده عن منهج الله، أو في انقطاع صلته بالله، في ظلام قلبه، في اسوداد وجهه، في خطأ سلوكه، في ردود أفعاله القاسية، هذه كلها آثار الذنب، حتى لو تعلم أنه بينك وبين إنسان علاقة طيبة جداً، وكلاكما مؤمن، هذه العلاقة لا تفسد إلا بذنب يصيبه أحدهما أو كلاهما، فعَن ابْن عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ:

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[أحمد عَن ابْن عُمَرَ]

2 ـ لو تعلم أن الذنب سبب شقائك وانقطاع صلتك لما فعلت الذنب :

إن العداوة والبغضاء التي يعاني منها المسلمون أشد المعاناة فيما بينهم، ويعاني منها المسلمون مع أعدائهم سببها البعد عن منهج الله.

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 14]

لو تعلم أن الذنب سبب شقائك، وحجابك، وانقطاع صلتك، وخطأ تفكيرك، واضطراب سلوكك لما فعلت الذنب، لا يفعل الذنب إلا جاهل، هذا هو المعنى الآخر.

الجاهل من يعصي الله عز وجل:

قال تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

لولا أنهم تلبسوا بالجهل لما فعلوا السوء، لما سيدنا يوسف قال:

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف: 33]

أي إنسان صبت نفسه إلى امرأة لا تحل له فهو عند الله جاهل، لأنه استعجل هذه المتعة الرخيصة العاجلة، وضيّع السعادة الأبدية، أنت حينما تبيع شيئاً يقدر بمليار بمئة ليرة فقط فرضاً، فهل أنت عالم؟ لا، جاهل، حينما تبيع حجر ألماس قيمته مليون بعشر ليرات فأنت جاهل.

أحياناً يسرق الإنسان ـ أبعدنا الله عن هذا السلوك الإجرامي ـ ولجهله بنوع البضاعة التي سرقها يبيعها بثمن بخس، ماذا يسمى عند من اشتراها؟ يقول عنه: إنه جاهل، لأنه باعها بثمن بخس، هذا الذي يعصي الله جاهل، لأنه لا يمكنك أن تعصيه وتربح، ولا يمكن أن تطيعه وتخسر!

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ)

[سورة الأعراف: 33]

أنا عندك جاهل يا رب، حتى الذي يعمل الذنوب والسوء هو عند الله جاهل، يجهل المؤدى. لو اقتربنا من بعض الأمثلة: هذا الذي يدخن لو علم أن الدخان سوف يقضي على صحته، على رئتيه، أو ضغطه، أو سيولة دمه لما دخن، لو تعلم النتائج لم تفعل المقدمات أبداً.

من يعمل السوء هو جاهل بالنتائج :

لذلك أحد أسباب الشقاء هو الجهل وأكبر دليل أن أهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِير)

[سورة الملك: 10]

حينما لا تنطلق من حبك لذاتك أو لا سمح الله من أنانيتك تطيع الله عز وجل، لأنك سبحانك لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت.

لو تعلم ما في المعاصي من أخطار، ومن تدمير، ومن شقاء، ومن ضغوط نفسية، ومن تحمل ما لا يحتمل لما أقبلت عليها، من يعمل السوء هو جاهل بالنتائج. الناس الآن بم يتفاوتون؟ هذا الذي أقدم على سرقة صائغ في محافظة دمشق، وسرق سبعة كيلو غرامات من الذهب، وبعد عشرة أيام علق مشنوقاً في البلدة نفسها، لو أنه عرف نتيجة السرقة هل يقدم عليها؟ إذاً فهو جاهل، ففي علم النفس يصنف المجرمون بأنهم أغبياء**!**

هذا الذي يقتل الناس، يقتل عباد الله، يقتل شبابهم، يذبح أطفالهم، يهدم بيوتهم، هل هو جاهل أم عالم؟ والله إنه لأكبر الجهلاء، لأنه سوف ينتظره عذاب إلى أبد الآبدين، لذلك يعجب الله عز وجل، ويقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار)

[سورة البقرة: 175]

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)

[سورة الأعلى: 13]

لذلك أكبر غبي وأحمق الذي يعصي الله عز وجل، فمن هو السعيد؟ الذي في طاعة الله.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور)

[سورة آل عمران: 185]

كلما تغلغل الذنب في الإنسان أصبح جزءاً من كيانه :

قال تعالى:

(يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

أول معنى: لو أنك لا تعلم أن هذا ذنب هذا شيء مخفف، ومسهل للتوبة، ومسرع لها، أما إذا علمت أنه ذنب يقيناً فعندئذ تصعب عليك التوبة، فإذا كرر الذنب كانت التوبة أصعب وأصعب**!**

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

لا سمح الله ولا قدر حينما يقع الإنسان في ذنب، ويرجئ التوبة، كلما أرجأها استمرأ هذا الذنب، ودخل في عاداته اليومية، وكلما تغلغل الذنب أصبح جزءاً من كيانه، وإذا قضى أحد عمره في لعب النرد، ثم بينت له الحكم الشرعي لا أظنه يستجيب، فقد أصبحت هذه اللعبة جزءاً من كيانه، وقبلها جزءاً من عاداته، واستمرأها، هذه نصيحة إلهية ينبغي أن تتوب بعد الذنب مباشرة، ألا تجعل فاصلاً زمنياً طويلاً بين الذنب وبين التوبة، لأنه بعد حين يصبح الذنب جزءاً من حياتك، تستمرئه، وينقلب إلى عادة، وإلى سلوك يومي، لذلك دعوة المتقدمين في السن صعبة جداً، يقتنع ولكن لا

يستطيع أن يغيِّر، لأنه أَلِفَ هذه المعصية والاختلاط، ولعب النرد، ومتابعة المسلسلات، لا يستطيع أن يغير، فالبطولة أن تكون شاباً.

من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة :

كنت في بلد قبل أسبوعين، دخلت إلى أحد المساجد، والله شيء رائع جداً، مصلون خاشعون، لكن قدرت أعمارهم كلهم فوق الخمسين أو الستين، وازنت بين هذا البلد وبين بلدنا الطيب كله شباب، ظاهرة طيبة جداً، الآن ترى رواد المساجد في الأعم الأغلب شباب. ريح الجنة في الشباب، والذي يصنعه الشباب الآن لا يستطيع أن يصنعه الكبار، أليس كذلك؟! صنع الشباب اليوم تعجز عنه الجيوش المجيشة أن تصنعه، ريح الجنة في الشباب، لا أرى عطاء كبيراً من الله يفوق أن تتعرف على الله في مقتبل حياتك، فإن تعرفت إلى الله في مقتبل حياتك شكلت حياتك وفق منهج الله، وكان عملك، وزواجك، وكسب مالك، وإنفاقك، وتربية أولادك شرعياً، فإذا سمح الله لشاب في مقتبل حياته أن يعرفه، أو هيأ له ظروفَ معرفته، أو دله على أهل الحق، على أشخاص مخلصين، وعرف الله عز وجل في مقتبل حياته، هذا من أسعد الناس، وهو الشاب الذي نشأ في طاعة الله، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة.

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

لا تنم قبل أن تتوب، لا يمضِ عليك اليوم قبل أن تتوب.

(مِنْ قَرِيبٍ)

لا تجعل مسافة طويلة بين الذنب والتوبة، هذه المسافة الطويلة تغريك أن تعيد الذنب وأن تثبت عليه، وأن تبحث عن غطاء لهذا الذنب، وتبحث عن فتوى ضعيفة لتغطي هذا الذنب، كلما أخرت التوبة بحثت عن شيء يعينك على الاستمرار على هذا الذنب، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

شعور الإنسان أن الله تاب عليه وقبله لا يعلمه إلا من ذاق حلاوة التوبة :

لما كان سيدنا عمر يمشي في طرق المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف، ورأى قافلة قد نصبت خيامها في المدينة قال عمر لعبد الرحمن: تعال يا عبد الرحمن نحرس هذه القافلة، فجلسا في الليل، فإذا بطفل صغير يبكي، فقام عمر لأمه وقال: أرضعيه، فأرضعته، ثم أعاد الكرة فبكى، فقام إليها ثانية، وقال لها: أرضعيه، ويبدو أن عمر كان عصبياً، ففي المرة الثالثة قال لها: يا أمة السوء أرضعيه! لمَ لا ترضعيه؟ عندئذ غضبت هذه المرأة وقالت: وما شأنك بنا؟ إنني أفطمه، قال: ولمَ؟ قالت: لأن عمر لا يعطي العطاء إلا بعد الفطام، أي التعويض العائلي! فضرب سيدنا عمر وجهه

وقال: ويلك يا ابن الخطاب، ويلك كم قتلت من أطفال المسلمين؟ عدّ نفسه قاتلاً، وقال كُتَّاب السيرة: في صبيحة اليوم صلى الفجر بالناس، فما استطاع المصلون أن يفهموا كلامه من شدة بكائه! فكان يقول: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟ فإذا شعرت أن الله تاب عليك وقبلك وعفا عنك فأنت أسعد الناس.

أنا أسوق هذه المعاني أيها الأخوة لأننا بحاجة إليها، لو كنت مستضعفاً، لو لم تملك تلك الأسلحة الجبارة لكنك توفيت على إيمان وعلى طاعة فأنت الناجح المنتصر، والله لا أبالغ إذا جاء الموت وأنت على طاعة، وعلى عقيدة سليمة، وطاعة لله مخلصة فأنت المنتصر. ماذا قال الله تعالى عن أصحاب الأخدود؟

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة البروج: 8-9]

لقد أثنى والله عز وجل عليهم، وبيَّن أن هذا الذي أحرقهم هو إلى جهنم وبئس المصير، فلذلك شعور الإنسان أن الله تاب عليه وقبله لا يعلمه إلا من ذاق حلاوة التوبة، وحلاوة الصلح مع الله، وحلاوة الإقبال عليه، وحلاوة التقلب في نعيم القرب منه.

ما كل توبة يعقبها قبول من الله عز وجل :

قال تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

يتوب عليهم، لكن العلماء قالوا: لا يجب على الله أن يتوب عليه، لله حكمة، لأنه عليم حكيم، أحياناً يقترف الإنسان ذنباً ويقول: أتوب، كالمستهزئ بربه، فما كل توبة يعقبها قبول من الله عز وجل.

البارحة وقع أخ في مشكلة كبيرة جداً، والله ليس لها حل، قلت له: هناك حل واحد؛ أن تصلي قبل الفجر ركعتين،وأن تدعو الله في هاتين الركعتين، ففي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ]

كأن الله عز وجل يقول لك: أنا حاضر يا عبدي فاطلب مني، إذا كان عندك الإخلاص واليقين أن الأمر كله بيد الله.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

إذا كان عندك يقين أن الأمر كله يرجع إلى الله.

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 18]

إذاً عندك يقين أنّ يد الله فوق أيديهم.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الزمر: 63]

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: 54]

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

إذا كان عندك هذا اليقين، وتوجهت إليه مخلصاً راجياً رحمته، والله لزوال الكون أهون على الله من أن يخيب ظنك.

الدعاء هو أكبر شيء تملكه :

هناك أشياء تبدو مستحيلة، مرض خبيث أجمع الأطباء على أنه لا شفاء له، والله هناك آلاف الحالات من الشفاء الذاتي، بلا سبب علمي، والعلماء صنفوا هذا الشفاء في الشفاء الذاتي، الآن هناك دراسة حوله، عندي حالات كثيرة لبعض الأخوة الأكارم شيء لا يصدق، أخذت خزعة إلى بريطانيا فحصت في الشام، فأجمع الأطباء النبهاء المخلصون أن المرض من الدرجة الخامسة، ولا بد من استئصال الرئة، ثم تراجع المرض ذاتياً، تضع كل ثقتك بالله، وتعلم علم اليقين أن الأمر بيده، ويخيب ظنك؟!

لذلك أكبر شيء تملكه هو الدعاء، استمع إلى بعض القصص مما يجري في الأرض المحتلة، والله شيء لا يصدق! شاب في مقتبل العمر في الثامنة عشرة من عمره لم يمسك بندقية في حياته أراد أن يكون شهيداً، فزحف ساعات طويلة ليصل إلى ثكنة عسكرية صهيونية، وحولها أسلاكٌ شائكة مكهربة، كيف قطع هذه الأسلاك؟ وكيف وصل إليهم؟ وكيف أوقع فيهم خسارة كبيرة جداً؟ ولعلّ الله قبله شهيداً!

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ أنتم ترون القوة العاتية الجبارة التي لا تواجه في حيرة أمام إنسان أراد إرضاء الله عز وجل.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

يتوب عليهم بحكمته لأنه:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

عليم بحقيقتهم، حكيم في التصرف معهم.

السيئة ما أساءك من ذنب أو معصية عن غير قصد أو بقصد :

مثلاً عندك نبتة صغيرة، وعندك ماء يساوي خمس وحدات كبيرة جداً، هل من الحكمة أن تصب هذا الماء الشديد على نبتة؟ فتقصفها، فالعطاء يتناسب لا مع الكرم بل مع الحكمة.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أحياناً يقع الإنسان في ذنب ويتوب، ويشعر أنه محجوب عن الله عز وجل، في هذا حكمة إلهية، أراد أن يبالغ في تأديبك.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)

السيئة ما أساءك من ذنب أو معصية عن غير قصد أو بقصد، سمِّها ما شئت، أي شيء يسوؤك هو عند الله سيئة، أي شيء يحول بينك وبين الله هو عند الله سيئة، أي انتقاص من عبادتك هو عند الله سيئة، أي انتقاص من حق عبد هو عند الله سيئة، السيئات المعنوية كالغيبة، والنميمة، وسوء الظن، والمادية كأكل المال الحرام، وكل أنواع المعاصي الباطنة والظاهرة، وكل أنواع الموبقات كلها سيئات.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)

لو أن الإنسان لحكمة أرادها الله يعرف متى أجله، الآن هو في الثمانية عشرة عنده علم أن أجله في الثامنة والستين لا يتوب الآن، يقول: معنا وقت، أما لأن الإنسان لا يعلم متى أجله فلا بد أن يكون تائباً في أية لحظة.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

الإنسان مخير مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض :

أخواننا الكرام: موضوع دقيق جداً أتمنى أن يكون واضحاً لديكم: أنت كإنسان مخير، وقد يكون خيارك فيه مليون حالة، خطبت فتاة فلم تعجبك، فأنت مخير خيار قبول أو رفض، أردت أن تسافر إلى بلد كي تعمل، رأيت المشقة كبيرة، والدخل قليل رفضت، أردت أن تقيم شركة رأيت أن هناك شركات منافسة كبيرة جداً والربح قليل فرفضت، أو قبلت في تأسيس عمل، أو تأسيس شركة، في سفر، في دراسة، أو جامعة، في زواج، في شراء بيت، أنت في مليون موضوع مخير خيار قبول أو رفض، إلا مع الإيمان فإن خيارك خيار وقت، فما الفرق بين خيار القبول وخيار الرفض وبين خيار الوقت؟ إنسان لم يتب إلى الله، وليكن فرعون أكفر كفار الأرض الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري، هذا فرعون حينما أدركه الغرق قال: آمنت بالذي آمنت به بنو

إسرائيل، فتاب، لكن بعد فوات الأوان! أي إنسان على الإطلاق عندما يأتيه الموت فلا بد أن يتوب، لكن هذه التوبة ليست مقبولة، فهو مخير مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فإذا رفض الإنسان الإيمان فلا بد أن يقبله بعد فوات الأوان.

معنى آخر: لي كلمة لطيفة، الخليفة هارون الرشيد له أعمال طيبة كثيرة، كان إذا نظر إلى سحابة يقول: اذهبي أينما شئت يأتني خراجك، قياساً على هذه المقولة: أنا أقول لأي إنسان شارد في شبابه: اذهب أين شئت، ففي النهاية أنت إلى المساجد، لكن المشكلة الكبيرة أن تعود إلى المساجد في وقت متأخر، وتمضي شبابك في معصية الله، وكثير من أولئك الذين شردوا عن الله في مقتبل حياتهم، وفي زهرة شبابهم، وفي كهولتهم بعد الخمسين أو الستين رأوا أن الحق عند الله، فعادوا إلى الله، لكن بفقر وضعف، فأنت إذا كنت في مقتبل حياتك، وقد عرفت الله عز وجل فاحرص على أن تثبت على ما أنت عليه.

الموت هو ديدن البشر :

قال تعالى:

(لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

هذه ليست توبة، هذه توبة بعد فوات الأوان، بربك لو أنك ذهبت إلى الامتحان، ولم تدرس إطلاقاً، ولم تستطع أن تكتب كلمة، فعدت إلى البيت بعد انتهاء الامتحان، فتحت الكتاب المقرر، وبحثت عن جواب السؤال، وقرأته، ففهمته، ممتاز، فعدت إلى وزارة التربية ترجوهم أن يعاد لك امتحان خاص، لأن السؤال الذي جاء في الامتحان عرفته أنت الآن، هل يقبل؟ هذا مستحيل! هذه معرفة بعد فوات الأوان.

كل إنسان يظن أنه يتوب، مَن قال لك: إن عمرك فيه فسحة تتوب فيه بعد حين؟ كم من إنسان مات فجأة؟ مات قبل أن يعلم؟ لا يوجد إنسان مات إلا في حالات نادرة، ويظن أنه سيعيش حياة طويلة، قد يأتي الموت على خلاف المتوقع وما هو مقبول.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)

مات على كفره، مات تاركاً للصلاة، مات منكراً لأصل الدين، مات منكراً لفرائض الدين، هذا يموت كافراً، وهذا مخلد في النار.

(أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

ثمة حديث شريف والله الذي لا إله إلا هو يقسم الظهر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فقْراً مُنْسِياً، أَوْ غِنًى مُطْغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

بشكل واقعي من دون مجاملة ماذا ننتظر من الدنيا؟ جمعت المال ثم ماذا؟ هناك مغادرة، ملك، غني، كبير، قوي، الموت هو ديدن البشر، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

قرأت عن إنسان يعمل في الفن أحب الحياة حباً لا حدود له، ما أكل لحماً أحمر في كل حياته حفاظاً على صحته، ولا ركب طائرة، ولا تناول طعامَ العشاء إلا فواكه، ثم مات! إنّ العناية بالصحة مطلوبة، لك عند الله خمسون عاماً، فإما أن تمضي هذه الأعوام هكذا واقفاً، أو تمضي هكذا مضطجعاً، فالعناية بالصحة لعلك تستمتع بحياتك واقفاً، أما العناية بالصحة فلا تغيّر الأجل، الأجل لا يتغير إطلاقاً.

لله وسائل تأديبية صعبة جداً :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ...))

الأيام ماذا تخبئ لعامة الناس؟ دعك من المؤمن، المؤمن:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

لنا وليس علينا، لنا فيها ملمح كبير، لنا من خير، أنت موعود بالخير في المستقبل.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لتأبيد النفي، هذا موضوع ثانٍ، أمّا عامة الناس فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، ملك جاءته خثرة في الدماغ، فأصبح مشلولاً، ألا تعرفون ذلك؟ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً، هناك فقر ينسيك كل القيم، وكاد الفقر يكون كفراً، أَوْ غِنًى مُطْغِياً غنى مفاجئ، يحمل صاحبه على معصية الله، واقتراف المعاصي والآثام، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، مرضاً يفسد الحياة، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّال، ألا ترون الدجال؟ يقتل الأطفال، يهدم البيوت بادعاء الدفاع عن النفس، يقتل شعباً بأكمله دفاعاً عن الحرية، هذا هو الدجل، الفعل عكس القول، أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ. أعيد على أسماعكم الحديث. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فقْراً مُنْسِياً))

في محاولة إفقار للمسلمين، مصالح في الأوج، الدخل صفر، هذا فقر، والفقر قد ينسي كل شيء، وكاد الفقر أن يكون كفراً،

((أَوْ غِنًى مُطْغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ، السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

فإن لم يتب الإنسان إلى الله لم تطمئن نفسه إلى خريف العمر، لأن المستقبل مجهول ومخيف، وفيه خثرة بالدماغ إذا كنت تسير على خطأ، وشرود عن الله عز وجل، فلله وسائل تأديبية صعبة جداً، أمراض عضالة، وفقر شديد، وتفسخ أسرة، وزوجة ظالمة أحياناً، وابن عاق، وفقدُ حرية، وفقدُ أحد الأعضاء، ومصيبة اجتماعية أسرية.

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

إهلاك الأقوام في آخر الزمان أدهى وأمر من كل إهلاك سابق :

قال تعالى:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

[سورة القمر: 43]

(بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

[سورة القمر: 46]

هؤلاء الطغاة، كيف أهلك الله الأقوام السابقين؟ إن إهلاك الأقوام في آخر الزمان أدهى وأمر من كل إهلاك سابق.

(وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

[سورة القمر: 46]

اطمئنوا فثمة عدالة إلهية، تكلمت على المنبر اليوم: اسمع الأخبار فلا مانع، واقرأ التحليلات، واقبل تحليلاً، وارفض تحليلاً، وتشاءم أو تفاءل، لكن لا تنس لثانية واحدة أن الله موجود، وأن الله في أية لحظة يغير موازين القوى كلها، الشيء الذي كان مستحيلاً أصبح ممكناً، أنا قلت اليوم: متى كانت مشكلة أعدائنا مشكلة بقاء؟ كانت مشكلة أمن فقط، أما الآن لم تعد كذلك، بل مشكلة بقاء، هذا الإنجاز كبير جداً، وما كنا نحلم به أن يقول: مشكلتنا مشكلة بقاء! كانت مشكلة أمن فقط، أما الآن فهي مشكلة بقاء، بفضل هؤلاء الشباب المندفعين.

فيا أيها الأخوة، أنا متفائل، ولكن نحتاج إلى توبة، ما من وقت نحن في أمس الحاجة فيه إلى توبة كهذا الوقت، أختم الدرس بما بدأت به: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة فقط، ولا تزر وازرة وزر أخرى، عليك من نفسك، لو أن الناس لم يستجيبوا فاستجب أنت لله، واضبط أمورك، وانتظر من الله كل خير، والحمد لله رب العالمين.

أسئلة عامة :

السؤال: هل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمي بالمعنى المعروف للكلمة أم لها معنى آخر؟

الجواب: النبي عليه الصلاة والسلام أمي بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب.

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُون)

[سورة العنكبوت: 48]

لأن الله عز وجل تولى تعليمه هو، إذاً هو أعلم علماء الأرض، أمِّيته وسام شرف، وأميتنا وصمة عار، لأن الله عز وجل لا يعلمنا مباشرة، نحن نتعلم عن طريق القراءة والكتابة، فكل واحد فيه نقص شديد، أما لأن وعاء النبي كله وحي يوحى، لو قرأ وكتب فجمع ثقافة عصره، ثم جاء الوحي، واختلط الأمر، فكلما تكلم شيئاً يقال له: يا رسول الله هذا من وحي السماء أم من عندك؟ صانه الله عز وجل عن أية ثقافة أرضية.

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

أميته وسام شرف، لأن الله تولى تعليمه، العلم المطلق عند الله عز وجل، أكبر علم حازه النبي الكريم، مثل تقريبي: أكبر علماء الذرة لو جاء إلى دمشق هو في لغتنا العربية أمي لا يقرأ ولا يكتب، هل يعد جاهلاً؟ فالنبي الذي يقرأ بعض أحاديثه ويفهمها يأخذ دكتوراه! حاز النبي مرتبة في العلم ما بعدها مرتبة، لكنه أمي، بقي وعاؤه نظيفاً من كل ثقافة أرضية، أميته وسام شرف، أما أميتنا فهي وصمة عار، نحن ليس عندنا طريق مباشر مع الله ليعلمنا، ولا نتعلم إلا بالكتابة، إنما العلم بالتعلم، بالنص نقرأ ونتعلم، أميته وسام شرف، لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الله تولى تعليمه، والدليل:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم: 5-7]

سؤال: توضيح حكم اليمين الغموس؟

الجواب: اليمين الغموس هي اليمين التي تحلفها لتقتطع بها حق امرئ مسلم، إنها تغمس في النار، وبها يخرج الإنسان من ملة الإسلام، وليس لها كفارة، لأنها أخرجتك من الدين، بل لا بد له أن يجدد إسلامه! أعطاك مليون من دون وصل، قلت له: لم آخذه، فقال القاضي: تحلف؟ قال: أحلف، فحلفت يميناً اقتطعت بها حق امرئ مسلم، هذه اليمين غمست صاحبها في النار.

ـ مقاطعة البضائع الأمريكية صار واجباً، تنقل إلي معلومات لطيفة جداً، سمعت عن أحدهم أنه أحرق سيارته كلها لأنها مصنوعة بأمريكا، فالحد الأدنى الذي لا حد بعده لا يوجد منه شيء من صنع أعدائنا نستغني عنه.

سؤال: أليس الله عالماً بما سأفعل وما سأقوم به؟ وإذا ارتكبت إثماً أليس مكتوباً علي أن أفعله؟ إذاً أنا مسير؟

الجواب: لا يوجد عقيدة تشل الإنسان كهذه العقيدة، وهي التي أخرت المسلمين، أوضح ردّ سيدنا عمر حين جاءه شارب خمر فقال: أقيموا عليه الحد، قال: والله إن الله قدر علي ذلك، فقال عمر عملاق الإسلام: أقيموا عليه الحد مرتين! مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(09-69): تفسير الآيات 19-21 ، المعاشرة بالمعروف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-04-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا آمنت باختيارك فمن موجبات إيمانك بالله أن تنصاع لتوجيهاته المتعددة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة التاسعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

أيها الأخوة الكرام، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

فالذي آمن بالله عز وجل آمن باختياره، فإذا آمنت باختيارك فمن موجبات إيمانك بالله عز وجل أن تنصاع لتوجيهاته المتعددة، الله عز وجل يخاطب عامة الناس بأصول الدين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

أما إذا خاطب المؤمنين فكأن بين المؤمن وبين ربه عقداً إيمانياً، أنت يا عبدي آمنت بي، وبعلمي، وبحكمتي، وبرحمتي، لأنك آمنت بي طواعية من دون إكراه، فهذا يقتضي أن تتبع مسائل الإيمان التفصيلية.

الاستجابة لأمر الله جزء من إيمانك :

كل من يدَّعي أنه مؤمن ولا يستجيب لأمر الله عز وجل فهو كاذب في ادعائه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

الاستجابة لأمر الله جزء من إيمانك، لذلك الأحكام التفصيلية والتوجيهات الجزئية في القرآن الكريم تتصدرها العبارة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فالله عز وجل بعد أن بين الشيء الذي يحل أن نورثه، هناك مورث ووارث وموروث، بعد أن بين لنا من قبل في هذه السورة بالذات الأموال التي يمكن أن تورث، وكيف أن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه توزيع هذا الإرث، لئلا تدخل الاعتبارات الاجتماعية هذا حق الله عز وجل، وفي دروس سابقة كان الحديث عن طريقة تقسيم الإرث، ولكن اليوم يبين الله لنا أن في حياة المسلم أشياء لا يمكن أن تورث! لأنه في الجاهلية كانت الزوجة تورث، وكأنها متاع! فالورثة يتزوجونها بلا مهر، لأنها جزء من الميراث كغرفة النوم، أو يزوجونها لمن يريدون ويأخذون المهر، أو يعضلونها كي تفتدي نفسها بكل شيء، فالمرأة في الجاهلية كانت تورّث كما يورث المتاع، فالله جل جلاله بعد أن بين لنا أن هناك أشياء تورث، والحكم فيها واضح، ومرَّ ذكره قبل درسين، ولكن في هذه الآية يبين جل جلاله أن هناك أشياء يحرم توريثها كالزوجة، إنها امرأة وشريكة الحياة، فإذا أمضت عدتها فلها الحق أن تتزوج، وأن يختارها من يشاء، ويدفع مهرها لها.

المرأة والرجل يتكاملان ولا يتشابهان :

يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

المرأة مقهورة، وهي جزء من متاع البيت، فإذا مات زوجها تزوجها من يشاء من الورثة، أو زوجوها وقبضوا ثمنها، أو أعضلوها ومنعوا زواجها كي تفتدي بنفسها، هذا حكم محرم في الإسلام، لأن المرأة كما تعلمون مساوية للرجل تماماً في التكليف، والتشريف، والمسؤولية، ولكن إذا قال الله عز وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى)

[سورة آل عمران: 36]

فلأن خصائص المرأة العقلية والجسمية والنفسية والاجتماعية تتناسب مع المهمة التي أنيطت بها، كما أن خصائص الرجل الاجتماعية والعقلية والنفسية والجسمية منوطة ومتناسبة مع المهمة التي أنيطت به، فالمرأة والرجل يتكاملان ولا يتشابهان، وحينما اختلطت الأوراق في العصور الحديثة، وفي مجتمع التفلت والكفر كان هناك من الأخطار، ومن أسباب انهيار المجتمعات ما لا سبيل إلى وصفه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

المرأة إنسان مكلف مشرف، إنها شريكة حياة الرجل، فإذا مات زوجها فلها الحق بعد أن تمضي عدتها أن تتزوج من تشاء، ولكل من سمع بها أن يخطبها إذا شاء، وتأخذ مهرها بيدها.

أيها الأخوة، في بعض الحضارات الشرقية إذا مات الزوج ينبغي أن تحرق معه، وهذا ظلم شديد، جاهلية العرب فيها ظلم، وثقافة الشعوب في بعض البلاد الشرقية تقضي أن تحرق المرأة مع زوجها الميت، وكلا الحالتين فيهما ظلم شديد، بينما وحي السماء يعطي كل ذي حق حقه.

الأحكام المتعلقة بالآية التالية :

هناك حكم شرعي آخر، قال تعالى:

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ)

الحكم الأول: المرأة لا يمكن أن تورّث، إنها إنسان في أعلى درجات الكرامة والإنسانية، أمرها بيدها، بينما لا يمكن أن يتم عقد زواج دون أن تسأل الفتاة، ويأخذ القاضي موافقتها، وإلا لم ينعقد العقد، وأنتم ترون حينما تحضرون عقود قران لا بد لكاتب المحكمة أن يذهب ليستمع إقرار الفتاة بأذنه، على أنها قبلت هذا الزواج من هذا الشاب على هذا المهر.

الآن عندنا حكم آخر: هو أن الزوج أحياناً يرفض أن يطلق زوجته، لا يطلقها إضراراً بها كي تفتدي نفسها بكل ما أعطته، وهذا محرم أشد التحريم، ولو تتبعنا أصل هذه الكلمة (عضل)، حينما يبدأ المخاض يتقلص الرحم تقلصات لطيفة نظامية إلى أن يدفع الغلام إلى الخارج، وبعد هذه التقلصات المتزامنة اللطيفة ينقبض الرحم انقباضاً شديداً، وكأنه صخر، التقلص الأول اللطيف من أجل أن يدفع الجنين إلى خارج الرحم، فلو كان تقلصاً شديداً لمات الجنين، والتقلص العنيف بعد الولادة من أجل أن يسد عشرات آلاف الأوعية المتقطعة من الولادة، فلو أن الآية انعكست كان التقلص شديداً في بداية المخاض، ثم كان رخواً بعد المخاض لماتت الأم ووليدها، قال تعالى:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

[سورة عبس: 20]

لكن أحياناً، وكلمة أحياناً أقصد بها حقيقة توحيدية، الرحم ينقبض، ولا يسمح للجنين أن يخرج، نقول: عضل الرحم، فلا بد من عملية قيصرية، لا بد من إخراج الجنين من خاصرة أمه، لو أن الله جل جلاله جعل الأسباب مترافقة مع النتائج إلى أبد الآبدين لما عرفنا الله، ولكانت الأسباب والنتائج شيئاً تافهاً، لأنها رتيبة، لكن مع أن هذا الجسم مبني على نظام دقيقٍ دقيق لكن ما كل سبب في الجسم يفضي إلى نتيجة، وما كل نتيجة لها سبب، فكأن الله جعل الأسباب نظاماً للكون كي تنتظم حياتنا، بل جعل في الأعم الأغلب أن هذه الأسباب مترافقة مع النتائج، لكن أحياناً هذا الرحم لا يدفع الجنين إلى خارجه، صار هناك عضلة، العضل هو عضلة الرحم تكف عن التقلص، ولا بد حينئذ من عملية قيصرية، هؤلاء الذين عبدوا الأسباب والنتائج تخيب آمالهم أحياناً، وقد نستفيد من هذا في معركتنا مع العدو، الكفار أخذوا بكل الأسباب، لكن أحياناً يفاجئون بمعطيات لم تكن في حسبانهم

أبداً، أين أسبابهم؟ فلذلك يأخذ المؤمن بالأسباب، وكأنها كل شيء، ويتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

معنى كلمة (عضل) :

الفرق الكبير بين الغرب المشرك والشرق العاصي أن الغرب المشرك أخذ بالأسباب أيما أخذ، واعتمد عليها، وألهها، فأتاه الله من حيث لا يحتسب، والشرق لم يأخذ بها كسلاً وجهلاً وتهاوناً فوقع في المعصية، الرحم مع أن له نظاماً دقيقاً جداً هو أنه في بدء المخاض يتقلص، لكن أحياناً لا يتقلص، من أجل أن تكون متعلقاً لا بالأسباب، بل بمسبب الأسباب، كي لا تكون متعلقاً لا بالأشياء المادية، بل بخالقها، وكأن هذه الاستثناءات التي لا تأخذ الأسباب مجراها، وتُعطل فيها الأسباب أو تُلغى من أجل أن يلفتك الله إلى ذاته، يا عبدي لا تعبد الأسباب، واعبد خالق الأسباب، فالعضل هو المنع والكف، فعضلة الرحم تعضل، أي تكف عن دفعه إلى الخارج فلا بد من عملية قيصرية.

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

أي أن زوجاً لم تكن زوجته كما يتمنى فعضلها، لا يعاملها كزوجة ولا تأخذ حقها منه كزوجة ولا يطلقها فيفسح لها المجال كي تتزوج، هذه معصية من أكبر المعاصي والآثام.

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

هناك أزواج ظُلّام، من أجل أن تفتدي نفسها بكل مهرها يسيء معاملتها، إلى أن تطلب منه المخالعة، فإذا طلبت المخالعة ينبغي أن يسترد كل شيء أعطاه لها، فهذه الطريقة في معاملة الزوجة معاملة سيئة من أجل استرداد كل ما أعطيته لها، هذا شرعاً منهي عنه أشد النهي.

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

أحياناً تكون المرأة غنية، وليست في مستوى طموح زوجها فيعضلها، من أجل أن يرث مالها، وهذا محرم، قد يطمع أن تفتدي نفسها بكل ما أعطاها، أو قد يطمع بمالها كي يرث مالها، فالمرأة التي لا تروق للزوج ينبغي أن يصبر، وإلا يطلقها كي يفسح لها المجال ليتزوجها من هو معجب بها.

الفاحشة هي الزنى والنشوز وعدم طاعة الزوج وسوء المعاملة :

قال تعالى:

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)

قال العلماء: الفاحشة المبينة هي الزنا، هذا قول من أقوالهم، المرأة إذا زنت قد تخسر كل مالها، ويحق للزوج أن يكرهها على الطلاق بعد أن تفتدي نفسها منه بكل ما أعطاها! لأنها خانت الأمانة،

بعضهم قال: الفاحشة النشوز، أن تستعصي على زوجها، فلا تطيعه، وكما تعلمون أن دين المرأة من أربع فقرات: إذا صلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها، ربع دين المرأة طاعتها لزوجها، فالزوجة التي نشزت، أي التي خرجت عن طاعة زوجها، هذه أيضاً لا تستحق مهرها، والزوجة التي هي سيئة المعاملة، لسانها سليط عليه لا تقيم له وزناً، فتتطاول عليه، ولا تعتني به، تهمل واجباته، هذا أيضاً من الفاحشة، في بعض التفاسير هناك أقوال ثلاثة في الفاحشة؛ نشوز الزوجة، أو وقوعها في الفاحشة، أو معاملتها السيئة:

((ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم؛ رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها..))

[الحاكم عن أبي موسى]

الذي تحته امرأة سيئة لا يرجو صلاحاً لها، ويبقيها تحته لا يستجاب دعاؤه، من أروع ما في تفصيل هذا الحديث، وهو صحيح: لو أنك في ضائقة، وقال لك خبير: اخرج من هنا، فرفضت أن تخرج، ثم قال لك: ماذا أفعل؟ أنت لك الحق أن تمتنع عن إعطائه توجيهاً معيناً، أنا ذكرت لك أن تخرج من هنا، فإن لم تستجب لتوجيهي فلن أستجيب دعائك، فهذا الذي تحته امرأة سيئة، ولا تطيعه، ولا تقوم برعاية زوجها وأولاده، وهي سليطة اللسان، متكبرة لا يرضيها شيء، ولا ترضى عن شيء، وتسأل زوجها الطلاق من غير بأس، فإذا خرجت اشتكت على زوجها، فهذه امرأة ليست مؤهلة أن تكون زوجة لمؤمن، بل ينبغي أن يطلقها، لأنها أم أولاده، وستربي بناتها تربية خاطئة، فالفاحشة عند بعض المفسرين، والقرطبي من كبار المفسرين الذين وجهوا الآيات توجيهاً فقهياً، فالفاحشة هي الزنى والنشوز، وعدم طاعة الزوج، وسوء المعاملة.

معنى آخر لكلمة (عضل) ليس في هذه السورة :

قال:

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ)

أن تبقي امرأة لا تعاملها كزوجة، ولا تطلقها كي تفتدي نفسها منك، أن تبقي امرأة غنية لا تطلقها، ولا تعاملها كزوجة هذا هو العضل.

هناك معنى فرعياً ليس في هذه السورة، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

[سورة النور: 33]

يتوهم إنسان أن هذه البنت يجب أن تبقى لخدمته، فيقيم العقبات أمام زواجها، لأنانية وضيق أفق، هذا أيضاً محرم، لذلك الله عز وجل يوجه الخطاب للمؤمنين:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

[سورة النور: 33]

لا يعقل ولا بالمليار واحد أن مؤمناً يكره ابنته على فعل الفاحشة، إلا أنك إذا عضلتها، وكلما جاء الخاطب وضعت العراقيل، وأوقعت العقبات، وسألت عن بيته، ولم يعجبك مدخل بيته مثلاً، ولا دخله، ووازنته بدخلك، وأنت في الستين، فمثل هذا الأب يرتكب خطأ كبيراً جداً حينما يعضل ابنته، وكأنه بهذا العضل يدفعها إلى المعصية.

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور: 33]

أيها الأخوة:

(إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)

قال العلماء: يجوز أن تسترد الذي أعطيتها إذا أتت بفاحشة، أو إذا نشزت، أو إذا عصت، ومن هنا شرع الخلع أحياناً.

الأصل في العلاقة الزوجية المودة والمودة سلوك أساسه الحب :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

قال تعالى:

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

[سورة يونس: 6]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الأصل في العلاقة الزوجية المودة، والمودة سلوك أساسه الحب، فحينما تكون الزوجة وفق طموح زوجها، وحينما يكون الزوج وفق طموح زوجته ينشأ بينهما الحب، ويعبر عنه بالود، فمن كلمة طيبة إلى ابتسامة إلى خدمة إلى صبر، وإلى مؤاثرة، وإلى تضحية، إلى ما لانهاية له من علاقة الود بين الزوجين، ولكن لو أن المصلحة انقطعت بين الزوجين، أصيبت الزوجة بمرض عضال، أو الزوج افتقر فانقطعت المصلحة بينهما، ماذا يبقى؟ الرحمة.

المعاشرة بالمعروف أوسع بكثير من الود :

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

فهذا البيت بني ليبقى، فإما أن يبقى على الحب والود، وإما أن يبقى على الرحمة، فلذلك جاءت الآية في قوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

والمعاشرة بالمعروف أوسع بكثير من الود، ما كل بيت يبنى على الحب، لكن الزوج إذا تزوج وله أولاد من زوجته كان مستقبل الأولاد فوق كل شيء، بل إن العلاقة بينه وبين زوجته ليس ملكاً لهما بل هي ملك أولادهما، فالزوج العاقل والزوجة العاقلة تلغيان موضوع الحب إذا كان هناك أولاد، وكانت مصلحة الأولاد الراجحة في بقاء هذه الحياة الزوجية، جاءت الآية:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

وقد قال العلماء: ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، لو أن الزوج أو الزوجة فهِمَا المعاشرة بالمعروف أن تحتمل أذى الزوج أو أذى الزوجة فما من فرق بين اثنين في العالم الإسلامي، هذا هو توجيه الله عز وجل.

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

الجمال أحد خصائص المرأة وليس كل خصائصها :

هناك حقيقة لا بد من شرحها: حينما يجهل الإنسان طبيعة المرأة يقع في خطأ كبير، هناك امرأة وهبها الله حكمة، وامرأة وهبها عقلاً، وامرأة وهبها الله وفاء، وامرأة وهبها جمالاً، الجمال أحد خصائص المرأة وليس كل خصائصها، فحينما الإنسان يتضجر من عيب في زوجته ينبغي ألاّ ينسى النواحي الأخرى التي امتازت بها، فما كل شيء في المرأة شكلها هذه حقيقة، فالمؤمن ينبغي أن يصبر، والزوجة ينبغي أن تصبر، لأن الزواج قد ينجح نجاحاً كبيراً من دون هذا الشرط الذي يبحث الناس عنه كل يوم، ولهذا الشرط أمد قصير، وتأثيره يضعف مع الأيام، ثم يكتشف المرء أن الأصل في العلاقة الزوجية الود، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما حدثنا عن المرأة المسلمة ذكر أنها ودود ولود، تنجب له أطفالاً يملؤون البيت فرحة، فهو ودود في معاملتها له، لذلك أزواج كثيرون حينما يشتكون من فظاظة زوجاتهم ينسون مع هذه الفظاظة جمال زوجاتهم بالتأكيد، فكأن الله عز وجل لحكمة بالغةٍ بالغة وزع خصائص المرأة بين النساء متفرقة، هذه تنال في هذه الصفة مئة درجة، وفي هذه الصفة عشر درجات، وفي هذه الصفة خمسين درجة، وفي هذه الصفة سبعين درجة، والمجموع ثابت، فأنت حينما تحكم على امرأة ينبغي أن تحكم على دينها، وعلى أخلاقها، وحكمتها، ووفائها، وأمانتها، وشكلها، أما أن يكون الشكل وحده كل شيء في المرأة فهذا ليس في واقع الكون، فالله عز وجل جعل المجموع ثابتاً.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ)

من زاوية الشكل فقط، الدين جيد، الأمانة، الصدق، الخلق، الحكمة، إدارة المنزل الجيدة، تربية الأولاد الحازمة.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

قد تنجب لك أولاداً نجباء، قد تمنحك راحة من طرف تربية الأولاد، قد ترى بيتك منتظماً بفضل حكمتها، قد يكون بيتك من البيوت المثالية.

هناك خيرات حسان لا يعملها إلا الله قد تتأتى من زواج إسلامي صحيح :

قال:

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ)

ومعظم المفسرين على هذا الجانب الذي يلهث الرجال وراءه.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

تروي الكتب أن إنساناً تزوج امرأة، فلما رآها يوم الدخلة لم تعجبه، قضى ليلته وخرج هائماً على وجهه عشرين عاماً، وعاد إلى المدينة، فإذا في مسجدها درس فيه طلاب علم كثر، جمع غفير متحلق حول شاب، فلما سأل عنه إذا هو ابنه الذي أنجبته امرأته منه يوم دخل بها، فلما عاد وعلم أن هذا ابنه ـ حينما ضجر منها يوم الدخول قالت له كلمة: لعل الخير كامن في الشر، إن رأيتني شراً فلعل الخير كله فيّ ـ وحينما علم أن هذا الابن كان عالماً كبيراً من علماء المسلمين، لذلك حينما عاد قال لابنه: يا بني قل لأمك: في الباب رجل يقول لك: قد يكون الخير كامناً في الشر.

هناك خيرات حسان لا يعملها إلا الله، قد تتأتى من زواج إسلامي صحيح.

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

وهذا الإنصاف أن تنظر إلى أمانتها، وعفتها، ودينها، وحسن إدارتها، وتصرفاتها، وأهلها المنضبطين، وأبيها، وأمها، هناك آلاف المقاييس التي ترفع المرأة إلى أعلى عليين، لكن بعض الرجال لا ينظر إلا إلى زاوية واحدة من المرأة فيكرهها أحياناً.

المهر تستحقه المرأة مرة واحدة إذا مكنته من نفسها فقط :

لكن إذا تفاقمت هذه الكراهية إلى درجة أنها حملت الزوج على أن يقترب من المعصية، ماذا نفعل؟

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

لكن إن لم يستطع الزوج أن يبقى مع زوجته، وكاد يقترب من المعصية عندئذ لا بد من الطلاق، قال:

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

أكبر وهم أن يتوهم الزوج أن هذا المهر موزع على العمر، فإذا طلقها في مقتبل العمر يحق له الذي أعطاها، وهذا جهل فاضح، لكن هذه الآية بينت أن المهر تستحقه المرأة مرة واحدة، إذا مكنته من نفسها فقط، وينتهي المهر:

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً)

القنطار، جلد البقرة إذا سلخت يتسع إلى ماذا؟ لو أنك ملأت جلد البقرة مالاً أو ليرات ذهبية.

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)

المهر استحقته الزوجة حينما مكنتك من نفسها مرة واحدة، معنى ذلك أن هذا العقد الغليظ في القرآن ورد مرتين، فقد أخذ الله عز وجل من الأنبياء ميثاقاً غليظاً، وأن عقد الزواج بين الزوجين هو عند الله ميثاق غليظ.

لمجرد أنك تريد تطليق امرأتك ينبغي أن تؤدي لها كل المهر معجله ومؤجله :

عقد السيارة قد ينتهي بالبيع ولا شيء عليه، والبيت قد تسكنه بالعقد وربما لا تسكنه، أما إذا اقترنت بامرأة، ثم جاء الأولاد، فهذا الابن هذا أبوه، وهذه أمه، من يعاني هذه المشكلة؟ الذي سافر إلى بلاد الغرب، وفي لحظة طائشة تزوج امرأة هناك، ابنه منها، هي في واد وهو في واد آخر، لأن أقدس عهد في الأرض بعد الأنبياء هو عهد الزواج، وكيف تأخذون المهر وقد أفضى بعضكم إلى بعض؟ لا يتاح لا للأب ولا للأخ ولا للابن ولا للأخت ولا لابن الابن ولا ابن الزوجة أن يرى من هذه المرأة ما أبيح لزوجها أن يرى منها.

امرأة مقدسة، جوهرة مكنونة أبيحت لإنسان، هذا شيء كبير جداً، لذلك هؤلاء الذين يستخفون بعقود الزواج لا تنسوا أن في العالم الغربي الآن تسعين بالمئة من حالات مساكنة فقط، لا يوجد عقد، ولا وقت، ولا توقيع، ولا إيصال، في أي لحظة يركلها بقدمه خارج البيت، لأنها مساكنة! أما عندنا في الإسلام فأقدس عهد وعقد هو عقد الزواج، وهذا العقد سيترتب عنه أولاد، جيل، طفل مؤمن أو كافر.

بعض الأخوة عندما يحدثونني عن زوجاتهم الذين تزوجوهن في بلاد الغرب، وكيف أن الابن تبع أمه، وترك دينه، وأصبح من هؤلاء الشاردين، كيف أن الأب كلما تذكر هذا ذاب قلبه ألماً، أقدس عقدٍ عقدُ الزواج.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)

لمجرد أنك تريد تطليق امرأتك ينبغي أن تؤدي لها كل المهر معجله ومؤجله.

العالم الإسلامي يتمتع بحصانة للزواج ما بعدها حصانة :

قال:

(فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً)

أما هي إن كرهت هذا الزوج، وطلبت المخالعة يحق له أن يسترد منها كل شيء، أو إذا نشزت، أو زنت، أو ساءت معاملتها، لذلك في دعاوى التفريق إذا وجد إساءة معاملة قد يحكم القاضي للزوج بنصف المهر، أو ربعه، أو بعشره، أو بثلثيه، الأصل الزنى، والنشوز، والإساءة، هذه تذهب حق المرأة في مهرها.

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

أتأخذونه، وقد استحقته المرأة يوم مكنتك من نفسها، ويوم أفضيت إليها، الإفضاء من الفضاء، يوم دخلت عليها من أوسع الأبواب، لا شيء محرم فيها عنك، كل شيء مباح لك إلا ما حرم النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

الميثاق الغليظ هو عقد الزواج، لذلك ينبغي على الإنسان أن يحسن اختيار زوجته، لئلا يحتاج إلى تطليقها، وفي طلاقها كسر لها، وتشريد للأولاد، وإضاعة لهم.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

ولم يرد الميثاق الغليظ إلا مع ميثاق الأنبياء، العالم الإسلامي يتمتع بحصانة للزواج ما بعدها حصانة، لذلك حينما تطلق المرأة ينبغي أن تدخل في العدة، لو أنها في سن اليأس فقضية براءة الرحم ليست واردة، ينبغي أن تمسك العدة ثلاثة قروء حفاظاً على قدسية هذا العقد، أما إذا مات عنها زوجها فالعدة أربعة أشهر وعشرة أيام، شيء مقدس لا يكون إلا بتمهيد ولا ينتهي إلا بتوابع، وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات، والحمد لله رب العالمين.

رأي خاص يتعلق بنصر الله لنا و لإخواننا في فلسطين :

سؤال: نصوم يوم الاثنين لعل الله يفرج على إخواننا بفلسطين!

الجواب: عندي رأي دقيق: هذه أشياء كلها جزئية، إذا لم يكن هناك عودة إلى الله عز وجل، ولا يوجد صلح مع الله، ولا استقامة على أمره، ولا رغبة قوية أن نقيم الإسلام في بيوتنا، هذه الأشياء لا تقدم ولا تؤخر، والله عز وجل يريدنا أن نرجع إليه، ولعل الحكمة الكبيرة من هذه الشدة التي أصابت المسلمين كما ذكرت في الخطبة اليوم أن هذه المحنة الشديدة لعل وراءها منحة من الله عز وجل، وأن هذه الشِدة لعل وراءها شَدة من الله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

فهذا كبير مجرمي الصهاينة لعل مهمته عند الله من دون أن يشعر، حيث يريد أن يوحد المسلمين، ويشحذ فيهم البطولة والفداء، ويدفعهم إلى العطاء، وهذا الذي يحصل، لعل كبير مجرمي الكيان الصهيوني أن يحركنا، ونعود إلى قرآننا وديننا، وإلى سنة نبينا، أن نصحو بعد غفلة، ونقف بعد قعود، ونتحرك بعد سكون، ونتعاون بعد منافسة، نتسامح بعد العداوة والبغضاء، هذا كله شيء ضاغط علينا، الآن ينبغي أن نبحث عن حلول استراتيجية، وليست تكتيكية، لا يكفي صيام يوم الاثنين، ولا تحل المشكلة، لكن تحل إذا عقد كل واحد النية أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً، وإذا نظر كل واحد إلى مسافات بعيدة كيف أحمي هذه الأمة من العدو الغادر؟ ينبغي أن يختار موقعاً يصب فيه كل طاقاته وخبراته، ليس بمقدور إنسان أن يرفع المعاناة عن الأمة كلها إلى الله، أما كإنسان فاخترْ عملك، وأخلص، وخفف الأعباء عن المسلمين، ومدهم بما يحتاجون.

للجهاد أبواب عدة :

ذكرت اليوم في الخطبة أشياء كثيرة، أربع أو خمس أبواب للجهاد متاحة لكل المسلمين في بلادهم، ذكرت اليوم أن شركة دخان واحدة أرباحها في اليوم من مبيعاتها في العالم الإسلامي ثمانمئة مليون دولار! وبين هذه الشركة والكيان الصهيوني عقد اثنا عشر بالمئة للكيان الصهيوني، تسعة ملايين دولار يأخذها اليهود من ربح هذا الدخان من مسلمي العالم، والشيء الذي يجرح الفؤاد أن المسلمين أكثر الشعوب تدخيناً! فما قولك في بقية أرباح شركات الدخان؟ ما قولك في أرباح شركات المطاعم المنتشرة في شتى بقاع العالمين العربي والإسلامي؟ ما قولك في أرباح شركات المياه الغازية التي تعد أرباحها فلكية؟ ما قولك في أرباح شركات السيارات التي تتصدر إعلاناتها المحطات الفضائية في العالم العربي؟ هل يجبرك أحد أن تشتري هذه البضاعة في العالم كله، لو لم تتلق توجيهاً من قيادة بلدك، والتمس لها العذر، هل يجبرك أحد في الأرض أن تشتري هذه البضاعة؟ هل يحاسبك أحد إذا لم تشتر هذه البضاعة، هذا باب مفتوح من أبواب الجهاد، باب آخر لو بحثت عن قناة نظيفة آمنة توصل من خلالها جزء من مالك إلى هؤلاء الذين هدمت بيوتهم، ودمرت ممتلكاتهم، وجرفت أراضيهم، وقطعت عنهم الكهرباء فتلفت موادهم الغذائية، قطعت عنهم المياه فشربوا المياه المالحة، أعدم رجالهم بالرصاص، أخذ أولادهم إلى السجون، ويعانون ما يعانون، أتهنأ أنت في حياتك؟ أترتاح في طعام تأكله، أو سرير تنام عليه، أو ابن أمامك تتمتع به، وهم قد فقدوا كل شيء، وتقول: ماذا أفعل؟ أمامك مليون فعل تفعله دون أن تكون مسؤولاً.

القضية قضية عودة إلى الله عز وجل :

فيا أيها الأخوة، القضية قضية عودة إلى الله، حينما نتوهم ونسمع من هذا الذي يقبع في واشنطن أن شارون رجل سلام، ما قولكم بهذا الكلام؟ أتتحمل هذا الكلام؟ لا تعلق أمل بأهل الأرض، لن ينفعونا شيئاً، الأمل بالله وحده:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

[سورة الأنفال: 10]

بالأرض القضية أسهل، فلان يحل المشكلة، لكن فلان ليس عنده منهج تطبقه، أنت مرتاح، فكلما علقت الحل بأهل الأرض فلا مشكلة لديك، أما إذا علقت الحل بالله فعند الله منهج إذا لم تطبقه لا يعطيك النصر. المشكلة أننا نجامل أنفسنا، كلما أردنا حلاً أرضياً نحن نجلس مرتاحين، كسالى، غير مطبقين للمنهج، أما عندما نجعل الحل هو الله فإن الله له منهج.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد: 7]

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

[سورة الأنفال: 10]

ألا تقام حفلات في ردهات الفنادق، وأبهاء المطاعم، وحدائق المزارع، تكلف مئات الألوف، واختلاط، وغناء؟ هذا وضع المسلمين، أيطيب للمسلم عندما يرى أخوته يقتلون ويؤسرون ويجوعون، أدويتهم دمرت! القضية كبيرة، لا تحل بقضية تكتيكية، لا تحل إلا بشكل استراتيجي، أراد الله من هذه المحنة أن نرجع إليه، وإن رجعنا إليه سوف ترون آيات الله صارخة وواضحة.

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

الظلم ظلمات :

أيها الأخوة، القضية تحتاج إلى مراجعة بيتك وعملك، لك موقع تقدم فيه خدمة للمسلمين، تربي أبناءك! هذه المشكلة، المشكلة لا تحل بصلاة غائب، ولا بصيام يوم الاثنين، بل بأكبر من ذلك، طالب لم يدرس أبداً وعنده امتحان، قال له زميله: خذ حبة أسبرين، ماذا تنفعه؟ والآخر قال: اقرأ الفاتحة، وقال الآخر: قبل يد أمك، لا تحل لا بقبلة يد الأم، ولا بقراءة الفاتحة، ولا بأسبرين، لأنه لم يدرس أبداً، هذا الواقع المر، دائماً ابق مع الحقيقة المرة، واترك الوهم المريح، الواقع المر عندنا مشكلة كبيرة مع الله، فحينما امتحننا الله بهذا البلاء الشديد، والله ما بعده بلاء، والله الذي يراه الناس ويسمعونه لا يحتملونه، تشعر أنك مدمر لأعماق أعماق أعماقك! لا يوجد إلا الأمل بالله عز وجل.

فيا أيها الأخوة، كأن الله تخلى عنا، وقلت في الدعاء: يا رب لا تتخلَّ عنا، ولكن هناك منا من يفعل ويوجب أن تتخلى عنا.

فرحنا بالأمطار، لاحظ من هنا إلى منين، طريق الربوة كم ملهى يوجد؟ وكم مغنية وراقصة وخمر؟ هذا بعدما أكرمنا الله بالمياه.

عندنا معاصٍ كبيرة جداً، صلاح الدين الأيوبي حينما حارب أوروبا بأكملها ماذا فعل؟ أزال المنكرات، وفتح المدارس، بل حينما فرض على الرعية ضريبة من أجل تجنيد الجيش، وسأل بعض العلماء قال: هذه ليست شرعية، فألغاها في اليوم الثاني، فجاء قواده، وقالوا: كيف تلغي الضريبة؟ كيف نجهز الجيش؟ فقال صلاح الدين رحمه الله: لا يبنى جهاد على معصية. أنا قلت: حينما تؤمن بالله إيماناً حقيقياً ينبغي أن يحملك على طاعة الله، وحينما تؤمن بالآخرة إيماناً حقيقياً ينبغي أن يحملك على ألا تظلم مسلماً.

ألا يوجد ظلم لبعضنا؟ دعك، خذ الطبقة التحتية والشعب، كم دعوة فيها ظلم؟ كم أسرة وكم عائلة فيها ظلم؟ كم صاحب معمل يظلم عماله؟ الظلم ظلمات، لذلك عند الله عز وجل حقيقة مؤلمة جداً، ولا أتمنى أن أقولها: إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة إذا وجد ظلم فيما بيننا، أو مشكلة كبيرة جداً لا تحل بصيام، ولا بصلاة غائب، بل بعودة إلى الله من الأعماق، وكل واحد يعاهد الله أن يعمل شيئاً، ويتجاوز حاجاته اليومية، وشغله، ويعمل شيئاً ثميناً لله حتى يستجيب له الدعاء.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(10-69): تفسير الآيات 22-24 ، المحرمات عند الزواج
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-04-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

زوجة الأب لا ينبغي أن يتزوجها ابنه من بعده صوناً لمكانة الأب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العاشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية والعشرين من هذه السورة، وهي قول تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

في الآية السابقة حينما نهانا الله عز وجل أن نرث النساء كرهاً فذاك بيان لمكانة المرأة، وصون لمكانتها في الإسلام، فلا ينبغي أن تكون المرأة متاعاً يورث من زوج إلى أولاد، إذاً صوناً لمكانة المرأة فقد حرم الله جل جلاله أن تورث كمتاع يملكه المورث، لأن في هذا إهانة لها، لكن يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

[سورة النساء: 19]

لو أنها قبلت أن تتزوج ابنه بمحض إرادتها، وانطلاقاً من مصلحتها جاء تحريم آخر، التحريم الآخر صوناً لمكانة الأب، فهذه زوجته لا ينبغي أن يتزوجها ابنه من بعده، صوناً لمكانة الأب، فحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

[سورة النساء: 19]

هذا التشريع صون لكرامة المرأة، وصون لكرامة الأب، جاء التحريم قطعياً كرهاً أم طوعاً:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

الله عز وجل عقّب على زواج الابن من زوجة أبيه بالذم البالغ المتتابع :

كان الناس أيها الأخوة يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)

[سورة النساء: 19]

حتى نزلت هذه الآية:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ)

فصار حراماً في الأحوال كلها، والنكاح يقع على الجماع والتزويج، فإذا تزوج الأب امرأة حرمت على ابنه قطعاً. وقد ورد في الأخبار أن الأشعث بن سوار قال: توفي أبو قيس، وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدتك ولداً، ولكن آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره أي أستفتيه، فأتته فأخبرته، فأنزل الله هذه الآية، إذاً كحكم شرعي قطعي لا كرهاً ولا رضى لا يجوز من الابن أن يتزوج امرأة أبيه، وحينما قال الله عز وجل:

(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)

أي تقدم ومضى، فالذي مضى معفو عنه، هذا التشريع ليس له حكم رجعي.

من هم السلف؟ من تقدم من آبائك، وذوي قرابتك، ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

فعقب الله عز وجل على هذا الفعل بالذم البالغ المتتابع، وذلك دليل على أنه فعل غاية في القبح، وأصل المقت، هو فحش، ومقت، وطريق سيئ إلى مبتغاك، ثم يقول الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

الله سبحانه وتعالى حرم سبعاً من النسب وستّاً من الرضاع والمصاهرة :

أيها الأخوة، هذه آية في أحكام الزواج أولاً:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)

طبعاً نكاح الأم محرم تحريماً قطعياً شمولياً، لا يمكن أن يكون إليه سبيل، ولا بشكل من الأشكال، فالأم مهما علت، الأمُ، وأم الأم، ولكن قبل أن نأتي على التفاصيل نقول: إن الله سبحانه وتعالى حرم سبعاً من النسب، وستّاً من الرضاع، والصهر، وألحقت السنة تحريماً آخر، حرم سبعاً من النسب، وستاً من الرضاع، والمصاهرة، وألحقت السنة المتواترة سابعة محرمة، وسيأتي تفصيل ذلك فالسبع المحرمات هي: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

والسبع المحرمات بالمصاهرة هن: الأمهات من الرضاع، والأخوات من الرضاع، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، والسابعة كما قال عليه الصلاة والسلام: حرم أن يجمع الإنسان بين الزوجة وعمتها، وبين الزوجة وخالتها، هذا موجز، وسيأتي تفصيل ذلك.

تحريم سبعاً من النسب هو تحريم قطعي لا سبيل إلى تحليله :

أيها الأخوة، حينما قال الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)

تحريم الأمهات عام في كل حال، لا يتخصص بوجه، كلمة لا يتخصص أي ليس هناك نص شرعي يخصص هذا التحريم العام، أو يبيحه، هذا النوع من التحريم يسميه علماء الأصول التحريم المبهم الذي لا سبيل إلى تحليله، لا بحالة خاصة، ولا بشيء آخر، تحريم البنات والأخوات ومن ذكر من المحرمات، فالأم كما قال العلماء: اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات، فيدخل في هذا الأم، وأمهاتها، وجداتها، وأم الأب، وجداته، وإن علوا، أعيدها ثانية: الأم هي كل أنثى لها عليك ولادة، أي أنت من نسلها، فيدخل في ذلك الأم، وأمهاتها، وجداتها، وأم الأب، وجداته، وإن علوا.

والبنت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة من الدرجات، يدخل في ذلك بنات الصلب، وبناتها، وبنات الأبناء، وإن نزلوا، فحينما قال الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)

أي الأمهات مهما علون، ومهما تفرعن في العلو، والبنات مهما نزلن، ومهما تفرعن في النزول، الأم مطلقة، والبنت مطلقة محرمة تحريماً قطعياً لا سبيل إلى تحليله.

والأخت كما قيل اسم لكل أنثى جاورتك في أصليك، أو في أحدهما، أي الأخت الشقيقة، أو الأخت لأب، أو الأخت لأم، جاورتك في أصليك؛ في أمك وأبيك، أو في أحدهما.

والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك في أصليه، أو في أحدهما، فأخت الأب، وأخت الجد عمة، وإن شئت قلت: كل ذكر رجع نسبه إليك فأخته عمتك.

والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصليها، أو في أحدهما، وإن شئت قلت: كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة، فأختها خالتك.

وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بوساطة أو مباشرة، وكذلك بنت الأخت، فهذه سبع محرمات من النسب؛ الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

للتوضيح نقول: الأم مهما علت، الجدة لأب، الجدة لأم، وهكذا، والبنت بنتك الصلبية، أو بنت ابنك، أو بنت ابنتك، مهما نزلن وتفرعن، ومهما علون وتفرعن، هذه من التحريم القطعي، ثم الأخت يجمعك مجاورة مع أصليها، أي شقيقة، أو مع أحد أصليها، أخت لأم، أو أخت لأب، والعمة، والخالة كما شرحنا سابقاً.

الأصول السبعة النسبية مجموعة في زمرتين زمرة أصل وفرع وزمرة جوار :

إذاً:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

بالمناسبة علاقة النسب ترجع هذه الأصناف السبعة إلى أصلين، علاقة أصل أو فرع، وعلاقة مجاورة، فالأخت، والعمة، والخالة، وبنات الأخت، وبنات الأخ علاقة مجاورة، أما الأم والبنت فعلاقة أصل أو فرع، فالعلاقة شاقولية أو أفقية، العلاقة الشاقولية الأم والبنت، الأم ارتفاع، والبنت نزول، والعلاقة الأفقية أخت، أو عمة، أو خالة، أو بنت أخت، أو بنت أخ، فهذه الأصول السبعة النسبية مجموعة في زمرتين؛ زمرة أصل وفرع، وزمرة جوار، فربنا جل جلاله لبلاغة القرآن وإعجازه وإيجازه قال:

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

فذكر من كل زمرة واحدة، فجاء عليه الصلاة والسلام وقال:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

أي كل علاقات الرضاعة كأصل وفرع، وأخت، وعمة، وخالة، وبنت أخ، وبنت أخت ينطبق عليها التحريم تماماً، لكن الله اكتفى من علاقات الرضاعة بواحدة من كل زمرة فقال:

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

وهي في التحريم مثل من ذكرنا.

علاقات الرضاع مثل علاقات النسب لكن القرآن اكتفى بواحدة من كل زمرة :

قال عليه الصلاة والسلام:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

إذا أرضعت المرأة طفلاً حرمت عليه لأنها أمه، وحرمت عليه ابنتها، لأنها أخته، وحرمت عليه أختها، لأنها خالته، وحرمت عليه أمها، لأنها جدته، وحرمت عليه بنت زوجها، لأن زوجها صاحب اللبن، هي امرأة لها زوج أرضعت هذه الطفلة، فزوجها صاحب اللبن هي أرضعتها من لبنِ أصله زوجها، إذاً حرمت على زوجها لأنه أبوها من الرضاعة، وحرمت عليه أخت الأب لأنها عمتها، وحرمت عليه أمه لأنها جدته، وبنات بنيها وبناتها، لأنهن بنات أخوته وأخواته.

أعيد عليكم هذه الفقرة، قال تعالى:

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ)

وهي في التحريم مثل من ذكرنا، قال عليه الصلاة والسلام:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ)

فإذا أرضعت المرأة طفلاً حرمت عليه، لأنها أمه، وإذا أرضعته حرمت عليه ابنتها، لأنها أخته، وإذا أرضعته حرمت عليه أختها، لأنها خالته، وإذا أرضعته حرمت عليه أمها، لأنها جدته، وبنت زوجها صاحب اللبن، لأنها أخته، وأخته، لأنها عمته، وأمه لأنها جدته، وبنات بنيها، وبناتها، لأنهن بنات إخوته وأخواته.

ملخص هذا الكلام لخصه النبي بكلمتين:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

علاقات النسب سبع، ومثلها علاقات الرضاع، لكن القرآن اكتفى بواحدة من كل زمرة.

الإمام الشافعي عدَّ شرطين لوقوع أحكام التحريم بالرضاعة :

التحريم بالرضاع أيها الأخوة لا يمكن أن يكون إلا ضمن حولين، يقول لك: أنا يتيم، وعمره ثمانين سنة، لا يتم بعد حلم، كلمة يتيم دون البلوغ، بعد البلوغ لم يعد يتيماً، معظمنا أيتام، الآن الرضاع لا تنطبق عليه الأحكام إلا ضمن سنتين، ما بعد السنتين لا يسمى رضاعاً، بعض المذاهب يرى أنه لا فرق بين قليل الرضاع وكثيره، فإذا وصل هذا الحليب إلى الأمعاء، ولو مصة واحدة اعتبر رضاعاً، وبني عليه أحكام التحريم.

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى عد شرطين لوقوع الأحكام، أحدهما: خمس رضعات، لحديث عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ))

[مسلم عن عائشة]

((أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ تَبَنَّى سَالِماً وَهُوَ مَوْلًى لِامْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ كَمَا تَبَنَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْداً وَكَانَ مَنْ تَبَنَّى رَجُلاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَعَاهُ النَّاسُ ابْنَهُ وَوَرِثَ مِنْ مِيرَاثِهِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَأَخْوانكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ فَرُدُّوا إِلَى آبَائِهِمْ فَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ لَهُ أَبٌ فَمَوْلًى وَأَخٌ فِي الدِّينِ فَجَاءَتْ سَهْلَةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا نَرَى سَالِماً

وَلَداً يَأْوِي مَعِي وَمَعَ أَبِي حُذَيْفَةَ وَيَرَانِي فُضُلاً وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ فَقَالَ: أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِهِ مِنْ الرَّضَاعَةِ))

[أحمد عن عائشة]

عند بعض المذاهب مصة واحدة يبنى عليها حكم، وعند الإمام الشافعي خمس رضعات يتم بها الحكم.

الشرط الثاني: أن يكون هذا الرضاع في الحولين دون السنتين، فإذا كان خارجاً عنهما لم يحرم، لقوله تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)

[سورة البقرة: 233]

حولين كاملين، فقال بعض العلماء: ليس بعد التمام والكمال شيء.

حكم التحريم لا يبنى إلا بثلاث رضعات :

لكن هناك أحكام تفصيلية، أبو حنيفة أضاف ستة أشهر بعد الحولين لعلة مذكورة في كتب الفقه، ومالك اعتبر شهراً بعد الحولين، وزفر قال: ما دام يجتزئ باللبن؛ أي يكتفي باللبن ولم يفطم فهو رضاع، وإن أتى عليه ثلاث سنين، يعني بين ما دام الطفل مكتفياً بالرضاع، ولو مضى عليه ثلاث سنوات الرضاع يبنى عليه حكم التحريم، وعند بعض الأئمة ستة أشهر بعد الحولين، وعند بعضهم الآخر شهر بعد الحولين، فلا يبنى التحريم إلا إذا وقع الرضاع في هذه المدة من سنتين إلى ثلاث، إذا كان يكتفي بحليب أمه، وإن لم يكتفِ فشهر بعد السنتين، أو ستة أشهر بعد السنتين، وبعض الأئمة يقول: إذا فطم بعد عام، واستمر فطامه فليس بعد هذا العام رضاع، يبدو أن أحكام الرضاع تبنى على مدة الرضاع الخاصة بكل طفل.

بعضهم يرى أن الحكم التحريم لا يبنى إلا بثلاث رضعات، من مصة إلى خمس إلى ثلاث، الآن:

(وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ)

هي الأخت لأب أو لأم، وهي التي أرضعتها أمك بلبن أبيك، سواء أرضعتها معك أو ولدت قبلك أو بعدك فهي محرمة لأنها أخت، والأخت من الأب دون الأم، وهي التي أرضعتها زوجة أبيك، والأخت من الأم دون الأب، وهي التي أرضعتها أمك بلبن رجل آخر.

التحريم بالمصاهرة :

ثم ذكر التحريم بالمصاهرة فقال:

(وَأُمَّهَاتُكُمْ نِسَائِكُمْ)

أي أم الزوجة، والأصهار أربعة، أم المرأة محرمة، وابنتها محرمة، وزوجة الأب محرمة، وزوجة الابن محرمة، إذاً بالرضاع عندنا الأم، والأخت، وتفريعتهما، وبالمصاهرة أم الزوجة، وابنتها، وزوجة الأب، وزوجة الابن. ثم يقول الله عز وجل:

(وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)

الربائب جمع ربيبة، والربيبة بنت الزوجة من غير الزوج، امرأة مطلقة لها بنت، خطبها رجل، ابنتها معها هذه ربيبة، والأصل فيها أنها تربى في بيت زوج أمها، فهي ربيبة، لكن بعضهم توهم أنها لم تكن عند أمها فهي محللة، قالوا: لا، هي ربيبة، لأنها يغلب عليها أنها عند أمها دائماً، ولو لم تكن عند أمها فهي محرمة، بنت الزوجة محرمة:

(وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)

بمجرد العقد على المرأة لا تحرم ابنتها، حكمة بالغة بالغة، لا تحرم ابنتها إلا بعد الدخول، لأن الأم تتسامح، فلو أن رجلاً خطبها، ثم عدل عنها إلى ابنتها، فابنتها تتمنى لها كل خير، دقة الشرع بالغة، البنت لا تحرم على الرجل إذا عقد على أمها، لا تحرم عليه إلا إذا دخل بأمها،

(وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)

قال:

(فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ)

لو عقد على امرأة، ثم فسخ هذا العقد، واتجهت النية إلى ابنتها يجوز العقد الثاني، يعني الدخول معروف، ليلة العرس تقريباً، هناك من الفقهاء من يتوسع في الدخول فيراه النظرة بشهوة، أو الملامسة، على خلاف بين الفقهاء، لكن إذا عقد العقد على البنت حرمت الأم، ولو من دون دخول، هذه نقطة دقيقة، إذا عقد العقد على البنت أصبحت أمها محرمة على زوج البنت، ولو لم يدخل بها، والعكس غير صحيح، قد يعقد على الأم، ثم تتجه النية إلى البنت، تطلق الأم من دون دخول، ويصح العقد على البنت، أما إذا تم العقد على البنت فمجرد العقد تحرم أمها.

تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء وما عقد عليه الأبناء على الآباء :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ)

والحلائل جمع حليلة، وهي الزوجة، لأنها تحل معه أينما حل، أو لأنها حلال له، وهو حلال لها.
النقطة التاسعة: أن العلماء أجمعوا على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، لمجرد عقد أب على امرأة فهي محرمة على الابن، وما عقد عليه الأبناء على الآباء، ولمجرد أن يعقد ابن على امرأة فهي محرمة على أبيه، لقوله تعالى:

(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)

وقول الله عز وجل:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)

طبعاً إذا دخل الرجل بامرأة تحرم على أبيه وابنه، وعلى أجداده وأولاده مهما نزلوا بشكل دقيق.

إبطال الإسلام عادة التبني :

طبعاً حينما قال الله عز وجل:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)

المتبنى لا حكم له، النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله، وكان متألماً أشد الألم أن يتزوج زوجة ابنه المتبنى زيد، طبعاً في الجاهلية المتبنى ابن، وكان اسمه زيد بن محمد، وقد فعل النبي شيئاً بأمر من الله واضح، وكان يتمنى ألا يفعله لأن الناس يتكلمون بهذا الكلام بشكل لا يليق، لكن الله عز وجل أراد إبطال هذه العادة، ويستأصلها من جذورها، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زوجة متبناه، لذلك لم يرد اسم صحابي في القرآن الكريم إطلاقاً إلا زيد، لأنه حينما أمر الله نبيه أن يتزوج زوجة زيد فقد نسبته إلى النبي، كان اسمه زيد بن محمد، فخسر هذه النسبة، فعوضه الله عنها أنه ذكر اسمه وحده في القرآن، إذاً عادة التبني أبطلها الإسلام، والآن هناك من يتبنى طفلاً، دققوا أيها الأخوة، هذا الطفل أجنبي، فيقال: هو مثل ابني، لا ليس مثل ابنك، هذا يشتهي زوجتك، ويشتهي بناتك، فعادة التبني خطيرة جداً، فيها اختلاط أنساب، ابنك الذي هو من صلبك فقط، إن شاء الله مثل أختي، أختك التي هي من أب واحد، أو من أم واحدة، أو من أب وأم، أما هي مثل أخي فلا، هذا كله كلام فيه فساد عريض، فالنبي عليه الصلاة والسلام تحمل مشقة أنه أبطل عادة مترسخة في العرب في الجاهلية، أن المتبنى كالابن تماماً، لذلك قال:

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)

أيضاً ويحرم حليلة الابن من الرضاع، طبعاً الابن من الرضاع ليس من صلبه، لكن من الرضاع، هذا استثناء، تحرم على الإنسان زوجة ابنه الذي من صلبه، وزوجة ابنه من الرضاع تحريماً قطعياً، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

منع جمع الأختين في عقد واحد من النكاح :

قال:

(وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)

أجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد واحد من النكاح بهذه الآية، ثم هناك حكم دقيق في الشرع؛ أن العلماء أجمعوا على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً رجعياً، يعني يملك أن يرجعها فليس له أن ينكح أختها أو أربعاً سواها حتى تنقضي عدة المطلقة، فلا يستطيع أن يجمع بين الأختين بمجرد الطلاق، طبعاً التحريم أن يجمع بينهما، فإن لم يجمع بينهما فلا شيء عليه، والدليل، قد تتوفى زوجة ولها أولاد، ومن حق زوج المتوفاة أن يتزوج أختها، إذا تزوج أختها لم يجمع بين الأختين، إذاً التحريم أن يجمع بين الأختين، لكن العلماء قالوا: إنه لا يجوز أن تجمع بين الأختين إلا بعد انقضاء عدة طلاق الأولى، كما لا يجوز أن يكون عندك فوق أربع نسوة، حتى الأربع يجب أن ينقضي العدة على طلاق الأخيرة، حتى تستكمل بها الأربعة،

(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)

وهذا من تخفيف الله عن المسلمين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، أن الذي مضى قبل هذا التحريم لا شيء عليه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

أية امرأة لها زوج فهذه محرم أن تتزوجها عطف على المحرمات المذكورات من قبل :

المحصنات عطف على المحرمات، يعني:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً* وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ)

أية امرأة لها زوج فهذه محرم أن تتزوجها عطف على المحرمات المذكورات من قبل، والتحصن هو التمنع، وامرأة محصنة أي لها زوج، لذلك عقوبة الزانية المحصنة الرجم حتى الموت، وعقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت، بينما عقوبة الزاني غير المحصن مئة جلدة، وعقوبة الزانية غير المحصنة مئة جلدة، وبعضهم قال: المحصنات العفائف من المسلمين، ومن أهل الكتاب أيضاً، طبعاً يجوز أن يتزوج الرجل امرأة من أهل الكتاب، لكن هناك من يحرم الآن الزواج منهن، هو الأصل في تحليل واضح في القرآن بآية واضحة، لكن لأن هذه ليست محصنة، وقلما تجد امرأة ليس لها تجارب قبل الزواج مع أزواج آخرين في بلاد الغرب طبعاً، أقول هذا الكلام، لا يزال الشرق له عادات يتميز بها عن الغرب، أما حينما تذهب إلى أمريكا وإلى أوربا فليس هناك امرأة واحدة ليس لها تجارب قبل الزواج، إذاً ليست هذه محصنة.

شيء آخر: قد يأتي ابن يتبع أقوى الأبوين، هذا حينما قوي الإسلام يجوز أن تأخذ من شئت من أهل الكتاب، أما الآن فهناك مشكلة يعاني منها أخوتنا معاناة لا توصف:

(كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

أي هذا حكم الله عليكم:

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ)

هذا المحرم وما سواه محلل، لذلك الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالنص، أما العبادات فالأصل فيها الحصر، ولا يشرع شيء إلا بالنص.

أسئلة عامة :

أيها الأخوة، كنت أقول دائماً: إن الحق دائرة يمر بها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي.

وردني سؤال: هل يجوز أن يرى الشخص أخته من الرضاع؟

الحقيقة أن هناك فرقاً دقيقاً بين الأخت النسبية والأخت من الرضاع، تصور إنساناً تزوج، عنده زوجة وابن رضيع، الجارة دخلت مرة إلى بيت الرجل، وأرضعت زوجته ابن هذه الجارة خمس رضعات، وانتهى الأمر، الآن هذه البنت عمرها ثماني عشرة سنة مثل الوردة، والابن عمره عشرون سنة هل تظن أنه لأنها رضعت خمس رضعات من أمه يجوز لها أن يراها كما يرى أخته؟ هل ترتاح أن يخلوَا في بيت واحد، لذلك حرم الفقهاء الخلوة مع الأخت من الرضاع، وبعضهم تشدد فلم يسمح بالنظر إليها، وقد سمعت هذا من رجل فقيه تسلم منصب عمادة كلية الشريعة، قال: أية امرأة، أي لفتت نظر الإنسان، له سبيل إلى الزواج منها، أما لو أن هذه الأخت من الرضاعة لفتت نظره هل هناك سبيل إليها؟ مستحيل، فالاختلاط ممنوع في الأصل، والخلوة من الأخت من

الرضاعة ممنوع أيضاً، وهناك من يتشدد ويرجح ألا يسمح بالنظر إليها، طبعاً إذا كانت شابة، الأخت الكبيرة موضوع ثانٍ، أما فتاة في ريعان الصبا، ولها أخ من الرضاعة فالأحوط أن نجتنب، فلا نسمح بالاختلاط بخلوة محرمة قطعاً في كل المذاهب، هذا جواب السؤال.

سؤال آخر: هل دخول العريس إلى حفلة النساء ليلبس المرأة حرام، وكيف يمكن امتناع الأهل من أجل أن يكون عرساً إسلامياً صحيحاً؟ وكيف يمكن إقناع الأهل؟

يقنعهم الواحد، واحد عنده قناعة أن الدجاجة ستأكله، ما ترك أهله طبيباً، آخر طبيب جلس معه ست ساعات، وشرح له حجم الدجاجة، وأنه ليس من المعقول أن تأكلك، قال له: أنا مقتنع، ولكن أقنعها هي، كيف تقنعهم؟ لا تقنعهم، لا تدخل أنت، إذا اقتنعوا أو لم يقنعوا، لا تعلق أهمية على إقناعهم، أنت رجل فخذ موقفاً، أنا لا أدخل، وانتهت العملية، لا بد أن يشعر من حولك بقضايا الدين، ليس هناك مساومات، ولا أنصاف حلول، ولا موقف لين، حلها برمة سيدي، هذا متزمت كثيراً، لا، تمسك حل وسط غير وارد، إما تمسك أو تفلت، الآن أنت مثلاً في مستودع للوقود، تقول: هذا مستودع محكم، معنى محكم له تفسير واحد، تملؤه ألف لتر، تغيب خمس سنوات لا ينقص شيء إذا كان مغلقاً، أما إذا كان غير محكم فعدم الإحكام نسبي، ويسيل في يوم، أو في ساعة، أو في ثانية، أو في سنة، عدم الإحكام نسبي الإحكام، القضية مهمة، إذا أراد الإنسان أن يعصي الله فالمعصية درجات، أما الطاعة فدرجة واحدة، فأنت في مثل هذه الأحوال في أمور الدين، وأنا أنصح كل خاطب في بداية الخطبة، وأيام الخطوبة أن يعطي مبادئ، أنا في أمور الدين لا أقبل المساومة، حدود الله ينبغي أن نقف عندها، فقضية ندخل على النساء، والنساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، بأبهى زينة، وأنت إلى جانب زوجتك، والنساء أمامك هل هذا كلام؟! أي عرس إسلامي؟ هذا عرس شيطاني، في الدين لا مساومة، فكيف تُقنع من لا يقتنع؟

سؤال: هل أتبع مذهب أبي أم أمي؟

والله لا أعرف مذهب أمك وأبيك.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(11-69): تفسير الآيات 24-27 ، المحصنات وأحكام الزواج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى بيّن المحرمات من اللواتي لهن أزواج :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ)

بيَّن الله جل جلاله المحرمات من النسب، وبيَّن المحرمات من الرضاع، وبيَّن المحرمات من الزواج، والآن يبين المحرمات من اللواتي لهن أزواج، تحريم نسب، تحريم رضاع، تحريم زواج، تحريم أزواج، المحصنة لها زوج، زوجها حصنها، فالزوج محصن، والمرأة محصنة، أولاً يحميها، يحقق لها حاجاتها من جميع أنواعها، لا تنظر إلى غيره، تقصر طرفها عليه، ومن أغرب ما قرأت في كتاب لعالم غربي يتحدث عن أن أفضل نظام للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على زوجة واحدة، بمعنى ألا يكون له أخدان، فهذه المحصنة محرمة ما دام لها زوج، وليس في دين الإسلام، ولا في شرائع الله عز وجل لامرأة رَجُلان، وفق منهج الله المرأة لرجل واحد، فهذه محصنة، زوجها حصنها وكأنها في حصن، والزوج حصن:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ)

هؤلاء أيضاً محرمات على الرجال، وأن يتزوجوا هذه المرأة التي لها زوج، فمحرم على الرجال أن يتزوجوا امرأة لها زوج.

المسلمون أصحاب رسالة وقد جعلهم الله أمة وسطاً :

ثم يقول الله عز وجل :

(إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

الحقيقة ملك اليمين بحث طويل، هذا البحث يتعلق بالفتوحات الإسلامية، لأن الإسلام دين الله عز وجل، ولأن دين الله إنساني، ولأن الهدف البعيد من الفتوحات ليس التدمير، وليس الإبادة، فالإسلام يعرض على الطرف الآخر عرضاً بيانياً، فإن أسلم الطرف الآخر أصبح من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، أول حركة أن تعرض الإسلام على هؤلاء ـ أنا أسميهم الطرف الآخر ـ غير

المسلمين، فإن أسلموا فلهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والإسلام جمعنا معهم، وأذابهم فينا، وأذابنا فيهم، وقد تتساءلون: أئمة عظام في الإسلام ليسوا عرباً؟ الإمام البخاري، أنا أنقل لكم عشرات الأسماء، لا يخطر ببالك لثانية واحدة أنه غير عربي، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث من أدق أحاديثه، وهذا الحديث يتوافق مع أحدث نظرية في اللغة يقول: ليست العربية لأحدكم من أب أو أم ولكن من تكلم العربية فهو عربي، هذا الذي أتقن العربية، وأحب دين الله عز وجل في دمائه كريات إسلامية عربية دون أن يشعر، إذاً المسلمون أصحاب رسالة، وقد جعلهم الله أمة وسطاً، وسطاء بين الله عز وجل وبين الخلق، وهذه مرتبة عالية جداً اختص الله بها المسلمين والعرب، والعرب حينما استجابوا لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام أصبحوا خير أمة أخرجت للناس، والجامعة العربية مزينة بهذه الآية:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

والآية الثانية:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة آل عمران: 103]

أمة سيدنا محمد تقسم إلى أمتين؛ أمة الاستجابة وأمة التبليغ :

لكن هذه أمة استجابة، ما داموا قد استجابوا لله عز وجل إذاً:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

علة الخيرية أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، فخيرتهم علتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فإن لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يؤمنوا بالله فقدوا خيرتهم، فأصبحوا أمة كأية أمة، لا شأن لها عند الله، وهذا يؤكده:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

أهل الكتاب، فأجابهم الله عز وجل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

ولا أجد آية تتعلق بأهل الكتاب تنطبق على المسلمين انطباقاً تاماً كهذه الآية، يقول لك أحدهم: نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الجواب: قل فلم يعذبنا الله بذنوبنا، بل حينما لم نستجب فنحن بشر ممن خلق، هان أمر الله علينا فَهُنّا على الله، لذلك العلماء قسموا أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمتين؛ الأمة الأولى أمة الاستجابة، والأمة الثانية أمة التبليغ، التي استجابت هي خير أمة أخرجت

للناس، والتي لم تستجب هي أمة التبليغ، كأية أمة من الأمم، بشر ممن خلق، المؤمنون الصادقون الذين أناط الله بهم رسالة هي نشر هذا الدين في الآفاق، ألا تسمعون هذه الأمة ذات رسالة خالدة، رسالتها الإسلام، نشر هذا الدين في الآفاق.

المنهج الذي رسمه الله عز وجل وبيَّنه النبي لنشر هذا الدين :

قال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة: 152]

أما حينما لا نستجيب فنحن أمة كأية أمة، إذاً في أعناقنا رسالة، في أعناقنا مهمة نشر هذا الدين، المنهج الذي رسمه الله عز وجل، وبينه النبي لنشر هذا الدين كما يلي:

1 ـ نعرض الإسلام على الطرف الآخر فإن استجاب فهو منا ونحن منه :

أولاً: نعرض الإسلام عرضاً بيانياً على الطرف الآخر، فإن استجاب فهو منا ونحن منه، له ما لنا وعليه ما علينا.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

[سورة الحجرات: 13]

أما الآن ليفن بعضكم بعضاً، أبداً، يقال: تطهير عرقي، ما هذا الكلام؟ تطهير عرقي، هذا الذي يُقتَل ليس قاتلاً، وليس سارقاً، وليس منتهكاً لأعراض الناس، ولكن لأنه مسلم يُقتَل.

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[سورة البروج: 8]

لأن الله جل جلاله أناط بنا مهمة تبليغ الرسالة للخلق جميعاً نعرض هذه الرسالة على الطرف الآخر، فإن قبلها فهو منا ونحن منه، وعلى العين والرأس، وإن لم يقبلها نعرض عليه الجزية.

2 ـ إن لم يقبل الإسلام نعرض عليه الجزية :

الجزية لها معنى لطيف جداً، المسلم لا يستطيع أن يحارب إلا عن عقيدة، المسلم حينما يحارب يحمل عقيدة سامية جداً، هذه حرب مقدسة، هدفها نشر هذا الدين، هدفها أن يُمكَّن دين الله في الأرض، هدفها لتكون كلمة الله هي العليا، هدفها أن يدين الناس بدين الله، الحرب التي شرعها الله عز وجل حرب مقدسة:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة البقرة: 193]

الفتنة كم ترون من إنسان إباحي يفرض إباحيته على كل الأرض، هذه فتنة، قد نحارَب بالمرأة، قد نحارب بالقمار، قد نحارب بالبنوك، قد نحارب بالميسر:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

يأتي إنسان قوي يفرض ثقافته، وإباحيته، وانحرافه، وتفلته على كل شعوب الأرض، كما يجري الآن تماماً، وسوف ترون أيها الأخوة أن أهون غزوٍ الغزو العسكري، بينما الغزو الثقافي أخطر ألف مرة، بالغزو العسكري الجندي في ثكنته وأنت تحاربه، أما بالغزو الثقافي فقد دخل إلى بيتك، وأفسد أولادك، وأفسد بناتك، وأفسد زوجتك، ونقل النمط الغربي إلى بلاد المسلمين، الإباحية، الاختلاط، الربا، الانحراف، التعلق بالدنيا، أنا لا أرى غزواً أخطر من الغزو الثقافي الذي ترونه الآن في مشارق الأرض ومغاربها، لذلك حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله عرضنا هذا الدين على الطرف الآخر، فإن قبِلَه، فهو منا، ونحن منه، وإن لم يقبله نقول له: أنت في حمايتنا، ولك الحرية التامة في أن تمارس شعائر دينك، ونحن نحترم دينك، ونحترم معتقدك، ولا نقترب منهم أبداً، ولكن لن تستطيع أن تحارب معنا لأننا أصحاب عقيدة، نحن حربنا حرب أساسها نشر الحق، والرحمة بالخلق وليس في الحرب الإسلامية إبادة أبداً، ولا قتل طفل، ولا قتل امرأة، ولا قتل شيخ، ولا قلع شجرة، ولا قتل بهيمة، ولا تجريف أراضٍ، واقتلاع أشجار، وتدمير بيوت، وتدمير ممتلكات، هذه الحرب لا علاقة لنا بها إطلاقاً، الحرب الإسلامية حرب شريفة، أساسها نشر الحق، فإن لم يرضَ أن يدخل في دين الله فهو حر، لأنه لا إكراه في الدين، له أن يبقى على معتقده، وله أن يمارس العبادة في بيته، وله أن يفعل ما يشاء ضمن النظام الإسلامي العام، ولكن هذا الذي أبى أن يسلم، وبقي محافظاً على دينه لا يمكن أن يقاتل معنا، لأننا نحارب على عقيدة إسلامية، إذاً يدفع الجزية، يعني تماماً كما يسميه الناس اليوم البدل النقدي، هذه الجزية، لكن مقابل هذا البدل نحن نحميه حماية تامة، كما فعل سيدنا خالد في حمص.

3 - إن أبى أن يسلم وأن يدفع الجزية وأصرّ على أن يقاتل نقاتله :

فإن أبى أن يسلم، وإن أبى أن يدفع الجزية، وأصر على أن يقاتل نقاتله.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة البقرة: 190]

لا نقاتل إلا المقاتل، هذا هو الدين، فإذا قاتلناه، وانتصرنا عليه فليس القصد أن نقتله، القصد أن نهديه إلى الله عز وجل.

هو حينما رفض الإسلام أولاً، ورفض أن يدفع الجزية ثانياً، وأصر على القتال ثالثاً، ونحن أخذناه أسيراً، أو أخذناه وزوجته أسيرين، الآن يدخل هذا الأسير وتلك الأسيرة في دعوة إلى الله من نوع خاص، دعوة بالتعامل اليومي، أنت ائتِ بإنسان ليعمل معك، لو أنه على نقيض مع ما تعتقد، لكن رأى منك لطفاً، ورحمة، وعدلاً، وإنصافاً، أطعمته مما تأكل، ألبسته مما تلبس، ما كلفته ما لا يطيق، أعنته على ما تكلف به، جعلت النهار لك والليل له، هذه المعاملة الطيبة، وهذا الإكرام؛ أن تطعم خادمك مما تأكل، وأن تسقيه مما تشرب، وأن تلبسه مما تلبس، وألا تكلفه ما لا يطيق، وأن ترحمه، وأن تكرمه، فهذا الأسير أنا والله لا أبالغ لو أن الذي يحارب أخذ هذا المقاتل الذي وقع أسيراً، وعامله المعاملة التي شرعها النبي عليه الصلاة والسلام فلا بد أن يسلم، قال: فإن أسلموا فإخوانكم في الدين، انتهت العملية كلها، مدرسة أخرى من مدارس الدعوة إلى الله، هذا الذي أفهمه من خلال أن يأخذ الجيش الإسلامي أسيراً، ليس القصد أن يقتله، ولا أن يستخدمه، ولا أن يذله، القصد فقط أن يعلمه الإسلام تعليماً عملياً.

لذلك لما جاء والد سيدنا زيد بن حارثة ليشتري من النبي هذا العبد الذي كان ابنه، قال للنبي الكريم: كم تطلب؟ قال له: لا أطلب شيئاً، هو ابنك إن أراد أن يذهب معك فله الحرية، فأبى أن يذهب مع أبيه، وأصر أن يبقى مع رسول الله، قال له: أتؤثر هذا الرجل على أبيك وأمك، فقال سيدنا زيد: الذي رأيته من هذا الرجل لا يوصف، لم أره لا من أبي، ولا من أمي، أنا هذا الذي أفهمه من نظام الأسْر في الإسلام، نريد أن ننشر هذا الدين نشرناه بالبيان، فلم يقبل عرضنا الجزية، فلم يقبل ذلك، الآن حاربنا، ولم نحارب حرب إبادة، ولا حرب انتقام، ولا حرب إذلال، ولا حرب تدمير، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((الْحَرْبَ خَدْعَةٌ))

[البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أي ينبغي أن ترسم خطة لتأخذ الطرف الآخر أسيراً لا أن تدمره، الآن كم تسمعون في العالم عن مذابح جماعية، إبادة كاملة، كل يوم خبر، اكتشفنا مقبرة جماعية، إبادة، في فتوح المسلمين فيما يروي المؤرخون لم يكن أكثر من ثلاثمئة قتيل من الطرفين، الآن كل يوم ثمة خبران ثلاثة بالمئات تقريباً، فهذا الطرف الآخر إذا أسلم فله ما لنا، وعليه ما علينا، وإذا رفض أن يسلم يبقى على دينه، ونحترم الأديان الأخرى، له أن يعبد الله على نمطه، نحترم دينه وأماكن عبادته، نتسامح معهم، لكن هذا لا يستطيع أن يقاتل معنا، لأن حربنا حرب عقيدة، وحرب نشر دين، إن أبى أن يدفع جزية نقاتله، ونحرص ألا نقتله لنأخذه أسيراً، هذا الأسير من المعاملة الطيبة النادرة التي يلقاها من المسلم

يجب أن يسلم، فإن أسلموا فإخوانكم في الدين، انتهى الأمر، حرب إنسانية، هذا الذي في الإسلام عن الأسر والأسيرات، وليس هناك شيءٌ آخر.

علاقة الرجل بالمرأة في منهج الله عز وجل علاقة مستمرة :

قال تعالى:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

النقطة الدقيقة أن ملك اليمين ولو أن لها زوجاً من الكفار حينما أُخذتْ أسيرة لم تبقَ محصنة، لقد فقدت إحصانها في أسرها، سيدها التي هي ملكه له أن يتزوجها، أو أن يزوجها لمن يشاء، وكأنه وليها، طبعاً لأنها أسيرة لا مهر لها، المهر للحرة.

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

يعني كتب الله عليكم هذا الكتاب.

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ)

علاقة الرجل بالمرأة في منهج الله عز وجل علاقة مستمرة، ليس هناك علاقة طارئة أبداً، العلاقة الطارئة ليست من منهج الله عز وجل، هذه المرأة ربطت مصيرها مع زوجها، هي زوجته، وأم أولاده، تكبر معه، تتقاسم معه ما في حياته من حلو ومر، وفي كل مرحلة لها جمالها، ولها مكانتها، ولها قيمتها، ولو عرضت على أية امرأة في الأرض الزواج أو أن تكون متعة رخيصة لا ترضى إلا الزواج، ولكن للجهل الذي يهيمن على فتيات المسلمين غير الذين عرَّفوا بناتهم بمنهج الله عز وجل قد يؤثرن التفلت، وقد يؤثرن الخروج، قد يؤثرن علاقات لا ترضي الله عز وجل، هذا كله من الجهل، ومن التغذية غير الإسلامية التي تتغذى بها البنات كل يوم إلى منتصف الليل، هذه التغذية في مجموعها تهيئ تصورات للفتاة تجعلها تتفلت من منهج الله.

أهمية المهر في الإسلام :

إذاً:

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ)

محرمات من النسب، محرمات من الرضاع، محرمات من الزواج، محرمات الإحصان، أربع زمر محرمة، ما سوى ذلك حلٌّ لكم،

(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ)

زوجة بعقد شرعي، تؤسس معها عشّاً زوجياً لإنجاب الأولاد، وتربيتهم، والنهوض بهذه الأمة عن طريق الأولاد، وليس في الإسلام غير هذه العلاقة، علاقة اختلاط، علاقة موظفة، تكون تارة موظفة، وتارة عشيقة، هذا كله في الإسلام محرم، قال:

(أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ)

هذا المال الذي جنيت بكسب يمينك وعرق جبينك هذا المال ينبغي أن تدفع منه قسماً للمرأة، أولاً تكريماً لها، وإشعاراً لك أن هذه الزوجة لها قيمة وليست من سقط المتاع، قال:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

أنا مضطر أن أعود إلى بعض آيات الله عز وجل التي ذكر فيها الأجر، لأن من المسلمين من فهم:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

بعض المسلمين فَهِمَ من هذه الآية أنه يجوز أن تستأجر امرأة لتقضي حاجتك منها بأجر معين، وهذا في الإسلام محرم أشد التحريم، أما من يقول: إن هذا الأجر هو أجر هذا الزواج المؤقت فخطأ.

في ثماني آيات الأجر معناه المهر وليس معناه أنه أجر للاستمتاع المؤقت :

أيها الأخوة، في سورة المائدة آية وهي قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[سورة المائدة: 5]

الأجر في هذه الآية معناه المهر، آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الأحزاب: 50]

ما معنى الأجر في هذه الآية؟ المهر فقط، في ثماني آيات الأجر معناه المهر، لا يعني الأجر أن تستأجر امرأة لتستمع بها إلى حين مقابل أجر تعطيه إياها، فهذه الحجة باطلة، أن تتوهم أن الله عز وجل حينما قال:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)

أنه أجر للاستمتاع المؤقت، لا، الأجر في كل آيات القرآن يعني المهر فقط.

معنى الأجر في القرآن

قد يأتي بمعنى تعويض الإرضاع :

في الأحزاب، وفي الممتحنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

(أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)

زواج عادي،

(إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

أي مهورهن، وفي سورة الطلاق:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

[سورة الطلاق: 6]

هنا الأجر بمعنى تعويض الإرضاع.

حينما تعقد عقد زواج ينبغي أن يكون هذا العقد على التأبيد :

أيها الأخوة، إذاً كلمة الأجر في القرآن الكريم لا تعني إلا المهر، والإمام الأوزاعي يرى أن كل عقد زواج ليس على التأبيد فهو زنى، قد تطلق بعد حين بسبب طارئ، أما حينما تعقد العقد ينبغي أن يكون العقد على التأبيد، لأن امرأة في الأرض لا ترضى أن يكون الزواج مؤقتاً، المرأة شيء عجيب، لها مرحلة تكون فيها شابة ومرغوباً فيها، في مرحلة تكون أمّاً، مرحلة ثالثة جدة، فالذي يأخذ الفتاة، يأخذ جمالها ثم يرميها فقد ضيعها، وضيع مستقبلها، فلذلك لا ترضى فتاة في الأرض أن يكون زواجها مؤقتاً، وألّا تعلمها هذا غدر بها أيضاً، إذاً هذا تشريع الله عز وجل،

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ)

أنفسكم، أنتم تحصنون أنفسكم بالزواج، وهن يحصنَّ بتحصينكم لهن،

(غَيْرَ مُسَافِحِينَ)

السفاح هو الزنى، هذا الماء يسفح بلا جدوى، أما هذا الماء للزواج ينجب ولداً طاهراً، مواطناً صالحاً، مؤمناً كبيراً، فشتان بين النكاح والسفاح، وحينما يضع الآباء شروطاً تعجيزية أمام خطاب بناتهم فهم دون أن يشعروا يدفعون الشباب إلى السفاح،

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

هنا نقطة دقيقة وهي أن الإنسان إن لم يدخل، وأراد الطلاق يجب عليه نصف المهر، فلماذا أوجب النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث، ولماذا أوجب الله في آيات كثيرة نصف المهر؟

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

[سورة البقرة: 237]

لأن الاستمتاع ليس عملية كاملة، حينما تستقبلك، وحينما تحضر لك طعاماً، وحينما تتزين لك فهذا كله استمتاع، فالذي لم يصل إلى الدخول عليه نصف المهر.

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ)

من انسحب من عقد الزواج بعد الخطبة فعليه نصف المهر :

هذا الإله عظيم ورحيم، لو أن اتفاقاً جرى بين الزوجين على التسامح فإن الله عز وجل يسامح إذا سامحت، ويعاقب إذا لم تسامح.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

لو أن إنساناً خطب، ولم يدخل، ثم طلب أن ينسحب من هذا العقد فعليه نصف المهر، قال:

(إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ)

[سورة البقرة: 237]

إلا إذا عفا أهل الفتاة، وعفت الفتاة، قال:

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 237]

إذا عفوا فينبغي أن تقدم شيئاً جبراً للخاطر.

من لا تسمح له إمكانياته أن يتزوج امرأة حرة فيمكنه أن يتزوج أسيرة من وليها :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)

لم يستطع؛ أي إمكاناته المالية لا تسمح له أن يتزوج امرأة حرة، نحن في سياق هذه الآيات عندنا امرأة حرة، وامرأة مما ملكت أيمانكم، فالحرة لها أهل، ولها أقارب، ولها مستوى معين في الإنفاق في المهر، وفي البيت، وما إلى ذلك، فيقول الله عز وجل:

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً)

يعني إمكانياته المالية لا تطول حرة فيتزوجها، ليس عنده بيت يسكنها فيه، لا تطول يده إلى حرة ليتزوجها.

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)

حينئذ يمكن له أن يتزوج أسيرة من وليها، هذه الأسيرة مهرها قليل، وترضى باليسير، ذلك لأنها في الأصل أسيرة، لكن:

(مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)

يعني جلست عند سيدها، وتعلمت الإيمان في بيته فأصبحت مؤمنة.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

حتى لو أنها فتاة من ملك اليمين فينبغي أن تعطيها حقها، وأن تعطيها مهرها،

(فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ)

أهلها الذين ملكوها بعد الحرب.

كلمة المحصنة لها ثلاثة معان :

قال:

(وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ)

كلمة المحصنة لها ثلاثة معان، المعنى الأول: أنها حرة وليست أسيرة، ملكت حريتها، والمعنى الثاني: أنها متزوجة، والمعنى الثالث: أنها شريفة، بمعنى أن زوجها الذي أحصنها جعلها تمتنع عن أي إنسان، وثمة نعمة أسال الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا شكرها، جميع أخواننا المؤمنين تقريباً إذا خرج من بيته يخرج مطمئناً، لا أحد يدخل البيت في غيبته، مطمئناً إلى طهارة زوجته، وإلى استقامتها، وإلى حفظ نفسها، هذه نعمة لا تقدر بثمن، المرأة المحصنة هي امرأة حرة، هي امرأة عفيفة، هي امرأة متزوجة، يعني صفة شخصية متزوجة، صفة أخلاقية، وصفة اجتماعية، امرأة حرة اجتماعياً، متزوجة بنظام شخصي، عفيفة أخلاقياً،

(فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)

يعني الأسيرة ليس لها أهل بالمعنى الدقيق، وهي تجد نفسها هينة، والهين قد يتساهل في أمر العفة، وهذا معروف في العالم كله، التي لها أهل، ولها أقارب، ولها مكانة لا تتساهل، وقد سأل أحد الصحابة سيدنا عمر: أتزني الحرة؟ فقال: لا، يعني شيئاً بعيداً عنها.

(فَإِذَا أُحْصِنَّ)

إذا تزوجت هذه الفتاة التي هي ملك اليمين.

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)

طبعاً كلكم يعلم أن المرأة إذا زنت، أو أن الرجل إذا زنى، إذا كان أعزب يجلد مئة جلدة، وتجلد المرأة مئة جلدة.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

أما إذا كانت محصنة وزنت ترجم حتى الموت.

المرأة المحصنة إذا زنت بشهادة أربعة رجال فعقابها الرجم حتى الموت :

الحقيقة أنه ما من فساد أكبر من أن تكون الزوجة مكتفية بزوجها، وحاجتها إلى الرجال محققة، ولها بيت ولها أولاد وهي أم وهي قدوة، ثم تخون زوجها، والله مرة شاب قال لي: أكاد أموت، أمي تخون أبي، اطلع على خيانة أمه لأبيه، قال لي: أكاد أموت، يعني هذه المرأة التي تخون زوجها، ولها أولاد، ولها زوج تركب أكبر جريمة، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

[سورة المائدة: 33]

هل من فساد أكبر من أن تزني امرأة لها زوج، محصنة ولها أولاد، ولعل النبي عليه الصلاة والسلام في حكمه بالرجم على الغامدية أنه استنبط من هذه الآية:

(أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة المائدة: 33]

هذا الذي يحارب الله ورسوله أو يسعى في الأرض فساداً، فالمرأة التي لم تتزوج عقابها الجلد، والرجل الزاني الذي لم يتزوج عقابه الجلد، أما المرأة المحصنة عقابها الرجم حتى الموت، ولأن الرجم لا يكون إلا بشهادة أربعة رجال شاهدوا العملية كاملة، ولا لبس بها، إذاً هذا جزاء الزانية الفاجرة التي لم تتورع أن تغلق الباب حينما تمارس هذه الفاحشة، إذاً هذا عقاب الزنى مع الفجور، وكأن هذا الشرط تعجيزي، فمن سابع المستحيلات أن يتم هذا اللقاء الفاحش على امرأة من أربعة رجال معاً، وكأن هذا الحد حد ردعي، بمعنى أنه قلمَا يحتاج إليه من بيده الأمر، بالمناسبة هذه الغامدية التي جاءت إلى النبي تعترف بذنبها، والنبي أعرض عنها فألحت، أعرض عنها، ألحت، قال: اذهبي حتى تلدي، جاءت بمولودها، قال: أرضعيه حتى تفطميه، جاءت به بعد أن فطمته، ثم

قال: حتى يأكل الطعام، جاءت به يأكل أمام النبي خبزاً، فرجمها عليه الصلاة والسلام، ولما سمع بعض الصحابة يسبها قال: والله تابت توبة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، وبكى النبي عليه الصلاة والسلام، هي حالة خاصة، فالمرأة والرجل غير مكلفين أن يخبر أحدهما عن نفسه، هذا ليس حكماً شرعياً، ما دام الله قد ستره فينبغي أن يحترم ستر الله له.

الفتاة إذا زنت فعليها نصف الحد وهو الجلد :

هؤلاء اللواتي تزوجتموهن إذا أحصن:

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)

سيدنا سليمان قال:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ)

[سورة النمل: 21]

العذاب غير الذبح، فهناك من يدعي من الخوارج أنه لا رجم في الإسلام، لأن الموت لا يقسم إلى قسمين، الآية:

(فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)

ما هو العذاب الذي يقسم إلى قسمين؟ الجلد فقط، هذا واضح، أما الموت فلا يقسم، وليس ثمة نصف موت، وفي اللغة شيء لطيف وهو أن هناك أفعالاً لا تقبل التفاوت، منه مات، فلا يقبل التفاوت، ولا يقبل اسم التفضيل، ولا ألفاظ التعجب، فليس هناك: ما أموته، ولا: فلان أموت من فلان، الموت حالة واحدة، فهناك أفعال لا تقبل التفاوت، هذه لا يصاغ منها اسم تفضيل، ولا صيغة تعجب، والموت منه، فالموت لا يقسم إلى قسمين، إذاً لأن الله عز وجل قال:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ)

[سورة النمل: 21]

العذاب غير القتل، إذاً العلماء استنبطوا أن هذه الفتاة إذا زنت فعليها نصف الحد الذي يقسم إلى قسمين وهو الجلد.

أحكام الزواج تتوزع بين خمسة أحكام :

قال:

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ)

إن أحكام الزواج أيها الأخوة تتوزع بين خمسة أحكام، قد يكون الزواج فرضاً على الشاب، إذا تاقت نفسه إليه وخشي العنت، وهو يملك مقومات الزواج، يملك البيت، والمهر، وكل لوازم الزواج، يملك المقومات، وتاقت نفسه إليه، ويخاف على نفسه من الزنى، فالزواج في حق هذا

الإنسان فرض، أما الذي تاقت نفسه للزواج، ولم يخش العنت، لم يخش الضجر، لم يخش الزنى، طاقت نفسه، ولكنه ضامن لنفسه أنه لا ينحرف، فهذا الزواج في حقه واجب، كان فرضاً فصار واجباً، لأنه لم يخش العنت، أما الذي لم تتق نفسه إلى الزواج، ولا يخشى العنت من عدم الزواج فالزواج في حقه مباح، يعني لا فرض ولا واجب، أما الذي لا يملك القدرة على الزواج، وليس أهلاً للزواج، أنا أستمع من حين إلى آخر إلى شكاوى، شاب تزوج فتاة، لأتفه الأسباب حلف بالطلاق عليها، سبب تافه جداً، يقول ابن عباس: إن أحدكم يطلق امرأته ويأتيني ويقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، الزواج أهلية، أنت الآن قائد هذا البيت، لأسباب تافهة جداً يرمي عليها يمين الطلاق، بل أيمان الطلاق، بل كلما حلل شيخ يحرمك عشرة، لسبب تافه جداً، ولأسباب لا تعقل يفرض عليها شروط غير معقولة، وكلام غير معقول، فهذا الذي ليس أهلاً أن يتزوج، ليس قائداً لهذه الأسرة، وليس زوجاً كاملاً، وليس زوجاً مؤهلاً، عنده خلل، هذا الزواج في حقه مكروه كراهة تحريم، أما الذي لمجرد أن يتزوج يشقي معه امرأة فهذا الزواج في حقه محرم، والله أستمع أحياناً إلى شكاوى مكتوبة أو على الهاتف، شيء لا يصدق، يأتي بعد منتصف الليل شارباً للخمر، يتكلم بأبشع الكلمات، وينحرف أشد الانحراف، هذا إنسان محرم عليه أن يتزوج.

من لم يستطع الزواج فعليه بالصوم و الصبر :

قال:

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ)

إذا كان شاباً لا يخشى العنت فليصبر.. عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

[متفق عليه عَنْ عَلْقَمَةَ]

قال:

(وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ)

أي هذه الزوجة أم أولادك، هذه الزوجة سوف تربي أولادك، إن لم تكن في المستوى اللائق انعكس هذا على أولادك، إذا كان لك إمكانية للصبر فابحث عن الزوجة الجيدة.

(وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

من اتبع منهج الله عز وجل سلم و سعد في الدنيا و الآخرة :

ثم يقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

ثم يقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

وهذا البيان من رحمته بنا،

(وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أي حينما يبين الله لنا منهجاً يوصل إليه، وحينما نسلك هذا المنهج إليه يرحمنا، ويسعدنا في الدنيا والآخرة، وفي هذه السورة آيات كثيرة تبدأ بقوله تعالى:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء: 27]

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

يريد أن يرحمكم.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(12-69): تفسير الآيات 26-28 ، الهداية والخلق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

المصائب في الدنيا أساسها ضمان سلامة الإنسان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة النساء ومع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أولاً: الله جل جلاله ذات كاملة، هذه الذات الكاملة لا تريد إلا الخير.

(إ لاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم، هذا أصل في الخلق، كما أن المركبة صنعت لتسير لكن لا بد لها من مكبح، والمكبح يتناقض مع السير، لأنه يوقفه، لكن حاجة المركبة إلى المكبح حاجة أساسية ومصيرية، لأن المكبح يضمن سلامتها، كذلك المصائب في الدنيا أساسها ضمان سلامة الإنسان، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

في سورة النساء ثماني آيات لأمة محمد هي خير لها مما تطلع عليه الشمس وتغرب :

الله سبحانه وتعالى يريد، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "في سورة النساء ثماني آيات لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، هي خير لها مما تطلع عليه الشمس وتغرب"؛ الأولى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

الثانية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

الثالثة:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

الرابعة:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

[سورة النساء: 31]

الخامسة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

[سورة النساء: 48]

السادسة:

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)

[سورة النساء: 110]

السابعة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة النساء: 40]

الثامنة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

الهداية أحد الأهداف الكبرى التي يستهدفها الدين :

هذه الآيات أيها الأخوة، كلها في سورة النساء، وهي خير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مما تطلع عليه الشمس أو تغرب، الآية الأولى:

(يُرِيدُ اللَّهُ)

أي الله عز وجل إرادته أن يهدينا، أن يعرفنا بذاته، أن يعرفنا طريق سلامتنا وسعادتنا، أما هذا الذي يقول لك خلقنا ليشقينا، خلقنا للنار، هذا يتناقض مع هذه الآية، الله عز وجل يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

معناها الهداية أحد الأهداف الكبرى التي يستهدفها الدين، ينبغي أن تهتدي إلى الحقيقة الكبرى، أن تهتدي إلى الحقيقة الوحيدة في الكون، إنها الله، إذاً كل شيء يقربك من هذه الحقيقة هو الحق، وكل شيء يبعدك عن هذه الحقيقة هو الباطل، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يقول:

((ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه))

[أخرجه النسائي عن ابن مسعود]

معنى ذلك أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، هو مصدر السعادة، ومصدر الأمن، ومصدر السلامة، بيده النصر، بيده التوفيق، بيده العزة، بيده العطاء، بيده المنع، بيده كل شيء، فإذا عرفته وتقربت إليه فقد حققت الهدف الذي من أجله خلقت، وإذا غفلت عنه وابتعدت عنه فقد خسرت

خسراناً مبيناً، بل إن البشر لا يزيدون عن رجلين؛ رجل عرف الله، وعرف منهجه، واستقام على أمر ربه، وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، إذاً يريد الله أن يهدينا، لذلك هناك كلمات يرددها بعضهم نحو: سبحان الله الذي أضله الله أضله، هذا كلام كفر، الله عز وجل أراد أن يهدينا جميعاً، أراد أن يعرفنا جميعاً، لكن الإنسان مخير، قد يفرض أن يتعرف إلى الله، ومعنى مخير يعني يريد أن يفعل ما يختار، إذاً أحياناً يسمح الله لمعصية، لكنه لم يأمر بها، ولم يرض بها، لم يأمر، ولم يرض، لكنه أراد، معنى أراد أي سمح، إذا أعطيت إنساناً حرية الاختيار، وأردت أن تمتحنه فإذا منعته من فعل اختياره فقد ألغيت اختياره.

حقيقة الإنسان أنه مخير :

قال:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

أي لو شئنا أن نلغي اختياركم، لو شئنا أن نلغي هويتكم، لو شئنا أن نلغي الأمانة والتكليف، لو شئنا أن نلغي اختياركم، وأجبرناكم على شيء ما أجبرناكم إلا على الهدى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

لكن حقيقة الإنسان أنه مخير:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

إرادة الله مع اختيار الإنسان :

آيات كثيرة تؤكد بشكل قطعي أن الإنسان مخير، فما علاقة إرادة الله باختيار الإنسان؟ إرادة الله مع اختيار الإنسان أن يسمح له أن يفعل ما يريد ولكن لا على حساب أحد.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

قد يختار الإنسان أن يسرق، لكن لا يستطيع أن يسرق ممن يشاء، بل يسرق ممن سمح الله له أن يسرق منه فقط، إذاً أنت مخير، وسمح الله لك، أو أراد أن تحقق اختيارك، ولكن لا على مزاجك بل على توجيه من الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة يونس: 107]

ما قال: إن يردك الله بضر، الضر ليس مراد من الله عز وجل، وللتقريب إليكم هذا المثل، مدرسة من أعلى مستوى أنشئت كي تعلم الطلاب، كي تهذبهم، كي ترسخ فيهم القيم الأخلاقية، كي تنير عقولهم، كي تخرجهم قادة للأمة، لكن هذه المدرسة فيها عقوبات، فإذا عاقبنا طالباً أيحق أن نقول: إنما أنشئت هذه المدرسة كي تعاقب الطلاب؟ لا، أنشئت كي تعلمهم، وكي تربيهم، وكي تهذبهم، لكنها تضطر أحياناً أن تعاقبهم.

إلزام الله عز وجل ذاته العلية بهداية الخلق :

إذاً حينما يقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

الله عز وجل ألزم ذاته العلية بهداية الخلق، قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)

[سورة القصص: 51]

فالهداية على الله عز وجل.

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

[سورة النحل: 9]

أي وعلى الله بيان الفصل، إذاً أول إرادة من إرادات الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إليه، وأن يعرفنا بذاته، وأن يبين الطريق إليه كي نسلم ونسعد في الدنيا والآخرة:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

الإنسان هو المخلوق الأول :

ما هذا الكتاب إلا تبيان لنا، وما بعثة الأنبياء والمرسلين إلا تبيان لنا، وما الكتب السماوية إلا تبيان لنا، وما الدعاة في الأرض إلا تبيان لنا، وكل مهمة يقول بها العلماء بعد الأنبياء إنما هي تبيان لنا، لقول الله عز وجل:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

يعني البيان المطلق، أن تعرف من أنت، أنت المخلوق الأول، أن تعرف ما حقيقة الدنيا، إنها دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، يريد الله ليبين لنا حقيقة الكون، إنه تجسيد لأسماء الله الحسنى، يريد الله أن يبين لنا حقيقة الحياة الدنيا، إنها دار تكليف لا دار تشريف، دار عمل لا دار أمل، دار سعي لا دار تكريم، التكريم في الآخرة، يريد الله ليبين لنا أن الإنسان هو المخلوق الأول.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

هداية الخلق أحد أكبر إيرادات الله عز وجل :

يريد الله ليبين لنا أن هذه المرأة خلقت لتكون زوجة لا خليلة، دخلنا في المنهج التفصيلي، قواعد الزواج، قواعد العمل، كسب المال وإنفاقه، وكل شؤون الحياة جاء الشرع الحكيم ليبينه للناس كي يستريحوا من متاعب الحياة، لأن الإنسان مخير، وكل شيء في الأرض حيادي بالنسبة إليه، الشهوة حيادية، إما أن تكون سلماً نرقى به، أو دركات نهوي بها، كل الحظوظ التي يؤتيها الله للإنسان يجب أن تستخدم في الخير، كما يمكن أن تستخدم في الشر، لأنه مخير، إذاً معنى يريد الله: أي أن هداية الخلق أحد أكبر إيرادات الله عز وجل، فأنت حينما تبحث عن الحق تحقق إرادة الله عز وجل، هذا الذي يريد، أما إن غفلت عن الحق فإنك لا تحقق ما يريده الله لك، يريد الله لك أن تهتدي، يريد الله لك أن تسلم، يريد الله لك أن تسعد، فإذا أصررت على الضلالة وعلى الشقاء فهذا شأنك، الآن علاقة إرادة الله بإرادة الإنسان ما دام الإنسان مخيراً فإرادة الله تقتضي أن يسمح له أن يفعل ما يريد، ولكن لا على حساب أحد، فالظالم سوط الله ينتقم به، ثم ينتقم منه.

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

لماذا أهلك بعض هذه الأمم السابقة ؟ لسبب بينه الله عز وجل، أمة انحرفت في المكيال والميزان، أمة انحرفت في غريزتها التي أودعها الله فيها، أمة طففت، أمة عبدت غير الله عز وجل، أمة شاع

فيها الزنى، أمة شاع فيها الخمر، فلذلك يريد الله أن يبين الأسباب التي من أجلها أهلكت الأمم السابقة، ويهديكم السنن والقوانين الثابتة التي خلقها الله عز وجل، والتي بموجبها يهلك الإنسان أو يسعد، فكل إنسان حينما يرى مصيبة وقعت للإنسان يسأل: لماذا وقعت هذه المصيبة؟ ما الذنب الذي ارتكبه؟ ما الخطأ الذي اقترفه؟ لماذا دمرت هذه الأمة؟ لماذا ارتفعت هذه الأمة؟ ارتفاع الأمم وسقوطها، ازدهارها وزوالها له قوانين، فكأن الله سبحانه وتعالى بيَّن هذه القوانين التي بها ترقى الأمم، وبها تسقط، من أجل ماذا؟ من أجل أن نتبع قوانين سعادتنا وسلامتنا، وأن نبتعد عن مسببات شقائنا وهلاكنا، أساساً لماذا يبحث العلم عن القوانين؟ كي يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل، نحن حينما لا نعد فراغاً بينياً في الأبنية، وتأتي شهور الصيف، حيث يتمدد الحديد، ويتصدع البناء، لأن المعادن تتمدد بالحرارة، هذا القانون يعيننا على أن نصمم بناءً فيه فواصل تمدد، من أجل ألا يتصدع، فحينما تكتشف قوانين الله عز وجل من أجل ألا تقع تحت سطوتها، من أجل أن تنجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

القوانين الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير من أجل أن يستغفر الإنسان من ذنبه :

لماذا تعرف قانون السقوط؟ لأنك إن أردت أن تسقط بمظلة ينبغي أن تكون المظلة مدروسة، اتساع حجمها يتناسب مع مقاومة الهواء ومع وزنها، إذاً تنزل سالماً، فكأن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

أي هذه القوانين الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير:

(وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

من أجل أن تستغفروا ذنوبكم، وأن يقبل الله استغفاركم وتوبتكم:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

إذاً أحد الأهداف الكبرى من بعثة الأنبياء، ومن إرسال الرسل، ومن إنزال الكتب أن يبين لنا الله عز وجل أن هؤلاء القوم أهلكوا بذنب كذا، وهؤلاء القوم أهلكوا بذنب كذا.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

[سورة فصلت: 17]

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ* وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

[سورة الحاقة: 5 - 7]

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر: 11 - 14]

الحكمة من التوبة :

إذاً القوانين التي يبينها الله جل جلاله لنا في هلاك الأمم وفي رقيها من أجل أن ننتفع بهذه القوانين، فنسعد ونسلم في دنيانا وأخرانا، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، ألا يعلم من خلق؟ العلم المطلق هو للخالق.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

العلم المطلق للخالق، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

الحقيقة أن الإنسان أودع فيه الشهوات، والشهوات متغلغلة أعمق التغلغل في الإنسان، ففي ساعة غفلة، أو ساعة ضعف، قد يقع الإنسان في معصية، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع التوبة إطلاقاً ما الذي يحصل؟ بعد أي ذنب يرتكبه الإنسان ييئس من رحمة الله، فيتركب ذنباً وذنباً وذنوباً، إلى أن يستحق الهلاك في الدنيا والآخرة، لكن شاءت حكمة الله نظراً لضعف الإنسان أمام شهوته أن الله سبحانه وتعالى فتح له باب التوبة، وأراد له أن يتوب، التوبة فيها أشياء ثلاثة، فيها تشريع للتوبة، وفيها توبة العبد، وفيها قبول التوبة، فتوبة تأتي قبل توبة العبد وهي تشريع التوبة وتوبة العبد وقبول التوبة أو عدم قبولها، لكن التوبة رحمة من الله، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

الحكمة من تشريع التوبة :

إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، معنى ذلك أنك حينما تتوب إلى الله يفرح الله بتوبتك، تفرح الله عز وجل بفرح يليق بجلاله وكماله، وفي الحديث:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

لماذا يفرح الله بتوبتك؟ لأنه خلقك ليسعدك لذلك يفرح بتوبتك، الإرادة الثانية: أولاً أراد أن يبين لنا، فإذا بيَّن لنا وفي ساعة ضعف أو غفلة وقعنا في معصية الإرادة الثانية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

لذلك لو لم يكن هناك توبة لارتكب الإنسان مليون ذنب، لكن لأن هناك توبة من أول ذنب يتوب منه وانتهى الأمر:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

هذه الآية أيها الأخوة دقيقة جداً، الله عز وجل، الإله العظيم، والرب الحكيم يبين لنا لماذا خلقنا؟ وهذا بيان مهم جداً، وكل ما يقوله عامة الناس كلام باطل، يريد أن يبين لنا، يريد أن يهدينا، كلمات

يقولها أناس كثيرون تتناقض مع القرآن الكريم، الآن إذا وقعنا في خطأ فإن الله جل جلاله يريد أن يتوب علينا، بل إن بعضهم يقول: ما فتح الله لنا باب التوبة إلا ليتوب علينا، وما فتح الله لنا باب الاستغفار إلا ليغفر لنا، وما فتح الله لنا باب الدعاء إلا ليجيبنا، أمرنا أن ندعوه ليجيبنا، وأمرنا أن نستغفره ليغفر لنا، وأمرنا أن نتوب إليه ليتوب علينا، لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يتوب علينا شرع لنا التوبة.

أغلب الظن أن رحمة الله عز وجل تسع كل الذنوب والآثام :

قال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر: 53]

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

أغلب الظن أن رحمة الله عز وجل تسع كل الذنوب والآثام، لذلك:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة يوسف: 87]

الكافر يائس، والكافر قانط.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

من يغفل الإنسان عن ذكر الله عز وجل يتبع هواه :

طبعاً أهل الأهواء والشهوات يحبون أن تُجَر إليهم، وأن تسقط في وحولهم، وأن ترتكب الآثام التي وقعوا فيها ليستأنسوا بك، فدائماً:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

أتبع من؟

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

الناس رجلان، رجل يتبع سبيل الله:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

ورجل يتبع هواه، هذا لا تصغ إليه، لا تستشره، لا تهتدِ برأيه، لا تلق له بالك، لا تعبأ به:

(لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف: 28]

أما معنى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فإياكم أن تفهموا أغفلنا قلبه عن ذكرنا أي أن الله سبحانه وتعالى خلق في قلبه غفلة، لا، بل المعنى وجده غافلاً، هكذا اللغة العربية، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، عاشرت القوم فما أبخلتهم، أي ما وجدتهم بخلاء، عاشرت القوم فما أجبنتهم، أي ما وجدتهم جبناء، وزن أفعلَ أي وجد، لا بمعنى أنه خلق فيهم الغفلة:

(لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف: 28]

من وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، لأنه غفل عن ذكر الله عز وجل اتبع هواه.

إن لم تكن على طريق الحق فأنت على طريق الباطل :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون: 1 - 2]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

هما فريقان لا ثالث لهما، إن لم تكن على طريق الحق فأنت على طريق الباطل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

وهما طريقان لا ثالث لهما، طريق الحق أو طريق الهوى، طريق الجنة أو طريق النار، طريق الخير أو طريق الشر، طريق الدنيا أو طريق الآخرة:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

أي أن تنحرفوا مَيْلاً عَظِيماً، وكلما أمعن الإنسان في المعصية فرح أهل الباطل، قد يعطونه شهادة حينما يرتكب المعاصي كلها، فلذلك لا تصحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

خُلِقَ الإنسان ضعيفاً ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره :

الآية الكريمة ينبغي أن نفهمها على نحو أو آخر.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

الإنسان فيه نقاط ضعف، هذه النقاط في أصل خلقه، أول نقطة:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

لماذا خلق ضعيفاً؟ ليفتقر بضعفه إلى الله فيسعد بافتقاره، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، إذاً الضعف لصالحه.

مثل آخر: آلة غالية الثمن، عظيمة النفع لا بد من نقطة في مسار التيار ضعيفة جداً، هذه تسمى بالمصطلح فيوز، إذا جاء التيار عالياً لولا هذه القطعة الضعيفة لاحترقت الآلة، وخسر الإنسان قيمتها، أما هذه الوصلة الضعيفة جداً تسيخ فتُبَدَّل، ونحفظ بهذا الآلة.

فالضعف الذي خلق في الإنسان ضعف لصالحه، خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، هذه إحدى نقاط الضعف، الإنسان الذي لا يخاف لا يتوب، أما حينما يلوح له شبح مصيبة تنهار أعصابه، فيسرع إلى باب الله عز وجل، لماذا تاب؟ لأنه خاف، لماذا خاف؟ لأنه ضعيف، فالضعف سبب توبته، والتوبة سبب سعادته، خلق الإنسان ضعيفاً، ولا نبالغ إن قلنا أن معظم التائبين سبب توبتهم أنه لاح لهم شبح مصيبة فخافوا، فارتعدت فرائصهم فتابوا فالتجؤوا إلى الله عز وجل، فقبلهم الله، وأكرمهم، وأسعدهم في الدنيا والآخرة، إذاً خلق الإنسان ضعيفاً ليفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره.

بطولة الإنسان أن يأتي الله عز وجل طائعاً مختاراً خائفاً منيباً :

أيضاً خلق الإنسان هلوعاً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

من هو الهلوع؟

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 20 - 21]

يحرص على ما بيديه، هذا هو المنوع، لا ينفق، فإذا أنفق عاكس فطرته، فإذا عاكس فطرته ارتقى إلى ربه، لو أن الدنيا ليست غالية على الإنسان لما ارتقى بإنفاقها، لو أن المال ليس أسيراً عند الإنسان لما ارتقى بإنفاقه:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

أي لا سمح الله ولا قدر، و وقانا وإياكم جميعاً من مرض عضال، إذا لاح شبح مرض عضال تنهار قوى الإنسان، ليس أمامه إلا الصلاة، والله أيها الأخوة عشرات، بل مئات من الناس الشاردين حينما لاح لهم شبح مصيبة كبيرة التجؤوا إلى الله عز وجل، والله عز وجل يداوي، ودواؤه مر أحياناً، فإذا كان الإنسان شارداً، وسائحاً، ولاهياً، وغافلاً، فإن الله عنده أدوية تدع الحليم حيراناً، فلذلك البطولة أن تأتيه طائعاً، فإما أن تأتيه طائعاً مختاراً، خائفاً منيباً، أو يحملك أن تأتيه طائعاً، تائباً، مختاراً.

الإنسان يرقى بإنفاق المال :

وخُلِق ضعيفاً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

حدثني أخ مضيف في طائرة دخلت في غيمة مكهربة، فتلفت مقدمتها، وكانت على وشك السقوط، وبينها وبين السقوط وموت جميع الركاب دقائق، لكن بحكمة الله ورحمته نجا ركاب هذه الطائرة، فهذا الأخ كان مضيفاً في هذه الرحلة، قال لي: المنظر لا يصدق، أناس يضربون وجوههم، يمزقون ثيابهم، يصرخون بويلهم، لأن الموت صار محققاً، فالطيار طلب من المضيفين أن يهدؤوا الركاب، فلا أحد ينتبه، ولا أحد يسمع، وهم في ضجيج، وفي ذعر، وفي هلع، وفي خوف، وفي شدة، أحد المضيفين رأى راكباً هادئاً فتوسم فيه الخير، فتوجه إليه كي يطلب منه أن يهدئ الركاب فوجده مغمى عليه، هذا الوحيد.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

بالهلع تتوب، وبالحرص على ما بيديك ترقى إذا أنفقته، والمال محبب، وإنفاقه يحتاج إلى إرادة قوية، والإنسان يرقى بإنفاق المال، والوقت ثمين فارقَ بإنفاق الوقت، والجاه غالٍ فارقَ بإنفاق جاهك، إذاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

من ضَعُف أمام شهواته فله باب مفتوح هو باب التوبة :

قال:

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

[سورة الأنبياء: 37]

يريد الشيء أمامه على عجل، فالمؤمن ماذا فعل؟ أعرض عن العاجلة واختار الآجلة، إذاً اختار عكس فطرته، طبع الناس جميعاً أن يختاروا العاجلة، معظم الناس يعيشون وقتهم، هناك متعة راهنة يمارسها، وهناك شهوة محرمة يقتنصها، هناك مال محبب يأكله حراماً، عاجل لأنه أمام يديه، أما المؤمن رسم هدفاً بعيداً جداً، فهو يسعى إلى ما بعد الموت، إذاً لما اختار هدفاً بعيداً عاكس طبعه، فلما عاكس طبعه ارتقى إلى الله عز وجل،

فالله يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

حينما بيَّن لنا، حينما أراد لنا أن نتوب، لأنه يعلم ضعفنا أمام الشهوات، فحينما يضعف الإنسان أمام شهوته فله باب مفتوح هو باب التوبة، فكأن هذه التوبة تخفف عنه العبء، سبحان الله عندما يتوب الإنسان إلى الله توبة نصوحاً يشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، حينما تتوب إلى الله عز وجل تشعر يقيناً أن جبالاً ضاغطة أزيحت عن كاهلك:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

ثلاث إرادات عظيمة لله عز وجل إرادة البيان والتوبة والتخفيف :

ثلاث إرادات إلهية عظيمة، الإرادة الأولى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

والإرادة الثانية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

والإرادة الثالثة:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ)

هذا الذي يفعل السيئات لا سمح الله ولا قدر، وهذا الذي يقترف الآثام، أو هذا الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني أمنه على خوف الآخرين، يبني حياته على موت الآخرين، يبني غناه على إفقار الآخرين، هذا حينما يعود إلى فطرته تعذبه فطرته عذاباً لا يوصف، لذلك ورد في بعض الأحاديث في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر]

حينما دعانا الله عز وجل إلى معرفته وطاعته، وإلى التوبة أراد أن يخفف عنا. لو أن طفلاً مثلاً سرق قلماً من صديقه، ثم اشتكى صاحب القلم المفقود إلى المعلم، وأغلق المعلم الباب، وفتش الطلاب، فإذا خرج هذا القلم من جيب الطفل السارق تحمل من الخزي والعار ما لا يحتمل، فالله عز وجل يعلم ما سيكون.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

[سورة غافر: 10]

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

يعني إذا وجد أب ابنه لا يدرس ولا يداوم، وهو يصاحب رفقاء السوء، فإن الأب بخبرته العميقة يرى ابنه في النهاية فقيراً، لا عمل، ولا وظيفة، ولا اختصاص، ولا حرفة، ولا زواج، ولا بيت، بل هو منبوذ في الطريق، فمتى يتألم الأب؟ حينما يرى ابنه الصغير لا يدرس، أما متى يتألم الابن؟ حينما يكبر،

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

متى مقت الله؟

(إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

أيها الأخوة، ثلاث إرادات عظيمة لله عز وجل؛ إرادة البيان، والتوبة، والتخفيف.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(13-69): تفسير الآيتان 29-30 ، الإنفاق وقوانين العناية الإلهية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمر التكليفي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

أيها الأخوة، ماذا تفهمون من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

ما من أمر تكليفي إلا ويبدأ في القرآن الكريم بـ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

الله عز وجل يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

ثم يقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا وكذا، فكيف نوفق بين قوله تعالى:

[لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ]

وبين قوله تعالى: افعل ولا تفعل، في الأمر وفي النهي؟

الإنسان مخير بكل الأدلة العقلية والنقلية والواقعية :

أيها الأخوة، الإنسان مخير، مخير بكل الأدلة العقلية والنقلية والواقعية، ولكن مخير أن يدخل في دين الله أو لا يدخل، فإذا دخل فهو ملزم بأوامر ونواهٍ، كالطالب فهو مخير أن يدخل في الجامعة أو لا يدخل، أما إذا دخل في الجامعة فثمة امتحان، ورسالة، ونظام، ودوام، ومسألة، وتوبيخ، وإنذار مسجل، وترقيم قيد، وفصل من الجامعة، وأوامر، ونواهٍ، وعقوبات، لكن هذه كلها بعد أن تنتسب إلى الجامعة، لو أن الالتحاق بالجيش اختياري تطوعي، فأنت مخير أن تلتحق أو لا تلتحق، أما إذا التحقت فهناك نظام، ودوام، وتنفيذ الأمر، وهناك عقوبات، معنى ذلك الله عز وجل يأمر عباده الذين آمنوا به، أما الذي لم يؤمن فاختياره يعاقبه، الطالب مخير مثلاً أن يدرس أو لا يدرس، لو

اختار ألا يدرس فسوف يجد بعد حين أن كل من حوله لهم مناصب مرموقة، لهم تجارات، لهم مكاتب، يحملون شهادات، لهم زوجات، لهم أولاد، لهم مكانة اجتماعية، وهو شارد في الطريق، فأحياناً الاختيار نفسه يعاقب صاحبه، أما أنت إذا آمنت بالله عز وجل فإنه يأمرك وينهاك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

في الآيات السابقة تحدث الله جل جلاله عن العلاقات بالنساء، قضايا الزواج والطلاق، والقضايا المتعلقة بالمرأة، وغريزة الجنس غريزة متغلغلة في أعماق الإنسان، لذلك تجد آيات وأحاديث كثيرة فيها تنظيم دقيق لعلاقة المرأة بالرجل، علاقة منظمة، ودائماً هناك عبارة استخدمها أصل التصميم، حينما خلق الله جل جلاله الأنثى صممها لتكون زوجة، أو أماً، أو أختاً، أو بنتاً، أو عمة، أو خالة، وكلها علاقات مقدسة، فأصل التصميم أن تتزوج، وأن تنجب أولاداً ليكونون من بعدك استمراراً لك، وتخليداً لذكراك، ينفعون الناس من بعدك، فكأن الله سبحانه وتعالى أرادك أن تتزوج ليكون لك عمل صالح مستمر بعد حياتك:

((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

[أخرجه البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

معظم البشر يتقاتلون من أجل المحدود بينما المؤمنون يسعون إلى اللا محدود :

الله جل جلاله إذا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

فهو يخاطب الذين آمنوا، يخاطب الذي اختاروا الإيمان، يخاطب الذين دخلوا في دين الله مختارين، حينما يؤمن الإنسان يؤمن مختاراً، فإذا آمن مختاراً فهناك موجبات للإيمان، واتباع، وائتمار، وانتهاء، وثواب، وعقاب، ومحفزات، ومثبطات، من المحفزات أن الله سبحانه وتعالى حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، حينما يؤمن الإنسان، وحينما يصطلح مع الله يشعر براحة، يشعر أن جبالاً أزيحت عن كاهله، يشعر بتوازن، يشعر بالفلاح، بالنجاح، بالتفوق، يشعر أن المستقبل لصالحه، يشعر أن خطه البياني في صعود، يشعر أن الآخرة هي دار القرار، هي دار النعيم.

ذكرت اليوم في عقد قران أن واحداً في الأرض وأصفار إلى القمر، أو إلى الشمس، المسافة 156 مليون كيلومتر، وكل ميليمتر صفر، ما هذا الرقم بربكم؟ ثلاثة أصفار ألف، ثلاثة أخرى مليون، ثلاثة وثلاثة ألف مليون، كل ميلي صفر، ليست المسافة متر، المتر في ألف صفر المسافة 156 مليون كيلومتر، هذا الرقم إذا وضع صورة، ووضع المخرج لا نهاية قيمته صفر، معظم البشر يتنافسون على الصورة بينما المؤمنون يتنافسون على المخرج، معظم البشر يتقاتلون من أجل المحدود، بينما المؤمنون يسعون إلى اللا محدود، معظم البشر يتنافسون على حطام الحياة الدنيا، بينما المؤمنون يتنافسون على جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة]

هذه الآخرة هي الحياة الحقيقية، والدنيا مهما عظمت لا يمكن أن تكون عطاءاً لأنه منقطع بالموت، ولا يليق بكرم الله أن يعطيك عطاءاً ينتهي بالموت والله سبحانه وتعالى وصف الشاردين عنه قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

[سورة الروم: 7]

الله تعالى أعطى الدنيا لمن لا يحب لكنه أعطى الحكمة والعلم لمن يحب :

التنافس ينبغي أن يكون على المخرج، على لا نهاية، على الأبد، لا أن يكون على الصورة، مهما عظمت الدنيا لا شيء، والدليل أن الله سبحانه وتعالى أعطى الدنيا لمن لا يحب، فأعطاها لفرعون، وأعطاها لقارون، لكنه أعطى الحكمة والعلم لمن يحب.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة القصص: 14]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

إذاً حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يجب أن تشعر أنك في عقد إيمان مع الله، وأن هذا العقد الإيماني مع الله يقتضي الطاعة، وأن هذا العقد الإيماني مع الله يقتضي المؤاخذة، ويقتضي التأديب لذلك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35 - 36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

التشريع الإسلامي في تسعة أعشاره يتعلق بالمال والنساء :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

انتقلنا من الشهوة الأولى وهي شهوة النساء إلى الشهوة الثانية وهي شهوة المال، ويكاد التشريع الإسلامي في تسعة أعشاره يتعلق بالمال والنساء، ومن كان محصناً من الانزلاق مع امرأة، أو

الانزلاق في كسب المال أو إنفاقه فقد جمع الدين من أطرافه، فما من فضيحة على الإطلاق إلا في أحد موضوعين؛ فضحية مالية، أو فضيحة جنسية، ولا يسقط الرجال في العالم إلا بإحدى هاتين الفضيحتين، ومن فضل الله على المؤمنين أن المؤمن محصن من هاتين النقطتين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

الأكل يومي، وقد استعير فعل الأكل لضم المال، يعني أصل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالاً ليست لكم، قال:

(لَا تَأْكُلُوا)

لأن الأكل يومي، وهناك من يأكل أموال الناس بالباطل يومياً، الشيء الدقيق في هذه الآية أيها الأخوة أنني حينما أخاطب إنساناً، وأقول له: لا تأكل مالك، فهذا كلام لا معنى له، إنه ماله، لو أن لك جيبين، ووضعت مبلغاً في جيب، ونقلته إلى جيب آخر ماذا فعلت؟ هذا مالك، لا، بلاغة القرآن تقول: هذا المال الذي نهيت عن أكله هو مال أخيك، وقد وصف بأنه مالك من زاوية واحدة، من زاوية الحفاظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى، ولا شيء يوضح هذه الحقيقة إلا أن يقول أحد الناس إذا أعار مركبته لإنسان يرجوه أن يعتني بها يقول له: عدها سيارتك، من زاوية واحدة أن تعتني بها، ألا تحملها ما لا تطيق، ألا تهمل حاجاتها.

للآية التالية عدة معانٍ :

إذاً الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

1 ـ مال أخيك هو مالك من زاوية وجوب الحفاظ عليه :

مال أخيك هو مالك من زاوية وجوب الحفاظ عليه، لأن مال الإنسان يحافظ عليه، مرة وجدت في طريق وعرة جداً مركبة تسير بسرعة عالية، وكأنها تتكسر بهذا الطريق، فعلمت أن سائقها لا يملكها، فلما وجدت مركبة أخرى تسير ببطء شديد علمت أن سائقها يملكها، فصرت أعرف ملكية السيارة من سرعتها.

الإنسان يحافظ على ماله أشد المحافظة، فلذلك الله عز وجل قال: مال أخيك مالك، بمعنى أنك كيف تحافظ على مالك ينبغي أن تحافظ على مال أخيك.

2 ـ إذا قوي أخيك قويت معه وإن افتقر وجب عليك أن تعينه :

المعنى الثاني أن هذا المال الذي هو مال أخيك هو مالك، بمعنى آخر إذا قوي أخيك قويت معه، وإن افتقر وجب عليك أن تعينه، هذا يحدث في المجتمعات الصغيرة، إنسان بلا عمل، بلا دخل، هذا الإنسان عبء على من حوله، عبء معنوي، وعبء نفسي، أخ كريم بلا عمل، يحتاج إلى إنفاق، فإذا وجد عملاً، وكسب مالاً يرتاح من حوله، كان عبئاً عليهم، فارتاحوا لراحته، وسعدوا لاكتفائه، إذاً المجتمع الإسلامي مجتمع متعاون، فالذي يقوى في المؤمنين قوة واحد منهم قوة لجميع المؤمنين، وضعف واحد منهم إضعاف لجميع المؤمنين، فكلما حلت مشكلة شاب في مجتمع معين، أخوانه وأصدقاؤه يرتاحون، لا أقول: يرتاحون منه، لكن يفرحون لكفايته، وترتاح نفوسهم لراحته:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

كأن هذا الأكل الذي نهي المسلمون عنه مقيد بالباطل، هل هناك أكل أموال بالحق؟ طبعاً أنت حينما تشتري بضاعة، وتسافر، وتتجشم نفقات السفر، وتتخذ قراراً بالشراء، وربما لا يكون مصيباً وقد تخسر، وربما لا تربح، وقد تتلف البضاعة، وقد تحترق، وقد تفسد أحياناً، وقد لا تباع بالسعر المناسب، فأنت ضمنت أخطاراً كثيرة، فإذا جئت بهذه البضاعة، وبعتها في محل صغير في حي من أحياء المسلمين، هذا المسلم ما تحمل عبء السفر، ولا الاستيراد، ولا الضرائب، ولا التلف، ولا الاحتراق، ولا أخطار النقل والشحن، ولا أخطار المنافسة العالية جداً، فلك أن تأكل من ماله ربحاً بالمعقول، فهذا أكل بالمعقول، وهذا هو الربح الحلال.

لا يشرع الإسلام طريقة آمنة لكسب المال إلا إذا بنيت على منافع متبادلة :

أيها الأخوة، هناك قاعدة كلية، أي علاقة مالية بين اثنين في دنيا المسلمين ينبغي أن تكون مبنية على منافع متبادلة، مثلاً أنا اشتريت هذا الحاجة بكمية صغيرة، وقد وصلت إلى بيتي بسعر معتدل فالذي اشتراها، وتحمل مشاق السفر، واختارها، وغامر بشرائها، وضمن أخطار النقل والشحن، وأخطار المنافسة، وأخطار التلف، وأخطار الفساد، ونقلها إليك بسعر معتدل فله أن يضيف على التكلفة ربحاً يعيش منه، أنا انتفعت، وهو انتفع، هي علاقة البيع والشراء، إنسان معه مال، لكنه كبير في السن عاش حياته موظفاً لا يحسن التجارة، أو امرأة توفي زوجها، وترك لها ميراثاً كيف تستثمره؟ أو طفل ورث عن أبيه المتوفى مبلغاً كبيراً كيف يستثمره؟ إنسان معه مال لا يحسن استثماره، يأتي شاب متفتح، مخلص، أمين، خبير، طاقة هائلة، لا يملك المال، فإذا أعطى صاحب المال ماله لهذا المضارب الخبير ينتفع كليهما، هي منفعة متبادلة، إذاً شركات المضاربة منافع متبادلة، التجارة منافع متبادلة، القاعدة الكلية في كسب المال، لا يشرع الإسلام طريقة آمنة لكسب المال إلا إذا بنيت على منافع متبادلة، هذا أصل من أصول كسب المال، منافع متبادلة، أما إذا جعلنا

يانصيباً، فاليانصيب إنسان دفع وما أخذ شيئاً، وإنسان أخذ وما دفع إلا قليلاً، فاليانصيب لا يبنى على منافع متبادلة، يبنى نفع على ضرر، الضرر متعدد، أي خمسمئة ألف إنسان اشتروا بطاقة، واحد ربح خمسين مليوناً، إنسان دفع وما أخذ، وإنسان أخذ وما دفع، القمار محرم، لأنه مبني على منفعة من طرف واحد، وهذه المنفعة مبنية على ضرر الآخرين، القمار محرم، التأمين، شركة تعتمد على الاحتمالات الضئيلة، فإنسان يدفع سبعة آلاف إلى عشرة آلاف في العام بأكمله، ولا يحدث معه شيء ضاع المبلغ، فالتأمين ليس فيه عوض، فيه نفع لجهة على حساب المؤمّن على حساب جهة أخرى، فأي شيء تجدونه محرماً في الإسلام لأنه نفع مبني على ضرر، الغش محرم، لأن الذي اشترى البضاعة توهمها جيدةً فدفع ثمناً لا يوازي سلعته، والذي باعها أخذ مبلغاً أكبر مما دفع للبائع من بضاعة فوق الربح، إذاً كقاعدة عامة: أي ربح يبنى على خسارة فهذا دخل محرم، وأي ربح يبنى على منفعة متبادلة فهذا دخل حلال، فلذلك الكذب في البيع والشراء قد يوهم بمستوى في البضاعة هي ليست فيه، التدليس أخو الكذب، الاحتكار، تجمع البضائع في أيدي قليلة، ويرفع سعرها، فمن دفع ثمن هذه البضاعة لم يدفع ثمنها بل دفع ثمن احتكارها، صار الثمن مضاعفاً، فما من معصية لكسب المال إلا أساسها منفعة بنيت على ضرر، ربح بني على خسارة، إنسان كسب، وإنسان خسر.

تقسيم الله تعالى البشر إلى صنفين :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

الباطل الشيء الزائل، المال يزول ويبقى العقاب، والذي انتفع نفعه بالمال يزول، ويبقى الإثم والعقاب في الآخرة، الباطل كما قلت الشيء الزائل الذي لا يصمد، لذلك قال تعالى في تقسيم البشر إلى صنفين:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5 - 6]

صدق بأنه مخلوق للجنة، استناداً لهذا التصديق اتقى أن يعصى الله، واستناداً لهذا التصديق بنى حياته على مطلق العطاء، فأعطى من وقته، وماله، وعلمه، وخبرته، ومن عضلاته، ومن كل طاقاته، لأنه آمن بالآخرة، لأنه تعامل مع كريم، لأنه تاجر مع الله، أعطى واتقى أن يعصيه، إطلاقاً من أنه صدق بالحسنى، فهذا رد الإله له:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 7 - 9]

بنى حياته على الأخذ، واستغنى عن طاعة الله، لأنه ما صدق بالجنة، وأنا أقول أحياناً: ما ترون من جشع الناس، وتكالبهم على المال، وحرص على كسب المال بأية طريقة شيء طبيعي جداً إذا كفروا بالآخرة، وإذا آمنوا بالدنيا، الدنيا فيها شهوات، والمال مادة الشهوات، فإن أردت أن تستمتع إلى أقصى درجة فلا بد لك من المال، وربما لا تكفي قدراتك، ومنهج الله أن تكسب المال الكثير، إذاً لا بد من الكذب، والتدليس، والاحتكار، والغش، والنفاق، وما إلى ذلك.

أول شرط لصحة البيع أن يكون هناك تراض :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

ثمة معنى مخالف؛ بالحق لا مانع، ربح التاجر مشروع، ربح المزارع مشروع، ربح الصانع مشروع، ربح من يؤدي خدمات للأمة مشروع، طبيب يتقاضى تعويضاً عن عنايته بالمريض، المحامي يتقاضى تعويضاً عن أتعابه، المهندس، المعلم، أية حرفة، تقديم خدمة وأخذ أجرة أو تعويض، قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

التجارة كأن الله سبحانه وتعالى ذكر من بين أنواع المكاسب مكاسب الزراعة، والصناعة، والتجارة، التجارة لأنها الحلقة الوسطى بين عدة حلقات، نحن عندنا إنتاج، وعندنا استهلاك، من هو الوسيط بين المنتج والمستهلك؟ التاجر، المعامل تنتج، والأشخاص يستهلكون هذه البضائع، من الذي يشتري من المعامل ويبيع المستهلكين؟ التاجر، المزارع تنتج برتقالاً، وحمضيات، وتفاحاً، وزيتوناً، والبشر يستهلكون، فمن الذي يتوسط بين المنتج الزراعي والمستهلك البشري؟ التاجر، أحياناً ثمة مكاتب خدمات، تحتاج أنت إلى خدمة معينة، يكون المكتب وسيطاً بين أصحاب هذه الخدمات وبين من يحتاجون هذه الخدمات، فالله سبحانه وتعالى قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

لو أن الغش كُشِف للمشتري هل يرضى؟ لو أن الاحتكار كُشِف للمستهلك هل يرضى؟ أن يدفع أربعة أضعاف ثمن الحاجة، لأن الذي يبيعه إياها محتكر لها، بعض الناس يحتالوا على الشرع، يعطيه مركبة، يقول له: انظر إلى المركبة، وقد يكون فيها عيوب خفية، ربما لا يعرفها، لو كشفت له هذه العيوب هل يرضى؟ لا يرضى، إذاً أول شرط لصحة البيع أن يكون هناك تراض، لذلك عقود الإذعان باطلة، أنت مضطر فيرفع السعر عليك أضعافاً مضاعفة، لأنك مضطر، لا خيار لك، حالات المرض أحياناً، مرض خطير، بعد أن بدأت العملية يُطالب ذوو المريض بمبلغ يفوق طاقتهم، أو يموت المريض، هذا عقد إذعان، شراء السلاح في أثناء الحروب، كلها عقود إذعان كلها، قد يرتفع السعر إلى مئة ضعف.

لا يكون التراضي في البيع والشراء إلا بالإيجاب والقبول :

قال:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

لذلك التاجر الصدوق مع النبيين، ثمة شيء يلفت النظر، تاجر باع واشترى وكسب المال، واشترى بيتاً، وأكل، وشرب، وتزوج، ولبس، وأنت أيها الإنسان مع النبيين، الحقيقة مع النبيين لأن أكبر دولة إسلامية الآن في جنوب شرق آسيا ما دخلها جندي واحد، دخلها التجار، وكانوا دعاة إلى الله، 250مليون في إندونيسيا بسبب التجار المسلمين الذين دعوا إلى الله بطيب معاملتهم، فحينما قال عليه الصلاة والسلام:

((التاجر الصدوق مع النبيين يوم القيامة))

[ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري]

فهذا كلام طيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام استنبط من هذه الآية عشرات بل مئات الأحاديث، كيف يكون التراضي في البيع والشراء؟ بالإيجاب والقبول، وكيف هناك خيار العيب، وخيار الوقت، بحوث كثيرة جداً، هذه تؤخذ في كليات الشريعة في موضوعات فقه البيوع، إذاً: المسلمون يشكلون وحدة، أموالهم للجميع.

3 ـ المال في الظاهر هو لك أما في الحقيقة فهو ملك جميع المسلمين :

هناك معنى ثالث: أنت معك مال، وهذا المال في الظاهر هو لك، أما في الحقيقة هو ملك جميع المسلمين، فإذا أسرفت في إنفاقه فأنت محاسب عند الله، إذا أسرفت في المباحات، أو بذرت في المعاصي فأنت محاسب عند الله، يمكن ـ وأنا أعني ما أقول ـ لعقد قران أن يكلف خمسة و ثمانين مليوناً؟! ومئات الشباب يبحثون عن غرفة ليتزوجوا فيها، فمعنى: لا تأكلوا أموالكم الكتلة النقدية التي بين أيدي المسلمين هي في الحقيقة ملك لكل المسلمين، فأنت لك أن تأكل، وأن تشرب، وأن ترتدي ثياباً، وأن تتزوج، وأن تنفق لكن بالمعقول.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف: 31]

إذاً الإسراف محرم في المباحات، والتبذير محرم في المعاصي، كلمة لا تأكلوا أموالكم، أي هذا المال ملك جميع المسلمين، لك أن تنفق منه بالمعروف، وليس لك أن تبذره في المعاصي، ولا أن تنفقه إسرافاً في المباحات، كما أنه ليس لك أن تضيعه، أو أن تتلفه، فإذا ضيعته وأنفقته في غير ما ينبغي حجر على تصرفاتك، لأنه ملك جميع المسلمين، هذا هو المعنى الثالث.

معانٍ عدة لـ (ولا تقتلوا أنفسكم) :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

1 ـ حينما ينهي الإنسان حياته باختياره قنوطاً من رحمة الله فهذا مخلد في النار:

حينما ينهي الإنسان حياته باختياره يأساً وقنوطاً من رحمة الله فهذا مخلد في النار:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

2 ـ لا تعمل عملاً ينتهي بقتل نفسك :

وهناك معنى آخر، أي لا تعمل عملاً ينتهي بقتل نفسك، فحينما يرتكب الإنسان معاصي كثيرة جداً يهلك نفسه في الدنيا والآخرة دون أن يشعر:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

واللهُ عز وجل يعجب أحياناً.

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

عندما يعتدي الإنسان على الآخرين يعرض نفسه لعقاب الله عز وجل، إذاً سوف يذوق النار،

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

طبعاً هذا الموضوع لا يتعلق بما نسمعه من أناس أرادوا أن يهزوا كيان العدو، هذا موضوع ثانٍ، لا علاقة له بهذه الآية، إنسان يائس كافر بالله عز وجل، يئس من عطاء الله أنهى حياته تكذيباً بالقضاء والقدر، فهذا إنسان منتحر، ومصيره إلى النار:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

إلقاء النفس إلى التهلكة في حالتين في حالة عدم الإنفاق وفي حالة إنفاق المال كله:

هناك آية ينبغي أن نذكرها الآن يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

[سورة البقرة: 254]

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة: 195]

قال بعض المفسرين: أنفق بعضاً من مالك ولا تنفق كل مالك، لك أولاد، ولك زوجة، ولك ظروف صعبة، فإذا أنفقت كل مالك كأنك ألقيت بنفسك إلى التهلكة، المعنى الآخر: أنفق من مالك، فإن لم تنفق فقد ألقيت بنفسك إلى التهلكة، إذاً إلقاء النفس إلى التهلكة في حالتين حادتين؛ في حالة عدم الإنفاق، وفي حالة إنفاق المال كله، والإسلام وسط متوازن، (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا)، فأنت هالكٌ إن أنفقت كل مالك، وأنت هالك إن لم تنفق من مالك، لأنك إن لم تنفق من مالك سوف تهلك في الدنيا وفي الآخرة:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

هذا الذي يعيش ساعته، يعيش وقته، ينتهز كل فرص اللذات دون أن يفكر في آخرته هذا إنسان يهلك نفسه، والله سبحانه وتعالى رحيم به خلقك في الدنيا كي تسعد، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

النبي عليه الصلاة والسلام علمنا عِظم حقوق العباد :

قال:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً)

من أخذ أموال الناس يريد أدائها أدى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله. بالمناسبة أيها الأخوة، حقوق العباد مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة، أنا لا أصدق وربما لا تصدقون أن أعظم عمل على الإطلاق أن تقدم نفسك في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، ومع ذلك إذا كان عليك دَين فالدَّين لا يُغفر، يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين، وقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام عظم حقوق العباد، فكان إذا مات أحد أصحابه الذين جاهدوا معه، ودعي إلى الصلاة عليه يقول: أعليه دَين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، ولا يصلي عليه، فإن قال أحدهم: يا رسول الله علي دَينه، عندئذٍ يصلي عليه، ومرة سأل فقيل: عليه دَين، قال: صلوا على صاحبكم، فقال أحد أصحابه: عليَّ دَينه يا رسول الله، فصلى عليه، وفي اليوم التالي سأله: أدَّيت الدَّين؟ قال: لا، في اليوم الثالث سأله: أدَّيت الدَّين؟ قال: لا، في اليوم الرابع سأله: أدَّيت الدَّين؟ قال: نعم، قال: الآن ابترد جلده، ابتراد جلد الميت لم يكن بالتعهد بالأداء، لذلك الإنسان ممنوع أن يستقرض ما لا يستطيع أن يؤديه، إن أردت أن تستقرض ينبغي أن تفكر في الأداء:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً)

يأكل أموال الناس بالباطل ويغشهم، يأخذ أموالهم قماراً، أو يأخذها كذباً، أو غشاً، أو تدليساً، أو احتكاراً، أو احتيالاً، أو بضغط شديد، كل شيء أخذ بسيف الحياء فهو حرام.

قوانين العناية الإلهية :

قال:

(تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً*وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ)

هنا قف عند سوف، قد تكسب المال الحرام إلى حين، والعقاب لا يأتي بعد دقيقة، ولا بعد ساعة، ولا بعد شهر، قد تستمتع بالمال سنوات طويلة، وهو مال حرام، ثم فجأة يسحب البساط من تحت رجليك، وتقع في قبضة الله عز وجل، لو جاء العقاب عقب المعصية لألغيَ الاختيار، لو جاء العطاء عقب الطاعة لألغيَ الاختيار، قل للناس جميعاً: ادفع مئة، وخذ ألفاً، بحسب الآية ترَ طوابير لا تنتهي، وكلهم غير مؤمنين بالله، لكن أنت مخير، قد تنفق من مالك ولا تأخذ شيئاً إلا بعد حين، لما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

[سورة التوبة: 28]

ثمة قوانين اقتصادية، ما دام المنع من دخول مكة سارياً معنى ذلك أنه لا سياحة، وتهديد بالفقر.

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

[سورة التوبة: 28]

أي سوف تفتقرون، قال:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة: 28]

قوانين اقتصادية واضحة، إنسان عنده مطعم فيه خمر، وفي أماكن معينة الخمر مطلوب في المطاعم، فيكثر زبائن هذا المطعم، ولو أنه تاب إلى الله توبة نصوحاً، وألغى بيع الخمر، فلا بد أن تقلّ غلته إلى الربع، أو إلى العشر، هذا ثمن قراره البطولي، (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيلَةً)، وكل إنسان يتخذ قراراً بطوليّاً يدفع ثمنه كي يرقى يوم القيامة، لكن بعد أن يتخذ هذا القرار البطولي، ويدفع ثمنه، ويصبر على ذلك، ولا يتشاءم، وهو فرح بطاعة الله، الآن الله عز وجل يدخله تحت منظومة قوانين اسمها قوانين العناية الإلهية، عندها يعود عليه الضيق سعةً والخسارة ربحاً.

من أطاع الله و لم يعبأ بمصالحه عادت عليه الدنيا أضعافاً مضاعفة :

قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة: 28]

(سوف) هي للامتحان، فيمكن أن تطيع الله وتخسر إلى حين، فإذا علم الله منك صبراً ورضى وطاعة الآن يدخلك في منظومة قوانين أخرى، اسمها قوانين العناية الإلهية، عندئذٍ تربح، ربحت طاعتك بالله، وربحت الدنيا، لذلك من آثر النص الشرعي على مصالحه ربح طاعته لله، وربح الدنيا، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، أرجو أن أكون قد وضحت ذلك الكلام الدقيق في قوانين مستنبطة من حركة الحياة، وبشكل حسابي على الآلة الحاسبة إذا أقرضت قرضاً ربوياً، أقرضت مئة ألف بفائدة عشرين بالمئة، يأتيك مئة وعشرون ألفاً، وإذا أقرضت قرضاً حسناً يأتي مئة ألف، ومع التضخم النقدي ثمانون ألفاً، على الحاسبات القرض الحسن خاسر، والقرض الربوي رابح، أما على قوانين العناية الإلهية فـ:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

الذي فعلته صدقة يربو المال بطريقة عجيبة لا يعلمها إلا الله، حينما يعلم الله منك الطاعة تطيعه، ولو خسرت الدنيا، هذا موقفك، وسوف تنال طاعتي والدنيا، الآن لا تبالي، تطيعه من أجل الدنيا سوف تخسر الدنيا، وتخسر طاعتي، كلام دقيق، بحسب حركة الحياة هناك أوامر تبدو لك أنها تضرك، وهناك أفعال لا ترضي الله تبدو لك وكأنها تنفعك، ولكن العاقبة للمتقين، في النهاية الذي تفعله طاعة لله ولا تعبأ بمصالحك تعود عليك الدنيا أضعافاً مضاعفة، هذه حقيقة.

الخيارات التي بيد القدرة الإلهية لا نهاية لها :

أيها الأخوة:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً)

لعلي أوفق في كلمة: الخيارات التي بيد القدرة الإلهية لا نهاية لها، ممكن أن تحقق ربحاً بالملايين وتخسر صحتك، القلب بيده، والشريان بيده، وخثرة الدماغ بيده، كل شيء بيده، فأنت من جهة حققت أموالاً طائلة:

(عُدْوَاناً وَظُلْماً)

فسلبك الله الصحة التي تستمتع بها بالمال، كان لي طالب في الحادي عشر، حدثني عن خاله، خاله صاحب دار سينما، بنى ربحه على إفساد أخلاق الشباب، ودار سينما من الدرجة الدنيا، أفلام كلها

فاضحة، هذه القصة عام 1965، جمع من خمسة إلى ستة ملايين، ما يعادل خمسمئة مليون الآن، أصيب بمرض عضال في ريعان الشباب، قال لي: دخلت عليه وهو يبكي، قال له: أنا جمعت هذا المال كي أستمتع به في خريف عمري، هذه المنية عاجلتني قبل أن أستمتع بهذا المال.

أخواننا الكرام، حينما تنصاع لأمر الله، ولا تعبأ بمصالحك يخضعك الله عز وجل لقانون لا تعرفه أنت، هو قانون العناية الإلهية، والله أعرف أناساً بذلوا أموالاً كثيرة في طاعة الله، قال لي أحدهم: مرة صفقة كبيرة جداً شعرت بانقباض لا مبرر له، لم أفهم لماذا كنت مضطرباً، لما اشتد انقباض صدره ألغى الصفقة، هذه الصفقة لو أخذها لدفع كل ما يملك، صرف الله عنه الخسارة عن طريق ضيق القلب، أنت حينما تأتمر بما أمر الله، وتنتهي عما عنه نهى الآن أخضعك الله لقانون العناية الإلهية، فإنك بأعيننا، يشرح صدرك لما هو خير لك، ويقبض صدرك لما له شر لك أحياناً، إذاً:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

العبرة أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدمات :

دائماً العبرة لا أن يكون الناس جميعاً مؤمنين، ولكن العبرة أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدمات.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

من شاء فليكسب المال الحلال، ومن شاء فليكسب المال الحرام، والآن أيها الأخوة إنسان جمع من القمار ثمانية ملايين، وهو على فراش الموت طلب إنساناً يعمل في الدعوة، قال له: ماذا أفعل؟ قال له: والله لو أنفقت المبلغ كله لا تنجو من عذاب الله، العبرة بخريف العمر، العبرة بساعة المغادرة، ماذا تفعل؟ فكسب المال الحرام محبب للناس، ولكن لو فكروا في مصيرهم، قد يخسر حياته، ولا يستمتع بماله، أندم الناس غنياً دخل ورثة بماله الجنة ـ كسبوه حلالاً ـ ودخل هو بماله النار.

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

في درس قادم إن شاء الله نتابع شرح الآية الكريمة:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(14-69): تفسير الآيات 29-31 ، قتل النفس وتجنب المعاصي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله جل جلاله الناس عامة بالآيات الكونية ليؤمنوا به :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثلاثين والواحدة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً*وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

في الدرس الماضي وقفنا مع هذه الآية، ولا بد من تتمة لشرح هذه الآية.

أيها الأخوة الكرام، قلت لكم في الدرس الماضي: إن الإنسان مخير أن يؤمن أو ألاّ يؤمن، لذلك نجد أن الله جل جلاله يخاطب الناس عامة بالآيات الكونية ليؤمنوا به.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ*)

[سورة الغاشية: 17 - 20]

إذا دخلت في الدين فأنت ملزم بتطبيق ما جاء في القرآن والسُّنّة :

الآيات الكونية التي تزيد عن ألف وثلاثمئة آية يخاطب بها الناس كي يؤمنوا بالله، هم مخيرون، هوية الإنسان مخير، يؤمن أو لا يؤمن، أما حينما يؤمن فقد دخل مع الله في عقد إيماني، إذا آمن صار لزاماً عليه أن يصغي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة البقرة: 104]

لأنك آمنت بي فينبغي أن تفعل كذا وينبغي ألا تفعل كذا، فحينما يلزمك الله بغض البصر، أو حينما يلزمك الله بتحري الحلال، أو حينما يلزمك الله بالقسط، ألزمك بعد أن آمنت به، هذا من متطلبات عقدك الإيماني مع الله، إذاً هذه مقدمة مهمة.

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

الدخول في الدين حر، أنت مخير، لكنك إذا دخلت في الدين أنت ملزم أن تنفذ تعليمات الخالق، تماماً كما لو كان التطوع في الجيش أمراً اختيارياً، أنت تتطوع أو لا، أما إذا تطوعت فهناك نظام، وهناك أمر، وهناك نهي، وهناك عقوبات، لو أن الإنسان لم يقبل الدخول في الدين أصلاً، طبعاً هذا هو الاختيار السيئ، فسوف يدفع ثمنه في الدنيا والآخرة، لكن يدفع ثمنه بسبب سوء اختياره، الآن إذا دخلت في الدين فأنت ملزم بتطبيق ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء على لسان سيد المرسلين.

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

كل المنهيات التي نهيت عنها أمر الله جميع المؤمنين أن يفعلوها معك أو ألاّ يفعلوها :

أيها الأخوة، لو قلنا لعشرة أشخاص عندهم مركبات: اركبوا سياراتكم، ليركب كل منكم سيارته، إذا وجه الأمر إلى جمع، وكان المفعول جمعاً، فكل واحد يركب مركبته، إذا قال المعلم للطلاب: افتحوا كتبكم، فكل طالبٍ ينبغي أن يفتح كتابه، لكن لو قال أحد الطلاب لأستاذه: ضاع قلمي، فإذا قال المعلم: لا تسرقوا أقلامكم، ما المقصود؟ لا تسرقوا أقلام غيركم، لأن الإنسان لا معنى أن يسرق ماله، لا يسمى هذا سرقة، قاس بعض العلماء هذه الآية على هذه القاعدة، إذا قال الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

أي لا تأكلوا أموال غيركم، لكن قد يغيب عن المؤمن أن الله حينما ضيق عليك حركتك اليومية ـ دقق ـ لا تغش، لا تكذب في البيع والشراء، لا تدلس، لا تحتكر، لا تستغل، حينما ضيق حركتك اليومية، ضيق على مليار ومئتي مليون مسلم حركتهم، وإذا نهاك الله عن السرقة، فقد نهى مليار ومئتي مليون مسلم أن يسرقوا منك، هذا قد يغيب عنا، إذا أمرك ألاّ تعتدي على أعراض المسلمين، هذا الأمر موجه إلى كل المسلمين ألا يعتدوا على عرضك، إذاً أنت المنتفع الأول من تضيق هذه الحركة، إذاً أي نهي تجده في كتاب الله، أو تجده في سنة رسول الله ينبغي أن تعلم أنه إذا شعرت أن الأمر قد ضاق عليك يجب أن تشعر مع هذا الشعور أن الله سبحانه وتعالى أمر كل المؤمنين أن يحترموك، أن يحترموا مالك، ألا يعتدوا على عرضك، ألا يكذبوا عليك، ألا يسرقوا منك، كل المنهيات التي نهيت عنها أمر جميع المؤمنين أن يفعلوها معك أو ألاّ يفعلوها، إذاً هذا الأمر لصالحك، النقطة الدقيقة أيها الأخوة، والتي أتمنى أن أوفق في شرحها في هذا اللقاء؛ الإنسان له في الحياة حركة، هذه الحركة تزيد وتقل، فمتى تزيد؟ تزيد في حالة واحدة؛ إذا ضمن لك أن تقطف ثمار حركتك، وأن تكون آمناً على نتيجة عملك، هذه الحركة تزداد، أما إذا لم يضمن لك أن تقطف ثمار حركتك، وجاء إنسان آخر فأكل ثمرة عملك، هذا الوضع غير المقبول من شأنه أن يضعف حركة الإنسان في الأرض، ليس شرطاً أن تنوي خدمة الناس، ولا خدمة المسلمين، إذا كنت تريد

مصلحتك، وضمنت لك مصلحتك عم الخير على كل الناس، قد تكون مؤمناً، وفي مستوى عالٍ من الإيمان، فتحمل همَّ الناس، إن فعلت هذا كانت لك الدنيا والآخرة، أما كنظام حينما أضمن لكل إنسان نتائج عمله، وثمرة عمله، وحينما لا أسمح لإنسان أن يأكل ثمرة عمل الآخرين لذكائه، أو لقوته، أو لاحتياله، أو ما شاكل ذلك، حينما أضمن للناس ثمار أعمالهم تزداد هذه الحركة، وحينما تزداد هذه الحركة يعم الخير.

النظام الإسلامي والمنهج الرباني موضوعي :

أضرب بعض الأمثلة، أنا حينما أشجع الناس أن يزرعوا، والإنسان في مخيلته مصلحته الشخصية بادئ ذي بدء، إذا تسابق الناس إلى زراعة الأرض كثر الإنتاج، ورخصت الأسعار، وعمَّ الخير، هذا الخير الذي عمَّ ليس في نية الناس، بل كان ذلك رغبة في تحقيق مصالحهم فقط، لكن لأنه ضمنت لهم نتائج أعمالهم، وضمنت لهم ثمار أعمالهم فتحركوا حركة واسعة، عندئذٍ عمَّ الخير جميع الناس، كأن هذه الآية تريد أن توضح للناس أن حركة الإنسان إذا كانت طليقة، وإذا كانت مضمونة النتائج فإن هذا الشيء يعمَّ بخيره على كل الناس، عندئذٍ تنتعش الحياة، أما إذا لم يضمن لك نتائج عملك لا تعمل، والمجتمعات التي لا يستطيع الفرد فيها أن يقطف ثمار عمله مجتمعات خاملة، ومجتمعات ضعيفة الحركة، ومجتمعات متدهورة وفقيرة، أما حينما يضمن للإنسان ثمار عمله عندئذٍ يتحرك، ويعم الخير، لذلك حينما يلد المالُ المال تتجمع الأموال في أيدي قليلة، ويحرم من المال الكثرة الكثيرة، ولا أبالغ إذا قلت: إن معظم المشكلات التي تعاني منها البشرية بسبب أن الأموال تلد الأموال، أما إذا ولدت الأعمال الأموال فلا بد من توزيع هذه الأموال على أوسع شريحة في المجتمع، وكأن التصميم الإلهي لئلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم، الحالة المرضية السيئة جداً أن يكون المال متداولاً بين الأغنياء، بينما السواد الأعظم، الخط العريض في المجتمع محروم من المال، والمال قوام الحياة.

فيا أيها الأخوة، أنا حينما أضمن للإنسان نتائج عمله، أقول له: افعل، أنشئ مصنعاً، ازرع أرضاً، روِّج تجارة، أسست شركة، ماذا يفعل هذا الإنسان؟ سيؤسس وسيبني وسيوظف وسيوفر فرص عمل كبيرة جداً وسيخفف الأعباء عن الناس دون أن يشعر، أما إذا شعر أنه في خدمة المسلمين هذا إنسان راقٍ جداً، هذا له الدنيا والآخرة، لأن النظام الإسلامي والمنهج الرباني موضوعي؛ بمعنى أنه لو طبقه كافر لقطف ثماره، لو طبق المنهج الموضوعي كافر به " كافر بالله " لقطف ثماره، وهذا ما نجده أحياناً في بعض البلاد المتقدمة، تقدم كبير جداً، رخاء، أسعار منخفضة، فرص عمل كثيرة، لأنه في شيء من النظام الرباني مطبق في هذا المجتمع، لا عن إيمان بالله إطلاقاً، ولكن عن إيمان بالمال.

حينما يسعى الإنسان لمصلحته الشخصية فقط وفق منهج الله يعم الخير على المجتمع كله:

إذاً حينما نهانا الله عز وجل عن أن نأكل أموال غيرنا، معنى أن تأكل مال أخيك؛ المال جهد أيها الأخوة، أوضح مثلاً، لو كلفنا إنسان أن ينقل مثلاً مئة حجر من مكان إلى مكان أعطيناه ألف ليرة، هذه الألف ليرة تعني جهداً، فإذا كان في الطريق إنسان قوي وشهر عليه السلاح وأخذ منه الألف ليرة ماذا حصل؟ هذا الجهد الشاق الذي بذله هذا الإنسان أكله إنسان آخر، تكاد تكون معاصي المال ـ عددها: الربا، الغش، التدليس، الاحتكار، الكذب، السرقة، القمار ـ تكاد تكون معاصي المال في مجملها تنطلق من مبدأ واحد: أن نسمح لإنسان قوي أو ذكي أن يأكل ثمرة إنسان آخر، ولمجرد أن نسمح لإنسان قوي أو ذكي، قوي لما معه من قوة وذكي باحتياله، المال يأخذ غصباً أو احتيالاً، القوي يأخذه غصباً، والذكي المنحرف يأخذه احتيالاً، حينما نسمح أن يقطف إنسان لم يعمل ثمرة إنسان عمل تضعف حركة الحياة، ويعم الفقر في المجتمع، فلذلك حينما نهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم، أي ضمن لهم نتائج عملهم، ضمن لهم أن يقطفوا ثمار عملهم، والإنسان كما أقول حينما يسعى لمصلحته الشخصية فقط وفق منهج الله يعم الخير على المجتمع كله.

إنسان معه في الصندوق مبلغ كبير، مثل واضح، لو أراد أن يبني بناءً، وبحسب نظام الإيجار ينتفع من أجرته، هذا المبلغ مخزن في الصندوق، لو خرج من الصندوق لينقلب إلى بناء ماذا سوف يفعل صاحب هذا المال؟ سوف يشتري أرضاً، وسوف يأتي بعمال، وسوف يستصدر التراخيص، وسوف وسوف، وسوف يقلب هذا المبلغ الكبير إلى أموال أخذها أصحاب هذه المصلحة، تقاسموها، الذي حفر الأرض، والذي بنى، والذي صب السقف، والذي طلى البيت، والذي مدد، ثم جاء إنسانان، وسكنا في هذين البيتين، الإنسان دفع، لكن وجد بيتاً يسكنه، المبلغ الكبير الذي في الصندوق لو خرج فانقلب إلى بناء مؤلف من عشرة بيوت، وجاء أناس، واستأجروا هذه البيوت لحلت مئات المشاكل، لذلك من بعض توجيهات الشارع الحكيم أن الزكاة حينما تفرض على المال الذي لا ينمو، الغنم مال، لكنه ينمو بطبيعته في توالد البقر، الإبل، النبات تزرع حبة واحدة قد تنقلب هذه الحبة إلى مئة حبة، الزراعة تنمو، والأنعام تنمو، لكن المال لا ينمو، فرض على المال الزكاة، لأنك إذا لم تستثمره لصالح المسلمين أكلته الزكاة، وكأن فريضة الزكاة باعث على أن تستثمر المال وتنفع به المسلمين.

البطالة هي أكبر مشكلة تعاني منها المجتمعات الآن :

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

أي يجب أن تضمنوا لبعضكم البعض قطف ثمار أعمالكم، أما لو أن هذا الإنسان بعد أن بنى هذا البناء، وقلب هذا المال الجامد من صندوقه إلى بناء من عشر بيوت أخذناه منه عنوة، كم من إنسان آخر يحجم عن استثمار ماله في البناء؟ معظم الناس، أما إذا ضمنا له أن يقطف ثمار ماله إذاً الحركة تتنشط، هذه الآية أيها الأخوة توجيه إلهي دقيق، ومعناها الدقيق أن نضمن لكل إنسان كائن من كان قطف ثمار حركته في الحياة، إذاً تنشأ حركة واسعة جداً، نشيطة جداً، مثمرة جداً وأنا لا أتصور أن الرخاء الذي تنعم به بعض المجتمعات الشاردة عن الله عز وجل إلا أن مبدأ صون حركة المال وحركة الحياة مضمون هناك.

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

إذاً حينما نهى الله عز وجل عن أكل أموال الناس بالباطل فقد نهى كل المسلمين أن يأكلوا أموالك أيها المؤمن بالباطل، فهذا الأمر لصالحك، أنت واحد، أما هناك ملايين مملينة أمرت كما أمرت أن يفكوا عن مالك، هذا المعنى الأول، والمعنى الثاني حينما أضمن للإنسان أن يقطف ثمار حركته في الحياة معنى ذلك أنني نشطت العمل، الآن أكبر مشكلة تعاني منها المجتمعات البَطَالة.

سيدنا عمر هذا الخليفة الراشد سأل أحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً إن جاءني من رعيتك من جائع أو عاطل فسأقطع يدك، انتبه هذا الخليفة الراشد قبل ألف وأربعمئة عام إلى أن أكبر مشكلة في المجتمع البطالة، أحياناً يقال لك: في بعض الإحصاءات أن هذه النسبة لم تكن من خمسين عاماً 6.3، هناك مجتمعات البطالة فيها وصلت إلى ستين في المئة، هذا توجيه قرآني لكل المؤمنين لذلك من هو السارق؟ السارق اعتدى على جهد الآخرين، إنسان تعب، وعمل، وقطف ثمار ماله، فجاء من أخذها منه، لذلك الحد قوي جداً تقطع يده، صوناً لحركة الحياة.

في الآية التالية توجيه اقتصادي لمجموع المسلمين :

سأل بعضَ العلماء شاعرٌ فقال له:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

* * *

أي لو إنساناً أصاب يد إنسانٍ خطأً، بحادث سير فرضاً، عشر مئين عسجد ذهب، ديتها ألف دينار ذهبي، ما بالها قطعت في ربع دينار؟ لو سرقت هذه اليد ربع دينار لقطعت، فأجاب الإمام الشافعي:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، لذلك يوم طبقت بعض الدول الإسلامية قطع اليد فإنّ القصص التي تروى لا تصدق، هل يعقل أن يذهب صراف في موسم الحج ليصلي الأوقات الخمسة في المسجد، والأموال مكدسة في صندوقه على قارعة الطريق، وهو آمن عليها، نظام، بينما في بعض البلاد المتقدمة في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، فحينما نضمن للناس ثمار أعمالهم يتقدم المجتمع، وحينما نسمح، أو نتغاضى، أو نتهاون في تطبيق العقوبات على من يعتدي على ثمار عمل الآخرين تضعف الحركة في الحياة، سميت الحالة الأولى نماءً اقتصاديّاً، وسميت الحالة الثانية ركوداً اقتصادياً، هذه الآية فيها توجيه دقيق جداً، توجيه اقتصادي لمجموع المسلمين:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

وبالمناسبة:

(لَا تَأْكُلُوا)

كما قلت في الدرس الماضي: قد يسكن الإنسان بيتاً طوال عمره، وقد يبقى على ثوب واحد لأشهر عديدة، أما الأكل فكل يوم، وأبرز عمل للإنسان أنه يأكل، حتى من تعريفات الإنسان أنه كائن فاتح فمه ليأكل، فالأكل هنا نشاط يومي، وثمة أشخاص كلما تحركوا أكلوا أموال الناس بالباطل، يكذبون، ويدلسون، ويغشون، وكأن الله سبحانه وتعالى ذكر كلمة لا تأكلوا لأن الأكل نشاط يومي، وهناك من يجعل نشاطه اليومي أكل أموال الناس بالباطل، بالباطل أي بطريقة لا معاوضة فيها.

حينما تكون المنافع متبادلة فالمال حلال وحينما تكون مبنية على الضرر فالمال حرام:

ذكرت قبل قليل المبدأ العميق جداً لجمع كل ألوان المال الحرام، قمار، يانصيب، تدليس، غش، سرقة، ربا، كل شيءٍ حرمه الله في كسب المال ينطلق من منفعة بنيت على ضرر، منفعة نالها إنسان بنيت على ضرر، أوضح شيء السارق، السارق انتفع، سرق مئة ألف، لكن ما تعب في كسبها، بنيت على أن ثمرة إنسان آخر ذهبت سدى، الإنسان الآخر بحاجة إلى المئة ألف، قد يشتري بها حاجات العام، قد ينفقها على أشهر عدة، الآن وكل كسب يبنى على منافع متبادلة فهو كسب حلال، فالتاجر يسافر، ويشتري، ويشحن، ويضمن الخسارة، ويتحمل أعباء السفر، وأعباء تخليص البضاعة، ثم بيع البضاعة، ثم جمع ثمنها، هذا جهد كبير مع ضمان، جهد مع ضمان له أن يربح، هذا الربح الذي يأكله التاجر ليس بالباطل، بالحق، لكن لو غش فقد أكل بالباطل، لو أوهمك أن هذا القماش فرنسي، وهو من مصدر آسيوي رخيص، وصدقت أنت، فدفعت له ثمن القماش الفرنسي، بينما أعطيته قماشاً رخيصاً، اعتديت عليه، فأكلت ماله بالباطل، كل إنسان غشاش يأكل أموال

الناس بالباطل، أحياناً لعرض البضاعة يوهمك أن هذا اللحم طازج، يضع ضوءاً أحمر يعطي اللحم الأبيض لوناً زهرياً كأنه طازج، أحياناً عرض البضاعة فيه غش، أحياناً الأوصاف التي يصفها البائع فيها غش، كل أنواع الغش أكل أموال الناس بالباطل، الربا أكل أموال الناس بالباطل، القمار أكل أموال الناس بالباطل، اليانصيب أكل أموال الناس بالباطل، شركات التأمين تأخذ منك مبلغاً صغيراً دون أن تعطيك شيئاً إذا سلمت من حادث، أكل أموال الناس بالباطل، إذا بنيت منفعة على ضرر فهو مال حرام، أما إذا بينت منفعة على منفعة، كمن معه مال لا يحسن استثماره، فأعطاه لشاب مؤمن مهندس فاستثمره، والربح بينهما، صاحب المال في أعلى درجة من الراحة، لأنه استثمر ماله، وعاد إليه منه نفع كبير، والشاب المتقد حيوية، والذي لا يملك مالاً اشتغل بهذا المال فربح، وأعطى صاحب المال نصيبه، إذاً كمبدأ عام حينما تكون المنافع متبادلة فالمال حلال، وحينما تكون المنافع مبنية على الضرر فالمال حرام، مبدأ عام.

إن أطيب الكسب كسب التجار :

قال:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

توسع بعض العلماء في معنى التجارة التي عن تراضٍ، أي لو كشفت الحقائق للمشتري يرضى، لو كشفت الحقائق للبائع يرضى، أما إذا طمست الحقائق، وعتم على بعضها رضي المشتري، إذا أوهمته أن هذه البضاعة سوف يمنع استيرادها خلال أيام، وليس عندي إلا قطعة واحدة، وعندك ألف قطعة في المستودع، ليس عندك إلا قطعة واحدة، أوهمته بذلك فاشتراها مباشرة دون أن يساومك على السعر، هذا مال حرام، لأنك غيرت حركة السوق الطبيعية، حينما تغير الحركة الطبيعية للسوق فهذا نوع من الكسب الحرام:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

لماذا ذكر الله التجارة، ولم يذكر الصناعة؟ لأن التجارة هي الوسيط بين المنتج والمستهلك، قد يكون الإنتاج زراعياً، فالتاجر يشترى الخضار والفواكه فيبيعها، وقد يكون الإنتاج صناعياً، التاجر يشتري ويبيع، فالوسيط الذي يتوسط بين المنتج والمستهلك هو التاجر، فالله عز وجل ذكر التجارة على أنها طريقة من طرائق الكسب، إن أطيب الكسب كسب التجار، لكن أين هم التجار الذين يعنيهم؟ إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا، سبع صفات إذا توافرت في التاجر كان هذا التاجر صدوقاً، وكان مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين يوم القيامة، لأنه صار داعية إلى الله، وأكبر قطرين إسلاميين في شرق آسيا أسلمت شعوبها عن طريق التجار فقط، التاجر يحتل مكانة كبيرة في المجتمع، لأنه أعطاك بضاعة جيدة بسعر معتدل، أما إذا

غش فيحتل مكانة سيئة في المجتمع، كان السلف الصالح حينما يفتحون محلاتهم التجارية ينوون خدمة المسلمين، إذاً هم في عبادة، المؤمن عاداته عبادات، والمنافق عباداته الصرفة سيئات.

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

للآية التالية ثلاثة معانٍ :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

1 ـ يعلمنا الله أن نتلقى الشدائد بقوة متماسكة وألا نيئس من رحمته :

يقتل نفسه يائساً من رحمة الله، كأن الله يعلمنا أن نتلقى الشدائد بقوة متماسكة، سيدنا موسى، وهذا درس بليغ، حينما كان مع قومه، وفرعون من ورائهم، والبحر من أمامه، بحسب قوانين الأرض احتمال النجاة صفر، لا أمل أبداً، فرعون بطغيانه، وجبروته، وقسوته، وجنوده، وأسلحته، وحقده وراء شرذمة قليلة من أتباع سيدنا موسى، والبحر أمامهم.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*قَالَ كَلَّا)

[سورة الشعراء: 61 ـ 62]

من هو المنتحر؟ إنسان لا يعرف الله أبداً، لكن هناك أمل بالمليار واحد، من وجد نفسه لقمة في بطن حوت في ظلمة الليل، وفي ظلمة أعماق البحر، وفي ظلمة بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

[سورة الأنبياء: 87]

لا يقال هنا: ليس هناك تغطية في هذا المحل.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 87 ـ 88]

ألا تكفي هذه الآية؟!

2 ـ بحسب منهج الله الذي قتل الآخر كأنه في النهاية قتل نفسه :

من هو المنتحر؟ إنسان لا يعرف الله أبداً، بحسب قوانين الأرض لا أمل، لكن الله يخلق الأمل من لا شيء، يخلق من الضعف قوة، فالمنتحر كافر لأنه لا يعرف الله، ولا يعرف أن الذي خلقه أمره كن فيكون، لكن في معنى آخر لهذه الآية، لا تقتل غيرك فتقتل، بنظام خالق الأكوان.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 179]

حينما يشرع أن القاتل يجب أن يقتل، إذاً ضمنا الحياة للطرفين، للقاتل لم يَقتُل، وللمقتول لم يُقتَل، مادام هناك قناعة ثابتة أن هذا النظام الإسلامي القاتل يُقتل، فالقاتل لا يَقتل، والمقتول لم يُقتل، ضمن حياة الاثنين، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة: 179]

أحياناً أيها الأخوة، هناك حدود ردعية لو لم تطبق، أو لو لم تستعمل بالأصح أثرها واضح، ما الذي يبعد الناس عن أن يأكلوا أموال بعضهم البعض؟ وجود السلطان، وإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فحينما يعدم الإنسان مثلاً في مركز المدينة لأنه سارق، أو لأنه قاتل فهذا يعطي الناس ردعاً كبيراً جداً ، يرتاحون حينما ينزل العقاب بالقاتل أو بالسارق، فلذلك:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

أي لا تقتلوا بعضكم البعض، عندئذٍ بحسب منهج الله تقتلون، فالذي قتل الآخر كأنه في النهاية قتل نفسه. أذكر جريمة وقعت في ريف دمشق، خمسة أشخاص أخذوا بائع ذهب، وقتلوه، ووضعوه في بئر، وأخذوا من عنده تقريباً عشرة كيلو غرامات من الذهب، أنا أذكر أن المسافة أو الوقت الزمني بين السرقة وبين إعدامهم أسبوعان أو ثلاثة، هل يعقل أن هذا الإنسان لو أيقن أنه مقتول لا يسرق، ولا يقتل، ضعف اليقين، فالشارع الحكيم يأمرنا أن نجعل عقوبة القتل رادعة، لذلك:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

حينما تقتل أخاك فقد قتلت نفسك حكماً، لأنك مقتول، وحينما يكون تشريع القصاص بالقتل قائماً فالحياة ينعم بها من كان سيَقتُل، ومن كان سيُقتَل، فلذلك قضية المنهج الإلهي مهمة جداً:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

3 ـ على الإنسان ألا يتهاون بأشياء تودي به إلى القتل :

معنى ثالث: لا تتهاون بأشياء تودي بك إلى القتل، قضية بسيطة تفاقمت، ثم أصبحت جريمة، أحياناً السرقة تنقلب إلى قتل، دخل ليسرق، فقاومه صاحب البيت، معه مسدس فقتله، كان سارقاً فصار قاتلاً، أيها الإنسان لا تفعل شيئاً ينتهي بك إلى القتل، ولا تَقتل أخاك لئلا تُقتَل، وإنك إذا قتلت أخاك ضعفت المسلمين، لذلك الذي يقتل مؤمناً خطأً بحادث، في أصل التشريع عليه أن يعتق رقبة مؤمنة، لأن هذا المجتمع خسر عنصراً مؤمناً فلا بد من تعويضه بعنصر مؤمن.

حينما يعتدي الإنسان ويعلم أنه معتدٍ فهذا أعلى أنواع الشر:

قال:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً* وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً)

أحياناً يكون العدوان عن غفلة لا عن ظلم:

(عُدْوَاناً وَظُلْماً)

يعني يعتدي، ويعلم أنه معتدٍ، هذا أعلى أنواع الشر، أسوء أنواع الشر، يعتدي ويعلم أنه معتدٍ، لكن أحياناً إنسان لغفلة عنده قد يعتدي ويعتذر، لكن الذنب الذي يبنى على الغفلة أو على الجهل سهل غفرانه، أما حينما يعتدي وهو يعلم أنه معتدٍ، وهو يعلم أنه ظالم فهذا ذنب كبير جداً:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

من فعل في النار فعل الإحراق؟ الله جل جلاله، قوتها من قوة الله عز وجل:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

كل معصية حولها منطقة لو دخلتها لجذبت إليها :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

أخواننا الكرام، في هذه الآية حقائق خطيرة جداً، أولاً:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

معنى تجتنب في القرآن الكريم يقتضي أن تدع مسافة أمان، أو هامش أمان بينك وبين المعصية، فإن كل معصية حولها منطقة لو دخلتها لجذبت إليها، أبداً.

حول الزنى الاختلاط، حول الزنى الخلوة، حول الزنى إطلاق البصر، حول الزنى صحبة الأراذل، أنا سمعت قبل أيام مصطلحاً أعجبني، هناك مصطلح دقيق جداً هو التحرش بالمرأة، هناك مصطلح جديد تحرش المرأة بالرجل، كيف؟ من خلال ثيابها، حينما تكون ثياب المرأة فاضحة مبرزة لمفاتنها، هذه المرأة تتحرش بالرجال، فكيف نعاقب رجلاً تحرش بامرأة؟ نعاقبه، وندخله السجن حسب النظام، فينبغي أن تعاقب المرأة التي تتحرش بالرجل من خلال ثيابها، وقد سئلت البارحة في محاضرة كنت ألقيها عن قضية ثياب المرأة فقلت: كيف أن الرجال لهم عبادات خاصة كالجهاد في سبيل الله، وحضور الجمع والجماعات، للمرأة عبادة خاصة ترقى بها، أنا سميتها عبادة إعفاف الشباب، فالمرأة محببة إلى الرجل، فإذا أظهرت مفاتنها من خلال ثيابها الفاضحة فقد تحرشت بالشباب، ودفعتهم إلى مجموعة من المعاصي، إما أن يقعوا في الزنى، أو في المثلية، أو في العادة، أما إذا كانت ثياب المرأة سابغة، وثخينة لا تصف ما تحته، وواسعة لا تصف حجم

أعضائها، إذاً هي ساهمت في إعفاف الشباب، لها عند الله أجر، لعل المرأة في الصيف محرومة من ثياب خفيفة، قد يفعلها الشاب، ولا شيء عليه، لكن الفتاة ممنوعة أن ترتدي ثياباً خفيفة تظهر مفاتنها، هذه المرأة حينما ترتدي معطفاً في الصيف، وحينما ترتدي ثياباً سابغة، ثياباً محتشمة طويلةً واسعةً، وحينما تغطي شعرها ووجهها، ماذا تفعل هذه؟ تعبد ربها، تعبد ربها وكأنها في صلاة، لذلك والله أيها الأخوة، حينما أرى امرأة محجبة حجاباً إسلامياً صحيحاً لا يسعني إلا أن أقول:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

أما حينما تسبب أزمات وانحرافات لمن يراها متفلتة في ثيابها فهذه مشكلة.

على الإنسان أن يدع هامش أمان بينه وبين المعصية :

إذاً:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

الكبائر، فيجب أن تدع بينك وبينها هامش أمان، كأن نهراً مخيفاً له شاطئ مائل زلق، وله شاطئ مستوٍ جاف، فحينما تمشي على الشاطئ المائل الزلق احتمال أن تسقط في النهر كبير:

((إن الحلال بين وإن الحرام بين وبين ذلك مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى وحمى الله في الأرض محارمه))

[متفق عليه من حديث النعمان بن بشير]

إذاً من كلمة:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

ينبغي أن نفهم أن تدع هامش أمان بينك وبين المعصية، الزنى، الخلوة، الخلوة طريق للزنى، الاختلاط، إطلاق البصر، صحبة الأراذل، متابعة الأفلام الإباحية، هذا كله ينتقل إلى الزنى، الخمر:

((لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها))

[أبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عمر]

هؤلاء جميعاً ملعونون، لم يقل لك الله عز وجل: حرمت عليكم الخمر، بل قال:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

الاجتناب أبلغ من التحريم، أبلغ بكثير، الاجتناب أن تدع منطقة أمان كبيرة، بربكم لو أن وزير الكهرباء أنشأ خط توتر عالٍ جداً ثمانمئة آلاف فولت، وكتب لوحة: ممنوع مس التيار، قبل التيار

بثمانمئة متر مَن دخل إلى هذه المنطقة يصبح فحمة سوداء، ماذا ينبغي أن يكتب؟ ممنوع الاقتراب من التيار، ممنوع مس التيار كلام لا معنى له.

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

اجعل بينك وبينها هامش أمان، والشريف من يهرب من أسباب المعصية، لا من المعصية نفسها، أنا أقول لكم: لو حللت مئة حالة زنى لوجدت خمسة وتسعين في المئة من هذه الحالات لم يخطر في بال الواحد منهم أن يصل إلى الزنى، لكن لأنه دخل المنطقة المحرمة فهذه المنطقة المحرمة ساقته إلى الزنى، وهكذا:

(إنْ تَجْتَنِبُوا)

ولهذه الآية أيها الأخوة، وقفة متأنية إن شاء الله في الدرس القادم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكبائر من خصائصها أن فيها قوة جاذبة لذلك أتى الأمر باجتنابها :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

الحقيقة الأولى: أن هذه الكبائر ـ وسوف آتي بعد قليل على ذكر أمثلة لها ـ لها خصائص، من خصائصها أن فيها قوة جاذبة، لذلك أتى الأمر بالاجتناب؛ والاجتناب كما قلت في الدرس السابق أن تدع بينك وبين هذه الكبائر هامش أمان، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152]

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

على الإنسان أن يجعل هامش أمان بينه و بين الكبائر لينجو من عذاب الله :

أوضح مثل أنك إذا أردت أن تحذر الناس من خط كهربائي عالي التوتر لا يمكن أن تقول: ممنوع مس التيار، تقول: ممنوع الاقتراب من التيار، لأن هناك مساحة حول التيار لو دخلت إليها لجذبك التيار، إذاً هذه المعاصي يمكن أن تجذب، فالحقيقة الأولى لا تستطيع أن تنجو من هذه الكبائر إلا أن تجعل بينك وبينها هامش أمان. كبيرة الزنى؛ هامش الأمان ألا تخلو بامرأة، هامش الأمان ألا تصحب الأراذل، هامش الأمان ألا تمارس الاختلاط، ألا تعرض نفسك لإثارة أنت في غنىً عنها، هذا هامش الأمان. مال اليتيم؛ ينبغي أن تفصله عن مالك، أما إذا دخل في مالك، ودخل في مصروفك، فهناك مشكلة، إذاً:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا)

الاجتناب هو أشد أنواع التحريم، لقوله تعالى:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

[سورة الحج: 30]

أشد أنواع التحريم.

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: 90]

لو دققت في آيات القرآن الكريم لوجدت أن الأمر بالاجتناب هو أبلغ من الأمر بالتحريم، الاجتناب يحتاج إلى هامش آمان، لذلك لو أن الله مثلاً حرَّم علينا الخمر لسمح ببيعها، والتجارة بها، سمح بعصرها، سمح بنقلها، لكن الأمر بالاجتناب يقتضي ألا تعصرها، وألا تشتريها، وألا تبيعها، وألا تتاجر بها، وألا تجلس مع شاربها، وألا تكون على طاولة أنت عليها، كل العلاقات الفرعية المتعلقة بشرب الخمر محرمة، إذاً هذه قاعدة عامة ينبغي للإخوة الكرام أن ينتبهوا إليها.

الإنسان هو المخلوق الوحيد مع الجن الذي حينما عرض الله عليه الأمانة اختارها:


لو تجاوزت هامش الأمان احتمال الوقوع كبير جدا

الكبائر لا تُتَقى إلا بترك هامش أمان بينك وبينها، أما لو تجاوزت هذا الهامش فإن احتمال الوقوع كبير جداً، كهذه الصخرة المتمركزة في قمة جبل لو دفعتها قليلاً إلى المنحدر لن تستقر إلا في أعماق الوادي، ولعلي في الدرس الماضي وضحت هذه الحقيقة، قضية الاجتناب، الكبائر تتقى بالاجتناب، ابتعد عن أسباب المعصية، ابتعد عن أجواء المعصية، ابتعد عن مكان تمارَس فيه المعصية، ابتعد عن أشخاص غارقين في المعصية، ابتعد عن المكان، وابتعد عن الزمان، وابتعد عن الأشخاص، وابتعد عن الأسباب، من أراد أن ينجو بدينه فليدع بينه وبين المعاصي هامش أمان، وهذا منطوق قوله تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا)، منطوق قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: 90]



الآن ما الكبائر وما الصغائر؟

الحقيقة يجب أن تعرف من أنت أولاً، أنت مخلوق متميز، في الكون مخلوقات كثيرة، هناك الملائكة الذين اختاروا الإقبال على الله من دون مسؤولية وتكليف، وهناك الحيوانات الذين اختاروا الشهوة البهيمية من دون مسؤولية وتكليف، فالحيوان مسير، والملك مسير، لكن الإنسان هو المخلوق الوحيد مع الجن الذي حينما عرض الله عليه الأمانة، أي أن يكون مخيراً، أن يتولى بنفسه تزكية نفسه، فاختارها.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

الإنسان كائن متميز فيه نفخة من روح الله وقبضة من تراب الأرض :



أنت كائن في كيانك قبضة من تراب الأرض، وفي كيانك نفخة من روح الله، عندك نوازع عليا تحب الخير، تحب الحقيقة، تحب أن تكون كريماً شجاعاً، وفياً صادقاً، متصلاً بالله، تحب أن تكون كاملاً، وتحب أن تلبي حاجات الجسد، هناك نوازع علوية، وهناك نوازع سفلية، هناك نفخة من روح الله، وهناك قبضة من تراب الأرض، الإنسان كائن متميز.

رُكّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكّب الإنسان من كليهما، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 7]

فوق الملائكة بكثير.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة البينة: 6]

وما أكثرهم، تشاهدون أفعالهم كل يوم.

(أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: 6]

الإنسان مخير فكل خصائصه وكل حظوظه حيادية :

الإنسان يتذبذب بين أن يكون أرقى المخلوقات إطلاقاً، وبين أن يكون أشقاها إطلاقاً، إذاً أنت إنسان مخير، والتخيير واقع، بإمكانك أن تأتي إلى مجلس علم وبإمكانك أن تذهب إلى ملهى، بإمكانك أن تصلي أو لا تصلي، أن تصدق أو أن تكذب، أن تنجز الوعد أو أن تخلف، أن تكون وفياً أو خائناً، أن تكون منصفاً أو جاحداً، أن تكون أباً مثالياً أو أباً شهوانياً، أن تكون تاجراً صدوقاً أميناً أو تاجراً كذوباً خائناً، الدليل الواقعي قوي جداً، أنت مخير، ولأنك مخير كل خصائصك وكل حظوظك حيادية، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليين، ويمكن أن تكون درجات تهوي بها إلى أسفل السافلين، مخير لذلك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: 148]

أما أن تظن أن السيئات التي تقترفها هي من قضاء الله وقدره فهذه عقيدة فاسدة، لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بالفحشاء.

الكبائر أساسها أن إنساناً تحرك بدافع من شهوته خلاف منهج الله :

قال:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

أنت مخلوق متميز لأنك مخير، وفيك نوازع سفلية، وفيك نوازع علوية، تحب الحقيقة، وتحب الله، وتحب الخير، وتحب الحق، وتحب أن تلبي حاجات البشر، هذه الهوية المتميزة تجعلك في حالتين متناقضتين؛ إما أن تكون فوق الملائكة، أو دون الحيوانات، الحيوان يفترس إذا كان جائعاً، أما هذا الذي يبيد شعوباً بأكملها، ويتلذذ بمشهد القتل والذبح والتعذيب فهو دون الحيوان بكثير، بل إننا إذا وصفناه بكونه حيواناً نكون قد ظلمنا الحيوان، فيحتج الحيوان علينا.



هذه مقدمة، فالإنسان أودع الله فيه الشهوات، لكن ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تجري خلالها، ليس هناك في الإسلام حرمان إطلاقاً، فالكبيرة أساسها أن إنساناً تحرك بدافع من شهوته خلاف منهج الله، أوضح تعريف لها، إنسان أودعت فيه الشهوات، وهي حيادية، معه منهج، تحرك في الحياة بدافع من شهواته من دون منهج الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

الكبائر والصغائر :

هناك طريق شرعي إلى النساء، وهناك طريق غير شرعي إليهن، الزنى، المال هناك طريق شرعي إليه هو العمل، أن تكسبه بالعمل، وهناك طريق غير شرعي إليه أن تكسبه سرقة، أو احتيالاً، أو ربىً، أو كذباً، أو زوراً، فالكبيرة إنسان تحرك بدافع من شهوته من دون منهج يسير عليه، معنى ذلك أن الشر سوء استعمال فقط، كل شيء خلقه الله خير، إذا استعملته وفق منهج الله فأنت على حق، دقق لو أن إنساناً أسس عملاً، وكسب مالاً له اسم لائق في المجتمع، فلو أن هذا



الإنسان سرق مالاً لسقط من عين الناس جميعاً، هو في الحالتين كسب المال، لكن في حالة كسبه مشروع، وفي حالة كسبه كسب غير مشروع.

أيها الإخوة، لا بد من أمثلة، الكبيرة هي معصية تحجبك عن الله حجاباً كثيفاً، أحيانا يخطئ الإنسان، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))

[أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أنس]



لكن بين أن تخطئ بإخلاف وعد مع صديق حميم دون أن تقصد ذلك، وبين أن تقتل، وبين أن تزني، وبين أن تسرق، وبين أن تشرب الخمر، فشرب الخمر، والزنى، والقتل، والسرقة هي كبائر تشعر أن بينك وبين الله حجاباً كثيفاً، وأن هذا الحجاب ليس من السهل إزالته، فالكبيرة ذنب كبير، ويتبعه حجاب كثيف، فإذا مثلنا الكبيرة بأنك تركب سيارتك، وتمشي على طريق عريض، وعن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، الكبيرة أن تحرف المقود تسعين درجة فجأة، فإذا أنت في الوادي، هذه هي الكبيرة، أما الصغيرة أن تحرف المقود درجة واحدة، سميت صغيرة لأنه يمكن تلافيها، والكبيرة تهلك صاحبها، تأخر في صلاته هي صغيرة، طبعاً التأخر بسيط، كلما كان التأخر أكبر كان الذنب أكبر، خطر في بالك خاطر، خاطر سيئ، تصورت أن تفعل معصية، لكنك لم تفعلها، هذا من اللمم، هممت أن تفعلها، ثم توقفت هذا من اللمم، معصية لم يتوعد الله عليها صاحبها بالحرمان أو باللعن أو بجهنم، هي صغائر، يقول الله عز وجل:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

لا كبيرة مع الاستغفار لأن رحمة الله تَسَعُ كل شيء :

لكن القاعدة التي بيَّنها النبي عليه الصلاة والسلام أنه:

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

ما أروع هذه القاعدة، هذه القاعدة تحيل الصغيرة كبيرة، والكبيرة صغيرة، لمجرد أن تثبت انحراف المقود درجة واحدة بعد حين أنت في الوادي، أما الكبيرة لو أنك انتبهت مباشرة أعدت المقود إلى ما كان عليه نجوت، فحينما تصر على صغيرة انقلبت إلى كبيرة، وحينما تستغفر من كبيرة غُفِرت لك وكأنها لم تكن، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]



هذه بشارة، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي، لا كبيرة مع الاستغفار، مهما تكن الكبيرة كبيرة، لأن رحمة الله تسع كل شيء، وأنت شيء، وأرجى آية في كتاب الله:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]

لكن:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

[سورة الزمر: 54]

حينما تقرأ القرآن تشعر أن الله غفور رحيم.

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الحجر: 49]

إذا تبت، وإذا رجعت، وإذا استغفرت، وإذا أقلعت، فإن لم تفعل.

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 50]

ما يُهلِكُ عامة المسلمين :

أيها الأخوة الكرام، هذه قاعدة رائعة، الكبائر إن ندمت على فعلها، واستغفرت الله منها، وأقلعت عنها غفرت لك، وكأنها لم تكن، والصغائر إذا أصررت عليها، وثبت عليها انقلبت إلى كبائر، لذلك في مجتمع المسلمين الآن ـ وهذا من نعم الله علينا ـ الذي يقتل، والذي يزني، والذي يسرق، والذي يشرب الخمر نسبهم قليلة، أنا أقصد عند المسلمين، وعند المؤمنين، وعند رواد المساجد، هذه الكبائر لا يفعلونها، حسناً ما الذي يهلك عامة المسلمين؟ هنا يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[الترغيب والترهيب عن سليمان بن عمرو عن أبيه]

يعني الاختلاط، هي مثل أختي، ونحن لا نقيم عازلاً بين الرجال والنساء، نحن أهل، فالشعور أننا أهل ولا مانع من الاختلاط مشكلة كبيرة، هذه لو أصررنا عليها انقلبت إلى كبائر، وحجبتنا عن الله. فالاختلاط يبدو عند الناس صغيرة، وما داموا قد أصروا عليه انقلب إلى كبيرة، أن تملأ عينيك من محاسن امرأة لا تحل لك، تظن أنها صغيرة، أما إذا أصررت عليها انقلبت إلى كبيرة. لذلك ما الذي يهلك عامة المسلمين؟ لا تهلكهم الكبائر، لأن معظمهم لا يفعلونها، تهلكهم الصغائر حينما يصرون عليها، تجد نمط المسلم نمطاً في بيته مئة معصية؛ بعلاقته مع زوجته، مع بناته، بخروج بناته، بكسب ماله، بإنفاق ماله، بحديثه، يظن أنه لا يفعل شيئاً، أنا لا أسرق، هو يظن أنه ناج، لأنه ترك الكبائر، لكن هذه الصغائر التي أصر عليها، ولم يعبأ بها، ورآها شيئاً طبيعياً، كان هلاكه من قِبَلها، وأوضح مثل هذا المسجد بأنواره، ومراوحه، وتكييفه، وكل أجهزة الكهرباء فيه لو قطعت التيار عنه ميليمتراً تعطل كل شيء، لو باعدنا بين التيارين متراً المحصلة انقطاع التيار، فالمتر كالميليمتر، حدث انقطاع، ووقع الحجاب، فلذلك كأني أضع يدي على مشكلة المسلمين، فإن الذي أهلكهم الصغائر،

((مما تحقرون من أعمالكم))

أما إذا لم يكن ثمة وقوع في الصغائر فلا بد من الاتصال بالله في أعلى درجة، ومن خط مفتوح بينك وبين الله، أما إذا تساهلت في الصغائر حجبتك هذه الصغائر عن أن تتصل بالله عز وجل، احفظوا هذا الحديث،

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

الصغيرة إذا أصررت عليها انقلبت إلى كبيرة، والكبيرة إذا استغفرت الله منها انقلبت إلى صغيرة، وتلاشت.

بعض من الكبائر :


الخمر والميسر من الكبائر

من هذه الكبائر أن تعبد غير الله:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

[سورة الحج: 30]

من هذه الكبائر:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: 90]

من الكبائر:

(وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

[سورة الحج: 30]

أن تدليَ بشهادة باطلة تقتطع بها حق امرئ مسلم، من الكبائر شاهد الزور يرتكب كبيرة، قال القاضي لشاهد زور: احلف، طلب ممن كلفه بالحلف خمس آلاف ليرة، دخل المحكمة، قال له القاضي: احلف، وجد أمامه المصحف، فقال له: أريد عشرة آلاف، لأن ثمة يميناً، هذا شاهد زور، كبيرة جداً:

(وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

[سورة النحل: 36]

هؤلاء الأقوياء هم في الأعم الأغلب أغنياء، فالذي يحتفل بهم، ويعظمهم من أجل أن يأخذ مما عندهم، أو أن يتقي شرهم، وينسى الله عز وجل، أن تتضعضع لغني، أن تعظم إنسان قوياً تخافه، وترجو ما عنده عن طريق معصية الله عز وجل هذه كبيرة أيضاً.

كل إنسان يأمن مكر الله يقترف أكبر الكبائر :

قال تعالى:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

[سورة المائدة: 72]

الشرك من أكبر الكبائر، قول الزور من أكبر الكبائر، الكذب من الكبائر، الزنى من الكبائر، أن تيئس من روح الله، أن تقول: المسلمون انتهوا، أن ترى أن الكافر القوي سوف يدمرهم، وسوف يسحقهم، ولن تقوم لهم قائمة، حينما تيئس من رحمة الله، ومن أن الله سينصر عباده المؤمنين، اليأس من رحمة الله كبيرة، بل هي من أكبر الكبائر، ثم أن تأمن مكر الله، أن تقتل، لا سمح الله ولا قدر، وأن تأخذ الأموال الحرام، وأن تستعلي على خلق الله، وألا تدخل الله في حساباتك إطلاقاً، هذا

من الكبائر، تجد الشخص يكيد، ويدمر، ويسلب أموال الناس، يسحقهم، يفتري عليهم لا يعبأ، لا يفكر أن هناك يوماً يحاسب فيه.

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

قال فرعون.

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

هؤلاء الذين يتحركون ليبالغوا في الإساءة لخلق الله عز وجل يرتكبون أكبر الكبائر.

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة الأعراف: 99]

صحفي ذكرتها لكم اقترح أن تضرب الكعبة في موسم الحج رداً على ضرب الأبنية في أمريكا، هذا الصحفي دخل إلى مستشفى مشلولاً، والطبيب سوري، أمن مكر الله، وكل إنسان يأمن مكر الله يقترف أكبر الكبائر.

أمثلة أخرى عن الكبائر :

قال:

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً)

[سورة مريم: 32]

عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، ورد في الأثر: ليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يغفر له، هذه الأم التي جعل الله قلبها آية من آياته الدالة على عظمته بذلت لك كل شيء، أنت تقابلها بكفر النعمة، بالعقوق.

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا)

[سورة النساء: 93]

أن تقتل مؤمناً متعمداً فأنت في جهنم إلى أبد الآبدين، من أكبر الكبائر.

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة النور: 23]

أن تفتري على امرأة شريفة طاهرة، أن تشيع عنها فاحشة هي بريئة منها، وقد ورد في الأثر:

((قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة))

[ورد في الأثر]

امرأة بريئة طاهرة، تفتري عليها كي يطلقها زوجها، تفتري عليها كي تأخذ من مالها، تبتزها، لذلك من الكبائر قذف المحصنات، هذا الذي يقذف المحصنات لا تقبل له شهادة أبداً، ويجلد ثمانين

جلدة، وثمة قصة تروى؛ أن امرأة تغسل ميتاً من النساء، لعلها اتهمتها في نفسها بالزنى، فلصقت يدها بجسمها في عهد الإمام مالك، فقال: اجلدوها ثمانين جلدة، في الجلدة الثمانين فكت يدها منها.

أكل مال الربا والفرار من الزحف من أكبر الكبائر :

قال:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)

[سورة البقرة: 275]



أكل مال الربا من الكبائر، لأنك إذا أكلت الربا جعلت المال يلد المال، وإذا ولد المال المالَ تجمعت الأموال في أيدي قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة، كل شقاء البشر من الفرق الهائل بين أناس قلة يملكون تسعين بالمئة من ثروات العالم، وبين الكثرة الكثيرة التي لا تملك إلا عشرة بالمئة، مشكلات الأرض الآن ما هي؟ فئة قليلة تملك ثروات الأرض تعيش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، لكن هؤلاء الذين أقلقوهم أذهبوا سعادتهم، لأنهم يبذلون حياتهم في سبيل الله عز وجل، أقلقوهم، الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة الأنفال: 16]

الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

أكل مال اليتيم والزنى وكتم الشهادة من الكبائر :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

[سورة النساء: 10]

أكل مال اليتيم الذي ينبغي أن تنفعه، ينبغي إذا اتجرت بماله ألا تأخذ شيئاً، وإن كنت غنياً ينبغي أن تستعفف، وإن كنت فقيراً فخذ بالمعروف، والمعروف أجر المثل، أو حاجتك أيهما أقل، أما هذا الذي يأكل أموال اليتامى ظلماً:



(إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)

[سورة النساء: 10]

والزنى:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً)

[سورة الفرقان: 68 - 69]

والزنى من الكبائر، وكتم الشهادة من الكبائر.

(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ)

[سورة البقرة: 283]

ركب شخص مركبة، فوقع في حادث وقتل طفلاً، وأنت شاهد أن هذا الطفل قفز إلى أمام السائق، والسائق يمشي الهوينى، بسرعة نظامية معتدلة، ولم يخالف قوانين السير، طُلِبت إلى الشهادة فرفضت وأنت الشاهد الوحيد، يمكن أن يُتَّهم هذا السائق، وأن تُدمَّر حياته، إذا كتمت الشهادة كان كتمك هذا من الكبائر، لا أحد يشهد معك إذا ثمة مشكلة.

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

الذي يأبى أن يشهد وقع في كبيرة.

إعانة الظالم على ظلمه والفتوى بخلاف ما تعلم من الكبائر أيضاً :

قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ)

[سورة آل عمران: 77]

أي له مكانة دينية، أصدر فتوى إرضاء لجهة قوية، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أنها غير صحيحة، لذلك أحد علماء بلد إسلامي له شأن كبير، وكان يعتلي أعلى منصب ديني في بلده، وهو في النزع الأخير على فراش الموت رفع يديه إلى السماء، وقال: يا رب أنا بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف، أنت حينما تفتي بخلاف ما تعلم إرضاء لقوي فقد ارتكبت أكبر الكبائر، وجعلت جسمك جسراً إلى جهنم، لذلك كلما كنت جباناً في الفتوى كنت أقرب إلى الله، فإياك أن تفتي:

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ)

[سورة آل عمران: 77]

من أعان ظالماً، ولو بشطر كلمة، والله عند بعض العلماء لو قدمت له ليوقع فقد شاركته في إثم هذا التوقيع، لو سألك: هل هذا صحيح؟ فقلت: نعم، لا بد أن تفعل هذا، وأنت لست مقتنعاً بهذا العمل إرضاء له، دخلت في إثم هذا الظلم.

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة آل عمران: 77]

الغلول وترك الصلاة من الكبائر :

من الكبائر:

(وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 161]

الغلول أن تأخذ شيئاً قبل توزيع الغنائم في الحرب، في السلم يموت الأب، ويترك ميراثاً، الأخ الأكبر يأخذ أشياء قبل تقسيم الإرث، السجادة من رائحة والدي، هذا غلول، الشيء الذي يأخذ قبل توزيع الإرث هو من الغلول، الغلول من الكبائر، (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ).

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)

[سورة المدثر: 42]

ما الذي أوصلكم إلى النار قالوا:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

[سورة المدثر: 43]

ترك الصلاة من أكبر الكبائر.

الإنسان حينما يعصي الله يختل توازنه :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

[سورة البقرة: 27]

إنسان له مرجع ديني، والمرجع الديني واضح، سليم العقيدة، والتوجيه سليم، فأنت تسلية فقط سودت له هذا المرجع، فقطعته عنه، أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل هذا من الكبائر، شاب ملتزم بمسجد يغض بصره، يضبط لسانه، يصلي وقته، يصوم شهره، يقوم الليل، معجب بالمسجد، معجب بأخوانه المؤمنين، له قريب فاسق كذاب، يسوِّد له هذه المرجعية، فالشاب ترك الجامع وفلت، وتبع المعاصي والآثام، ماذا فعلت أنت؟ أنت قطعته عمن يجب أن يصل به:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

[سورة البقرة: 27]



هناك أشخاص سبحان الله لا همَّ لهم إلا أن يهزوا هؤلاء المُثل عند أتباعهم، طبعاً بالباطل لا بالحق، ذلك أن الإنسان حينما يعصي الله يختل توازنه، ويستعيد هذا التوازن لو أطاع الله، ويستعيده لو التف بالطيبين الصادقين، فإذا عصى الإنسان الله عز وجل يختل توازنه، فحتى يرتاح لا يترك أحداً من شره، هذا كذاب، هذا دجال، هذا لا تصدقه، هذا يده غير نظيفة، هذا الله أعلم، دائماً يطعن، طعان قناص، هو يطعن ليرتاح، هو اختل توازنه، فكل صالح يطعن في صلاحه، كل مستقيم يطعن في استقامته، وكل ورع يطعن بورعه، لذلك الأنبياء ما نجوا من هذا.

(وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا)

[سورة الشعراء: 186]

تريد أن تتفضل علينا، أنبياء معصومون ومع ذلك ما نجوا من تهم أعداء الله عز وجل.

الكبائر بالاستغفار والتوبة تنقلب إلى صغائر والصغائر بالإصرار تنقلب إلى كبائر :

أيها الأخوة، الكبائر بالاستغفار والتوبة تنقلب إلى صغائر، والصغائر بالإصرار تنقلب إلى كبائر:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

هذه السيئات كلها التي ذكرتها توعد الله عليها بالنار أو باللعن.

(أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

[سورة البقرة: 159]

في السنة:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا ، أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ))

[أبو داود عن أبي هريرة]

فكلمة (ليس منا) كلمة:

(أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

[سورة البقرة: 159]

(وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء: 93]

الشيطان يزين للإنسان الكفر :

هذه كلها تشير إلى أن هذه المعصية كبيرة، وثمة معاص صغيرة، من فضل الله، ومن رحمته، ومن توبته على عباده أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها، والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهما، طبعاً إذا اتقيت الكبائر، ورمضان إلى رمضان يكفر ما بينهما، فـ:

((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))

[أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أنس]

أي مخالفة بسيطة لم يقصدها، ولم يصر عليها، وتاب منها سريعاً، واستغفر الله، فإن الله غفور رحيم، وأكبر مشكلة يعانيها المسلمون أنهم محجوبون عن الله لا بكبائر يرتكبونها بل بصغائر أصروا عليها، كل الأجهزة معطلة، لا لمسافة قطع طويلة، بل لمسافة قطع صغيرة، لكن الجهاز تعطل، التيار انقطع فتوقف الجهاز، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[الترغيب والترهيب عن سليمان بن عمرو عن أبيه]

بالمناسبة كنت أقول دائماً: الشيطان يزين لك الكفر، فإن رآك على إيمان يزين لك الشرك، فإن رآك على توحيد يزين لك البدعة، فإن رآك على سنة يزين لك الكبيرة، فإن رآك على طاعة يزين لك الصغيرة، فإن رآك على ورع بقي معه ورقتان رابحتان، يزين لك التحريش بين المؤمنين، لا ينجو أحد من لسانك، قناص، تتهم كل إنسان، لا تحسن الظن بإنسان، هذا من وسوسة الشيطان، فإن رآك على حذر بقيت معه ورقة رابحة؛ المباحات، تبالغ في المباحات حتى تشغلك عن طاعة الله وعن اليوم الآخر.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(16-69): تفسير الآية 32، خلق الذكر والأنثى وسؤال الله من فضله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-06-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

نهانا الله أن نتمنى في المستقبل ما فضَّل فيه بعضنا على بعض إراحة لنفوسنا :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، في القرآن الكريم أمر ونهي، وكل أمر يقتضي الوجوب وكل نهي يقتضي الترك، كل نهي يقتضي الامتناع، فإنك كمؤمن بينك وبين الله عقد إيماني، هذا العقد الإيماني ينبغي أن تفعل إذا أمرت، وأن تنتهي إذا نهيت، هذه الآية مصدرة بلا الناهية، الله جل جلاله يقول:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا)

والتمني فعل متعلق بالمستقبل، التمني أن تتمنى شيئاً لا يقع، بينما الترقب أن تنتظر شيئاً يقع، إذا قلت: ألا ليت الشباب يعود يوماً، فهذا تمنٍّ، والتمني كما يقول بعض الحكماء بضائع الحمقى، تعيش في خيالات، وفي أوهام لا تقع، فالله سبحانه وتعالى تطيباً لقلوبنا وإراحة لنفوسنا نهانا أن نتمنى في المستقبل ما فضَّل فيه بعضنا على بعض.

الحقيقة أيها الأخوة، أن الله سبحانه وتعالى خلق جنس البشر، وجنس البشر خُلِق على نوعين؛ ذكر وأنثى، وللذكر أفراد، وللأنثى أفراد، صار هناك جنس، ونوع، وأفراد، فالجنس البشري مؤلف من نوعين؛ ذكر وأنثى، مشكلة الحضارة الحديثة أنهم أرادوا إزالة الفروق كلياً بين النوعين، فالمجتمع في فساد خطير، حينما تزول الفوارق بين الذكر والأنثى فهناك فساد عريض، الحقيقة أن أصل التصميم الإلهي أن الإنسان ذكر وأنثى، وأن لكل من الذكر والأنثى خصائص عقلية، ونفسية، واجتماعية، وجسمية، ينفرد بها كل طرف، لكنهما يجتمعان في أن الأنثى والذكر كائنان مكرمان عند الله، كائنان مخيران، كائنان مسؤولان، كائنان مشرَّفان، فحينما أقول الجنس البشري ذكر وأنثى فهناك قواسم مشتركة بينهما وهناك فوارق.

القواسم المشتركة بين الذكر والأنثى أكدتها آيات كثيرة :

القواسم المشتركة أكدتها آيات كثيرة.

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ)

[سورة الأحزاب: 35]

كلاهما في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية سواء، المرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعايته، والرجل راع في بيته، ومسؤول عن رعيته، فنقاط الاشتراك كثيرة جداً، هي من بني البشر، هي إنسان، لها فكرها، ولها مشاعرها، ولها عواطفها، يؤذيها ما يؤذيك، ويفرحها ما يفرحك، ترقى إلى الله كما ترقى أنت إلى الله، تسمو كما تسمو، وتسقط كما تسقط، وتنحط كما تنحط، هناك قواسم مشتركة بين الذكر والأنثى لأنهما من جنس واحد، من جنس البشر.

(خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

[سورة الروم: 21]

من جنسكم، من جنس بشريتكم، إنسان.

الله سبحانه وتعالى أعطى لكل نوع الخصائص التي تعينه على أداء مهمته :

لكن:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

أنت حينما تتجاهل ما تتميز به الأنثى وقعت في خطأ كبير، وحينما تتجاهل ما يتميز به الرجل وقعت في خطأ كبير، فلذلك ورد في أسباب نزول هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى حينما فرض الفرائض، وفرض للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن يكون لهم في الإرث نصيب كنصيب الرجل، وحينما فرض للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى الرجال أن يكون أجرهم في الآخرة مثلي أجر المرأة، فجاءت الآية الكريمة:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

المنطلق أن الله سبحانه وتعالى أعطى لكل نوع الخصائص التي تعينه على أداء مهمته، ففي أصل التصميم صممت المرأة لتكون أماً، ولتكون زوجة أعطيت من الخصائص الجسمية والخصائص النفسية وهي شدة عاطفتها، ومن الخصائص الاجتماعية تعلقها بزوجها، ومن الخصائص الفكرية اعتنائها بالجزئيات ما يؤهلها لتكون زوجة ناجحة، وأماً ناجحة، فهذه الخصائص التي اختص بها الله النساء كجنس بنيت على حكمة بالغة، وعلى خبرة لا نهائية، وعلى علم كبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

وتلك الخصائص التي خصها الله للذكور من اهتمام بالكليات لا بالجزئيات، ومن خصائص جسمية، ونفسية، واجتماعية، وعقلية تتناسب مع كسب الرزق، ومع الحركة خارج البيت.

المرأة سكن لزوجها والرجل قائد لمؤسسة البيت :

في الآية الكريمة:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

[سورة الليل: 1]

الليل من خصائصه السكون والهدوء، وأنه يحجب كل شيء.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)

[سورة الليل: 1 - 2]

ومن خصائص النهار الحركة والضياء، ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة الليل: 3]

هناك إشارة لطيفة إلى أن الرجل عمله خارج البيت، عمله كسب الرزق، وأن المرأة مهمتها الأولى تربية الأولاد، هي سكن لزوجها، وهو قائد لمؤسسة البيت، هناك تناغم وتكامل بينهما، وقد ورد هذا المعنى في قصة المرأة التي اشتكت زوجها إلى الله، فقال الله عز وجل:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

[سورة المجادلة: 1]

قالت: يا رسول الله إن زوجاً تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني، وتفرق أهلي، ونثر بطني، وذهب مالي قال لي: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد؛ إن تركتهم إليه ضاعوا؛ أنا أربيهم، وإن ضممتهم إلي جاعوا؛ هو ينفق عليهم، هذه المرأة الصحابية وضحت أن للرجل والمرأة تكاملاً فيما بينهما، فيا أيها الأخوة، الحضارة الغربية تريد أن تلغي الفوارق بين الذكور والإناث، أي حينما تختلط المرأة مع الرجل في العمل، وحينما لا تكون ملتزمة في ثوبها، وفي حجابها، ينشأ عن هذا الاختلاط وهذا التواصل فساد لا يعلمه إلا الله، لأننا خرجنا عن منهج الله عز وجل، فلذلك الله جل جلاله يقول: (وَلاَ تَتَمَنَّوْا)، هناك صفات إنسانية مشتركة بين الذكور والإناث، كلاهما مُكرَّم عند الله، وكلاهما مُشرَّف عند الله، وكلاهما مُكلَّف عند الله، وكلاهما مسؤول أمام الله.

المرأة مستقلة في دينها عن زوجها ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

لحكمة أرادها الله جعل امرأة فرعون الطاغية الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 1]

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

جعل امرأة هذا الطاغية صدّيقة، آسيا امرأة فرعون بكل ثقله، وكل جبروته، وكل قوته، وكل ألوهيته المزعومة ما استطاع أن يقنعها أن تعبده، ولا أن تقر بألوهيته المزعومة، قالت:

(رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

ماذا أراد الله من هذه القصة أن يعلم النساء جميعاً أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، تُحاسَب عن دينها، ولتعلم أيضاً أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلذلك معظم النساء حينما يقلن: هكذا يريد أزواجنا، إن شاء الله هذا في رقبتهم، هذا كلام مرفوض، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، هي مكرمة كما هو مكرم، مشرفة كما هو مشرف، مكلفة كما هو مكلف، مسؤولة كما هو مسؤول، هذه نقاط الالتقاء، أما نقاط الاختلاف فإذا تجاهلناها وقعنا في فساد عريض، وقع تحت يدي كتاب عنوانه (عمل المرأة في الميزان)، هذا الكتاب ليس من مؤلفه كلمة، ولا كلمة إلا أن مؤلفه جمع إحصاءات في العالم الغربي عن الفساد العريض الذي يحصل حينما تكون المرأة مع الرجل في العمل، ولا يكون عند الطرفين الإيمان الرادع.

هناك فروق دقيقة جداً وكثيرة جداً بين الذكور والإناث :

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

[سورة الأحزاب: 33]

الأصل أن المرأة تقوم بأخطر عمل أناطه الله بها، حينما تقرُّ في بيتها لتربية الأولاد، المرأة التي تربي أولادها، وتدفعهم إلى المجتمع عناصر ملتزمة مخلصة واعية هي امرأة بطلة، لأن شهاداتها الحقيقية ليست تلك الأوراق التي تعلق على الجدران، إن شهاداتها الحقيقية أولادها الذين ربتهم، ودفعتهم إلى المجتمع، وكثيراً ما نعثر على شباب يلفتون النظر بأخلاقهم، ويلفتون النظر برحمتهم، ويلفتون النظر بتعاونهم، ويلفتون النظر بحبهم للخير، لو دققنا وبحثنا لوجدنا أنهم تلقوا تربية عالية من أمهاتهم، إنك إن علّمت فتاة علّمت أسرة، فيا أيها الأخوة الكرام، المرأة والرجل كلاهما مُكلَّف،

وكلاهما مُشرَّف، وكلاهما مسؤول، ولكن هناك فروق دقيقة جداً، وكثيرة جداً بين الذكور والإناث، خصائص الذكور نبدأ بالجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية تتناسب مع المهمة التي أنيطت بهم، وخصائص الإناث العقلية والجسمية والاجتماعية والنفسية تتناسب مع المهمات التي أنيطت بهن.

حينما كنا في الجامعة درسنا كتاباً لمؤلف فرنسي عن الفروق الدقيقة بين الذكور والإناث، والكتاب يقع في ثمانمئة صفحة، القدرة على الحفظ، كيف هي في الرجال، وكيف هي في النساء، القدرة على الخطابة، القدرة على التأمل، القدرة على التحليل، القدرة على استيعاب المواد مادةً مادة، الفتيات يتفوقن في التاريخ، في الجغرافية، وقد يتخلفن عن الذكور في الرياضيات وبعض المواد المجردة، على كلٍ الكتاب ممتع جداً، وهو مترجم إذا قرأته من دفته إلى دفته، ثم قرأت قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

لا تملك إلا أن تخر لله ساجداً، لأن القرآن ذكر آية خطيرة، هذا الكتاب ترجمة هذه الآية، فأي مجتمع، وأي نظام، وأي ترتيب يتجاهل الفروق بين المرأة والرجل، هذا نظام يقع في إشكال كبير، وفي فساد عريض.

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الإنسان مُخيَّر فيما كُلِّف ومُسيَّر في أشياء كثيرة :

شيء آخر: طبعاً بدأت بالفرق بين الذكور والإناث، ولكن لو أخذ الذكور وحدهم، كما يقال: إنسان ساقته الأقدار ليكون معلماً، وإنسان ساقته الأقدار ليكون تاجراً، وإنسان ليكون مهندساً، فهذه الحرف، وتلك الدخول، وهذه الخصائص التي خصك الله بها، لو كشف لك الغيب ما تمنيت غير ذلك، لذلك قالوا: لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، فأنت مخير، وأنت مسير، أنت مخير فيما كلفت ومسير في أشياء كثيرة، إنك مسير في والديك، من منا اختار والديه، ولا أحد، أنت مسير في زمن ولادتك، نحن جئنا في هذا القرن، لو جئنا قبل خمسة قرون لكان حالنا حالاً آخر، أنت مسير في البلد الذي ولدت فيه، لو جئنا في مجاهل أفريقيا، أو في أستراليا، أو في أمريكا، لكان لنا حال آخر، إذاً أنت مسير في أمك وأبيك، مسير في مكان ولادتك، مسير في زمن ولادتك، ثم إنك مسير في شكلك، من منا اختار شكله، مسير في قدراتك، هذا ألمعي، وهذا أقل ذكاء، وهذا محدود، وهذا فيه ضعف فكري شديد، وهذا قوي البنية، وهذا عليل الصحة، وهذا يتمتع بذاكرة قوية، وهذا يتمتع بطلاقة لسان، وهذا يتمتع بقدرة على الخطابة، فهناك آلاف القدرات، كل واحد منا خصه الله ببعض هذه القدرات، هذا يسوقنا في التوحيد إلى حقيقة مهمة جداً، وكلمة حظوظ مصطلح، يعني أنت لك حظ من الوسامة، لك حظ من الذكاء، لك حظ من الصحة، لك حظ من الإرث، إنسان يولد من أبويين فقيرين، وإنسان يولد من ابن ملك، طبعاً ليس هذا من كسبه، وليس ذاك من كسبه، إرثك،

وخصائصك، وقدراتك، وشكلك، وإمكانياتك، واستعداداتك هذه أيضاً أنت مسير فيها، ولكن ينبغي أن تعلم علم اليقين أن هذا الذي سُيِّرت فيه لصالحك مئة في المئة، ولو كشف الغطاء ما اخترت إلا الواقع، وهذا معنى قول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: " ليس في الإمكان أبدع مما كان"، أو ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، لذلك نقول: توزيع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، لو أن إنسانين لهما عمر واحد، أحدهما يملك الملايين المملينة، والثاني لا يملك القروش، اختلفا في حظ المال، حظ المال امتحان من الله، فالغني امتحن بغناه، والفقير امتحن بفقره، فرضاً لو أن الفقير نجح في امتحان الفقر فكان صابراً محتسباً متجملاً عفيفاً، ولو أن الغني امتحن في امتحان الغنى فلم ينجح، وعاشا ثمانين عاماً، الفقير يتلوى من الجوع، لكنه صبر، والثاني يتلوى من التخمة، لكنه كفر، ثم انقلبا إلى الآخرة، فالفقير في الجنة إلى أبد الآبدين، وهذا الغني الذي لم ينجح في امتحان الغنى في جنهم إلى أبد الآبدين، فمن هو الرابح الحقيقي؟ هذه الدنيا دنيا الصور، لهذا قال الله عز وجل حينما وصف الدار الآخرة بأنها خافضة رافعة.

((رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))

[رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة]

في الآخرة.

((ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة))

[رواه ابن سعد البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير]

العبرة للمستقبل الأبدي والخسارة الحقيقة هي خسارة الأبد.

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء :

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، قصة أرويها لكم فيها موعظة بالغة إن شاء الله؛ دخلت إلى أحد البيوت، وكان بيت من أرقى البيوت، قال لي صاحب البيت: هذا البيت مساحته أربعمئة متر، قلت له: بارك الله به، شي جميل، قال لي: وهذا البلاط استوردته خصيصاً من إيطاليا، قال لي: بالشحن الجوي شي جميل، وهذا الأثاث مستورد، وهذه اللوحة ثمنها كذا، وهذا الثريا، حتى أطنب إطناباً لا حدود له في الحديث عن بيته، وعن كسوة بيته، وعن أثاث بيته، فخطر لي أن أذكره بآية قرآنية، قلت له: ما قولك لو وازنَّا بين هذا البيت وبيت يقع في أطراف المدينة تحت الأرض بلا طلاء، وبلا مرافق، وهو صغير، قال لي: لا نسبة بينهما، وازنا بين بيتين، بيت لا يزيد ثمنه عن مئة ألف، وبيت لا يقل ثمنه عن خمسين مليوناً، لا قياس

بينهما، وازن بين طبيب جراح، كل عمل جراحي يتقاضى عليه مبلغاً كبيراً، وبين ممرض مبتدئ مهمته تنظيف المرضى المقعدين، كلاهما في الطب، لكن هذا ممرض، وذاك طبيب جراح، وازن بين أستاذ في الجامعة يحتل أعلى مكانة، وله دخل كبير، ومعلم ابتدائي في قرية، وزان بين رئيس غرفة التجارة، وبين بائع متجول في الأسواق يخاف من الشرطة، وازن بين رتبة عسكرية عالية جداً في مكتب فخم مكيف، عدة سيارات على الباب، وبين جندي في خدمة إلزامية في الخط الأول في الشتاء في حفرة كلها ماء مثلاً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

مسافة كبيرة.

مراتب الدنيا مؤقتة أما مراتب الآخرة فأبدية :

قال تعالى:

(وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 21]

مراتب الدنيا أيها الأخوة لا تعني شيئاً، لأنها مؤقتة، بل تعني العكس، في ثماني آيات هؤلاء الذي أترفوا هم الكفار، كفروا وأترفناهم في الحياة الدنيا، الله عز وجل قرن بين الترف وبين الكفر، قلت له: مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، وقد تعني العكس، مراتب الدنيا مؤقتة، وليست أبدية، بينما مراتب الآخرة أبدية.

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

أما لو اعتنى أحدنا بالبيت عناية تفوق حد الخيال فلا بد أن يخرج منه أفقياً، ولو كان ثمنُ بيتك مئة مليون، في أحد الأيام يخرج المرء من بيته هكذا (أفقياً) ولن يعود، ألم تدخل إلى بيوت فخمة جداً لتعزي أصحابها؟ هم الذي بنوها، وزينوها، وفرشوها، أين هم الآن؟ في القبور، فلذلك مراتب الآخرة تعني كل شيء، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، مراتب الدنيا مؤقتة، مراتب الآخرة أبدية:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

الآن دعونا من الفرق بين النساء وبين الرجال، والذكور والإناث، فيما بين الرجال، فلان دخله كبير، لا تتمن أن يكون دخلك كدخله، ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، أنا لا أدعو إلى أن تجلس، وإلى أن تقعد، وإلى أن تتكاسل، اجتهد ما أمكنك الاجتهاد، حيث وصل بك الاجتهاد إلى هذا المكان فهذا أنسب مكان لك، لذلك قال بعض العارفين بالله، وهو ابن عطاء الله السكندري: ربما كان المنع عين العطاء، يقول: ربما كان المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

الله تعالى أناط بكل جنس مهمات من أجل أن يحققوا أهدافهم بخصائص متعلقة بهم :

قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

أيها الأخوة الكرام، لا تتمنوا كما قال الله عز وجل ما فضل الله به بعضكم على بعض، الآن سبب هذا التفضيل إذا أعدناه إلى نوع الجنس نحن من جنس البشر، لكن نحن ذكور، وأخواتنا إناث، قال:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

فإن الله أناط بالذكور مهمات ومسؤوليات من أجل أن يحققوا أهدافهم بخصائص متعلقة بهم، أو أن لكل واحد بحسب استقامته، وبحسب إقباله، وبحسب انضباطه، وبحسب علاقته بربه هيأ الله له الشيء الذي يعد بحقه حكمة بالغة.

إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، ومن الناس من لا يتحمل الغنى، مقاومتهم هشة، لمجرد أن يتوافر المال بين أيديهم ينحرفون عن سواء السبيل، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، ولأن الله سبحانه وتعالى علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أي أنت بهذا الحال مستقيم والحمد لله، ولكن لا أنا أعلم ولا أنت تعلم لو كنت في حال آخر كيف تكون، فكأن الله اختار لك أفضل شيء، وهذا معنى قول الإمام علي رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، فيقيني بحكمة الله، وعدالة الله، ورحمة الله قبل كشف الغطاء كيقيني بعد كشف الغطاء.

لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال :

قال:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ)

أي لنوع الرجال:

(نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا)

تقول المرأة: أنا امرأة، طيب أنت أيتها المرأة الكريمة دينك بسيط:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

من منكم يصدق أن الرجل أمامه مئة ألف امتحان، مئة طريقة لكسب المال محرمة ربما لا يعلمها، فهناك مسؤوليات منوطة بالرجل، وهناك مسؤوليات مناط للمرأة، فالإنسان لا يتمنى أن يكون من جنس آخر لذلك:

((لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء))

[أحمد في مسنده عن ابن عباس]

أن يقف أمام المرآة ساعات وساعات، وأن يتبختر في مشيته، وأن يتعطر، وأن يتكسر، هذا كله محرم:

((والمتشبهات من النساء بالرجال))

[أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس]

المتشبه من الرجال بالنساء يتمنى أن يكون امرأة، والمتشبهة من النساء بالرجال تتمنى أن تكون رجلاً، بل إن المرأة الرجلة؛ أي المسترجلة، فعلها من أكبر الكبائر لأنها رفضت اختيار الله لها أن تكون أنثى، فالمرأة المؤمنة ترضى عن الله أنه اختارها أنثى، مع أن الأنثى لا تقل ولا شعرة واحدة في مكانتها عند الله عن الذكر.

بديل الحسد أن تسأل الله من فضله :

نحن تحدثنا عن الفرق بين الذكور وبين الإناث، ثم تحدثنا عن الفرق بين الذكور، لكن لو أنك تمنيت أن تكون مثلاً غنياً، وأنت لست كذلك، فهذا لا يمنع، قال:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

لا تحسد بل تسأل، لا تحسد، الحسد جهل، والحاسد جاهل، الحاسد يتمنى أن يتحول الخير من أخيه إليه، هذا مستوى، في مستوى أشر، أن يتمنى أن يتحول الخير عن أخيه فقط دون أن يصل إليه، والمستوى الأشر من هذين المستويين، أن يسعى بجهده كي يذهب عن أخيه الخير، الحسود جاهل، والحسود عاصي لله، والحسود لا يعرف الله.

ألا قل لمن ظل لي حاسدا أتدري على من أسـأت الأدب

أسأت على الله في حكمه إذا أنت لم ترض لي ما وهـب

* * *

أما البطولة:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

قال بعض الشعراء:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

* * *

قم فسألن عن السبب:

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

* * *

هذا الذي أعطاه يعطيك، وهذا الذي أكرمه يكرمك، الإله الذي رفعه يرفعك، الإله الذي أغناه يغنيك، الإله الذي وفقه يوفقك، كن موحداً، تمنيت شيئاً على أخيك المؤمن لا مانع، بالمناسبة ليس من المحرم أن تتمنى من خيري الدنيا والآخرة، اللهم اجعل لي رزقاً حلالاً طيباً، اللهم ارزقني زوجة صالحة تسرني إن نظرت إليها، وتحفظني إن غبت عنها، وتطيعني إن أمرتها، ليس حراماً أن تتمنى من فضل الله في الدنيا والآخرة ولكن الحرام أن تتمنى أن يزول هذا الخير عن أخيك لضيق أفق منك أو لجهل منك.

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

بديل الحسد أن تسأل الله من فضله.

الله موجود اسأله فيما بينك وبينه كما ورد في آيات قرآنية كثيرة :

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((ينْزِلُ رَبّنَا كُلّ لَيْلَةٍ إلى السّمَاءِ الدّنْيَا حَتّى يَبْقَى ثُلثُ اللّيْلِ الآخر، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لَه؟ حتى ينفجر الفجر))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

الله موجود، اسأله فيما بينك وبينه، بل إن الله سبحانه وتعالى في أكثر من اثنتي عشرة آية جاءت على الشكل التالي:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة: 219]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

اثنتا عشرة آية إلا آية واحدة.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

[سورة البقرة: 186]

ليس في هذه الآية كلمة "قل"، أي ليس بينك وبين الله حجاب، وليس بينك وبين الله وسيط، وليس بينك وبين الله إنسان، اسأله مباشرة.

محبة الله تعالى للملحين في الدعاء :

إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، وإن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، وإن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه، وإن الله يحب الملحين في الدعاء، ومن لا يدعني أغضب عليه. ليس بينك وبين الله حجاب، اسأل ربك حاجتك كلها، اسأله ملح طعامك، شسع نعلك، اسأله كل شيء، وليس بينك وبينه وسيط، وليس بينك وبينه إنسان، إذاً بديل الحسد والحقد والتآمر والكيد والعداوة والبغضاء:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

أسأله الذي أعطاه يعطيك، والذي أكرمه يكرمك، والذي وفقه يوفقك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

والله لا أنسى كلمة دخلت إلى أعماق أعماقي، سيدنا عمر التقى بسعد بن أبي وقاص، سيدنا سعد بن أبي وقاص له ميزتان، كان كلما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم يداعبه ويقول:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[رواه الترمذي وحسنه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه]

وهو الصحابي الوحيد من بين أصحاب النبي الذي فداه النبي بأبيه وأمه، في إحدى المعارك قال له:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

[البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه]

هذا الصحابي التقى عمر بن الخطاب بعد وفاة النبي فقال له سيدنا عمر: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، لا أحد أحسن من أحد، نتفاضل عند الله بطاعتنا فقط، أطع أكثر تكن أكرم على الله من أي إنسان آخر، حتى بأية جلسة:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

بديل الحسد أن تسأل الله من فضله.

الاختلاف على أنواع ثلاث :

قال تعالى:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، الشيء الدقيق في هذه الآية أن متاعب الناس؛ العداوة، البغضاء، الحسد، الحسد فتت قلوبهم بجلسة كلها غيبة ونميمة، كلها حسد، بل إن الاختلاف على أنواع ثلاث.

1 ـ اختلاف أساسه نقص المعلومات وهذا اختلاف طبيعي :

اختلاف أساسه نقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي، لا فيه إثم، ولا فيه ثواب، أوضح مثل له سمعنا إطلاق مدفع، غداً العيد، يا ترى هذا مدفع العيد، لقد ثبت أن العيد غداً، الله أعلم، وقد يكون تفجيراً بالجبل، اختلفنا، سبب الخلاف نقص المعلومات، استمعنا في الأخبار أنه ثبت لدى القاضي الشرعي غداً أول أيام عيد الفطر، معنى ذلك هذا مدفع العيد.

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

[سورة يونس: 19]

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ)

[سورة البقرة: 213]

اختلفوا لنقص معلوماتهم، جاء الأنبياء، وحسموا الخلاف، الخلاف الأول اختلاف طبيعي، سببه نقص المعلومات، فإذا جاء الوحي من السماء حسم الأمر.

2 ـ اختلاف الحسد والبغضاء وهذا اختلاف قذر :

اختلاف الحسد والبغضاء، وهذا اختلاف قذر، اختلاف الحسد والبغضاء، بكل أسف المسلمون بينهم تسعة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، ادخل أي جامع في الأرض تسمع: قال الله تعالى، قال رسول الله، ومع ذلك يتقاتلون وبينهم تسعة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، أعداء المسلمين يتعاونون وبينهم خمسة بالمئة فقط قواسم مشتركة، أليس هذا الاختلاف بين المسلمين وصمة عار بحقهم؟ فلذلك الاختلاف الثاني اختلاف الحسد والبغي، قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران: 19]

اختلاف أساسه الحسد، أكثر ما يقوم به مشادات بين الناس موضوع تأكيد للذات، أي أخوك تكلم يجب أن انتقده، يجب أن أسفهه غير صحيح ليس لهذه الدرجة، هذا شيء غير صحيح، فحينما يقصد الإنسان أن يؤكد ذاته على حساب مكانة أخيه إذاً هذا اختلاف الحسد.

3 ـ اختلاف التنافس وهذا اختلاف محمود :

وهناك اختلاف محمود اختلاف التنافس، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: 26]

إنسان رأى أن أفضل شيء تأليف القلوب بدعوة مباشرة، وإنسان رأى أن أفضل شيء تأليف الكتب، إنسان رأى بناء المساجد، إنسان رأى تأسيس جمعيات خيرية، نحن نختلف هنا في وجهات النظر، لكن هذا الاختلاف محمود لأنه رحمة، كل واحد أخذ خطاً وسار فيه.

أيها الأخوة الكرام، إن شاء الله في الدرس القادم نتابع الآيات التي تلي هذه الآية.

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(17-69): تفسير الآيتان 33 – 34، درجة القوامة والمرأة الصالحة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-06-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نتآخى اثنين اثنين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)

الموالي جمع مولى، والمولى في هذه الآية الذي واليته في ظرف استثنائي، المولى في اللغة العبد، أو السيد، وهو من ألفاظ التضاد، كأن تقول: شرى، باع أو اشترى، تقول يا مولاي، تخاطب الله عز وجل، وتقول لعبدك: يا مولاي، أي أنت مولاي بمعنى أنه مملك لك، لكن هنا حينما قدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، آخى أصحابه اثنين اثنين، هذه المؤاخاة تعني علاقات متينة جداً، تعني أن هذا الأخ مع هذا الأخ يتعاونان، يتناصحان، يتناصران، سلمهم واحدة، حربهم واحدة، يتوارثان، يتوارثان في مرحلة محددة، لذلك بعضهم قال: هذا هو الفقه الاستثنائي، فالله عز وجل يقول:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ)

يعني كل واحد منكم أيها المؤمنون جعل له مولى، أي أخاً في الله، وأنا أتمنى على كل أخ كريم في هذا المسجد أن يوالي أخاً، الحد الأدنى أن يتفقد حضوره، ما أروع أن يتصل بك أخ كريم يقول لك: لم تكن في هذا الدرس، نحن قلقون عليك، الأمور إن شاء الله صحيحة، تتفقده، تزوره، يزورك، تنصحه، ينصحك، تقرضه، يقرضك، تستشيره، يستشيرك، تأخذ بيده، يأخذ بيدك، النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نتآخى اثنين اثنين، هكذا فعل النبي الكريم، لو أن الواحد منكم آخى مؤمناً فهو مسؤول عنه، مسؤول عن وضعه، يا ترى وضعه الصحي جيد، لعلك تعرف طبيباً له اختصاص بارع في مشكلته الصحية، يا ترى هو متزوج، عنده مشكلة عائلية، عنده مشكلة اجتماعية، عنده مشكلة مالية، هذا هو الإيمان، أن يتولى كل واحد منكم أخاه، فهذا منهج من منهج النبي عليه الصلاة والسلام.

الأخوان في عهد النبي يتوارثان وهذا حكم استثنائي :

حينما قدم النبي المدينة آخى بين أصحابه، آخى أنصارياً مع مهاجر، لكن هذه المؤاخاة بلغت إلى درجة أن الأنصاري يقول لأخيه المهاجر: عندي بيتان خذ أحدهما، وعندي دكانان خذ أحدهما، وعندي بستانان خذ أحدهما، إلى هنا فقط، فصار الأخوان في الله يتعاونان، يتناصران، يتناصحان، يتباذلان، يتزاوران، يتحابان في الله، هناك حكم استثنائي؛ كان الأخوان في عهد النبي يتوارثان، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)

أي ينبغي أن تعطوا هذا الولي حصته من الميراث وكانت السدس، إلا أن هذا الحكم نسخ في آية كريمة:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)

[سورة الأنفال: 75]

هذا حكم استثنائي، كيف أن قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

[سورة النساء: 43]

هذا حكم استثنائي، ثم حرمت الخمر كلياً، لا بين الصلوات، ولا في أثناء الصلاة.

أصل كلمة (قوَّام) :

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)

هذا يعني أن المسلمين عند شروطهم، أنت حينما تتفق مع أخ على شرط وفق كتاب الله ينبغي أن تنفذه قال:

(فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)

أيها الأخوة، ثم ننتقل إلى الآية التي تليها، وهذه الآية أصل في العلاقات الزوجية الله عز وجل يقول:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

قوامون مفردها قوّام، وقوّام صيغة مبالغة، لا نقول قائم: بل قوّام، مثلاً الذي يغفر مرة واحدة اسمه غافر، أما الذي يغفر الذنوب الكثيرة اسمه غفّار، على وزن فعّال، فهذه صيغة مبالغة، قوّامون فهو قائم دائماً على هذه الأسرة ليلاً ونهاراً، يسعى لتأمين رزقها، ويسعى لصيانة زوجته وأولاده من كل

خلل، يصون علمهم، يصون أخلاقهم، يصون تربيتهم، يصون أولاده، كلمة قوّام تعني أنه لا يستريح أبداً، وثمة نقطة دقيقة أشار إليها الخليفة عمر رضي الله عنه حينما قال: لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً، الحقيقة بالمفهوم الإسلامي الصحيح الأب رب الأسرة، ليس خيراً من أحد أفراد أسرته، لكنه أثقلهم حملاً، ينبغي أن يسعى لكسب رزق حلال، وما أصعب تحصيل الرزق الحلال، وينبغي أن يعود إلى البيت، وأن ينتبه إلى زوجته وإلى أولاده، إلى صحتهم، وإلى علمهم وتحصيلهم، وإلى تربيتهم، وإلى أخلاقهم، وإلى دينهم، وإلى صلاتهم، هذا الأب في الأساس، الأبوة مسؤولية كبيرة جداً.

الفهم الخاطئ لكلمة (قوامة) :

حينما يقول الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

أي هم يتعبون بلا كلل وبلا ملل بشتى الاتجاهات في كسب الرزق، وفي مراقبة الأسرة، وفي صون الأخلاق، وفي ترسيخ القيم، وفي متابعة تحصيل الأولاد، وفي العناية بالزوجة، كلمة قوّام تعني شديد القيام، لا يرتاح إلا إذا رأى أولاده في أعلى مقام، لا يرتاح إلا إذا رأى زوجته قد عرفت ربها، واستقامت إليه، هذا معنى القوامة، لكن مع الأسف الشديد هناك من يفهم القوامة أنه أعلى منها، يستطيع أن يذلها، يستطيع أن يطلقها، يستطيع أن يستخدمها، يستطيع أن يستهين بها، ليست هذه القوامة إطلاقاً، ولأن المسلمين فهموا القوامة استعلاء، وفهموها تعسفاً، وقهراً، وإذلالاً، واحتقاراً، لذلك خرجت المرأة عن الطوق، وكالت للزوج الصاع صاعين، القوامة رحمة، القوامة علم، القوامة بذل جهد كبير، القوامة سهر على مصالح الأسرة، القوامة قلق على مصير الأبناء، القوامة بذل الجهد، والوقت، والمال، والعلم للأولاد، إذا فهم الأزواج القوامة هكذا كانوا في أعلى مرتبة في أسرتهم، أما إذا فهم الأزواج أن القوامة استمتاع بالزوجة، واستعلاء عليها، وأن يجلس، ويرتاح، وهي تعمل، ولا سيما في بعض المناطق، وهو لا يعمل شيئاً، هي تذهب، وهي تعمل، وهي تجهد، وهي تحصد، وهي تحلب الحليب، وهو مرتاح في البيت، ليست هذه هي القوامة:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

قد يفهم أحدنا أن القوامة قوامة الزوج على زوجته، لا، قوامة الزوج على زوجته، وقوامة الأب على أولاده، وقوامة الأخ الأكبر على أخواته، وقوامة أي مؤمن على من أناطهم الله بهم، لك إخوة صغار، أنت قيوم عليهم، لك أخوات عوانس أنت قيوم عليهن، ينبغي أن ترعاهن، أن تكرمهن، كي يتقربوا إلى الله عز وجل، هذه القوامة لا تعني قوامة الرجل على زوجته فحسب، بل تعني قوامته على من أناطهم الله به، على أخوته الصغار، وعلى أخواته البنات، على أخواته الكبار، على من أناطه الله به.

وجود صاحب قرار في كل مؤسسة مهما كانت صغيرة أمر ضروري :

قال:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

كرامة كل من في المركبة في مستوى واحد، لكن لا بد لها من قائد، الكرامة واحدة، انظر إلى أسرة نموذجية، الأب في عمله، والأم تطبخ الطعام، والابن يأتي بالأغراض من السوق، والبنت تنظف البيت، وفي الساعة الثانية ظهراً الأربعة على مائدة واحدة، وفي مكانة واحدة، وفي كرامة واحدة، وفي محبة متبادلة، وفي إخلاص فيما بينهم، توزيع الأدوار لا يعني انتقاص الإنسان من كرامته، البيت المسلم؛ الزوجة، والابن، والبنت، والأخت، إن كانت في البيت فهي كرامة واحدة، لكن كل واحد له دور، فإذا أناط الله القيادة بإنسان في هذه الأسرة فينبغي أن يطاع، فلا بد في كل مؤسسة، في كل مركبة، في كل عمل، من صاحب قرار، والله سبحانه وتعالى جعل الزوج صاحب قرار، قد نكون في ثكنة عسكرية فيها رتب كثيرة، وفيها رتبتان متساويتان تماماً، فلا بد من أحد الرتبتين أن يكون قائداً لهذه السرية، أبداً، نبحث عن القدم عندئذٍ، قد يكون رتبتان متشابهتان، لكن لا بد من أن يكون أحدهما أقدم من الآخر، أو علاماته أعلى، يتسلم هذا الأول رتبة القيادة، في الإسلام نظام، هذه الأسرة فيها محبة، فيها مودة، فيها تبادل، فيها تناصح، فيها حب، لكن فيها واحد صاحب قرار، إذا قال لا يعني لا.

أيها الأخوة، مما يشكو منه المسلمون أن معظم الأسر ليس فيها صاحب قرار، العلاقات ليست واضحة، كلام الزوج لا ينفذ، أحياناً كلام الزوجة هو النافذ:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

القيادة لهم، لكن بينهم وبين النساء كم درجة؟ درجة واحدة.

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

[سورة البقرة: 228]

القوامة درجة واحدة هي درجة القيادة :

ثمة أزواج والعياذ بالله يرون أن الزوج هو كل شيء، وأن الزوجة لا شيء، ليست هذه القوامة، القوامة درجة واحدة، هي درجة القيادة، وقد وجهتُ أزواجاً إلى أن يتشاوروا مع زوجاتهم، قال تعالى:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: 6]

أي تأمرها وتأمرك، تستشيرها وتستشيرك، تأخذ وجهة نظرها وتأخذ وجهة نظرك، لكن لك الكلمة الأخيرة، لك القرار، ألم يقل الله عز وجل:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ)

[سورة آل عمران: 159]

ما قال: فإذا عزمتم.

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

أي أنت هيِّئ مجلساً استشارياً، واسأل أصحابك في كل شيء، أما القرار فهو لك، والزوج كذلك قد يسأل زوجته، وقد يستشيرها، وقد يستشير ابنه، وقد يستشير ابنته، لكن في النهاية هو صاحب القرار، إذا قال: لا أو نعم، فهو كذلك .

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

فضَّل الله الرجل بكسب الرزق وإنفاق المال والقوامة وفضَّل المرأة عليه أنها سكن له :

هذه الباء باء السبب..

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أعود وأكرر: إن كلمة (بعضهم على بعض) تعني معاني دقيقة جداً، هو مفضل عليها أنه صاحب قرار، مفضل عليها أنه هو الذي يكسب الرزق، مفضل عليها أنه هو الذي يخرج من البيت، الأصل أنه يخرج من البيت، هي مفضلة عليه أنها سكنٌ له، يجب أن يعود إلى البيت ليرى بيتاً مرتباً، ليرى زوجة تنتظره، ليراها مزينة له، ليرى طعامه جاهزاً، ليرى أولاده في حالة جيدة، ليرى مرافق البيت نظيفة، هي سكن له، الإنسان يتعب كثيراً، أما إذا رأى في بيته راحة، رأى طمأنينة، رأى زوجة مخلصة، تعتني بنفسها، وبأولادها، وببيتها، هي عبادتها الأولى أن تحسن القيام بزوجها وأولادها:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

إذاً فضَّل الله الرجل بكسب الرزق، وفضله بإنفاق المال، وفضله بالقوامة، وفضلها عليه أنها سكن له، ومعنى السكن أن الرجل يكمل لزوجته ما نقص فيه، تنقصه عاطفة جياشة، ينقصه قلب كبير، ينقصه عطف شديد، ينقصه حب، يجد الزوج المؤمن بزوجته المؤمنة ما ينقصه، إذاً هي سكنٌ له، هي مكلفة إذاً، فهذه التي تهمل بيتها وأولادها، وتهمل زوجها، هي أخذت ولم تعطِ، المرأة ينبغي أن تأخذ وأن تعطي، أخذت ولم تعطِ.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

الفرق الكبير عند الموازنة بين حجم دين المرأة و حجم دين الرجل :

كسب المال شيء صعب جداً، بل إن كسب المال الحلال صعب جداً جداً، الحياة معركة أيها الأخوة من أجل أن تكسب رزقاً حلالاً، فتأتي بطعام وشراب وثياب ووقود وعلاج للأولاد المرضى، وبحاجات أساسية للبيت، أنت تبذل جهداً كبيراً، وتدخل في منافسة مع بقية الناس، وبمفاجآت، وبصعوبات، لو وازنا بين حجم دين المرأة مع حجم دين الرجل لوجدنا فرقاً كبيراً جداً جِداً بينهما، المرأة:

((إذَا صَلَّتِ الْمَرْأةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أيِّ أبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

أربعة بنود، أعتقد أن الزوج أمامه مئة ألف بند، ينبغي أن يغض بصره، وأن يحرر دخله، وأن يصدق في البيع والشراء، وألا يغش، وألا يدلس، وألا يكذب، وألا يوهم، وأن يبتعد عن كل علاقة ربوية، أمامه عشرات، بل مئات، بل ألوف الأحكام الشرعية، ينبغي أن يطبقها، ثم عليه أن يعتني بأولاده وزوجته، وتأمين حاجاتهم، وسلامتهم، وتربيتهم، وإيمانهم، ودينهم:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

لذلك لماذا هم يعترضون؟

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

[سورة النساء: 11]

لأنه يكسب المال، وينفق المال، ويعطي المهر، هي تقبع في البيت تربي الأولاد، وتأخذ المهر، وليست مكلفة أن تعطي زوجها شيئاً ولو كانت غنية، هو يعطي، وهي تأخذ، شيء طبيعي جداً أن يكون:

(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

[سورة النساء: 11]

القرآن الكريم رسم أدواراً للذكر والأنثى حينما نحترمها نقطف ثماراً يانعة :

لكن المشكلة أن الإسلام منهج كامل، فإذا أردنا أن نأخذ من الإسلام بعض بنوده، ومن الحياة المعاصرة التي لا ينتظم الإسلام دقائقها بعض البنود نقع في إشكال، فالتي تعمل، وتأتي إلى البيت الساعة الثانية منهكة القوى، أعصابها متوترة، تعاني ما يعاني الرجل من مشكلات في العمل، ومن منافسة، ومن قضايا تحتاج إلى معالجة، ومن تجبر بعض الأشخاص، وغير ذلك... فتأتي إلى البيت منهكة متعبة، وعليها أن تطبخ أيضاً، وعليها أن تربي، فأعصابها متوترة دائماً، لم تعد سكناً له، الآن الدخل من يأخذه، هو أم هي؟ تقول له: هذا لي، وهو لها، لكن لم يأخذ منها كل اهتمامها، أربعة

أخماس اهتمامها لعملها، فهناك تداخل، الحياة المعاصرة فيها تداخل، لو أن النساء كن متفرغات لأزواجهن، متفرغات لتربية الأولاد، حينما تدفع المرأة بابن إلى المجتمع صحيحة عقيدته، صحيح جسمه، سليمة أخلاقه، إنها تقدم أكبر خدمة للمجتمع، بل إن أرقى مرتبة تكتب على بطاقة المرأة في بعض البلاد، أرقى رتبة تكتب على بطاقة المرأة سيدة منزل، إنها متفرغة لتربية أولادها، هذا الطفل سيغدو عالماً، سيغدو قائداً، سيغدو باحثاً، سيغدو مصلحاً، من يربيه في البيت، أيعقل أن يُترَك للطريق؟ لأصدقاء السوء؟ لخادمة لا تفقه في التربية شيئاً؟ لذلك أيها الأخوة حينما تتفرغ المرأة لتربية أولادها تكون قد حققت الهدف الذي من أجله خلقت، للتقريب فقط.

لو قال الطيار: أنا ضقت ذرعاً بهذه الغرفة الصغيرة، ضاقت نفسي، ينبغي أن أكون كالركاب متمتعاً بالحركة، والذهاب، والإياب، والجلوس على مقعد خلف الطائرة، أنت في رقبتك أربعمئة راكب، هنا مكانك الصحيح، أنت حينما تقبع في هذه الغرفة، في قيادة الطائرة، أنت تؤمن السلامة للأربعمئة راكب، ليست هذه الغرفة حداً لحريتك، ولكنها ضمان لسلامة الركاب.

يفهم كثير من الناس أن جلوس المرأة في البيت يعني أنها جاهلة، لا، قد تكون الزوجة في أعلى مستوى ثقافي، وقد تكون في أعلى درجات الإيمان، لكنها متفرغة لزوجها وأولادها، لذلك الابن يتعلم من أمه كل شيء، قالت: يا رسول الله: إن تركتهم إليه ضاعوا، هو لا يربيهم، وإن ضممتهم إلي جاعوا، هو ينفق عليهم، لذلك هناك أدوار رسمها القرآن الكريم، حينما نحترمها نقطف ثماراً يانعة، أما حينما لا نحترمها، ونريد أن تنافس المرأة الرجل في كل شيء تفقد شيئين؛ تفقد السباق، وتفقد أنوثتها:

(وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

لمرأة تكون في أعلى درجات القرب من الله حينما تحسن رعاية زوجها وأولادها :

قال تعالى:

(فَالصَّالِحَاتُ)

أي الزوجات الصالحات.

(قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

قانتة أي متفرغة لله عز وجل، طاعة ربها، وتربية أولادها، والعناية بزوجها، هذا هو قمة نجاحها في حياتها، زواج المرأة كل فصول حياتها، بينما زواج الرجل أحد فصول حياته، فالمرأة التي تعرف ربها، والتي تعرف حق زوجها، وتعرف حق أولادها، وينبغي للرجل أن يعرف حق زوجته، وحق أولاده، فالمرأة التي تعرف المهمة الخطيرة التي أنيطت بها، وأنها في أعلى درجات القرب من الله حينما تحسن رعاية زوجها وأولادها، والحديث أعيده عليكم:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

هذه المرأة عبدت الله فيما أقامها، ماذا أقامها؟ أقامها امرأة، أقام هذا الإنسان عالماً أول عبادة له تعليم العلم، أقام هذا الإنسان غنياً أول عبادة له إنفاق المال، أقام هذا الإنسان قوياً أول عبادة له إنصاف المظلوم، وأقامكِ امرأة أول عبادة لكِ حسن رعاية الزوج والأولاد.

فضل المرأة التي تحسن تربية أولادها ورعايتهم :

هل تصدقون أيها الأخوة أنه ورد في بعض الكتب، كتب الحديث، وهو الأدب المفرد للبخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أول من يمسك بحِلَق الجنَّة أنا))

[مجمع الزوائد عن أبي هريرة]

أي أول إنسان يدخل الجنة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((فإذا امرأة تنازعني ـ عجيب ـ تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهن))

كم هي تربية الأولاد عند الله عظيمة! شهد الله أيها الأخوة أنا حينما أستمع إلى قصة أخت كريمة متفرغة لأولادها، تعتني بأخلاقهم، تعتني بتربيتهم، تعتني بتحصيلهم العلمي، تعتني بصحتهم، تعتني بطعامهم، بثيابهم، بنظافتهم، والله هناك أخوات يأتون بأولادهم إلى المعهد، وينتظرون ثلاث ساعات في الطريق ليضمنوا أن الابن أمسكته يد أمه، وسلمته إلى المعهد، وهي تنتظره ساعات ثلاثاً، تعيده إلى البيت، هذه امرأة، والله أيها الأخوة، المرأة التي تعرف حق زوجها وأولادها، والله قلامة ظفرها تساوي مليون رجل شارد عن الله عز وجل، قلامة ظفرها، وهناك ملمح ذكرته في الخطبة اليوم، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)

[سورة النساء: 32]

حينما تعبد المرأة الله فيما أقامها يمكن أن تصل إلى أعلى مرتبة في الجنة، والرجل حينما يعبد الله فيما أقامه يمكن أن يصل إلى أعلى مرتبة في الجنة، فيا أيتها المرأة لا تتمني أن تكوني كالرجل، ويا أيها الرجل لا تتمنَّ أن تكون كالمرأة، لأن الله هيأ لك أعمالاً صالحة تصل بها إلى أعلى درجة في الجنة، ويا أيتها المرأة، لك أعمال صالحة هيأها الله تصلين بها إلى أعلى مرتبة في الجنة، إذاً العبرة أن تصل إلى الجنة، ذكراً كان أو أنثى.

المرأة الصالحة هي حسنة الدنيا :

قال تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أي ملتفتات إلى الله، منقطعات لله عز وجل، كانت الصحابية الجليلة تقف على باب البيت قبل أن تودع زوجها، تقول له: اتق الله فينا، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، كم من زوجة الآن تضغط على زوجها إلى أن تحمله على كسب المال الحرام، إلى أن تحمله على أن يرتشي من أجل أن يلبي غرورها، تبدل فراش البيت، تقول له: اتق الله فينا، نحن بك، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، ولا تقوم إلى صلاة الليل حتى تستأذن زوجها، تقول له: ألك بي حاجة، وكم من امرأة تهمل زوجها، وتجلس عند بناتها أسابيع وأسابيع، ولا تعبأ بزوجها، ولا بطعامه، ولا بشرابه، ولا براحته، هناك تقصير كبير، هذا الفساد الذي ترونه من تطلُّع الأزواج إلى غير زوجاتهم هو بسبب تقصير الزوجات، وهذا الفساد الذي ترونه من تفلت الزوجات بسبب تقصير الأزواج، لو أن الزوج عرف مهمته، وعرفت مهمتها، وتعاونا على تأسيس عش مسلم ينتج عناصر مؤمنة للمجتمع لكنا في حال غير هذا الحال:

(فَالصَّالِحَاتُ)

فهذه المرأة الصالحة هي حسنة الدنيا، قال تعالى:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً)

[سورة البقرة: 201]

خير النساء :

قيل: ما حسنة الدنيا؟ قيل: هي المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها سرتك، بعضهم يظن أن الجمال وحده هو سبب سعادة الزوج، الحقيقة المرأة لها عدة مقومات، أحدها الجمال، أما حينما يسعى الإنسان إلى مقوم واحد إلى الجمال البدني فقط، وينسى الإخلاص، وينسى التقوى، وينسى خوف الله، وينسى الصدق، وينسى الأمانة، وينسى الحكمة، وينسى المنبت الراقي، يقع في وهم كبير، لأن هذا المقوم البدني عمره قصير، وسريعاً ما يزول هذا الجمال، ثم سريعاً ما يزول تأثيره بالزوج، هو يزول سريعاً، وقد يسبق زواله نقص تأثيره في الزوج، فكل إنسان يسعى فقط إلى هذا المقوم دون غيره، فبعد حين يألف هذا الشكل، ثم يفاجأ بعدم الصدق، وعدم أمانة، وعدم التربية، وعدم الإخلاص، فضَاحة، تتحدث عن زوجها بما تريد في غيبته، لا تشكره، إن أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً قالت: لم أر منك خيراً قط، فما الذي حمله على الزواج منها؟

مقوم واحد، إنه شكلها، ثم اكتشف أن شكلها بدأ بالتناقص، أو بدأ تأثيره بالزوال، وبقيت أخلاقها السيئة، ورفع صوتها عليه، ولؤمها، وإهمالها لأولادها، وطلبها للمظاهر الفارغة.

ورد في بعض الآثار: من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، فعليك بذات الدين تربت يداك، أنا أقول لكم أيها الأخوة، وأنصح الشباب المسلمين على الزواج، ألصق شيءٍ في حياتك زوجتك وعملك، فإذا وفقت فيهما فقد وفقت في خير الدنيا والآخرة، إنها حسنة الدنيا، التي إن نظرت إليها سرتك، في رواية التي إن نظرت سرتك، ليس لها، دخلت إلى المطبخ فإذا هو نظيف، نظرت إلى أولادك يرتدون ثياباً نظيفة، نظرت إلى غرفة النوم مرتبة، نظرت إلى الجدران نظيفة، نظرت إما إليها أو نظرت سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، صدقوني أيها الأخوة، ما من سؤال يأتيني من حيث الكثافة كسؤال أنه حلف عليها ألا تفعل ذلك، فلا بد أن تكسر يمينه، ليس لها شهوة إلا أن تكسر يمينه، ولسبب تافه؛ لا تذهبي إلى بيت أختك، تضحي بزوجها، وتضحي بارتباطها بزوجها، يقع الطلاق، لا بد أن تكسر كلامه، وأن تذهب إلى بيت أختها:

((خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك))

[أبو داود عن أبي هريرة]

مالك محفوظ، يكون في البيت حاجات غالية جداً، وأنت دخلك محدود، يأتي أهلها فتعطيهم من دون إذنك، تأخذ بلا أذن، تحفظ مالك في غيبتك، وتحفظ نفسها في غيبتك.

المرأة المؤمنة تحفظ نفسها وفق منهج الله :

إذا كان عند إنسان زوجة وذهب إلى عمله ذهب مطمئناً إليها، فهذه من نعم الله الكبرى، من نعم الله الكبرى أنها لا تكذب، من نعم الله الكبرى أنها أمينة، من نعم الله الكبرى أنها ترعى مال زوجها قال:

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ)

يعني يحفظن أنفسهن في غيبة أزواجهن، والله مرة كنت آتياً بالطائرة من بلد بعيد، ووراء مقعدي امرأة كلها تفلت في الحديث، وفي الثياب، منقطع النظير، المسافة طويلة، ساعات طويلة عشر ساعات، ويجلس بجانبها إنسان لا تعرفه ولا يعرفها، حديث، ومزح، وضحك، ومباسطة لا تكون إلا بين زوجين، وهو أجنبي، وصلنا إلى المطار ارتدت معطفاً، ووضعت على رأسها خماراً، واستقبلها أهلها وهم محجبون، إذاً العبرة أن تحفظك في غيبتك، حالات كثيرة إذا غاب الزوج لم يعد في البيت قيد يفتح الباب على مصراعيه، بثياب مبتذلة، أين الورع؟ من هي المرأة المؤمنة قال:

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

هنا المعنى الدقيق:

(حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ)

لا باجتهادها مثل: هذا أخي، لا ليس مثل أخيك:

(بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

الاجتهادات السخيفة من الناس: هذا مثل أخي، تربينا معاً، لا فرق بيني وبينه، يجب أن تحفظ نفسك وفق منهج الله، هذا أجنبي لا يجوز أن يدخل عليك في غيبة زوجك.

على المرأة أن تحفظ زوجها وفق منهج الله وليس باجتهادها الشخصي :

قال:

(حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

أي وفق منهج الله هذا أجنبي، هذا محرم، حتى المحرم نرتدي ثياب الخدمة، الثياب المحتشمة، لا الثياب الشفافة، ويقوم في البيت بثياب فاضحة، يجب أن تحفظ المرأة زوجها وفق منهج الله وليس باجتهادها الشخصي:

(حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

أيها الأخوة الكرام، هناك نقطة دقيقة أرجو الله أن يوفقني بشرحها، في الحياة قانون هو الإدراك، ثم الانفعال، ثم السلوك، هذا قانون، تمشي أنت في بستان، رأيت أفعى، أنت تعلم أن الأفعى سمها قاتل، وسمعت عن هذا عدة قصص، وفوق ذلك عندك مفاهيم قديمة عن الأفعى، ولك مشاهدات، فحينما رأيت الأفعى أدركت أنك في خطر، بعد الإدراك يأتي الانفعال، تخاف، بعد الانفعال يأتي السلوك، أبداً، لا يمكن أن تسلك إلا إذا انفعلت، ولا يمكن أن تنفعل إلا إذا أدركت.

مرة قال لي طالب: إنه لا يخاف من الله، قلت له: معك حق، استغرب الطلاب، قلت له: أحياناً الأخ الكريم المزارع يذهب إلى المزرعة، يأخذ معه طفلاً صغيراً يضعه بين القمح، يأتي ثعبان طوله عشرة أمتار، فلا يخاف منه، ليس فيه إدراك، فليس فيه خوف طبعاً، فالذي لا يخاف الله لا يعرف الله إطلاقاً، فأنت لا تتحرك إلا إذا انفعلت، ولا تنفعل إلا إذا أدركت، الآن منهج الله عز وجل أين يحاسبنا؟ على البند الثالث فقط، أنت تمشي في الطريق، شاهدت بيتاً جميلاً جداً، أدركت أن البيت جميل، موقع ممتاز، بناء فخم، له إطلالة جميلة، تمنيت أن يكون لك هذا البيت، هل تحاسب على أنك استوعبت جمال هذا البيت؟ لا طبعاً، تحاسب؟ لا تحاسب، هل تحاسب على أن يكون لك هذا البيت؟ لا تحاسب، أما إذا دخلت إلى البيت من دون إذن أهله تحاسب، أصبحت سارقاً، متى تحاسب؟ على السلوك، إلا مع المرأة، هنا الشاهد، مع المرأة.

في علاقة الرجل بالمرأة الإنسان محاسب عن أول خطوة :

أنت قد تنظر إلى وردة جميلة جداً، استوعبت أنها جميلة، لكن لم تقطفها، لم تدخل إلى صاحب الحديقة، وتقطفها من دون إذنه، أنت لا تحاسب إلا على العمل، إلا مع النساء فتحاسب على أول بند، على النظر، السبب لأنه في أجهزة بالجسم حينما تنظر تتحرك هرمونات معينة، ويحدث ما يسمى بالإثارة، فأنت إذا نظرت، فالنظر قادك قسراً إلى الانفعال، والانفعال قادك قسراً إلى السلوك، في علاقتك بالمرأة أنت محاسب عن أول خطوة، نحن بكل حياتنا أول خطوة معفى عنها، ثاني خطوة معفى، الثالثة محاسب، أحدهم رأى شيئاً جميلاً، لم يتكلم كلمة، استوعبه، وانفعلت نفسه به، لكن ما تحرك، لا يحاسب، أما إذا نظر إلى المرأة، وانطبعت صورتها في مخيلته، ففي أجهزة معينة تتحرك هرمونات كلها مع الحركة، فصار الرجل في شهوة، ومع الشهوة صارت حركة سلوك، لذلك بمنهج الله عز وجل لا يمكن أن تكتفي بالسلوك الثالث، لا بد أن تغض بصرك عن محارم الله، من هنا قال الله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور: 30]

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

أيضاً هذه القسم الثاني من الآية يحتاج إلى تأنٍّ في الشرح، لأن معالجة مشكلات الأسر تتم وفق هذا المقطع من الآية.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(18-69): تفسير الآيتان 34 - 35، علاج نشوز الزوجة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-06-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى كلمة (ناشز) :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

شرح في الدرس الماضي بعضها، وسوف أشرح بتوفيق الله بقية هذه الآية.

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

النشوز: الارتفاع، أرض ناشز: أرض مرتفعة، نغم ناشز نغم خارج عن الأنغام المألوفة، فالمرأة حينما يخاف زوجها أن تنشز، أي أن تعصيه أو تعصي ربها، أو تسيء العلاقة بينها وبينه، حينما تعصي الله فلا تتحجب، أو لا تصلي، أو تسمح لأجنبي أن يدخل إلى البيت في غيبة الزوج. أذكر أمثلة لئلا يتوهم الزوج أن أي مخالفة بسيطة تقتضي هذه المعالجة.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

أي أن يستعلين على طاعة الأزواج.

الله سبحانه وتعالى بحكمته هيأ الزوج ليكون صاحب القرار :

في بداية الآية قال تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

هذه المؤسسة التي هي الأسرة فيها مساواة كاملة بين أفرادها، وفيها حب وتقدير وكرامة، لكن هذه المؤسسة تحتاج إلى قائد، وصاحب قرار، وتحتاج لإنسان واسع الأفق، حريص على هذه المؤسسة، أن يقول في الوقت المناسب لا، وأمره نافذ، فالله سبحانه وتعالى بحكمته هيأ الزوج بقدراته العقلية وصفاته النفسية وخصائصه الاجتماعية والجسدية، وبما أنفق من ماله أن يكون صاحب القرار،

وقواماً على هذه الأسرة، فالمرأة التي تأبه أن تنصاع لأمر صاحب القرار، وتقف نداً له تريد أن تضعف سلطته، وتعصي أمره، إنها في هذه الحقيقة تعصي الله عز وجل، فعَنْ قَيْس بْن سَعْدٍ قَال:

((أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ))

[أبو داود عَنْ قَيْس بْن سَعْدٍ]

فنظام المسلمين في شأن الأسر أن هذه الأسرة لها قائد هو الزوج، ليس معنى كلامي هذا أن الزوج يستخدم هذه السلطة استخداماً تعسفياً، لا، ليس معنى هذا أن الزوج يتعالى على زوجته ليست هذه حكمة الشارع، لا أن يتعالى، ولا يستبد، ولا يستخدم هذه المكانة التي وضعه الله فيها استخداماً فيه ترفع، وفوقية، وتحكم، وإذلال، وتعسف، هذا النموذج لا علاقة له بهذه الآية، ولا بهذا القرآن.

الزوج المؤمن الذي يريد أن يقيم الإسلام في الأسرة ينبغي أن يُطاع :

الزوج المؤمن الذي يخاف الله الحريص على أسرته، على علم أسرته، وأخلاق أسرته، ومستقبل أسرته، ومستقبلهم الديني، ومصيرهم الأبدي، هذا الزوج المؤمن الذي يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما نهى عنه، هذا الزوج المؤمن الذي يريد أن يقيم الإسلام في الأسرة ينبغي أن يُطاع، لكن زوجاً ما أمر بمعصية نقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان زوجاً، وأكبر دليل أن الله ضرب لنا مثلاً في امرأة فرعون، إنها صدِّيقة، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

فرعون بكل جبروته، وقوته، وادعائه الألوهية لم يستطع أن يحمل زوجته على أن تعتقد به كما يعتقد رعاياه، ولا أن تطيعه كما يطيعه رعاياه. المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، بمعنى أن الله لا يقبل منها يوم القيامة أن تقول: هكذا يريد زوجي، ماذا أفعل؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن لو أن هذا الزوج المؤمن أمرك أن تربي أولادك، وتقومي على رعايتهم، وأمرك أن تتحجبي،

أو ألاّ تدخلي أحداً إلى بيته في غيابه، أو أمرك ألاّ تظهري من زينتك إلا لمحارمك، أمرك بأمر الله، وأن تقتصدي في الإنفاق، أمرك أن هذا المال قوام الحياة فلا ينبغي أن ينفق على مظاهر الحياة، بل على حقيقتها، فحينما يهب الله الزوج رؤية عميقة، وبعيدة، وحكمة واسعة فينبغي للزوجة أن تطيع زوجها، فقال تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

المرأة التي تستنكف أن تطيع الله وزوجها حينما يأمرها بالمعروف هي امرأة ناشز :

أما المرأة التي تأبى وتستنكف عن طاعة زوجها، أمرها أن تتحجب فأبت، أذكر لكم حالات تتناسب مع النشوز، أمرها ألاّ تدخل أحداً في غيبته فأدخلت، أمرها أن تحتجب عن ابن عمها فلم تحتجب، أمرها ألاّ تخلو بأجنبي فخلت، أبت على الله أن تطيعه، وعلى زوجها أن تطيعه فيما أمر الله، لو تلقت أمراً فيه معصية لله فلها أن تقول بملء فمها لزوجها: لا أطيعك في معصية، بل إن الصحابية الجليلة كانت إذا ودعت زوجها تقول له: نحن بك فاتق الله، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام، هكذا كانت الصحابية الجليلة تنصح زوجها، أما إذا رأينا زوجة تعاند زوجها، ولا تطيع أمره إلا إذا أرضى غرورها كي تفتخر على بنات جنسها، أنا أقول هذه الآية موجهة للمؤمنين والمؤمنات، لزوج مؤمن يعرف الله في قلبه رحمة وإنصاف، يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما نهى الله عنه، يريد أن يقيم الإسلام في بيته، فإذا أبت الزوجة أن تتحجب، وأن تستقيم على أمر الله في غيبة الزوج فهذه امرأة ناشز، متأبية، أي ارتفعت، ولم تخضع لأمر الله، واستعصت كما فعل إبليس، استنكف أن يطيع الله عز وجل، فالمرأة التي تستنكف أن تطيع الله وزوجها حينما يأمرها بالمعروف بأمر الله، وبما تعارف الناس عليه: اطبخي، لا أطبخ، اشتري من المطعم، نظفي، لا أنظف، ربي أولادك، لا أربيهم، دعهم للخادمة، اجلسي في البيت، لا أجلس، لا تخرجي بغير إذني، تخرج، لا تذهبي لبيت فلان، تذهب لعنده، هذه امرأة ناشز، قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

والله أيها الأخوة، هناك في هذه الآية ملمح دقيق جداً، ما قال الله عز وجل: واللاتي ينشزن، تخافون نشوزهن، قبل أن يقع الشيء ينبغي أن تنتبه إليه إن رأيت بوادر منه، مشكلة المسلمين اليوم حينما ينحرف ابنه يصحو! أين كنت؟ حينما يؤتى به ليتسلم ابنته من مكان لا يرضي الله يصعق! أين كنت، يوجد ملمح بالآية، ينبغي أن تراقب، وينبغي أن تكون عينك ساهرة، ينبغي أن تتابع، وتحقق، وتضبط إذا بدا لك بوادر نشوز تبدأ هذه المعالجة، لكن بعد أن يقع النشوز هنا المشكلة، العادة الآباء والأمهات تقع المشكلة الكبيرة في بيوتهم بعد أن تقع يتنبهون، أين كنتم قبل أن تقع هذه المشكلة؟ هناك بوادر هل تعرف من يصاحب ابنك؟ هل تعرف هذه البنت إلى أين ذهبت؟ تقول: إلى

صديقتي، هل تأكدت من هذا وأوصلتها، أو اتصلت هاتفياً بصديقتها؟ كيف، إلى أن تقع الطامة نصعق! لا!

توجيه الله تعالى الإنسان لمعالجة الأمر من بدايته وليس بعد أن يستفحل :

قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ينبغي أن تكون متيقظاً حذراً مراقباً محققاً مدققاً، الأبوة مسؤولية كبيرة جداً، صدقوني أيها الأخوة، لو ملكت أموال الأرض، وكنت في أعلى منصب في الأرض، وكنت أغنى الأغنياء، وأقوى الأقوياء، ولم يكن ابنك امتداداً لك، إن لم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، ابنك أو ابنتك، ففي هذا الملمح:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

قبل أن تنشز ينبغي أن تعالج، وقبل أن تنحرف، وتختلط بأجنبي، قبل أن ترفض الحجاب يجب أن تعالج الأمر في بدايته.

الآن في الطب أمراض كثيرة جداً، حين ننتبه إليها في بدايتها يكون علاجها مضموناً، واحتمال الشفاء بالمئة خمسة وتسعون، أما حينما نتنبه في وقت متأخر، بعد أن يستفحل فالأمل في الشفاء يصبح معدوماً، فالله عز وجل يوجهنا، فلا ينبغي أن تهملوا وتغفلوا، ولا تدققوا، ولا تحققوا، ولا تراقبوا إلا عند وقوع النشوز والانحراف، هذا خطأ فاحش.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ماذا تفعل أيها الزوج؟ بوادر معصية، لا تعبأ بالصلاة، لا تتحجب، تفتح الباب على مصراعيه، تستقبل من أقربائها من تشاء في غيبتك، وقد يكون أجنبياً، ولو كان ابن عمها، لم يقع شيء، لكن هناك تقصير وإهمال، لا تعبأ هذه الزوجة بشرع الله.

المرأة الطاهرة المؤمنة العفيفة ينبغي أن تحفظ غيبة زوجها وفق منهج الله :

كيف ذكرت في الآية السابقة:

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

يحفظن أزواجهن في غيبتهن لا وفق مزاجهن بل وفق شرع الله، كم من امرأة تقول: هذا مثل أخي، وقد تربينا سوية، ماذا جرى؟ هي تتوهم أنها تحفظ غيبة زوجها، ولكن وفق مزاجها لا وفق منهج الله عز وجل، المرأة الطيبة الطاهرة المؤمنة العفيفة ينبغي أن تحفظ غيبة زوجها في نفسها، وفي بابه بحفظ الله، أي وفق منهج الله:

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾

[سورة الأحزاب: 32]

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾

ماذا ينبغي أن تفعل؟ الذي يفعله المسلمون أن يغفل، ويهمل، ويتعامى، ولا يعبأ، ولا يأبه حتى تقع الطامة الكبرى، فإذا وقعت الطامة الكبرى يريد أن يقتلها، أو يطلقها! أنت تمشي في طريق غير صحيح.

الموعظة أول طرق معالجة النشوز :

قال تعالى:

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴾

ما هي الموعظة؟ أجمع العلماء على أن الموعظة ينبغي أن تختار لها الوقت المناسب، إنسان غاضب لو وعظته لا نفجر، إنسان متوتر لو وعظته لتطاول عليك، إنسان مقهور ومتضايق، الموعظة بالدرجة الأولى تحتاج لوقت مناسب، في ساعة سرور، وانسجام، ورضى، ومباسطة، في ساعة فيها راحة نفسية.

شيء آخر، أضرب لكم مثلاً: لو أن ابناً تشكو منه أمه أخبرت الأب فجاء بهدية لابنه، فلما تملك الهدية فرح فرحاً شديداً، فصار متعلقاً بالأب، ثم يقول له الأب: يا بني شكت لي أمك، ولو كنت علمت شكواها لما كنت أتيت بهذه الحاجة، الابن يتقبل هذه الملاحظة، لأنه أكرمه، حينما تكرم إنساناً فلك أن توجهه وتعظه. فأنا أرى الزوج إذا أراد أن يعظ زوجته لا بد أن يقدم لها شيئاً يملك به قلبها، لا بد من عمل طيب، أو هدية، أو لطف، أو رفق، أو ابتسامة، أو مؤانسة، أو عطف، أو محبة، أو خدمة، فحينما تملك قلبها بإمكانك أن تعظها قالوا: الإحسان قبل البيان، والقدرة قبل الدعوة، إن لم تكن قدوة كيف تعظها؟ إذا كنت عصبياً فإذا توترت أعصابك تكلمت كلاماً لا يليق بك، أنت لست مؤهلاً أن تعظها، لن تستطيع، لو كنت شهوانياً، أو أطلعت زوجتك على انحراف لك لا يرضي الله فلن تستطيع أن تعظها، انتهيت، وانتهى دورك كواعظ، لن تستطيع أن تعظها إلا إذا كنت أنت قدوة لها، لن تستطيع وعظها إلا إذا كنت مستقيماً عفيفاً، أو كنت كبيراً أمامها بعلمك، وأخلاقك، وأدبك، وموضوعيتك، وعطفك، ورحمتك، كلمة (فعظوهن) أعلم أن آلاف الأزواج حينما يعظون زوجاتهم يفاجؤون بتعال، واستطالة، ورفض لهذا الموعظة، ما السبب؟! لأنه ليس قدوة لها، وليس ملتزماً بما يعظها، ولأنه ليس مطبقاً للشريعة، فكيف يعظها وفاقد الشيء لا يعطيه.

لذلك لن تستطيع أن تعظ أحداً إلا إذا كنت قدوة له، وإذا كان فعلك مطابقاً لقولك. فإذا قال الله تعالى:

﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾

أي كونوا قدوة ومنصفين وكملاً، عندئذ تستطيع أيها الزوج أن تعظها وقد ملكت قلبها بهدية، أو بطيب معاملة، أو بابتسامة حارة، أو بمعاملة إسلامية، أو بأن ترحمها، إذا رحمتها وقدمت لها هدية، ورأت منك كمالاً واستقامة تقبل منك هذه الموعظة، ولا تقولوا كلمة واحدة.

(فَعِظُوهُنَّ)

فالموعظة لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا إذا خرجت من قدوة، أو مثل، أو من إنسان أخلاقي، عفيف، صادق، أمين، هذه دعوة إلى الأزواج أن يتحلوا بالكمال قبل أن ينصبوا أنفسهم وعّاظاً لزوجاتهم،

إن لم تنجح الموعظة فيجب هجرها في المضاجع :

قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)

لو أن امرأة سيئة فاسدة على الرغم من موقف زوجها، من علمه وأخلاقه، وهو قدوة لها ومثل، وجاءها بأمر طبيعي، وموعظة رقيقة، وفي ساعة مناسبة، وقدم بين هذه الموعظة هدية فلم تعبأ لا بهديته، ولا برقته، ولا بكماله، ولا بمثاليته. معالجة هذه الزوجة عن طريق الموعظة لم تنجح، وهذا الدواء لم يؤثر، ماذا نفعل في هدي القرآن الكريم؟ قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

لا بد من حديث دقيق في هذا الموضوع: الحقيقة طبيعة الرغبة عند الزوج تختلف عن طبيعة الرغبة عند الزوجة، بشكل مختصر هي أكثر صبراً على هجرانه منه على هجرانها، هذه حقيقة، لأن طبيعة الغريزة فيه تثار بسرعة، فإذا أثيرت فلا بد أن تنتهي النهاية المعروفة، أما هي فلا تثار إلا ببطء شديد، ويمكن إذا استثيرت أن تحرص على متابعة الأمر، من أقدر على الهجر بشكل واقعي؟ الزوجة أقدر على الهجر! فكيف يقول الله عز وجل:

(وَاهْجُرُوهُنَّ)

عقاب للزوج لا للزوجة، سلاح المرأة الوحيد رغبة الزوج بها، هذا سلاحها الفعال، فإن كنت رجلاً، واستطعت أن تهجرها، وألا تعبأ بحاجتك إليها عندئذ قد تخضع، تدريب قرآني للزوج، هي أصبر على الهجران منك، وأنت أقل صبراً منها، طبيعة رغبتك تختلف عن طبيعة رغبتها، إنك تستثار بسرعة، فإذا استثرت لا بد أن تفعل، بينما هي تستثار ببطء، وإذا استثيرت يمكن ألاّ تفعل، هي أقدر.

الحكمة من الهجر في المضاجع وليس خارج الغرفة :

كيف يأمرك الله أيها الزوج أن تهجرها، وهو عقاب لك وليس لها؟ هي سلاحها الوحيد أنك بحاجة

إليها، وأن رغبتك قوية في القرب منها، فإذا كنت رجلاً، وأريتها أن هذه الرغبة التي تتوهمها أنها قوية عندك فلا قيمة لها عندك، عندئذ تخضع! لكن قال: أين تهجروهن؟ هنا روعة القرآن الكريم، لو هجرتها إلى غرفة أخرى لعرف الأولاد المشكلة، وانكشف الأمر، وتدخلوا، لو هجرتها لبيت آخر لعرف الأقرباء المشكلة، إما أن تبقي المشكلة بينك وبينها، وإما أن تدخل بها أولادك وبناتك، وإما أن تدخل بها أقربائك.

الحقيقة الأولى في العلاقة الزوجية أنها كلما اقتصرت على الزوجين سهل حلها، وكلما استشرت إلى ما بعد الزوجين إلى الأولاد أو الأقرباء تأخر حلها كثيراً، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق: 1]

فيما أتصور أن أكبر مشكلة إذا بقيت بين الزوجين فقط سريعاً ما تصغر إلى أن تنتهي بالوفاق، وأصغر مشكلة إذا خرجت من حدود الزوجين لحدود الأولاد والأقرباء حدث تدخل خارجي أصبحت الزوجة عنيدة والزوج أشد عناداً، عندئذ صار الطريق طويلاً، لأن كل طرف من أطراف الزوجة يلقي في روعها: لا ترجعي إليه، يليق بك زوج أفضل من هذا، وهو يلقي في روعه أيضاً: هذه الزوجة ينبغي ألاّ تبقي عليها، ليست صالحة، أصغر مشكلة بين الزوجين إذا خرجت من البيت أصبحت أكبر مشكلة، وقد تنتهي إلى الطلاق، وأكبر مشكلة إذا بقيت بين الزوجين قد تحل وتنتهي بالوفاق لذلك:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق: 1]

الحل الثالث لهذه المشكلة الضرب غير المبرح :

التوجيه هنا أدق، ليست القضية قضية بيت، قضية غرف نوم، لا ينبغي للزوج أن يهجر زوجته في غرفة أخرى، ولا في بيت آخر، في غرفة أخرى اكتشف الأولاد المشكلة، البنت مع أمها دائماً، في بيت آخر اكتشف الأقرباء المشكلة قال:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

في السرير الواحد، هي إلى جانبك، وهي زوجتك أعطها ظهرك، وامتنع عنها حتى تعلم أن شهوتك ملك يديك، وتحت قدمك، وأنك يمكن أن تستغني عنها إلى أمد طويل، حينما تكتشف أن سلاحها الفعال لا جدوى منه لعلها تخضع، هذا الحل الثاني، الحل الأول أن تكون قدوة، عفيفاً، منصفاً، رحيماً، وتختار وقتاً مناسباً، وتقدم للموعظة بهدية تملك قلبها، افتح قلبها بهدية قبل أن تعظها، فإن لم تنجح الموعظة ينبغي أن تهجرها في الفراش، في المضاجع، لا في غرفة أخرى، أو بيت آخر.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

أنا مضطر لأن أقدم بأمثلة كثيرة لهذه الكلمة في هذه الآية، لأن أعداء المسلمين يعدونها مأخذاً علينا في الدين، أقدم لكم بأمثلة:

إذا كان عندك يتيم، لا أب ولا أم، وهو في محلك التجاري، وسرق، فأبسط حل أن تطرده، لكنك إذا ضربته، وأدبته، وأبقيته عندك في المحل، وراقبته إلى أن كبر، وصار صالحاً، وزوجته أنت حولت إنساناً من سارق مجرم إلى إنسان طيب، فهل هذا الضرب لصالحه؟ لو طردته لدخل السجن، أما أنت فأبقيته عندك في المحل، وأدبته، وراقبته إلى أن أصبح شاباً صالحاً زوجته، نقلته من مجرم إلى إنسان صادق خيِّر بهذا الضرب.

نشزت امرأتك، رأيت في بيتها رجلاً، ابن عمها، وقد منعتها أن تدخله إلى البيت في غيابك، فأنت بكل بساطة تطلقها، إن طلقتها انحرفت، أما إن أبقيتها، وأدبتها، ثم أصلحتها فلك أجر كبير.

القصد من الضرب أن تشعر المرأة أنها في مكانة صغيرة عندك :

قال علماء التفسير: هذه الحلول الثلاثة ممنوع أشد المنع أن تبدأ بالضرب، قدمت هدية، ووعظتها بأحلى كلام، وألطف طريق، وأنعم أسلوب، وملكت قلبها، فلم تنصع لك ولم تستجب، هجرتها في الفراش، وأقنعتها أنك مستغن عنها، ولم تأتمر بأمرك، ولم تنصع للحق، وقيل: ليس لازماً بل مباحاً، إن رأيت من الحكمة أن تضربها ضرباً غير مبرح لا تكسر عظماً، ولا تسل دماً، ضرباً يشعرها أنك لست راضياً عنها، فإن صلحت انتهى الأمر، وآخر الطب الكي.

أعود وأكرر، لو تصورت أن هذه المرأة الناشز التي انحرفت، وارتكبت مخالفة كبيرة في الشرع، وأبت أن تنصاع لحكم الله، وأبت أن تنصاع لأمر زوجها الذي يطابق حكم الله عز وجل، ووعظتها فلم تتعظ، وهجرتها فلم ترتدع، وأيقنت أنك إذا ضربتها خرج منها شيطانها، إن ضربت ضرباً لا يؤذي تجتنب الوجه، والضرب المتكرر في موضع واحد لئلا يؤذي وتجتنب الضرب المؤذي، القصد من الضرب أن تشعرها أنها في مكانة صغيرة عندك. قال بعض العلماء: أن تضربها بالسواك أخذاً من قول النبي عليه الصلاة والسلام: حينما أرسل خادماً، وتأخر كثيراً فغضب النبي عليه الصلاة والسلام غضباً شريفاً، فلما عاد هذا الخادم قال: أين كنت؟ فذكر قال:

((والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[ورد في الأثر]

الضرب المبني على حقد، وانتقام، وعلى قسوة، وقلب كالحجر منهي عنه، لكن هذه المرأة لا تستجيب لأحد.

والله أيها الأخوة، عشرات الأخوة يقولون لي: تفعل زوجتي هكذا، أين أمها وأبوها؟ لا تعبأ بهما، حالة انحراف، وشذوذ، ونشوز، تقف وتعترض طريق الحق، تأمر ابنك بالصلاة، إنه نائم، دعه

نائماً، هذا يقع كل يوم، ترفض أن توقظ ابنك للصلاة، قد تذهب البنت إلى مكان لا يرضي الله، ترفض أن تمنعها، هذه امرأة ناشز، ينبغي ألاّ يفهم الأزواج أن الأكل إذا تأخر فهي ناشز، لا، إذا لم تهيئ حاجاتك كاملة فهي ناشز، ليس هذا هو المعنى، حينما تنحرف، وتخرج عن منهج الله، وتتأبى أن تطيع الله، وترفض أن تتحجب، وتحمل بناتها على الفجور، اذهبن لأي مكان تردنه، فهذه زوجة ينبغي أن تعامل هذه المعاملة.

إذا أطاعت الزوجة زوجها فقد استجابت لأمر الله :

قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

إنسان ضرب زوجته ضرباً مبرحاً في بريطانيا، فلما اشتكت إلى قاضي بريطاني استدعاه فقال له: نحن في كتابنا المقدس الله يأمرنا أن نضرب الزوجات، أساء إلى الدين إساءة ما بعدها إساءة، هذا الضرب له مقدمات، ومبررات، وأسباب، وله شروط، وقد يستغنى عنه، والأولى أن تستغني عنه، القاعدة أنك أمام مشكلة، كلما استطعت أن تعالجها بأسلوب أخف ينبغي أن تعالجها بأسلوب أخف، ولا تنتقل إلى الأشد إلا عند المعاندة، الطبيب هكذا يفعل، إذا كان هذا المرض يشفى بحبة مستواها خمسمئة ينبغي ألاّ تعطيه حبة عيار ألف، تتصاعد في الدواء، فأول حل عظوهن، والحل الثاني اهجروهن في المضاجع، واجعل المشكلة في أضيق حيز بينك وبينها فقط في غرفة النوم، والحل الثالث اضربوهن قال:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً)

أطاعتني لكن لا تحبني، هذا لا يهم، ليس لك علاقة بالموضوع الداخلي أبداً، والله يحاسبك، ولك منها طاعتك، أطاعتك، وتحجبت، وصلت، وأمرت ابنتها أن تصلي، واستجابت لأمر الله.

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً)

الآية التالية تهديد للأزواج حتى لا يظلموا زوجاتهم :

لكن انظروا إلى التهديد الإلهي قال:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

إن ظلمتها، أو افتريت عليها لتأخذ بعض ما أتيتها، أو تأخذ ما عندها، أو تفكر في شيء آخر، وافتعلت هذه المشكلة، وضربتها فتوقع أن الله سوف يعاقبك أشد العقاب:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

هذا تهديد للأزواج، هذه امرأة، لو بدت لك أنها ضعيفة، لكن الله معها، وإذا أراد الله أن ينتقم من الزوج جعله يبكي أمام الرجال، أفقره، وأهانه حتى يبكي:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

آخر فقرة في الآية تهديد للأزواج، أيها الأزواج إياكم أن تستعملوا حقكم بشكل تعسفي.

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

أيها الأخوة:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

كما ذكرت آخر فقرة في الآية تهديد من الله للأزواج أن يفتعلوا مشكلة، أو يظلموا امرأة ضعيفة، أو يدّعوا ما ليس هو واقع.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

على كل زوج أن يعلم أن الله أقدر عليه منه على زوجته :

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَاماً لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتاً: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ: أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ))

[مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ]

يجب أن يعلم كل زوج أن الله أقدر عليه منه على زوجته، هناك أمراض تجعل حياة الزوج جحيماً لا يطاق، هناك فقر مذل، ومرض مفند، وهرم لا يحتمل، أقرب الناس إليك يتمنى موتك.

أيها الأخوة، آخر فقرة في الآية تهديد من الله عز وجل، هذه المرأة التي تراها ضعيفة، الله عز وجل قادر على أن يحرمك منها، وينتقم منك انتقاماً لا يوصف، فقبل أن تفتري على الزوجة، وتستخدم هذا الحق الشرعي في القوامة استخداماً تعسفياً عد للمليون قبل أن تفعل ذلك، وفي درس آخر إن شاء الله ندخل في الحل الثاني:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

صار الطريق مسدوداً، لا الموعظة أجدت، ولا الهجران في الفراش، ولا الضرب أجدى، فصار الطلاق على قاب قوسين أو أدنى، قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(19-69): تفسير الآية 35 ، الإصلاح بين الزوجين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-07-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الرجال ليسوا أفضل من النساء لكنهم أكثر حملاً منهن :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية مرتبطة أشد الارتباط مع الآية التي قبلها، فالآية التي قبلها يقول الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

شاءت إرادة الله في نظام الزوجية أن يكون الرجل صاحب القرار، لأن الله هيئه فكرياً، وجسمياً، واجتماعياً، ونفسياً ليكون قائد المركبة، أو قائد هذه الأسرة، وشاءت إرادة الله أيضاً أن تكون المرأة على أنها مساوية للرجل تماماً بالتشريف، والتكليف، والمسؤولية، شاءت إرادة الله عز وجل أن تكون المرأة تابعة للرجل في العلاقة الزوجية والأسرة، لما هيأه الله به من خصائص فكرية، واجتماعية، ونفسية، وجسمية، هذا هو التصميم الإلهي:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

والرجال ليسوا أفضل من النساء، لكنهم أكثر حملاً منهن، هذه الكلمة الرائعة قالها سيدنا عمر حينما قال: لست خيراً من أحدكم لكني أثقلكم حملاً، معنى قوامون؛ شديدو القيام، مسؤولون أمام الله عن زوجاتهم، وعن أولادهم، وعن بناتهم، وعن تزويج بناتهم، وعن مراقبة الأسرة، وعن كل خصائصها.

التفضيل لا يقتضي الأفضلية ولكن قد يكون التفضيل لحكمة أرادها الله عز وجل :

وصف الله الصالحات بأنهم حافظات للغيب بما حفظ الله، وفق منهج الله عز وجل، هذا هو الأصل، لو أن أسرة لم تكن كذلك، المرأة لم تخضع لحكم الله، أنا أقول: لم تخضع لحكم الله، إذا أمرها زوجها بطاعة الله، أما لا تخضع لمشيئة الرجل غير المنضبطة بمنهج الله فهذا موضوع آخر، أنا

أتحدث فقط لو أن الزوج أمرها أن تتحجب، أمرها ألا تختلط بالرجال، حينما تتأبى الزوجة أن تطيع الله من خلال أمر زوجها دخلنا في حالة أخرى، الحالة الطبيعية أن:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

لخصائص خصهم الله بها، والمرأة مفضلة على الرجل لخصائص خصها الله بها، وكلمة:

(بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أي أن كل طرف في وقت واحد يكون مفضولاً ومفضلاً، ومرة ثانية أؤكد هذه الحقيقة، وهي قاعدة أساسية أن التفضيل لا يقتضي الأفضلية، الإنسان حينما يفضل بصفة قد يحتاجها ألا ترى معي إلى أن الطائر يرى ثمانية أضعاف رؤية الإنسان، فُضِّل عليه، هل هو أفضل منه؟ ألا ترى إلى أن الكلب يشم مليون ضعف ما يشمه الإنسان، هل هو أفضل منه؟ التفضيل لا يقتضي الأفضلية، ولكن قد يكون التفضيل لحكمة أرادها الله عز وجل.

حينما لا تستجيب الزوجة لأمر الله، حينما تتأبى أن تطيع الله، الآن هناك وسائل علاجية إلهية، قال:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

موضوع الدرس السابق، وقد أشرت إلى أن الزوج الصالح يراقب ويدقق وهو يقظ وحذر، بمعنى أنه لمجرد أن يبدو على السطح إشارات عابرة لما يمكن في المستقبل أن يكون نشوزاً:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

إذاً أنت لا تعالج المشكلة بعد أن تقع، لا تعالج المرض بعد أن يستفحل، وبعد أن يستفحل لا بد من البتر، البطولة أن تكتشف بوادره في وقت مبكر، وهذا قد ينقلنا إلى حقيقة في جسم الإنسان.

العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة :

الإنسان أيها الأخوة عنده جهاز مناعة مكتسب، هذا أخطر جهاز في حياة الإنسان، والانحراف الجنسي كما تعلمون يسبب نقص المناعة المكتسب، الآن الرقم 27 مليون، متوقع بعد حين أن يصل إلى 80 مليون مصاب في العالم، وقالوا: هناك عشر مصابين لم يبلغ عنهم، فالآن إذا قلنا 27 مليون معناها 270 مليون مصاب بالأرض بسبب الانحراف، إذاً يجب أن نعلم علم اليقين أن العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، هذا الجهاز نقص المناعة المكتسب عبارة عن جيش بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فيه أربع فرق؛ فرقة الاستطلاع، أهم شيء في هذه الفرقة المعلومات، استخبارات، فإذا دخل إلى جسم الإنسان عنصر غريب تأتي كريات بيضاء مهمتها الاستطلاع، تأخذ الشيفرة الكيميائية لهذا الجرثوم، لا تقاتل، تأخذ المعلومات، وتأتي بها إلى مراكز تصنيع المصل المضاد؛ أي إلى معامل الدفاع، هذه فرقة، مهمتها الأولى استطلاع المعلومات، الفرقة

الثانية مهمتها تصنيع السلاح، هذه موجودة في العقد اللمفاوية، والإنسان في عنده عدد كبير من العقد اللمفاوية، في هذه العقد يصنع المصل المضاد للجراثيم، لكن هذه العقد فيها ذاكرة عجيبة جداً، أن الجرثوم إذا دخل إلى جسم الصغير، وعاد بعد سبعين عاماً ملف هذا السلاح وهذا الجرثوم محفوظ في الغدد اللمفاوية، لمجرد أن يعود الجرثوم ثانية، ولو بعد سبعين عاماً الملف جاهز، تركيب الجرثوم جاهز، والمصل المضاد الذي صنع قديماً جاهز، يعمل الجسم على تصنيع مصل مضاد جديد كي يكافح الجرثوم، هذه الفرقة الثانية، الفرقة الثالثة هي فرقة مهمتها القتال، بعد أن يدخل الجرثوم إلى الجسم تذهب هذه الفرق إلى الغدد اللمفاوية، فتأخذ السلاح المعد، وتحمله، وتقاتل به الجرثوم، فإذا وجدت على الجلد انتفاخاً أبيض يسمونه قيحاً هذه نتائج المعركة، جرت معركة بين الجرثوم وبين الكريات المقاتلة، فالنتيجة بقايا الجثث في هذا القيح الأبيض الذي يراه الإنسان حينما ينتفخ جلده أحياناً. عندنا الآن فرقة رابعة: فرقة الخدمات، مهمتها تطهير أرض المعركة من الجثث، بعد أن تجري مذبحة ماذا تفعلون؟ كما رأيتم في فلسطين يأتون بالجرافات يحملون الجثث، وينظفون الطرق كي تطمس معالم الجريمة، عندنا أربع فرق؛ فرقة الاستطلاع، وفرقة تصنيع السلاح، وفرقة القتال، وفرقة الخدمات.

عالم كبير اكتشف في عام 67 فرقة خامسة، اكتشفت مؤخراً هذه الفرقة اسمها فرقة المغاوير، ما مهمتها؟ قال: هذه الفرقة أو هذا العنصر يكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر جداً قبل أن تغدو خطيرةً على الإنسان، ويلتهمها، الذي ذكرته أن الإنسان حينما ينحرف يفقد جهاز المناعة المكتسب الذي حباه الله به.

مراحل معالجة المشكلة بين الزوج وزوجته :

هنا جاءت الآيات:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

الذي ذكرته بمناسبة أن الفرقة الخامسة متى تكتشف الخطر في وقت مبكر جداً، تلتهم الخلية السرطانية، والآن الزوج الماهر جداً، الموفق، المؤمن متى يكتشف الخطر؟ في بداياته، في بدايات الخطر قبل أن يستفحل.

1 ـ أول مراحل معالجة المشكلة الموعظة :

قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)

ذكرت أن الموعظة تقتضي أن تكون لطيفاً رقيقاً محسناً، أن تملك قلبها قبل أن تعظها، أن تملك قلبها بكلام طيب، بموقف كامل، بمروءة، بكرم، بلطف، بهدية أحياناً، فإذا وعظتها قبلت منك، أنت لاحظ لو أنك مدير مؤسسة وعندك موظف ارتكب خطأً، أنت إن أكرمته بهدية، أو إن كافأته بمكافأة، ثم نصحته يتقبل منك النصح بأعلى درجة، ويعاهدك على ألا يعود لذلك، لأنك ملكت قلبه قبل أن تلقي عليه النصيحة، وهذا الذي دعا بعضهم إلى أن يقول: الإحسان قبل البيان، ينبغي أن تفتح قلب الذي تنصحه بإحسانك قبل أن تفتح أذنيه بكلامك:

(فَعِظُوهُنَّ)

2 ـ ثاني مرحلة الهجران بالمضاجع :

فإذا لم تستفد من هذه المعالجة الأولى، هذه المراحل على الترتيب، قال:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

وبينت لكم حكمة الهجران بالمضاجع، لو هجرتها خارج البيت لعلم الأقارب أنك في خصومة مع زوجتك، تدخلوا تدخلاً سلبياً، الذين من أطراف المرأة أوغلوا صدرها، والذين من أطراف الرجل أوغلوا صدره، ولو أنك هجرتها في غرفة ثانية لعلم الأولاد، فينبغي أن تهجرها في غرفة النوم، وعلى السرير الواحد، وهي محببة إليك، وأنت في حاجة إليها، إذاً حينما تستطيع أن تكبح غريزتك لأن ما عندها أو ما حباها الله به سلاحها الوحيد، وما دام الإنسان معه السلاح يظهر القوة ولا يتراجع، أما إذا سقط سلاحه من يده عندئذٍ يخضع، كيف تستطيع أيها الزوج أن تسقط سلاحها؟ بأن تهجرها، وألا تعبأ بهذا النداء الغريزي إطلاقاً، أما حينما تعلم أنك قادر أن تستغني عنها كلياً تخضع، فالعلاج الثاني:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

3 ـ ثالث مرحلة الضرب غير المبرح :

قال تعالى:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

ضرب الانتقام، ضرب إرواء الغليل، ضرب الحقد، المؤمن بريء منه كلياً، ذلك أن هذا الضرب نهى النبي عنه، قال عليه الصلاة والسلام بما معنى الحديث: أما يستحي أحدكم أن يضرب زوجته

نهاراً ثم يجامعها ليلاً، هي شريكة حياته، فضربها ينزلها عن مقام الزوجة، أما إذا نشزت، وتأبت أن تطيع الله عز وجل، وكان من الحكمة أن تضربها، وأن تؤدبها، وأن تحملها على التوبة ضرباً غير مبرح، ولا غير مؤلم، لكنه يزل مكانتها عن مرتبة الشريك، قال:

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

إن بدت المرأة أنها مطيعة لزوجها فينبغي أن توقف كل علاج :

بينت لكم حالات تؤكد حقيقة الضرب الذي أمر الله به، لو أن عندك موظفاً يتيماً لا أب له ولا أم، وسرق منك، والسرقة كبيرة، أسهل حل أن تطرده، لكن أصح حل أن تؤدبه، وأن تبقيه عندك، وأن تصلحه، قال:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

إن أطعنكم انتهى الوعظ، وانتهى الهجر، وانتهى التأديب، أما أن تدعي أنها لا تحبك هذا أمر غير مقبول إطلاقاً:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ)

فإن بدت المرأة أنها مطيعة لزوجها فينبغي أن توقف كل علاج:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

هذا تهديد للزوج، أنت بحكم قوامتك، أنت السيد صاحب القرار، أنت يقبل الناس منك ما تقوله عن زوجتك، أما إن كنت ظالماً مفترياً فالويل لك، والويل لك، ثم الويل لك:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً)

هذا ملخص الدرس الماضي.

على الإنسان أن يعالج الأمور من بدايتها :

درس اليوم:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

لا الموعظة أجدت، ولا الهجران نفع، ولا الضرب أفاد، والزوجان على مشارف الفراق، وينبغي أن تعالج هذه الحالة في وقت مبكر، لم يتم الطلاق بعد، على مشارف الطلاق، وإن خفتم كما قال العلماء شقاقاً بينهما، والشقاق الابتعاد، شق عصا الطاعة أي ابتعد عن الطاعة:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

أضيف الشقاق إلى الظرف:

(شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

المعنى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

مرة ثانية أيها الأخوة ينبغي أن تعالج الأمور من بدايتها، كشأن الأمراض الجسمية، عدد كبير جداً من الأمراض إذا اكتشف في وقت مبكر، وعولج في وقت مبكر كان العلاج قريباً من النجاح، بل قد تصل نسبة النجاح إلى تسعين بالمئة أما إذا اكتشف في وقت متأخر، وعولج في وقت متأخر ربما لا يجدي العلاج:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

صفات الحَكَم :

الآن المرحلة السابقة مرحلة داخلية بين الزوج وزوجته، بدأ من موعظة إلى الهجران إلى الضرب، الآن لا بد من تدخل خارجي:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

من هو الحكم؟ أولاً الحكم إنسان قاض، الصفات الأولى الأساسية للقاضي أنه يعدل، والصفات الأساسية أيضاً أنه يدقق، يملك معلومات دقيقة، يسأل، يستقصي، يستجوب، يبحث، يحقق، لا بد من معلومات دقيقة يبني عليها القاضي حكمه، هذه الصفة العقلية في القاضي، ولا بد من نفس نزيهة تتحرى العدل، من هو الحكم؟ الذي يستقصي المعلومات بدقة بالغة، ثم يحكم بنزاهة بالغة، ليس أي إنسان يكلف أن يصلح بين الزوجين يَصلُح أن يُصلِح بينهما:

(فَابْعَثُوا حَكَماً)

حكماً أي عنده معلومات دقيقة يجمعها، يستنبطها، يحقق، يدقق، يكتشف ثم يعدل، الحكم يجمع بين الحقائق وبين النزاهة، أما هنا أضيف إلى الحكم أن يكون من أهله، هذا القانون في الأعم من خلال اللقاءات العابرة يستمع إلى بوادر المشكلة بين الزوجين، هو يعلم أنه في مشكلة إما مالية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو ثقافية بين الزوجين، هو مطلع، أي معه المدى العميق:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

لو طُبِّق نظام التحكيم لكان الطلاق قليلاً جداً :

هنا البطولة، رجل وقور من وجهاء أهله يتمتع بالدقة والنزاهة، ورجل وقور من وجهاء أهل الزوجة يتمتع بالدقة والنزاهة، من أهله لأنه يعرف بواطن الأمور، والثاني من أهلها يعرف بواطن الأمور:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

هذا المنهج لو طبق لكان الطلاق قليلاً جداً، أنا أروي دائماً هذه القصة السريعة؛ أن إنساناً شكا زوجته إلى أخيها، قال له: طلقها، هذا أحمق، أنت بحاجة إلى رجل وجيه عنده خبرات، دين، دقيق في جمع المعلومات، نزيه في إصدار الحكم، على صلة بها، مطلع على أحوال الزوجين، وأنت بحاجة إلى رجل من طرف الزوج وقور، نزيه، دقيق، على اطلاع بأحوال الزوج، هذان الحكمان حكمهما نافذ:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

أنا الذي أراه أيها الأخوة أن هناك نظامَ التحكيم الخاص قديماً، هكذا نسمع، في كل حي وجهاء، هؤلاء الوجهاء لهم هيبتهم، ولهم مكانتهم، وأمرهم نافذ بالحي، أي خلاف ينشب بين اثنين، خلاف اجتماعي، خلاف مالي، خلاف نفسي، هذا الوجيه حكمه نافذ على الطرفين، ويتمتع بالنزاهة، يتمتع بالدقة، فمشكلات لا تعد ولا تحصى تحل بهذا الطريق، والآن حتى في التجارة أسلوب رائع، تحكيم تجاري، التحكيم في القانون أمره نافذ، المحكم تاجر أيضاً، والتاجر قريب من جو التجارة، وقد يكون الحكم تاجراً في المصلحة نفسها، يعلم بواطن الأمور، فحينما يرقى المؤمنون يحكّمون وجهائهم، هم بعيدون عن ما يجري في المحاكم من إطالة طويلة، فأعظم شيء بالحكم السرعة، قد تمتد القضية بالقضاء إلى عشرين سنة تقريباً، عشرون سنة من التعب النفسي، عشرون سنة من التوتر النفسي، بطريقة التحكيم المباشر قضية سريعة جداً.

الإنسان الموفق هو الذي يعطي كل ذي حقٍّ حقه وينجو من الخصومات والمحاكم :

حضرت مؤتمراً في طرابلس قبل سنتين عن التحكيم الخاص، لو أنه طبق في مجتمعاتنا حتى في الخصومات التجارية، والخصومات الصناعية، والخصومات الاجتماعية، والخصومات الأسرية، شيء رائع جداً، هناك أشخاص يتمتعون بمكانة وهيمنة، وأمرهم نافذ، هم موضوعيون، هم دقيقون في تقصي الحقائق، هؤلاء تحل بهم مشكلات كثيرة، أما ما يجري في المحاكم بشكل تقليدي شيء لا يحتمل، الطريق طويل، كم من قضية، توارث معالجتها عشرون قاضياً، ينقل القاضي، يأتي الجديد ينبغي أن يستوعبها، شيء آخر، قاعدة عامة أنك إذا عرفت قيمة الحياة الدنيا، ورأس مالك في الحياة الدنيا فلا تدخل في مشكلة تنتهي بك إلى المحاكم، أنا لا أنسى أبداً قول سيدنا عمرو بن العاص، لما سأله سيدنا معاوية: يا عمرو ما بلغني من دهائك؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، أنا لا أدخل أصلاً، من هو الإنسان الموفق في حياته؟ الذي يعطي كل ذي حقٍ حقه وينجو من قضايا الخصومات والمحاكم والقضاة، فقضايا الدخول في المحاكم قضية متلفة للأعصاب، فحيثما استطعت ألا تدخل ينبغي ألا تدخل:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا)

المعنى الأول للألف في كلمة (يريدا) :

الآن التعليق الدقيق:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً)

بعضهم قال: الألف في (يريدا) هي ضمير متصل في محل رفع فاعل، يعني إن أرادا، من هما؟ علماء قالوا: الحكمان، وعلماء قالوا: الزوجان، إذا كان الزوج صادقاً يريد أن تسير المركبة وفق منهج الله، والزوجة أيضاً لا تحب أن تكون امرأة عصية لله، لكن نشأ سوء تفاهم بينهما، إن أرادت الزوجة أن تكون زوجة كاملة، وإن أراد الزوج أن يكون زوجاً متقياً لله عز وجل:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

ذلك أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، أنت الذي تجد أن هذه الزوجة لا تنسجم، ولا تنصاع، تتأبى الحق، لو أن الله سبحانه وتعالى أصلحها لك لصلحت، والدليل قول الله عز وجل:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

[سورة الأنبياء: 90]

هذا ما حل ببعض العارفين بالله أن يقول: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، إما أن تلين، وتخضع، وتحسن، وإما أن تتأبى، وتستنكف، وتعصي، لو أن الزوج يعصي الله خارج البيت لوجد في الزوجة تأبياً واستنكافاً عن طاعته، لو كان متعمقاً في الأمر لعلم أن هذا عقاب له على تفلته من منهج الله، لذلك الكلمة التي قالها هذا الإمام العارف بالله: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، كلمة صحيحة، إذا أراد الزوج أن يبني أسرته على طاعة الله، والزوجة أرادت أن تكون زوجة مؤمنة طائعة لله، فإن أراد الزوجان طاعة الله عز وجل الله يتولى بذاته تليين القلوب، وتأليف القلوب، وهذا شيء ثابت في الحياة الاجتماعية، شخص يكون معانداً فإذا به فجأةً يصبح لطيفاً مسايراً، ما الذي حصل؟ بدله الله عز وجل.

الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى جعل قلوب العباد بين إصبعيه يقلبها كيف يشاء :

لا بد من وقفة متأنية عند هذا المعنى، لماذا قلوب العباد بيد الله عز وجل؟ أو ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى جعل قلوب العباد بين إصبعيه يقلبها كيف يشاء؟

1 ـ المعنى الأول أنك عندما تتخذ قراراً حكيماً يعينك على نفسك بشرح صدرك

هذا لصالحك ، لو أنك اتخذت قراراً حكيماً بطاعة الله، أو بالتوبة، أو بالإحسان إلى الخلق، أو بنشر الحق، هذا القرار الحكيم الله عز وجل يدعمك به، يملأ قلبك سعادةً، يملأ قلبك استبشاراً، يملأ قلبك تفاؤلاً، يملأ قلبك طمأنينةً، يملأ قلبك راحةً، لأن قلبك بين إصبعين من أصابعه، لما اتخذت قراراً حكيماً أعانك على نفسك بشرح صدرك، هذا المعنى مستنبط من قوله تعالى:

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات: 7]

والإنسان حينما يتخذ قراراً في معصية الله يشعر بالضيق، يصبح ردود فعله عنيفة، سيئ الخلق، ينفر منه من حوله، يبغضه أقرب الناس إليه، يصبح في عزلة، وحينما جعل الله قلب الإنسان بين إصبعيه كي يملأ القلب ضيقاً وسوداوية حينما تعصي الله عز وجل، فكأن الله أعانك على طاعته، وأعانك على ألا تعصيه، هذا المعنى الأول.

2 ـ المعنى الثاني أن الإنسان حينما يوقن أن قلوب من حوله بيد الله لا يخاف منهم :

المعنى الثاني أن الإنسان حينما يوقن أن قلوب من حوله بيد الله لا يخاف منهم، وهذا شيء ثابت، شخص قوي، ومع قوته لؤم، ومع لؤمه قسوة، أحياناً يعامل مؤمناً بألطف معاملة دون أن يشعر، هذا المؤمن لا يستحق إلا كل لطف، لأن قلبه بيد الله، يقلبه على طريقة يحسن معاملة المؤمن، الشخص نفسه قد يقع بين يديه إنسان ينكل به أشد التنكيل، المخالفة نفسها، والإنسان واحد، فلماذا فعل هكذا مرةً، وهكذا مرةً؟ لأن قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، وبالمناسبة أيضاً قلب الزوجة بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، ويا أيتها الزوجة قلب زوجك بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، أنتِ حينما تصطلحين مع الله عز وجل فلا بد أن تري أن معاملة زوجك تغيرت، وأنت حينما تصطلح مع الله فلا بد أن ترى أن معاملة زوجتك تحسنت، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

[سورة الأنبياء: 90]

وهذا معنى قوله تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

[سورة الفرقان: 70]

إذا تاب الإنسان إلى الله تُبدل سيئاته حسنات :

إذا تاب الإنسان إلى الله تبدل سيئاته حسنات، بمعنى أنه كان عنيفاً فصار ليناً، كان بخيلاً فصار كريماً، كان جباناً فأصبح شجاعاً، كان قاسياً فأصبح رحيماً، وأنا استمعت إلى أخوات كثيرات على الهاتف أن أزواجهن بعد أن التزموا في جامع معين، أي بعد أن تاب إلى الله، أي بعد أن اصطلح مع الله، أي بعد أن طلب مرضاة الله أصبح إنساناً آخر، فلذلك أية امرأة ترجو أن يكون زوجها صالحاً ينبغي أن تعينه على طاعة الله، ولا أبالغ أن في ذاكرتي عشرات، بل مئات من الأخوة الكرام كانت زوجاتهم سبب هدايتهم، بسبب أن هذه الزوجة أعانته على طاعة الله، فلما أطاع الله أكرمها، ولا أنسى الكلمة التي قالها لعله سيدنا الحسن، قال: زوج ابنتك لمؤمن، إن أحبها أكرمها، وإن لم يحبها لم يظلمها، المؤمن مقيد، الإيمان قيده عن كثير من هوى نفسه، والكافر ـ أنا لا أرى وصفاً أدق من هذا الوصف ـ دابة متفلتة بلا قيد، ولا قاعدة، ولا خلق، ولا ذوق، ولا عدل، ولا إنصاف أبداً، أنا ذكرت اليوم في الخطبة أن هذه الطائرة التي سقطت في بريطانيا، والقصة من عشر سنوات تقريباً، وانتهى المطاف أنه ينبغي أن تدفع الجهة المسؤولة عن سقوطها مليارين وسبعمئة مليون دولار لأن فيها مئتين وسبعين راكباً، كل راكب ديته عشرة ملايين دولار، أي خمسمئة مليون ليرة، والذين ماتوا قبل يومين، عددهم مئة وعشرون لا شيء لهم؟! أرأيت إلى الكيل بمكيالين؟ أرأيت إلى الظلم، إنسان يموت تحمل من تسبب بموته عشرة ملايين دولا لكل إنسان، أي ما يعادل خمسمئة مليون ليرة سورية، وإنسان مات بمكان آخر مسلم بخطأ بسيط، ولا أحد يتحرك، ليس هناك مشكلة، خطأ من طيار، مئة وعشرون إنساناً في عرس.

لذلك الذي أتمناه على الأخوة الكرام أن يدققوا في هذه الحقيقة، هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، هل هناك أهون من إنسان مسلم يموت بلا ثمن، ثمنه رصاصة واحدة فقط، يقتلونه طفلاً، كبيراً، مذنباً، غير مذنب، موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لمَ يَقتل، ولا المقتول فيما قُتل، يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، ولا يستطيع أن يغير، إن سكت استباحوه، وإن تكلم قتلوه، إذاً هان أمر الله على الناس أو على المسلمين فهانوا على الله، وهنا تعليق لطيف، هل هم هينون على الله؟ لا والله، لكن الله أراد أن يؤدبهم، يعني حينما يضرب الأب ابنه، هل ابنه هينٌ عليه؟ لا والله، وبعض الآباء، والله فيما أعلم يضربون أبناءهم، ويتألمون أشد من الأبناء، لكن لا بد من هذا العلاج المر، الآن المسلمون يمرون في معالجة شديدة جداً، فإن لم ننتبه، وإن لم نصحح، وإن لم نتب، وإن لم نرجع إلى ديننا، وإن لم نرجع إلى قرآننا، وإن لم نرجع إلى سنة نبينا، فأمامنا امتحانات كثيرة.

المعنى الثاني للألف في كلمة (يريدا) :

قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً)

المعنى الثاني: الألف في (يريدا) ضمير رفع متصل تعود على الحكمين، فالحكم إن أراد الإصلاح يوفق، والله أيها الأخوة، والفضل لله عز وجل أن مئات الحالات من خلاف مستعصٍ، من خلاف يوشك أن ينقلب إلى طلاقٍ، تدخل الأخوة الكرام الطيبون بإخلاص شديد، فسارت المركبة بطريقة رائعة، والله عشرات بل مئات من الخلافات الزوجية التي كان من الممكن أن تنتهي إلى الطلاق بفضل أخوة كرام حكموا بين الزوجين بحكم الله عز وجل، وأرادوا إصلاح هذه الأسرة فوفق الله بينهما، قبل أيام التقيت بأخ كريم كان على خلاف شديد مع زوجته، وكان فيما يبدو للحكام أنه لا بد من الطلاق، وسألته، وقد مضى على هذه الحالة عشر سنوات، قال لي: والله أنا أسعد زوج، أقسم بالله أنني أسعد زوج، هذا معنى:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

أي لا تستخدم الطلاق كعلاج أولي، استخدم هذا الطلاق بحالات نادرة، أرأيتم إلى هذا الوعاء البخاري الذي يطبخ الناس به، لو دققت في غطائه لوجدت دائرة فيها قطعة بلاستيك، حينما ترتفع الحرارة إلى درجة أن هذا الوعاء قد ينفجر، ويقتل من حوله، هذه المادة البلاستكية تذوب، فإذا ذابت خرج البخار ووقينا من حول هذا الوعاء الانفجار، أرأيت إلى هذا الصمام، يسمى صمام الأمان، هذا هو الطلاق، حينما تغدو الحياة مستحيلةً، حينما قد تنتهي الحياة إلى جريمة عندئذٍ نطلق، أما أول حل هو الطلاق؟ وأن هؤلاء الأزواج الحمقى لأتفه الأسباب يحلف يمين طلاق، وإذا أحل لك شيخ يحرمك عشرة، وهو في أشد الحاجة إليها، وعنده أولاد، والزوجة جيدة، لكن ساعة شيطان كما يقولون، ماذا يفعل بعد ذلك؟ الذي يفعله، وأنا أشدد على هذه الكلمة المزعجة يتسكع على أبواب المشايخ، الذي أحل له أن تعود إليه يشك في ورعه، والذي قال له: هي محرمة عليك ينقم عليه، أنت كنت في غنى أن تتسكع على أبواب المفتين، ما دامت هذه الزوجة بشكل إجمالي مقبولة ابتعد عن الطلاق، افعل ما تشاء عدا الطلاق، هي زوجتك، لكن تطلق، وتطلق، وتُطلق، وتقع في الشك، يقول: لعلي بالحرام أنا أعاشرها، حالة الشك لا تحتمل أيها الأخوة، لا تعرف زنى أم زواج، في أيمان ثلاثة، كلها وقعت، واحد قال لك: إحداها لم تقع، شككت، لذلك قال ابن عباس: أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس.

الزواج نعمة كبيرة ينبغي على الزوجين تقديرها :

على كلٍ أيها الأخوة، الإنسان حينما لا يقدر نعمة الزواج قد يحرمه الله من زوجته، والتي لا تقدر نعمة الزوج قد يحرمها الله من زوجها، الزواج نعمة كبيرة، فينبغي للزوج أن يقدر أن الله قد حصنه بهذه المرأة، ولبى حاجته، وهي وديعة عنده، وهي هدية الله له، وينبغي أن تعتقد المرأة أيضاً أن الله حصنها بهذا الزوج، هي في حلال، وهو نعمة كبيرة، رجل يدخل عليها، يحميها، ينفق عليها، يرعاها، لها منه أولاد، فأية امرأة تسيء العلاقة مع زوجها هي تكفر نعمة الزوج، وأي زوج يسيء العلاقة مع زوجته هو يكفر نعمة الزوجة، وقد يكون عقاب الله أليماً، قد يرتكب الإنسان حماقة يدفع ثمنها سنوات طويلة، فلذلك من أراد إنفاذ أمرٍ فليتدبر عاقبته، فالآن إن أراد الزوجان إصلاحاً وفقهم الله عز وجل إلى ما فيه خير لهما، وإن أراد الحكمان الإصلاح وفق الله عملهما:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

لكن العلماء اختلفوا، هل للحكمان أن يطلقا؟ هل للحكمان أن يقترحا الطلاق أو المخالعة؟ الحقيقة هنا ملمح لطيف، متى أنتقل من العلاج الداخلي، وعظ، هجر، ضرب، هذا العلاج الداخلي على الترتيب، إلى العلاج الخارجي حكم من أهله وحكم من أهلها؟ متى أنتقل من هنا إلى هنا؟ قال بعض العلماء: حينما لا ينصف الزوج، ولا يسامح، ولا يصفح، ولا يطلق، هذه حالة معلقة، من أصعب الحالات، سميت حالة اللا سلم واللا حرب، نعيشها مع اليهود من خمسين سنة، ما في استقرار، أصعب حالة يعيشها المجتمع حالة لا هي سلم ولا هي حرب، في جهنم من أصعب الحالات:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

[سورة طه: 74]

لو مات استراح، لو أنه عاش حياة مريحة لاستراح، لكن:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

[سورة طه: 74]

الآن في الزواج لا صفح، ولا وفاق، ولا ود، ولا طلاق، لا يطلق، ولا يصفح، ولا يعفو، ولا يكون زوجاً كاملاً، هي لو أنها طلبت الخلع القضية انحلت، لا تطلب الخلع، ولا تكون زوجة جيدة، مشاكسة، ومقيمة معه بالبيت، فهذه الحالة المستعصية، نفور، مشاكسة، كيد، غيظ، عداوة، بغضاء ، تراشق تهم مستمر، هذه الحالة قد تنتهي إلى الطلاق ينبغي أن:

(فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

الفرق بين الخلع والتفريق والطلاق :

طبعاً إن يريدا كما قال علماء التفسير: يعود على الزوجين أو على الحكمين، أما:

(يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

فتعود على الزوجين حصراً، بعضهم قال: يجوز أن يتخذ الحكمان قراراً بالخلع، أن تطلب منه الخلع، أي هي متأذية منه، لكن لا لذنب منه، لم تحبه، ما دامت لا تحبه هو لم يرتكب خطأ شرعياً معها، لكن لم تحبه، قد يتخذ الحكمان قراراً بالخلع، وقد يتخذ الحكمان قراراً بالطلاق، يشكو منها شكوى غير معقولة، والأمل ضعيف في الإصلاح، وقد يتخذ الحكمان قراراً بتحميل كلٍ من الزوجين مسؤولية يقلل من حق الآخر.

نحن في القضاء عندنا مخالعة، وطلاق، وتفريق. المخالعة؛ بناء على طلب الزوجة، إن طلبت المخالعة فليس لها شيء، طلقها تطليقة، وردي له الحديقة. الطلاق؛ بناء على طلب الزوج، هو أراد أن يبدل زوجته، إذاً يدفع لها كل حقوقها كاملة، ولا يسترد من هداياه شيئاً. التفريق؛ إذا كان ثمة إساءة متبادلة تقام دعوى تفريق، فيقدر القاضي حجم هي الإساءة من طرفها، وحجم هذه الإساءة من طرفه، قد يحكم لها بنصف المهر، أو بخمس المهر، أو بعشر المهر، أو بكل المهر. فالتفريق غير الخلع وغير الطلاق، قال بعض العلماء: الحكمان هنا من حقهما أن يصدرا قراراً بالخلع أو بالطلاق أو بالتفريق، كما يفعل القاضي، وعلماء آخرون قالوا: لا، الآية لم تنص على الطلاق، على الإصلاح فقط:

(إنْ يُرِيدَا إصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

أي لا يقبل من الحكام إلا التوفيق بين الزوجين، هذا اجتهاد آخر:

(إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

تكلم ما شئت لكن الله خبير بعملك، هل تفعل هذا كيداً أم أنه مقتضى العدل، إذاً:

(وَإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إنْ يُرِيدَا إصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(20-69): تفسير الآية 36 ، العبادة بالمفهوم الواسع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة العبادة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الكريمة السادسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)

أيها الأخوة، أول حقيقة في هذه الآية أن مهمتك الأولى في الحياة الدنيا أن تعبد الله، والعبادة خضوع كامل، وانصياع، وطاعة تامة لله عز وجل، إنها حق الله على عباده، وثمن الجنة، وعلة وجودنا، العبادة طاعة لله مع المحبة، فمن أحب الله ولم يطعه فهو كاذب في محبته، ومن أطاعه ولم يحبه فعبادته غير صحيحة، إنها طاعة القهر، العبادة طاعة مع محبة، ولا بد لها من أساس علمي هي معرفة الله، ولا بد لهذه الطاعة التي أساسها معرفة الله من ثمرة هي إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، لأن غاية كل حي السعادة، بل إن السلامة قبل السعادة، ما من مخلوق على وجه الأرض شعر أو لم يشعر إلا وهو يبحث عن سلامته وسعادته، فالذي يحقق للإنسان سلامته من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة أن يعبد الله، ويتبع منهج الله ومنهج الصانع، ويتبع تعليمات الشركة الصانعة، فالجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

أخطر شيء في الدين أن تفصل العبادة التعاملية عن العبادة الشعائرية :

أنت حينما تؤمن بالله، تؤمن بعلمه المطلق، وحكمته المطلقة، ورحمته المطلقة، ثم تؤمن بكتابه، وفي كتابه أنه خلقك للجنة لا للدنيا، فحينما تؤمن أنك مخلوق للحسنى تتقي أن تعصي الله، وتبني حياتك على العطاء والبذل، قضية من أخطر قضايا الحياة أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً ومربياً ومسيراً، أن لهذا الكون إلهاً موجوداً وكاملاً وواحداً، وأن أسمائه كلها حسنى، وأن صفاته كلها

فضلى، وأنه خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، وأن هذه الجنة إعداد لتلك الجنة، وأن عبادته تعني سلامتك وسعادتك، وتعني دخول الجنة، وهي علة وجودك، وواجبك تجاه خالقك، وحق الله عليك، وسبب سلامتك، وسبب سعادتك، ولكن المسلمون يتوهمون أن العبادة تعني العبادة الشعائرية.

أخواننا الكرام، هناك تصنيف فقهي، أنا لا أعترض عليه، ولكن أخاف أن يُعتَمد في فهم العبادة، نحن في الإسلام عندنا عقائد وعبادات ومعاملات وآداب، فإذا قلنا: عبادات لا نفهم منها إلا الصلاة والصيام والحج والزكاة والنطق بالشهادتين، هذا تصنيف الفقهاء، أما العبادة تعني أن تتقن عملك، وتحسن إلى زوجتك، وتعد لعدوك، إذا كانت العبادات بالمفهوم الحقيقي الواسع القرآني قد تزيد العبادات بالمفهوم القرآني النبوي الموسّع عن مئة ألف أمر، كيف أن هذه الأوامر قُلّصت إلى عبادات شعائرية، لذلك المسلمون في مؤخرة الركب، في النهاية الدنيا، لأنهم فهموا دينهم أنه عبادات شعائرية، يصلي ويصوم ويفعل ما يشاء، أنبأني أحد الأخوة الكرام أن عدداً من رواد المساجد يبيعون أقراصاً مدمجة كلها أفلام إباحية! ما خطر في باله لحظة أن هذا العمل يتناقض مع دينه وإيمانه واستقامته، هو يصلي، وفي الصف الأول، لكن حرفته بيع هذه الأقراص، والذي يروج منها الأقراص الإباحية، يبيعها! أخطر شيء في الدين أن تفصل العبادة التعاملية عن العبادة الشعائرية، إذا بقي الإسلام عبادة شعائرية يعني أنه انتهى، والدليل؛ عَن ابْن عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[البخاري عَن ابْن عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا]

العبادة الشعائرية مهمتها أن تعطيك شحنة روحية أما العبادة التعاملية فهي الإسلام :

بني الإسلام شيء، والخمس شيء، إذا قلت بناء من خمسين طابقاً، بني على خمسين عاموداً، هل هذه الأعمدة هي البناء؟ هي أساسات البناء، فالعبادة الشعائرية مهمتها أن تعطيك شحنة روحية، أما العبادة التعاملية هي الإسلام، الدين المعاملة، بماذا وصف سيدنا جعفر رسول الله؟ قال: نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، بماذا أمرنا؟ بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، الصحابة الكرام فهموا الدين سلوكاً، وقيماً، وأخلاقاً، وعفة، واستقامة، وأمانة، وإتقاناً في العمل، وصدقاً في الأقوال، وإنجازاً للوعد، وحفاظاً على العهد، لما فهموا الدين هذا الفهم الأخلاقي فتحوا أطراف الدنيا، أما المسلمون اليوم فيزيدون عن ثلث سكان الأرض، مليار وأربعمئة مليون! ليس لهم وزن إطلاقاً، ولا يستطيعون بمجموعهم أن يؤثروا في السياسات الدولية الكبرى، السبب أن دينهم أصبح ديناً شعائرياً، هذه الأديان الوضعية ما مشكلتها أن

فيها طقوساً وحركات وسكنات وتمتمات لا تعني شيئاً، تؤدى أداء شكلياً، وبعدها يفعل الناس ما يشاؤون، حتى أتباع الديانات الأخرى، وحضورهم في المعابد بحركات وتمتمات، ولا تجد دينهم في أعمالهم، ولا في بيوتهم، ولا في تجارتهم.

فالمشكلة الكبرى حينما نفهم الدين فهماً شعائرياً فقط، صلاة نؤديها، حجاً نقصده، زكاة ندفعها، صياماً نصومه، وانتهى الأمر، وبيوتنا، وأعمالنا، وعلاقاتنا، ولهونا، وأفراحنا، وأتراحنا على النمط الغربي فيه اختلاط، ومعاصٍ، وملء العين من محارم الله، وفيه كذب في الوعد، وغش في البيع والشراء، هذه هي حالة المسلمين.

لذلك كلمة اعبدوا تدخل في أدق شؤون حياتك، وفي أدق خصوصياتك، وفي علاقتك بزوجتك، وفي تربية أولادك، وفي نظافتك، وحركتك، وسكنتك، وفي كسب وإنفاق مالك.

العبادة أيها الأخوة، أي أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، العبادة أن نعد لأعدائنا ما نستطيع من قوة، وأن نتقن أعمالنا، ونعمر الأرض كما أراد الله عز وجل، لأنه استعمرنا فيها، العبادة أن نفعل عملاً صالحاً، فلذلك المصيبة الكبرى أن هذا المفهوم العظيم، وعلة وجودنا، وأن واجبنا تجاه ربنا، وحق الله علينا أن سبب سعادتنا وسلامتنا هو العبادة، والعبادة نفهمها أداء العبادات الشعائرية ليس غير.

العبادة انصياع لمنهج الله بكامله :

لهذا يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

يجب أن ننصاع لله بكل إخلاص، غاية الخضوع، والحب، والتوكل على الله، والثقة بالله، وغاية الإخلاص له، والمحبة، والولاء هذه العبادة، العبادة تدخل في كل ثانية في يومك، فإن دخلت بيتك، وأطلقت وجهك في أبنائك وزوجتك، وملأت البيت سعادة فأنت في عبادة، ولو عدت مريضاً فأنت في عبادة، ولو جلست إلى أهلك تؤنسهم، واشتريت ثياباً جميلة لتكون أمام الناس مرموقاً، لأنك تمثل المسلمين، وإذا انغمست في عملك حتى أتقنته، ونفعت به المسلمين فأنت في عبادة، حينما تحسن الزوجة رعاية أبنائها، وتعتني بزوجها هي في عبادة، مفهومها واسع جداً يدور مع كل نشاطات الإنسان، إن أخذت أولادك إلى نزهة كي تقربهم إليك، وكي تدخل على قلوبهم السرور فأنت في عبادة، إذا نلت من عدو نيلاً فأنت في عبادة، إذا سهرت طوال الليل تفكر في شيء ينفع المسلمين فأنت في عبادة، شيء واسع جداً.

كل أوامر القرآن التفصيلية، وكل أوامر النبي التفصيلية، وكل عاداتك التي يفعلها معظم الناس بحكم العادة إن فعلتها أنت بحكم المؤمن فأنت في عبادة، إذا دخلت إلى البيت، وأعنت والدتك في

شؤون البيت، وإن درست أخاك الصغير الضعيف في مادة دراسية فأنت في عبادة، هذا المفهوم الحضاري، العبادة انصياع لمنهج الله بكامله.

من قال لك: إن منهج الله خمس عبادات شعائرية ليس غير؟ بني الإسلام على خمس، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

لو أنك عبدته وعبدت جهة أخرى فما عبدته، لأن الله لا يقبل معه أحداً، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، لذلك جاء الأمر الإلهي:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)

عبادة الله مقرونة ببر الوالدين في آيات عديدة :

أن تعبد الله وحده، وتحبه، وتطيعه، وتتوكل عليه، وتثق به، وتعقد عليه الأمل، وترضى بحكمه وحده، هذه العبادة، كل حركاتك كأن تنظف جسمك، وتهيئ لبيتك ما يدخل على قلب أهلك السرور فأنت في عبادة، وسع هذا المفهوم تجد أن المؤمن له هدف كبير، أن يأخذ بيد من حوله إلى الله، فالعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، ينبغي أن تعبد الله وتعبده وحده، وينبغي ألا تشرك به أحداً، وأن تكون في عبادته مخلصاً، يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)

أيها الأخ الكريم، عبادتك لله عز وجل فرع من وجودك، أنت موجود أكبر فرع من فروع وجودك أن تعبد الله، من هما اللذان كانا سبب وجودك؟ إنهما الوالدان، لذلك في أكثر من عشر آيات، أو أقل أو أكثر من آيات عديدة جاءت عبادة الله مقرونة ببر الوالدين:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

العطف أيها الأخوة يقتضي المشاركة، ليس من المعقول أن تقول: اشتريت بيتاً وملعقة، تقول اشتريت بيتاً وأرضاً ومركبة ومزرعة، لا بد من التناسب بين المتعاطفين، فحينما تعلم أن الله رفع الإحسان بالوالدين إلى مستوى عبادته، لأن عبادة الله فرع من وجودك، ووجودك له سبب قريب وسبب بعيد، القريب والداك والبعيد سيدنا آدم، وآدم من خلقه؟ الله عز وجل، الأمر الإلهي:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء: 23]

من بر الوالدين أن تكون قريباً منهما وفي خدمتهما ولو كانا غير مؤمنين :

قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

هناك ملمح في الآية رائع هو أن هذه الباء باء الإلصاق، ينبغي أن تكون قريباً من والديك، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَبَنِينَ شُهُوداً)

[سورة المدثر: 13]

هم معه، من بر الوالدين أن تكون قريباً منهما وفي خدمتهما، وتكثر من الاتصال بهما في اليوم الواحد، وأن تسدي إليهما المعروف لا عن طريق أحد بل بك مباشرة، لأن الباء باء الإلصاق، فينبغي أن تكون لصيقاً بهما، وينبغي أن يكون برك لهما عن طريقك أنت لا عن طريق أحد، هناك أبناء أقوياء وأغنياء يعطون توجيهات لمن حولهم: خذ لوالدي هذه الحاجة، خذه إلى نزهة، معنى الآية يقتضي أن تكون أنت في خدمته بحجمك الكبير.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

يا ترى ولو كانا كافرين؟ نعم ولو كانا مشركين، لأن الوالد هنا مطلق، والمطلق على إطلاقه، يا رسول الله أمي مشركة أفأصلها؟ قال: صليها، فالوالدان مؤمنان أو كافران.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

على الإنسان أن يعترف بفضل الأب الذي أنجبه وزوّجه ودله على الله :

من ملامح قوله تعالى قال:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

[سورة هود: 42-43]

استنبط بعض العلماء أنه لا يجوز إقامة حد شرعي على ابن أمام أبيه رأفة بالأب، كما لا يجوز إقامة حد شرعي على ابن أمام أمه، لأن قلب الأم والأب لا يحتمل هذا العقاب.

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

[سورة هود: 43]

الأب هو سبب وجودك، فأنت في نعمة لأنك موجود، هناك نعمة الإيجاد والإمداد ونعمة الهدى والرشاد، فالله سبحانه وتعالى خالق أوجدك، ومرب يمدك بكل شيء، وهاد يهديك إليه، فأنت في نعم كبرى ثلاثة، وقد أضاف بعضهم وهي إضافة لطيفة: هناك أب أنجبك، وأب زوجك، وأب دلك على الله، فالذي أنجبك سبب وجودك، والذي زوجك ينبغي أن تعامله كأب، لأنه ربى ابنته ثمانية

عشر عاماً، ورعاها، واعتنى بأخلاقها، وصحتها، وشؤونها، ودراستها حتى سلمها إليك هو أب لك بمعنى أو بآخر، والذي دلك على الله سبب سعادتك الأبدية، فينبغي أن تعترف بفضل الأب الذي أنجبك، وزوجك، ودلك على الله.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

لو أن الأب أو الأم أمراك بمعصية ولتكن أكبر معصية، الشرك بالله.

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

لكن بنعومة، لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يحادون الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، الإحسان غير الولاء، لو أن إنسان له أب عاص غارق في المعصية، فالإحسان إليه شيء، والولاء شيء آخر، وهو ممنوع، أب يشرب الخمر، ويقترف الفواحش، ولا يصلي، وظالم، هذا الأب في الحقيقة أب ينبغي أن تحسن إليه لكن لا ينبغي أن تواليه وتقره على أعماله.

السلامة والسعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بعبادة الله العبادة الشمولية :

قال:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

أيها الأخوة، الشيء اللطيف في الإسلام والعجيب وجود تضامن اجتماعي على أساسين؛ على أساس جغرافي وأساس نسبي، الضمان الاجتماعي في الإسلام أساسه جغرافي الجوار، وأساسه نسبي ذوي القربى.

يقول الله عز وجل بعد أن بدأ بالأمر بعبادته بالمعنى الواسع لا بالمعنى الفقهي أن تصلي، وتصوم، وتحج، وتزكي ليس غير، لا، بالمعنى التعبدي الواسع الشمولي أن تطيعه في كل ما أمر، وتنتهي عن كل ما نهى عنه وزجر، والعبادة غاية الخضوع، والحب، والولاء، والإخلاص، والتوكل، وفيها جانب معرفي وسلوكي وجمالي، فالجانب السلوكي هو الأصل، والمعرفي هو السبب، والجمالي هو الثمرة والنتيجة، وكل واحد من بني البشر شاء أم أبى يبحث عن سلامته وسعادته، والسلامة والسعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بعبادة الله العبادة الشمولية، ينبغي أن تعبده فيما أقامك، أقامك غنياً العبادة الأولى إنفاق المال، أقامك عالماً العبادة الأولى تعليم العلم، أقامك قوياً العبادة الأولى إنصاف الضعيف، أقامك امرأة العبادة الأولى رعاية الزوج والأولاد، أقامك طبيباً العبادة الأولى أن تنصح المسلمين في طبك، أقامك محامياً العبادة الأولى أن تنصح الموكلين في دعواك، أقامك مهندساً أن

تنصحه في البناء، لذلك العبادة متعلقة بالحرفة، وبالأحوال الشخصية، وبالزواج، وبإنجاب الأولاد، وبتربيتهم، وبشؤون الصحة، ينبغي أن تعتني بصحتك لأنها ملك المسلمين، ينبغي أن تأكل كما أمر النبي أن تأكل، وأن تنام كما أمر النبي أن تنام، ينبغي أن تقيم علاقة مع زوجتك كما وجهك النبي عليه الصلاة والسلام، العبادة تشمل شؤون حياتك كلها، حتى في أدق الخصوصيات وفي أشد العلاقات دقة ينبغي أن ترعى العبادة، هناك عبادة فيما أقامك وعبادة أخرى في الظرف الذي وضعك فيه!

أمر العبادة يجب أن يكون متناسباً مع عظمة الله عز وجل :

لو أن عدواً اقتحم البلاد لا سمح الله ولا قدر فالعبادة الأولى رد هذا العدوان، لو أن مجاعة ألمت بالمسلمين العبادة الأولى إطعام الطعام، لو أن مرضاً ألم بالمسلمين العبادة الأولى أن ننهض جميعاً لمكافحة هذا المرض، ونعبد الله فيما أقامنا، وفي الظرف الذي وضعنا فيه، وفي الظرف الذي أظلّنا. العاشر من ذي الحجة العبادة الأولى فيه ذكر الله، في رمضان العبادة الأولى الصيام والقيام، يوم الجمعة يوم عيد المسلمين العبادة الأولى حضور صلاة الجمعة، وزيارة الأقارب والأرحام، أن تعبده فيما أقامك، وتعبده في الظرف الذي وضعك فيه، وتعبده في المهمة التي وكلك إليها. إذا كان العدو يتحدانا بالإفقار فكسب المال الحلال وإنفاقه في وجوهه الصحيحة أول عبادة.

اليوم العدو يتحدى المسلمين بالإفقار! يأخذون منا ثرواتنا ويهددونا، العبادة الأولى أن تكون منتجاً وكاسباً للمال، وتنفق هذا المال في وجوهه الصحيحة، وإذا كان العدو يتحدانا في إضلالنا فالعبادة الأولى تعني أن نوضح الحق، ونبين، وننشر الحق، ونلقي الحق على الناس، ونأتي بالحجج والبراهين والأدلة والمؤيدات، ونطالع، ونقرأ، ونؤلف، ونلقي الحق على الناس، وإذا كان العدو يريد إفساد أخلاق أبنائنا فينبغي أن نصونهم من كل فساد، ونهيئ لهم مناشط إسلامية، ونحفظهم، ونؤسس لهم كل ما يشدهم إلى الدين، إن أراد إفقارنا فالعبادة الأولى كسب المال الحلال، إن أراد إضلالنا فالعبادة الأولى أن نوضح الحق للناس، إن أراد إفسادنا فالعبادة الأولى أن نصون أجيالنا من الضياع والفساد، أما إذا أراد العدو أن يذلنا فالعبادة الأولى أن نثأر لشخصيتنا وكرامتنا وديننا، أما إذا اجتاح أرضنا ينبغي أن ننهض جميعاً لرد عدوانه، هذا المفهوم التعبدي الواسع الشمولي الذي يتناسب مع قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

إله يأمر بحركات جوفاء وتمتمات لا معنى لها، ينبغي أن يكون أمر العبادة متناسباً مع عظمة الله عز وجل.

حركة الإنسان و سكناته يجب أن تكون متعلقة بالأحكام الشرعية :

حينما تذبح دابة ولا تحد شفرتك، وعندئذ لا ترتاح ذبيحتك، فأنت في معصية، العبادة أنك إذا ذبحت أن تحسن الذبح، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

أما هذا الذي يذبح الدجاجة، ثم يغمسها في الماء المغلي كي يسهل عليه نتف ريشها هذا يعصي الله، كل أوهامنا أن الدين صيام وصلاة بالجامع، بكل مهنة وحرفة أنت حينما تضيف مادة لصنعتك الغذائية تضر بالمسلمين أنت في أكبر معصية، ولو صليت ألف ركعة في اليوم، حينما تضيف مادة مسرطنة لكنها تحسن لون البضاعة، ولا ترعى صحة المسلمين فأنت في أكبر معصية، أنت حينما لا تعلم الصغار إذا كنت معلماً العلم النافع الصحيح فأنت في أكبر معصية، أنت حينما تتسلم قضية لموكل، ولا تحسن المرافعة أمام القاضي فأنت في معصية، أنت حينما تعالج مريضاً بسرعة ومن دون تؤدة وإتقان فأنت في معصية، كل حركاتك وسكناتك متعلقة بالأحكام الشرعية.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى)

الدائرة الأولى أخوك، أختك، ابنك، ابن أخيك، ابن أختك، ذوي القربى، جدك، جدتك.

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى)

الدائرة الأولى من الأقرباء والثانية والثالثة والرابعة.

النبي عليه الصلاة والسلام يوجه بعض أصحابه أن يتوجه ليتصدق على بعض الأقربين فعَن الرَّبَابِ عَنْ عَمِّهَا سَلْمَانَ ابْنِ عَامِرٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال:

((إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْراً فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ، وقَالَ: الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ))

[سنن الترمذي عَن الرَّبَابِ عَنْ عَمِّهَا سَلْمَانَ ابْنِ عَامِرٍ]

(وَبِذِي الْقُرْبَى)

التضامن الاجتماعي أساسه النسب، وكل إنسان يعرف أهله وأوضاعهم الاجتماعية ومشكلاتهم الصحية والاجتماعية والمالية والتربوية.

رعاية اليتيم وصلة القربى من أعظم الأعمال الصالحة :

قال:

(وَالْيَتَامَى)

اليتيم هو الذي فقد الأب والمعيل والراعي والولي، فقد الذي يهتم بشأنه، قد تجد من يعتني بالأيتام عناية لا حدود لها، ومع ذلك كل هذه العناية التي أساسها نفقات باهظة لا تساوي أن يكون الابن مع أبيه، لأنه ما من إنسان على وجه الأرض أحرص على سلامة ابنه وسعادته من أبيه وأمه، فهذا اليتيم فقد الأب المعيل المشرف المعلم، لذلك يقتدي منهج الله عز وجل أن ينهض جميع المسلمين لرعاية هذا اليتيم، وشاءت حكمة الله أن يكون سيد الخلق وحبيب الحق يتيماً إكراماً لليتامى، وأحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم، فأن ترعى يتيماً من أعظم الأعمال الصالحة.

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)

تصور كل إنسان آتاه الله مالاً أو علماً أو جاهاً تفقد أقربائه، زارهم، دعاهم، كم تكون الحياة رائعة.

حدثني أخ ورجاني أن أنقل لكم قصته: نشأ على تقاطع بين أفراد أسرته، فلما حضر دروس العلم خطر في باله أن يزور أقرباءَه، طرق باب أحد الأسر في العيد لا يعرفونه قال: أنا ابن عمكم، فاستقبلوه، وقدروا له هذه الزيارة، ووعدوه أن يردوا له هذه الزيارة في بيته، دخلوا إلى بيته فإذا هو بيت لا تدخله أشعة الشمس إطلاقاً، تحت الأرض، وغير صحي، فهؤلاء الأقربون المحسنون تبرعوا له ببيت، بمبلغ جيد جداً، أقسم بالله أنه حينما وصلهم لا يقصد الذي حصل إطلاقاً، ولم يعلم أنهم يفعلون هذا، ولكن هذه بركة التواصل. إذا كل إنسان وصل أهله، تفقد أحوالهم؛ بالمناسبة أيها الأخوة، صلة الرحم لا تعني أن تزورهم فقط، بل تتفقد أحوالهم المعيشية التربوية العلمية، أن تسأل عن أولاد أخوتك كيف أحوالهم، ودينهم، وتوجيههم، وتحصيلهم، وصحتهم، أن تزورهم، وتتفقد أحوالهم، وتحل بعض مشكلاتهم، ثم تأخذ بيدهم إلى الله، هذا هو المعنى الدقيق لصلة الرحم.

تعبير الفقراء والمساكين إن اجتمعا افترقا وإن افترقا اجتمعا :

قال:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى)

الدائرة الثانية إنسان له خالة، عمة، عم، خال، ابن أخ، ابن أخت، حفيد جد، ينبغي أن يصل هؤلاء ويتفقد أحوالهم جميعاً، أن يمد إليهم يد المساعدة جميعاً، هذا هو الدين.

لذلك سبحان الله من أدق الأحاديث الشريفة ما ذكره النبي أن: صلة الرحم تزيد في الأجل؛ بمعنى أن الأعمال الصالحة التي تكتب لك من هذه الصلة كأنك عشت عمرين، بهذا المعنى.

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

المسكين في القرآن الكريم تعبير الفقراء والمساكين، فإن اجتمعا افترقا، وإن افترقا اجتمعا، إذا قال الله: للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم؛ تعني الفقراء والمساكين، وإذا قال: المساكين؛ تعني الفقراء والمساكين، أما إذا قال: للفقراء والمساكين، افترقا! ليس الفقير من ترده اللقمة أو اللقمتان، ولكن الفقير الذي لا يجد حاجته، يسكن بيتاً، يبيع بيته! كيف هذا؟! أين سيسكن؟ لكن يحتاج لعملية جراحية لابنه، ودخله محدود، هناك من يتسم بضيق الأفق يبيع بيته، إذا باع بيته أين يسكن؟ فهذا اسمه فقير، دخله لا يغطي حاجاته، هذا ينبغي أن نساعده ونعينه إما لسنة أو لطول العمر، عن طريق تهيئة حرفة له أو أداة أو آلة أو مركبة، أما المسكين العاجز الساكن الذي لا يتحرك، ذو العاهة، فإذا قال الله: المساكين؛ تعني الفقراء والمساكين، وإذا قال: الفقراء؛ تعني الفقراء والمساكين، أما إذا قال: الفقراء والمساكين؛ عندما يجتمعان يفترقان، فالفقير هو الذي لا يجد حاجته، كل إنسان دخله أقل من المصروف الأساسي كالطعام والشراب وثياب ومعالجة ومأوى هذه أساسيات الحياة، فالذي دخله لا يكفي لأساسيات الحياة هذا عند الله فقير، أما المسكين الذي لا يتحرك، مصاب بمرض عضال، هذا ليس له دخل إطلاقاً.

في الآية التالية ثلاثة أنواع للجيران :

قال تعالى:

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

أخواننا الكرام، في مصطلح العلماء أربعون بيتاً من جهة الشمال هم جيرانك، وأربعون بيتاً من جهة الجنوب هم جيرانك، وأربعون بيتاً بجهة الشرق هم جيرانك، وأربعون بيتاً بجهة الغرب هم جيرانك، وأربعون طابقاً فوقك هم جيرانك، وأربعون طابقاً تحتك في اليابان هم جيرانك! أربعون بيتاً في كل الجهات هم جيرانك.

((مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيوّرثه))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

عندما يكون الإنسان في بناء، والجيران يحبهم ويحبونه، ويرعاهم ويرعونه، لو أنه سافر يسافر مطمئن البال.

حدثني أخ قال: كنت مسافراً، وابني دهس بسيارة قال: الجار كأنه ابنه أخذه للمشفى، وعالجه أدق علاج، وأعاده إلى البيت، وتتبع مشكلة السائق الذي فعل الحادث، ورعى تمريضه بعد حين والأدوية، هذا الجار، لذلك الجار شيء مقدس جداً. لكن هنا في الآية يوجد ثلاثة أنواع للجيران:

1 ـ الجار ذي القربى :

يوجد الجار ذي القربى، جار مسلم له حقان؛ حق الجوار وحق الإسلام، جار مسلم ابن أخيك له ثلاثة حقوق؛ حق الإسلام، وحق الجوار، وحق النسب، فكل جار له حق فوق حق الجار هو الجار ذي القربى، والجار ذي القربى أي عنده حق زائد، قد يكون قريباً وقد يكون مؤمناً، إن كان لك جار مؤمن فهذا شيء استثنائي، ويصلي الفجر، ويغض بصره عن أهلك، ويرعاك عند الشدة، يتفقدك، يزورك، يمدك بكل خير، والجار ذي القربى جار مؤمن أو قريب أو جار مؤمن قريب له ثلاثة حقوق، حق الجار، وحق القربى، وحق الإيمان.

2 ـ الجار الجنب :

هناك جار جنب، لك جار غير مسلم يجب أن ترعاه. يقال: إن أبا حنيفة رحمه الله تعالى له جار شاب أقلقه مدة طويلة جداً بغنائه، وله أغنية مشهورة: أضاعوني وأي فتى أضاعوا، فلما ألقي القبض عليه لمخالفة ارتكبها ذهب أبو حنيفة بمكانته الكبيرة للمحتسب، وتوسط له وأعاده، وفي طريق العودة عاتبه قال: هل أضعناك يا فتى؟ لعلك إن أحسنت إلى جار ليس ملتزماً يمكن أن ترده إلى الدين بإحسانك، وكم من جار التزم الشريعة بإحسان جاره له، هذا الجار الثاني جار الجنب جار لصيق فقط، من يسكن فوقك؟ لا أعرف! هذا شيء مألوف في زمن التفلت، بناء من أربع طوابق لا يعلم الجار من فوقه، ولا يوجد بينهما سلام، بينما المؤمنون الجار شيء مقدس، إن استعان بك أعنته، إن استقرضك أقرضته، إن أصابه خير هنأته، إن أصابته مصيبة عزّيته، إن مات شيعته، لا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الرياح إلا بإذنه، إن اشتريت فاكهة فأهدي له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذِه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، هذا حق الجار.

((مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

هذا الجار الجنب، إنسان قد يكون غير مسلم ينبغي أن تحسن إليه.

اطلعت على قصة لم يتح لي أن أراجع مدى صحتها، لكن لها معنى: كان للنبي جار يؤذيه، في أحد الأيام كفّ عن أذى النبي، فظنه مريضاً فعاده، فكانت عيادة النبي له سبب إسلامه، ينبغي أن تحسن إلى جارك ولو كان مسيئاً.

3 ـ الصاحب بالجنب :

قال تعالى:

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

هذا جار طارئ، أنت مسافر لحلب، الذي إلى جانبك هذا جار طارئ، في سفر، أو حفل، أو مشروع، أو طالباً في كلية، بعمل واحد، فكل معاملة طارئة مغطاة، والصاحب بالجنب، ويوجد علماء قالوا: هو زميل العمل، أنت في دائرة مدرس، هو مدرس معك، أو محام معك في المكتب، أنت طبيب، وهو طبيب معك في العيادة، تاجر جارك بالتجارة، زميل، زميل العمل، أو جار طارئ مسافر.

(وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

هؤلاء ينبغي أن تحسن إليهم.

عظمة الإنسان ليست في استعلائه بل في طاعته لله :

قال تعالى:

(وَابْنِ السَّبِيلِ)

المنقطع في الطريق ليس له مأوى، وقد فقد ماله، هذا ابن السبيل ينبغي أن نحسن إليه، وكثيرون هم أولئك الذين ينقطعون، هم طلاب علم أحياناً يطلبون مبلغاً ليعودون لأوطانهم، هذا المبلغ محسوب من الصدقات.

(وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَت أَيْمَانُكُمْ)

بالمفهوم الواسع عندك شاب في المحل التجاري، هذا موظف عندك ينبغي أن تعامله معاملة طيبة، عندك خادم ينبغي أن تطعمه مما تأكل، ومما تلبس، ولا تكلفه مالا يطيق، والليل له والنهار لك، إن كلفته ما يطيق ينبغي أن تعينه على ذلك، وتحسن إليه، هذا الإسلام، الفوقية العالية غير إسلامية، هذا أخ مؤمن تحت يدك، عمال بمعمل، موظفون في محل تجاري، خدّام في المنازل بالمعنى الواسع، هؤلاء ملكت شؤونهم، يعملون لصالحك ويتقاضون منك أجراً، بالمعنى التقليدي العبيد الذين أخذوا أسرى في الحرب.

(وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

أنت إنسان عظمتك ليست في استعلائك بل في طاعتك لله، من صفات النبي عليه الصلاة والسلام يصغي الإناء للهرة، ويخدم نفسه، وفي مهنة أهله، هذه من صفات النبي عليه الصلاة والسلام.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)

اختياله لا أساس له، هو عبد فقير.

((إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجة عن أبي مسعود]

مختالاً في مشيته، فخوراً في كلامه.

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

[سورة البلد: 6]

أنا أنفقت على العرس كذا مليون، أنا في سفرتي كلفتني مئة ألف، هكذا يتباهى بإنفاق المال.

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)

[سورة البلد: 6]

المؤمن لا يختال لا في مشيته، ولا في حركته، ولا في سكنته، كما أنه لا يفتخر بحاله بل يرى فضل الله عليه.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(21-69): تفسير الآيات 37 - 40 ، البخل والرياء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان فيه نقطة ضعف في أصل خلقه لكنها لصالحه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

هذا نموذج بشري؛ بخيل، ويأمر الناس بالبخل، ويدِّعي أنه فقير، نموذج، ونموذج هيأ الله له عذاباً مهيناً، والعذاب الذي يذكره الله في القرآن قد يكون عظيماً، وقد يكون مهيناً، وقد يكون أليماً، هناك عذاب أليم، وهناك عذاب مهين، وهناك عذاب عظيم، فهذا الذي يبخل، ويأمر الناس بالبخل، ويدَّعي أنه فقير هذا أعد الله له عذاباً مهيناً.

أيها الأخوة، الإنسان فيه نقطة ضعف في أصل خلقه لكنها لصالحه يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

وقد فسرت الآية نفسها معنى الهلع:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 20-21]

هذا ضعف في أصل خلقه، لماذا هو ضعف ولصالحه؟ لأنه إذا أنفق المال يرقى عند الله، طبيعة النفس جبلتها تحرص على ما في يديها،

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

لو أنه لا يجزع ولا يخاف كيف يعالجه الله عز وجل؟ لو أنه لا ترتعد مفاصله إذا لاح له شبح مصيبة كيف يتوب إلى الله عز وجل؟ لو أنه لا يتأثر بالشدائد كيف يؤوب إلى الله عز وجل؟ لو أنه لا يعبأ بالمصائب كيف يتضرع لله عز وجل؟ إذاً لولا أن طبيعة النفس جزوعة أي شديدة الجزع ما تاب أحد إلى الله عز وجل.

السكينة هي رحمة الله والكآبة خروج عن منهج الله تعالى :

لو سألت ألف تائب ما سبب التوبة؟ لاح له شبح مصيبة، أو أنزل الله به مصيبة فاختل توازنه، فطبيعة الإنسان أنه جزوع، وجزوع على وزن فعول، أي شديد الجزع؛ أي لا سمح الله ولا قدر أبعد الله عنا وعنكم كل مرض عضال، لو أن إنساناً أجرى فحوصاً فأخبره الطبيب أن هناك ورماً خبيثاً، ربما لا يستطيع أن يقف على قدميه، سمعت عن طبيب أبلغ مريضه أنه مصاب بورم خبيث، وأنه قد يمتد به العمر إلى أربعة أشهر في اليوم التالي مات، لم يحتمل هذا الخبر، (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)، هذا الإنسان الذي لا يحتمل مرضاً عضالاً، ولا يحتمل فقراً مدقعاً، ولا يحتمل إذلالاً، ولا يحتمل قهراً، كيف يعصي الله؟ مشكلة الشارد عن الله أنه يعيش لحظته فقط، مثله كمثل النعامة تماماً، لا شيء يمكن أن يعطيك الأمل، ولا شيء يمكن أن يهبك التفاؤل إلا أن تكون مع الله، لذلك المؤمن يردد قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

له ثقة كبيرة بالله، مطمئن إلى المستقبل، الآن مرض الكآبة مرض نفسي خطير، من أشد الأمراض انتشاراً في العالم، كآبة، ضيق، غني ومعه كآبة، مدير عمل ناجح ومعه كآبة، يتمتع ببيت مثالي ومعه كآبة، الكآبة من خلق الله عز وجل، إذا خرج الإنسان عن منهج الله يصاب بالكآبة، ولو كان من أغنى الأغنياء، ولو كان من أقوى الأقوياء، ولو كان من أنجح الناس في أعماله، الكآبة مرض قد تصيب الناجحين، لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، وقد يصابون بالكآبة، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، السكينة هي رحمة الله، والله سأقول كلمة لعل معظمكم يقول: إنها مبالغة، المنفردة مع السكينة تغدو قطعة من الجنة، والبيت الرائع مع فقد السكينة تغدو كالمنفردة، ومن ذاق عرف. إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

التناقض بين التكليف والطبع هو ثمن الجنة :

إذا تجلى الله على قلبك فأنت من أسعد الناس، وإذا حجبك الله عنه فأنت من أشقى الناس، إن أردت السعادة، إن أردت السلامة، ليس من طريق إلى السلامة والسعادة إلا أن تكون مع الله، لأن إذا كنت مع الله كان الله معك، وكن مع الله تر الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، فلذلك:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

شديد الخوف، شديد الجزع، لا يحتمل مرضاً، ولا فقراً، ولا سجناً، ولا إهانةً، ولا فقد ولد، ولا فقد زوجة،

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

هذا طبع فيه، الأصل في طبع الإنسان أنه حريص على ما في يديه، والتكليف أن تنفق، ولا بد من تناقض بين التكليف وبين الطبع، وهذا التناقض بين التكليف وبين الطبع هو ثمن الجنة، وما سمي التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كلفة، شيء مكلف، أي فيه معاكسة للطبع، وما دام الموضوع قد طرق فلا بد من تكملة له، التكليف يتوافق مع الفطرة، ويتناقض مع الطبع، والفطرة أقرب إلى النفس، والطبع أقرب إلى الجسد، وأوضح مثل إنك إذا صليت الفجر في وقته، وقد تكون قد أويت إلى الفراش الساعة الثالثة صباحاً تنام ساعة ونصفاً، أو ساعتين، وتستيقظ لصلاة الفجر، إنك تعاكس رغبتك في النوم، إنك تعاكس رغبتك في أن تبقى في الفراش، ولكنك بعد أن تستيقظ، وتتوضأ، وتصلي، ثم تأوي إلى فراشك ترتاح نفسك، أتعبك جسدك، وارتاحت نفسك، فأداء الصلاة في وقتها يتعب الجسد أحياناً ويريح النفس دائماً، فكل شيء من أمر الله ونهيه يتوافق مع الفطرة، وكل أمر ونهي يتناقض مع الطبع، وهذا هو جهاد النفس والهوى، وهذه هي الطاعة، وهذه الجنة يدفع المؤمن ثمنها حينما يضع رغبته تحت قدمه وينصاع لأمر الله، فلذلك الإنسان في أصل بنيته يحرص على ما في يديه، لكنه حرص معتدل، أما البخيل فعنده حالة مرضية، حالة حادة من الحرص، البخيل إنسان مريض، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

ومن كلمة

(يوقَ)

معنى ذلك أن الشح مرض خطير، كيف أن الجسم يصاب بمرض عضال كالورم الخبيث، كالخثرة في الدماغ، كالفشل الكلوي، كتشمع الكبد، كالشلل، كذلك النفس من أشد أمراضها الشح، حريص على ما في يديه، يعيش فقيراً ليموت غنياً.

صفات البخيل :

قال بعض الشعراء:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباقٍ ولا خالد
فلو استطاع بتقطيره تنفس من منخرٍ واحد

* * *

من شدة تقطيره، البخيل دائماً يشعر بمشقة بالغة إذا أنفق، ولو إذا أنفق ثمن طعامه، يحرم نفسه، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

إن أندم الأغنياء غني دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، بخل ولم يعطِ، البخيل من صفاته الأخرى أنه يبخل عن نفسه، قد يبخل عن غيره، لكن البخيل في حالاته الحادة يبخل عن نفسه فلا يعطي نفسه ما تحتاج، ويرى أن كنز الدرهم والدينار أفضل عنده من تلبية حاجات نفسه، ثم إن البخيل له دعوة، كيف أن المؤمن له دعوة، والبخيل له دعوة، لا بد من أن يدعو الناس إلى البخل،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

وفي بعض المصطلحات هناك فاسد، وهناك فاسد مفسد، هناك ضال، وهناك ضال مضل، فالبخيل أينما ذهب، وأينما حل ينصح الناس بعدم الإنفاق، لا يحتمل أن يرى منفقاً، يتألم أشد الألم، أو يراه غبياً، إما أن يتألم لأن إنساناً كشف بخله بإنفاقه، أو يراه غبياً بهذا الإنفاق، فهو لا يكتفي أن يكون بخيلاً يدعو الناس إلى البخل.

أيها الأخوة، البخيل لا يتمنى أن ينتفع الناس من حوله إطلاقاً، ولو لم يكن نفعهم من ماله، لا يتمنى أن ينتفع الناس من حوله إطلاقاً، ولو كان نفعهم ليس من ماله، هذه صفات البخيل، أما إذا حدثته وحدثك يشكو من الفقر، وهناك ظاهرة أيها الأخوة عجيبة، تجد إنساناً في هذه البلدة الطيبة دخله محدود، ولا يكفيه نصف الشهر، تسأله: كيف حالك؟ يقول لك: الحمد لله، يقولها من أعماق قلبه، يقول لك: الحمد لله، الله أنعم علينا بالصحة، أنعم علينا بسمعة طيبة، أنعم علينا ببيت فيه زوجة وأولاد، أنعم علينا بالإيمان، إذا أراد أن يعدد لك النعم التي أنعم الله بها عليه لا تنتهي، وهو مستبشر، ويعيش على الكفاف، بل إنه تحت الخط الأحمر، وقد تلتقي بإنسان يملك الملايين المملينة تجلس معه ساعة فلا تستطيع أن تقف.

الإنسان حينما يتصل بالله تتبدل صفاته وخصائصه :

حدثني أخ كريم، قال لي: دخلت على أحد الأثرياء، وقد ذكر رقماً لثروته قد لا يصدق، بآلاف الملايين، من شدة ما شكا إلي، شكا إلي بوار الأسواق، وسوء معاملة الناس له، وشكا بيته وزوجته، قال لي: والله لم أستطع أن أقف على قدمي، ذهبت إلى محلي التجاري كما يقول، فإذا امرأة محجبة تطلب منه مساعدة، وعينت له مكان إقامتها في إحدى القرى المحيطة بدمشق، قال: ذهبنا إلى بيتها للتحقيق فوجدناه بيتاً تحت درج، درج وتحته فراغ، الفراغ الأعلى غرفة، والأدنى حمام، مع فسحة سماوية صغيرة، هي تريد أجرة هذا البيت، ألف ليرة بالشهر، قال: دخلنا إلى البيت، أقسم لي بالله وهو عندي صادق، أنه ارتاح راحة لا حدود لها، بيت كأنه قطعة من الجنة، نظيف، الأطفال يمرحون، أبوهم مريض مضطجع على السرير، البيت محتشم، هذا البيت لا يمكن أن يسكنه إنسان،

ورأى السعادة والبشرى على وجوه من في هذا البيت، في اليوم الذي التقى فيه بالغني، وشكا له ما شكا، فالله عز وجل قد يعطيك الدنيا ولا يسعدك، وقد يحرمك منها ويسعدك

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

لحكمة بالغة، لذلك ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، البخيل إنسان محروم، يتمسكن، يدعي الفقر، يدعي أنه لا يملك نقود، يملك سندات، إذا جاءه من يستقرضه له كلام معروف مكرر، لا شيء بالصندوق أبداً، كله ديون وهموم، يقول لك: عندي ديون وعندي هموم، ولكن ليس عندي نقد ألبي به حاجتك،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

فالنقطة الضعيفة في خلق الإنسان أنه،

(خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

هذا الطبع، قال:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 22]

معناها الإنسان حينما يتصل تتبدل صفاته، تتبدل خصائصه، وهذا معنى قوله تعالى حينما يحدثنا عن التائبين.

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

[سورة الفرقان: 70]

أي كان بخيلاً فأصبح كريماً، كان جباناً فأصبح شجاعاً، كان غضوباً فأصبح حليماً، فالإنسان الذي يتصل بالله عز وجل ولا يتبدل خلقه هذه مشكلة كبيرة، معنى ذلك أن اتصاله كاذب ليس حقيقياً،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

أي أحياناً الله جل جلاله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

وصف للمصلين الذين تُقبَل صلاتهم :

في بعض الأحاديث الشريفة يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[عن جبير بن مطعم]

الإنسان حينما لا يكون بخيلاً، ولا يكون شحيحاً، هذه نعمة كبرى أنعم الله بها عليه، أي من خلال اتصاله بالله عز وجل اشتق من كمال الله الكرم، المؤمن كريم يجود بما لديه، والمنقطع عن الله بخيل، المنقطع عن الله يعود إلى أصل طبعه.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

من هم هؤلاء المصلون؟ ورد في بعض الآثار القدسية أنه:

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها، ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أيها الأخوة الأكارم، النقطة الدقيقة أن المصلين كما قلت قبل قليل: ليس كل مصلٍ يصلي، من هو الذي تقبل صلاته؟ قال في قوله تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ* وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ*وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

[سورة المعارج: 23-26]

نعمة المال ومهامه :

قبل أن أتابع لا بد من تعليق من علم الكلام، الصفة قيد، فإن قلت: إنسان، هذه تعني ستة آلاف مليون في الأرض الآن، يكفي أن تقول: إنسان مسلم، الرقم نزل إلى مليار ومئتين، يكفي أن تقول: إنسان مسلم عربي، أصبحوا مئتين وخمسين مليوناً، يكفي أن تقول: إنسان مسلم عربي مثقف، مئة مليون، يكفي أن تقول: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب، أصبحوا خمسمئة ألف فكلما أضفت صفة ضاقت الدائرة، فإذا قال الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

ضاقت الدائرة، الآن:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

ضاقت الدائرة،

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

ضاقت الدائرة،

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

ضاقت.

(وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المعارج: 27-30]

ضاقت وضاقت، هذا المصلي الذي تبدل صلاته بنيته، ليس كل مصلٍ يصلي، هذا المصلي دائم الاتصال، الذي يحفظ لسانه وفرجه، صادق، أمين، عفيف،

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

ما معنى الكافرين هنا؟ كفر نعمة الله، نعمة المال نعمة كبيرة، أول هدف منها أنك تكفي أهلك، حبذا المال أصون به عرضي، لكن المهمة الأكبر أتقرب به إلى ربي، فكل إنسان مكن في الأرض من خلال المال، عنده مهمتان أن يصون عرضه بهذا المال، وأن يتقرب إلى ربه بهذا المال، أما الإنسان غير المؤمن إذا مكنه الله بالمال يظن أن هذا المال من أجل أن يزداد نعيمه في الدنيا، فينفق المال إنفاقاً فيه إسراف وتبذير في المباحات وفي المعاصي والآثام.

عند الموت الفقر الحقيقي فقر العمل الصالح :

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

الإنسان البخيل في بدايات حياته يظن أن المال هو كل شيء، يعبده من دون الله، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، يحلف يميناً كاذبة من أجل المال، يطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً من أجل المال، أما في منتصف العمر يدرك أن المال شيء، لكنه ليس كل شيء، أما على فراش الموت يدرك أن المال ليس بشيء.

والله حدثني أخ قال لي: رجل على فراش الموت جمع من الحرام ثمانمائة مليون ليرة، من القمار، وجاءه مرض عضال في سن غير متوقعة في سن مبكرة، هو على فراش الموت قال: ماذا أفعل؟ ليتني كنت متسولاً دون أن أملك هذا المال الحرام، قال له أحدهم وهو على فراش الموت: لو أنفقته كله لا تنجو من عذاب الله، فالإنسان في البدايات يظن أن المال هو كل شيء، بعد حين يرى أن المال ليس كل شيء، لكن عند الموت يراه ليس بشيء، إن الغنى غنى النفس.

أخواننا الكرام، عند الموت الفقر الحقيقي فقر العمل الصالح، من قوله تعالى:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص: 24]

الفقر الحقيقي فقر العمل الصالح، أن تأتي يوم القيامة صفر اليدين، تروي بعض الآثار القدسية:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول : يا رب

أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله له : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

الرياء :

نموذج آخر هذا نموذج بشري متكرر:

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ)

[سورة النساء: 38]

هو لا يعرف الله، لكن يحب أن يكتب عنه أنه محسن كبير، يحب أن ينتزع إعجاب الناس، يحب أن يرائي بإنفاقه الناس، يحب أن يكسب مكانة علية في المجتمع، وهو ذو مالٍ كثير،

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ)

أي فيما بينهم وبين الفقير لا يعطونه شيئاً، أما في الجمع الغفير، وأمام إعلامٍ كبير ينفقون أموالهم من أجل أن ينتزعوا إعجاب الناس، وأن يحتلوا مكانة مرموقة في المجتمع.

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

وهناك حالات كثيرة جداً ينفق أحياناً مليون، وله قريبٌ قريب يعاني من مرض عضال، ويحتاج إلى عملية جراحية فلا يسعفه، لأن إنفاق المليون له صدى كبير في المجتمع، أما معونة هذا الإنسان الواحد بينه وبينه ليس لها صدى إطلاقاً:

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أيها الأخوة الكرام، سأقول كلمة وأرجو أن تكون واضحة عندكم، إذا أمنت باليوم الآخر الإيمان الحقيقي الذي أراده الله إن لم تنعكس كل موازينك يكون إيمانك غير صحيح، الذي يؤمن باليوم الآخر يرى النجاح والفلاح في الإنفاق، والذي يؤمن بالدنيا وحدها يرى النجاح والفلاح في الأخذ، إن أردت أن تعلم ما إذا كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة انظر إلى نفسك: ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ المؤمن بنى حياته على العطاء مع الإخلاص.

الآية التالية تبين أن في كل مجتمع نموذجين فقط :

قال:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-9]

كأن هذين النموذجين في كل مجتمع؛ إنسان آمن بالحسنى، آمن أنه مخلوق للجنة، وآمن أن هذه الدنيا دار عمل، وآمن أن هذه الدنيا دار إعداد، وآمن أن هذه الدنيا دار سعي، وأن السعادة والرخاء والقرب من الله في الجنة، هذا لأنه آمن بالحسنى يتقي أن يعصي الله، وهو مستقيم، ولأنه آمن بالحسنى بنى حياته على العطاء، همه أن يعطي، الحديث الدقيق:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

إن كان أكبر همك هو الآخرة جعل الله غناك في قلبك، وجمع عليك شملك، وأتتك الدنيا وهي راغمة، هؤلاء:

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

من باب الطرفة ربما لا يدفع أحدهم مبلغاً لمسجد إلا إذا وضعت قطعة من الرخام على أسفل المئذنة تنوه أن الذي أنشأ هذه المئذنة فلان، من دون هذه القطعة لا ينفق، معنى ذلك هناك خلل في إنفاقه، المخلص لا يعبأ، أنوه الناس بفضله أو لم ينوهوا، لكن أنا مكلف كمؤمن أن أنوه بفضل الآخرين، المؤمن ينوه بفضل الآخرين، لكن الذي ينفق ينبغي ألا يتأثر عطاؤه بالتنويه أو بعدم التنويه، هو لأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر إذاً ينفق ماله رئاء الناس.

المال من نعم الله الكبرى يصل الإنسان بها إلى أعلى درجات الجنة :

قال:

(وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً)

أي هناك ملك يلهمك أو شيطان يوسوس لك، المؤمن يستجيب لإلهام الملك، والذي لا يؤمن يستجيب لإلهام الشيطان، طبعاً الشيطان يوم القيامة يقول:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة إبراهيم: 22]

أخواننا الكرام، يجب أن أنوه لهذه الحقيقة، المال من نعم الله الكبرى، ويستطيع الذي أتاه الله المال أن يصل إلى أعلى درجات الجنة، والنبي عليه الصلاة والسلام:

((لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل علمه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار))

[رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر وفي الباب عن أبي هريرة وغيرهما]

لذلك المال نعمة كبيرة جداً، أنت بالمال بإمكانك أن تفعل أعمالاً لا تعد ولا تحصى، بالتعبير المعاصر خيارات الأعمال الصالحة أمام الغني لا تعد ولا تحصى، بإمكانه أن يقدم عملاً لفقير، بإمكانه أن يزوج شاباً، بإمكانه أن يشتري بيتاً لزوجين اتفقا على الزواج ولا مأوى لهما، بإمكانه أن يرعى الأيتام، بإمكانه أن يوسع الدعوة إلى الله عز وجل، بإمكانه أن يتبنى الدعاة إلى الله، أبواب الخير المفتحة أمام الأغنياء لا تعد ولا تحصى، وهذه الأبواب كلها وراءها طرق سالكة إلى الجنة، أما الإنسان إذا كان غافلاً عن الله عز وجل، ولا يعرف الله، وليس مؤمناً باليوم الآخر يتوهم أن هذا المال من أجل متعه فقط، لكن الحقيقة العلمية أن متع الحياة لها سقف، لو أنك تملك ألف مليون، كم تأكل؟ وجبة، كم ثياب ترتدي مرة واحدة؟ ثياب واحدة، على كم سرير تنام؟ على سرير واحد، في كم بيت تسكن؟ في بيت واحد، الدنيا لها سقف، مهما كنت غنياً فهناك سقوف تحد من قدرتك على الاستمتاع بالمال، أما الآخرة فلا نهاية لها، لذلك من قدم ماله أمامه سره اللحاق به، وقد يصل الأغنياء من المؤمنين إلى مراتب علية جداً، وأبواب الخير ولا سيما في هذه الأيام والله لا تعد ولا تحصى، والله هناك فقر شديد، وهناك أمراض كثيرة، وهناك حاجات كثيرة تحتاج إلى من ينفق، لذلك الغني المسلم له شأن كبير في المجتمع الإسلامي، لأنه يسد ثغرةً كبيرةً، الناس في أمس الحاجة إليه، وأنا حينما أتحدث عن البخل هؤلاء الذين ما عرفوا الله، وما عرفوا الدار الآخرة.

المؤمن إذا عرف الله عز وجل جاءته الدنيا وهي راغمة :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً)

هل يقل استمتاعك بالحياة إذا آمنت بالله واليوم الآخر، ليس في الإسلام حرمان أبداً، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، لو أنك آمنت بالله واليوم الآخر هل أنت محرم عليك أن تأكل كل مما لذ وطاب؟ هل أنت محرم عليك أن تتزوج؟ لا، تزوج، كل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، أي أنه ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً، لكن في الإسلام تنظيم، ماذا عليهم؟ أي هذا الغني لو أنه اتصل بالله، وأنفق ماله في سبيل الله، وأكل، وشرب، واكتسى هو وأهله وأولاده ومن حوله ماذا عليه لو آمن بالله؟ ماذا عليه لو حقق الهدف من وجوده؟ ماذا عليه لو حقق علة وجوده وهي عبادة الله عز وجل؟ كأن فيها عتاب من الله، أي ماذا عليك أيها الطالب لو درست ونلت درجة عليا علمية، وافتخر بك أبوك، وكنت قرة عين

لأمك وأبيك، وحصلت دخلاً كبيراً، وتزوجت امرأة صالحة، وأسست بيتاً إسلامياً، ماذا عليك لو درست؟ لمَ لم تدرس؟ ماذا عليك لو استقمت، هل تخرب الدنيا؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً)

[سورة القصص: 57]

قبل أن تسلموا كان لكم حرم آمن، بعد إذا أسلمتم تتخطفون من الأرض، المؤمن إذا استقام واصطلح مع الله هل يُحرَم الدنيا؟ لا والله، تأتيه وهي راغمة، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، حياة المؤمن لها معنى آخر، إذا عرف الله عز وجل جاءته الدنيا وهي راغمة.

البخيل لا يعرف الله لأنه لو عرفه لعرف أن الله سيكافئه على إنفاقه أضعافاً كثيرة :

قال:

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً)

هم حينما يبخلون لماذا يبخلون؟ كي يستمتعوا بهذا المال، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

أنت حينما تنفق تنال من الله أضعافاً مضاعفة:

((أنفق بلالُ ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[أخرجه الطبراني عن بلال]

عبدي أنفق أُنفق عليك، وفي آيات ثمانية في القرآن الكريم يبين الله عز وجل أن الله يخلف على المنفق، هذا البخيل لا يعرف الله، لو عرف الله لأنفق ماله في سبيله، فالله عز وجل يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة البقرة: 245]

إذاً هذا البخيل لا يعرف الله، ولو عرف أن الله سيكافئه على إنفاقه أضعافاً كثيرة، قد تصل إلى سبعمئة ضعف لدهش، الله عز وجل هو الكريم إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

وفي الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(22-69): تفسير الآيات 40-42 ، عدل الله سبحانه وطاعة رسوله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

العقل البشري لا يستطيع أن يحيط بعلم الله عز وجل وعدله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى الذات الكاملة، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، والله عز وجل في كل أسمائه الحسنى مطلق، الإنسان نسبي، قد يقضي القاضي بمئة حكم، تسعة وتسعون منها أحكام عادلة، وفي أحكامه حكم واحد فيه ظلم يسمى عند الناس قاضياً عادلاً، لكن الله سبحانه وتعالى كماله مطلق، فلا يمكن أن يكون من الله عز وجل أي ظلم، ولو بدا صغيراً، الإنسان لا يستطيع أن يدرك عدل الله بعقله، لأن عقله محدود، وعقله مرتبط بمكان وزمان معينين، وعقله مرتبط بمعطيات محددة، لكن في حالة واحدة افتراضية يمكن أن تدرك عدل الله بعقلك إذا كان لك علم كعلم الله، ولأن هذا مستحيل وألف ألف مستحيل لا تستطيع أن تدرك عدل الله بعقلك، قد تجد شعوب غارقة في الفواحش والآثام، وشعوب أخرى تعاني ما تعاني، قد تسأل لمَ هؤلاء في بحبوحة وهؤلاء في ضنك؟ العقل البشري لا يستطيع أن يحيط بعلم الله عز وجل، قاصر لكن الله أخبرنا في قرآنه بآيات كثيرة جداً بأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

[سورة العنكبوت: 40]

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النساء: 124]

لا قطمير، ولا فتيل، ولا نقير، وهذه الأسماء مشتقة من حياة العرب في صحرائهم، النواة لها رأس مأنف كإبرة تماماً، اسمه نقير، وبين فلقتيها خيط اسمه فتيل، ولها غلاف رقيق اسمه قطمير، لا تظلمون لا نقيراً، ولا قطميراً، ولا فتيلاً، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ).

على عقلنا أن يقبل من الله أنه أخبرنا عن عدله :

قال تعالى:

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر: 17]

آيات كثيرة جداً تخبرنا عن عدل الله، فعقلنا ينبغي أن يقبل من الله أنه أخبرنا عن عدله.

إخواننا الكرام، هناك تسلسل في علم العقيدة، يمكن أن تؤمن بوجود الله و وحدانيته وكماله من خلال عقلك، ومن خلال هذا الكون الذي كله آيات دالة على عظمة الله، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، ولك أن تؤمن بالقرآن الكريم من خلال عقلك أيضاً لأن فيه إعجازاً كثيراً، آيات الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة جداً، ففي أدلة قطعية أنه لا يعقل، ولا يمكن، ومستحيل، وألف ألف مستحيل أن يكون هذا القرآن من صنع بشر، ثم إنك تستطيع أن تؤمن أن الذي جاء بهذا القرآن هو رسول الله أيضاً بعقلك، بعد أن آمنت بوجود الله و وحدانيته وكماله بعقلك، وبعد أن آمنت بأن هذا القرآن الكريم كلام الله بعقلك، وبعد أن آمنت أن الذي جاء بهذا القرآن الكريم هو رسول الله بعقلك انتهى دور العقل، وبدأ دور النقل أخبرنا الله عز وجل بأنه لا يظلم، هذا دليل أن هناك آية تكفي، ما دمت قد آمنت بالله بأنه هو الصادق، هو الكامل، هو الحكيم، هو الرحيم، هو القوي، هو المتين، هو الرزاق، ما دمت قد آمنت بأسمائه الحسنى من خلال هذا الكون ينبغي أن تصدق إخبارك بأنه لا يظلم، فأنا أعجب من هؤلاء الذين يبحثون عن أدلة عقلية بعدل الله عز وجل، قد تجد إنسان غارق في المعاصي والآثام، ويعيش حياةً مديدة بصحة طيبة، ويموت بهيئة راقية، من قال لك إن الدنيا هي دار جزاء، من قال لك ذلك؟ إنما هي دار ابتلاء فقط، فإذا عاقب الله بعض المسيئين يعاقبهم ردعاً للباقين، وإذا أكرم الله بعض المحسنين يكرمهم تشجيعاً للباقين، ولكن الدنيا ليست دار جزاء إنما هي دار ابتلاء، وليست دار تكريم إنما هي دار تكليف، التشريف في الآخرة والتكليف في الدنيا، الجزاء في الآخرة، والعمل في الدنيا، إذاً وطن نفسك على أنك في مرحلة ابتلاء.

آيات من القرآن الكريم تبين أن الدنيا ليست دار جزاء إنما هي دار ابتلاء :

قال تعالى:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

لا يقلقك أن ترى إنساناً كافراً يتمتع بالحياة الدنيا تمتع البهائم، يأكل، ويشرب، ويرتدي أجمل الثياب، ويسكن في أجمل البيوت، ويركب أجمل المركبات.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

(مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ* فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر: 8-10]

على الإنسان أن يؤمن بعدل الله من خلال آياته وكلامه :

حينما تعتقد أو تتوهم أن هذه الدنيا دار جزاء وقعت في خطأ فاحش، لأنك سوف تفاجئ أنه قد تجد إنساناً كافراً منحرفاً غارقاً في المعاصي، وهو في أبهى زينة، وفي أكبر ثروة، وفي أجمل بيت، وقد تجد إنساناً حريصاً على طاعة الله حرصاً لا حدود له، ويعاني ما يعاني، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، لا شك أن المؤمن يحب أن يوقن أن الله كامل، عادل، رحيم، حكيم، قوي، متين، بيده كل شيء، هذه المعاني ترتاح لها النفس، لذلك حقائق الدين متوافقة مع الفطرة، فأنت حينما تتمنى أن يكون عدل الله مطلقاً فمعك الحق، هذه فطرتك، ولكن لا تسلك طريقاً لم يسمح الله لك به أن تسلكه، ينبغي أن تؤمن بعدله من خلال كلامه، قال لك:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر: 17]

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

عدل الله عز وجل :

آيات كثيرة جداً، لكن أيها الأخوة في مشكلة أتمنى أن تكون واضحة لديكم أنت تعيش في مجتمع، وفي هذه المجتمع الغني والفقير، والصحيح والمريض، والقوي والضعيف، والوسيم والدميم، والمعمر وقصير العمر، ما الذي يحدث؟ ترى أن زيداً من الناس قد أصيب بمرض عضال، أنت اطلعت على قصة في آخر فصل من فصولها، ولأنك لا تدري بقية الفصول تقع في حيرة، لمَ يفسر

هذا المرض؟ والذي مرض إنسان مسلم مؤمن مستقيم فيما تعلم، قد تجد إنساناً آخر في أشد حالات المعصية والانحراف، ومع ذلك في بحبوحة وجسمه قوي، أيضاً أنت اطلعت على قصة في آخر فصل من فصولها، ولم تطلع على بقية الفصول، لكن ما منا واحد أيها الأخوة إلا وعنده بعض القصص، وقد تكون قليلة يعرف كل فصولها من أولها إلى أخرها، يرى عدل الله مطلق، يرى حكمته المطلقة، والله أيها الأخوة لولا أن الوقت لا يسمح، وأن مقام تفسير القرآن لا يتسع لقصص كثيرة، لكن والله عندي عشرات بل بضع عشرات، بل مئات من القصص إن سمعت فصولها كلها من أولها إلى أخرها ينبغي أن تخر ساجداً لله عز وجل، لعدالته المطلقة، لكن العقل البشري لا يستطيع أن يعرف كل شيء، الإنسان بحكم أقربائه ومن حوله، من يتعامل معهم قد يطلع على بعض القصص، فيرى عدل الله المطلق، ولكن آلاف القصص أنت لا تطلع عليها، تطلع على آخر فصل من فصولها، فربما لا تفهمه، قد تحار به، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

لا يمكن أن يبخس لك عملك الصالح، ضحيت، بذلت وقت، بذلت جهد، وبالمقابل لا يمكن أن تنال ما لا تستحق، لا يمكن أن يبخس لك عملك الصالح، كما أنه لا يمكن أن تنال منه ما لا تستحق، هذا عدل الله عز وجل.

كل إنسان في علاقته مع الله يرى رأي العين أن الله عادل، على مستوى علاقتك مع الله، كم من إنسان أصيب بشيء ثم أدرك أن هذا الشيء يقابل هذا الشيء.

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[رواه ابن عساكر عن البراء تصحيح السيوطي]

الإنسان يمكن أن يظلم أما الله جل جلاله فلا يمكن لذاته الكاملة أن يظلم :

إن الله لا يظلم، والإنسان يحتاج إلى أن يظلم، لأنه فقير أحياناً فيأخذ ما ليس له، لأنه قوي، وعنده أحقاد فيأخذ ما ليس له، لكن الله جل جلاله لا يمكن لذاته الكاملة ولأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى أن يظلم، لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

لو أنك نزعت من المسجد قشة لا يزيد طولها عن سنتيمتر هذا العمل سوف تكافأ عليه، لذلك في بعض الأحاديث أنه:

((يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.))

[متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه]

لكن الآية الكريمة والله تملأ النفس راحة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: 21]

هل يعقل ذلك؟ هل يقبل ذلك؟ هل يصدق ذلك؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

حدثني أخ كريم قال: ذهبنا إلى بلد غربي لشراء سيارتين وبيعهما في سورية، فذهبا إلى هناك بالطائرة، وعادا بهاتين السيارتين، في بلد أوربي أظن بولونيا، ناما في أحد فنادقها، بعد منتصف الليل طُرق باب كليهما من قبل امرأة، واحد فتح الباب، وعصى الله، والثاني قال: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، الموقف واحد، واحد فتح، والثاني ما فتح، عادا إلى الشام واحد في صعود، والثاني في انهيار، بشر الزاني بالفقر ولو بعد حين.

أدلة تُبين أن الله عز وجل لا يضيع ولا مثقال ذرة :

أيها الأخوة الكرام، أحياناً تتأمل أفعال الله لا تملك إلا أن تخر ساجداً لله، لا يضيع عليك ولا مثقال ذرة، لو تكلمت كلمة، لو أكرمت شيخاً لسنه لا بد أن يُسَخِّر الله لك من يكرمك عند سن هذا الشيخ:

((ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض اللّه له من يكرمه عند سنه))

[التِّرْمِذِيّ عن أنس رضي الله عنه]

حدثني أخ قال لي: رجل في بلد عربي من الدرجة الوسطى من حيث أخلاقه ودينه، وأقل من الوسط، وله أولاد ليسوا أبراراً، علاقتهم عادية جداً مع أبيهم، أصيب الأب بمرض عضال، قام أولاده على خدمته بطريقة لا يتصورها العقل، اهتمام، وبذل، وتضحية، لا الأب يستحق هذه الخدمة الراقية جداً، ولا الأولاد عهد منهم أنهم أبرار، ما السبب؟ لأن هذا الذي وقع في المرض كان باراً لوالديه، فهيأ الله له هؤلاء الأولاد مع أنهم ليسوا على المستوى المطلوب ليبروه عند مرضه، فعل الله واضح جداً، لكن أنا أتمنى على كل إنسان أن يقف عند أفعال الله، أن يتأملها، أن يحللها، يجد العجب العجاب، يجد رحمة، يجد عدلاً، يجد إنصافاً، يجد حكمة، يجد لطفاً أحياناً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)

سيدنا عمر جاءه شارب خمر، فقال: أقيموا عليه الحد، فقال هذا الإنسان: والله يا أمير المؤمنين الله قدر علي ذلك، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، أنت مخير:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)

قد تضع لقمة في فم زوجتك تود دلالها، ورحمة بها، تجدها عند الله يوم القيامة كجبل أحد.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

من يتاجر مع الله يأتيه الأجر أضعافاً مضاعفة :

قدم معونات لأخوانك المؤمنين، واسِ مرضاهم، تفقد فقرائهم، خذ بيدهم إلى الله، الوقت الذي تبذله معهم محسوب عند الله، والجهد الذي تبذله محسوب عند الله، والمال الذي تبذله محسوب عند الله، وقد تمشي مع أخيك في خدمته، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لئن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف شهراً في مسجدي هذا))

[عن ابن عمر وأخرجه البخاري]

تعمل عملاً صالحاً بإخلاص تودداً من الله عز وجل ثم لا تجد الأجر الذي تستحقه؟ مستحيل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)

أضعاف مضاعفة، كأن الله سبحانه وتعالى ينتظرنا أن نتاجر معه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الصف:10-11]

(وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

لا يليق بنا كبشر أن نكون لغير الله لذلك أعظم تجارة هي التجارة مع الله :

لو أنك عملت لإنسان ماذا يعطيك؟ والله أيها الأخوة، كلمة دقيقة: لا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله، وإذا كنت لغير الله غير الله ماذا يعطيك؟ يعطيك بيتاً في الحياة الدنيا، يعطيك مركبة، من الذي بإمكانه أن يعطيك جنة عرضها السماوات والأرض؟ إنه الله.

يروى أن أحد خلفاء بني العباس، وأظنه هارون الرشيد كان في الحرم المكي أيام الحج، رأى عالماً جليلاً زاهداً، قال له: سلني حاجتك، قال: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيوت الله، فلما رآه خارج الحرم المكي قال له: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها ممن يملكها، فكيف أسألها ممن لا يملكها، فلما ألح عليه، قال له: حاجتي أن تدخلني الجنة، وأن تنقذني من النار، قال له: هذه ليست لي، قال له: إذاً ليست لي عندك حاجة، يعني لا يليق بك كإنسان أن تكون لغير الله، أنت حينما ترفض أشياء كثيرة ترفضها احتقاراً لها، قد ترفض بيتاً ثمنه كبير، وحجمه صغير، قد ترفض تجارةً متعبة، وربحها قليل، قد ترفض فتاةً لا تعجبك، ومهرها كبير، أنت أحياناً ترفض أشياء كثيرة، ترفضها احتقاراً لها، إلا أنك إذا رفضت دين الله عز وجل فإنك تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: 130]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)

لذلك أعظم تجارة هي التجارة مع الله:

((يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الحاكم عن أبي رافع]

كل مكتسبات الإنسان في الدنيا لا وزن لها في الآخرة :

هناك شركات حجم رأسمالها يزيد عن ميزانيات دول، إحصائية ربما لا تصدقونها، شركة واحدة من الشركات العملاقة دخلها السنوي يزيد على الدخل القومي لبلد يبلغ تعداد شعبه خمسين أو ستين مليوناً، هذه الشركات لو أنك تملك واحدة منها مثلاً، قال: يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها.

((خير لكَ من حُمْرِ النَّعَم))

[أخرجه أبو داود عن سهل بن سعد الساعدي]

خير لك مما طلعت عليه الشمس، سيدنا موسى حينما سقى الفتاتين ابنتي سيدنا شعيب قال:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص: 24]

حتى إنه في بعض الأدعية ورد أن:

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله))

[ورد في الأثر]

لذلك المؤمن همه الأوحد أن يقدم أعمالاً صالحة خالصة لله عز وجل، يبتغي بها وجه الله، هذا أغنى إنسان، لو إنسان فرضاً يملك مليارات من عملة معينة، فذهب إلى بلد لا يعترف بهذه العملة، إذاً هو فقير هناك، ربما لا يملك ثمن طعام، كل ما يملك من عملة غير مقبولة هناك، لذلك كل مكتسبات الإنسان في الدنيا لا وزن لها في الآخرة، هناك الوزن لعمل الصالح، الوزن لعمل صالح ابتغي به وجه الله، والعمل الصالح أيها الأخوة لا يقبله الله إلا إذا كان خالصاً وثواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وثواباً ما وافق السنة.

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل: 19]

العمل الصالح لا يُقبَل إلا إذا رضيه الله عز وجل، مقيد برضا الله عز وجل، ورضا الله عز وجل يتحقق أن يكون وفق سنة رسول الله.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

تعمل حفلة غنائية وريعها يرصد للأيتام، لا يصح هذا العمل، يانصيب خيري؟ يجب أن تعمل عملاً صالحاً وفق منهج الله، وتبتغي به وجه الله، هذه هي الثروة الحقيقية، هذا الذي يرفعك عند الله، والعمل الصالح يرفعك.

الله جل جلاله ألزم نفسه بهداية العباد :

ثم يقول الله عز وجل:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)

أي كل أمة أرسل الله لها نبياً ورسولاً يشهد لها منهج الله، وعدل الله، ورحمة الله، وقد أخبرها أن هناك يوماً آخر فيه يحاسب الناس، فيه تسوى الحسابات، لأن الله عز وجل لا يمكن أن يدع عباده من دون رسول، من دون إرشاد، لقوله تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

الهدى على الله، وكلمة (على) مع لفظ الجلالة تفيد أن الله ألزم نفسه بهدى العباد، الله جل جلاله ألزم نفسه بهداية العباد:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)

(شهيد) صيغة مبالغة على وزن فعيل، أي نبي كريم يتقن لغة قومه، فصيح، كامل، معصوم، يبين، يوضح في أعلى درجة من الفطانة، والحكمة، والبيان، والفصاحة:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)

الله تعالى لعلمه بالغيب جعل سنة رسوله متداولة في شتى بقاع الأرض :

تروي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من ابن مسعود أن يتلو أمامه القرآن، فقرأ له سورة النساء، فلما وصل عبد الله بن سعود إلى قوله تعالى:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

قال له: حسبك، فقال ابن مسعود: فنظرت إلى رسول الله فإذا عيناه تذرفان.

إخواننا الكرام، سنة رسول الله بين أيدينا، لأن النبي خاتم الأنبياء، وخاتم الرسل، وكأن الله سبحانه وتعالى لعلمه للغيب جعل هذه السنة متداولة في شتى بقاع الأرض، والله ذهبت إلى أقصى مكان في الدنيا، سيدني، إذاعات إسلامية، الأحاديث، والقرآن، والتفسير، وقد تنبأ النبي بذلك، قال:

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعا أخرجه الحاكم وصححه ورده الذهبي]

يعني أي مكان في الأرض فيه ليل ونهار، هذا الحق سوف يصل إليه، الآن لو ذهبت إلى معظم أقطار الدنيا، في أي مكان العلم الإسلامي مبذول في أي مركز إسلامي، عن طريق الأشرطة، وعن طريق المحاضرات، وعن طريق الضيوف، والمؤتمرات، فالنبي صلى الله عليه وسلم يشهد يوم القيامة أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وهدى العباد إلى سبيل الرشاد، الحجة قائمة علينا، ما من مشكلة على وجه الأرض إلا وفيها شرح أن هذه المشكلة سبب حصولها مخالفة منهج الله عز وجل، أبداً، لو كنت محللاً اجتماعياً، في أي بيت، في أي عمل، بين صديقين، بين شريكين، بين زوجين، ما من مشكلة إلا بخطأ ارتكبه أحد الطرفين، أو كلاهما:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً*يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً)

العبرة بالنهاية :

مشكلة الناس اليوم أيها الأخوة، أنهم يعيشون لحظتهم، ولو عاشوا مستقبلهم لارتعدت فرائصهم، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، وفي بعض الروايات أن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، و يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة عليّ.

حينما يدرك الإنسان أنه لا بد من أن يموت، والناس ماذا يفعلون؟ يعدون أعمارهم عداً تصاعدياً، والأولى أن يعدوا أعمالهم تنازلياً، ليسأل كل منا نفسه: كم بقي لي؟ ثم سؤال آخر: هل بقي بقدر ما مضى؟ والإنسان إذا تجاوز الأربعين أغلب الظن أنه لم يبق بقدر ما مضى، فإذا كان الذي مضى مَضى بلمح البصر، والذي بقي أيضاً يمضي كلمح البصر، وما من واحد منا وحوله أشخاص توفاهم الله عز وجل، كانوا أشخاصاً، وكان لهم بيوت وزوجات وأولاد، تجارة أو منصب، وله عاداته وتقاليده، وله مكانته، له أنماط حياة خاصة، يحب بعض الأكلات يستمتع ببعض الأشياء، فجأة أصبح نعياً على الجدران، بعد حين أصبح تحت التراب، ملف وانتهى، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

والليل مهما طــال فلا بد من طلوع الفجر

و العمر مهما طــال فلا بد من نـزول القبر

* * *

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوم على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـــازة فاعلم بأنك بعدها مـحمول

* * *

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ)

العبرة أيها الأخوة بالنهاية، العبرة من يضحك آخراً، الناس اليوم يضحكون قليلاً حينما يغتنمون بعض الغنائم، يقتنصون بعض الشهوات حينما يحققون بعض مباهجهم في الدنيا، يضحكون، ولكنهم يضحكون قليلاً، فإن لم يكونوا على حق في كسبهم للمال، إن لم يكونوا على حق في اقتناصهم للشهوات فسوف يبكون كثيراً، لكنك إذا كنت بطلاً تضحك آخراً، تضحك حينما ترى مقامك في الجنة، تضحك حينما تموت على الإيمان، وا كربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

النبي صلى الله عليه وسلم وحده يطاع استقلالاً :

إخواننا الكرام، ما لم تؤمن باليوم الآخر إيماناً حقيقياً، وما لم تنقل إليه كل اهتماماتك، وما لم يكن عملك الصالح موجه إلى الدار الآخرة مع الإخلاص الشديد فأنت لا تعيش الحياة التي أرادها الله لك، لذلك يقولون: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب، إنها جنة الطاعة، إنها جنة العمل الصالح:

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ)

ما قال: وعصوا الله:

(وَعَصَوُا الرَّسُولَ)

لأن الرسول أمرنا الله عز وجل أن نطيعه، يطاع رسول الله استقلالاً، يطاع الله في قرآنه، ويطاع النبي في سنته.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

لكن أولي الأمر يطاعون تبعاً، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أولو الأمر هم العلماء، وأولو الأمر هم الأمراء، العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر، لكن طاعتهم مرتبطة بطاعة رسول الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن النبي صلى الله عليه وسلم وحده يطاع استقلالاً، لقوله تعالى:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

السنة الشريفة هي في حقيقتها تبيان لما في القرآن الكريم :

الآن أيها الأخوة، هناك موجة تجتاح العالم الإسلامي، هذه الموجة تكتفي بالقرآن، يقولون: حسبنا القرآن، فلو قبلنا معك هذه النظرية، أين تجد في القرآن عدد الصلوات، وعدد الركعات؟ وأين تجد في القرآن أنصبة الزكاة، أين تجدها؟ القرآن فيه كليات، أما التفاصيل ففي السنة الشريفة، بل إن السنة الشريفة هي في حقيقتها تبيان لما في القرآن الكريم، من هنا قال الله عز وجل:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء: 80]

طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله تقتضي أن تطيع رسول الله والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

هؤلاء الذين كفروا، وعصوا الرسول يتمنون يوم القيامة لو تسوى بهم الأرض، (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً)، الإنسان معه معلومات، إذا أدلى بها يخاف أن يقطع رزقه، أو يخسر منصبه، لذلك يكتمها، هذا الذي يسكت عن الحق شيطان أخرس.

أيها الأخوة، في درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(23-69): تفسير الآية 43 ، أحكام تتعلق بالوضوء والتيمم والصلاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

ورود آيات التشريع في القرآن الكريم متدرجة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)

أيها الأخوة الكرام، هذه آية في التشريع، وقد يبدو لنا أن الله سبحانه وتعالى جاء بالتشريع لحكمة أرادها الله متدرجاً، فحينما أراد الله عز وجل أن يلفت نظر المؤمنين إلى أن الخمر شراب ليس بحسن:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

كأن تقول: هذا طالب وهذا طالب جيد، معنى ذلك أن الأول ليس بجيد، هذه أول إشارة في القرآن إلى أن الخمر فيه ضرر.

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

الحكمة من التدرج في آيات التشريع :

أن تأكل الفاكهة هذا رزق حسن، أما أن تخمرها فهذا رزق آخر، هذه أول إشارة، ثم جاء قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

[سورة البقرة: 219]

سيدنا عمر سأل الله جل جلاله، ففي دعائه كان يقول: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، الآية الثانية: ماذا نستنبط من هذا التدرج؟ نستنبط من هذا التدرج أنك إذا دعوت إلى الله وقنع معك هذا الذي تدعوه، ثم وجدته يألف شيئاً فحاول أن تقنعه أن يترك هذا الشيء بالتدريج، لأنك لو ألزمته أن

يتركه دفعة واحدة لترك الدين، وترك التوبة، فإذا كان تعلق الإنسان بشيء ألفه واعتاده تعلقاً شديداً فمن الحكمة البالغة أن تتدرج في هذا الشيء، ليس معنى ذلك أن هذه الآيات يُعمَل بها الآن هي آيات منسوخة، لأنه في المرحلة السادسة، قال الله عز وجل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

أوقات الصلاة متقاربة، والسكر ضياع العقل، فلذلك امتنع الصحابة عن شرب الخمر فيما بين الصلوات المتقاربة، ولم يتح لهم إلا بعد صلاة العشاء، ثم نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة المائدة: 90]

وفي نهاية الآية:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

[سورة المائدة: 91]

فقال سيدنا عمر: انتهينا يا رب، وعندئذٍ جاء التحريم القطعي، الفوضى في العلاقات الجنسية التي كانت في الجاهلية أيضاً جاء التحريم تدريجياً، فحكمة التشريع أن الإنسان إذا كان متعلقاً بشيء تعلقاً شديداً حتى أصبح عادة من عوائده ينبغي أن تتلطف في حمله على تركه، لئلا يترك التوبة أصلاً، ويترك الإيمان أصلاً.

للبيئة أثر كبير في اقتراف الذنوب :

أيها الأخوة الكرام، تروي بعض الروايات أن أحد الصحابة الكرام صلى بأخوانه فقرأ في الصلاة: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، من أثر السكر، فجاءت هذه الحادثة سبباً لنزول قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

ما بقيت، هذه الآيات المنسوخة طبعاً:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

معنى ذلك مسموح بنص الآية أن يشرب الخمر بعيداً عن الصلاة، هذه الآية منسوخة، لا يعمل بها، ولكن ما الحكمة من بقائها في القرآن الكريم؟ الحكمة أن تتعلم أنك إذا أردت أن تتعامل مع إنسان شارب للخمر فينبغي أن تكون متلطفاً معه، ليس العبرة أن تقمعه، ولا أن تحطمه، ولا أن توبخه، ولا أن تضع أمامه السدود، فهذا الذي قتل تسعاً وتسعين رجلاً، وسأل راهباً: ألي توبة؟ قال: لا فقتله، والحديث في الصحاح، ثم بين أن عالماً جليلاً قال له: لك توبة، على أن تغادر هذه الأرض، يعني البيئة لها أثر كبير في اقتراف الذنوب.

أي شيء يعيق المؤمن عن اتصاله بالله عز وجل ينبغي أن يدعه :

سيدنا عمر كان يدعو الله ويقول: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، بعض العلماء وسَّع كلمة السكر، وقال: إن المراد بالسكر في الأصل سكر الخمر، إلا أن بعضهم قال: هناك سكر النوم، ما الذي ينبئ عن معنى السكر، أنه لا يعلم ما يقول، فبعضهم قال: هناك سكر النوم، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه))

[متفق عليه عن عائشة رَضِيَ الله عنها]

وبعضهم قال: الحاقن الذي تجمع البول في مثانته بحجم كبير؛ هذا لا يستطيع أن يعي ما يقول، لذلك ورد عن رسول الله صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

((لا يصلين أحدكم وهو حاقن))

[عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الأرقم]

لا بد من أن تقبل على الله وأنت متفرغ، أي شيء يعيق إقبالك على الله ينبغي أن تبتعد عنه، حتى إذا جلست إلى طعام، وقد أذن العشاء وأنت جائع ونفسك تتعلق بطعام تحبه، فينبغي أن تصلي العشاء بعد أن تتناول العشاء، العبرة أن يكون قلبك فارغاً من أي شيء يحول بينك وبين الإقبال على الله عز وجل، حتى أن بعضهم قال: الأولى في الصلاة أن تزيل كل مشوش يشوش عليك في صلاتك، لو جاءتك رسالة، افتحها واقرأها ثم صلي، لو اشتريت آلةً وأنت تتساءل هل فيها هذه الميزة افتحها وادرس ميزاتها ثم صلي، أي شيء يعيق المؤمن عن اتصاله بالله عز وجل ينبغي أن يدعه، على كلٍ الأصل في الآية هو سكر الخمر:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

والعلماء قالوا: كلمة (لا تقرَب) ـ بفتح الراء ـ معناها لا تتلبس بفعل الشيء، أما (لا تقرب) بمعنى لا تقترب، فالذي حمل الآية على لا تقرب أي لا تصلي وأنت سكران، أما الذي حمل الآية على الاقتراب فيعني حتى مقدمات الصلاة ينبغي أن تكون فيها صاحياً.

الذي يصلي ولا يعلم ماذا قرأ في الصلاة هذا في حكم السكران :

أيها الأخوة الكرام، ثم يقول الله عز وجل:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

وقبل أن ننتقل إلى الفقرة التي تليها، لو أن الإنسان ليس سكراناً، لكنه غائب في همومه في الصلاة، يحدث نفسه بحديث الدنيا، ومشاغلها وشهواتها، وجمع أموالها، ومستقبله، هذا الحديث يجعله في حكم السكران، لأنه ما عقل عن الله شيئاً، لأنه لا يعلم ما يقول، إذاً الذي يصلي ولا يعلم

ماذا قرأ في الصلاة هذا في حكم السكران، هناك قصص كثيرة أحياناً يصلي عدد غفير من الناس وراء إمام لو أن الإمام سألهم: ماذا قرأت في الركعة الأولى؟ ربما لا تجد من بين المئة مصلٍ إلا عدداً قليلا جداً يذكر ماذا قرأ في الركعة الأولى، إذّ ليست هذه الصلاة التي أمر الله بها، ليست هذه الصلاة التي أرادها الله لنا، قال:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 5-7]

تقرأ:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء: 53]

ألم تسأله أن يهديك الصراط المستقيم؟ جاء الجواب، فكأن الآيات التي تقرأها عقب الفاتحة هي إجابة الله لك حينما سألته أن يهديك الصراط المستقيم، أنت حينما تركع فحالة الركوع حالة خضوع لله عز وجل، كأن لسان حالك يقول: سمعاً وطاعةً يا رب، سألتزم بذلك.

الركوع حالة خضوع لله عز وجل :

قال لك في الصلاة:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة: 83]

قال لك في الصلاة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

قال لك في الصلاة:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأعراف: 200]

حينما تقرأ الآية عقب الفاتحة على أنها الجواب الإلهي عن سؤالك: اهدنا الصراط المستقيم، تكون قد علمت ما تقول في الصلاة:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

إذا ركعت فالركوع حالة خضوع لله عز وجل، أما إذا سجدت لأنك في الفاتحة تقول:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

حينما جاءك الأمر خضعت له، لكنك ضعيف لا تستطيع أن تقيم أمر الله إلا بمعونة الله، فيأتي السجود وفيه طلب العون من الله، أي لسان حالك في السجود إياك نستعين يا رب على أداء أوامرك، واجتناب نواهيك، كما ورد في بعض الأحاديث: أن لكل آية حظها من الركوع والسجود، هذه الآية التي قرأتها عقب الفاتحة لها نصيبها من الركوع، ولها نصيبها من السجود، إذاً أنت صليت وعلمت ماذا قلت في الصلاة، أما هذا الذي لا يعلم ماذا يقول هو في حكم السكران.

حكم من كان جنباً وهو مسافر :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

كأن الله عز وجل أراد هنا موضع الصلاة، أي لا يمكن أن تدخل المسجد جنباً إلا أن يكون عبور سبيل، كان بعض الصحابة الكرام لهم بيوت مطلة على المسجد، فإذا أراد أن يجلب الماء للبيت، وكان جنباً، فلا بد أن يخترق المسجد، فجاء هذا الحكم، أنه يجوز للجنب أن يمر في المسجد مروراً عابراً لا إقامة ولا صلاةً:

(وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

قد يفهم من هذه الآية أنك إذا كنت مسافراً، وأصابتك جنابة، ولم تجد ماء تغتسل به فلك أن تتيمم، ولك أن تصلي، وقد ورد عن بعض الصحابة أنه استفتي في إنسان شج رأسه، فاحتلم في الليل، فسأل: ألي رخصة في ترك الوضوء؟ فقالوا له: لا، فتوضأ فمات، فغضب النبي غضباً شديداً، وقال: قتلوه قاتلهم الله، هلا سألوا إن لم يعلموا:

(وَلَا جُنُباً)

إذاً لا تستطيع أن تقرب الصلاة إذا كنت جنباً حتى تغتسل إلا إذا كنت مسافراً، وفي السفر رخصة لك أن تتوضأ وأن تصلي إن لم تستطع أن تغتسل، فإن لم تجد ماء أصلاً فلك أن تتيمم وأن تصلي إذا كنت مسافراً، كنت مسافراً، وليس هناك ماء ساخن، والوقت شتاء قارص، إذاً يمكن أن تتوضأ وتصلي، أما كنت مسافراً وليس معك ماء إلا للشرب إذاً يمكن أن تتيمم وتصلي، فأناس قالوا: لا تقربوا الصلاة، الصلاة نفسها، وأناس قالوا: موضع الصلاة، أي المسجد، والطائفة الثالثة قالت: أراد الله الصلاة وموضعها معاً، ذلك لأن الصحابة الكرام لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلون إلا مجتمعين في المسجد، فاختلط مفهوم الصلاة مع مفهوم مكان الصلاة.

السكر ضياع العقل :

إخواننا الكرام، السكران لا يعلم ما يقول، لأن السكر إغلاق للعقل، والعقل مناط التكليف، حدثني أخ قال: التقى بموظف في مستوى عال جداً من الحكمة، والوقار، والهدوء، والذكاء، ثم كانوا في جلسة، فشرب الخمر هذا الموظف، فتكلم كلاماً لا يمكن أن يتكلمه إنسان عاقل على وجه الأرض، فضح نفسه، تحدث عن خصوصياته، تحدث عن علاقاته الآثمة، تحدث، وتحدث..! لأن السكران معطل عقله، وكأن شيئاً سد عليه عقله، وكأن تدفق الأفكار سدت بالسكر.

تروي بعض الكتب أن إنساناً خيِّر بين أن يسكر، وبين أن يزني، وبين أن يقتل، فتوهم أن السكر أهون هذه الأشياء، فسكر، فزنى، وقتل بعدها، وكم من إنسان كان ثملاً فدخل إلى بيته وقتل كل أطفاله، ثم حينما صحا قتل نفسه، السكر ضياع العقل، لذلك ورد في بعض الآثار أن الشر كله جمع في بيت، فكان مفتاحه السكر.

أيها الأخوة، بعض الدول الأجنبية حرمت الخمر في الثلاثينات، قرأت بحثاً حول هذا الموضوع دهشت له، أنفقت مئات الملايين توعيةً للناس، طبعت آلاف النشرات، ومئات الكتب، وأدخل السجن مئات ألوف الأشخاص، ومع ذلك لم تستطع هذه الدولة أن تحرم الخمر، بل تفاقم شرب الخمر سراً، بل صنعت سفنٌ ذات جدارين كانت الخمور تهرب بين جدرانها، فلما يئسوا من تحريم الخمر أطلقوه، هذا الأمر كان في الثلاثينات، سبحان الله عند المسلمين الأمر غير ذلك، لا يفكر مسلم من عامة المسلمين لا أقول من خاصتهم، ولا أقول من مجتهديهم، لا يفكر مسلم من عامة المسلمين أن يشرب الخمر إلا إذا كان خارجاً عن الملة، أو غارقاً في المعصية والإثم، وهؤلاء بالنسبة لمجموع المسلمين قلة، وحينما يكون الآمر هو الله لا يمكن أن تخالفه.

مرة ضربت مثلاً، ممنوع أن تتكلم بهاتفك المحمول، وأنت تقود السيارة، هذا المنع مرتبط بالشرطي فقط، فإذا لم يوجد الشرطي تتكلم.

أما حينما أمرك الله أن تغض البصر في أي مكان كنت لا يراقبك أحد تستطيع أن تخترق أمر عز وجل، لذلك حينما يضع الإنسان التشريع، الإنسان الذي شرع له التشريع ذكي كواضع التشريع، فكثيراً ما يحتال عليه، حينما وضع إلزامٌ لقائدي المركبات ألاّ يتجاوزوا المئة فوضعت أجهزة رادار تكشف الذين يتجاوزن من قيادة سياراتهم السرعة القانونية، صنع جهاز يكشف جهاز الرادار، فكان الذي يقود مركبته حينما يعلمه جهازه أنه بعد خمس كيلومترات هناك جهاز رادار يخفف السرعة، إذاً حينما يضع الإنسان تشريعاً يكون واضع التشريع عاقلاً، والذي وضع له التشريع أكثر عقلاً، فالقضية معركة بين عقلين، أما حينما يكون المشرع هو الله عز وجل فالأمر مختلف، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي

أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق وأمين، ولكن أين الله؟!

الذي يعبر المسجد وهو جنب إذا توضأ يجوز أن يبقى فيه وكذلك المسافر :

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

انظر:

(وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

الحكم، لا يمكن لإنسان جنب أن يصلي حتى يغتسل، إلا استثناء:

(إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ)

إذا كان ثمة ماء للوضوء فتتوضأ وتصلي، وإن لم يكن هناك ماء أصلاً فتيمم وصلِّ. الجُنُب أيها الأخوة، هو الذي جامع زوجته أو احتلم، وأجمع العلماء على أن الغسل يجب عند التقاء الختانين، أو عند الإنزال، في هاتين الحالتين يجب الغسل، وحينما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((إنما الماء من الماء))

[مسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه]

أي الاغتسال يكون من الإنزال فقط، العلماء وجهوا ذلك الحديث إلى موضوع الاحتلام، فالذي احتلم ولم يجد ماء فليس عليه شيء، أما إذا احتلم ووجد آثار الماء على ثوبه الداخلي فعندئذٍ يجب أن يغتسل.

أيها الأخوة، هذا الذي يعبر المسجد وهو جنب إذا توضأ يجوز أن يبقى فيه، كذلك المسافر إذا دخل المسجد وتوضأ ولم يجد ماء للاغتسال فإنه يسمح له البقاء في المسجد.

حكم الشرع في الوضوء والاغتسال للمريض الجنب ومن في حكمه :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

نبدأ بالمرضى؛ المريض الذي يؤذيه الماء، أو يطيل في مدة شفائه، أو يزيد مرضه، أو إذا كان صحيحاً، لكن الماء يؤذيه برأي طبيب مسلم حاذق ورع، هذا يمكن أن يتيمم ولا يتوضأ، وإذا كان جنباً يمكن أن يتوضأ إذا كان في مقدوره الوضوء، أو يتيمم إن لم يجد الماء أصلاً، إذاً الصحيح الذي يخاف من الماء أن يؤذيه بإخبار طبيب مسلم حاذق ورع هو في حكم المريض، في حالات

خاصة هناك استعداد إلى مرض شديد بسبب الماء البارد، فالصحيح الذي يخشى الماء بإخبار طبيب مسلم حاذق ورع، أو المريض الذي يؤذيه الماء، أو المريض الذي يطيل الماء مدة شفائه، أو المريض الذي يعيق الماء شفاءَه، أو يعجل في تفاقم مرضه فهذا إنسان يمكن أن يتوضأ ويصلي إن كان الوضوء لا يؤذيه، ويمكن أن يتيمم إذا كان أصل الماء يؤذيه:

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

المسافر له أن يتيمم إن لم يجد الماء، وله أن يتوضأ إن وجد الماء، ويعفى من الاغتسال، الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى)

السفر وأنواعه :

الآن ليس هناك جنابة، لكن ثمة مرض:

(أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

الحقيقة السفر الشرعي الذي هو مباح، بالمناسبة أعلى أنواع السفر سفر الجهاد في سبيل الله، ثم يأتي بعده طلب العلم، ثم يأتي بعده طلب الرزق، هذا الذي أقر به الفقهاء، ثم هناك السفر المباح، ليس هناك معصية إطلاقاً ترتكب في السفر، هذا سفر مباح، أما والعياذ بالله الآن يقصد من السفر المعصية بشكل واضح جداً.

(وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ)

الغائط؛ المكان المنخفض، وكان الناس من حياتهم الخشنة، ليس هناك دورات مياه، فيذهبون إلى مكان منخفض ليقضوا حاجاتهم، كي يستتروا بهذا المكان المنخفض، فصارت كلمة الغائط كناية عن قضاء الحاجة:

(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ)

كان في مكان منخفض قضى حاجته، وجاء إلى بيته:

(أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

التيمم لا يكون إلا بتراب طاهر :

أيها الأخوة، أما كلمة:

(لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

تفيد اللقاء الزوجي على خلاف بين العلماء، فبعضهم قال: المباشرة فقط، وبعضهم قال: المس فقط، وبعضهم الآخر قال: اللقاء الزوجي المعروف، ففي هذه الحالات الثلاث:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

تعريف المرض قبل أن نتابع الآية خروج الجسم عن حد اعتداله، كل إنسان إذا عملت أجهزته عملاً طبيعياً يشعر براحة، وخفةٍ، ويستخدم حواسه، ويستخدم جوارحه، ويستخدم أعضاءه وأجهزته استخداماً صحيحاً، إذا أصاب الجسم خلل ينتقل إلى حالة ثانية، الآن:

(فَتَيَمَّمُوا)

أي هذه عبادة، أنت حينما لا تجد الماء لا بد أن تدخل في الصلاة بعمل آخر، والعبادة تكليف من الله عز وجل، والصعيد هو وجه الأرض، فينبغي أن يكون طيباً، والطيب كما قال بعض الفقهاء التراب الذي ينبت، لا التراب النجس، ولا التراب المجلوب، تراب الأرض، أو صخر الأرض، التراب أو الصخر، أو الحائط أحياناً شيء من الأرض:

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

يجب أن يكون هذا التراب طاهراً.

حالات يُباح فيها التيمم :

قال تعالى:

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ)

أيْ اضرب ضربةً تمسح بها وجهك، وضربةً أخرى تمسح بها يديك، هذا هو التيمم، والتيمم من رخص الله عز وجل للإنسان، لأن الصلاة كما قلت وأقول دائماً: فرض متكرر، لا يسقط بحال، في حالات كثيرة معك ماء، ولكن لا يكفي لوضوئك وشربك، والشرب أولى، معك ماء ولكن لا يكفي لوضوئك وطبخ طعامك، الطبخ أولى، أو وجدت ماء ولا سبيل إليه، ماء في قعر بئر، ولا تملك حبلاً ولا دلواً، أو كان سعره فوق طاقتك، ولا تملك ثمنه، الفقهاء عددوا حالات كثيرة جداً عندئذٍ يسقط الوضوء، ويجزئ التيمم، أو يسقط الغسل، ويجزئ التيمم، حتى إن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يرى أنه إذا علم أن الماء في الحضر مع خوف خروج الوقت الصحيح، وأردت جلب الماء فينبغي أن تتيمم، وأن تصلي، الآن الفقهاء وسعوا كلمة:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

كما قلت قبل قليل إما عدمه جملةً، أو عدم بعضه، معك ماء للشرب هذا عدم بعضه، أما عدمه جملة فليس هناك أثر للماء، وإما أن يخاف فوات الرفيق، أنت مسافر مع مجموعة يركبون الخيول، أو يركبون الدواب، فإذا ذهبت لإحضار الماء، والوضوء والصلاة فات الركب، وضللت عنهم، فإن فوات الرفيق أيضاً يجيز التيمم، أو أن رجلاً مطلوب ظلماً، فإذا ذهب إلى جلب الماء ألقي القبض عليه يجوز أن يتيمم، أو يخاف في طريق لصوصاً أو سباعاً، أو قطاع طرق، أو وحوشاً مكان

الماء، أو خاف فوات الوقت، أو خاف عطشاً على نفسه، أو على غيره، وكذلك لطبيخ يطبخه لمصلحة بدنه، هذا كله يجيز له التيمم مكان الوضوء، والتيمم مكان الاغتسال.

الآن مريض أمامه ماء، لكنه مشلول لا يجد من يأتيه بالماء، البيت فيه ماء، لكنه قعيد الفراش، هذا أيضاً يجوز له الشرع أن يتيمم، أو يخاف من ضرره، أو يخاف سعره المرتفع إذا كان يُشترى.

في التيمم لا بد من ضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين :

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً))

[مسلم عن حذيفة]

وهذا من خصائص المسلمين، الأرض كلها مسجد، وترابها الطيب، وكله صالح للتيمم، معنى تيمموا؛ أي اقصدوا، يممت وجهي تلقاء مدين، يممت وجهي تلقاء حلب مثلاً، التيمم القصر، كأن الله عز وجل يقول:

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً)

أي وجه الأرض، صخراً، رخاماً، تراباً طاهراً:

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

ثم يقول الله عز وجل:

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ)

في آية ثانية في سورة المائدة:

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)

[سورة المائدة: 6]

من الموازنة بين الآيتين استنبط الإمام الشافعي أنه لا بد من أن ينتقل جزء من الصعيد الطيب إلى الوجه واليدين،

(مِنْهُ)

وفي الآية الأولى لو لم يعلق شيء بيديك يجوز أن تمسح بوجهك، وأن تمسح بيديك دون أن تنقل من التراب شيئاً، القضية خلافية، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما وضع يديه على الأرض ورفعهما نفخ فيهما، وكأنه أزال أثر التراب، ومن آية (مِنْهُ) تفيد الآية فيما تفيد أنه لا بد أن يصل إلى جلد وجهك وجلد يديك شيء من صعيد الأرض، ويبلغ بالتيمم في اليدين إلى المرفقين قياساً على الوضوء، وبعضهم قال الكفين فقط، فإما يمسح الكفين، وإما المرفقين قياساً على الوضوء، وبعض العلماء قال: هل يجوز أن يكون التيمم ضربة واحدة، للوجه والمرفقين؟ الجمهور على أنه لا بد من ضربتين، ضربة للوجه، وضربة لليدين.

ملخص سريع لما ورد في درس اليوم :

أيها الأخوة، هذه الآية التي تمّ شرحها بفضل الله عز وجل آية متعلقة بالتشريع، لكنها دقيقة جداً ومتداخلة، أعيد تلاوتها يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وقد ذكرتكم سابقاً أن الأمور العقيدية ليس فيها حلول وسط أبداً، وليس فيها تدرج، نقطة من الشرك قليلة تعيق العبد عن ربه، في أمور العقائد لا تدرج ولا توسط، العقيدة حدية، إذا قلت: لا إله إلا الله، أي لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، أما التدرج أين؟ في الأمور التشريعية، وكأن هناك قاعدة أن الإنسان إذا دعي إلى الله، واستجاب لهذه الدعوة، وكان متعلقاً بشيء تعلقاً شديداً يمكن أن تستفيد من تشريع التدرج في عدم مطالبته بكل شيء، ريثما يقوى إيمانه، هذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

أي الجنب لا بد له أن يغتسل إلا إذا كان مسافراً:

(وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)

بمعنى جامعتموهن:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)

الرخص هي من تشريع الله عز وجل وحده :

من صفات الله عز وجل أنه عفو، العبرة أن تتصل به، وأن تقبل عليه، فلكل وضع حرج حكمٌ شرعي، والأمر إذا ضاق اتسع، والله سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل عليكم في الدين حرج، فهذا التيمم هو الوسع، وهو استثناء من الوسع، لأن الله عز وجل يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

من الذي يقدر الوسع؟ هو الله عز وجل، أما أن تقدر أنت الوسع فهذا مرفوض رفضاً كلياً، فالله عز وجل سمح بالتيمم، وسمح بقصر الصلاة، وسمح بترك الصيام للمريض والمسافر، وكل هذه الرخص هي من تشريع الله عز وجل، أما أن يخترع الإنسان رخصاً لنفسه فهذا دليل رقة دينه، وبعده عن الصواب.

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(24-69): تفسير الآيتان 44-45، الأسباب والمسبب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-08-09

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيء المرئي دليله معه أما الشيء المسموع فيحتاج إلى دليل وإلى بحث :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام،

(أَلَمْ تَرَ)

كلكم يعلم أن فعل رأى فعل قلبي أحياناً وقد يكون بصرياً، إن قلت: رأيت الشمس ساطعة، فهذه رأى البصرية وساطعة تعرب حال، أما إن قلت: رأيت العلم نافعاً، فهذه الرؤية قلبية، إذاً نافعاً مفعول به ثان، فرأيت تستخدم مرة بصرية، ومرة قلبية.

الله عز وجل يعجب، وفي مطلع الآية استفهام تقريري، يعجب بطريق الاستفهام التقريري،

(أَلَمْ تَرَ)

الشيء المرئي كما تعلمون أيها الأخوة دليله معه، ليس مع العين، فأنت حينما ترى إنساناً يرتدي ثوباً أبيض لا يمكن أن تقول له: ما دليلك على أنك ترتدي ثوباً أبيضَ، الرؤية دليلها معها، بينما الخبر يحتاج إلى أن يكون المخبر صادقاً، أنت بالخبر تحتاج إلى بحث.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات: 5]

المنهج بالإسلام إن كنت ناقلاً فالصحة وإن كنت مدعياً فالدليل :

الأخبار تحتاج إلى مصداقية، لذلك كما تعلمون هناك يقين حسي أداته الحواس الخمس، وهناك يقين عقلي أداته العقل، وهناك يقين إخباري أداته الخبر الصادق، فالله سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، يخاطبه بأسلوب الاستفهام التقريري، يستفهم، وقد وقع الشيء، وهناك استفهام

إنكاري، واستفهام تعجبي، واستفهام تهكمي، الاستفهام يخرج عن حقيقته إلى عشرات المقاصد، هذا استفهام تقريري، وقد يعني التعجب، كيف؟ كيف هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب هم أهل كتاب، هو على معرفة بالله عز وجل، هم على نوع من أنواع الاتصال به، هم جاءتهم رسالة، جاءهم وحي، ومع ذلك هل يعقل أن يفعلوا ما يفعلون؟ هل يعقل أن يفعلوا مع رسالة النبي عليه الصلاة والسلام بأن يكذبوه، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ)

إخواننا الكرام، كما قلت قبل قليل: الشيء المرئي دليله معه، بينما الشيء المسموع يحتاج إلى دليل، والمنهج بالإسلام إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل، إن أردت أن تدعي شيئاً فينبغي أن تأتي بالدليل، أما إن كنت ناقلاً فينبغي أن تكون صادقاً، إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل، الحقيقة أنا حينما أرى إنساناً بهيئة غريبة، ومعي صديق أقول له: أرأيت إلى فلان، كيف يرتدي هذه الثياب، هنا رأيت على حقيقتها جاءت، أما حينما أخبره عن شيء لم يره، وأقول: أرأيت، فثمة معنى آخر، والله عز وجل يقول:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق: 9-10]

النبي عاصر، والتقى بعبد قوي متعجرف ينهى الناس عن الصلاة ، فالله سبحانه وتعالى يقول له:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

هنا رأيت استخدمت على حقيقتها،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

أيعقل أن ينهى إنسان عبداً عن أن يعقد صلة مع الله عز وجل؟! استفهام تقريري بمعنى التعجب، لكن حينما يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

حينما أتوا كان النبي قد ولد لتوه، إذاً هنا رأى ليس معناها رأى على حقيقتها.

كلما ارتقى إيمانك تعلم أن مصداقية القرآن أصدق من أي شيء آخر :

أيها الأخوة، حينما يخبرك الله عن شيء فينبغي أن تأخذه، وكأنك تراه بعينيك، بل إن إخبار الله لك أصدق من عينيك، كلما ارتقى إيمانك تعلم أن مصداقية هذا الكتاب أصدق من أي شيء آخر، هذا هو الإيمان، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

إذا حرم الله عليك شيئاً فينبغي أن توقن لو أن الإنس والجن اجتمعوا ليفكروا في محاسن هذا الشيء لا يجدون له محاسن إطلاقاً، إن الله حرمه، إذاً ينبغي أن تأخذ إخبار الله لك وكأنك تراه بعينك، وأصدق أنواع التلقي رؤية العين، ليس الخبر كالعيان، أصدق تلقٍ تتلقاه أن ترى الشيء بأم عينيك، لذلك هناك علم اليقين، وهناك عين اليقين، وهناك حق اليقين، أنت ترى جدار، ووراءه دخان، تقول: لا دخان بلا نار، استنباط عقلي قطعي يقيني، هذا علم اليقين، أما حينما تقترب من وراء الجدار فترى النار بأم عينيك، فأنت في عين اليقين، فإذا اقتربت من النار، وأحسست بوهجها فهذا حق اليقين، فالرؤية أعلى درجات التلقي، فإذا وردك عن الله خبر ينبغي أن تعلم علم اليقين أنه أصدق من عينيك، قد تخون العين، وقد تريك خلاف الواقع، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أخبرك فخبره كأنك ترى الشيء رؤيةً حقيقية.

حينما يرفض الإنسان الحق يحتقر نفسه :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ)

هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم أهل كتاب، جاءهم نبي كريم، وتبعه نبي كريم آخر، وجاء كتاب من السماء، وتبعه كتاب من السماء، ومع ذلك لا يتعظون، ومع ذلك لم يُقبلوا على هذا الدين، الأولى أن أول إنسان ينبغي أن يسارع إلى قبول هذا الدين من لهم صلة بالدين، من لهم صلة بالله، من كان معهم كتاب يوحى إليهم، فالشيء العجيب الذي هو مدار هذه الآية أن هؤلاء الذين هم أقرب إلى الإسلام من المشركين، أقرب إلى الإسلام من عبدة الإسلام، هؤلاء بالذات كانوا أشد المعارضين لهذا الدين، فلذلك حينما يرفض الإنسان الحق يحتقر نفسه، أنت قد ترفض أشياء كثيرة، وبرفضك إياها تحتقرها، لكنك إذا رفضت الحق إنما تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: 130]

إذاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى)

على حقيقتها، أما:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

معنى ذلك هذا إخبار من الله، وينبغي أن تأخذه كأنك تراه بعينيك.

أيها الأخوة، لكل قوم نبي، كما قال الله عز وجل:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

[سورة الرعد: 7]

لكل قوم نبي، لأن لكل قوم خصوصيات، أمراض، مشكلات، حيثيات، نقاط ضعف، كل قوم لهم خصائص، فكان لكل قوم نبي يعالج هذه الخصائص، وتلك الثغرات، وهذه الأمراض، لكن بعلم الله جل جلاله أن هذه الأرض سوف تغدو قرية واحدة، ثم تغدو بيتاً واحداً، ثم تغدو غرفة واحدة، يمكن أن تقتني جهازاً صغيراً، مذياعاً وتستمع إلى أخبار الأرض في القارات الخمس، ماذا يجري في كل مكان، لأن الله يعلم أن هذا التواصل الذي سيكون سوف يعمم الأدواء ـ جمع داء ـ على كل الشعوب، وسوف يعمم الأمراض على كل الشعوب، لذلك كانت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسائل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، وسوف تبلغ دعوته ما بلغ الليل والنهار.

الحكمة من أن النبي هو خاتم الأنبياء وأنه لكل الأمم :

والله ذهبت إلى أقصى مكان في الأرض، إلى أستراليا، وأقصى مكان في استراليا سدني، وجدت إذاعات إسلامية، ودروس العلم في هذه البلدة الطيبة هناك، يستمعون إليها صباحاً ومساءً، والقرآن يتلى في الإذاعات، والمحاضرات تلقى، وكأنني في الشام، ذهبت إلى أقصى مكان في الغرب الأمر نفسه، مؤتمرات، وإذاعات، ونشرات، ومجلات، وأشرطة، ومحاضرات، تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر سوف يبلغ ما بلغ الليل والنهار، إذاً لأن الله سبحانه وتعالى علم أن سيكون هناك تواصل إذاً لا بد من نبي واحد لكل هؤلاء الشعوب.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء: 107]

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[سورة التكوير: 27]

أيها الأخوة، حكمة أن النبي هو خاتم الأنبياء، وأن النبي لكل الأمم ما كان في علم الله من أن هذه الأرض سوف تغدو من قرية إلى بيت إلى غرفة واحدة، و الأبلغ من ذلك أن ما يجري من أقصى الغرب نتأثر به في أدنى الشرق، وأي حدث يقع في مكان له تداعيات في كل مكان، وهذا الشيء تعلمونه، وترونه، وتسمعونه، قد يقع شيء في أقصى الدنيا نتأثر هنا بكل مناح الحياة.

يا أيها الأخوة الكرام، هذا الذي أردت أن أمهد به لشمول رسالة النبي، ولاتساع رقعتها، ولأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، الحقيقة أن الإنسان يؤمن بالله بفطرته، ويؤمن بالله بعقله، ولكن الإيمان فطري، أنت حينما تأتي إلى الدنيا تجد كل شيء مسيراً بنظام عجيب.

الحليب في النجدين من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

هذا الطفل الصغير الذي يأتي من علمه كيف يلتقم ثدي أمه؟ هل يستطيع أكبر أب في العالم، لو أنه يرأس أعلى جامعة في التربية أن يستطيع أن يعلم هذا الذي ولد لتوه كيف يلتقم ثدي أمه؟ وكيف يجعل شفتيه حول حلمة الثدي؟ وكيف يحكم الإغلاق؟ وكيف يسحب الهواء؟ تفضل وعَلّم طفلاً وُلِد لتوه، معنى ذلك:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

النجدان هدية الله لهذا الطفل الصغير، الحليب في النجدين يتبدل في أثناء الرضعة الواحدة، في البداية 60% ماء، في نهاية الرضعة 40% ماء، يتبدل كل يوم بحسب نمو الطفل، وهؤلاء الأطفال الذين يرضعون رضاعة صناعية يصابون بآفات قلبية، ويصابون بضعف الذكاء، ذلك أن حليب البقر فيه خمسة أضعاف من الحموض الأمينية التي لا تحتملها أجهزة الطفل، بينما حليب أمه مصمم من قبل خالقه ليتحمله الطفل بكل أجهزته، لذلك أجري إحصاء في بعض البلاد أن نسب الذكاء في العالم متفاوتة، طبعاً الفحوص موحدة فكانت جزر الباسيفيك تحتل المرتبة الأولى في ذكاء أبنائها، لسبب بسيط هو أنهم لا يعرفون الرضاعة الصناعية إطلاقاً، وقد تنتبهوا إلى أن القرآن الكريم قال:

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

[سورة الطلاق: 6]

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ)

ما ذكر الرضاعة الصناعية، ما ذكرها بالقرآن (وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)، لا بد أن يكون الحليبُ من أم مرضع، الطفل يأتي إلى الدنيا كل شيء ميسر، له أم تحرص عليه، له أب يحدب عليه،

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

الهواء يجدد بشكل مستمر، الماء، الطعام، الشراب، الثروات الباطنية، هذه الأرض فيها كل شيء، أيقبل إنسان أن هذا الشيء كله حدث بلا خالق؟!

الرسالات السماوية فحواها مراد الله لنا :

مثل بسيط، لو أنك في الصحراء تمشي لا سمح الله ولا قدر، ونفذ زادك، وضللت الطريق، ونفذ شرابك، وأصبح الموت محققاً، أخذتك سنة من النوم من شدة البكاء والخوف والقلق، واستيقظت

فرأيت مائدة فيها ما لذ وطاب، فيها من أنواع الطعام في الصحراء، فيها من كل ألوان الشراب، ألا تسأل من جاء بهذه المائدة، فالإنسان يؤمن بالله بفطرته، كل شيء في الكون يدل على الله عز وجل، لكن الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل كي يعلمنا مراده، ماذا ينبغي أن نفعل، فطرتك وعقلك ينبآنك أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، أن لهذا الكون قوة وراءه، الوحي ينبئك أن هذه القوة العظيمة هي الله، وأن هذه القوة العظيمة خلقتك بسعادة إلى أبد الآبدين، وأن هذه القوة العظيمة صممت الدنيا على أنها دار عمل، ولأن هذه القوة العظيمة تتصف بالصفات الفضلى، ولها أسماء حسنى، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنبياءه ليعطينا مراده، أما إيماننا به فهو إيمان فطري.

ثمة حوار مع سيدنا علي رائع، قيل للإمام علي كرم الله وجهه: أعرفت ربك بمحمدٍ، أم عرفت محمداً بربك؟ يقول: لو عرفت محمداً بربي لما احتجت إلى رسول، ولكن عرفت ربي بربي، وجاء محمد ليبلغني مراد ربي، الرب موجود، لكن ماذا يريد منك؟ الرسالات السماوية فحواها مراد الله لنا، أي يا عبادي توبوا إليّ، يا عبادي استقيموا على أمري، يا عبادي كونوا صادقين، يا عبادي كونوا أمناء، يا عبادي افعلوا أعمالاً صالحة، تؤهلكم لجنة عرضها السماوات والأرض.

أيها الأخوة الكرام، المشكلة الآن أن معظم الناس يعيشون غايات قريبة، همه شراء بيت، همه الزواج، همه دخل، هذه همومهم، ولكن نخبة البشر تعيش غايات بعيدة، الإنسان يأتيه الموت قبل أن يتزوج، ويأتيه الموت قبل أن يحقق أهدافه، إذاً هذا الهدف غير صحيح، لأنه يُحقق أو لا يُحقق، لكن ما هو الهدف الذي يجمع الناس جميعاً بكل فئاتهم؟ إنه الموت، إنه الدار الآخرة، من هم أعقل الناس؟ من هم أذكى الناس؟ من هم أنجح الناس؟ من هم أشدهم فلاحاً؟ هو الذي عرف الهدف الأخير، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمنّى عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه الأحوذي عن عبد الله بن عبد الرحمن]

أهداف الناس جميعاً أهداف دنيوية بينما المؤمن هدفه الآخرة :

يا أخواننا الكرام، الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأديانهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأنسابهم، ومذاهبهم، وطوائفهم، في القرآن لا يزيدون عن فئتين، لا يزيدون عن نموذجين لا ثالث لهما، النموذج الأول هو النموذج الذي صدق أنه مخلوق للجنة، هنا المشكلة، أهداف الناس جميعاً أهداف دنيوية، بينما المؤمن هدفه الآخرة.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ﴾

[سورة القصص: 83]

هؤلاء أيها الأخوة، صدقوا بالحسنى، هم مخلوقون للجنة، والدنيا دار عمل، دار دفع الثمن، دار أداء السبب، هكذا، لأنهم أيقنوا أنهم مخلوقون للجنة حرصوا على طاعة الله، اتقوا أن يعصوا الله، ولأن الجنة مراتبها بالأعمال الصالحة، فبنوا حياتهم على العطاء.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾

[سورة الليل: 5-6]

هذا أول نموذج، هو بالترتيب معكوس، صدق بالحسنى فاتقى أن يعصي الله فأعطى.

الناس لا يزيدون عن نموذجين لا ثالث لهما :

النموذج الأول هذا الذي أعطى من وقته، أعطى من علمه، أعطى من خبرته، أعطى من كل ما يملك، الرد الإلهي:

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾

[سورة الليل: 7]

سوف نيسر له سلوك طريق الجنة، وسيصل إلى الجنة.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾

[سورة الليل: 8-9]

كذب بالجنة، قال لك: هي الدنيا، هي جنة الإنسان، إن كان غنياً فهو في جنة، وإن كان فقيراً فهو في جهنم، الدنيا كل همهم، مبلغ علمهم، منتهى آمالهم، لأنه كفر بالحسنى، وصدق بالدنيا استغنى عن طاعة الله، هو لا يحتاج إلى طاعة الله لأنه كفر بالجنة، وكفر بيوم الجزاء، وكفر بالآخرة،

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾

لأنه كفر بالحسنى استغنى عن طاعة الله، فبنى حياته على الأخذ، والاحتيال والنهب والسرقة والغش، وما إلى ذلك، قال:

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾

[سورة الليل: 10]

لا تتحقق له لا الدنيا ولا الآخرة، خسر الدنيا والآخرة، لذلك أيها الأخوة، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

[سورة الأنفال: 36]

لم ينجح في مسعاه.

أذكى إنسان هو من يسعى لهدف يقيني متحقق بعيدويهيئ نفسه لبلوغه بنجاح :

أيها الأخوة، أنت حينما تؤمن بالغايات البعيدة، أي بالآخرة، بالموت، ألا ترون أن الموت يجمع كل الناس، يجمع أغنياءهم وفقراءهم، وأقوياءهم وضعفاءهم، وملوكهم ودهماءهم، وأصحاءهم ومرضاهم، وأذكياءهم وأغبياءهم، الحقيقة يوجد في الدنيا سباق أنا أسميه سباق الحمقى، لو تصورنا طريقاً عريضاً هو مجال السباق، وعندنا ألف سيارة، هذه السيارات على اختلاف قوتها، وضعفها، وكبرها، وصغرها، وميزاتها، وسنة صنعها، وحجمها، السيارة الأولى آخر الطريق في هاوية، أول سيارة في السباق وقعت في الهاوية، الثانية وقعت في الهاوية، الثالثة في الهاوية، إلى أن وقعت كل هذه المركبات في الهاوية، ما قيمة هذا السباق؟

يقاتل الناس، وينهب أموالهم، يكذب عليهم، يحتال عليهم، يخيفهم أحياناً، أو يسلك طريق الاحتيال معهم ليجمع ثروة طائلة، فيشتري بيتاً رائعاً، ثم يأتيه ملك الموت ليضعه تحت التراب، وقد ترك كل الدنيا، هذا الذي يحصل، يجمع دنياه لبنة لبنة، قشة فوق قشة، ليأتي ملك الموت ويأخذها منه في ثانية واحدة، ولا خاتمه، ولا مفتاح مركبته، ولا خصوصياته، كل إنسان له خصوصيات في بيته، كل يفتح ويستهلك، فلذلك أيها الأخوة أنت حينما تسعى لهدف حقيقي يقيني بعيد تكون ذكياً وفالحاً، حينما تسعى لهدف يقيني متحقق بعيد، وتهيئ نفسك لبلوغه بنجاح، فأنت أذكى الناس قاطبةً، إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزنكم أشدكم استعداداً له، ألا إن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ)

كيف؟

(يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ)

آيات قرآنية تبين أن الإنسان مخير بين الهدى والضلالة :

دقق الآن، في آية أخرى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)

[سورة البقرة: 16]

دفعوا الهدى ثمناً وفقدوه وأخذوا الضلالة، بالبيع والشراء الثمن يذهب منك، ماذا يبقى معك المبيع؟ دفعت ثمن السيارة، الثمن أُخِذ منك فبقيت السيارة، الآن اشترى الضلالة بالهدى، ما الذي أخذه؟ الضلالة، ما الذي فقده؟ الهدى، أي هدى؟ الهدى الفطري، حينما تهتدي النفس إلى ربها بفطرتها، هذا الهدى أخذ منهم، وبقيت ضلالتهم، لكن الإنسان حر، اختار أن يكون ضالاً فلا مشكلة، الإنسان مخير، يقول الله عز وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت: 40]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

هذا مشكلته أكبر،

(يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

ضال مضل، كافر يدعو إلى الكفر، ملحد يدعو إلى الإلحاد، فاسق يدعو إلى الفسق، الله عز وجل يعجب، ويقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ)

ويشترونها بالهدى، وفوق ذلك يريدون أن يحملوا الناس عليها،

(وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

الإنسان في الدنيا يعيش مع الأسباب أما في الجنة فيعيش مع المسبب :

يا أيها الأخوة الكرام، في الحياة حقيقة واحدة هي الله، وكل سلوك، وأي عمل، وأي كلام، وأي حركة تقرب إلى الله هي الحق، وأي سلوك، وأي كلام، وأي عمل يبعدك عن الله هو باطل، لأن الله سبحانه وتعالى هو الهدف.

يا أخوتنا الكرام، أنت مع من تعيش في الدنيا؟ مع الأسباب التي خلقها الله لك، تعيش مع زوجة هي مصممة أن تكون رفيقة حياتك، تعيش مع الطعام والشراب، هذا من خلق الله عز وجل، من أودع الطعوم في هذه الأطعمة الآية الكريمة:

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

[سورة الرعد: 4]

من أودع لهذه الأطعمة طعمها المحبوب، هذه التفاحة شكلها جميل، قوامها يتناسب مع أسنانك، ليست في قوام الفولاذ، طيبة، رائحتها عطرة، طعمها طيب، مذاقها حلو، مفيدة، فيها معادن، فيها حديد، فيها بروتينات، فيها فيتامينات، من أودع هذه الخصائص في هذه التفاحة، إذاً الله عز وجل أعطانا كل شيء. فلذلك أيها الأخوة:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

هذا الذي يبحث عن هدفه الأخروي يسعى في الدنيا إلى أن يكون منضبطاً وفق منهج الله عز وجل، أنت في الدنيا تعيش مع الأسباب، طفل جميل جداً يملأ البيت بهجة، الزوجة ترتاح لها، إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك بمالك ونفسها، وإن أقسمت عليها

أبرتك، هذا الماء الذي تشربه لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، لو كان بطعم الورد لأخرجك من جلدك، لو كان بأي طعم لما احتمل، فجعله الله نعمة عظيمةً لنا.

إذاً أنت تعيش مع الأسباب، لكنك في الجنة تعيش مع المسبب، مع الخالق، وشتان بين خالق ومخلوق، ورد في بعض الآثار والأحاديث أن المؤمن يوم القيامة ينظر إلى وجه الله الكريم فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة، أنت في الدنيا تعيش مع الأسباب، وكلما ارتقت حياتك تأتي بالأشياء بأمر، بهاتف، بكبسة زر، لكن في الآخرة أي شيء تشتهيه تراه أمامك.

الجنة هي العطاء الحقيقي والدنيا أحقر من أن تكون عطاء الله عز وجل :

قال تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الزمر: 34]

(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)

[سورة الزخرف: 71]

يمكن أن تأكل في الدنيا تفاحتين فتشعر بثقل، لك أن تأكل في الجنة مليار تفاحة ولا تشعر بثقل، نمط الجنة نمط آخر، تعيش في الجنة مع مسبب الأسباب، أما في الدنيا تعيش مع الأسباب.

يا أيها الأخوة الكرام، هذه نقطة دقيقة جداً فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في الدنيا متاعب، في الدنيا أمراض، في الدنيا تقدم في السن، في الدنيا عجز أحياناً، في الدنيا فقد بصر، في الدنيا أمراض وبيلة، في الدنيا زوجة سيئة تخرج من جلدك منها، واحد سأل شيخاً: يا سيدي، إذا سمح الله لنا بدخول الجنة ما حكم زوجاتنا؟ قال: هي معكم، قال: أعوذ بالله، أنا أردت الموت لأخلص منها، هذه طرفة، أنت في الجنة تعيش مع المسبب، مع مانح الجمال، مع مانح القوة، مع مانح اللطف، لذلك الجنة هي العطاء الحقيقي، والدنيا أحقر من أن تكون عطاء الله عز وجل، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء.

أسماء الله تعالى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل محقق جزئياً :

قال تعالى:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

أيها الأخوة الكرام، أعيد هذا كثيراً طمأنة لكم، أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل، لأن الدنيا دار عمل، قد تجد إنساناً في أعلى درجة من الكفر، ويهدد العالم كله مثلاً، وليس

ملتزماً بشيء، يسفك الدماء، ويقتل الأبرياء، ويستغل، وغير ذلك.. لكن الآخرة دار جزاء، فأسماء الله تعالى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل محقق جزئياً، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبعض المسيئين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المسلمين، ولكن تسوية الحسابات، ولكن الحساب الختامي، ولكن الرصيد يؤدى يوم القيامة، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

هذه دار عمل، لو كنت فقيراً، لو كنت لا سمح الله مريضاً، لو كنت في الدرجة السفلى من المجتمع، وكنت مطيعاً لله:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

هذه الحقيقة.

ورود النار للمؤمنين ليروا تحقيق اسم العدل :

لذلك أيها الأخوة، ورد في بعض الآيات يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

[سورة مريم: 71]

النار،

(وَإِنْ مِنْكُمْ)

أي ما من واحد منكم إلا وسيرد النار، كيف؟ قال العلماء: ورود النار غير دخولها، وورود النار لا يتأثر واردوها بوهجها، ولكن ليروا العدل الإلهي في الذين كانوا في الدنيا يتصدرون، ويقصفون، ويذلون الشعوب، وينتهكون الأعراض، ويلبسون التهم للبريئين لا بد من ذلك أيها الأخوة الكرام، يراهم المؤمن في النار كي يتحقق من اسم العدل، وشيء آخر يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً كي تتضاعف سعادته في الجنة، لذلك:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ورود النار للمؤمنين ليروا تحقيق اسم العدل.

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

[سورة الصافات: 51]

فاسق، فاجر، مستعل، متغطرس، يسخر من العلم والعلماء، والدين أفيون الشعوب، ولا يعبأ به، غارق في الزنى والخمر،

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِين)

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[سورة الصافات: 55]

ورود النار يوم القيامة كي يتحقق للمؤمن اسم العدل، وكي تتضاعف سعادته حينما يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً.

العدو الخطير للمسلم من يدَّعي الإسلام :

أيها الأخوة الكرام،

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

الله عز وجل بين لنا فقال:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

إن الأحداث أثبتت أنهم لا يحبوننا، فالذين أحبوهم بسذاجة دفعوا ثمناً باهظاً ضاعت أموالهم كلها وأُذِلوا:

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

فينبغي أن تصدق الله عز وجل، يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

[سورة فاطر: 6]

كل كافر يعاديكم، الكافر يعاديكم ولو كان في المظهر لطيفاً ناعماً، فإنه ينطوي على حقد، والدليل حينما يُستَفز ينقلب إلى وحش، الإنسان الذكي أحياناً يلبس جلد الجمل وهو ذئب، الذي يراه من بعيد يظنه حملاً وديعاً، فإذا استفزه انقلب إلى ذئب مفترس، ألم تروا ما الذي يحصل في العالم الآن؟ هذه الدولة العظمى التي تزعم الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وكل شيء للإنسان، والإنسان هو الأول، بعد أن استُفِزت ماذا فعلت؟ فعلت ما لا يفعله المجرمون، فلذلك:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام، ليس العدو الخطير للمسلم هو الكافر، العدو الخطير للمسلم من يدَّعي الإسلام، العدو الظاهر تتقيه، تجادله، أما العدو الخطير هو الذي من جلدتك، الغرب أيقن أنه لا سبيل إلى مواجهة المسلمين، لا بد أن يصطنعوا اتجاهات مزيفة، يصفونها بأن هذا هو الإسلام، هذا اسمه تفجير من الداخل، ينبغي أن نكون صاحين، ما كل اتجاه إسلامي في إعلامه هو إسلاميٌ في حقيقته، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

قد يكون العدو من بني جلدتك قد يكون العدو منافقاً كبيراً.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

*** * ***

إذاً أنت حينما يقول الله عز وجل لك: هذا عدو لك فاحذره، ينبغي أن تصدق الله عز وجل، ولو رأيت من كلامه لطفاً ونعومة:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً)

ولياً؛ أن يتولى أموركم، ونصيراً؛ ينصركم على أعدائكم، وفي هذه الأيام الصعبة ما من شيء أحب إلى المؤمنين من أن يتنصروا، لكن النصر له ثمن وهو في مقدورنا؛ أن نؤمن بالله عز وجل، وأن نعد لأعدائنا ما نستطيع، الإعداد المتاح ليس المكافئ.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(25-69): تفسير الآيتان 46-47 ، ليّ أعناق النصوص

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-08-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

التبعيضية تعلمنا الموضوعية والتعميم من العمى :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

أيها الأخوة، يقول الله جل جلاله:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا)

فهذه

(مِنَ)

كما يشرحها علماء العربية تبعيضية، أي بعض الذين هادوا يفعلون، وهذه التبعيضية تعلمنا الموضوعية، والتعميم من العمى، وإطلاق الأحكام من ضيق الأفق، هؤلاء بعضهم يفعلون كذا، وقال بعض علماء التفسير: إنها بيانية، أي:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً* مِنَ الَّذِينَ هَادُوا)

أي أعداءكم من الذين هادوا، أو أن تكون تبعيضية، أي أن بعض الذين هادوا يفعلون هذا، ماذا يفعلون؟ الحقيقة أمراض بني إسرائيل ذكرت في القرآن الكريم بشكل مفصل، لأن المسلمين مرشحون أن يقعوا فيها، وهذه طريقة تربوية عالية حينما يوجه الله قوماً إلى ثغرات وانحرافات يمكن أن يتلبسوا بها، ويسمي علماء التربية هذا الأسلوب بالأسلوب غير المباشر، وهو أوقع وأشد تأثيراً:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

الكلم؛ هو الوحي، الكلم هو كلام الله، وهو المقصود به هنا، حينما لا تستطيع أن تلغي النص، حينما لا تستطيع أن تنكر النص، من منَ المسلمين من شتى بقاع الأرض يجرؤ أن يقول: إن القرآن

ليس كلام الله؟ ليس هناك خلاف حول ثبوت كلام الله، أو لا يجرؤ أحد أن يقول: هذا القرآن ليس كلام الله، لكن كيف يطعنون في الدين؟ عن طريق تأويله.

تحريف الكلم عن مواضعه :

إذاً حينما ينحرف الإنسان عن منهج الله، فإن كان من بني إسرائيل فهو يحرف الكلم عن مواضعه، وإن كان من بني الإسلام يحاول أن يفسر كلام الله تفسيراً ما أنزل الله به من سلطان، وقد سمى العلماء هذه العملية سموها ليّ أعناق النصوص، الآية:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

النهي هنا عن الأضعاف المضاعفة، أما الضعف الواحد فليس فيه شيء، هذا تحريف للكلم عن موضعه، مثلاً:

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)

[سورة المؤمنون: 117]

أنا معي برهان مثلاً.

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

لن نمكن، إذاً لا نصلي.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحج: 99]

أتاني اليقين، فانتهت العبادة، هذا تحريف للكلم عن مواضعه. يا أخي القرآن ما حرم الخمر؟ كيف؟ يقول: فاجتنبوه، هذا أمر إرشادي، ما قال: حرمت عليكم الخمر، ما قال هذا الكلام، كل واحد يحاول أن يصل إلى تغطية شهواته بغطاء ديني.

عملية ليّ أعناق النصوص يلجأ إليها ضعاف الإيمان ليغطوا انحرافاتهم :

بالمناسبة الكتب التي صدرت في مؤخرة الزمان، والتي تغطي كل انحرافات الإنسان بغطاء ديني قرآني هذه كتب ما أنزل الله بها من سلطان، وقد يطبع الكتاب عشرات الطبعات، لا لشيء إلا لإقبال الناس عليه، وتفسيره سهل جداً، الإنسان يخاف أن يخرج من ملة الإسلام، وهو متشبث بشهواته المنحرفة، فإذا جاء من يقنعه أن انحراف الإنسان عن منهج الله مغطًّى بالقرآن، وأنه لا شيء عليه فهذا الكتاب يضعه في القلب، من هنا قال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

[سورة الأنعام: 112-113]

لماذا رضوا به؟ كي يقترفوا ما هم مقترفون، أي أنهم مصرون على شهواتهم، فإذا جاء كتاب فيه معاصرة، وفيه فهم لآيات الله ما خطر في بال أحد أصحاب رسول الله، ولا الذين من بعدهم، ولا الذين من بعدهم إلا في هذا العصر، حينما نفهم كلام الله فهماً يغطي كل انحرافات الإنسان فهذا الكتاب يقبل الناس عليه، إذاً حينما يستحيل أن ترد النص، وهو ثابت، حينما يستحيل أن تلغي النص ليس أمامك إلا أن تلوي عنقه، أن تحرفه، أن تصرفه عن غير مراد الله عز وجل.

المرض الذي تلبس باليهود وذمهم الله به تلبس به المسلمون فوقعوا به :

الشيء الثابت جداً أن بعض الناس يفسرون قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

لولا أن المرأة مسموح لها أن تبدي زينتها لما كان لهذه الآية معنى، هذا استنباط، والله ما يخطر في بال أحد هذا الاستنباط، المؤمنة تستر وجهها، وتتحجب، ولكن إذا وجد في الطريق امرأة متفلتة فأنت مكلف أن تغض البصر عنها، أما أن تفهم غض البصر، بمعنى أنه مباح للمرأة أن تظهر زينتها، هذا الفهم ما أنزل الله به من سلطان، إذاً لا سبيل إلى التفلت من منهج الله عز وجل ضمن المجتمع الإسلامي، أما بعيداً عن المجتمع الإسلامي يقال هذا القرآن ليس كلام الله، لكن ضمن المجتمع الإسلامي لا يستطيع أحد أن ينكر أن هذا كلام الله، ماذا يفعل إذاً؟ يلجأ إلى ليّ عنق النص، يفعل في تغيير الكلمة عن مواضعها، وهذا المرض الذي تلبس باليهود، وذمهم الله به في الأعم الأغلب تلبس به المسلمون، فوقع به المسلمون، وما من إنسان تراه منحرفاً إلا ومعه ما يتوهم أنه دليل:

(مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

لذلك تأويل كلام الله أن تعيده إلى أوله، إلى المعنى الصحيح الأولي الذي انطلق منه.

أخطر ما في الدين أن يُحرَّف :

ثم إنهم حينما غيروا الكلمة، وحرفوه عن مواضعه أباحوا لأنفسهم كل شيء، والله مرةً اطلعت على بعض ما في تلمودهم، وجعلت منه خطبة في بعض الجمع، والله لا يصدق إنسان في الأرض أن يكون في كتاب مطبوع لدين أصله سماوي هذا التوجيه، يحلون لأنفسهم قتل المسلم، وإفقاره، ونهب

ماله، وإذلاله، وقهره، وأنتم حينما تقرؤون التلمود لا تعجبون أبداً مما يفعلون، هذا من تحريف أحبارهم في التوراة، الذي يفعله اليهود اليوم بالمسلمين بحسب كتبهم من واجباتهم الدينية، جرف الأراضي، وحرق الزروع، واقتلاع الأشجار، وقتل الأطفال، وإذلال الرجال، هذا كله عندهم شيء مقبول، لذلك أخطر ما في الدين أن يُحرَّف، من الذي سبب أن يرفض أناس أصول الأديان كلها؟ من هؤلاء الذين حرفوا الأديان، والدين إذا انحرف يرفضه الإنسان ذو العقل السليم، والفطرة السليمة، لأن الشريعة مصلحة كلها، الشريعة حكمة كلها، الشريعة رحمة كلها، الشريعة عدل كلها، أي قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى القسوة، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل، إذاً كيف أن الدين يبدأ نقياً صافياً واضحاً، وكيف أن أتباع الدين في المراحل الأولى يأخذونه بقلوبهم، ويطبقونه تطبيقاً نصاً وروحاً، يتألقون به، كنت في عقد قران سمعت أحد الخطباء يقول، وقد أعجبتني هذه الكلمة: حينما فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها لم يكن في حوزتهم إلا ستة مصاحف، والآن مئات الملايين من المصاحف، وقد غُزينا في عقر دارنا، القضية قضية تطبيق لا قضية مظاهر:

(مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا)

النص مسموع، لكن لسان حالهم:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

لذلك المسلمون ألفوا عقب صلاة الجمعة أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، الأولى أن تقول: سمعنا وأطعنا، لا أن: تقول سمعنا وعصينا، لسان حالهم يرفض هذا الحكم.

لا يجرؤ اليهود أن يردوا القرآن الكريم لذلك يلوون عنق النصوص ويحرفونها :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

اليهود قالوا: سمعنا وعصينا، ماذا يقول ضعاف الإيمان؟ يا رب نحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، يا رب لا يسعنا إلا فضلك، يا رب أمرتنا فلم نأتمر، ونهيتنا فوقعنا، ولا يسعنا إلا فضلك، كأنهم يقولون سمعنا وعصينا، ماذا قالت اليهود لنبيهم سيدنا موسى عليه الصلاة السلام :

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة: 24]

ماذا قال له الأنصار؟ يا رسول الله امض بما أردت فنحن معك، صل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعادِ من شئت، وصل ما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فو الذي بعثك بالحق والذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا من الذي تتركه إلينا، لو خضت بنا هذا البحر

لخضناه معك ما تخلف منا واحد، لعل الله يريك منا ما تقره عينك، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، فلعل الله يريك منا ما تقره عينك، هكذا الصحابة الكرام كانوا، إذا كانوا على أمر جامع لم يغادروا حتى يستأذنوا، إذاً اليهود:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

الحديث يردونه أحياناً، القرآن لا يجرؤون أن يردوه، إذاً يلوون عنق النص، يحرفون، يبدلون. أعداء الدين مكشوفون، واضحون، يعملون في النهار، يحولون الإسلام حرباً شعواء، هؤلاء ليسوا خطرين على الدين كما الخطر يأتي من أدعياء الدين:

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

من الذين يغيرون النص إلى غير ما أراد الله جل جلاله.

أساليب يفعلها الخبثاء يأتون بكلام ظاهره مقبول وباطنه مرفوض :

قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

سمعنا كلامك، ولكن لم نطق أن نفعله، لم نطق أن نقبله، نحن نعصي، إذاً هم يعبدون شهواتهم من دون الله، وقد قال الله عز وجل:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)

[سورة الفرقان: 43]

يعبدون شهواتهم من دون الله، والإنسان في الأصل إما يقبل على حقيقة أو على عبادة، أو على عمل صالح، وإما أن يقبل على شهوة،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

الآن هناك أساليب يفعلها الخبثاء يأتون بكلام ظاهره مقبول، وباطنه مرفوض. يروى أن خياطاً اسمه زيد، كان كريم العين، أيْ فقد أحد عينيه، كان أعورَ، وخاط ثوباً لشاعر فلم يعجب الشاعر هذا الثوب فقال: والله لأهجونه ببيت لا يدرى أمدح هو أم ذم، قال:

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

* * *

يا ترى يقصد أن تكون العين الكريمة بصيرة، دعوة له بالشفاء، أم أراد أن تكون العين السليمة كالكريمة دعوة له بالهلاك.

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

* * *

هذا الأسلوب اسمه أسلوب التورية، معنى ظاهر مقبول، ومعنى باطن مرفوض، هو إذا عاتبته يدعي أنه قصد المعنى الظاهر.

يا سيداً حاز لطف اً له البرايا عبيد

* * *

شاعر يمدح أميراً قال له: أنت الحسين، يعني مقامك كمقام الحسين، جفاك فينا يزيد بن معاوية الذي أوقع بيننا العداوة والبغضاء، هو يزيد، ولسنا نحن، هو ماذا يقصد؟ أنت لست حسناً لكنك حسين، تصغير وتحقير، وجفاك فينا يزداد مع الأيام، لم يقصد يزيد الاسم، قصد يزيد الفعل.

أنت الحسين جفاك فينا يزيد

* * *

هؤلاء الخبثاء يتكلمون كلاماً ظاهره مقبول، وباطنه غير مقبول.

كلمات قصدها اليهود بمعنى آخر سيئ في لغتهم فيه سباب للنبي عليه الصلاة والسلام:

ماذا قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

يطلبون منه أن يستمع منهم، دون أن يكون مأموراً تعظيماً لمقامه، لكنهم قصدوا أنهم سوف يسمعونه كلاماً لا يسمعه من صحابته، سوف يقذعون في القول

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

إذا عاتبتهم يقولون: نحن قصدنا تعظيم مقامه، أي اسمع منا غير مأمور، ألا يقول العرفاء في الاحتفالات: كلمة من فضيلة فلان فليتقدم غير مأمور، هنا ادّعوا أنهم يقصدون ذلك،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)

ولكنهم أرادوا أن يقولوا: واسمع يا محمد كلاماً لا ترضاه، كلاماً فيه قسوة، وفيه اتهام،

(وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا)

وراعنا أي ارفق بنا، وقد يستخدم العامة هذه الكلمة في البيع والشراء، من الرعاية، من التلطف، من الاعتناء، من الرفق،

(وَرَاعِنَا)

لكن في لغتهم العبرية كلمة سيئة جداً، لذلك قال الله عز وجل:

(لَا تَقُولُوا رَاعِنَا)

[سورة البقرة: 104]

هم قصدوا معنى آخر، أحياناً تقول له: أنت مولع بكذا، ما المولَع؟ هو الثور الأحمر، يجب أن يقول: أنت موْلع بكذا، هناك أغلاط شائعة، لو أنك أردت معناها الحقيقي فهناك مشكلة كبيرة،

(وَرَاعِنَا)، نقول لك يا رسول الله: الطف بنا، ترفق بنا، أرادوا المعنى السيئ في لغتهم، الذي فيه سباب للنبي عليه الصلاة والسلام.

الاستقامة حدّية وليست نسبية :

لكن لي كلمة، لو أن طالباً والده أستاذ في الرياضيات، وهو أستاذه في الصف، في الصف الحادي عشر، والده أستاذ رياضيات في الصف نفسه، هذا الابن الأولى أن يقول لأبيه مدرس الرياضيات: يا أبتِ أعطني الأسئلة قبل يومين، أم الأولى أن يقول: قوِّ ضعفي في الرياضيات، أيهما أولى؟ أن يطلب منه أن يخون الأمانة، أم أن يطلب منه أن يعتني به في وقت مبكر حتى ينجح بجدارة، أحياناً المراعاة لا معنى لها، فهناك أسس علمية دقيقة، المراعاة لا معنى لها، أوضح مثلاً، إنك إذا أردت أن تبني بيتاً، وقال لك المهندس: لا بد لك أن تضع سبعة أكياس إسمنت في المتر المربع، ولا بد من حديد كميته كذا، وقطره كذا، وصفته كذا، فلو أن هذا الذي يريد أن يبني بيتاً قال للمهندس: راعنا، يكفي أربعة أكياس، يكفي نصف الكمية حديد، قضية بناء، قضية حسابات، قضية علم، فالمراعاة هنا لا معنى لها إطلاقاً، إذا رعاه المهندس سقط البناء، في الإسلام حدّيات، في أمور الاستقامة ليس هناك مراعاة، لأنك إن لم تستقم على أمر الله تحجب عن الله، الاستقامة حدية وليست نسبية، بينما العمل الصالح نسبي، مستودع للوقود السائل، محكم أي محكم، الإحكام قطعي، والإحكام حدي، ولا تفاوت في الإحكام، أما إن لم يكن محكماً هناك تفاوت في عدم الإحكام، هناك عدم إحكام يفرغ مستودع في سنة، وهناك عدم إحكام يفرغه في شهر، وهناك عدم إحكام يفرغه في ساعة، وهناك عدم إحكام؛ ما في قعر يفرغه في ثانية، عدم الإحكام نسبي، أما الإحكام حدي، ليس هناك تفاوت، حتى في اللغة العربية هناك أفعال ليست قابلة للتفاوت، لا يقال: فلان أموت من فلان، الموت حدي، فلان ما أموته، ليس هناك في اللغة أموته، الموت حدي، وليس هناك تدرج فيه، وليس هناك كلمة أَمْوَت، الموت حدي، والاستقامة حدية، إذاً،

(وَرَاعِنَا)

لا معنى لها.

جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله عظني، ولا تطل، قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم، استَقم، نظر هذا الأعرابي، الاستقامة صعبة، قال له: أريد أخف من ذلك، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إذاً فاستعد للبلاء.

قال لك الطبيب: لا بد من تدريبات رياضية، ولا بد من تناول الأدوية، ولا بد من تخفيف الوزن، ولا بد، ولا بد، إن انصعت إلى أمر الطبيب ربما شفيت، أما إن لم تستجب لأمر الطبيب لا بد من عمل جراحي، ليس في العلم مراعاة، الأمور في العلم أكثرها حدي،

(وَرَاعِنَا)

لا معنى لها.

أساليب ليّ اللسان لا تنتهي :

إذاً:

(وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ)

من يقول لك: يا أخي القرآن كتاب الله، أنت تبهج، القرآن الكريم قطعي الثبوت، شيء جميل، إذاً نحن لا نحتاج إلى السنة، بدأ بمديح القرآن ليصل إلى نفي السنة، لأنه قطعي الثبوت، وليس هناك خلاف على ثبوته، وهو كلام الله، وهو الجامع المانع الذي:

(لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

[سورة الكهف: 49]

فيه كل شيء، لا نحتاج إذاً إلى السنة، القرآن يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

هذا لي اللسان كلام مقبول، كلام معسول، يقول لك أحدهم: إيماني في قلبي، أنا لا أؤذي أحداً، فلماذا الصلاة؟ أليست الصلاة من أجل أن تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ أنا لا أؤذي أحداً، وإيماني في قلبي، ولا حاجة لي إلى الصلاة،

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ)

أساليب ليّ اللسان لا تنتهي، لذلك وصلنا إلى مستوى والله أعني ما أقول: إن لكل معصية فتوى، يمكن أن تضع في المصرف الربوي مبلغاً ضخماً، قال: هذا أمانة عند المصرف، والمصرف رقيق المشاعر، لا ينسى لك هذا الفضل يعطيك مكافأة، لا علاقة لها بالربا، إنها عوائد، وليست فوائد، هذه الفتوى صدرت في مصر من أعلى جهة دينية، وعقب هذه الفتوى وضع في البنوك ثلاثة وثمانون مليار جنيه في اليوم التالي، عوائد لا فوائد، مبلغ وضع أمانة لا إيداعاً، هذا كأس لو قلت عنه: إبريق هل يصبح إبريقاً؟ يبقى كأساً، تغيير التسمية لا يفعل شيئاً، فأكثر المحرمات استبيحت في الفضائيات، إذاً خذوا دينكم عن الأرضيات، اجلس على الأرض، وخذ دينك، وهناك اتجاهات منحرفة، وممولون لا يعلم مقصدهم إلا الله، هناك أناس يرتكبون خطأ أخلاقياً، يفتون بغير ما يعلمون.

الإسلام كمنهج فقده المسلمون في حياتهم وبقيت مظاهر الدين الصارخة :

والله حدثني أخ كريم من الدعاة إلى الله في هذه البلدة الطيبة، صدفة حضر وفاة أحد أكبر علماء مصر، هو درس في مصر، وكان في زيارة لها، فزار أعلى مرتبة دينية هناك، وكان على فراش الموت، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة رفع يديه هكذا، وقال: يا رب إني بريء من كل فتوى أفتيتها بالمصارف، لكن متى؟ بعد فوات الأوان، وهو على فراش الموت. فلذلك:

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ)

أنا آتيكم بأمثلة، يقول لك: هذا الربا المحرم أن يأتي فقير مدقع إلى غني مترف يستقرضه مبلغاً، فالغني يفرض عليه فائدةً، أو مبلغاً ربوياً، أو فضل نسيئة، أو فضل مال، هذا هو الربا المحرم، أما أن تأتي شركة إلى مصرف، وتأخذ أموالاً من أجل أن تأسس مشروعاً يعود بالخير على الأمة فهذا ليس محرماً، بهذه الطريقة كل معصية نحللها قد نجد لها منفذاً للخروج من هذا التحريم، فهذا هو الليّ باللسان، المستمع جاهل ليس عنده أدلة، هذا الدين وحي من السماء، هناك من يصف الدين بأنه تراث من صنع البشر، هناك من يصف الدين من تصميم محمد عليه الصلاة والسلام، ديننا وحي من الله، ولا مساومة على الوحيين؛ الكتاب والسنة:

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ)

الليّ؛ هو الانحراف، لوى عنق النص حرّفه، لماذا حرّفه؟ ليطعن في الدين، إلى أن يصبح الإسلام أقواساً، زخارف إسلامية، أناشيد إسلامية، احتفالات إسلامية، ألقاباً إسلامية، أما كمنهج، أما كشرع، فقده المسلمون في حياتهم، وبقيت مظاهر الدين الصارخة، والله زرت مسجداً في المغرب كلف ألف مليون دولار، مئذنته جامعة، فوق البحر، إن جلست في حرمه ترى ماء البحر من خلال فتحات، لأن الذي أمر ببنائه استوحى ذلك من قوله:

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

[سورة هود: 7]

لذلك المظاهر لا قيمة لها، مساجد ضخمة جداً، مؤتمرات، ألقاب علمية، مظاهر صارخة، كتب إسلامية، لكن لو دخلت إلى بيوت المسلمين لا تجد الإسلام كما أراده الله عز وجل، لذلك ما هو فيه من محنة، معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذبهم الله وسنتك يا محمد مطبقة في حياتهم، نصلي، ونصوم، ونحج، ونعتمر، ونزكي، أما احتفالاتنا ليست إسلامية، وزواج أولادنا ليس إسلامياً، وكسب المال ليس إسلامياً، والبضاعة التي نبيعها ليست إسلامية.

أمثلة من الواقع عن حال المسلمين اليوم :

والله في مسجدٍ في دمشق، ذكر لي أحدهم على ذمة الراوي أن من بين رواد المسجد من يبيع هذه الأقراص الإباحية، كيف تصلي أنت وتفسد أخلاق الشباب؟ كيف تجمع بين النقيضين؟ كيف؟!!

والله مرة اتصلت بي امرأة قالت لي: يا أستاذ إن ابنتي صالحة جداً، وتحفظ كثيراً من كلام الله، ونشأت نشأة دينية، جاءتها زجاجة خمر غالية جداً، هدية من أحد أصدقائها، أيجوز أن تهديها؟!! ما هذا السؤال؟ كيف عرفت هذا الإنسان؟ وما العلاقة بينهما حتى يهديها زجاجة خمر غالية جداً؟ وهل يجوز أن تهديها لغير المسلم؟ هذا هو الدين.

والله جاءني سؤال من بلاد بعيدة جداً، تقول صاحبة السؤال: أنا سيدة مسلمة، نشأت في كنف أسرة مسلمة، ما عرفت من الدين إلا أن الخنزير حرام، تعرفت على شاب قبطي فتزوجته بمركز إسلامي، واشترط عاقد العقد رئيس المركز أن يبقى كل منا على دينه، والله أمر محيِّر!! ثم علمت أنه تزوجني من أجل البطاقة الخضراء، وبعدها اختفى، وبعد عام بأكمله طلقت طلاقاً مدنياً منه، ثم تعرفت على شاب آخر غير مسلم، وتزوجته، فما حكم الزواجين يا سيدنا الشيخ؟ سؤال جاءني من بلاد بعيدة، في موقع معلوماتي، هذا حال المسلمين، قد يجد إنسان يسكن في البلاد الإسلامية الشرقية إنساناً يأتي من الشام مسلماً يبكي، ويعانقه، ويشمه من رائحة بلاد المسلمين، من شدة محبته له يهديه زجاجة خمر، والله خطيب حدثني والله من فمه إلى أذني، أصله من أوروبا الشرقية، قال: ذهبت لزيارة بلدي، وألقيت خطبة في أكبر مسجد هناك، قال لي: عشرات الآلاف، وألقيت خطبة مؤثرةً جداً ما كان منهم إلا أن انهمرت عيونهم بالدموع، من شدة الخشوع أخذوا من جيوبهم زجاجات خمر، وشربوها تأثراً بهذه الخطبة، هكذا حال المسلمين الذين تعتب على الله لأنه تخلى عنهم، هؤلاء هم المسلمون، والله وفي بلادنا منكرات ومعاص يندى لها الجبين، حالات من الخيانة كثيرة جداً، حالات من زنا المحارم كثيرة جداً، وحالات من اغتصاب الأموال كثيرة جداً، وحالات، وحالات لا يتسع المجال لذكرها.

أكبر شيء يهلك الإنسان أن يفعل شيئاً يقطعه عن الله :

قال تعالى:

(لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا)

الآن ماذا يقول الله:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا)

اسمع منا يا رسول الله، النطق بالشهادتين، اسمع منا الولاء لك، اسمع منا اتباعك، اسمع منا محبتك:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا)

أي الابن ينبغي ألاّ يقول لأبيه: أعطني الأسئلة، ينبغي أن يقول: أفهمني هذه النظرية، بدل أن تقول: راعني، قل: أفهمني، وضح لي.

(وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

ليس ثمة عقاب فيما أتصور أشد من أن يلعن الله إنساناً، وأن يبعده عنه، وعن رحمته، يبعده عن جنته، يبعده عن رضوانه، يبعده عن عطائه، ومعنى كلمة ملعون أي مقطوع عن الله، مبعد، فلذلك أكبر شيء يهلك الإنسان أن تفعل شيئاً يقطعك عن الله، أعظم شيء ينفعك أن تفعل شيئاً يقربك من الله عز وجل.

استثناء القليل عند العرب يعني أنه لا شيء عندهم إطلاقاً :

لكن لعن الله له قاعدة، لعن الله ليس جزافاً:

(وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

لأنهم كفروا ولم يؤمنوا، لأنهم عصوا ولم يستقيموا لعنهم الله عز وجل، وكل إنسان يكفر ولا يؤمن، يعصي ولا يستقيم يلعنه الله عز وجل.

(وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

قال بعض العلماء: كلمة:

(فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

أي أنهم لا يؤمنون إطلاقاً، هذه صيغة يألفها العرب، استثناء القليل يعني أنه لا شيء عندهم إطلاقاً، ولكن لئلا يعترض أحد يا أخي، إبليس مؤمن؟ طبعاً قال له:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص: 82]

قال له:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة الأعراف: 12]

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة ص: 79]

معناه ما آمن، هل نفعه إيمانه؟ إذاً إبليس لم يؤمن إلا قليلاً بهذا المعنى.

الحيل الشرعية التي لجأ لها اليهود يلجأ لها المسلمون هذه الأيام :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ)

يخاطب الله أهل الكتاب، أن أوصاف النبي التفصيلية جاءت بكتبهم، ويؤكد الله هذه الحقيقة في آية أخرى فيقول:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

[سورة البقرة: 146]

ليس في الأرض معرفة أصدق ولا أسرع ولا أكثر عفوية من معرفة الأب لابنه:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

[سورة البقرة: 146]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا)

الإنسان له وجه حينما يستحق العقاب تطمس معالم هذا الوجه؛ أي تمحى معالمه، أي دليل الهلاك والشقاء، (فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا)، أي حينما يأتي وقت لا ينفع فيه الندم.

(أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ)

الذين احتالوا، واستخدموا الحيل الشرعية، حرم صيد السمك يوم السبت فأنشؤوا أحواضاً، واستجلبوا السمك يوم السبت، ثم أغلقوا الفتحات، ثم اصطادوها يوم الأحد، وكم من المسلمين يفعل عشرات الحيل الشرعية، وهو يظن أن الله لا يعلم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً)

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرك وأنواعه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثامنة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

أيها الأخوة، ديننا دين التوحيد، ديننا كلمته الأولى: لا إله إلا الله، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، معنى التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، معنى التوحيد ألا ترى رازقاً إلا الله، ولا قوياً إلا الله، ولا رحيماً إلا الله، أن الذي يعطي هو الله، والذي يمنع هو الله، والذي يرفع هو الله، والذي يخفض هو الله، والذي يعز هو الله، والذي يذل هو الله، كفكرة سهل أن تفهمها، أما أن تعيشها فهذا يحتاج إلى جهد كبير جداً، يمكن بوقت قصير أن تستوعب معنى لا إله إلا الله، أما أن تعيش هذه الكلمة، حينما يأتي إنسان، ويضغط عليك، ولا ترى إلا الله سمح له، بين أن تكون علاقتك معه وبين أن تكون علاقتك مع الله، فرق شاسع، لذلك معظم أهل الأرض مؤمنون بالله خالقاً، لكن قلة منهم تؤمن بالله مسيراً، تؤمن بالله فعالاً، تؤمن بالله أنه إله في السماء، وإله في الأرض، تؤمن أن الأمر كله بيد الله، لكن شاءت حكمة الله ألا تدركه الأبصار، لا تدركه الأبصار، ترى من؟ ترى القوي يهدد العالم، ترى القوي بإمكانه أن يقصف، وأن يدمر، وأن يبيد، وأن يقتل، وأن يمثل، وأن يذل، لذلك عظمة الإيمان أنك لا ترى مع الله أحداً، إن رأيت أن هذا الإنسان القوي بإمكانه أن ينفعك، أو أن يضرك فقد وقعت في الشرك، على كلٍ الشرك نوعان، شرك جلي، وشرك خفي، الشرك الجلي أن تعبد بوذا، أن تعبد حجراً، أن تعبد صنماً، أن تعبد الشمس والقمر. أما أن تعبد شهواتك، أن تعبد القوي، وعبادة القوي لا تعني أنك تعده إلهاً، لا، يأمرك فتأتمر وينهاك فتنتهي، هذه عبادتك له، ولا تعبأ بأمر الله ولا بنهيه، حينما يأمر قوي فتأتمر، وينهاك فتنتهي، فأنت تعبده دون أن تشعر، وهذا شرك خفي، حينما تتوهم أن العطاء بيد زيد، وأن الحرمان بيد عبيد، وأن العز بيد فلان، وأن الذل بيد علان، وتنسى الله عز وجل، فهذا شرك خفي، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

أخطر موضوع في الدين الشرك :

الشرك أيها الأخوة، أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، أخفى من دبيب النملة إذا سارت على صخرة صماء أتستطيع أن تسمع وقع أقدامها، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل، إنسان نصحك بأدب، لكن لم ترق لك نصيحته، فأبغضته، إنك ألهت نفسك، رأيت أنك أكبر من أن تنصح، أو أحسن إليك إنسان، وهو مشرك فأحببته، علامة إيمانك أن تبغض المشرك ولو كان محسناً لك، وأن تحب المؤمن ولو كان مسيئاً لك، هذه هي علامة إيمانك.

يا أيها الأخوة الكرام، ما من موضوع في الدين أخطر من الشرك، لأن أي ذنب مهما عظم يغفر، ذنب يغفر، وذنب لا يترك، وذنب لا يغفر، أما الذنب الذي يغفر فما كان بينك وبين الله، لأن حقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، وأما الذنب الذي لا يترك فما بينك وبين العباد، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، أما الذنب الذي لا يُغفر أن تشرك بالله.

أيها الأخوة لا بد من التوضيح، الحقيقة ثمة مصطلح يستخدمه بعض العلماء اسمه تحصيل حاصل، أنا حينما أغلق الباب الخارجي للجامع فلا يستطيع أحد أن يخرج، كون هذا الباب مفتوحاً لا قيمة له، هو مغلق حكماً، لأنك ولو خرجت منه فالباب الثاني موصد أمامك، فكون هذا الباب مفتوح أو مغلق تحصيل حاصل، حكماً مغلق، لأن باب الخروج الأساسي مغلق، الشرك هنا لا يغفر، تحصيل حاصل، لأنك حينما تشرك لا سمح الله ولا قدر تتجه إلى غير الله، وغير الله ليس عنده شيء.

ضربت مرةً مثلاً: لك مبلغ ضخم في حلب، وحدِّد لك موعد لقبضه، الساعة الثانية عشر ظهراً، وأردت أن تركب قطاراً إلى حلب، صعدت القطار، وقطعت الدرجة الأولى، لكن بجهلك بالقطارات ركبت في الدرجة الثانية، هذا خطأ، لكن القطار متجه إلى حلب، جلست مع شباب سيئي الخلق فأزعجوك في الطريق بغنائهم، وصخبهم، وضجيجهم، وهذا خطأ ثان، لكن القطار متجه إلى حلب، جلست عكس اتجاه الطريق فأصابك دوار، وهذا خطأ ثالث، لكن القطار متجه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، التوت أمعاؤك من الجوع، ولا تدري أن في القطار عربة طعام تقدم فيها بعض الأطعمة، وهذا خطأ رابع، لكن القطار متجه إلى حلب، وسيصل في الموعد المناسب، فرغم هذه الأغلاط، قطعت في الدرجة الأولى، وركبت في الدرجة الثالثة، جلست مع شباب سيئي الخلق، جلست بعكس اتجاه السير، التوت أمعاؤك من الجوع، لكن القطار متجه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، وستقبض المبلغ الثمين، أما الخطأ الذي لا يغفر أن تركب قطاراً إلى درعا، لا شيء هناك، لو كان فخماً، لو جلست في الدرجة الأولى، لو تناولت الشطائر الطيبة، لو كنت وحدك في الغرفة ليس هناك شيء، لم تقبض درهماً واحداً هناك.

مشكلة المسلمين الأولى أنهم يتعلقون بغير الله وهذا هو الشرك :

معنى أن الله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، لأنك في الشرك تتجه إلى غيره، لا إليه، نقول: لم يسمح لك أن تعالج إذا ذهبت إلى مقهى ينبغي أن تذهب إلى المستشفى، هناك الفحوصات، وهناك الطب، وهناك الأدوية، وهناك المعالجة، وهناك التحليل، وهناك التصوير، أما لو ذهبت إلى مقهى لا يوجد شيء، فإن الله لا يغفر لك الذنب تحصيل حاصل، إنك لم تتجه إليه، إنك لم تعلق الأمل عليه، إنك لم تنصع إليه، إنك لم تطلب من القوي الغني القدير، طلبت من الضعيف، الفقير الحقير الحقود، أنت حينما تسأل إنساناً لا شك أنك مؤمن بوجوده، ولا تسأله إلا إذا أيقنت أنه يسمعك، ولا تسأله إلا إذا أيقنت أنه قادر على أن يلبي طلبك، ولا تسأله إلا إذا علمت أنه يحب أن يلبي طلبك، لا بد من أن تؤمن بوجوده، وأن تؤمن بعلمه، وأن تؤمن بقدرته، وأن تؤمن برحمته، وجوده، وعلمه، وقدرته، ورحمته، أما إنك حينما تتجه إلى بشر، إلى إنسان ضعيف، هذا الضعيف ربما لا يكون معك دائماً، إن لم يكن معك كيف يسمعك؟ وإن سمعك ربما لا يملك القدرة على حل مشكلة، وإن ملك القدرة ربما لا يحب أن يحل مشكلتك، إذاً الشرك أن تتجه إلى غير الله، الشرك أن تعقد الأمل على غير الله، الشرك أن تتوكل على غير الله، الشرك أن تخلص لغير الله، الشرك أن تكون مجيراً لغير الله، التوحيد، ولا يليق بك إلا أن تكون موحداً، لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، ولا أن يتذلل إلى غير الله، ولا أن يمرغ جبهته إلا في أعتاب الله، ولا أن يطلب إلا من الله، وألا يستغفر إلا من الله، وألا يطلب العون إلا من الله، مشكلة المسلمين الأولى أنهم يتعلقون بغير الله.

علينا أن نجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله :

أيها الأخوة، من أخذ الأسباب واعتمد عليها فقد أشرك، أي أنت حينما تراجع مركبتك، وتعتقد أن هذه المراجعة ضمان لك من حادث فأنت واهم، ينبغي أن تراجع مركبتك أخذاً بالأسباب، ولا بد من أن تتوكل على رب الأرباب، أن تجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل شيء يحتاج إلى تفوق، الذي أخذ بالأسباب واعتمد عليها، ونسي الله عز وجل، الغرب أخذوا بالأسباب وأشركوا، لأنهم ألهوا الأسباب واعتمدوا عليها.

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)

[سورة الحشر: 2]

هيئوا دروعاً على بعد مئات الكيلو مترات، هذه الدروع تقيهم أية ضربة خارجية، الدروع الفضائية،

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)

كلما اعتمدت على قوتك خيب الله ظنك بقوتك، وكلما اعتمدت على مالك؛ أحدهم أصلحه الله قال كلمة في مجلس: إن الدراهم مراهم، تحل بها كل مشكلة، فابتلاه الله بمشكلة لو دفع ألف مليون لا تحل بها، قال لي: بقيت في المنفردة ثلاثاً وستين يوماً، وكل يوم أؤنب نفسي، ألم تقل أيها الإنسان الجاهل: إن الدراهم مراهم تحل بها كل مشكلة.

طبيب في أمريكا رأى أن الجري يقي القلب من كل آفاته، هي فكرة علمية صحيحة، فكان يجري كل يوم ساعتين، وعقد معه ندوات، وألّف مقالات، وألّف كتباً، كلامه ليس خطأ، ولكنه توهم أن الجري وحده يقيه من الموت، فمات وهو يجري، في الثانية والأربعين من عمره، كلما ألّهت شيئاً خيب الله ظنك به، خذ الأسباب ولكن إياك أن تعتمد عليها، خذ الأسباب، ولكن إياك أن تنسى الله معها، خذ الأسباب ولا تنس أن مسبب الأسباب هو الله.

أخطر شيء في حياة المسلمين الشرك الخفي، طبعاً لا يمكن أن يقبل في العالم الإسلامي شرك جلي، هذا ممنوع، غير مقبول، مرفوض، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ـ هذا مستحيل ـ إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

لكن طمع في الشرك الخفي، أن تعبد شهواتك من دون الله، أن تعبد مصالحك، أن تعبد مركزك، أن تعبد صلاحياتك، أن تعبد قوياً، أن تعبد جميلاً، أن تعبد محسناً، العبادة يعني أن تطيعه في معصية فقط، لو قلت لواحد: أتعبدني؟ يقول: معاذ الله، كيف أعبدك؟! حينما يحرم حلالاً فتطيعه، وحينما يحلل حراماً فتطيعه فهذه عبادة، وأنت بهذا تألهه.

أعظم شيء في الإيمان التوحيد :

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

آثر هواه على قواعد الشرع.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وإخوانكم وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

أعظم شيء في الإيمان التوحيد، التوحيد يشفي الصدور، التوحيد يشفي الصدور من الأحقاد، هذا الذي نالك بأذى ما كان له أن يفعل لولا أن الله سمح له، لقد مكنه الله منك، لقد سلطه الله عليك،

وكمال الله مطلق وعدله مطلق إذاً عندي مشكلة، مشكلتي مع الله لا مع زيد ولا عبيد، ألم يقل الله عز وجل على لسان أحد الأنبياء:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

وحوش مخيفة، مفترسة، لكنها مربوطة بأزمة محكمة، بيد أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، علاقتك مع من؟ مع الوحوش أم مع من بيده أزمتها؟ مع من بيده أزمتها، لأنه لو أرخى الحبال لوصلت إليك، لو شدّ الحبال لأبعدها عنك، فعلاقتك ليست مع الوحوش، ولكن مع من بيده أزمتها، هذا هو الإيمان.

دعوة الأنبياء جميعاً لا تزيد عن كلمة التوحيد :

قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

حينما يوحد الإنسان تنحل مشكلاته، إن جاءه ما يحب قال: الحمد لله ربي الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءه ما يكره قال: الحمد لله على كل حال.

أيها الأخوة الكرام، يكاد التوحيد يكون الدين كله، يكاد التوحيد يكون فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، لو أردت أن تلخص دعوة الأنبياء جميعاً ما زادت عن كلمة التوحيد.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

دعوة وفحوى جميع الأنبياء:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

أنت متى تعبد الله؟ حينما ترى أنه وحده الفعال، وحده المعطي، وحده المانع، وحده المعز، وحده المذل، وحده الرافع، وحده الخافض، وحده المانع، وحده المعطي، المعطي المانع، الضار النافع، المعز المذل، التواب الرحيم لا تتعلق به، ولا تقبل عليه، ولا تعقد عليه الأمل، ولا تتوخى عنده النجاة إلا إذا عرفت أن الأمر بيده.

الله تعالى ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر عائد إليه :

لذلك الله تعالى ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر عائد إليه قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

ما قال إليه يرجع الأمر، (كله) توكيد.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

هذا الذي ينقص المسلمين، التوحيد، ولاسيما في هذه الأيام، أنت ماذا ترى؟ ترى جهة قوية، متغطرسة، حاقدةً، لا ترحم ولا تنصف، تكيل بمليون مكيال، يموت الواحد منهم فيطلبون ديته خمسمئة مليون ليرة، عشرة ملايين دولار، ويموت الآلاف منا فلا يدفعون شيئاً بقصفهم وبأخطائهم، أنت ماذا ترى؟ ترى جهة قوية طاغية آثمة متغطرسة، ما شفاء هذه الرؤية؟ أن توحد، أن ترى أن الله سمح لها أن تفعل هذا لحكمة بالغة.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 4-6]

صفات المؤمن الموحد :

المؤمن حينما يوحد لا يحقد، لأنه يرى أن يد الله تعمل في الخفاء.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 17]

المؤمن الموحد يثق بحكمة الله، المؤمن الموحد يصبر على حكم الله.

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الطور: 48]

المؤمن الموحد يتلو هذه الآية دائماً:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

المؤمن الموحد لا يرى مع الله أحد، لا يرى إلا الله، أما إذا رأى أن قوياً كافراً نال خلقاً بالأذى فهو يؤمن أن خطة الله استوعبت خطة الكافر، لأن الكافر لا يمكن أن يسبق الله، معنى سبقوا أنهم فعلوا

شيئاً ما أراده الله، معنى سبقوا؛ أنهم تفلتوا من عقاب الله، ما فعلوا إلا ما سمح الله به، الأمر بيده كن فيكون، زل فيزول:

((لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

التوحيد يذيب الهموم والإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن :

أيها الأخوة الكرام، هناك تعبير معاصر، يقول لك أحدهم: الكرة في ملعبك، أو الكرة في ملعب خصمك، بشكل دقيق، لو أن واحداً تلقى ضربةً بعصا، هل من العقل أن يحقد على العصا؟ يكون أحمق، على من يحقد؟ على من ضربه بالعصا، فإذا كانت الطغاة في الأرض عصياً بيد الله، والله كامل كماله مطلق، معنى ذلك الكرة عندي، المشكلة معي، لولا أنني أستحق هذا التأديب من هذا القوي لما سلطه الله عليّ، لولا أنني أرتقي بهذا القوي صابراً، أو موحداً، أو مستغفراً لما سلطه علي، هناك حكمة بالغة، هذه الحكمة تلخص بقول القائل: لكل واقع حكمة، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد الله، ليس من وحدانيته، وليس من ألوهيته أن يقع في ملكه ما لا يريد، ليس معنى أراد أنه رضي بهذا الذي وقع، لكن الإنسان مخير معنى أراد لا تعني أن الله أمر بهذا الذي وقع، أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضى، ومعنى أراد أنه سمح، لأنك مخير، هويتك مخير عنده، والتخير يعني أنك تنطلق إلى ما تريد بقوة الله عز وجل، ما دام الله أعطاك قوةً كي تفعل ما تريد، فإذا كان الذي أردته سيئاً، وأعطاك قوةً أي سمح لك أن تفعل هذا لحكمة يعلمها الله، ولخطة استوعبت خطة هذا القوي، هذا هو الإيمان، لكل واقع حكمة، لذلك لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، لو كشف الغطاء ـ كما قال سيدنا علي ـ ما ازددت يقيناً، هذا التوحيد يذيب الهموم، الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، هذا التوحيد يذيب الأحقاد، هذا التوحيد صحة، لأن الشدة النفسية الآن وراء الأمراض كلها، الآن يكاد يتداخل الطب النفسي بالطب الجسمي، كلما تقدم العلم كشف أن الخلل الذي يصيب العضوية سببه شدة نفسية.

التوحيد صحة لأنه يريك أن الأمر سمح الله به :

حدثني أحد الأخوة الكرام من أطباء القلب، قال: الشريان في القلب مصقول إلى درجة لا تصدق، كيف أن بعض البلاط لا يصدق الإنسان نعومته وصقله، لا يمكن أن يعلق عليه شيء، كذلك شرايين القلب من الداخل، ولاسيما الشرايين التاجية، صقيلة إلى درجة لا يمكن أن يعلق عليها شيء، إلا أن الشدة النفسية، الخوف، القلق، الحقد، يحفر بهذه السطوح الداخلية بالشرايين حفر صغيرة، هذه تستقطب المواد الدهنية في أثناء جريان الدم، إذاً تضيق الشريان سببه شدة نفسية، الأورام الخبيثة سببها الشدة النفسية، بدليل أن كل المصابين بمرض الإيدز يصابون بأورام خبيثة، أمراض القرحة سببها الشدة النفسية، السكر سببه الشدة النفسية، الخثرة في الدماغ سببها الشدة النفسية، بعض آلام العضلات سببها الشدة النفسية، الشدة النفسية جاءت من الشرك، إنسان قوي متمكن يريد أن يدمرك ولا يرحمك، ولا يقبل عذراً، ولا ينصفك، هذا الشعور وحده يصيب الإنسان بأزمة قلبية، بل إن الشدة النفسية قاتلة لقوله تعالى:

(مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

كم من إنسان جاءته الضربية فوقع ميتاً، لم يحتمل هذا الرقم، كم من إنسان تلقى خبراً سيئاً فوقع ميتاً، التوحيد صحة، التوحيد يريك أن الأمر سمح الله به، والله عز وجل عادل، ورحيم، وغني عن أن يظلمك، وخلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، وهذه الدنيا مؤقتة، دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، منزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

أحد التابعين فقد أحد أعضاءه، بمرض الموات، الغرغرينا، وفقد أحد أولاده، فاحتسب هذا عند الله، قال: يا رب لأن ذهب عني أحد أعضائي لقد أبقيت لي بقية الأعضاء، لأن فقدت أحد أولادي أبقيت لي بقية الأولاد. المؤمن راضٍ عن الله، قال: يا ربي هل أنت راضٍ عني، سمعه رجل اسمه محمد بن إدريس ـ الإمام الشافعي ـ قال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: يا سبحان الله! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟! قال: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، علامة إيمانك أنك راضٍ عن الله.

علامة إيمانك أنك راضٍ عن الله :

والله أعرف أخاً توفي رحمه الله بمرض خبيث في أمعائه، تقول زوجته لأبيها، وأبوها صديقي: ما سمعت من زوجها مرةً كلمة تأوه، إلا قول زوجها: يا رب لك الحمد.

حدثني أخ طبيب في مستشفى جاءهم مريض بمرض خبيث في الأمعاء، كلما دخل زائر يعوده يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، لأنه رأى يد الله تعمل في الخفاء، يد الله رآها رحيمة:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

عجبت لأمر المؤمن عنده رضى، راض عن الله، راض عن الله في وجوده، وفي إمكاناته، وفي قدراته، وفي دخله، وفي زواجه، وفي أولاده، راضٍ عن الله، المؤمن لسان حاله يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

* * *

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك، ويا رب ماذا فَقَدَ من وجدك، وماذا وجد من فقدك، هذا هو التوحيد، ألا ترى مع الله أحداً، أما المشركون يموتون بغيظهم.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تدعو من الله إلهاً آخر، أن ترى قوياً مخيفاً، أن ترى قوياً لا يرحم، أن ترى قوياً حاقداً، أن ترى قوياً يطولك، أن ترى قوياً يتمنى دمارك.

من ضعف توحيدك أن تتوهم أن الأمر بيد زيد أو عبيد :

أقول لكم هذه الكلمة أيها الأخوة، وسامحوني بها: إذا سلمك الله لغيره لا يستحق أن تعبده، إذا سلم مصيرك لغيره، كيف يأمرك أن تعبده؟ قال لك: لا!

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ، أنت أغلى من أن تُسَلَّم إلى غيره، ولكن لضعف إيمانك، ولضعف متابعة العلم، ولضعف توحيدك تتوهم أن الأمر بيد زيد أو عبيد:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

أيها الأخوة الكرام، أخطر آية في القرآن الكريم هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

تحصيل حاصل، لأنك حينما تشرك بالله اتجهت إلى الفقير، اتجهت إلى الضعيف، اتجهت إلى الذي لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولو كان رسول الله، لأن الله يقول له:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 13]

لو توجهت إلى سيد الخلق معتقداً أن له إرادة مستقلة عن إرادة الله فقد أشركت.

إن الله لا ينسى أحداً لأن كماله مطلق :

وقف أحد الخطباء أمام النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله ما شاء الله وشئت، قال له: بئس الخطيب أنت، جعلتني لله نداً! ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، هذا التوحيد، الموحد متفائل، الموحد لا يحقد، المشرك يرى القهر فييأس، لكن الموحد يرى التسليط فيعود إلى نفسه، فيراجع حساباته، ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

تروي الكتب قصة رمزية، امرأة عجوز قالت: يا نوح متى الطوفان؟ قالت: أتمنى أن تخبرني قبل حدوثه، لأكون معكم في السفينة، القصة رمزية غير معتمدة، لكن لها مغزى كبير، يروى أن سيدنا نوح وهو في السفينة نسي أن يبلغها، وهو في السفينة والموج كالجبال تذكرها، أيقن بهلاكها، فلما انتهى الطوفان، واستوت السفينة على الجودي جاءته المرأة، قالت: يا نوح متى الطوفان؟ إن الله لا ينسى أحداً، كماله مطلق، لا يمكن أن ينساك، ولا يمكن أن يسلمك لغيره، أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرم، أنت المخلوق المكلف، ولكن أنت حينما تكون لغير الله تحتقر نفسك، أنت حينما تكون لغير الله تزدري مكانتك عند الله، أنت حينما تكون لغير الله ترتكب إثماً كبيراً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

الشرك الخفي هو داء المسلمين الأوحد :

كما قلت لكم في مثل القطار، قد ترتكب آلاف الأغلاط، لكن القطار متجه إلى حلب، وسوف تأخذ المبلغ عداً ونقداً، أما الخطأ الذي لا يغتفر أن تركب قطاراً آخر متجهاً إلى الجنوب، هذا الخطأ الذي

لا يغفر، الخطأ الذي لا يغفر أن تعقد الأمل على غير الله، أن تتجه إلى غير الله، الخطأ الذي يرتكبه المسلمون، والذي لا يغفر أن يعقدوا الأمل على أعداءنا، أن يروا الأمن في الولاء لهم، أن يروا الراحة في مهادنتهم، هذا هو الخطأ الأكبر، لذلك أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، القلب الذي فيه إشراك، العمل المشترك لا يقبله الله، والقلب المشترك لا يقبل الله عليه، العمل المشترك لا يقبله الله، لقول الله عز وجل في الحديث القدسي: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، والقلب المشترك الذي فيه حب لله وحب للدنيا لا يقبل الله عليه.

أيها الأخوة الكرام، ما من موضوع أخطر من الشرك الخفي، وهو داء المسلمين الأوحد:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

هذا الذي يعصي الله ويطيع زوجته، أليس مشركاً؟! ألم ير أن زوجته أكبر عنده من الله، لأنه آثر طاعتها على طاعة الله، هذا الذي يغش المسلمين ألم يقع في الشرك الكبير، لأنه رأى أن هذا المال الذي يجنيه من الغش أثمن عنده من طاعة الله، لو حللت مواقف المسلمين لوجدت الشرك وراء كل أخطاءهم، المشرك ينافق، لأنه يرى أن هذا الذي ينافق له قوي، يخشى بأسه، ويرجو نواله فينافق له، المشرك جبان لأنه يرى القوة بيد أعداءه، لا يرى أن الله هو القوي، يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

المؤمن لا يرتاح إلا إلى التفسير التوحيدي بينما غير المؤمن يرتاح إلى التفسير الشركي :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

أي أنت حينما تشرك ترتكب كذباً كبيراً، تزور الحقائق، بالنظام المدني، بالقوانين الوضعية الإنسان متى يعدم قولاً واحداً؟ إذا أراد أن يبدل النظام، ويعتدي على السلطة، أما لو ارتكب إثماً آخر يسجن، أما حينما يرتكب الخيانة في نظر من بيدهم الأمر يقتلوه، أنت مع إنسان لو أردت أن تعتدي على سلطانه لأنزل فيك عقوبة الإعدام، المشرك ماذا يفعل؟ يعتدي على سلطان الله، ولو يعتدي باللفظ فقط، إنه حينما يقول على الله ما لا يعلم، أو حينما يقول على الله بخلاف ما يعلم فقد اعتدى على سلطان الله عز وجل، لذلك من البديهي أن الله لا يغفر له، مواطن ارتكب مخالفات كثيرة يعاقب بقدرها، أما الذي أراد أن يتآمر على النظام بماذا يعاقب؟ بالإعدام، أنت إذا اعتديت على سلطان إنسان اتهمك بالخيانة العظمى فكيف إذا اعتديت على سلطان الله في الأرض؟ كيف إذا

قلت: الأمر بيد فلان وليس بيد الله؟ فلذلك دائماً وأبداً المؤمن لا يرتاح إلا إلى التفسير التوحيدي، بينما غير المؤمن يرتاح إلى التفسير الشركي.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

[سورة الزمر: 45]

أما إذا ذكر الإنسان زيداً أو عبيداً ترتاح نفوسهم، البطولة أن تكشف الحقيقة، وهي أن الله كل شيء، وأنه بيده كل شيء، وأنه يرجع إليه كل شيء، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وأن الذي يشرك يرتكب كذباً شنيعاً وإثماً عظيماً، لأنه يفتري على الله الكذب، لأنه يقول ما لا يعلم، أو يقول بخلاف ما يعلم،

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

خبر الله عز وجل أصدق من رؤية العين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً* انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

أيها الأخوة، الحقيقة أن قول الله عز وجل:

(أَلَمْ)

يعني ألم تعلم، ولكن لمَ قال الله: [أَلَمْ تَرَ]، ولم يقل ألم تعلم؟ قال بعض علماء التفسير: إذا أخبرك الله بخبر ينبغي أن تأخذه وكأنك تراه رأي العين، بل إن خبر الله عز وجل أصدق من رؤية العين، من هذا المنطلق يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[سورة الفيل: 1-2]

أي ينبغي أن تأخذ هذا الخبر من الله عز وجل، وكأنك تراه رأي العين، يستنبط من هذا أن القرآن الكريم له مصداقية لا تعدلها مصداقية في الأرض، كيف لا وهو كلام خالق الأكوان، كيف لا وهو كلام رب العالمين، كيف لا وهو كلام أحكم الحاكمين، كيف لا وهو كلام أعلم العالمين، هكذا ينبغي أن تكون مع القرآن الكريم، ينبغي أن تأخذ خبر الله عز وجل وكأنه شيء تراه بعينيك من هؤلاء الذين يزكون أنفسهم، نموذج، الحقيقة ليس متلبساً بأهل الكتاب فحسب بل هذا نموذج تجده في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل عصر وكل مصر.

المؤمن مع المنعم بينما الكافر مع النعمة :

الإنسان إما أن يعبد الله، وإما أن يعبد ذاته، فإذا لم يكن عابداً لله، لا شك أنه يعبد ذاته أو يعبد جهة في الأرض، فمن دأب النفس أن تمجد الذي تعبده، فإن كان الذي يعبد ذاته لا بد من أن يمجدها، لذلك اجلس في مجلس، وافحص قول من حضر المجلس، فمن دعا إلى الله إذاً هو يعبد الله، وباع ذاته في التعتيم، من هو؟ اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة

المتين، المؤمن يرى أنه لا شيء، وأن الله هو كل شيء، وأن كل خصائص المؤمن من فضل الله عز وجل، ونعمة الله عز وجل.

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

[سورة النحل: 53]

النعمة أنك تتحرك من الله، نقطة دم لا تزيد عن إبرة لو تجمدت في أحد شرايين المخ لأصبح الإنسان مشلولاً، فالحركة نعمة من الله، لأنك متوازن وتنطق بالكلام المناسب في الوقت المناسب، فأنت تتمتع بعقل، ولمئة ألف سبب قد يفقد الإنسان عقله، فيصبح سخرية بين الناس، إذاً نعمة العقل، نعمة الحركة، نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة الإدراك، نعمة عمل الأجهزة بالغة الدقة،

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

يكاد يكون هذا الفرق حاسماً بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن مع المنعم بينما الكافر مع النعمة، قد يستخدم النعم استخداماً مخيفاً، يستمتع بالدنيا أشد أنواع الاستمتاع، لكنه كافر بالله، بينما المؤمن يذوب محبة بالله على أن أوجده، يشكر الله على نعمة الإيجاد، وعلى نعمة الإمداد، وعلى نعمة الهدى والرشاد، فقد كان عليه الصلاة والسلام، وهذا من شمائله أنه تعظم عنده النعمة مهما دقت، الإنسان حينما يفرغ مثانته هذه نعمة لا تعدلها نعمة، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الأَذَى وَعَافَانِي))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((الحمد لله ـ إذا أكل طعاماً ـ الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هذا الذي يزكي نفسه مذموم عند الله :

من أشد خصائص المؤمن أنه مع المنعم، ومن أشد صفات المعرض أنه مع النعمة، فأنت حينما تعبد الله تثني على الله، وتمجد الله، وتسبح الله، وتحمد الله، وحينما تعبد نفسك من دون الله تثني على نفسك، وتمدح نفسك، فحينما تتكلم عن نفسك، وعن باعك الطويل في كسب الأموال، وعن باعك الطويل في إيقاع المكر والخديعة بين الناس، فهذا الذي يزكي نفسه في نص هذه الآية مذموم عند الله، لا تزكي نفسك، لأنك إن زكيت نفسك، فالذين من حولك يصدقونك، لكن الله:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم ما أنت عليه، ويعلم ما خفي عنك، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون:

(أَلَمْ تَرَ)

يخاطب الله عز وجل نبيه الكريم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

بربك هل وجدت في الأرض إنساناً شارداً عن الله إلا ويزكي نفسه، بحق أو بباطل، بكلام مقبول أو غير مقبول، يزكي نفسه، يمدح ذكاءه، يمدح عقله، وعامة الناس يمدحون أولادهم مديحاً غير معقول، والنساء يمدحن بناتهن مديحاً غير معقول، نوع من نمو الذات، نوع من الكبر، نوع من الغطرسة، نوع من الاستعلاء، نوع من التعالي.

من صفات المؤمن الدقيقة أنه متواضع لله عز وجل :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

ما رأيت إنساناً موصولاً بالله إلا وكان متواضعاً، ما رأيت إنساناً يعرف الله عز وجل إلا وهو متواضع، يقدم كل شيء ولا يدعي أنه يقدم شيئاً، يقول: هذا من فضل الله علي، لذلك من علامة المؤمن أنه لا يذكر نفسه بشيء إلا ويقول: من فضل الله علي، لولا أن الله منَّ علي لكنت من الهالكين.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ)

[سورة النور: 21]

لذلك الله عز وجل يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام يقول له:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

معنى يزكون أي ينفون عن أنفسهم النقائص أولاً، ثم يدعون الكماليات ثانياً، هو لا يخطئ، وهو إنسان عظيم، بينما يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

من باب التوبيخ، من باب الانتقاص، من باب الذم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بَني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

حينما يتواضع الإنسان يزداد رفعة عند الله، وعند الناس، وحينما يتكبر يفقد مكانته عند الله، انظر إلى الأكحال وهي حجارة لانت فصار مقرها في الأعين، أنت حينما تتواضع لا يعني ذلك أنك وضيع أبداً، قد تكون عند الله عظيماً، لكن من صفات المؤمن الدقيقة أنه متواضع لله عز وجل.

الإنسان حينما ينجح في الحياة أمامه مزلق خطير هو مزلق الغرور والكبر :

ما من قائدٍ فتح بلداً إلا ودخلها متغطرساً متكبراً مستعلياً، إلا النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحاً دخلها مطأطأ الرأس، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل، لذلك حينما ينجح الإنسان في الحياة أمامه مزلق خطير هو مزلق الغرور، ومزلق الكبر، ومن أروع ما في القرآن الكريم في هذا الموضوع قوله تعالى:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء: 80]

قد يقول قائل: لمَ لم يقل الله عز وجل ربي اجعلني صادقاً، لمَ هذا التفصيل؟ لأنه قد تدخل في مجالات كثيرة مدخل صدق ولا تخرج من هذه المجالات مخرج صدق، قد تغريك الدنيا، قد تأخذك الدنيا، قد يأخذك العجب، كان بعض العلماء الأجلاء إذا دخل على إخوانه يقول: اللهم لا تحجبني بهم، ولا تحجبهم عنك بي، أن نبقى موحدين، أن نبقى عابدين لله عز وجل، ألا تحجب عن الله بإنسان، وألا يحجب الإنسان عن ربه بمجموع:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

معنى يزكون؛ أي يبرؤون أنسفهم من العيوب، وقد قيل: رقصت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها. لمجرد أن تتيه بفضلك فهذه نقيصة، المؤمن الصادق يفعل الخير مع كل الناس وينساه كلياً، أما إذا فعل معه أحد الخير لا ينساه مدى الحياة، إذا فعل معك الخير ينبغي ألا تنساه، أما إذا فعلت الخير ينبغي إذا كنت مؤمناً صادقاً أن تنساه، أن ترى أن الله سمح لك، وسخرك، وأمدك، وألهمك، لذلك قالوا: إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، وكلما أتيت الله من باب التواضع، ومن باب الانكسار، ومن باب التذلل، كنت من أفضل الناس عند الله لأن العبد عبد ولأن الرب رب.

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أبو داود وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة]

الكبر يفسد العمل كما يفسد الخل العسل :

قد يأتيك الضيوف، وليس عندك شيء، عندك كمية من اللبن لا تكفي واحد منهم، قد تضيف لهذا اللبن خمسة أضعاف حجمه ماء، وتجعله شراباً سائغاً، ويبيض وجهك، أما إذا أضفت إلى هذا اللبن قطرة من البترول لا يمكن أن يستخدم إطلاقاً. فالكبر يفسد العمل كما يفسد الخل العسل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

لمجرد أن تسلط الأضواء على ذاتك، لمجرد أن تجعل الحديث محوره مديح ذاتك، لمجرد أن تعيش مقدساً لذاتك، وأنت تنسى الذي منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، فأنت في بعد عن الله عز وجل.

لا أعتقد أن في الأرض إنساناً هو أشد تواضعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل عليه أحد الناس وقد أخذته رعدة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام من شمائله أنه شديد الهيبة، فمن رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه، فأخذته رعدة، قال: هوّن عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، هو سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، أقسم الله بعمره الثمين، وفي معركة بدر الرواحل ثلاثمئة، والجنود يقتربون من الألف، فقال عليه الصلاة والسلام: كل ثلاث على راحلة وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، فركب النبي الراحلة في نوبته، فلما جاء دوره في المشي توسل صاحباه إليه أن يبقى راكباً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

المؤمن متواضع لله عز وجل يمرغ جبهته في أعتاب الله ولكنه عزيز النفس :

سيدنا عمر أيها الأخوة أحد العشرة المبشرين بالجنة، في حياة المسلمين من بعثة النبي إلى يوم الدين هناك عشرة رجال هم في الجنة يقيناً، لأن النبي بشرهم، والنبي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ومع ذلك من شدة تواضع عمر، ومن شدة خوفه من الله، ومن شدة هيبته لله سأل حذيفة بن اليمان، وكان أمين سر رسول الله، قال: بربك اسمي مع المنافقين؟ قال: معاذ الله يا أمير المؤمنين، هذا هو الإيمان، الإيمان تواضع، الإيمان تذلل لله، أي هذا المستكبر، هذا المستعلي، هذا المتغطرس، لو رأيته أمام من هو أعلى منه رأيته كالطفل يتذلل أمامه، لكن المؤمن متواضع لله عز وجل، يمرغ جبهته في أعتاب الله، ولكنه عزيز النفس، يقول: لا، حيث لا يستطيع أن يقولها أحد.

دخل أبو حنيفة النعمان على أبي جعفر المنصور، وكان عند أبي جعفر أحد القضاة الذين هم من أعداء أبي حنيفة، أراد هذا القاضي أن ينتقم من أبي حنيفة، فقال: يا إمام إذا أمرني الخليفة ـ وعلى مسمع من الخليفة ـ بقتل امرئ أأقتله أم أتريث ـ ماذا يقول له؟ قال له: الخليفة على الحق أم على الباطل؟ قال له: على الحق، قال له: كن مع الحق، فلما خرج قال: أراد أن يقيدني فربطته.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ* وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 39 - 40]

أيها الأخوة، الله عز وجل يذم أولئك الذين يمدحون أنفسهم، والأولى ألا تزكي نفسك، وألا تزكي على الله أحداً، لأن الجهة الوحيدة التي تعرف كل شيء تعرف الظاهر، وتعرف الباطن، وتعرف

السر، وتعرف ما خفي عن صاحبها، هي الله جل جلاله، لا تخفى عليه خافية، كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ من خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، قد تكون في موقف لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن يحاسبك، لكن الله معك ويحاسبك، فالذي يخشى الله فيما بينه وبين الله هذا من قوة إيمانه، ومن شدة توحيده لله عز وجل.

على الإنسان أن يبتعد عن مدح ذاته لأن الله متكفل أن يجعله في حجمه الحقيقي :

إذاً يزكون؛ ينفون عن أنفسهم المعايب، ويلبسونها الفضائل، وكله كلام بكلام، ألا تعلمون أن شعر الفخر في الجاهلية كلام بكلام، ألم يقل المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها و يختصم

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة و صم

* * *

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

* * *

كلام بكلام، كان في طريقه من البصرة إلى حلب مع غلامه فجاءه بعض الأعداء فولى هارباً، قال له غلامه ألم تقل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

قال له: قتلتني قتلك الله، فعاد وقاتل حتى قتل.

أي تجد الإنسان يتبجح ويفتخر ويتحدث، أما في المحك العملي، أما عند الضرورة تجده جباناً متخلفاً بخيلاً، فهذا الذي يمدح نفسه لو أن الله يمدحه لانكشف، على كلٍ اعلموا علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى لا بد من أن يحجم خلقه، لا بد من أن يمتحنهم، تكلم ما شئت، أثني على نفسك بما شئت، أعطي نفسك الحجم الذي تشاء، اجعل نفسك محور العالم تكلم، تحدث، امدح علمك، وفهمك، وحكمتك، وغناك، ومالك، وقدرتك لكن الله عز وجل متكفل أن يجعلك في حجمك الحقيقي وهذا هو الابتلاء، لذلك الأفضل أن تبتعد عن مدح ذاتك كلياً.

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ)

[سورة النجم: 32]

حينما تتواضع تزداد رفعة :

نهي إلهي بآية ثانية:

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

[سورة النجم: 32]

أحد الأصحاب مدح سيدنا الصديق رضي الله عنه، فتوجه إلى الله، وقال: يا رب أنت أعلم بي من نفسي، أنا لا أعلم، ولكنك تعلم، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون ـ كان طموحاً ـ واغفر لي ما يعلمون، ولا تأخذني بما يقولون، هذا أكمل موقف لمن أثنى عليك.

عالم جليل سافر إلى بلد غربي للمعالجة، انهالت الرسائل والاتصالات بشكل غير طبيعي، أجريت معه مقابلة بالإذاعة، فسألوه عن هذه المكانة التي حباه الله بها، تواضع لله عز وجل، فلما ألحوا عليه قال: لأنني محسوب على الله، هناك من هم محسوبون في الأرض على جهة، أو على فئة، أو على طائفة، أو على حزب، قال: لأنني محسوب على الله.

حينما تتواضع تزداد رفعة، النبي عليه الصلاة والسلام توفي ابنه إبراهيم، ولحكمة أرادها الله انكسفت الشمس في يوم وفاته، فالصحابة الكرام ببراءة عجيبة ربطوا بين كسوف الشمس وبين موت إبراهيم، وظنوا أن هذا لكرامة النبي عند الله، أي معجزة، موت إبراهيم رافقه كسوف الشمس، فلما علم ذلك، وكان بإمكانه أن يسكت، جمع أصحابه وقال: إن الشمس والقمر آيتان لا ينبغي أن تنكسفا لموت أحد من خلقه، أنقذ التوحيد، إن الشمس والقمر آيتان لا ينبغي أن تنكسفا لموت أحد من خلقه:

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي)

أنت حينما تزكي نفسك، أنت نفسك لا تعلم ماذا تفعل لو كنت في ظرف آخر، إن الله وحده يعلم، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أنت الآن مستقيم جيد، قل: أرجو الله أن يثبتني، لو وضعت في مكان آخر، لو وضعت في مركز قوي، أو وضعت في ثروة طائلة هل تبقى هكذا؟ الله يعلم، أنت لا تعلم، لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان، الله وحده يعلم للذي لم يكن لو كان كيف يكون، كيف أنت تكون مع الذي لم يكن أن يكون:

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

الله عز وجل وحده يعلم، يعلم ما يبدو للناس، ويعلم ما يستتر عن الناس، ويعلم ما ظهر، ويعلم ما يخفى عنك، كيف هو.

الذي يرفعه الله لا يستطيع أحد أن يخفضه :

الصحابة الكرام بأمر الله عز وجل منعوا من العمرة في مكة، ووقعوا صلح الحديبية، واشتد الألم اشتداداً كبيراً عند أصحاب رسول الله، لأنهم كانوا يحلمون أن يطوفوا حول الكعبة، فمنعوا، وعقد الصلح سمح لهم في العام القادم بالعمرة، قال الله عز وجل:

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ)

[سورة الفتح: 25]

أي في مكة أناس آمنوا بالله وأسلموا ولكن سراً، فلو دخلوا مكة عنوة لقاتلوهم.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور: 19]

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

إن الله عز وجل إذا زكى إنسان أظهر فضله للناس، فالذي يرفعه الله لا يستطيع أحد أن يخفضه، ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

إذا زكى الله إنساناً فإنها تزكية صاعدة إلى ما شاء الله، أما إذا زكى الإنسان نفسه قد يفتضح.

إذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك :

جرت مناظرة بين عالم إسلامي، وعالم آخر من دين آخر، الحديث كان طويلاً، فقال الطرف الآخر: لأنني متخلق بفضائل الأخلاق فكلامي حق، فكان الذي حصل بعد حين أنه ضبط في فضيحة جنسية شاذة، هذا الذي زكى نفسه، وأنت حينما تزكي نفسك دون أن تشعر قد تجر إلى موقف تفتضح فيه، حين تزكي نفسك تزكية باطلة منهياً عنها قد تستدرج إلى موقف تفتضح فيه، فلذلك كن متواضعاً، وكن موحداً، ولا تر لك فضلاً، وإذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما بلغه أن بعض الأنصار وجدوا عليه في أنفسهم، قال: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم من أجل لعاعة تألفت بها قوماً ليسلموا، وكلتكم إلى إسلامكم، يا معشر الأنصار، لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، طريداً فآويناك، عائلاً فأغنيناك، يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً ـ ما قال فهديتكم ـ فهداكم الله بي، ألم تكونوا عالةً فأغناكم الله، ألم تكونوا أعداء فألف بين قلوبكم، إلى آخر القصة. إذاً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

من بيئة العرب في الجاهلية النخيل، والتمر من ثمر النخيل، والتمرة لها نواة، والنواة فيها فتيل، وفيها نقير، وفيها قطمير، فالنقير نتوء مأنف في أحد زوايا النواة، نتوء مدبب مأنف كالإبرة تماماً تحسه بلسانك، هذا هو النقير، وبين فلقتيها فتيل، ولها غشاء رقيق هو القطمير، فهذه الأشياء الثلاثة ليس لها قيمة إطلاقاً ليس الحديث عن النواة، عن نتوء في النواة، وعن خيط بين فلقتي النواة، وعن قشرة رقيقة في النواة، هذه الأشياء الثلاثة لا يمكن أن تظلموا بمستواها.

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النساء: 124]

لذلك الله عز وجل حينما يزكي من يشاء لا يظلم عبده إطلاقاً، يعطيه حقه، أما إذا تواضعت لله يرفع الله لك ذكرك، يعلي قدرك، يرفع شأنك.

ما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة :

قال:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: 39]

من أدق تفسيرات هذه الآية أن الله إذا أحب عبده ألقى محبته في قلوب العباد، وإذا أبغض عبداً له ألقى بغضه في قلوب العباد، فالعبد المنحرف عن منهج الله مهما حسن صورته، ومهما لمع شكله، ومهما تجمل أمام الناس يبغضه الناس، والمؤمن الذي اتصل بالله، وأخلص له، وخطب وده، مهما قصر في تحسين صورته فالناس يحبونه، وما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة:

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي)

دع التزكية لله، أنت حدث عن الله، أنت أثن على الله، أنت مجِّد الله، سبح الله، كبِّر الله، وحِّد الله، عرِّف الناس بالله، اذكر الله للناس، وعتم على نفسك، ضع نفسك في التعتيم، من أنت؟ أنت حسنة، أنت من فضل الله، أنت من حسنة الله، أنت من توفيق الله، كنت لا شيء فأصبحت به خير شيء في الورى قد صنعك كيفما شاء فكن في يده لك إن فرق أو جمعك.

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

عتِّم على نفسك ولا تبرز فضائلك وتحدث عن الله ودع أمر تزكيتك لله يعطيك حقك :

حينما تسكت ولا تزكي نفسك الله عز وجل هو الذي يرفع قدرك، ويعلي شأنك، ويلقي محبتك في قلوب الخلق، لا تخف لن تُظلم، أما إذا زكاك الله عز وجل لا تستطيع جهة في الأرض أن تخدش مكانتك، وأما إذا أهان الله عبداً لو فعل المستحيل فهو في الوحل، هو في مزبلة التاريخ، وقد ترون أناساً كانوا أقوياء وأذكياء، لكنهم كانوا أعداء لله عز وجل هم الآن في مزبلة التاريخ، هؤلاء الذي عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا سادة قريش، كانوا زعماء قريش، كانوا أبطالاً صناديد، أغنياء، هم في مزبلة التاريخ، وأما الذين نصروه وهم ضعاف فخلّد الله ذكرهم.

ماذا يقول الصحابة عن بلال الحبشي؟ كانوا يقولون عن الصديق: هو سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني بلال، من هذا العبد الحبشي الذي يخرج سيد قريش أمير المؤمنين عمر لاستقباله في ظاهر المدينة، من هذا؟!

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

إذا رفع الله عز وجل لك ذكرك فلا تستطيع الأرض بأكملها أن تحط من هذا القدر، لذلك أنت عتّم على نفسك ولا تبرز فضائلك، وتحدث عن الله، ومجِّد الله، وسبِّح الله، وكبِّر الله، ووحِّد الله، ودع أمر تزكيتك لله، يعطيك حقك:

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

الكذب والافتراء والفرق بينهما :

أيها الأخوة، الآيات الكريمة لها سياق، ولها سباق، ولها لحاق، فلو نزعت الآية وحدها لكانت حكمة رائعة خالدة فوق المكان والزمان، ولو أرجعتها إلى سياقها لكان لها معنى آخر، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن أهل الكتاب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ)

[سورة النساء: 47]

بهذا السياق يقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

أي بسياق الآيات هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هم أهل الكتاب، يكابرون، يرفضون الحق، يرفضون بعثة النبي، يرفضون وحي السماء، يزكون أنفسهم ويبخسون بهذه الدعوة الإلهية الإسلامية. لذلك يقول الله عز وجل:

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

الإنسان يكذب وربما لا يشعر، فإذا كذب وهو لا يشعر فهو يكذب، أما إذا كذب متعمداً فهو يفتري، الافتراء؛ الكذب المتعمد، لذلك قد يفتي الإنسان بلا علم، يحاسب عند الله حساباً عسيراً، لكن المجرم هو الذي يفتي بخلاف ما يعلم، أي يفتري الكذب:

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

أشد أنواع الكذب أن تكذب على الله :

قد تكذب على إنسان، والإنسان الذي تكذب عليه لا يملك أن يرد عليك، أو ليست عنده وسائل أن يكشف كذبك، لكن أشد أنواع الكذب أن تكذب على الله الذي:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

الذي يعلم حقيقة كل شيء، الذي لا تخفى عليه خافية، هذا إن كذبت عليه فهذه جريمة ما بعدها جريمة، هم يعلمون أنه رسول الله، بل إنهم:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

بل إن كتابهم ليذكر صفات النبي بدقة بالغة، لكنهم يفترون ويكذبون متعمدين، ليس هذا النبي الذي ورد اسمه في التوراة، قال تعالى:

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

لأنه افتراء على الله:

(وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

أي إثماً كبيراً جداً، واضحاً، لأن الذي تفتري عليه الكذب هو الله. أحياناً يكون الإنسان في مكان وحده، فإذا ذهب إلى مكان آخر يتكلم كلاماً على مزاجه، يكذب، أما إذا كنت في مكان، ويراقبك إنسان، وأنت وقفت موقفاً مخزياً، وكنت في جلسة بعد حين، وتبجحت أمام هذا الذي كان واقفاً أمامك أنني فعلت كذا وكذا، وأنت لم تفعل، فهذا منتهى الوقاحة، منتهى الوقاحة أن تتبجح بشيء لم تفعله أمام إنسان كان معك، ويرى كل حركاتك وسكناتك، فكيف إذا كذبت على الله؟!!

الجبت والطاغوت اسمان لصنمين في مكة أو رمزان لمن يدعو لغير الله :

قال:

(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

(انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ)

هؤلاء أهل الكتاب أي على علم بأن لهذا الكون إلهاً، وأن لهذا الكون نبياً ورسولاً، وكتاباً، ومنهجاً، عندهم نصيب من الكتاب:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ)

يذهبون إلى مكة، ويتفقون مع مشركي مكة على محاربة النبي، ويذمون النبي، فتوجسوا منهم خيفةً، لعله اتفاق بينهم لا نعلمه، فلا بد أن تسجدوا لأصنامنا، للجبت والطاغوت، فإن سجدتم لأصنامنا كنتم صادقين في نقض عهدكم مع النبي، فجاء أهل الكتاب إلى مكة المكرمة، وسجدوا لأصنام قريش، للجبت والطاغوت، وقال بعض العلماء: كل من يدعو إلى غير الله هو جبت، والطاغوت ليس طاغية بل شديد الطغيان، وكل من يطغى في أحكامه وفي تصرفاته فهو طاغوت، إما أن يكون الجبت والطاغوت اسمين لصنمين في مكة، وإما أن يكون الجبت والطاغوت رمزين لمن يدعو لغير الله، ولمن يظلم ظلماً لا حدود له.

القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بل إنه يقدم نماذج حية في كل زمان :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً)

ألا تجدوا في حياة المسلمين من يثني على كافر ويذم مؤمناً، ألا تجد في حياة المسلمين من يثني على بلد كافر ترتكب فيه الفواحش على قارعة الطريق، يثني على النظام، وعلى التقدم، وعلى الرقي، وعلى الحرية، وينسى أن هؤلاء قال الله عنهم:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

ينسى أن الله عز وجل قال عنهم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: 44]

ينسى ما قال الله عنهم:

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

[سورة إبراهيم: 42]

هذا الذي يثني على أهل الكفر، ويمدح أنظمتهم، ويمدح حياتهم، ويمدح قيمهم، ويمدح إباحيتهم، ويمدح حريتهم، ويمدح استغلالهم للدنيا، ويمدح بعدهم عن الدين، هذا الذي يمدحهم ويذم أمته، ويذم قومه، ويذم المؤمنين، ألا تنطبق عليه صفات هؤلاء تماماً، هذا كتاب هداية ليس كتاب تاريخ، لا يمكن أن يكون القرآن كتاب تاريخ، إنه يقدم نماذج حية في كل زمان.

إذا مُدِح الفاسق غضب الله عز وجل :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً)

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ)

طردهم وأبعدهم.

(وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)

قد يلعنك إنسان لا سمح الله ولا قدر، الإنسان مثلك ضعيف، قد يوقع بك الأذى، وربما لا يستطيع، أما إذا لعن الله إنساناً فهل ثمة أمل بالنجاة؟ كم النجاة؟ واحد بالمئة؟ مستحيل:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)

أي إذا مدح الفاسق غضب الله عز وجل، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق، هذا مطب كبير، مزلق كبير.

حينما ظهر من العرب نبياً حسده أهل الكتاب واليهود وكذبوه افتراءً وبغياً :

أن تذهب إلى بلاد الغرب وتعود وتقول: يا أخي غير حياة، نظام، قيم، حريات، ديمقراطية، حقوق إنسان، سلام عالمي، كل إنسان غارق في عمله، عمل، إنتاج، حسناً ماذا عن كفرهم؟ وإباحيتهم؟ وزناهم؟ وفسقهم؟ وفجورهم؟ وضياعهم؟ وشقائهم؟ لا يرى إلا الأشياء الإيجابية، ويتعامى عن السلبيات، كل إنسان يذهب إلى بلاد الغرب ولا يرى إلا أنهم نخبة من بني البشر ويزكيهم، ويقبح قومه وأمته، تنطبق عليه هذه الآية:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)

هم فوق ذلك بخلاء ماديون:

(أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً)

لو أن لهم نصيباً من الملك:

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

الحقيقة هذا حسد، حسدوا النبي، هم يعلمون أنه لا بد من أن يظهر نبي، حينما ظهر من العرب حسدوه، وكذبوه افتراءً، وبغياً، وحسداً.

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً*فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً)

الحديث عن أهل الكتاب الذين عايشوا النبي عليه الصلاة والسلام، الحديث عن اليهود.

من خصائص المؤمن أنه يثني على الله عز وجل ولا يزكي نفسه :

ذكرت في خطبة سابقة كختام لهذا الدرس أن الحصين بن سلام من أحد أكبر أحبار اليهود، علم أنه بعث رجل في مكة، وهو نبي هذه الأمة، عاد إلى التوراة فرأى صفاته منطبقة عليه، فكان ينتظره في المدينة، كان على رأس نخلة، فسمع من ينادي، ويقول: جاء محمد إلى المدينة، فصاح بأعلى صوته وهو على رأس النخلة: الله أكبر، قالت له عمته خالدة: والله لو أن موسى بن عمران أتى لما قلت أفضل من ذلك، قال: يا عمتاه إنه نبي، إنه أخو موسى بن عمران، إنه أتى بما أتى به موسى، فنزل، ودخل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأعلن الشهادة وأسلم، فقال له النبي: من أنت؟ قال: أنا الحصين بن سلام، قال: بل عبد الله بن سلام، قال: إذاً والله ما أحب أن يكون لي بهذا الاسم اسماً آخر، أنا عبد الله بن سلام، بعد حين قال له: يا رسول الله اجمع قومي، وادعهم إلى الإسلام، واجعلني في إحدى حجرات البيت، فجمع النبي قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فرفضوا، فقال: ما تقولون في الحصين بن سلام؟ قالوا: هو سيدنا، وابن سيدنا، وحبرنا، وابن حبرنا، وعالمنا، وابن عالمنا، قال: أفرأيتم إذا أسلم، قالوا: معاذ الله أن يسلم، ما كان له أن يسلم، فخرج عبد الله بن سلام إليهم، وقال: لقد أسلمت، وهذا رسول الله، وصفته جاءت في التوراة والإنجيل، فقالوا: هذا جاهلنا وابن جاهلنا، وشرنا وابن شرنا، فقال لسيدنا رسول الله: يا رسول الله ألم أقل لك إن قومي أهل غدر وبهتان.

قلت هذا في خطبة إذاعية، وتوجهت إلى إخوتنا في الأراضي المحتلة وقلت لهم: هؤلاء اليهود قبل ألف وأربعمئة عام هذا شأنهم من قديم الزمان إلى الآن قوم غدر وبهتان، فالحديث في الأصل عن أهل الكتاب، إلا أن هذه الآية التي شرحتها، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

هذه إذا نُزعت من سياقها قانون ومنهج، ومن خصائص المؤمن أنه يثني على الله عز وجل ولا يزكي نفسه.

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

[سورة النجم: 32]

سيدنا الصديق لما استخلف عمر بن الخطاب، ماذا قال؟ قالوا له: وليت علينا أشدنا، فقال الصديق رضي الله عنه: أتخوفنني بالله، لو أن الله سألني يوم القيامة لمَ وليت عليهم عمراً؟ أقول: يا رب وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به، فإن بدل وغيّر فلا علم لي بالغيب، أرأيتم إلى هذا الأدب، وأنت إذا سئلت عن إنسان فقل: هذا علمي به، فإن بدل وغيَّر فلا علم لي بالغيب، إن طلب منك أن تزكي إنساناً فقل: أحسبه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، والله أعلم.

هذا الدرس في أدب التزكية، لا تزكي نفسك الله يزكيك، وإذا زكاك الله لا تستطيع جهة في الأرض أن تخدش سمعتك.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(28-69): تفسير الآيتان 56 -57، تطابق المنهج مع المعجزة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون المترامي الأطراف يدل على الله عز وجل :

مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)

أيها الأخوة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

كلكم يعلم أن الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، ولكن هذا الكون المترامي الأطراف كله يدل على الله عز وجل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

لو أن الإنسان أراد أن يؤمن فقد تدله على الله بعرة، كما قال الأعرابي: البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير.

الكافر ما أراد أن يعرف الحقيقة أراد الدنيا والانغماس في المتع الرخيصة :

هناك قضية في القرآن تلفت النظر، يقول الله دائماً في آيات كثيرة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

يا ترى هذه الآية نؤمن بها أم إذا كنا مؤمنين بها نستفيد منها؟ يبدو أن الإنسان إذا أراد أن يؤمن، وأن يتعرف إلى الله، وأراد الحقيقة، وأراد أن يفهم، وأن يعقل كل شيء في الكون يدله على الله، لكن إن أراد الشهوة، إن أراد الدنيا، إن أراد العلو في الأرض، إن أراد الاستمتاع لو أنه في أكبر وكالة فضاء في العالم، ويرى كل يوم مئات المجرات، لو أنه على مجهر إلكتروني يكبر أربعمئة

ألف مرة لا يؤمن، تماماً كآلة تصوير بالغة التعقيد، غالية الثمن، فيها خصائص لا تصدق، لكن ليس فيها فيلم التصوير فلا قيمة لها. فهذا الإنسان الذكي المتبحر في العلم الذي نال أعلى الدرجات إن أراد من علمه شهوةً، أو مكسباً، أو سمعة، أو مالاً، أو ذكراً فإنه لا يؤمن، وبين يديه آيات بينات واضحات صارخات، وهذا الذي أراد الحقيقة، أو أراد الهدى، أو أراد الإيمان، أو أراد أن يعرف أصغر شيء يدله على الله، ويشهد له كيف خُلق هو، الشمس والقمر، طعامه وشرابه، زوجته، نومه ويقظته، ماء الأمطار، العصافير، الأطيار، الأسماك، البحار، الجبال قال تعالى:

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس: 24]

طعامه يكفي، زواجه يكفي، أولاده إن تأمل في أطوار خلقهم، هذه آيات تكفيه أن يعرف الله عز وجل. فالكافر هو بالأصل ما أراد أن يعرف الحقيقة، أراد الدنيا، أراد الانغماس في المتع الرخيصة، أراد المال، ألّه هواه.

الله عز وجل لا تدركه الأبصار لكن خلقه وأفعاله وكلامه يدلون عليه :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

هناك آيات دالة على الله، وقد قيل: هناك آيات كونية دالة على الله، وهناك آيات قرآنية دالة على الله، الله عز وجل لا تدركه الأبصار لكنه خلق الكائنات، لا تدركه الأبصار لكن أفعاله بينات واضحات، لا تدركه الأبصار لكن كلامه بين أيدينا، لذلك قالوا: إذا أردت أن تحدث ربك فادعه، وإذا أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

لم يعبأ بها، تماماً كما لو أن إنساناً فاضت عنده المياه فأتلفت الأثاث، فانطلق من بيته يريد قطعة كي يتلافى بها نزول المياه إلى أطراف البيت، هو مندفع ليشتري هذه الحاجة كي يمنع تسرب المياه، هو لا يرى شيئاً إلا هذه الحاجة، لو رأى سلعة رائعة رخيصة لا يعبأ بها، لذلك حب الدنيا يعمي ويصم، الإنسان حينما يحب الدنيا لا يرى شيئاً، حب الدنيا رأس كل خطيئة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً)

كل المخلوقات أبت أن تحمل الأمانة حينما عرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

الإنسان مخلوق قبل حمل الأمانة وما سوى الإنسان أبى أن يحملها وأشفق منها :

الحيوانات لا تعذب لأنها ليست مكلفة، لأنها لم تقبل حمل الأمانة، لأنها أشفقت من حمل الأمانة، فالملائكة اختاروا أن يكونوا مع الله دائماً من دون تكليف ومن دون مسؤولية، والحيوانات اختاروا أن يكونوا مع الشهوة من دون تكليف ومن دون مسؤولية، أما الإنسان فحملها الإنسان:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: 72]

لذلك ركب الله بنيته من شهوة وعقل، من قبضة من تراب الأرض، ونفخة من روح الله، فيه ميول عليا، وحاجات عليا، وفيه ميول دنيا، وحاجات سفلى، إن تحرك في شهواته وفق منهج ربه لا شيء عليه:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

لو اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، فالإنسان مع أن فيه عقلاً وفيه شهوة لكن إذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، فهذا الإنسان قبل حمل الأمانة، وقال: أنا لها يا رب، فلما جاء إلى الدنيا غلبته شهوته، ونقض عهده مع ربه فاستحق النار.

الاعتداء من لوازم الذي يتحرك بلا منهج :

الإنسان أيها الأخوة حينما يؤمن له جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر له على قلب بشر، وإذا لم يؤمن سوف يدفع ثمن انحرافه جزاء وفاقاً، حينما لو يؤمن، وحينما تحكمت فيه شهوته انطلق ليروي شهواته لا وفق منهج الله، بل وفق مزاجه وأهوائه فاعتدى، من لوازم الذي يتحرك بلا منهج أن يعتدي، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

سواء بآياتنا الكونية، أو بآياتنا التكوينية، أو بآياتنا القرآنية.

(سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً)

هذا وعيد من الله عز وجل لكن هذه النار تحرق الجلد، يتوهم الكفار أن هذا الجلد الذي يتألم من خلاله يحترق وينتهي، وانتهى الأمر، أمضينا كل العمر في الملذات والشهوات، بعد أن يحترق الجلد ينتهي العذاب، لكن الله عز وجل إذا وعد بالعذاب فوعده واقع لا محالة، لذلك يقول الله عز وجل:

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

تطابق المنهج مع المعجزة شيء يتميز به النبي الكريم لأنه خاتم الأنبياء :

الحقيقة التي تعذب هي النفس، لكن هذه النفس حينما تكون مرتبطة بالجسد، حينما يعالج طبيب الأسنان سناً من أسنانك من دون تخدير، وتصل أداته إلى عصب تحس بألم لا يوصف، وقد تصرخ، وقد تمسك بيده، لماذا؟ لأن هذا الألم انتقل إلى المخ، وهناك من يرى أن هذا الألم وصل إلى النفس، وأن هذه الأعضاء، وأن هذه الجلود إنما هي وسائط لنقل الألم إلى النفس، لذلك حينما تخدر هذه الأعضاء أو تلك الجلود لا ينتقل الألم إلى النفس. في الآخرة لأن وعيد الله عز وجل أن يحترق الإنسان إن كان كافراً إلى أبد الآبدين، والجلد يحترق.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

الحقيقة أيها الأخوة، لا بد من تعريف دقيق بأن نبوة الأنبياء كانت محدودةً بأقوامهم، ولكل قوم هاد، فكل نبي أُرسل إلى قومه حصراً، وخصائص الأنبياء السابقين أن معجزته غير منهجه، سيدنا موسى معجزته العصا ومنهجه التوراة، سيدنا عيسى معجزته إحياء الميت ومنهجه الإنجيل، لكن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزته القرآن ومنهجه القرآن، فتطابق المنهج مع المعجزة شيء يتميز به النبي عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء، ولأنه مرسل إلى كل أمم الأرض، هناك معجزة مستمرة إلى يوم القيامة، ذلك أن معجزات الأنبياء السابقين كعود الثقاب تألقت مرةً واحدة، ثم انطفأت فأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، لكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام بين أيدي الناس إلى يوم البعث، إلى يوم القيامة.

الإعجاز العلمي في خلق البعوضة :

هناك آية في البقرة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: 26]

من قبل كنت مطلعاً على بحث علمي حول البعوضة، فكنت في بعض المناسبات أتحدث عن البعوضة على أنها تملك ثلاثة قلوب، كلمة قلب تعني أربعة أجواف، ودسامين، أذينين، بطينين،

شرايين، حركة نوبية، للبعوضة ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وللبعوضة هكذا قرأت في هذه المقالة العلمية جهاز رادار تتجه إلى جبين الصبي، وللبعوضة جهاز تحليل الدم، وللبعوضة جهاز تخدير، وللبعوضة جهاز تمييع، ولها محاجم إن وقفت على سطح أملس، ولها مخالب إن وقفت على سطح خشن، ويرف جناحاها عدد كبير من المرات حيث يؤدي هذا الرفيف إلى طنين، بعد حين بعد عدة سنوات اطلعت على مقالة عن البعوضة، فإذا هي تشم رائحة عرق الإنسان من ستين كيلو متراً، واليوم اطلعت على بحث آخر أذهلني، فقرة من موسوعة علمية حديثة جداً، للبعوضة مئة عين لو كبرنا رأس البعوضة لوجدنا طرفي رأسها على شكل خلية النحل، كل حفرة في هذه الخلية عين، لها مئة عين، ثم لها مستقبلات حرارية، هذه المستقبلات تستقبل الحرارة عن بعد، وعندها حساسية لواحد على ألف من درجة الحرارة، لو قسمنا درجة حرارة واحدة إلى ألف درجة هذه المستقبلات عندها حساسية كي تكتشف ارتفاع أو انخفاض واحد على ألف من الدرجة، الأشكال التي أمامها تتلون بحسب الرائحة، الأشياء التي أمامها تراها بمئة عين بألوان متناسبة مع درجة حرارتها، لذلك إذا كانت في غرفة مظلمة ترى الطفل بعينيها بالأشعة تحت الحمراء، لأن الأشعة تحت الحمراء أشعة حرارية وليست ضوئية، تتحسس الحرارة على مستوى واحد من ألف من الدرجة، تتجه إلى جبين الصبي، ومن الذي صنع لها هذا المخدر؟ لولا هذا التخدير لقتلت مع كل لسعة، هي تمتص دم الإنسان، وبعد أن تطير ينتهي التخدير فيشعر باللسعة، فيضرب يده بلا طائل، وتكون هي قد طارت، أما الشيء الذي لا يصدق أن في خرطومها ست سكاكين، أربع تقطع الجلد، وسكينان يندرجان مع بعضهما البعض فيكونان أنبوباً، هذا هو أنبوب امتصاص الدم، وأساس هذا الأنبوب سكينان مندمجان مع بعضهما بعضاً، كأن السكين على شكل مجراة محدبة، وتأتي الثانية فوقها فتكون أنبوباً يغرس في لحم النائم بعد أن تستخدم السكاكين الأربعة في تقطيع الجلد من أربع زوايا.

هذا كله في البعوضة، مستقبلات حرارية، في خرطومها ست سكاكين، أربعة لقطع الجلد، وسكينان ليكونا مع التوليف أنبوباً لامتصاص الدم، ومئة عين، من صنع لها مادة التخدير؟ من صنع لها مادية التمييع؟ من صنع لها المستقبلات الحرارية؟ من أعطاها القدرة على اكتشاف ضحيتها مباشرةً؟ من جعل لها قلوباً ثلاثة؟ من جعل لها مئة عين؟ من جعل لها قوائم تستخدم المحاجم أو الخوالب؟

كلما تقدم العلم اكتشف جانباً من عظمة الله عز وجل :

ماذا يقول الله عز وجل؟

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: 26]

هذه الآية إعجاز علمي؛ ما من مخلوق أهون على الإنسان من بعوضة، الآن كلمة بعوضة مئة عين، ثلاثة قلوب، محاجم، مخالب، مستقبلات حرارية، جهاز تخدير، جهاز تمييع، جهاز رادار، شيء عجيب.

أيها الأخوة الكرام، في القرآن الكريم ألف وثلاثمئة آية، كلما تقدم العلم اكتشف جانباً من عظمة الله عز وجل، إذاً منهج النبي صلى الله عليه وسلم منهج ومعجزة في وقت واحد.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

في بحث علمي حول طبيعة الألم أين الأعصاب؟ آخر ما توصل له العلم أن الأعصاب منبسطة في جلد الإنسان، بدليل أنك لو أخذت حقنة تشعر بالوخزة لفترة قصيرة، وبعد الشعور بالوخزة لا تحس بشيء، معنى ذلك أن الحقنة حينما غرزت بالجلد لامست عصباً، لكن ما هذه الشبكة؟ ائتِ بدبوس في أي مكان من جلدك، واغرسه تشعر بالألم، أي أن هذه الشبكة تغطي كل مساحة الجلد على مستوى واحد بالمئة من الميليمتر، شبكة الأعصاب الحسية هذه التي تذوق العذاب، هذه التي تحس بألم الإحراق، فهذا الجلد لو أنه احترق، واحترقت معه أعصاب الحس لانتهى العذاب، لكن إعجاز القرآن الكريم يشير إلى أن هذا الجلد كلما احترق بدل الله هذا الجلد بجلد جديد.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

المعجزات السابقة حسية لذلك أصبحت خبراً أما القرآن الكريم فمعجزة مستمرة

لو أنك فتحت بطن مريض، وفتحت أمعائه وصببت فيها ماءً يغلي لا يشعر بشيء لأن أعصاب الحس لا وجود لها في الأمعاء، لكن الأمعاء تتأثر بالضغط، لذلك قال تعالى:

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً)

[سورة محمد: 15]

ما قال: أحرقهم، قال:

(فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

[سورة محمد: 15]

الأمعاء تتقطع، والذي يؤلم في الأمعاء التقطع، ولذلك اضطراب الأمعاء يسبب آلاماً لا تحتمل، لا من قبيل الحرق بل من قبيل التقطع.

(أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)

[سورة التوبة: 92]

الحقيقة أن الدمع يجري بشكل مستمر، له مصرفان في قعر موق العين، وهذان المصرفان يصبان في الأنف، فرطوبة الأنف تأتي من أن الدمع يسيل إليه بشكل مستمر.

أيها الأخوة الكرام، ما هو البكاء؟ حينما يكون إفراز الدمع بكمية أكبر من طاقة التصريف فيفيض الدمع، فكلمة تفيض أعينهم من الدمع فيها إعجاز علمي.

إذاً نحن أمام كتاب منهجي، وأمام كتاب إعجازي، معجزة النبي عليه الصلاة والسلام ومنهجه في كتاب واحد، طبعاً المعجزات السابقة حسية، لذلك انتهت مع نهاية بعثة النبي إلى قومه أصبحت خبراً، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام أرسله الله إلى الناس كافة فلا بد من معجزة مستمرة، إنها القرآن الكريم، لذلك يقول الله عز وجل:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: 53]

منهج الله عز وجل يضبط للإنسان شهواته :

قال تعالى:

(لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)

معنى كان عزيزاً حكيماً، العزيز الذي تشتد الحاجة إليه، والعزيز الذي لا يُنال جانبه، والعزيز الذي لا يخيب مؤمله، فالله عز وجل كان عزيزاً حكيماً.

هؤلاء فريق الذين كفروا وكذبوا بآياتنا أي لم يتعرفوا إلى الله لا من خلال آياته الكونية، ولا من خلال آياته التكوينية، ولا من خلال آياته القرآنية، ولأنهم حينما كفروا بالآيات كفروا بالمنهج، وتحركوا من دون منهج، تحركوا فاعتدوا.

توضيح لطيف، لو تصورنا أن الإنسان كفر بآيات الله ولم يؤذِ أحداً فهناك مشكلة، حينما يكفر بآيات الله لا بد أن يعتدي، لأن منهج الله يضبط لك شهواتك، أما بلا منهج فالشهوات طليقة والعدوان مستمر، فمستحيل وألف مستحيل ألاّ تعبأ بمنهج الله ثم تستقيم أبداً.

إذا كان الإنسان ذكياً جداً لدرجة أنه يقنع الناس بكماله وهو على الباطل يمتحنه الله عز وجل، فيصاب ببعض مصالحه، فيصبح كالوحش، وهذا ترونه جميعاً، كل يوم هذا البلد القوي الغني الذي طمع الناس أن يصلوا إليه، ولفت نظر الناس، وخطف أبصار البشر، وكان قبلة البشر، وكان أمنية البشر حيث الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والرفق بالحيوان، والثراء الفاحش، والطبيعة الجميلة، هؤلاء ادعوا أنهم كاملون، فتحدثوا عن حقوق الإنسان، وتحدثوا عن حرية الإنسان، وتحدثوا عن حق مقاضاة الإنسان... فلما أصيبوا في مقتل لهم أصبحوا كالوحوش، إذاً لا كمال من دون إيمان، ولا إيمان من دون كمال.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)

دائرة المرئيات محدودة بينما دائرة المسموعات أوسع ودائرة الخواطر لا تنتهي :

الطرف الثاني، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً)

ليست جنة، بل جنات، الإنسان في الدنيا عنده قلق عميق، صحته طيبة، لكن هذه الصحة لا تستمر، مستحيل، لا بد من يوم يكتشف الإنسان أن في جسمه شيئاً لم يكن من قبل، قد يكون هذا بداية مرض الموت، إذاً يوجد قلق عميق على أن هذه الحياة لا تدوم لأحد، ولا تستقر على حال، بل هي متقلبة، لكنك في الجنة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما يحدثنا عن ربه:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما لا عين رأت دائرة المرئيات محدودة، أنا سافرت إلى أستراليا، إلى ماليزيا، إلى أمريكا، إلى بريطانيا، إلى المغرب، إلى مصر، مثلاً، محدودين، لكن في العالم مئتا دولة، لكنني أسمع في الأخبار عن موسكو مثلاً، أسمع عن مدينة في إفريقيا، دائرة المرئيات محدودة، بينما دائرة المسموعات أوسع بكثير، أما دائرة الخواطر فهذه لا تنتهي، أي خاطرة تأتي إلى ذهنك يمكن أن تكون مقولة، قد يخطر في بالك قلم طوله ألف كيلو متر، ممكن هذه خاطرة.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إيمان بلا عمل لا قيمة له وعمل بلا إيمان لا قيمة له فلابدّ من عمل مبني على إيمان :

هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض، والتي أنت فيها إلى أبد الآبدين، وما أنت فيها من المخرجين، والتي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، هذه الجنة ليس فيها مرض، ولا قلق، ولا خوف، ولا حرج، ولا زوجة سيئة، ولا ابن عاق، ولا مرض عضال، ولا عدو يهدد، ولا منافق يحسد، ولا نفس غاوية، ولا شيطان يوسوس، فيها ما تشتهيه الأنفس، لذلك أيها الأخوة أعقل العقلاء من سعى إلى جنة عرضها السماوات والأرض، هذا هو العاقل، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يعجب ممن يعرف أن الجنة حق، وأن النار حق، ثم لا يعمل للجنة، ولا يتقي النار.

لذلك قال روى بعضهم حديثاً عن رسول الله استغنى به عن أربعمئة حديث: اعمل لله بقدر حاجتك إليه، أنت محتاج إليه في كل شيء، واتق النار بقدر صبرك عليها، واعمل للجنة بقدر مقامك فيها، اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، الإنسان حتى يستقر بالأربعين، بالثلاثين، من الثلاثين حتى الأربعين نوعاً ما حتى يستقر، ثم تنمو حياته شيئاً فشيئاً، فإذا بلغ الأوج بلغت خبراته الأوج، له دخل كبير، استقرت حياته، بنى معارف، شبكة علاقات، يأتيه ملك الموت في أحرج وقت، هذه هي الدنيا، ما

جمعه في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة، وكل ممتلكاته متعلقة بنبض قلبه، وكل أمواله الطائلة متعلقة بسيولة الدم في شرايينه، وكل مكاسبه متعلقة بنمو خلاياه، كل هيبته متعلقة بحالته الصحية، بقطر شريانه، الموت قريب جداً، فهذا الذي يعمل للدنيا إنما هو يغامر ويقامر. فيا أيها الأخوة الأكارم، هاتان الآيتان:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

كلمة آمنوا وعملوا الصالحات تتوارد في القرآن بعدد كبير جداً، فإيمان بلا عمل لا قيمة له، وعمل بلا إيمان لا قيمة له، فلا بد من عمل مبني على إيمان.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

كل ما في الجنة كمال مطلق :

طبعاً فيها ما لا عين رأت، أوصاف الجنة تقريب لنا، مثلاً أنهار الجنة فيها ماء غير آسن، ماء رقراق، عذب فرات، فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، فيها أنهار من عسل مصفى، فيها أنهار من خمر لذة للشاربين، معنى ذلك أن كل ما في الجنة في كمال مطلق، شباب دائم، حياة أبدية، شبح الموت يقطع الرقاب، أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أما في الجنة: ما هم منها بمخرجين:

(عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

[سورة الطور: 20]

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[سورة الحاقة: 23]

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

[سورة الإنسان: 20]

هذه الجنة، أخواننا الكرام، الشيء المؤسف جداً أن مفاهيم الجنة ليست داخلة في حسابات الناس، كما أن مفاهيم النار ليست داخلة في حسابات الناس، داخل في حساباتهم أسعار العملات، وطريقة اقتناص الشهوات، داخل في حساباتهم خصوماتهم، داخل في حساباتهم انغماسهم إلى قمة رؤوسهم بالشهوات، أما هذا الموت الذي يصعق له الإنسان فهو خارج حساباتهم، لذلك يقول الله عز وجل:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل :

هذا اليوم الذي وعدنا به لا بد آتٍ ما بين طرفة عين وانتباهها يغير الله من حال إلى حال، الذين حولك من أقربائك عدد الذين ماتوا منهم كبير، كان إنساناً له بيت، له أهل، له زوجة، يزورك، ينظر إليك، يسلم عليك، يبتسم، يضحك، يكسب مالاً، ينفق، ينام، يأكل، في ثانية واحدة أصبح خبراً على الجدران، وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر:

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملــت إلى القبور جنازة ً فاعلم بأنك بعدها محمــول

حدثني أخ يصلي في جامع في أحد أحياء دمشق، قال لي: أحد المصلين عنده روح دعابة لطيفة، كلما صلينا الفجر معاً وخرجنا من المسجد يتحفنا بطرفة جديدة، أقسم لي بالله أنه في أحد الأيام صلى معهم الفجر وهو في حالة طبيعية جداً، في صلاة الظهر رآه على أحد مواقف السيارات، أذن العصر فكان يصلي عليه، توفاه الله بشكل مفاجئ، وبعد أذان العصر كان تحت أطباق الثرى، الموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل.

أحد أخواننا الكرام يأكل شطيرة، وفي أثناء تناوله الشطيرة وافته المنية، كان يأكل ظهراً، العصر كان مدفوناً، انتهى الأمر، ملف مغلق. فالموت يأتي سريعاً، والموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، لا يعرف صحيحاً ولا مريضاً، لا يعرف مقيماً ولا مسافراً، قد يأتي الموت الإنسان في أحرج المواقف.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)

يوجد زوجات في الدنيا متعبات، أما في الآخرة، قال تعالى:

(لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(29-69): تفسير الآية 58، أنواع الأمانة ومقوماتها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-09-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مخلوق قبل حمل الأمانة وما سوى الإنسان أبى أن يحملها وأشفق منها ،:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثامنة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام، هذه آية مهمة جداً، ودقيقة جداً، وأساسية جداً، ذلك أن الإنسان مخلوق قبل حمل الأمانة، ما سوى الإنسان أبى أن يحملها وأشفق منها، وحملها الإنسان.

المخلوقات أيها الأخوة، أدناها الجماد، وأوسطها النبات، وفوق وسطها الحيوان، وعلى رأسها الإنسان، هذه المخلوقات؛ الجماد، والحيوان، والنبات أشفقن منها، وأبين أن يحملنها، لأن هناك مسؤولية بعد حمل الأمانة، أرادت هذه المخلوقات أن تتقرب إلى الله من دون مسؤولية، فالنبات يسبح لله عز وجل من دون أن يكلف، ومن دون أن يحاسب، ومن دون أن يعذب، ومن دون أن يكافأ، والجماد كذلك، والحيوان كذلك، رُكّب الملَك من عقل بلا شهوة، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، هذا الإنسان من بين مخلوقات الله كلها قَبِل حمل الأمانة، ولأنه قَبِل حمل الأمانة سخرت له السماوات والأرض.

علاقة الأمانة بالله عز وجل أن الله جلّ جلاله سلمك نفسك التي بين جنبيك :

قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

لأنه قبل حمل الأمانة سخر له الكون بأكمله، إذاً هو المخلوق الأول فيه نفخة من روح الله، وفيه قبضة من تراب الأرض، هذه الأمانة نفسه التي بين جنبيه.

الآن دقق أيها الأخ الكريم، لو أعطاك إنسان مئة ألف ليرة، وأخذ منك إيصالاً رسمياً أصولياً وفق القوانين النافذة، هل يعد هذا المبلغ أمانة؟ لا، لأن الذي أعطاك هذا المبلغ بإمكانه أن يقاضيك، ولو أن إنساناً أعطاك مئة ألف، وأشهد عليك شاهدين هل هذا المبلغ أمانة؟ الجواب لا، لأن الشاهدين يشهدان له عليك، ولكن إذا أعطاك مئة ألف من دون شاهدين، ومن دون إيصال فهذا المبلغ أمانة، أنت بإمكانك أن تؤديه، وبإمكانك ألاّ تؤديه.

فالأمانة الشيء الذي وُضع عندك، وأنت مؤتمن عليه، ولا رقيب عليك إلا نفسك وربك، لذلك حينما حمّل الله عز وجل الإنسان الأمانة، الأمانة نفسه التي بين جنبيه بإمكانه أن يزكيها، وبإمكانه أن يدسها، بإمكانه أن يصدق، وبإمكانه أن يكذب، بإمكانه أن يرتقي، وبإمكانه أن يسفل، بإمكانه أن يكون أميناً، وبإمكانه أن يكون خائناً، فالأمانة نفسك التي بين جنبيك، فإما أن تعرفها بالله، وتحملها على طاعته، فتسعد في الدنيا والآخرة، وإما أن تبقيها جاهلة، وتسمح لها أن تتحرك من دون منهج تسير عليه، فتشقيها في الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة الكرام، هناك أمانة التكليف، وهناك أمانة الإنسان، وهناك أمانة الخلق، هذا الموضوع أيها الأخوة واسع جداً، والدليل على أنه واسع ألم يقل الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

فعلاقة الأمانة بالله عز وجل أن الله جل جلاله سلمك نفسك التي بين جنبيك، فبإمكانك أن تأتي على المسجد وبإمكانك أن تذهب إلى الملهى، بإمكانك أن تتزوج وبإمكانك أن تزني، بإمكانك أن تكسب المال مشروعاً وبإمكانك أن تسرق، بإمكانك أن تصدق الداعية إلى الله عز وجل وبإمكانك أن تكذبه، بإمكانك أن تحترمه وبإمكانك أن تحتقره، أنت مخير، هنا موطن الشاهد.

مقومات الأمانة :

أيها الأخوة الكرام، كتوسيع طفيف ما كلفك الله حمل الأمانة إلا وأعطاك مقوماتها.

1 ـ الكون :

أولى مقومات حمل الأمانة أنه سخر لك ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه تسخير تعريف، وتسخير تكريم، سخرها لك من أجل أن تعرفك بالله عز وجل، وسخرها لك من أجل أن تنتفع بها في الدنيا فهذا الكون مسخر لهذا الإنسان تسخيرين؛ تسخير تعريف، هلال خير ورشد، وتسخير تكريم، أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان: الوظيفة الكبرى والأولى أن تتعرف إلى الله من خلاله، والوظيفة الثانية المحدودة أن تنتفع به في الدنيا.

أول مقومات حمل الأمانة أن الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، ولكن الكون كله ينطق بالواحد القهار، الكون أحد مقومات الأمانة.

2 ـ العقل :

أعطاك عقلاً هو مناط التكليف، أداة معرفة الله، مناط المسؤولية تدرك الحق من الباطل، والخير من الشر، وما يمكن وما لا يمكن، وما يجوز وما لا يجوز، لكن هذا العقل الذي يقبل الباطل ويرفض الحق هو العقل النفعي، العقل التبريري لا قيمة له عند الله، لكن العقل الذي يهديك إلى الله هو العقل الصريح، حينما تتجرد عن أهوائك وعن مصالحك، وتفكر تفكيراً سليماً تهتدي إلى الله عز وجل.

سيدنا نعيم بن مسعود كان زعيماً من زعماء غطفان، وقد قاد قبيلته لحرب النبي عليه الصلاة والسلام، وقبيل معركة الخندق كان في خيمته، وهو قائد جيش غطفان فكر، ثم قال: لماذا جئت إلى هنا؟ لتحارب هذا الرجل، ماذا فعل حتى تحاربه؟ أسفك دماً؟ انتهك عرضاً؟ أأكل مالاً؟ إنه رجل صالح، يا نعيم أيليق بك وأنت العاقل أن تحارب رجلاً صالحاً، أين عقلك؟ فقام من توه، وتوجه إلى خيمة النبي عليه الصلاة والسلام، لما رآه النبي قال: نعيم، قال نعيم: يا رسول الله، قال: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً.

فأعطاك نعمة العقل به تعرف الحق من الباطل، به تدرك الخير من الشر إذا كنت صادقاً في طلب الحقيقة، أما إن لم تكن كذلك قد تستخدمه لتغطية الباطل، ولتبرير الانحراف، وهذا العقل فيه مبادئ ثلاثة: مبدأ السببية، والغائية، وعدم التناقض، وهذه المبادئ تتوافق توافقاً تاماً مع قوانين الكون، فعقلك لا يقبل شيئاً من دون صانع، والكون كذلك فيه نظام السببية، والعقل لا يقبل شيئاً من دون غاية، وفي الكون نظام الغائية. فالمقوم الثاني هو العقل.

3 ـ الفطرة :

المقوم الثالث هو الفطرة، أعطاك فطرةً لو اتقيت الله لارتحت ولو عصيته لاكتأبت، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

الفطرة تعينك لو اتخذت قراراً في طاعة الله ترتاح نفسك، ولو لم تتخذ هذا القرار لأتعبتك نفسك، فكما أن الله تعالى خلق لك الكون دالاً عليه، مشيراً إلى وحدانيته، مبيناً لكمالاته، كذلك أعطاك عقلاً لو أعملته بتجرد بعيداً عن أهوائك ومصالحك لأوصلك إلى الله عز وجل، ثم جبلك على جبلة لو

أنك لم تفعل ما في الكتاب والسنة، ولو أنك لم تأتمر بأمر الله لأتعبتك نفسك، ولوقعت في كآبة ما بعدها كآبة، إنها مرض العصر.

4 ـ الشهوات :

ثم أودع فيك الشهوات، وهذه الشهوات من مقومات الأمانة، أودع فيك حب النساء، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

هذه الشهوات أيها الأخوة، بمثابة المحرك، والعقل بمثابة المقود، والمنهج الذي شرعه الله لك بمثابة الطريق، فالمحرك يدفعك، والمقود يوقع الحركة على الطريق، والطريق هو الشريعة السمحاء التي أنزلها الله عز وجل.

أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات أودع بك الشهوات لترقى بها مرتين؛ مرةً صابراً، ومرةً شاكراً، إن غضضت البصر عن محارم الله رقيت صابراً، وإن تطلعت إلى ما أحل الله لك رقيت إلى الله شاكراً، إن تترفع عن المال الحرام ترق إلى الله صابراً، إن كسبت المال الحلال ترق إلى الله شاكراً، ليس في الإسلام حرمان، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها.

5 ـ حرية الاختيار :

أيها الأخوة الكرام، منحك الكون، وسخره لك تسخير تعريف، وتسخير تكريم، إن عرفته وشكرته حققت الهدف الذي من أجله خلقت، لذلك قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، إن آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، أعطاك الكون وسخره لك تسخيرين، منحك العقل ليكون أداة معرفة الله، جبلك جبلة راقية وهي الفطرة كي تكون لك معيناً على طاعة الله، لو اتخذت قراراً بالطاعة والتوبة يقول لك: ارتاحت نفسي، نمت قرير العين، ناعم البال، أنا أسعد الناس، لأنك انسجمت مع فطرتك، لأن هذه المركبة مصممة على الطريق المعبد، فلو سرت فيها في الطريق الوعر أتعبتك، ولحطمتها وحطمتك، أما إذا مشيت بها على الطريق المعبد قطفت ثمارها، وأرحتها وارتحت.

6 ـ الشريعة :

أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى الله صابراً أو شاكراً، منحك الفطرة السليمة، أعطاك العقل الصريح، خلق لك الكون، ثم أعطاك قوةً من أجل أن تحقق مرادك، أعطاك القوة فيما يبدو، وفضلاً عن كل ذلك لقد أعطاك الشريعة، وهي منهج تفصيلي، أساسه أن تفعل شيئاً، وأن تنتهي عن شيء، هذه مقومات حمل الأمانة، ما كلفك حمل الأمانة إلا وقد أعطاك مقوماتها، ومن مقوماتها الكون، والعقل، والفطرة، والشهوة، وحرية الاختيار، جعلك مريداً ما قيمة العمل الصالح لو أنك مجبر عليه؟ لولا أن الله أعطاك حرية الاختيار لا يثمن عملك الصالح، ولا تكون مسؤولاً عنده، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يطع مكرهاً، ولم يعصَ مغلوباً.

كون ناطق بوجوده ووحدانيته وكماله، عقل يعينك على معرفة الله، فطرة تكشف لك صواب عملك أو خطأه، شهوة ترقى بها إلى الله مرتين، حرية اختيار تثمن عملك، وشريعة هي منهج دقيق تسير عليه، هذه مقومات حمل الأمانة، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

إن لم يعطها حقها.

الرسل أعطوا أمانة التبليغ والدعاة إلى الله أعطوا أمانة التبيين :

الآن هذه أمانة التكليف أعلى أمانة، الرسل أعطوا أمانة التبليغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

[سورة المائدة: 67]

الدعاة إلى الله أعطوا أمانة التبيين، الذي ينوب عن النبي في إبلاغ الحق ينبغي أن يبين، أن يبين ولا يعبأ بمصالحه ولا حظوظه، ينبغي أن يبين الحق ولو كان مراً، الآن أنت أب، زوجتك وأولادك أمانة في عنقك، فإما أن تحملهم على معرفة الله وطاعته، وإما أن تكون سبباً في شقائهم، وعندئذ تحاسب عنهم. الرجل مسؤول عن أهله، وعن أولاده، والراعي عن رعيته، والمعلم عن صفه، والمهندس عن أعماله، والطبيب عن مرضاه، والمحامي عن موكليه، وهو مسؤول، وهي أمانة.

أنت صيدلي لو جاءك مريض يطلب دواءً، وقد انتهى مفعول الدواء، فحككت التاريخ كي تضله، وبعته الدواء فأنت ماذا فعلت؟ هذا المريض أمانة في عنقك، وأنت عنده موثوق، إذاً إما أن تؤدي الأمانة إلى أهلها، وإما أن تخون الأمانة، هذا الطالب أمانة في عنق المعلم، إما أن يعلمه باهتمام،

وإتقان، ودقة، وإما أنه يخون الأمانة، فلا يعلمه شيئاً، ويمضي الوقت هكذا، ويتقاضى الراتب هكذا، المهندس إن لم يحضر المفاصل الحساسة في البناء ربما انهار البناء، فالذي يقع من انهيار البناء من إزهاق للأرواح في رقبته، لأن هذا البناء أمانة في عنقه، الطبيب الذي يأتيه مريض ولا يتقن معالجته، لا يفكر في شفائه، بل يفكر في شيء آخر عاد عليه بالخير العميم، هذا لم يطع الله عز وجل، ولم يؤدِ الأمانة. لو ذهبت إلى حرفة الذي يصنع طعاماً، لو لم يكن هناك دقة في صنع الطعام، العامل في المطعم المصاب بالتهاب الكبد الفيروسي إن لم يغسل يديه جيداً قد يصيب ثلاثمئة إنسان من رواد هذا المطعم بمرض قاتل، فحينما تبيع طعاماً هؤلاء الذين يأكلون من طعامك أمانة في عنقك، إما أن تقدم لهم طعاماً جيداً نظيفاً، وإما أن الله سيحاسبك. لو بعت بذوراً، وقد مضى عليها أمداً طويلاً فقلّ إنباتها، وأوهمت المشتري بأنها بأعلى درجة من الإنبات، لقد خنت الأمانة، ما من صاحب حرفة إلا وحرفته أمانة في عنقه، فإما أن يغش الناس أو أن يصدقهم، إما أن يرحمهم وإما أن يقسو عليهم، إما أن يضللهم وإما أن يعاملهم معاملةً طيبة.

سيدنا عمر التقى والياً فقال له: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

كل خطر يتأتى بسبب إهمالك وبسبب عدم أداء الأمانة محاسب عليه :

أيها الأخوة الكرام، ليس من باب المصادفة أن تأتي الأمانة جمعاً في الآية الكريمة، ابنك أمانة، زوجتك أمانة، الموظف الذي في عمله أمانة، قد تكون من أصحاب الحرف، إنسان ركّب صحناً على السطح، حرمة الصحن موضوع آخر، من أجل السرعة وضع بعض البراغي في أيام عاصفة طار الصحن، وقتل طفلةً بسبب إهمال هذا الذي ركبه، فكل خطر يتأتى بسبب إهمالك وبسبب عدم أداء الأمانة محاسب عليه.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

أنت قاض ينبغي أن تحكم بالعدل، ينبغي أن تتريث، ينبغي أن تحقق، ينبغي أن تسأل، ينبغي أن تستمهل حتى يأتي الحكم صحيحاً عادلاً، والله أيها الأخوة لو علم الناس ما في هذه الآية من مسؤولية لارتعدت مفاصلهم، ولارتجفت قلوبهم.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

أيها الأخوة، لو أن كل إنسان أدى ما عليه من حقوق، وأدى ما عليه من واجبات، أدى الأمانات إلى أهلها، أنت بائع تبيع بضاعة، تبيع الزيت، واستيقظت صباحاً، فإذا في وعاء الزيت فأرة،

بإمكانك أن تلتقطها، وأن تبيع الزيت، ولا يعلم أحد في الأرض، لكن هذا الذي يشتري منك الزيت أمانة في عنقك، فينبغي أن تعطيه زيتاً طاهراً، هذه الآية تدور مع الناس في كل لحظة، وفي كل ثانية، وما أكثر الغش، والذي يغش المسلمين لا يفقه معنى هذه الآية، قد تشتري مادةً انتهى مفعولها، تصنعها مادةً غذائية وتبيعها، ولا يعلم أحد إلا الله، تذكر مقدمة الدرس، وضع معك مئة ألف وكتبت إيصالاً، ليس هذا المبلغ أمانة، أشهد عليك شاهدين، ليس هذا المبلغ أمانة، أما إن أعطيت المئة ألف بلا شهود، وبلا إيصال، والأمر عائد إليك، فإما أن تؤديه، وإما ألا تؤديه، فهو أمانة .

كم من الأعمال ما إن فعلتها أو لم تفعلها لا يستطيع أحد أن يحاسبك، إذا جاءك مريض، وقلت له: أريد سبعة تحاليل، والمريض لا يحتاج إلا إلى تحليل واحد، فالستة الباقية لك منها نصيب فأنت خنت الأمانة، لو أن مريضاً عندك، ومرضه صعب الشفاء، وفي البلدة من هو أفضل منك في معالجة هذا المريض إن لم ترسله إلى ذلك الطبيب الذي يفوقك في الطب فأنت لم تحمل الأمانة، بل خنت الأمانة.

الإنسان لا يحاسب عن الأسباب بل يحاسب عن النتائج :

هذه الآية أيها الأخوة، تدور مع كل الناس في كل أوقاتهم وفي كل شؤون حياتهم:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

أدِ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، كم من مريض أجريت له عملية جراحية بالغة التعقيد مات لا من خطأ من العمل الجراحي ولكن من خطأ بعد العمل الجراحي من الإهمال، أحياناً إنسان يأتي إلى بلده دمشق من الحجاز في أيام الصيف الحارة، احتاج إلى تبديل زيت علبة السرعة، بدل الزيت، ولم تضبط البراغي، فسال الزيت، ثم احترق المحرك، ثم تحرك صاحب المركبة حركة زائدةً، فأصابته ضربة شمس فمات من توه، سيحاسب على هذا العمل، لأن الإهمال في ضبط الأمور سبب هذه الوفاة، فكل إنسان محاسب، أنت لا تحاسب على الأسباب بل تحاسب على النتائج، الباب واسع جداً، والحديث عن حمل الأمانة، وعن أداء الأمانة والله لا تستوعبه المجلدات، وما من حرفة على وجه الأرض إلا وهي أمانة في عنقك، فينبغي أن تنصح الناس، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم))

[مسلم عن تميم الداري]

هكذا تقتضي الأمانة أن تكون ناصحاً للناس، لو أن واحداً منا لم يؤدِ الأمانة وقع نزاع، فإذا وقع النزاع بسبب عدم حمل الأمانة، كإنسان لم يؤدِ واجبه في بناء وقع، لأن المهندس غاب في الأيام

الحرجة عن الإشراف على البناء، كم مريضاً فمات، لا تقل: انتهى أجله، قد يكون الموت بسبب خطأ في المعالجة، فيحاسب الإنسان عن ذلك، إنسان دهس بسبب خطأ في القيادة، إذاً الإنسان لا يحاسب عن الأسباب، بل يحاسب عن النتائج.

علاقة الحكم بالعدل وأداء الأمانة علاقة دقيقة جداً :

إن لم تؤدَ الأمانات إلى أصحابها وقع التنازع، الآن يقتضي التنازع أن نحاكم قال تعالى:

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

علاقة الحكم بالعدل وأداء الأمانة علاقة دقيقة جداً، علاقة الحكم بالعدل مع أداء الأمانة علاقة دقيقة، لأنه إن لم تؤدَ الأمانات وقعت المنازعات، إن لم يؤدِ الزوج حق زوجته هي أمانة في عنقه يغيب عنها ثماني عشرة ساعة كل يوم، هي لمن؟ من لها غيرك؟ هي أمانة في عنقك، قصرت في حقها، لم تطعمها مما تأكل، ولم تلبسها مما تلبس، ولم تعتن بها، ولم تكن معها في وقت معقول، إذاً خنت الأمانة، لذلك عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ: فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ........ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ فَقَامَا فَصَلَّيَا، فَقَالَ: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ))

[البخاري والترمذي عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ]

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

إن لم تؤدَ الأمانات نشأت المنازعات، وإن نشأت المنازعات ينبغي أن تحكموا بالعدل.

(إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

تقول: قد تقنعني وأنت مخطئ فأقنع منك، لكن الله يعلم، قد تفعل شيئاً ما رآه أحد، لكن الله يرى، ما علاقة: إن الله كان سميعاً بصيراً؟ أي كلام تقوله سمعه فإن طابق الحقيقة يعلم الله ذلك، وإن لم يطابق يعلم الله ذلك، وفي مئات الأحوال يمكن أن تقول كلاماً لا يستطيع أحد منهم أن يناقشك فيه، أنت مؤتمن قلت له: كذا فصدقك.

انتشار الغش بين المسلمين دليل عدم حمل الأمانة :

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأحوالكم، هذه الآية وحدها أيها الأخوة والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

لذلك انتشار الغش بين المسلمين دليل عدم حمل الأمانة، قد تضاف مواد مسرطنة لبعض الصناعات الغذائية، لكن تباع بسعر عال، قد تضاف مواد مؤذية، قد تضاف مواد حافظة تسبب بعض الأورام الخبيثة، لا بد أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

الغش في الصناعة واسع جداً، لدرجة أن الذي يبيع البضاعة لا يهمه إلا أن يربح، أما أن ينفع المسلمين، أما أن يؤدي ما عليه لهم من حق هذا لا يفعله أبداً.

أيها الأخوة الكرام، كي يترجم هذا الكلام إلى واقع ينبغي أن نتريث، هل أدى الأب الأمانة؟ هل ربى أولاده تربية إسلامية؟ هل حجب بناته، أم ترك ابنته تفعل ما تشاء، حتى تأتي يوم القيامة، وتقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي؟ هل أخذ بيد زوجته إلى الله عز وجل؟ هل أمر أهله بالصلاة واصطبر عليها؟ هل أتقن صنعته؟ هل باع المسلمين بضاعةً جيدةً بثمن معقول فرحمهم وكشف عنهم الضر؟ هل نفس عن المسلمين كربتهم أم كان كربة عليهم وعبئاً عليهم؟!

أنواع الأمانة :

والله هذا البحث تتسع له المجلدات، ولا ينتهي في سنوات، ملخصه هناك أمانة التكليف الأمانة العظمى التي كلفك الله بها، وهي نفسك التي بين جنبيك، وقد تفلح إذا عرفتها بربها وحملتها على طاعته، وقد تهلك إذا أبعدتها عن معرفة ربها وحملتها على معصيته.

ثم إن هناك أمانة التبليغ، هي أمانة الأنبياء، هناك أمانة التبيين، هي أمانة العلماء، هناك أمانة الولاية سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فرأته يبكي قالت له: ما لك تبكي يا أمير المؤمنين؟ قال: دعيني وشأني، قالت له: مالك تبكي؟ قال: وليت هذا الأمر، فنظرت إلى الفقير الجائع، وابن السبيل، والشيخ الطاعن في السن، والأرملة، واليتيم، ذكر أصنافاً تزيد عن ثمانية عشر صنفاً، فعلمت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً، وعلمت أن حجيجي دونهم هو رسول الله، فلهذا أبكي.

أحياناً يجرى تحويل في الطريق لا توضع الإشارات الكافية، حدثني أخ تحويلة واحدة مات فيها أربعة عشر إنساناً، إذا لم تكن الإشارات كافية، والإضاءة كافية من مسافات كافية قد تفاجأ بها، فيكون الحادث، فالذي أهمل عمله يحاسب عند الله، كل شيء أنيط بك فهو أمانة، وينبغي أن تؤديها إلى أصحابها، فالأمانة أمانة التكليف، وأمانة التبليغ، وأمانة التبيين، وأمانة الولاية.

الآن أمانة التولية، من ولي أمر قوم فولى عليهم واحداً فيهم من هو أفضل منه فقد خان الله ورسوله، أنت مدير شركة، مدير مدرسة، وكلت إنساناً بعمل، وفي هؤلاء الذين معك من هو أفضل منه، لقد خنت الله ورسوله، وأمانة الولاية، وأمانة التولية.

أمانة الواجب، واجبات الأب، واجبات الأم، واجبات البنت، واجبات الزوج، واجبات أصحاب الحرف.

أمانة المجالس:

((الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ؛ مَجْلِسٌ يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ فَرْجٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ مَالٌ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ))

[أحمد عن جابر بن عبد الله]

المجالس بالأمانة إلا هذه الثلاثة.

الآن الأمانة بين الزوجين، هذا الذي يتحدث عما جرى بينه وبين زوجته في الليل هذا خان الأمانة، هو شيطان، وهي شيطانة، ألم أقل لكم: لو ذهبنا في هذا الموضوع لوجدنا أنفسنا أمام موضوعات طويلة جداً، ومشعبة جداً، وأن هذه الآية تدور مع المسلمين في كل دقيقة في حياتهم، الأمانة واسعة جداً، لذلك جاءت جمعاً.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(30-69): تفسير الآية 59، طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-09-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يأمر عامة الناس بالإيمان به فإذا آمنوا به يأمرهم بتفصيلات الشريعة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

أيها الأخوة أعيد وأكرر: إن الله سبحانه وتعالى يأمر عامة الناس بالإيمان به، فإذا آمن به الإنسان يأمره بتفصيلات الشريعة، وأية آية في القرآن الكريم تتصدر قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي يا من آمنتم بي، يا من عرفتموني، يا من آمنتم بعلمي، وبحكمتي، وبرحمتي، وأن أمركم كله بيدي، وأن مصيركم إلي، وأنكم خلقتم للجنة لا للدنيا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تنطوي على كل هذه المعاني، الذي آمن بالله خالقاً، ورباً، ومسيّراً، وآمن به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، آمن أن الأمر كله بيده، آمن أن الله في السماء إله وفي الأرض إله، آمن أنه إليه يرجع الأمر كله، آمن أن سعادة المرء بالله وشقائه بالله، وأن الله وحده يرفع، ويخفض، ويعطي، ويمنع، ويعز، ويذل.

الذي خلق الإنسان هو الخبير :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يقتضي إيمانكم بي أن تطيعوني، أنت ببساطة بالغة حينما تقتني حاسوب، ويصاب بالخلل إلى من تذهب؟ بالتأكيد لا تسأل أمك الكريمة على أنك تحبها حباً جماً، لكنها أمية، لا تسألها عن طريقة عمل هذا الجهاز، لا تسأل جاراً لك يعمل في بيع الخضار مع أنك تحبه، لا تسأل إلا مندوب الشركة الخبير، ببساطة ما بعدها بساطة أنت أمام آلة تحرص على سلامتها، وأداء عملها،

وإنجازها، أنت مع آلة بسيطة تحرص على ثمنها وسلامة أدائها لا تتلقى توجيهاً إلا من صانعها، أو من ينوب عنه، ولا تقبل أي إنسان.

أذكر مرة قصة بسيطة لكنها ذات دلالة: ذهب رجل لإصلاح مركبته، الذي يصلح المركبة ألغى قطعة، ورماها في الأرض، وقال: هذه لا فائدة منها، فصاحب المركبة لا يستطيع أن يناقشه! لأنه يجهل حقائق الميكانيك، لكن قال له: أنا لا أصدق أن خمسة آلاف مهندس يعملون في هذه الشركة التي يزيد عمرها عن مئة عام أنك أبلغ منهم في فهمك لطريقة عملها! أرجعها!

فالذي خلق الإنسان هو الخبير، خلقه من لا شيء، ركب جسمه وخلقه في أحسن تقويم، الذي خلق نفسه، وأعطى نفسه خصائصها، هذا الإله العظيم إذا قال لك: غض بصرك، وأهل الأرض الآن يقولون لك بلسان حالهم: انظر هذه المرأة، كما تريد تراها في كل مكان، محصلة الفريق الذي عبد الله سعادة وجنة، ومحصلة الفريق الذي عصى الله شقاء وجهنم، لذلك قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

إن أطعت الله حققت سلامتك وسعادتك :

من قبيل مصلحتك، وحرصك على سلامتك وسعادتك وتقدمك ينبغي أن تطيع الله عز وجل، يا أيها الذين آمنوا يقتضي إيمانكم أن تطيعوني، انطلاقاً من حبك لذاتك، وسلامتك، وكمالك، واستمرار ذاتك ينبغي أن تطيع الله، لأنه الخبير، ذلك لأن العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، في الأديان الوضعية ربما لا تجد علاقة بين الأمر وبين نتائجه، حركات وسكنات وتمتمات وطقوس لا معنى لها، ولا علاقة لها بالحياة إطلاقاً، أما في هذا الدين العظيم أمرك أن تكون صادقاً، ونتائج الصدق لا تعد ولا تحصى، إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

أمرك أن تكون صادقاً وأميناً، والأمانة غنى، لا يغتني من اغتنى إلا بسبب أمانته، وأن تكون عفيفاً، وكل فضائح الأرض سببها الخيانة مع المرأة، وما من إنسان يصاب بمقتله إلا بسبب معصيته في علاقته مع النساء! وفضائح الأرض لا تزيد عن أن تكون فضائح مالية أو جنسية، لذلك الذي يأمرك الله به لسلامتك وسعادتك وخلودك في الجنة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

في الحديث القدسي الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً... إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ..))

[صحيح مسلم عَنْ أبي ذرٍّ]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

يجب أن تعلم علم اليقين أنك إن أطعت الله تحقق سلامتك وسعادتك، وإن عصيته تكون سبباً في شقائك في الدنيا والآخرة.

طاعة الله واجبة علينا لأنه الذي خلقنا :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أطيعوا الله لأنه الذي خلقكم:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

لأنه الخالق والعليم والخبير والرحيم، ولأنه خلقكم لجنة عرضها السماوات والأرض، لأنه خلقكم ليسعدكم.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: 119]

خلقهم ليسعدهم، في موضوع دقيق جداً: النبي صلى الله عليه وسلم ينفي أن يكون الشر منسوباً إلى الله، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:

((.... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...))

[سنن النسائي عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما هو الشر؟ الشر مختص بمخلوقين اثنين هما الإنس والجن، لأنهما مخلوقان أودعت فيهما الشهوات، أعطيا عقلاً ومنهجاً.

الشهوات سلم نرقى بها إن أوقعناها وفق منهج الله :

ما هي السلامة؟ أن تتحرك بشهواتك وفق منهج الله عن طريق المقود الذي هو عقلك، والمثل بسيط، تركب مركبة فيها محرك، وطاقة، وشهوات، وروح، وقوة محركة، هذه المركبة بالمحرك والطاقة تندفع، الاندفاع أعمق، مهمة العقل أن يوقع حركة هذه المركبة على الطريق المعبد، فتنتقل بهذه المركبة إلى أهدافك البعيدة، وأنت في راحة ويسر، أما إذا تعطل المقود والطريق فيه

منعكسات كثيرة، والمحرك مندفع، فالحادث حتمي، أي أن أي إنسان عطل عقله، وانطلق بشهواته فلا بد أن يرتكب المعاصي، والمعاصي في معظمها معاص في كسب المال، ومعاص في العلاقة بالنساء، العقل مهمته أن يوقع الحركة على منهج الله، ومنهج الله هو شرع الله، والحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، لو أن هناك منهج ومقود، لكن لا يوجد محرك، لا قيمة للمقود، ول قيمة للمنهج، من هنا قال الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

فشهوات أودعها الله فينا، وعقل جعله الله أداة معرفته والسلامة، وشرعٌ سنَّه الله لنا، وأنت مخير في النهاية، فتعريف الشر كائن أودعت فيه الشهوات، منح عقلاً لم يستخدمه، ومنهجاً لم يسر عليه، فلو استخدم عقله بلا منهج لا بد من الشقاء، كالأوروبيين استخدموا عقولهم أروع استخدام، لكن ليس معهم منهج يسيرون عليه، فزين لهم عقلهم الانحلال، والفساد، والعدوان، وكسب الأموال اغتصاباً، وقهر الناس ظلماً، عقولهم قادتهم إلى هذا، عقولهم متفوقة جداً من دون منهج يتحركون عليه، والمسلمون عطلوا عقولهم مع أن منهجهم بين أيديهم، وكلا الطرفين فيه شهوات مستعرة تدفعهم اندفاعاً، فإما إلى الهاوية، وإما إلى نعيم مقيم، لذلك الشهوات سلم نرقى بها إن أوقعناها وفق منهج الله، فالله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: 50]

تعريف الشر :

ما هو الشر إذاً؟ حركة اندفاع قوي بلا مقود أو بلا منهج أو من دون كليهما! مركبة مصنوعة في أفضل مصنع، لو أن الذي يقودها شرب الخمر، وهوى في واد سحيق، هل نقول: هذا الشر من صنع المعمل الذي صنع المركبة؟ مستحيل، هذا الشر ناتج من سوء استخدامها، هذا الشر ناتج عن أن الذي قادها لم يتبع تعليمات الصانع، وهي البعد عن الشكر.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:

((.... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...))

[سنن النسائي عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

مثل آخر: قد تضع على الطاولة مسحوقاً من الملح، ومسحوقاً من السكر، ومسحوقاً من المواد المنظفة، المواد كلها جيدة، وثمينة، ولها قيمة في حياتنا، ما هو الشر؟ أن تضع مسحوق الغسيل في الطبخ، فلا تأكله! أو أن تضع الملح في الشاي فلا تشربه، أو أن تضع السكر لجلي الصحون، فلا يتم تنظيفها، فالشر سوء استخدام سلبي، وليس إيجابياً، لذلك قالوا: الشر المطلق لا وجود له في

الكون، لأن الله ذات كاملة، لكن في مخلوق الله عز وجل خلقه، وكرمه، ومنحه حرية الاختيار، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، أعطاه منهجاً هو الشرع الحكيم، وأعطاه عقلاً ليكون مقوداً له، عطل عقله، أو ألغى شرعه، أو ألغى عقله وشرعه، واندفع بشهواته اندفاعاً أعمى، لا بد من أن يقع بالعدوان، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تنطلق بقوة شهواتك من دون منهج وعقل دون أن تعتدي على الآخرين، وهذا الذي ترونه وتسمعونه كل يوم قوة طاغية وشهوات مستعرة واندفاع أعمى، فلا بد أن ينهبوا ثروات العالم، وأن يعيشوا على حساب بقية الشعوب، ولا بد أن يغتنوا على حساب الشعوب، ولا بد أن يطمئنوا على إخافة الشعوب، وأن يبنوا مجدهم على أنقاض الشعوب، مستحيل أن تندفع بقوة الشهوة من دون منهج، ومن دون مقود، ومن دون عقل يردعك، ومن دون منهج تسير عليه إلا أن ترتكب الجرائم تلو الجرائم دون أن تشعر، فالشر لا يكون إلا من مخلوق أعطي الاختيار، أودعت فيه الشهوات، ووضع له منهج، أعطي العقل، شهواته متحركة مندفعة اندفاعاً أعمى، عطل عقله، ولم يعبأ بالمنهج، واختار أن يروي شهواته تروية من دون أمر أو نهي، فكان الذي ترونه من فساد.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم: 41]

من يعزو الشر إلى الله يقع في عقيدة فاسدة :

الفساد لا يحتاج إلى خالق، لأنه سلبي. أوضح مثلاً: قد تجد مركبة رائعة تقول: والله الذي صممها مهندس ذوقه رفيع، خطوط السيارة، انسياب خطوطها، ألوانها الرائعة، أما إذا وقعت في واد هل تقول أي مصنع صنعها هكذا؟ لا، لا تحتاج هذه إلى مصنع، لأن الشر سلبي، هذا بسبب أن الذي قادها كان مخموراً، لذلك هذا الذي يعزو الشر إلى الله واقع في عقيدة فاسدة.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:

((.... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...))

[سنن النسائي عَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

[سورة آل عمران: 26]

ما قال والشر:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 26]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

لأنه الخالق، والمربي، والمسير، والعليم، والحكيم، والقدير، واللطيف، والغني، والرحيم، لذلك المؤمن حينما يقرأ القرآن ينبغي أن يقف عند الآيات التي فيها أمر له! وحبذا لو أن الواحد منا يقرأ القرآن على نسخة خاصة يضع خطاً تحت كل أمر، وخطاً تحت كل نهي، وكل أمر في القرآن يقتضي الوجوب.

الإنسان مأمور أن يطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلالاً :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

سيدنا عمر كان وقافاً عند أمر الله وكتابه، أطيعوا الله في قرآنه قال:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

ما الفرق بين قول الله عز وجل:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)

وبين:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

الفرق كبير، إنك مأمور أن تطيع رسول الله استقلالاً، حينما يصح عندك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح يأمرك بكذا، وينهاك عن كذا، ينبغي أن تسارع إلى طاعة رسول الله من دون أن تقول في نفسك: ما سند هذا الأمر من كتاب الله؟ إنك مأمور أن تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلالاً، لقول الله عز وجل:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

القرآن فيه كليات ولكن الذي بيَّن وفصَّل هو النبي عليه الصلاة والسلام :

هؤلاء الذين يريدون التقليل من قيمة السُّنة يخالفون القرآن الكريم، هؤلاء الذين يسمون الآن القرآنيين يريدون أن يكتفوا بالقرآن، مع أن الله سبحانه وتعالى عصم نبيه صلى الله عليه وسلم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وصفاته، ثم أمرنا أن نأخذ منه.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

لولا سنة النبي كيف نصلي؟ وكيف ندفع زكاة أموالنا؟ وكيف نعرف مناسك الحج؟ قال تعالى:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

[سورة البقرة: 196]

القرآن فيه كليات، ولكن الذي بيَّن وفصَّل هو النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء هذا في القرآن الكريم:

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

[سورة النحل: 44]

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أطيعوا الله في قرآنه، لأن القرآن قطعي الثبوت، وأطيعوا الرسول في سنته الصحيحة، لأن سنة النبي عليه الصلاة والسلام بعضها قطعي الثبوت، وبعضها ظني الثبوت، فنحن مأمورون بأن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته التي هي قطعية الثبوت، أي سنته الصحيحة، لذلك ما من إنسان صح عنده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخالفه إلاّ عصى الله.

((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي...))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

طاعة رسول الله فرض عين على كل مسلم بصرف النظر عن علاقتها بالقرآن :

طاعة رسول الله فرض عين على كل مسلم، بصرف النظر عن علاقتها بالقرآن، لست مكلفاً أن تحاسب النبي من أين جاءك بهذا الأمر، لأن الله يقول لك:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أما لو قال: أطيعوا الله والرسول صارت طاعة رسول الله مقيدة بطاعة الله! ينبغي أن يكون لهذا الحديث أصل في القرآن الكريم. لا شك أن أوامر النبي مما فهمه من كتاب الله، لكن نحن ربما لا نعرف من أين استقى النبي هذا الأمر.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أنت في مجتمع فيه شخصيتان مهمتان، عالم وأمير، عالم وحاكم، مهمة العالم أن يبين لك الأمر، ومهمة الحاكم أن ينفذ هذا الأمر، كما يقال الآن في المجتمعات الحديثة: جهة تشريعية، وجهة تنفيذية، فالعلماء بالدين العلماء الربانيون يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

طاعة أولي الأمر مقيدة بطاعة رسول الله، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إن كان أميراً أو عالماً أمرك أن تقطع رحمك! لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أوضح شاهد على ذلك، أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سرية، وأمّر عليها أنصارياً عرف فيما بعد أنه صاحب دعابة، هذا الأنصاري أمر أن تضرم نار عظيمة فأضرمت، فقال لأصحابه: ألست أميركم؟ قالوا: نعم، قال:

أليست طاعتي طاعة رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: اقتحموها، قال بعضهم: كيف نقتحمها وقد آمنا بالله فراراً منها؟ ترددوا، عرضوا ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام فقال: والله لو اقتحمتموها لا زلتم فيها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في معروف.

طاعة أولي الأمر منا مرتبطة بطاعة رسول الله :

الآن ما سوى أمر الله في قرآنه، مما سوى سنة النبي الصحيحة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، طاعة أولي الأمر مرتبطة بطاعة رسول الله، بل إن بعض العلماء قالوا: لا يمكن، ولا يصح، ولا يقبل أن يكون أولوا الأمر الظالمون قد أمرنا بطاعتهم مع طاعة الله ورسوله قال:

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

هم منكم، هذا العالم منكم، الأمير منكم، يحرص على سلامتكم، وتقدمكم، وسعادتكم، وسلامة دينكم، وآخرتكم، وأخلاق شبابكم، وزواج بناتكم، وتوافر الأموال بينكم.

لو فرضنا مواطناً في فلسطين من هم أولوا الأمر هناك؟ اليهود، فهل لو قرأ هذه الآية هو ملزم أن يطيع أولوا الأمر؟ ليسوا منهم، هم أعداء وخصوم، أرادوا ابتزاز أموالهم، ونهب ثرواتهم، وإذلالهم، وهدم بيوتهم، لا يمكن أن يكون أولو الأمر المعنيون في هذه الآية إلا منكم، هم منكم، من جبلتكم، منكم وإليكم.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أولو الأمر هم الأمراء والعلماء، وعملهم متكامل، العالم يعلم، والأمير ينفذ، أما لو أن عالماً مبتدعاً أمرك بخلاف السنة فلا طاعة له، ولو أن له إثماً كبيراً لا قيمة لهذا الإثم، نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال.

دخلنا بموضوع ثان: أطيعوا الله قطعاً بقرآنه القطعي، أطيعوا رسول الله بحفظ بسنته الصحيحة، القرآن قطعي الثبوت، أما السنة قطعية الثبوت وظنية الثبوت، فحينما يأمرنا الله عز وجل أن نطيع رسوله بسنته الثابتة الصحيحة، لذلك: لو بقينا في الصحاح لما اختلفنا، كل الفرق الضالة تعتمد على أحاديث صحيحة أو موضوعة، لو اجتمعنا على صحيح السنة لما اختلفنا أبداً.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

قال تعالى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أطيعوا الله استقلالاً، وأطيعوا رسوله لأنه معصوم استقلالاً، لكن أولي الأمر هم العلماء، فالعالم المبتدع لا طاعة له، ما أكثر من يبتدع في الدين، إما في العقيدة، أو في العبادات، كل محدثة بدعة،

وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فالعالم الذي يبتدع لا طاعة له، والأمير الذي يعطيك أمراً لا علاقة له بالدين أو مخالف له أيضاً لا يطاع، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

يروى أن والي البصرة كان عنده عالم جليل وتابعي عظيم هو الحسن البصري، ومن غرائب الصدف أنه في أثناء جلوس هذا التابعي الجليل جاءه البريد من الخليفة من يزيد، وفي هذا البريد أمر لا يرضي الله، وقع هذا الوالي في حرج شديد، إن نفذ هذا الأمر غضب الله، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة، وربما أزاحه من عمله، أو انتقم منه، وعنده الحسن البصري فقال: يا إمام ماذا أفعل؟ أمران أحلاهما مر، إما أن يُغضب الله، فيستحق جهنم، وإما أن يغضب الخليفة فيستحق السجن، ماذا أفعل؟ أجابه إجابة تكتب بماء الذهب، قال: اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله! أنت إذا أطعت الله عز وجل فالله ضامن، أما إن أطعت مخلوقاً، وعصيت خالقاً فهذا الذي أطعته ليس بضامن.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم: 22]

من أمره أولو العلم وأولو الأمر بخلاف ما أمره الله ورسوله فلا طاعة لهم عند

قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أنا أطيع الله استقلالاً، ولا أعبأ بأحد، أطيع رسول الله استقلالاً، ولا أعبأ بأحد، أما أولو الأمر فأطيعهم تبعاً إذا أمروني بما أمر الله به، وبما أمر رسوله به، فإن أمروني بخلاف ما أمرني الله ورسوله به فلا طاعة لهم عندي، وإن أمرني أولو العلم وأولو الأمر بخلاف ما أمرني الله ورسوله فلا طاعة لهم عندي، وهذا ملخصه في قول النبي:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[مسند الإمام أحمد عن علي]

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

الآن قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

حدث خلاف مع من؟ هل ممكن أن يكون النزاع مع أمر الله عز وجل؟ مستحيل، مع سنة النبي؟ مستحيل، لأنه معصوم، والله عز وجل كماله مطلق، فالنزاع محصور حتماً مع من؟ مع أولي الأمر؛ العلماء والأمراء:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

من هو الحكم؟ قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

في القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة جواب وحلّ لكل مشكلة :

لو أن قضية تنازعنا فيها، وجاءنا أمر إلهي أن نرد هذا النزاع إلى الله في قرآنه، أو أن نرده إلى النبي في سنته، ثم اتجهنا إلى القرآن فلم نجد شيئاً متعلقاً بهذا الموضوع، ثم اتجهنا إلى السُّنة فلم نجد شيئاً يتعلق بهذا الموضوع هل يعقل هذا؟ هل يعقل أن يحيلنا الله إلى قرآن لا نجد فيه بغيتنا؟ أو إلى سنة نبيه، ثم لا نجد فيها بغيتنا؟ مستحيل، هذا لا يقبل أن يحيلك الله إلى لا شيء، معنى ذلك أنه ما من مشكلة يعاني منها المجتمع البشري من آدم إلى يوم القيامة إلا وفيها حل في كتاب الله، وحل في سنة رسول الله قطعاً، لا يمكن أن نحال إلى لا شيء، لو أن إنساناً اختلف مع إنسان في إعراب كلمة، وقال: اذهب إلى الكتاب الفلاني ففيه الجواب، فتح الكتاب فلم يجد شيئاً، فالذي أحالك إليه لا يعلم**!** المحيل هنا من؟ هو الله قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

لا بد من أن تجدوا في القرآن وفي سُنة النبي جواباً وحلاً لكل مشكلة، وما من مشكلة تعاني منها البشرية اليوم إلا بسبب مخالفة لما في الكتاب والسنة، هذا كلام قطعي ما من مشكلة كبرت أو صغرت، يقول لك: الحرب قد تطول عشر سنوات، وحرب دارت بين دولتين إسلاميتين دامت ثماني سنوات، أحرقت الأخضر واليابس، ماذا في القرآن؟ في القرآن أشهر حرم يمنع فيها القتال، إذا جاءت هذه الأشهر توقف القتال لا غالب ولا مغلوب، الكرامة موفورة، ذاق الناس طعم السلم، بحثوا عنه، لو أنهم أطاعوا الله، حينما اجتاحت دولة إسلامية دولة إسلامية احتكمنا إلى الغرب فجاءوا، وقبعوا على أرضنا، القرآن ليس كذلك، بل قال:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)

[سورة الحجرات: 9]

ينبغي أن يجتمع المسلمون ويدعو هؤلاء الذين بغوا أن يعودوا عن بغيهم، فإن أبوا نحاربهم جميعاً، لا نأتي بالكفار ليأخذوا ثرواتنا، ويقتلوا أولادنا، ويعيثوا فساداً في الأرض، ثم نصبح عبيداً لهم.

إذا آمن الإنسان بالدنيا والمال لا يرجع مشكلاته إلى الله ورسوله بل إلى مصالحه :

حتى في السياسة الدولية القرآن فيه كل شيء، حينما يركب خمسون ضابطاً تلقوا تدريباً في أعلى دولة عظمى في طائرة واحدة أسقطوا الطائرة، قال:

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

[سورة يوسف: 67]

القرآن يخبر، هؤلاء ينبغي أن يأتوا تباعاً، كل واحد في رحلة، أما عندما اجتمعوا في طائرة واحدة أسقطها اليهود بتوجيه من الأرض، ولا يزال سر هذه الطائرة معمى عليه، أسقطت من الأرض، فيها ثمانية وثلاثون ضابطاً تلقوا أعلى تدريب في أعلى أكاديميات عسكرية.

يا أيها الأخوة الكرام، ما من مشكلة يعاني منها البشر اليوم إلا وفي القرآن حل لها، وفي السنة حل لها.

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

إذا آمن الإنسان بالدنيا؛ آمن بالمال لا يرجع مشكلاته إلى الله ورسوله، بل إلى مصالحه، إذا آمن بالدنيا قد يقترض قرضاً ربوياً تحقق به مصالحه، إذا آمن بالمال قد يبخل، ولا ينفق منه شيئاً، إذا آمن باللذة يقتنصها، ولو بالحرام، هذا الكلام للمؤمنين.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

الإنسان لا يعود لحكم الله وسنة رسوله إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر :

الشيء اللطيف أن أركان الإيمان خمسة، لكن ترد مثنى مَثنى في أكثر الآيات، آمنت بالله لا يكفي، ينبغي أن تؤمن بالله، وأنه سيحاسب، وأنه موجود ويعلم، وسيحاسب، لا يمكن أن تعصيه، أوضح مثلاً: تركب مركبتك، الإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطي آخر على عجلات، وسيارة فيها ضابط شرطة، وأنت مواطن عادي ليس لك ولا ميزة، هل تسير والإشارة حمراء؟ واضع نظام السير علمه يطولك بهذا الشرطي، وقدرته تطولك بسحب الإجازة، وأخذ السيارة، أليس كذلك؟ تعصي الأمر في حالتين؛ الساعة الثالثة صباحاً، لا يوجد شرطي، أو إذا كنتَ أكبر من واضع نظام السير فلا ترد عليه، فحينما تؤمن أن الله موجود، وأنه يعلم وسيحاسب لا يمكن أن تعصيه.

هذا الكلام للمؤمنين، يقول: حلف يمين، هذه اليمين ليست للكفار هي للمؤمنين، المنافق يقول: جاء الفرج، أحلف كذباً وينتهي الأمر، قبض مئة ألف من دون وصل، هل تحلف؟ نعم أحلف، جاء الفرج! هذه اليمين للمؤمن الذي يخاف الله واليوم الآخر.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

إن كنتم تؤمنون بأن الله موجود، ويعلم وسيحاسب، واختلفتم مع علمائكم وأمرائكم، ورجعتم إلى كتاب الله وسنة رسوله تلتزمون بها، لأنكم مؤمنون، أما إن آمنتم بالدرهم والدينار، وباللذائذ والشهوات ترجعون إلى أهل الدنيا، يوجد قوانين أحياناً يكون الحق معك، لكن القانون لا يعطيك هذا الحق، ماذا يفعل معظم الناس؟ يلتجئون إلى المشايخ، أحياناً يكون الحق عليك، لكن القانون يعطيك

هذا الحق فتلجأ إليه، فأنت مؤمن بمن؟ إن كنت مؤمناً بالله واليوم الآخر ترجع لما في القرآن والسنة مِن حل حاسم لمشكلتك.

تختلف امرأة مع زوجها في أمريكا، تعرض أمرها على قاضي أمريكي لماذا؟ لأن هذا القاضي سيحكم لها بنصف ثروة زوجها، أما القاضي المسلم فيحكم لها بالمهر فقط، لأنها مؤمنة بالدولار، ترجع في قضيتها إلى قاض ليس مسلماً، قضية واضحة جداً، فأنت لا تعود لحكم الله وسنة رسوله إلا إذا آمنت بالله واليوم الآخر.

المؤمن يعود إلى شرع الله لأنه وقاف عند كتاب الله :

قال تعالى:

(ذَلِكَ خَيْرٌ)

خير لك أن ترجع إلى حكم الله، هذا البيت ليس لك شرعاً، لكن القانون معك، ارجع لحكم الله، فلاح فقير فقراً مدقعاً، عاش عمره أجيراً، أعطي أرضاً بعشرين دونماً، اختل توازنه من الفرح، ذهب إلى شيخه، قال له: هذه الأرض ليست لك، لا يجوز أن تتملكها بشرع الله، أما بالقوانين الوضعية فلك أن تأخذها عنوة من صاحبها، فهذا الفلاح بعد أن بلغ قمة السعادة في تملك هذه الأرض انقلبت سعادته إلى شقاء، هكذا الشرع، لا يجيز له أخذها، فذهب إلى صاحب الأرض وقال له: يا سيدي أعطوني من أرضك عشرين دونماً، ولي شيخ منعني من أخذها، لأنها مغتصبة منك، هل تبيعني إياها تقسيطاً؟ قال: يا بني ذهب مني أربعمئة دونم لم يأت واحد إلي إلا أنت، هذه هدية لك خذها، وتملكها، وبارك الله لك بها، وأنا سامحتك بها، المؤمن يعود إلى شرع الله، وهو وقاف عند كتاب الله، لذلك:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

خير لكم.

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

حينما تختلفون في حكم شرعي، وتعيدونه إلى الكتاب والسنة تكونون قد أولتم هذه الآية أفضل تأويل، والتأويل هو وقوع الوعد والوعيد، أو تنفيذ الأمر الإلهي. هذه الآية أساسية جداً في حياتنا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

أيها الأخوة، في درس آخر إن شاء الله نتابع تفسير هذه السورة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(31-69): تفسير الآيات 60-63 ، القانون الإلهي والقانون الوضعي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-09-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الزعم مطية الكذب :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الستين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)

أيها الأخوة، كما تعلمون أن قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ)

أي ألم تعلم، أي ألم تعلم بإخبار الله، لكن عدل القرآن عن قوله: ألم تعلم بألم ترَ، إشعاراً للمؤمن أنه ينبغي أنه يأخذ خبر الله وكأنه يراه، فخبر الله أصدق من عينه، قد تخونه عينه، والله جل جلاله هو أصدق القائلين.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء: 87]

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ)

بمعنى ألم تعلم، عدل عن قوله ألم تعلم إلى:

(أَلَمْ تَرَ)

لتأخذ إخبار الله عز وجل وكأنه شيء تراه عينك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ)

قالوا: الزعم مطية الكذب، فلان يزعم أنه مؤمن، أي هو ليس مؤمناً، إنه منافق، فكلمة يزعم تعبير عن عدم الصدق، تعبير عن الكذب، تعبير عن الخلل.

علامة المؤمن أنه يتهم نفسه بالنفاق :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

بربك أيها الأخ المؤمن هل التقيت بإنسان مسلم لا يطبق من دينه شيئاً يقول لك: أنا منافق؟ مستحيل، أنا مؤمن، قد يقول: أنا مؤمن إيماناً أشد من إيمانك، سبحان الله! الناس جميعاً يثنون على ذواتهم بغير الحق، بينما المؤمن الحقيقي يتهم نفسه بالنفاق.

أحد التابعين قال: التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا يظن نفسه منافقاً، حتى إن عمر بن الخطاب الخليفة الراشد التقى بسيدنا حذيفة بن اليمان، وكان أمير سر رسول الله قال: يا حذيفة بالله عليك اسمي مع المنافقين؟ فعلامة المؤمن أنه يتهم نفسه بالنفاق، وعلامة المنافق يزعم أنه مؤمن، وكلما تواضعت لله رفعك، وكلما اتهمت نفسك فأنت أرقى عند الله، لا تستجب لنزوات النفس في أن تعلو على الناس، لا تحكم على نفسك، دع الله عز وجل يحكم عليك، لأن الذين يزكون أنفسهم يرتكبون معصية:

(بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 49]

لو أنك مخلص، لو أنك مستقيم، لو أنك محسن، الله جل جلاله يرفع لك ذكرك، يرفع لك شأنك، يلقي محبتك في قلوب الخلق، يجعل ألسنة الخلق تلهج بمديحك دون أن تريد ذلك أنت.

كل إنسان فيه دوافع ثلاث لكن الدافع الثالث هو الأخطر بينها جميعاً :

أيها الأخوة، ما منا واحد إلا وفيه دوافع ثلاث، دافع إلى الطعام والشراب ليحفظ وجوده دون أن يشعر، ودافع إلى الجنس ليحفظ النوع عن طريق هذا الدافع، ودافع إلى العلو، دافع إلى تأكيد الذات، دافع إلى تأكيد الأهمية، الدافع الثالث خطير جداً، ولأن الإنسان مخير إذاً كل دوافعه حيادية، بمعنى أنه يمكن أن تروي الدافع الثالث دافع تأكيد الذات، دافع التفوق عن طريق الإيمان بالله وطاعته، ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

هل في تاريخ البشرية إنسان رفع الله ذكره كرسول الله؟!

مفكر وباحث غربي، ليس مسلماً، ألّف كتاباً عن المئة الأوائل في العالم، ألف كتاباً عن المئة الأوائل في تاريخ البشرية، قرأ تاريخ البشرية من قبل الميلاد بستة قرون إلى عصرنا الحاضر، واختار من بين أعلام الأرض مئة، ورتب هذه المئة بحسب الأهمية، فكانت مكانة نبينا عليه الصلاة والسلام لا في نظر المؤمنين به، لا في نظر المسلمين، بل في نظر الطرف الآخر كانت الأولى،

جعله على رأس المئة الأوائل في العالم، واعتمد عدة مقاييس. المقياس الأول: قوة التأثير. المقياس الثاني: اتساع رقعة التأثير. المقياس الثالث: طول أمد التأثير. أي أن أخاً كريماً جاءه ضيف إلى بلادنا، وقد كلف هذا الأخ أن يرافقه، ذهبا إلى مكان أثري فلاحظ هذا الضيف أن الحركة قليلة، قال: اليوم يوم عطلة، قال له: ما المناسبة؟ قال له: بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف، وشرح له أن لهذه الأمة نبياً، قال له: من كم سنة توفي؟ قال له: من ألف وأربعمئة سنة، فكاد هذا الضيف أن يصعق، ولطول هذه المدة تقدسونه؛ قوة التأثير، واتساع رقعة التأثير، وطول أمد التأثير، لكن هذا المؤلف غفل عن نوع التأثير، لو جعل نوع التأثير إيجاباً لطرح من هذه المئة ثلثين.

فحوى دعوة الأنبياء واحدة :

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

المنافق يظن أنه مؤمن، ويدعي أنه مؤمن، ويتبجح أنه مؤمن لماذا؟ لتحقيق مصالحه، لأنه إذا ادعى أنه مؤمن أخذ من كل ميزات المؤمنين، وعاش حياته الخاصة كما يعيشها الكفار، فجمع بين ميزتي الإيمان وتفلت الكافر، لذلك المنافق يوم القيامة مكانه في الدرك الأسفل من النار، المنافق كافر لكن مصالحه تقتضي أنه مؤمن لهذا يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)

طبعاً الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

فحوى دعوة الأنبياء واحدة:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

العقيدة لا إله إلا الله، والسلوك العبادة، في كل مذهب فكر وسلوك، عقيدة وشريعة، منطلقات نظرية وتطبيقات عملية، لا إله إلا أنا العقيدة، التوحيد، وما من وقت في تاريخ المسلمين نحن في أمس الحاجة إلى التوحيد كهذا الوقت، لأن زعماء الكفر يخيفون الأرض كلها، يتهددون، يتوعدون، يرسلون صيحاتهم وزمجرتهم كل يوم، ما الذي يقينا من بأسهم؟ أن نوحد الله، أن لا نرى مع الله أحداً، أن لا نرى مع الله إلهاً آخر.

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

[سورة الإسراء: 23]

ليس القرآن كتاب تاريخ ولكنه كتاب هداية :

الحقيقة عندنا قاعدة في القرآن الكريم: أن خصوص السبب لا يلغي عموم القصد، لا يعقل ولا يقبل أن يتحدث القرآن عن قصة بعينها ليس غير، وقعت في عهد رسول الله، ليس القرآن كتاب تاريخ، ولكنه كتاب هداية.

كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل منافق اسمه بشر اختلف مع يهودي، يبدو أن اليهودي على حق في موضوع الخلاف، فطلب اليهودي أن يحتكما إلى رسول الله مع أنه لم يؤمن به، لكنه يعتقد أنه يعدل إذا حكم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أرسل عبد الله بن رواحة إلى خيبر ليقيِّم تمر اليهود تنفيذاً لاتفاق بينهم وبين رسول الله أرادوا أن يغروه بحلي نسائهم، كي يخفض قيمة التمر، أرادوا أن يرشوه، فقال: والله جئتكم من عند أحب الخلق إلي، من عند محمد بن عبد الله رسول الله، ولأنتم عندي أبغض من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا، وإن أردنا أن نستفيد من هذا القول لا يمكن أن نغلبهم إلا إذا كنا على حق.

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

اعدلوا ولو مع كافر، ولو مع عابد صنم.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

من هنا قال بعض العلماء: إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة، من هنا قال بعض العلماء: الدنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم، الظلم أيها الأخوة ظلمات يوم القيامة، عد للمليار قبل أن تظلم إنساناً، لأنك إن ظلمته سقط من عين الله، ولن يجدي دعاؤك إطلاقاً.

الفرق بين الظالم والطاغية :

هذا اليهودي في موضوع الخلاف مع بشر كان على حق، ولأنه واثق من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلا بالعدل أراد اليهودي أن يحتكم مع خصمه المسلم المنافق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما المنافق فرفض أن يحتكم إلى رسول الله، وطلب أن يحتكم إلى أحد زعماء اليهود، عجيب! اليهودي يطلب الحكم من رسول الله، وهذا المسلم الذي يدعي أنه مسلم، ويزعم أنه مسلم، وهو في الحقيقة منافق يطلب الاحتكام إلى أحد أحبار اليهود الذين يرتشون، فقال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

يزعمون:

(أنزلَ مِنْ قَبْلِكَ)

من التوراة والإنجيل على سيدنا موسى، وعلى سيدنا عيسى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

ما معنى الطاغوت؟ الطاغوت صيغة مبالغة، طاغية وطاغوت، الطاغوت أشد طغياناً من الطاغية، من هو الطاغوت؟ هو الظالم، ما الفرق بين الظالم والطاغية؟ الظالم كلما أطعته يزداد طغياناً، هذه خصيصة في الطاغوت، كلما أطعته، كلما استسلمت له، كلما خضعت له، كلما حققت رغبته يزداد طغياناً وعدواناً، بدليل قول الله تعالى:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

لا يستطيع الطاغية أن يطغى إلا على الفسقة:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة الزخرف: 54]

الطاغية هو الظالم، والفرق بين الظالم والطاغية أن الطاغية كلما زدت طاعة له زادك طغياناً، والطاغوت صيغة مبالغة من الطاغية.

الإنسان بحسب إيمانه يحتكم إما إلى الله أو إلى جهة تعطيه ما ليس له :

قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

[سورة البقرة: 257]

كم من قضية بين المسلمين لعل خصمين احتكما إلى عالم جليل فحكم لهما بشرع الله، أحدها يطلب الاحتكام إلى القوانين الوضعية، لأنه ليس على حق، يريد أن يأخذ ما ليس له، فلعل القانون يعطيه ما ليس له، والقضية واضحة جداً في البيوت أحياناً. قبل القانون الأخير الذي صدر، قانون الإيجار، المستأجر كأنه تملك البيت، فإذا كان لإنسان بيت قد أجره قبل سنة الستين، فهذا البيت انتهى، ولا يمكن أن يناله، ولا أن يستمتع به، فإذا احتكما إلى عالم جليل ليعطياهما الحكم الشرعي في هذا الاغتصاب، المستأجر الذي ليس بحاجة إلى البيت، لكن يحتجزه عدواناً وطغياناً، يحتكم إلى القانون الوضعي الذي يبيح له أن يبقيه في حوزته ما دام حياً. فالإنسان بحسب إيمانه يحتكم، إن كنت مؤمناً تحتكم لشرع الله، وإن كان الإنسان منافقاً يحتكم إلى جهة تعطيه ما ليس له.

الآن أحياناً يسكن إنسان في بلاد الغرب، يختلف مع زوجته، لو عرض عليها أن يحتكما إلى قاضٍ شرعي هناك ترفض، لا تقبل إلا أن ترفع القضية لقاضٍ غربي، لماذا؟ لأن القانون الغربي يعطي

الزوجة المطلقة نصف ثروة زوجها، أما الشريعة المحمدية فتعطي المطلقة مهرها كاملاً. الذي يعدل عن تحكيم الشرع إلى النظام الوضعي الذي يعطيه ما ليس له هو إنسان منافق:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أنزلَ إِلَيْكَ وَمَا أنزلَ مِنْ قَبْلِكَ)

إشارة إلى هذا المنافق الذي اختلف مع اليهودي:

(يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

إلى أحد أحبار اليهود الذي عرف بالطغيان:

(وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)

فرق كبير بين إرادة الله في التوبة علينا وبين إرادة الشيطان في إضلالنا :

هذا الذي ولاؤه للغرب يتهم كل من أراد أن يتحرك ضد الغرب، يتهمه بالعمالة، ولاؤه كله للغرب، محبته كلها للغرب، انصياعه كله للغرب، لا يرى في أمته قيماً ولا بطولات إطلاقاً، هذا يحتكم إلى الطاغوت:

(وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)

أنت دائماً ابحث ماذا يريد الله منك.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

فرق كبير بين إرادة الله في التوبة عليكم، وبين إرادة الشيطان أن يضل الناس ضلالاً بعيداً، أي ألا تشعر بحرج حينما تقرأ هذه الآية:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أنزلَ إِلَيْكَ وَمَا أنزلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

الفرق بين العلم التجريبي والوحي :

أيها الأخوة، في قول الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88-89]

قالوا: القلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، والقلب السليم هو القلب الذي سلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، المؤمن شخصية فذة كبيرة، أن يقرأ مقالة، يستمع إلى حديث، ينظر إلى ندوة فيها تجاوز لما في القرآن الكريم ويقبل! مستحيل، لأن فضل كلام الله على

كلام خلقه كفضل الله على خلقه، القرآن كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المؤمن لا يصدق أن الأرض كلها لو اجتمعت، وبحثت، ودرست، وخرجت بنتيجة تخالف القرآن لا يصدق كل هؤلاء الناس ولو كانوا قمماً في علمهم، معه وحي الله عز وجل. أنت معك آلة، قد تفتح هذه الآلة، وقد تعبث بجزئياتها، وقد تستنبط بعض المعلومات من العبث بجزئياتها، وقد تصل إلى بعض الحقائق، أو إلى بعض الأوهام، لكن حينما تجلس إلى جانب مخترع هذه الآلة، فكل اجتهادك لا قيمة له، هذا المخترع، هذا المصمم، لذلك الفرق بين العلم التجريبي والوحي أن العلم التجريبي فيه خطأ وفيه صواب، لكن وحي السماء حق صرف.

أيها الأخوة، أنتم تعلمون علم اليقين، هذا شيء ليس خافياً عنكم، أحياناً يصدر قانون النوايا الطيبة، الذين قننوا هذا القانون أرادوا إصلاح المجتمع، أرادوا فرضاً الحد من ارتفاع الأسعار في قضية السيارات مرة مثلاً، فمنع إلا للأقارب، نشأ بعد هذا القانون حالة اسمها زواج سيارات، زواج صوري لا وجود له، عقد زواج من أجل بيع سيارة، ونشأ من هذا التصرف مشكلات لا يعلم إلا الله مداها، امرأة ثرية جداً تزوجت إنساناً زواجاً صورياً كي تبيعه سيارتها، ثم توفيت، تمسك بالإرث، هي زوجتي، لذلك عدل القانون وألغي، هذا أتيت به مثلاً، أي إنسان وضع قانون لأنه بشر، ولأن علمه محدود، ولأن أفقه محدود، ولأن رؤيته محدودة، ولأن تجاربه محدودة، يتخيل حالات ويغطي هذه الحالات ببنود هذا القانون، حينما يصدر هذا القانون، ويصبح بحيز التنفيذ تنشأ مشكلات لم تكن تخطر في بال واضع القانون، فيضطر إلى تعديله، ثم يعدل، ثم يعدل، ثم يعدل، ثم يلغى، هذه قصة قديمة مستمرة، الإنسان حينما يشرع، أنا أفترض فيه النوايا الحسنة، علمه محدود، خبرته محدودة، أفقه محدود، رؤيته محدودة، تجاربه محدودة، يتخيل حالات كثيرة، يغطي هذه الحالات ببنود، لكن بعد حين يكتشف أن هناك حالات غابت عنه، ولا بد من تعديل القانون، يعدل، ويعدل، ويُعدل، إلى أن يصبح مهلهل، عندئذٍ يلغى ويسن قانون جديد، هذه القصة تكرر وتعاد، لأن خبرة الإنسان حادثة، وخبرة الإنسان تأتي من تجاربه، لكن قانون الله عز وجل أساسه أن خبرة الله قديمة، لو ابتعدتم عن القضايا العملية.

القانون الإلهي أساسه الوازع الداخلي أما القانون الوضعي فأساسه الرادع الخارجي:

الآن أنت انظر إلى مركبة صنعت عام ألف وتسعمئة، البوق على الهواء، باليد، الإضاءة بالكبريت، فانوس، التشغيل من أمام السيارة، الآن انظر إلى مركبة حديثة جداً، موديل ألفان واثنان الفرق كبير جداً، فمن أين جاء هذا الفرق؟ لأن خبرة الإنسان حادثة، كل عام يطور، يبدل، يحسن، والآن أحدث سيارة بعد خمس سنوات سوف تشاهدون تطويرات لم تكن بالحسبان، لأن الإنسان خبرته حادثة.

أما انظر إلى جسم الإنسان، عندك إنسان موديل ألف وتسعمئة فرضاً، بيد واحدة فرضاً، وموديل معدل مطور إف إس، كل مخلوق مثل صاحبه، منذ أن خلق آدم عليه السلام خلقه خلقاً كاملاً، لأن خبرة الله قديمة، خبرته قديمة، وتشريعه قديم، لذلك العلماء قالوا: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، الشيء الذي الله عز وجل حرمه سيئ جداً إلى أبعد الحدود، مهما زينته، إلا أن المشكلة أنك إذا اتبعت تشريعاً أرضياً التشريع الأرضي له ضحايا كثيرة، لأن القانون ناقص، أو لأنه ظالم، أو لأنه محدود، أو لأنه لا يغطي كل حاجات الإنسان، مثلاً القانون الإلهي أساسه الوازع الداخلي، أما القانون الوضعي فأساسه الرادع الخارجي، أقرب مثل: يمنع أن تستخدم الجهاز الهاتفي المحمول في أثناء قيادة السيارة، متى لا تستخدم هذا الجهاز؟ أمام الشرطي فقط، أما إذا كنت بعيداً عن الرقابة فتستخدمه، ولا تشعر بشيء، لأن هذا القانون من وضع البشر مرتبط بالشرطي، أما حينما يأمرك الله أن تغض بصرك، قد تكون في بيتك وحدك، وقد تفتح الجارة باب نافذتها، لماذا تغض بصرك عنها، ولا يستطيع أحد في الأرض أن يضبط هذه المخالفة، لأنه قانون إلهي، مبني على الوازع الداخلي، أنا أقول لكم: لا يمكن أن تصلح الحياة من دون إيمان.

إذا وجد بائع الزيت صباحاً في وعاء زيته فأرة، فسحبها بملقط، وباع الزيت، هل في الأرض كلها جهة يمكن أن تضبط هذه المخالفة؟ أما إذا كان مؤمناً فلا يمكن أن يبيع هذا الزيت. في كل حياتنا، إن اعتمدنا على القانون الوضعي لا يمكن أن تصلح الأمور، أما إن اعتمدنا على الإيمان القوي لا يمكن أن تفسد الأمور، في الإسلام قيم مذهلة.

حدثني أخ قال لي: والله عندي مهندس يعمل في معملي، ودخله محدود، ولا يكفيه، وليس متزوجاً، ولا يملك بيتاً، وجد في كيس أسود في أطراف المدينة مبلغ ثمانمئة ألف ليرة، بحث عن صاحبها وقدمها له، بأي قانون هذه؟! بقانون الإيمان، بقانون الخوف من الله، بقانون الإنصاف، بقانون العدل.

النظام الوضعي له ضحايا كثر أما النظام الإلهي فكله خير :

حدثني أخ كريم: في واشنطن سائق مغربي وجد في مركبته محفظة نسائية فيها عشرة آلاف دولار، فذهب إلى مركز للشرطة، وطلب مقابلة رئيس المركز، وقال له: معي هذه المحفظة، وفيها عشرة آلاف، وأريد أن تبحثوا عن صاحبتها، وهي عندي، أنا أعطيها لصاحبتها ضماناً لإيصالها لصاحبتها، بحثوا عن صاحبتها، وسلموها هذه الأمانة، حاكم الولاية دهش لهذه الأمانة، جمع طلاب المرحلة الثانوية، وعند سوق الاحتفال، قام حاكم الولاية فيهم خطيباً، وسأل معظم الطلاب لو وجدتم في مكان ما حقيبة كهذه الحقيبة ماذا تفعلون؟ فقالوا جميعاً بصوت واحد: نأخذها، قال: ولكن هذا الإنسان المسلم أعادها لصاحبتها، هذه الأمانة.

أيها الأخوة، الإنسان حينما يحكم بقانون الله لا يمكن أن يعصيه ولو كان خالياً، في أيام الصيف الحارة، الحرارة خمسون، وكان في رمضان، وأنت صائم، وأول يوم وصلت إلى آذان العصر فكدت أن تفقد حياتك، ودخلت إلى بيتك، وفتحت صنبور الماء البارد هل تستطيع أن تلعق قطرة ماء؟ لا تستطيع، ما الذي يحكمك؟ قانون الله عز وجل، أما لو كان الصيام بقانون وضعي كم يصوم من الناس؟ طبعاً لا أحد يشرب في الطريق، أما كم من إنسان يصوم في بيته؟ ولا واحد. كأنني بهذا التعليق أردت أن أبين الفرق الكبير بين القانون الإلهي من عند الخبير، من عند الحكيم، من عند العلي، من عند الرحيم، من عند المطلع، من عند السميع، البصير، الخبير، والله خبرته قديمة، وكلامه حق، والوحي مطلق في خيريته، وبين إنسان ولو كان حسن النية بحسب رؤيته المحدودة، وعلمه المحدود، وخبرته المحدودة، يقنن، ثم يكتشف أن فيه أخطاء كثيرة جداً ثم يعدل، إذاً النظام الوضعي له ضحايا كثيرة جداً، أما النظام الإلهي فكله خير:

(وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)

أي تفسير توحيدي قرآني سماوي مرفوض عند المنافق :

مثلاً في بلاد الصين نمو سكاني كبير جداً، فوضعوا قانوناً من صنع البشر، هذا القانون يقضي بأنه لا يجوز للزوجين أن يكون لهما إلا ولد واحد، ولأنهم يحبون الذُكران، فإذا جاءتهم البنت خنقوها، وإذا جاء المولود ذكراً سجلوه في الدوائر الرسمية، ثم اكتشفوا بعد حين أن الصين تحتاج إلى خمسين مليون فتاة، ثم أنشئت عصابات لخطف الفتيات لشدة الحاجة إليهن، لأنهم غيروا قانون الله عز وجل، الآن ثمة قوانين تصدر في الصين عجيبة، ممنوع أن تبحث في المستشفى عن نوع المولود ذكراً كان أو أنثى، هناك تشديدات شديدة جداً، أما الآن القضية الأولى أن الصين تعاني نقصاً حاداً في الفتيات، إذاً هناك عصابات تخطف الفتيات، لأن قانون إلزام الناس بمولود واحد قاد الناس إلى أن يقتل الفتاة، وأن يبقي الشاب، هذه من آثار القانون الوضعية، وقانون ببلد آخر صدر تقليداً للغرب أن المرأة المطلقة تنال نصف ثروة زوجها، أقسم لي أخ في هذه البلاد أن سوق الزواج توقفت نهائياً، فصار الأب مضطراً إلى أن يأتي لوالد الشاب الذي يزمع أن يخطب ابنته فيعطيه سندَ أمانة بالملايين، إن طالبناك بنصف ثروتك طالبنا بهذا السند، لكن تعال وتزوج، تعديل طفيف بقانون الزواج ألغى الزواج كله، هذا القانون الإلهي من عند الخبير، أي في خيرات لا يعلمها إلا الله ناتجة عن هذا القانون.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً)

الآن المنافق يكره أن تفسر ما حدث تفسيراً إلهياً، تفسيراً توحيديّاً، الذي حدث له تفسير أرضي شركي، وله تفسير سماوي توحيدي، المنافق يرفض أن الذي حدث هو خير، يرفض أن الذي حدث

هو بسبب تقصير المسلمين، أي تفسير توحيدي قرآني سماوي مرفوض عند المنافق، وأي تفسير أرضي شركي مادي مقبول عند المنافق.

المنافق على نوعين إما أساسه كافر أو أساسه ضعيف اليقين بالله عز وجل :

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً)

الله عز وجل لم يفضحهم أولاً، لماذا؟ لأن المنافق على نوعين، منافق أساسه كافر، لكنه غطى كفره بالنفاق، ومنافق أساسه ضعيف اليقين بالله عز وجل، عنده شبهات وشهوات، هذا المنافق يرجى له أن يكون مؤمناً في المستقبل، لذلك من حكمة الله عز وجل أنه ما فضحهم، بل أعطى أسماءهم لسيدنا حذيفة، من هنا جاء سيدنا عمر، وسأل سيدنا حذيفة: بربك اسمي مع المنافقين؟ فالمنافق الكافر هذا لا يرجى إيمانه، وأغلب الظن الله عز وجل يفضحه في المستقبل، أما المنافق الذي أساس نفاقه ضعف في الإيمان لشبهات تعتريه، أو لشهوات يفعلها هذا المنافق يرجى له أن يكون في المستقبل مؤمناً، لذلك حينما يكشف حال المنافقين أحياناً يسارعون إلى رسول الله ليتبرؤوا من النفاق:

(فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً)

الحكمة من عدم فضح المنافقين :

حسناً لماذا احتكمتم إلى هذا اليهودي؟ فكان جوابهم: أردنا أن نريحك يا رسول الله، أردنا أن لا نتعبك، ألا نشغلك بمشكلاتنا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قبل منهم ذلك، ولم يفضحهم، والتوجيه الدقيق إذا وجدت إنساناً مقصراً، أو متلبساً بمعصية، إيمانه ضعيف، انضباطه ضعيف، فلست مكلفاً أن تفضحه على الملأ، هذا العمل لا يرضي الله أبداً، أنت مكلف أن تنصحه فيما بينك وبينه، لأن قلقه من أن يفتضح يعني أن فيه بقية خير، لذلك لا ينبغي أن تفضحه، فحينما تأتيهم مصيبة، وهذه المصيبة كأن الله حذرهم بها، وكشف نفاقهم قال:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

قل لهم في أنفسهم قولاً يبلغ أعماق قلوبهم وخفايا عقولهم لكن بينك وبينهم دون أن تفضحهم:

(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

أعرض عنهم إشعاراً لهم أنك تعلمهم، إذا كان لك اهتمام ومودة بالغة مع المنافق يظن نفسه على حق هو، يظن نفسه أنه احتال عليك، لا، أعرض عنهم إشعاراً لهم أنك تعلم نفاقهم ثم عظهم، بيّن لهم الحق:

(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

يصل إلى قرارة نفوسهم.

عبادات كثيرة نفعلها ولا أحد يلزمنا بها لكنها تؤكد لنا إيماننا بالله وطاعتنا له :

أيها الأخوة الكرام:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

كلمة أخيرة: لحكمة بالغةٍ بالغة في أشياء مشتركة بين القانون الإلهي والقانون الوضعي، فالإنسان إن لم يسرق لعله يخاف الله، أو لعله يخاف القانون، فإذا كنت بمؤسسة فيها ضبط شديد، مراقبة شديدة، فيها نظام محاسبة دقيق جداً، وإذا اختلس الإنسان شيئاً يفتضح ويحاكم، وتكف يده، وتصادر أمواله فأنت بهذه الحالات لا تسرق، الله وحده يعلم لماذا لم تسرق؛ خوفاً من الله، أو خوفاً من القانون، لكن ما من تشريع أرضي على الإطلاق فيه أمر بغض البصر، فأنت حينما تغض بصرك تخاف ممن؟ لا تخاف إلا من الله، فغض بصرك دليل أنك تخاف الله، هذه العبادة هي عبادة الإخلاص، صيامك في البيت دليل خوفك من الله، فالله عز وجل في بعض الأوامر ينفرد بها الدين، والقوانين الوضعية لا تشترك معه إطلاقاً، فلذلك تكشف نفسك أنت من صلاة قيام الليل، من غض البصر، من إنفاق المال، دون أن تبوح بهذا الإنفاق، من صيام النفل، في عندك عبادات كثيرة تفعلها، ولا أحد يلزمك بها، ولا أحد يطلع عليها إلا الله، فهذه العبادات يمكن أن تؤكد لك إيمانك بالله، وطاعتك له، وحبك له.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(32-69): تفسير الآيتان 64-65 ، مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-10-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

طاعة رسول الله والاستجابة له عين طاعة الله والاستجابة له :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والستين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أن أيَّ رسول كائناً من كان معه منهج إلهي، ومعه منهج تفصيلي، وما أرسله الله إلا ليكون هذا المنهج مطبقاً في حياة من دعاهم إلى الله، فطاعة رسول الله عين طاعة الله، والاستجابة لرسول الله عين الاستجابة لله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، والله ورسوله أحق أن يرضوه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

أي أن استجابتهم لك هي استجابة لله، والبديل اتباع الهوى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء: 80]

إذاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذا الأمر الذي يلقيه عليك النبي ليس من عنده، ولا من اجتهاده، ولا من ثقافته، ولا من بيئته، إنه من الوحي، أنت حينما تطيع رسول الله معنى ذلك أنك تطيع الله، لا تأخذ كلام النبي على أنه كلامه، ينبغي أن تأخذه على أنه من عند الله، ولأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

أحد أصحاب النبي رضوان الله عليه وهو سيدنا سعد بن أبي وقاص قال: ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ـ من هذه الثلاثة أنه ـ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى.

مقياس نجاح تعاملك مع رسول الله لا في الإعجاب به فحسب ولكن في طاعته :

إذاً علاقتك برسول الله لا أن تعجب به فقط، لا أن تثني على عبقريته، لا أن تثني على حكمته، لا أن تجعله فوق المئة الأوائل في الأرض فقط، ينبغي أن تطيعه، أي مقياس نجاح تعاملك مع رسول الله لا في الإعجاب به فحسب، ولكن في طاعته:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

وهذه (من) تفيد استغراق أفراد النوع، أي ما من رسول على الإطلاق إلا ينبغي أن يطاع، لأن أمره ليس من عنده، بل هو من عند الله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

فرق كبير بين أن تتوهم أن هذا الأمر من عند النبي وبين أن تعتقد اعتقاداً يقينياً أن هذا الأمر الذي جاء به النبي هو من عند الله، إنك إن أطعته أطعت الله، إن استجبت له استجبت لله، إن أرضيته أرضيت الله، إن أحببته أحببت الله، محبة النبي عليه الصلاة والسلام عين محبة الله، لذلك قال بعض العلماء: هناك حب في الله، وهو عين التوحيد، أنت في الأصل تحب الله، ولأنك تحب الله تحب رسول الله، ولأنك تحب رسول الله تحب أصحاب رسول الله، ولأنك تحب أصحاب رسول الله تحب كل من اتبع رسول الله، ولأنك تحب هؤلاء جميعاً تحب المساجد، وتحب تلاوة القرآن، وتحب العمل الصالح، وتحب العبادات، كل أنواع هذه المحبة هي في الحقيقة محبة واحدة، هذا هو الحب في الله، أما الحب مع الله هو عين الشرك، أن تحب جهة لا تحب الله، أو أن تحب جهة لا يرضى الله عنها، أو أن تحب جهة هي في الأصل ليست مطيعة لله عز وجل لمصلحة تبتغيها، هذا حب مع الله، وهو عين الشرك.

أكبر خسارة على الإطلاق أن يخسر الإنسان نفسه :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

أيها الأخوة، الإنسان قد يظلم الآخرين، ولكن أشد أنواع الظلم، ولكن أقسى أنواع الظلم، ولكن أخطر أنواع الظلم أن يظلم نفسه، قد يخسر بيته بخطأ ارتكبه، وقد يخسر شركة، وقد يخسر رأسماله، أما أكبر خسارة على الإطلاق أن يخسر نفسه:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

قد تخسر فتعوض، أما حينما تخسر نفسك، يقاس عليها أن الإنسان حينما لا يُعرّف نفسه بالله، ولا يستقيم على أمر الله، ولا يعمل العمل الصالح الذي يرتقي به عند الله، ولا يسعى إلى الجنة، ولا

يتقي النار فقد وقع في ظلم نفسه الشديد، أرأيت إلى إنسان يعرض عن الله، وعن طاعته، وعن طلب العلم، وعن مرضاته، يبحث عن شهوة يقتنصها، أو لذة يمارسها، أو مصلحة يأخذها، إنه يظلم نفسه، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً؟ رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهولها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهولها مكرم. الغنى والفقر بعد العرض على الله.

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)

ماذا ينبغي أن يفعل من ظلم نفسه؟ أولاً:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أيها الأخوة، والله لا أبالغ إن من أخطر الآيات في كتاب الله التي تتحدث عن مقام رسول الله هذه الآية، أي أنت حينما تخطئ، حينما تظلم نفسك، ماذا ينبغي أن تفعل؟ ينبغي أن تتجه إلى رسول الله الذي اعتمده الله مبلغاً عنه، والذي أمرك أن تأتمر بأمره، وأمرك أن تنتهي عما عنه نهى، ينبغي أن تأتي أولاً إلى رسول الله، لأنك إن أهملت مقامه أهملت المرسل، إن لم تعبأ بمنهجه لم تعبأ بمن أرسله، إن لم تأتمر بما أمرك لا تأتمر بالذي أمره، هذا الذي يقول لا علاقة لي بالأشخاص، أنا علاقتي مع الله مباشرة، أنت بهذا لا تعبأ بالمرسل، حينما تأتيك رسالة، وتمزقها قبل أن تقرأها أليس هذا كفر بالمرسل؟

من أخطر الآيات في كتاب الله التي تتحدث عن مقام رسول الله الآية التالية :

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

يأتونك أولاً ليستطلعوا منك ماذا ينبغي أن يفعلوا؟ ما الأمر الذي يرضي الله؟ ما الأمر الذي يغضب الله؟ كيف يتوبون؟ كيف يصلحون أنفسهم؟

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أما حينما يتجاوزوك فهم يتجاوزون من أرسلك، حينما يتجاوزوك لا يعبؤون بالذي أرسلك، هم حينما لا يهتموا بك هم لا يهتموا بقرار الله عز وجل الذي أرسلك، لو وسعنا الدائرة، لو أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسولاً أتباع الرسول السابق لم يعترفوا به، ولم يذعنوا له، ولم يسلموا له، كيف؟ أي أنت كمدير مؤسسة تابعة لوزارة، هناك وزارة جديدة تشكلت، أنت كمدير مؤسسة ترفض أن تأخذ أمرك من الوزير الحالي، تقول: لا، أنا أتلقى أمري من الوزير السابق، أليس هذا تحدياً للملك الذي عيَّن هذه الوزارة؟ شيء واضح جداً، فهذا الذي يرفض أن يتبع آخر نبي أرسله الله عز وجل إنه يتحدى من أرسله، إنه لا يستسلم لمن أرسله، إنه لا يذعن لمن أرسله، الآن حينما تلغي

مقام الرسالة ومقام النبوة، ولا تعبأ بمنهج النبي، وتقول مدعياً: أنا علاقتي مع الله مباشرة، فالله لا يقبلك، ولا يتوب عليك، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أي اعتراض على حديث صحيح ثابت قطعي الدلالة هو اعتراض على رسول الله :

بعد أن يأتوك استغفروا الله وفق توجيهاتك، استغفروا الله وفق منهجك، يقول لك أحدهم: أنا إيماني بقلبي، لو لم أصل أنا خير ممن يصلي، مرتاح، لا يصلي أبداً، أنا لا أؤذي أحداً، أنت بهذا تجاوزت كلام سيد الخلق:

((العهد بيننا وبينهم ترك الصلاة فمن ترك الصلاة فقد كفر))

[رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد]

لم تعبأ بهذا الكلام، يقول: أنا قلبي نظيف، أنا لا أحقد على أحد، ليس في قلبي غل لأحد، إذاً أنا أفضل ممن يعبدون الله، هذا نموذج متكرر، إلغاء الرسالة كلياً، لا يعبأ بكلام رسول الله، هناك دعوة صريحة الآن إلى إلغاء السنة كلها، مع أن الله عز وجل يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

إذاً لا يقبلنا الله عز وجل، ولا يتوب علينا إلا إذا أتينا رسوله، لأنه معصوم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، أمرنا أن نأخذ عنه، وأن ننتهي عما نهى عنه، أمرنا أن نجعله أسوة لنا، فهذا الذي يلغي مقام رسول الله هو هكذا فعل، أفعاله سنة، أقواله، وأفعاله، وإقراره سنة، فالنبي ما صافح النساء تقول: هذا الحكم لا يصلح لهذه الأيام، إذاً أنت تلغي مقام الرسالة، أي اعتراض على حديث صحيح ثابت قطعي الدلالة والثبوت هو اعتراض على رسول الله، وهو اعتراض على من أرسله، دققوا: إنه اعتراض على من أرسله:

(وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

بدؤوا بك ماذا توجهنا، كيف نتوب؟ أما حينما لا نأتمر بأمر رسول الله، ولا ننتهي عما عنه نهى، وندعي أن علاقتنا بالله مباشرة، نقيم يانصيباً خيرياً، ونقيم حفلة غنائية صغيرة يرصد ريعها للأيتام، لماذا السنة؟ أقول: لكم هذا الشيء واقع، هناك من يقول: أنا مؤمن بالله، ولا أرضي أحداً، أما هذا التوجيه الضخم من رسول الله فليس له عنده قيمة إطلاقاً:

(وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

جاءوك يا محمد، جاؤوك أولاً.

النبي بشر مثلنا ولكن يُوحى إليه :

إن جاؤوك هم يحترمون من أرسلك، إن جاؤوك يعظمون من أرسلك، إن جاؤوك يعظمون من كلفك، يعظمون من أنطقك:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

لكنك لست إلا نبيّاً، لا تزيد عن أنك بشر، ولكن يوحى إليك:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة فصلت: 6]

إذاً أنت لا تستغفر، الذي يستغفر هو الله:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا)

أرأيت إلى التوحيد؟ أنا أعتقد أنه ما من إنسانين على وجه الأرض أحبا بعضهما بعضاً كحب الصِّديق لرسول الله، ومع ذلك يوم توفاه الله قال الصديق رضي الله عنه: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

مقام الألوهية شيء ومقام النبوة شيء آخر :

أخواننا الكرام، مقام الرسالة مقام خطير جداً، يوجد خط أدنى لو نزلت عنه لكفرت بالرسالة، ولو تجاوزت الخط الأعلى لألهت رسول الله، هناك من يقول: إن الكون كله مخلوق من نور محمد، هذه مبالغة، هذا كلام غير صحيح، إن الخلق خلقوا ليكونوا على شاكلة محمد، هو قدوة لنا، لذلك سمح الله جل جلاله لرسوله بهامش اجتهادي ضيق فإن أصاب النبي أقره على إصابته، وإن لم يصب صحح له:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

[سورة التوبة: 43]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس: 1-2]

ليكون هذا الهامش الاجتهادي دليلاً على أن مقام الألوهية شيء، وأن مقام النبوة شيء آخر، لئلا يعبد من دون الله، قال أحد الأصحاب وهو يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام: ما شاء الله وشئت، فقال له: بئس الخطيب أنت، جعلتني لله نداً، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

إذاً حينما يأتونك لا ليعبدوك من دون الله، لا، فاستغفروا الله، لكن جاؤوك ليأخذوا المنهج من عندك، جاؤوك ليتعرفوا على أمر الله من خلالك، جاؤوك لترسم لهم الطريق إلى الله من خلال توجيهك، جاؤوك أي احترموا من أرسلك، وعظّموا من أرسلك، واعتقدوا أنك على حق بأقوالك، وأفعالك، وإقرارك:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

لو توسعت في هذا الموضوع قليلاً، النموذج المعاصر الآن يلتقي إنسان مثقف مع مئة شيخ، أنا أقول: ليس على وجه الأرض إنسان مؤهل أن تأخذ منه من دون دليل، لأن هذا دين، قضية مصيرية، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها، لكن حينما تأتي عالماً جليلاً، ويأتيك بالدليل، ولا يعجبك الدليل، حينما يأتيك بالأمر الإلهي، والدليل على أنه واجب التطبيق، ولا تذعن له، حينما يأتيك بالنهي الصريح من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، ولا تعبأ به أنت من؟ أنت ممن لم يأت رسول الله، القرآن كتاب هداية ليوم القيامة.

حينما نتجاوز كلام النبي فنحن إذاً لا نتبع الله عز وجل :

لا يعقل أن تغطي هذه الآية الصحابة فقط، هذه الآية تغطي المؤمنين إلى يوم القيامة:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

حينما يأتونك يا محمد هم يعظمون الذي أرسلك، يقرون لك بالعصمة، ينفذون أمر الله عز وجل بطاعتك، لأن طاعتك طاعة الله عز وجل:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ)

وفق توجيهك، أي قد يأتي إنسان إلى عالم، والعلماء كما قال عليه الصلاة والسلام: ورثة الأنبياء، لكن لا يمكن أن تقبل أقوالهم من دون دليل، لا يوجد في حياة المسلمين إلا إنسان واحد كلامه هو الدليل، إنه رسول الله فقط، ما سوى النبي كلامه يحتاج إلى دليل من كلام النبي، فحينما تأتي عالماً تسأله عن موضوع الربا يقول لك: يا أخي هذا العمل محرم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 279]

ولا يعجبه هذا الكلام، أنت لا تعترض على هذا العالم، لا، العالم ما قال لك من عنده شيْئاً، العالم جاءك بالدليل من كتاب الله، أنت بهذا لا تعبأ بكلام الله، ولا تعبأ بحديث رسول الله، لولا أن هذه ظاهرة متفشية، ومتكررة، ومستمرة ما ذكرها الله في القرآن الكريم:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

أي جاءوا إلى الرسول، إلى من اختاره الله رسولاً، إلى من سمح الله له أن ينطق بالحق، إلى من عصمه الله، إلى من أمرك الله أن تلتزم أمره ونهيه، هذا الشيء الطبيعي، أما حينما نتجاوز كلام النبي فنحن إذاً لا نتبع الله عز وجل، وأقوى دليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

استغفار الرسول يدلنا على طريق الاستغفار لله :

قال تعالى:

(فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ)

استغفار الرسول دلهم على طريق الاستغفار لله، افعل كذا، إذا أسأت فأحسن، استغفر، تب، صم نفلاً، ادفع صدقة، الزم الدرس فرضاً، أي دلك النبي على طريق الاستغفار لله عز وجل، بعد أن أتيت النبي، واستغفرت الله بتوجيه النبي الآن تجد الله تواباً رحيماً، لذلك فإن احترام الرسالة احترام للمرسل، واحترام الأمر احترام للآمر، وتعظيم النبي تعظيم لمن أرسله، واتباع النبي اتباع لمن أرسله، محبة النبي محبة لمن أرسله، الأدب مع النبي أدب مع من أرسله، أي بالنظام المدني في العالم كله الوالي قديماً أو المحافظ في المصطلح الجديد يمثل رئيس الجمهورية في محافظته، فمن تطاول عليه فهو في الحقيقة تطاول على رأس المجتمع فيعاقب، هذا في النظام المدني فكيف بقانون الله عز وجل؟ هذه الآية تعني أنه ينبغي أن تأتي البيوت من أبوابها، والنبي عليه الصلاة والسلام باب الله، لا تأتي البيوت من السطوح، تعال من الباب، والنبي باب الله عز وجل، سلوا لي الوسيلة هكذا، قال عليه الصلاة والسلام، فإنها مقام لا ينبغي إلا لواحد من خلقه، وأرجو أن أكون أنا، كما قال عليه الصلاة والسلام، لذلك نحن عقب الأذان نقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الفضيلة والوسيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، لذلك هذا الذي لا يعبأ بالسُّنة لا يعبأ بالدين، هذا الذي لا يعبأ بحديث رسول الله لا يعبأ بالقرآن، هذا الذي لا يتأدب مع رسول الله لا يتأدب مع الله، هذه الآية تبين مقام النبي عليه الصلاة والسلام.

في الآية التالية أقسم الله تعالى بعمر النبي صلى الله عليه وسلم :

قال الله عز وجل:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

أقسم بعمر النبي، وتأسيساً على هذه الحقيقة:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

حينما تختلف مع أخ، مع صحابي، وأنت صحابي، وتأتيان إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وتحتكمان إليه، ولم يعجبك حكم النبي فأنت لست مؤمناً:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

حينما نحتكم إلى سنة رسول الله التفصيلية هذا يقوم مقام أن نأتيه في حياته :

أيها الأخوة، الآن موضوع دقيق، في حياة النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ)

جاؤوك، وتعلموا منك كيف يستغفرون الله، وبينت لهم الطريق إلى الله، وطريق التوبة، وطريق الاتصال، وطريق العمل الصالح، ولكن هذه الآية كيف نفهمها بعد وفاة رسول الله؟ العلماء قالوا: أنت حينما تحتكم إلى سنة رسول الله التفصيلية هذا يقوم مقام أن تأتيه في حياته، يؤكد هذا المعنى الدقيق أن الله جل جلاله يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

من خلال سنته، يؤكد هذا الكلام:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

توفي الرسول، التحق بالرفيق الأعلى، تطيعوا أمره ونهيه اللذين حفظا بعد وفاته، إذاً هذه الآية تعني بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحتكم إلى سنته التفصيلية، أن تحتكم إلى الشرع الذي جاء به، أن تحتكم إلى الأحاديث الصحيحة التي نسبت إليه، أن تحتكم إلى توجيهاته، إلى إرشاداته، إلى أحكامه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

كل أمر موجه للمؤمنين بطاعة الرسول في حياته هو موجه إليهم باتباع سنته بعد مماته:

إذاً في حياته تأتي إليه، وبعد مماته تأتي إلى سنته، هذا معنى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة الحجرات: 1]

لا تقترح اقتراحاً خلاف ما في القرآن، وخلاف ما في السنة، لو ألغينا قطع اليد لما كنا عند الغرب همجيين، لا، لا تقترح إلغاء حكمٍ حَكَمَ اللهُ به، ولا تقترح إلغاء حكمٍ حَكَم به رسول الله.

أيها الأخوة، كل أمر موجه إلى المؤمنين بطاعة رسول الله في حياته هو موجه إلى عامة المؤمنين باتباع سنته بعد مماته، إذاً حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم.

توفي عليه الصلاة والسلام، وترك سنته بين أيدينا، الآن لا يوجد بيت في العالم الإسلامي إلا ويوجد فيه كتاب سنة، رياض الصالحين، أذكار النووي، صحيح البخاري، صحيح مسلم، كتب الحديث الستة، سنته بين أيدي الناس، والآن مع ثورة المعلومات والاتصالات تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر أمر الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وأنا العبد الفقير ذهبت إلى أقصى مكان

في الأرض، إلى سيدني في أستراليا، فوجدت أن إذاعتين في سيدني تذيعان أقوال النبي وسنته وتفسير القرآن، سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، فسنته بين أيدي الناس جميعاً في القارات الخمس، الكتب، والأشرطة، والمحاضرات، والندوات. إذاً أن تأتي النبي بعد مماته أن تأتي إلى سنته فتتبعها:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

نفي الإيمان عن إنسان لا يذعن لحكم النبي :

نفي الإيمان عن إنسان لا يذعن لحكم النبي، أضرب لكم هذا المثل: قال النبي الكريم: لا تقتلوا عمي العباس، قبيل بدر، شخص فكر وقال: أينهانا عن قتل عمه، وأحدنا يقتل أباه وأخاه في الحرب، أي أساء الظن برسول الله، لما كشف له أن عمه العباس قد أسلم في مكة، وبقي عين النبي في مكة، لو أنه لم يخرج لكشف أمره، فانتهت مهمته، لو أن النبي ذكر أنه قد أسلم لكشفه، وانتهت مهمته، لو سكت النبي لقتله أصحابه، لا بد من أن يقول لا تقتلوا عمي العباس، هذا الذي ظن ظنَّ السوء برسول الله يقول عن نفسه: ظللت عشر سنين أتصدق رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله، قال له: ما عدلت يا محمد، فغضب النبي، وكان إذا غضب عليه الصلاة والسلام ينبض عرق له، فقال: ويحك من يعدل إن لم أعدل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

نحن لم يتح لنا أن نلتقي برسول الله، تطبيق هذه الآية اليوم كيف؟ أتيت عالماً جليلاً أنت وخصمك فحكم لكم وفق كتاب الله وسنة رسول الله، عملك غير شرعي، وهذا هو الدليل الصحيح قطعي الثبوت والدلالة فلم تعبأ بهذا الحكم، التطبيق المعاصر أوسع تطبيق، أن كل امرأة تختلف مع زوجها في المهجر تحتكم إلى قاض غربي، لأنه يحكم لها بنصف ثروة زوجها، ولم تعبأ بحديث رسول الله أنها إذا طلقت يحكم لها بالمهر فقط، أي لولا أن هذه مشكلة كبيرة جداً ما احتلت هذا الحيز في القرآن الكريم، هناك من لا يعبأ بالسنة، هناك كتب ألفت لإلغاء السنة، هناك محاضرات ألقيت لإلغاء السنة، هناك سلوك يومي مخالف للسنة:

((الحمو الموت))

[رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر]

لا تبتعدوا، كم من أسرة في بلاد المسلمين يجتمع الأصهار وزوجاتهم على مائدة واحدة؟ كم من أسرة قل لي بالعكس: كم من أسرة لا تفعل هذا؟ أسهل، معنى ذلك أن كلام النبي لا يعبأ المسلمون به اليوم، يكفي أن تجمع كل أصهارك وبناتك على مائدة واحدة، لم تعبأ بقول النبي:

((الحمو الموت))

[رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر]

هذه واحدة.

معظم المسلمين هذه الأيام لا يطبقون سُنة رسول الله في حياتهم اليومية :

يكفي أن تنمي مالك ببنك ربوي، أما أن يعدل أكل درهم من الربا أن يزني الإنسان بأمه، فكلام النبي هذا لا يعبأ به أحد، معظم المسلمين يضعون أموالهم في مصارف ربوية، هذا واقع، والنبي نهى عن الغناء، فكم بيتاً مسلم لا يوجد به غناء؟ مغنية تغني بمعاني جنسية، كم بيتاً مسلم لا يوجد به غناء؟ أين سنة النبي؟ إذا رفض شاب مؤمن أن يدخل يوم عرسه إلى صالة الاحتفال، وفيها مئة امرأة كاسية عارية، وجلس مع عروسه لا يعد هذا لبقاً، وليس من بنى المجتمع، وكلهم مسلمون، هذه آية متعلقة بالواقع، لا أحد يعبأ بسنة النبي الآن، لا أحد يأخذها مأخذاً جدياً، أما من السهل أن تقيم احتفالاً بمولد النبي، وأن تثني على النبي، وأن تأتي بفرقة نشيد رائعة جداً، وأن تتمايل طرباً حينما ينشدون، وأنت لست مطبقاً لسنته شيئاً، أليس كذلك؟

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، لعلها من أخطر الآيات المتعلقة بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(33-69): تفسير الآيات 65-70 ، الاحتكام إلى سنة رسول الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-10-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق الكبير بين مقام الألوهية المطلق و مقام النبوة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والستين، وهي قوله تعالى:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أراد الله سبحانه وتعالى من هذه الآية أن يبين عصمة النبي، فالله سبحانه وتعالى عصمه من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وبالتالي أمرنا أن نأخذ منه قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

أيها الأخوة، الإيمان برسالة رسول الله، والإيمان بعصمة رسول الله جزء أساسي من الإيمان، الله عز وجل أعطى النبي هامشاً اجتهادياً ضيقاً، ليكون هناك فارق كبير بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام النبوة، هذا الهامش إن أصاب النبي فيه أقره الوحي على حكمه، وإن لم يصب صحح له الوحيُ، إذاً هناك مقام النبوة، وهناك مقام الألوهية، على كل في النهاية النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3 - 4]

سبب نزول الآية التالية :

عصمه الله في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، وفي صفاته، فلذلك حينما يحكم النبي بحكم ما، هذا الحكم لا يمكن أن يكون عن الهوى، إنه حكم حق مؤيد من قبل الحق، فالذي يعترض على حكمه يعترض على نبوته، والذي يعترض على حكمه يعترض على رسالته، والذي يعترض على حكمه يعترض على عصمته، من هنا قال الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

تروي كتب أسباب النزول أن صحابياً جليلاً اسمه الزبير بن العوام، هذا الصحابي الجليل له أرض مرتفعة في المدينة، ولصحابي آخر اسمه حاطب بن بلتعة أرض في جوار أرض الزبير بن العوام، لكنها أخفض من أرض الزبير، فحصل بينهما تنازع، واحتكما إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام نطق بالعدل، فأعطى حكماً أن يبدأ ابن العوام بسقي أرضه، ثم ينتقل الماء إلى أرض حاطب، لأن أرض ابن العوام أعلى، أما إذا بدأنا بحاطب فلا بد أن يجتمع الماء إلى وقت طويل حتى تنتقل إلى أرض الزبير، فصدر عن هذا الصحابي كلمة، وبالمناسبة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وعليهم رضوان الله ليسوا معصومين، وهم درجات متفاوتة، فقال هذا الصحابي: ألا لأنه ابن عمتك؟ فكان الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله، هذه الكلمة تركت أثراً بالغاً في النبي عليه الصلاة والسلام، مقام النبوة أعظم بكثير من أن ينحاز الإنسان إلى ابن عمته، عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام: أن تبدأ السقي من عند حاطب تطيباً لقلبه، لكن وجد مشقة كبيرة، عندئذٍ لا بد من أن يجتمع الماء إلى وقت طويل جداً حتى يمكن أن تنتقل إلى أرض الزبير بن العوام، يقول بعض العلماء: إن هذه القصة سبب نزول هذه الآية:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

قصة أخرى عن أسباب نزول الآية التالية :

الحقيقة أنه هناك قصة أخرى، لعلي ذكرتها في الدرس السابق، أن النبي عليه الصلاة والسلام أعطى توجيهاً لأصحابه ألا يقتلوا عمه العباس، قال بعضهم، ولم يفهم حكمة النبي، أو لم يستوعب أبعاد رؤية النبي، أو لم يفهم ملابسات هذا الأمر، ابن عباس أسلم سراً، وبقي في مكة عين النبي عليه الصلاة والسلام، وقيادة النبي قيادة ذكية جداً، وتحتاج إلى معلومات كأية قيادة أخرى عالية المستوى، المعلومات عنصر أساسي جداً في اتخاذ القرار الصحيح، فكان هذا الإنسان عم النبي عليه الصلاة والسلام معلناً إسلامه لرسول الله فقط، أخفى إسلامه عن كفار قريش، وكان بينهم، وكان في أعلى مستوى من إدارتهم، كان من وجهاء قريش، فكان ينقل إلى النبي كل ما يجري في مكة، وكل ما يزمع عليه مشركو مكة، ينقل له أول بأول كل الأخبار الدقيقة، فجاءت معركة بدر، فلو أن هذا الصحابي الجليل لم يخرج مع المشركين لكشف نفسه، وانتهت مهمته، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أبلغ أصحابه نبأ إسلامه لكشفه، وانتهت مهمته، لو بقي النبي ساكتاً لقتله أصحابه، لأنه عندهم مع المشركين، إذاً لا بد أن يقول النبي هذا الكلام المختصر المفيد، لا تقتلوا عمي العباس، أحدهم قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه، وينهانا عن قتل عمه، أساء الظن برسول الله، هؤلاء الأنبياء أيها الأخوة قمم البشر، أن يكون هناك بعد عن أن ينحازوا لأقربائهم، كما بين الأرض والسماء، ثم كشف هذا الصحابي أن هذا العم الذي نهى عن قتله هو مسلم، وهو عين النبي في قريش، يقول هذا الصحابي: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

(فلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

المرء الذي لا يحتكم إلى الشرع ليس مؤمناً بنص هذه الآية، المرء الذي يحتكم إلى قانون وضعي لأنه يتوهم أنه يعطيه أكثر من حقه ليس مؤمناً.

المؤمن الحق هو من يقبل بأمر الله دون مناقشة :

قال تعالى:

(فلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88 - 89]

القلب السليم صاحبه سلم من شهوة لا ترضي الله، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، وسلم من الاحتكام لغير شرع الله.

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة المائدة: 44]

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

[سورة المائدة: 45]

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة المائدة: 47]

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: 36]

إذا كنت مؤمناً بهذا الخالق العظيم، مؤمناً بعلمه المطلق، حكمته المطلقة، عدله المطلق، وثبت لك أن هذا كلامه وأن هذا الشرح شرح نبيه، ثم تعترض، ثم تتريث، ثم تضع حكم الله على بساط البحث، ثم تضع حكم الله تحت المناقشة والتصويب، فهذا الذي يفعل هذا ليس مؤمناً ورب الكعبة.

إن لم نقبل حكم الله فلسنا مؤمنين :

كنت مرة في بلد بعيد غربي في مؤتمر إسلامي، قام بعض الخطباء وقالوا: نحن هنا كل شيء قابل للبحث، ليس عندنا شيء مقدس، وكل شيء قابل للرفض، هذا في مجتمع العولمة، في مجتمع الكفر، أما نحن بوصفنا مسلمين نؤمن بإله عظيم، أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى، نؤمن بكلامه القديم، نؤمن برسالة نبيه العظيم، فإذا ثبت لدينا من خلال آية قرآنية أو من خلال حديث شريف صحيح أن هذا هو حكم الله، وترددنا في قبوله، أو وضعناه على بساط البحث أو وضعناه على محك التجربة فنحن لسنا مؤمنين:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

إن لم نقبل حكم الله فلسنا مؤمنين، لا يكفي:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

وبعد أن يحكموك:

(ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ)

أي يرتاحون لهذا الحكم، ثم:

(وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

ينصاعون لهذا الحكم.

الذي ينكر حديثاً صحيحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر :

ينبغي أن تحتكم إلى رسول الله، وينبغي أن ترضى بحكم رسول الله، وينبغي أن تنفذ حكم رسول الله، هذا في حياته، فما معنى الآية؟ بعد مماته صلى الله عليه وسلم، سنته بيننا، أحكامه بيننا، جمعها العلماء، وبوبوها، وصنفوها، فسنة النبي بين أيدينا متواترة، لذلك بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام الاحتكام إلى سنته، أو الاحتكام إلى ما صح من سنته، لأن القرآن الكريم قطعي الثبوت، بينما سنة النبي ظنية الثبوت، فيها الصحيح، وفيها الحسن، وفيها الضعيف، وفيها الموضوع.

((فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة]

((مَنْ رَوَى عَنِّي حَدِيثاً وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ))

[رواه ابن ماجه وأحمد في مسنده عن المغيرة بن شعبة]

كلما ذكرت القرآن أكتفي بكلمة القرآن، لأنه قطعي الثبوت، أما إذا ذكرت كلمة السنة ينبغي أن أتبعها بكلمة الصحيحة، والذي ينكر حديثاً صحيحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر ـ كما قال العلماء ـ كفراً دون كفر.

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

من أحكام الفقه مثلاً أن الشريك المضارب على الربح والخسارة، كم من إنسان يضع أمواله في مؤسسة، في شركة، وهذه المؤسسة أو تلك الشركة لم تقصر، ولم تعدِ، وتحقق خسارة، هذا الذي يرفض أن يدفع الخسارة هو يعترض على حكم الله عز وجل، ما الفرق بين المضاربة وبين إيداع المال في البنك؟ ما الفرق بين المضاربة وبين استثمار المال ربوياً؟ هو أن في الاستثمار الربوي نسبة ثابتة رابحة دائماً، بينما في المضاربة ربح وخسارة، فما لم يكن الشريك المضارب الذي يعمل بجهده، ما لم يكن معتدياً، وما لم يكن مقصراً، وما لم يكن مخالفاً لتعليمات صاحب المال، وتحققت خسارة، هذا الخسارة يتحملها صاحب المال، لأن صاحب الجهد خسر جهده، وأصبح الذي أنفقه ديناً

عليه، هذا هو حكم الله عز وجل، فكم من مسلم يضع ماله ليستثمره بالطريقة الشرعية بطريق المضاربة، ويقبل الخسارة؟! لا يقبل الخسارة، بل لا يقبل نسباً ضئيلةً من الربح، مهما تكن الظروف قاسية، فهذا الذي يرفض أن يخسر، ويرفض أن يساهم في الخسارة هذا رفض حكم الله عز وجل.

أمثلة كثيرة عن رفض المسلمين لأحكام الله عز وجل :

أمثلة كثيرة جداً أيها الأخوة، هذا الذي يرفض أن يعطي بناته حصصهم من الإرث، فيكتب كل أملاكه للذكور، متوهماً أن الإناث إذا ورثوا من أبيهم ينتقل هذا المال إلى أزواجهن، هذا إنسان يرفض حكم الله عز وجل، لو ذهبت لأضرب الأمثلة على أن المسلمين يرفضون حكم الله عز وجل لوجدت الأمثلة لا تعد ولا تحصى، وهذه الآية قاسمة أيها الأخوة:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

الآن التحكيم إلى سنة النبي، إذا التجأت إلى عالم بالذكر، ألم يقل الله عز وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء: 7]

إذا التجأت إلى عالم بالذكر بالقرآن والسنة، وحكم لك حكماً وفق القرآن والسنة، أعطاك الدليل من القرآن والسنة، ورفضت الحكم أنت عندئذٍ رفضت حكم الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أيها الأخوة، لو ذهبت لأضرب الأمثلة على حكم الله هي أمثلة كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى، لذلك ينبغي أن توقن أن الله حينما يتخلى عن المسلمين قضاياهم المصيرية، لا لأسباب بسيطة بل لأسباب كبيرة، ينبغي أن تحتكم إلى الشريعة السمحاء، ينبغي أن تقبل هذا الحكم نفسياً لا بلسانك، ينبغي أن تنصاع لهذا الحكم سلوكياً، أن تحتكم، ثم أن تقبل نفسياً لا لفظياً، ثم أن تنصاع لتنفيذ هذا الحكم، لو أن إنسان يسكن في بيت ليس له، والقانون معه سابقاً والشرع ليس معه، وعنده إمكان أن يشتري بيت، وأن يعطي البيت لصاحبه، ويرفض اعتماداً على مادة قانونية تحميه، هذا حاله كحال الذي رفض حكم الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

الخلطاء هم الشركاء والأزواج والجيران :

الأهل الذين يصرون على أن يجعلوا الاحتفالات، احتفالات الأفراح وفق النمط الغربي وهم مسلمون، وكتبوا على بطاقات الدعوة:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

وهم من رواد المساجد، لكنهم يصرون على أن يكون الاحتفال على النمط الغربي، فيه اختلاط، ولا بد أن يجلس الزوج أمام كل المدعوات، وهن كاسيات عاريات:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

لو انتقلنا إلى كلمة: لا يؤمنون، يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة ص: 24]

الخلطاء من هم؟ الشركاء، الأزواج، الجيران:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة ص: 24]

الأقوى يأخذ ما عند الأضعف، والأغنى يستغل الأفقر.

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

[سورة ص: 24]

الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً :

استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أن الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً، كم دعوة في قصر العدل؟ بعشرات الألوف، في كل غرفة من غرف محكمة النقد دعاوى بعشرات الألوف، وفي معظمها دعاوى كيدية فيها افتراء وظلم:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أكثر هذه القضايا تبدو واضحة في قضايا الإرث، هناك رغبة أن نحرم أناساً، وأن نعطي أناساً، نأبى أن نوزع الإرث وفق منهج الله، وفق أحكام الإرث، هذا يندرج تحت الرفض، هذا الذي يرفض أن يكون الحفل وفق المنهج الإلهي، ويرفض حكم الله، هذا الذي يرفض أن تتحجب المرأة، أسر إسلامية تصلي في المساجد، ويرفضون الحجاب، والحجاب حق، والحجاب شرع، والحجاب حكم الله عز وجل:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

أنا لا أتحدث عن الشاردين إطلاقاً أتحدث عن رواد المساجد، لو دخلت إلى بيوت رواد المساجد لا تجد حكم الله مقبولاً عندهم، كم من أسرة تقبل أن تقيم وليمة فيها فصل بين النساء والرجال، كم؟ لا يقبلون، يرفضون أشد الرفض أن يكون الرجال في مكان، والنساء في مكان، بدعوى أن هذا تفريقاً للأسرة، هو رفض لحكم الله عز وجل، كم من أسرة ترفض من ابنها أن يبتعد عن قريباته الأجنبيات عنه، يعدونه جفاء.

من أبسط علامات الإيمان أن تحتكم إلى شرع الله وترضى به وتطبقه :

والله قبل يومين جاءني سؤال، هذه المرأة تحضر حفلاً في مكان عام حريصة على حجابها، قال من حولها لها، وهن ملتزمات فيما يدعين: إن لم تخلعي عنك المعطف وغطاء الرأس فهذا جفاء لصاحبة الدعوى، هكذا، أسر إسلامية ملتزمة، يرتادون المساجد، يرفضون حكم الله عز وجل، يرفضون حكم الله في الحجاب، يرفضون حكم الله في الاختلاط، يرفضون حكم الله في عمل المرأة، يرفضون حكم الله في التجارة، يرفضون حكم الله في البيع، يرفضون حكم الله في الإرث.

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور: 15]

أما حينما يصلون لا يرفضون الصلاة، لأنها لا تغير من حياتهم شيئاً، يصلون، ويصومون، ويحجون، ويعتمرون، ويزكون، هذا شيء مقدور عليه، أما أن يعيشوا حياةً إسلامية، أن يعيشوا وفق منهج الله، أن تكون علاقاتهم إسلامية، أن تكون أفراحهم إسلامية، أن تكون أحزانهم إسلامية لا هذا مرفوض:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

طبعاً الآية الآن معناها بالنسبة إلينا الاحتكام إلى سنة رسول الله.

أيها الأخوة الكرام، الاحتكام إلى سنة رسول الله أي أن تلجأ إلى الشريعة، لكن هناك أناس كثيرون يلجؤون إلى الشريعة لا تعظيماً للشريعة، ولا تحكيماً لشرع الله، ولكن يلجؤون إلى الشريعة حينما يتأكدون أن حقهم لن يصلوا إليه عن طريق القانون عندها يلجؤون إلى الشريعة، هم أنفسهم لو تيقنوا أن حقهم يأخذونه من خلال القانون ما لجؤوا إلى العلماء، ولا إلى الشريعة، إذاً من أبسط علامات الإيمان أن تحتكم إلى شرع الله، ومن أبسط علامات الإيمان أن ترضى بحكم الله، ومن أبسط علامات الإيمان أن تسارع إلى تطبيق حكم الله.

الفرق بين القتل وبين الموت :

أولاً: الاحتكام. ثانياً: الراحة النفسية. ثالثاً: الانصياع للحكم.

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، القتل هو موت قسري، مصباح الكهرباء قد تطفئ المفتاح فينطفئ المصباح، أنت ماذا فعلت؟ عطلت النور، كيف عطلت النور؟ بقطع الكهرباء، هذا هو الموت، حينما تسحب الروح من جسم الإنسان، يسحب إمداد الله لهذا الإنسان، يموت الإنسان، أما حينما تكسر هذا المصباح ينطفئ، الكهرباء تصل إليه، لكن هذا المصباح الذي هو غلاف للكهرباء لم يعد صالحاً لقبول هذه القوة المحركة، فالموت تعطل هذه القوة التي تمد هذا الجسم، لكن القتل تخريب للجسم حيث لا يغدو صالحاً للروح، هذا هو الفرق بين القتل وبين الموت.

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

[سورة آل عمران: 144]

الموت سحب القوة المحركة من جسم الإنسان، أما القتل فهو تخريب الجسم، حيث لا يصلح لبقاء الروح فيه.

الأمم التي قبلنا حُملت حكماً صعباً لحكمة أرادها الله سبحانه :

يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

أي القتل هدم قسري، وإخراج الإنسان من دياره إخراج قسري، وبينهما اتصال، والأمم التي قبلنا حُملت حكماً صعباً لحكمة أرادها، لذلك جاء في أدعية القرآن الكريم:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

[سورة البقرة: 286]

الله عز وجل كتب على بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، لا يتوب الله عليهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، الحمد لله الذي يسر لنا طريق التوبة من دون قتل النفس، وقد حمد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ربه على أن هذا الحكم لا يطبق في شريعتنا:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

مهما بدا الحكم الشرعي قاسياً فهو طريق إلى سعادة أبدية :

أنت حينما ترى الدنيا فقط، ترى فقد الحياة أكبر مصيبة، أما حينما تؤمن بالآخرة إيماناً يقينياً ترى أن هذه الحياة لا شيء أمام الآخرة، وكنت أقول دائماً: لو أن واحداً في الأرض وأصفاراً إلى الشمس، وبين الأرض والشمس 156 مليون كم، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم العملاق واحد في الأرض وأصفار 156 مليون كم، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم لو وضع صورة لكسر مخرجه لا نهاية فقيمته صفر، فالإنسان حينما يرى الدنيا فقط تكبر عليه مصائبها، أما حينما يرى الآخرة تهون عليه مصائبها:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً* وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

أيها الأخوة، مهما بدا لك الحكم الشرعي قاسياً إنه طريق إلى سعادة أبدية، طريق إلى جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، طريق إلى سعادة لا تنتهي، مهما بدا لك الحكم الشرعي صعباً، مهما بدا لك الحكم الشرعي قاسياً، قطع اليد حكم شرعي، ولكن قطع يد واحدة أفضل ألف مرة من أن ترتكب كل ثلاثين ثانية جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، في الدول المتقدمة مادياً، في دول الترف والبذخ وحرية الإنسان والتفلت الأخلاقي في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، لكن في بلاد تطبق فيها الشريعة الإسلامية لا يحتاجون إلى قطع أكثر من يد أو يدين طوال العام هذا حكم الله عز وجل، مهما بدا قاسياً ينبغي أن تستوعب أن الذي أصدره هو خالق البشر، هو الحكيم، قال تعالى:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

بعض الأمثلة عن ثمار تطبيق حكم الله عز وجل :

لأن البشر تساهلوا في أحكام السرقة والزنى، أكبر مشكلات العالم اليوم السرقة والزنى، أكبر مشكلات العالم حتى في البلاد الإسلامية السرقة والزنى، وهما جريمتان في الشريعة الإسلامية عليهما حدود قاسية جداً، وإلى حين بلاد تطبق الشرعية الإسلامية يمكن أن تنقل رواتب محافظة بأكملها بعيدة عن العاصمة ألفين كيلومتر، تنقل بشاحنات عادية ولا يجرؤ أحد أن يسرق هذه السيارة، بينما في بلاد الغرب مركبات مصفحة مع تسليح، مع هيلكوبتر، مع مرافقة عالية جداً، حينما تنقل الأموال من مكان إلى مكان هذا حكم الله عز وجل، إلى مسافة قريبة في مواسم الحج الذي يبيع العمولات في صندوق خشبي بالملايين، يحين وقت الصلاة يضع عليه قماشة، ويذهب إلى المسجد، هذا نراه رأي العين نحن، هذا من ثمار تطبيق حكم الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات فيها معنى دقيق جداً، فلو أن حكم الله يقتضي أن نقتل أنفسنا، والحقيقة أن أكبر مصيبة على الإطلاق قتل النفس، فإذا نفذنا حكم الله لكان خيراً لهذا الذي نفذ الحكم وأشد تثبيتاً:

(وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

لو قسمت المصائب في الدنيا، إنسان فقير، إنسان مريض، إنسان عنده مشكلة، إنسان في السجن، تقع على قمة هذه المصائب أن تنتهي حياته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

الموت مصيبة كبيرة، انتهت الحياة، انتهى الاستغفار، انتهى العمل الصالح، انتهت التوبة، لو أن حكم الله كما كان في بني إسرائيل، لو أن حكم الله هو القتل، أن يقتل الإنسان نفسه:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

لو أن حكم الله يقتضي قتل النفس، وإنهاء الحياة، ونفذ هذا الحكم برضى لكان العطاء الإلهي بعد هذا القتل جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكيف إذا كان الحكم أن تصلي فقط، وأن تكون صادقاً، وأميناً، وعفيفاً، وطاهراً، صائماً، مصلياً، منفذاً لأمر الله عز وجل.

المؤمنون ليسوا مكلفين إلا بطاعة الله ورسوله :

أعطاك الله عز وجل حكماً ليس في شريعتنا، أعطاك حكماً يحمِّل الإنسان ما لا يطيق، بدليل قول الله عز وجل:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

[سورة البقرة: 286]

ومع ذلك لو نفذت هذا الحكم الذي لا طاقة لك به لهداك الله إلى صراط الجنة، إلى طريق الجنة، وإلى سعادة أبدية، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

(وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

أما أنتم أيها المؤمنون فلستم مكلفين إلا بطاعة الله ورسوله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)

كل التكاليف مقدور عليها، كل التكاليف ضمن وسع الإنسان، كل التكاليف بإمكان أي مسلم أن يطبقها.

شريعتنا سمحاء تأمرنا بطاعة الله في قرآنه وطاعة نبينا في سنته :

هذا الصحابي الجليل الذي عينه النبي قائداً ثالثاً في مؤتة، وقد أمسك الراية القائد الأول سيدنا زيد، فقاتل بها حتى قتل، وقد قال عليه الصلاة والسلام: وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية سيدنا جعفر فقطعت يده اليمنى، فأمسكها بيده اليسرى فقطعت يده اليسرى، فأمسكها بعضديه ثم قتل، قال: ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل وأن له جناحين يطير بهما في الجنة، ثم سكت النبي، سكت عن القائد الثالث عبد الله بن رواحه، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله ماذا فعل عبد الله، فسكت النبي بمقدر ما تردد عبد الله، عبد الله كان شاعراً قال:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهمـا رضيت   وإن توليت فقد شـــقيت

* * *

فقال: ثم أخذ الراية عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه. فالذي نُؤمر به أن نصلي، أن نصوم، أن نؤدي زكاة أموالنا، أن نحج بيت الله الحرام، أن نغض أبصارنا، أن نضبط لساننا، أن نكون أمناء وصادقين ليس غير، لذلك شريعتنا سمحاء:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ)

من يطع الله في قرآنه، ومن يطع الرسول في سنته:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

ومن أسباب نزول هذا الآية أن أحد أصحاب رسول الله الذين كانوا في خدمته، وكانوا فقراء، النبي عليه الصلاة والسلام سأله مرة: لمَ أنت حزين؟ قال: يا رسول الله أنا معك في الدنيا لكن في الآخرة أين أنا منك، أنت مع النبيين، فنزلت هذه الآية:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

العطاء الحقيقي :

قال تعالى:

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ)

هذا هو الفضل، أما الذي اشترى أرضاً بألف، ثم أصبح ثمنها عشرة ملايين، يظن أن هذا فضل كبير، لا بد من أن يموت ويتركها، الذي معه وكالة حصرية أرباحه اليوم بالملايين لا بد من أن

يموت ويتركها، تواضع الناس على قيم الدنيا، وعلى مكاسب الدنيا، وعلى أموال الدنيا، وعلى مباهج الدنيا، وعلى ملذات الدنيا، لكن الله يقول:

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ)

هذا هو العطاء الحقيقي، هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو الفوز.

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً)

إذاً هذه الآيات كلف بنو إسرائيل بأحكام لا طاقة لهم بها، ولكننا والحمد لله كُلفنا بأحكام نستطيعها، ضمن وسعنا وإمكاننا، قابلة للتطبيق، قابلة للتنفيذ، إذاً ملخص هذه الآيات:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تحدثنا عن علاقاتنا بالأعداء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

أولاً: هذا الذي توهم أن الدين خمس عبادات شعائرية لم يفقه من الدين شيئاً، الدين نظام متكامل، يبدأ من علاقتك بجسمك، ثم من علاقتك بأقرب الناس إليك، وينتهي بالعلاقات الدولية، وحين نفهم الدين أحوالاً شخصية، أو عبادات شعائرية فنحن أبعد ما نكون عن حقيقة هذا الدين، هذه الآية تحدثنا عن علاقاتنا بالأعداء، ما المشكلة الكبرى التي يعاني منها المسلمون؟ أن أعداءهم ظهروا فجأة بقوة لا تقابل، ما الموقف الذي يريده الله لنا؟ أن نكشف أعداءنا قبل أن يتمكنوا في الأرض، أن نأخذ حذرنا، كأن الله يقول: خذوا سلاحكم، تقول للحارس: خذ بندقيتك، تقول للفارس: خذ سيفك، والله عز وجل يقول للمؤمن: خذ حذرك، هذا الفهم الساذج لمن حولنا هذا فهم يتناقض مع حقيقة الإيمان، إلهك، ومربيك، وخالقك هو الخالق، لأنه خلق الإنسان مخيراً، منهم من اختار الدنيا، ومنهم من اختار الآخرة، منهم من اختار الحق، ومنهم من اختار الباطل، ومنهم من آثر شهوته، ومنهم من آثر مبدأه، لأن الله خلق الإنسان مخيراً بين طريق الخير والشر.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

البطولة أن تكشف الخطر قبل وقوعه وتتوقع عداوة الكافر قبل أن يُظهرها لك :

لأنه خالقنا، وهو الخبير بنا، يعلم الله أن البشر سيكون فريقين؛ فريق محق وفريق مبطل، فريق خيِّر وفريق شرير، فريق منضبط وفريق غير منضبط، فمعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، ولو تعايش الناس كما ترون فجأة نجد أن العالم كله يحارب المسلمين بكل ثقله، أين كنا قبل هذا التاريخ؟ لم نأخذ حذرنا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

البطولة أن تكشف الخطر قبل وقوعه، وتتوقع عداوة الكافر قبل أن يُظهر لك هذه العداوة، لذلك الله عز وجل في آية محكمة رائعة يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

الله المخاطِب ونحن المخاطَبون، والطرف الثالث من هم؟ أعداء المسلمين:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

ينبغي أن تستنفذ الاستطاعة.

(مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

كل أنواع القوى، القوة جاءت نكرة، ينبغي أن تعد لأعدائك كل قوة متاحة لك، المال قوة أن تكون غنياً مكتفياً تستخرج ثرواتك، عندك المواد الأولية هذه قوة، التنظيم قوة، رفع مستوى الإنسان قوة، بين أن ترى كماً كبيراً جاهلاً هو عبء عليك ينبغي أن تطعمه، وبين أن يكون الإنسان في حساب الأرباح، بلد في آسيا مجموع أرباحه من برمجيات الكومبيوتر ثلاثة وثمانين مليار! لا يحتاج لمواد أولية، ولا لبترول، ولا لشيء، ولا لمناجم حديد، ولا مناجم نحاس، برمجيات، فالكم البشري إن لم يكن يحمل كفاءات عالية يصبح عبئاً في قائمة الخسائر، أما الكم البشري حينما يكون متنوراً ويكون عنده كفاءات عالية يدرج في حسابات الأرباح.

ينبغي أن نعد لأعدائنا كل أنواع القوة :

يجب أن تتوقع الشر قبل أن يقع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

المال قوة، التنظيم قوة، رفع مستوى إنسان في كفاءته قوة، المعلومات قوة، استخدام الوسائل الحديثة قوة.

(مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

(من) تفيد استغراق أفراد النوع، كل أنواع القوة ينبغي أن نعدها لأعدائنا، كل قوتك في الاتصالات، عندهم قنابل يلغون الاتصالات كلياً، كيف يأمرون الجيش؟ لا يستطيعون، أذكر لكم مما تفتقت عنه عقول البشر من أساليب قهر الناس، والمسلمون في غفلة، الآن يبحثون عن قنابل نووية لا تقتل إلا البشر، ليتسلموا المدن كما هي ببيوتها، وفرشها، وأجهزتها، ومبانيها، وجسورها، هم يقظون من مئات السنين، فحينما سنحت لهم الفرصة ظهروا كالوحوش يريدون الثروات، وكل ما يقال خلاف ذلك، لا تعبؤوا به، يريدون أن يتربعوا على منابع النفط بقوتهم، والله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

هم أعدوا لنا، ولم نعد لهم، لذلك يقول بعض الحكماء: ويل لأمة تأكل ما لا تزرع، وويل لأمة تلبس ما لا تنسج، وأنا أضيف: وويل لأمة تستخدم أجهزة لم تصنعها. نحن بحاجة إلى طائرة تعمير محركها خمسة ملايين دولار، وكل طائرة فيها أربع محركات، عشرون مليون دولار، كم طن قمح؟ وكم طن قطن؟ يأخذون موادك الأولية بأبخس الأثمان، ويبيعونك منجزاتهم الحضارية بأعلى الأثمان، فنحن فقراء وهم أغنياء.

أمثلة عن بعض ما أعده لنا أعداؤنا :

سيدنا عمر حينما كان يجوب بلدة فوجد أن كل الفعاليات الاقتصادية بيد غير المسلمين، فعنفهم تعنيفاً شديداً، وقال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟

سيدنا عمر قبل ألف وأربعمئة عام أدرك أن المنتج قوي والمستهلك ضعيف، أنا لا أتكلم في أمور بعيدة عن هذه الآية، لكن الله عز وجل يقول:

(خُذُوا حِذْرَكُمْ)

في آية ثانية:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

نحن في تاريخنا الحديث الدول التي لم تعتن بجيش قوي ماذا حل بها؟ حل بها اجتياح، وحل بها الدمار، والسلاح أحياناً له مهمة كبيرة من دون أن تستخدمه.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

قوة مطلقة، اطلعت على مجلة فيها موضوع علمي، كيف تصور الآلات من الفضاء الخارجي؟ الأرض كلها مأخوذة من القمر، الصورة المعروفة على الأرض مربع صغير قطره ميلي، هذا المربع في الصفحة الثانية مكبر، فإذا هو معظم أمريكا! على الصورة الثانية مربع صغير قطر ضلعه ميلي مكبر، في الصورة الثالثة أمريكا الشمالية على هذه الصورة مربع صغير قطره ميلي مكبر، في الصورة الرابعة فلوريدا، على هذه الصورة مربع صغير مكبر في الصورة الخامسة ساحل من سواحل فلوريدا، في هذه الصورة مربع صغير قطره ميلي مكبر في الصورة السادسة ميناء من موانئ فلوريدا، عليه مربع صغير مكبر في الصفحة التي تليها إذا هو إنسان مستلق على الأرض يقرأ قصة يمكن أن تقرأ عنوان القصة! وإلى جانبه صحن فيه تفاح، وعلى يده ساعة، هذه من أين؟ من القمر.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

هم أعدوا لنا هذه الأقمار يكشفون حركات الأرض دون أن نشعر.

المعركة الآن معركة بقاء أو فناء :

أنا أقول أيها الأخوة: لأن المعركة الآن معركة بقاء أو فناء، الآن الأمر لا يحتمل أن نقول كلام لا معنى له، هذا قرآن.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أنت ما دورك؟ أنت كطالب حينما تتقن دراستك تعد لهم القوة، وأنت كتاجر حينما تحكم عملك، وتأتي بالبضاعة من أرخص المصادر، وتبيعها للناس بسعر معتدل تكون قد ساهمت في بناء صرح هذه الأمة الإسلامية، وأنت كصانع حينما تجلب مصنعاً نستغني به عن أن نستورد تكون قد وضعت لبنة في صرح هذه الأمة، كل إنسان منا له موقع، أنت كطبيب حينما تتقن عملك تغني المرضى عن أن يذهبوا إلى أطراف الدنيا يدفعوا ملايين، حينما يأتي طبيب بأعلى مستوى من بلد غربي، ويكون في دمشق نكون فقد وفرنا على المريض ملايين، فكل واحد منا بشكل أو بآخر من عمله، من دراسته، وطبه، وهندسته، وتجارته يمكن أن يعد لما سيكون في المستقبل من عدوان.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

القوة مطلقة، الاتصالات، والمعلومات، والأقمار، والطيران قوة، مهما تملك دولة من جيش قوي إن لم يكن لها سلاح طيران يحمي سماءها فهي مكشوفة، وتسمعون عن الحروب التي سمعتم أخبارها، السلاح الأول هو سلاح الطيران، يقصف شهر لا يبقي شيء لا من البنية الفوقية، ولا من البنية التحتية، يدمر كل شيء، كالكهرباء، والهاتف، والاتصالات، ومصافي النفط، كل شيء يدمر، انتهت.

ينبغي أن تكتشف مواطن قوة العدو قبل أن تظهر علانية :

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

ينبغي أن تكشف الخطر قبل وقوعه، وتعرف خطط العدو قبل أن تفاجئك، وينبغي أن تكتشف مواطن قوة العدو قبل أن تظهر علانية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

لئلا يقع التباس في فهم القوة قال:

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كانت القوة رباط الخيل، وقد يأتي بعد عهد النبي عهد تكون القوة سلاح المنجنيق، ويأتي بعد سلاح المنجنيق المدرعات، وقد تأتي الطائرات والقنابل، فالقوة

واسعة، جاءت نكرة ليكون التنكير شمولياً، وجاءت (من) كي تؤكد شمول كل أفراد النوع، أحياناً الإعلام قوة، والمعنويات قوة، قد تستمع لخبر صادق فترتفع معنوياتك، وتستمع لخبر كاذب فتنهار معنوياتك، فالإعلام قوة، وهو الآن أكبر سلاح.

الله تعالى رحمة بنا لم يطالبنا أن نعد القوة المكافئة بل أراد أن نعد القوة المتاحة :

قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هذا سماه علماء التفسير عطف الخاص على العام.

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ)

حدثني أخ كريم جاء من بلاد في شرق آسيا قال لي: في هذا البلد نحن تسعون مليون مسلم مضطهد، في بلد إسلامي في شرق آسيا فجرت قنبلة نووية، أقسم لي بعد تفجير هذه القنبلة اختلفت معاملة المسلمين في بلده مئة وثمانين درجة، أحياناً السلاح لا تحتاج أن تستعمله، لكن وجوده له أثر، والآية واضحة:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فيها ملمح رائع، ينبغي أن يكون عدوك عدواً لله، أما إذا كان عدوك ولياً لله فهذه مشكلة كبيرة جداً، فهذه الآية أصل في هذا الموضوع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

وأضيف على هذا الإعداد أن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا لم يطالبنا أن نعد القوة المكافئة، بل أراد أن نعد القوة المتاحة.

(مَا اسْتَطَعْتُمْ)

وعلى الله الباقي.

العدو إذا قوي قوة عالية يرهب ضعاف المؤمنين أما الموحدون فلا يخافون إلا الله :

كنت أقول دائماً أيها الأخوة، أن العدو إذا قوي قوة عالية يرهب ضعاف المؤمنين أما الموحدون فلا يخافون إلا من الله.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ)

[سورة آل عمران:173]

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ

مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبي داود عَنْ ثَوْبَانَ]

هذا الحديث يروى في المساجد من عشرات السنين من مئة سنة، لكن لا يتضح معناه إلا في هذه الأيام:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

ولو درست سيرة النبي عليه الصلاة والسلام كانت قيادته في أعلى مستوى، كان يرسل السرايا ليجس نبض الطرف الآخر، ويرهبهم أحياناً، أما إنسان يعيش غافلاً اتكالياً يفاجئ أنه خرق، وأنه اكتسح، وأن ممتلكاته ذهبت، وقدرته خابت.

كل حالة تعالج بمقتضاها وكل عدوان يعالج بما يكافئه :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

معنى كلمة ثبات جمع ثبة، طائفة صغيرة، فلو أن مناوشة من جهة محدودة كافرة ينبغي أن يرسل إليها سرية محدودة، أما إذا كان الخطر داهماً فينبغي أن ننفر جميعاً، كل حالة تعالج بمقتضاها، وكل عدوان يعالج بما يكافئه، فإذا كان العدوان محدوداً سيرنا له قوة محدودة تغطي عدوانه، أما إذا كان العدوان شمولياً فلا بد من أن ننفر جميعاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً*وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ)

إلهنا، ربنا، بعض الناس ضعاف يخاف، يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

[سورة آل عمران:173-174]

كل واحد منا يستطيع أن يعد للأعداء ما يستطيع من قوة :

لم تمرّ على هذه الأمة محن كالتي تمر بها الآن، اجتياح مغولي، واجتياح فرنجى من الغرب، هكذا سنة الله في خلقه، نحن في دار ابتلاء، إن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

قد يقول أحدكم: ما علاقتي بهذه الآية؟ أقول: لك علاقة وطيدة، هل منا مَن ليس له دور اجتماعي؟ مستحيل! طالب، مدرس، معلم، أستاذ جامعة، مهندس، طبيب، تاجر، موظف، ألا تستطيع أن تتقن عملك؟ ألا تستطيع أن تخدم المسلمين، وتخفف عنهم، وتيسر لهم أعمالهم، أن تكون في خدمتهم، وتبيعهم حاجات جيدة بثمن معتدل، كل واحد منا يستطيع أن يعد للأعداء ما يستطيع من قوة.

في محاضرة ألقيتها في بعض المحافظات، جاءني طفل عقب المحاضرة، صدقوا، لا يزيد عمره عن ست سنوات، قال لي: ماذا أفعل يا أستاذ أنا لا أحتمل سماع الأخبار! طفل! همّ المسلمين ضغط على طفولته! ماذا أفعل؟ قلت له: أتقن دراستك، إن أتقنت دراستك، وكنت الأول تكون قد أعدت للعدو العدة التي أمرك الله بها، فنحن حينما نتفوق في اختصاصاتنا وأعمالنا نعد لعدونا .

أقول لكم هذه الكلمة أيها الأخوة: والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن لهؤلاء الأقوياء أن يحترموا ديننا إذا كنا ضعفاء، ولم نكن متفوقين في أعمالنا، أن تكون قوياً ومتفوقاً.

حينما نعتز بالله ونعظم أمره ونبني حياتنا على منهجه يقوينا ويرفع شأننا :

أنا مضطر أن أسرد لكم تجربة: ذهبت إلى بلد إسلامي في شرق آسيا، علمت أن هذا البلد لا يزيد عن ثلاث وعشرين مليوناً، وأنهم كانوا في الغابات قبل خمسة وعشرين عاماً، ويصدرون للعالم ما يفوق صادرات العالم العربي مجتمعاً بما فيه النفط، وأنهم في العام الماضي عندهم فائض نقدي يزيد عن ستين مليار دولار! وأن نظامهم في المصارف نظام إسلامي، والبطاقات المالية المشهورة في العالم بطاقات إسلامية لا ربا فيها، وأن تأمينهم تأمين إسلامي، وتعليمهم تعليم إسلامي، والحجاب إلزامي، وأن ثمنَ الصحن الفضائي ما يقترب من مليون ليرة، حفاظاً على أخلاق أولادهم، وقد جاءهم رجل كبير جداً من أقوى دولة ليتدخل في شؤونهم، فقالت له وزيرة: ضع حذاءك في فمك، ولا تنطق إلا بما يعنيك! يعيشون معنا، ونعيش معهم، فحينما نعتز بالله، ونعظم أمر الله، ونبني حياتنا على منهج الله يقوينا الله عز وجل، ويرفع شأننا.

أيها الأخوة، لا أتكلم عن شيء لا يعنيكم، بل أتكلم عن كل واحد منا بإمكانه أن يتقن عمله، ويكون إتقان عمله ونفعه للمسلمين مساهمة منه في قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والله أيها الأخوة، الطرف الآخر يبيعنا أحياناً تجهيزات وبقدرة قادر تصاب بالخلل، ويكلف إصلاحها مئات الملايين!

التقيت شاباً أمكنه الله من فك هذه الألغاز، وإصلاح هذه الآلات من مئات الملايين إلى عشرات الألوف يأخذ أجراً، كمثل هذا الشاب ألا يسهم في تقوية الأمة؟ وفي توفير أموالها التي كانت تذهب هدراً للطرف الآخر؟ فكل واحد منا إذا أتقن صنعته ودراسته نفع المسلمين، وخفف عنهم، وحل مشكلاتهم، ويسر عليهم أمورهم، ويكون قد ساهم في تقوية هذه الأمة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً*وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ)

قصة تؤكد أن العاقل من يحتاط للأمر قبل وقوعه :

أضطر أن أروي قصة ذكرتها قبل ذلك كثيراً: أن غديراً فيه سمكات ثلاث؛ كيسة، وأكيس منها، وعاجزة، أي ذكية جداً، وذكاء متوسط، وغباء، مر بهذا الغدير صيادان تواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت، وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم لم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت! هذا أعلى مستوى في العقل، أخذت حذرها، وتصرفت في الوقت المناسب، ونجت، واستراحت، وأراحت، وأما الكيسة الأقل ذكاء فبقيت في مكانها متوانية حتى عاد الصيادان، الأولى توقعت الخطر، والثانية واجهت الخطر، العاقل جداً يأخذ حذره، ويتحرك قبل أن يقع الخطر، أما الأقل عقلاً فيواجه الخطر، وقالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت، وتصنعت الموت فطفت على وجه الماء، فأخذها الصياد، فوضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر، فنجت بعد أن تحطمت أعصابها، ونجت بقدرة قادر، نجت، واحتمال أن تهلك قائم، وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت، هذا قليل الحيلة لا يفعل شيئاً، فقط يضرب كفاً بكف، ويشتكي همه للناس، ويسمع أخباراً فقط. فأعقل سمكة احتاطت للأمر قبل وقوعه، والأقل عقلاً احتاطت له عند وقوعه، والغبية لم تحتط له لا قبل وقوعه ولا بعده، بل واجهته بعجز واتكال.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً* وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً* وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

هذه الآيات إن شاء الله تشرح في درس قادم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(35-69): تفسير الآيات 71-76، نماذج بشرية أشار إليها القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-10-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان خليفة الله في أرضه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والسبعين، والتي تليها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

الله جل جلاله جعلنا خلفاء في الأرض، قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة: 30]

أوكل إلى المؤمن عمارة الأرض، وأوكل إلى المؤمن إحقاق الحق، ومحاربة الباطل، وإقامة العدل، هذا معنى أن الإنسان خليفة الله في أرضه.

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة: 30]

من لوازم خليفة الله في أرضه أن يكون حذراً لأن الإنسان مخير، وقد أودعت فيه الشهوات، فبعض الناس سوف يتحركون وفق منهج الله، وهم أهل الحق، وبعض الناس سوف يتحركون من دون منهج الله عز وجل وفق أهوائهم وشهواتهم، ولا بد من أن تنشأ بين الفريقين معركة من آدم إلى يوم القيامة، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وكل الصراعات التي تسمعون عنها الآن تندرج تحت هذه المعركة معركة الحق والباطل.

نموذج من النماذج البشرية التي أشار إليها القرآن الكريم :

المؤمن ينبغي أن يأخذ حذره ويكتشف الخطر قبل أن يظهر، ويكتشف العداوة قبل أن تُعلم، وينبغي أن يكتشف عدوه قبل أن يكون أمامه صارخاً، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

معنى كلمة ثبات جمع ثبة، وهي الطائفة الصغيرة، فلو أن مناوشة من جهة محدودة كافرة ينبغي أن يرسل إليها سرية محدودة، أما إذا كان الخطر داهماً ينبغي أن ننفر جميعاً، كل حالة تعالج

بمقتضاها، وكل عدوان يعالج بما يكافئه فإذا كان العدوان محدوداً سيرنا له قوة محدودة تغطي عدوانه، أما إذا كان العدوان شمولياً فلا بد من أن ننفر جميعاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

الآن هناك نموذج بشري، وهذا في كل مكان وزمان، والحقيقة الصارخة أن في القرآن الكريم نماذج بشرية، وإذا قرأ الإنسان في هذه الآيات يجد نموذجاً يعيشه الناس، قال تعالى:

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ)

ما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

[سورة التوبة: 38]

ملتم إلى الراحة والقعود، هذا النموذج أميل إلى الراحة، لا يبذل شيئاً، يتابع كل الأخبار، ويصنف كل الناس، ويوزع التهم والاستحسانات للناس، أما هو فلا يتحرك، مؤمن سكوني طوبائي، طوبى لفلان، طوبى لفلان، أما هو فلا يفعل شيئاً، هذا النموذج نموذج الإنسان الذي لا يعمل، ليس هنا في موضع المدح، بل هو في موضع الذم.

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

[سورة الفتح: 11]

لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة :

يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

حينما نتخلف عن رسول الله، وعن أصحابه الكرام، وينجو من مصيبة ألمت بالمؤمنين يرى نجاته من هذه المصيبة نعمة كبيرة، وحينما يُمتحن المؤمن فيبتلى بماله، أو بنفسه، أو بأولاده، أو بحريته، أو بدخله وقف موقفاً صحيحاً فخسر موقفه، أو خسر من يعينه، فلما يكون الإنسان مبدئياً قد يدفع الثمن باهظاً، فهذا الإنسان النموذج إذا تخلف عن رسول الله وأصحابه، وأصاب النبي وأصحابه مصيبة يرى نجاته من هذه المصيبة نعمة، وأية نعمة! نعمة كبيرة، لكن لا يستوي عند الله من نجا من مصيبة، لأنه تخاذل، وقعد عن نصرة الحق، لا يستوي مع من بذل وقته وجهده وماله وحياته ودفع حياته ثمناً لجهاده، فلا يعقل أن يستوي هذا مع هذا، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص:61]

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

من سنة الله في خلقه أن يُبتلى المؤمن :

لو أن إنساناً في بلاد عديدة لزم درس علم، وعملاً صالحاً، ودعوة، فابتلاه الله بشيء من ابتلائه الذي يرفع به الله درجات المؤمن، الذي لم يعمل، ولم يبذل، ولم يبتلى يشمت به، ألم أقل لك: هذا عمل فيه مخاطر؟ كيف يرقى الإنسان إلى الله عز وجل حينما يسأل الله سلامته دائماً؟ حتى إنه ورد في بعض الآثار أن هذا الذي ينجو من كل مصيبة، ولا يقع في ورطة سمي العفريت النفريت، بل إن بعض الصحابيات الجليلات رأت زوجها لم يُبتلَ أبداً، فذهبت تشكوه لرسول الله، وفي الطريق وقع فتعثر، فقالت: ارجع لقد حلت المشكلة، الإمام الشافعي سئل: أندعو الله بالتمكين؟ قال: لن تمكن قبل أن تبتلى! من سنة الله في خلقه أن يبتلى المؤمن. الخطاب موجه للمؤمنين:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

أخواننا الكرام، تماماً الوضع كطبيب جاءته حالة مرضية، ورم خبيث منتشر في كل الأمعاء والأحشاء، هذا المريض سأل الطبيب: ماذا آكل؟ قال: كُلْ كُلَّ شيء، لا شيء عليك محظور إطلاقاً، أما المريض الثاني فمعه التهاب حاد في المعدة، والحمية وحدها كافية لشفائه، فالطبيب يشدد على الثاني تشديداً غير معقول، لأنه قابل للشفاء، فحينما تكون في العناية المشددة، وتحاسب حساباً دقيقاً، ويسوق الله لك لكل غفلة، أو سهوة، أو كل انحراف، أو خطأ، أو مصيبة يردع الله بها، فاشكر الله عز وجل، لأنك في العناية المشددة، أما حينما يكون المرض عضالاً، ولا شفاء منه، ولا أمل في الخلاص منه تنطبق على المريض الثاني أن الطبيب يقول له: كُل ما شئت.

يسوق الله للمؤمن من المصائب ما يرقى به وينقيه من الآثام على عكس الكافر :

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

لذلك قد يتساءل الإنسان: إن هؤلاء غارقون في كل أنواع المعاصي والموبقات، الزنى، الشذوذ، زنى المحارم، الخمور، المخدرات، الإباحية، والظلم، والعدوان، ومع ذلك فهم أقوياء، وبلادهم جميلة جداً، وأموالهم غزيرة، وقوتهم كبيرة، وهم يولون إرادتهم على كل الشعوب، هناك آية في القرآن الكريم تنطبق على هؤلاء، قال تعالى.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

[سورة يونس: 24]

ظن أهلها أنهم يرصدون أي مكان في العالم بالأقمار الصناعية، وبإمكانهم أن يقصفوا أي مكان في العالم.

العبرة من يضحك آخراً :

قال تعالى:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً)

[سورة يونس: 24]

وقد يكون هذا الأمر عاماً لكل القارات، فجاء ليلاً أو نهاراً، ليلاً على أناس ونهاراً على أناس.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس: 24]

هذا نموذج مؤمن مبتلى، لأنه قابل للشفاء، مبتلى لأن الله سبحانه وتعالى وضعه في العناية المشددة، يسوق له من المصائب ما يرقى به، وينقيه من الآثام.

السيدة فاطمة سألها النبي عليه الصلاة والسلام: ما بك يا فاطمة؟ قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده لا تدع المؤمن وعليه من ذنب، فهذا النموذج يحب مصالحه، ولا يأبه لمبادئه، يعتني بمصالحه وشهواته، ولا يعبأ بقيمه ولا بمبادئه، فإذا نجا من مصيبة وقع بها المسلمون بسبب دعوتهم وجهادهم وغيرتهم وحبهم للعمل الصالح يشمت بهم، ويرى نجاته من هذه المصيبة نعمة كبيرة أنعم الله بها عليه.

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً)

هو نجا من هذه المصيبة لكنه لم ينج من عذاب النار، ولا ينجو من هلاك الآخرة، ونجا من الفقر، الذي ينافق لا يفتقر، والذي يضحي بمبادئه من أجل دنياه ربما لا يفتقر، فهذا الذي لا يفتقر، وينجو من بعض المتاعب التي يتحملها المؤمنون الصادقون يظن نفسه متفوقاً عليهم، ويظن أنه قد فاز في

حين أنهم قد وقعوا، هو الذي وقع وهم الذين فازوا، فالعبرة من يضحك آخراً، هناك من يضحك أولاً يبكي كثيراً، ومن بكى أولاً يضحك آخراً.

هناك نموذج تحركه مصالحه فهو لا يعبد إله المؤمنين ولا إله الكفار :

قال تعالى:

(فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً* وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ)

انتصرتم في المعركة، وحققتم العزة للمؤمنين، ونلتم مغانم كثيرة، يسيل لعابه لا على النصر بالحق بل على المغانم.

(لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

أرأيت إلى هذا النموذج تحركه مصالحه، فإن كانت مصالحه مع المؤمنين ادعى أنه مؤمن، لا من أجل الإيمان، بل من أجل مصالحه، وإذا كانت مصالحه مع الكفار انضم إليهم، فهو لا يعبد إله المؤمنين، ولا إله الكفار، ولكن يعبد ذاته، يعبد شهواته ومصالحه. يقول الله عز وجل:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان: 43]

أقصد بإله الكفار شهواتهم ومصالحهم.

(وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)

البطولة أن تكون جريئاً في مواجهة الحقيقة :

الله عز وجل يعطينا نماذج بشرية في هذا القرآن، لذلك بعض الصالحين قرأ القرآن ليرى نفسه أين هو؟ في أي نموذج، قرأ نماذج من الكفار فقال: لا، أنا لست من هؤلاء، قرأ نماذج من المؤمنين الصادقين أيضاً فقال: لا، أنا أيضاً لست من هؤلاء، قرأ من الذي يخطئ ويصيب وله عمل صالح وآخر سيئ فقال: أنا من هؤلاء، فأنت حينما تقرأ القرآن ينبغي أن تعلم أنت مع من؟ أي نموذج ينطبق عليك أنت وتنتمي إليه؟ فليكن الإنسان مع نفسه صادقاً وواقعياً وجريئاً في الحكم على نفسه، فهو بالعادة يمالئ على نفسه، ويحابيها، ويصفها بصفات ليست فيها، لكن البطولة أن تكون جريئاً في مواجهة الحقيقة. يقول الله عز وجل:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

ما دامت الآخرة ليست داخلة في حساباتنا فمشكلتنا كبيرة جداً، وما دامت الدنيا هي كل شيء، هي مبلغ علمنا، ومنتهى آمالنا، ومحط رحالنا، وميزاننا فلنا مشكلة كبيرة، لأن الدنيا تحتاج إلى مال، وقد تنزلق إلى كسب المال غير المشروع، والدنيا تحتاج إلى شهوات، وقد تقع في إرواء شهوات لا

ترضي الله عز وجل، لكن حينما تؤمن بالآخرة تضحي بالدنيا من أجل الآخرة، وقد يشاء الله أن يهبك الدنيا والآخرة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

بعضهم قال: جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، لكن جنة الدنيا للمؤمن هي جنة القرب، لقول بعض العلماء العاملين: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب، ويؤكد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: 6]

ذاقوا طعمها في الدنيا، إنما هي جنة القرب.

المؤمن باع نفسه في سبيل الله وهو راض عن أفعال الله :

قال تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

باع الدنيا من أجل الآخرة، (يشرون) بمعنى يبيعون، شرى بمعنى باع واشترى، بدليل قول الله عز وجل:

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

[سورة يوسف:20]

أي باعوه، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: 111]

أنت حينما تبيع بيتاً، وتقبض ثمنه بالتمام والكمال عداً ونقداً، والثمن مرتفع بعد أن بعت البيت، هل لك أن تسأل الذي اشتراه: لماذا دمجت الغرفتين ببعضهما؟ هو حر، اشترى منك البيت، ونقدك ثمنه، ثم يفعل بالبيت ما يشاء، هذا المعنى يريحنا، أنت حينما تبيع نفسك في سبيل الله، والله سبحانه وتعالى اشتراها منك، إذاً ينبغي أن تصبر، قد يجعل دخلك غير محدود وقد يجعل دخلك محدوداً، قد يهبك إناثاً فقط أو يهبك ذكوراً، أو يهبك إناثاً وذكوراً، أو يجعلك عقيماً، أنت بعت نفسك في سبيل الله، قد تكون غنياً أو فقيراً، قد تكون في مكانة مرموقة أو في مكانة قليلة، أنت بعت، فالمؤمن باع نفسه في سبيل الله، وهو راض عن أفعال الله، وراض عنه في السراء والضراء، في إقبال الدنيا وإدبارها، بايعنا رسول الله في المنشط والمكره.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

آيات قرآنية تبين أهمية الفرض الجهادي في الإسلام :

قال تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

هذه الفريضة التي غفل عنها المسلمون من أربعمئة عام يدفعون الآن ثمن هذا التفريط باهظاً، وما ترون وما تسمعون هو نتيجة تعطيل هذا الفرض الجهادي في الإسلام.

(وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

[سورة التوبة: 52]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 12]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

هذه وعود الله للمؤمنين، وزوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين.

لا يحل مشكلات المسلمين اليوم إلا أن نعدَّ لأعدائنا ما أمرنا الله به :

قال تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

لا تقل: لا يوجد تكافؤ، الله عز وجل ما كلفك أن تعد للأعداء ما لا تستطيع، كلفك بأن تعد القوة المتاحة لك، مع التفوق المذهل الذي عند الأعداء، قال أحدهم قبل يومين: ماذا نفعل بهذه الطائرات العملاقة، والبوارج الحربية، والصواريخ العابرة للقارات، ماذا نفعل بها، وقد أصبح العدو شخصاً لا دولة؟ واحد أقلق مجتمعاً بأكمله عشرين يوماً، جاءت الطائرات، وجاء الاستنفار دون جدوى، فالله عز وجل قال:

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: 2]

مئتا ألف طالب عطلت مدارسهم عشرين يوماً بسبب إنسان واحد أقلق مضاجعهم، فلا تقل: ليس هناك مساواة بين الكيانين، عليك أن تعد لهم القوة المتاحة، ولا يحل مشكلات المسلمين اليوم إلا أن نعدَّ لهم ما أمرنا الله به.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

يشرون، أي يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، الحياة الدنيا سماها الله دنيا، والآخرة هي الحياة الحقيقية، ليس في الآخرة همٌّ، ولا حزن، ولا شيخوخة، ولا كبر، ولا زوجة سيئة، ولا ابن عاق، ولا قلق نفسي، ولا خوف من الفقر، ولا خوف من مرض عضال، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد، فهي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ما من ركنين من أركان الإيمان جاءا متلازمين في القرآن كالإيمان بالله واليوم الآخر:

أنا أؤكد لكم أن قلة من المؤمنين يدخلون الآخرة في حساباتهم اليومية، أما معظم الناس يعيشون الدنيا فقط، ومقاييسهم كمقاييس الطرف الآخر، مقاييس مادية، هؤلاء المؤمنون المسلمون رواد المساجد، أما الآخرة كشيء مهم في حياتهم، كعامل خطير في حساباتهم، هذا هم بعيدون عنه، لذلك ما من ركنين من أركان الإيمان جاءا متلازمين في القرآن كالإيمان بالله واليوم الآخر. حاول حينما توازن بين شخصين وبين بلدين، أو بين أمتين أن تضيف الآخرة إلى الدنيا، أتيت بمثل صارخ: مطعم متواضع جداً في أطراف المدينة، ودخله محدود جداً، لكن صاحب هذا المطعم إنسان مؤمن، وعقيدته سليمة ومستقيم، وقائم بعباداته، ومطعم خمسة نجوم، دخله اليومي مليون، ويبيع الخمور، ويأتي بالمغنين، طبعاً ليس هناك من أساس للموازنة بين هذين المطعمين، لكن المطعم الثاني، لأنه

يبني دخله على الحرام، وعلى بيع المحرمات وانتهاك الحرمات، أضف الآخرة إلى كل طرف من هو الرابح؟ الأول، لولا أن هناك يوماً آخر تسوى فيه الحسابات لحقّ للمؤمنين أن ييئسوا، لكن هناك يوم آخر تسوى فيه الحسابات.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

أنواع الجهاد :

أيها الأخوة:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

طبعاً عندنا جهاد النفس والهوى، هذا هو الأصل، المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، وبعد جهاد النفس والهوى يأتي الجهاد الدعوي، إذا كان متاحاً للمسلم أن يدخل في الجهاد القتالي فلا بأس، لكن هناك جهادان مقدمان على الجهاد القتالي؛ جهاد النفس والهوى، ثم الجهاد الدعوي.

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً)

أحد مشروعية الجهاد أن تقيم الأجواء المناسبة لمن حولك كي يعبدوا الله عز وجل، فإذا حال حائل بين الناس وبين عبادة الله ينبغي أن نجاهد فيه، كما يفعلون في الأراضي المحتلة، يهدمون المساجد، يقتلون الناس وهم يصلون، كما فعلوا من قبل.

المؤمنون يعبدون الله سبحانه وتعالى والكافرون يعبدون الطواغيت :

قال تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذا هو القتال الذي جزاؤه الجنة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ)

في سبيل المصالح، الطاغوت هنا من الطغيان، والطاغوت جمع طاغ، والطاغي هو الظالم، لكن الطاغي يفترق عن الظالم بأنك كلما أطعته يزداد ظلماً، لذلك المؤمنون يعبدون الله سبحانه وتعالى، والكافرون يعبدون الطواغيت.

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك.

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

لأنك إذا كنت مع الله فمعك القوة المطلقة، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد.

فضل الجهاد في سبيل الله :

أيها الأخوة، أرى أن كل مؤمن عليه أن يبدأ بمجاهدة نفسه حتى ينتصر على شهواته ومصالحه غير المشروعة، فربما أعانه الله على أن ينتصر على عدوه، لكن بين الجهادين؛ بين جهاد النفس والهوى جهاد الأعداء الجهاد الدعوي، فإذا أمكنك أن تنشر هذا الدين بالطرق السلمية فهذا شيء جيد جداً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: 52]

حينما تبين هذا الكتاب الكريم، تبين أحكامه، وتبين أوامر الله عز وجل، وتبين ما عند الله من خير إذا أطعته، وما عنده من عقاب إذا عصيته، هذا أيضاً جهاد كبير، بنص القرآن الكريم. فلنبدأ بجهاد النفس والهوى، ثم لنثنِّ بالجهاد الدعوي:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت: 33]

حينما يتاح للمسلمين إن شاء الله تعالى أن تكون لهم الشوكة، وينتصرون على عدوهم ينبغي ألاّ يقصر أحد منا في هذا العمل الذي سماه النبي ذروة سنام الإسلام:

من لم يجاهد، ولم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق.

أحياناً ندعو لمن يجاهد كما ندعو لأخوتنا في الأرض المحتلة، أحياناً تمدهم بالغذاء والمال، وهذا أيضاً نوع من الجهاد:

((مَنْ جَهَّزَ غَازِياً في سَبِيلِ الله فقد غَزَا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد]

((وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً في أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد]

من دعا لغاز تقبل الله دعائه، فحسب الوضع؛ إما أن ندعو لهم بالنصر، أو نمدهم بالمال والمساعدات، أو نجهزهم بالمعدات، ثم ينبغي أن نجاهد أنفسنا وأهواءنا، لأن الأعداء يراهنون على علاقتنا بربنا، هم يحاربون بالفساد، وجدوا أن الفساد أهون من السلاح، بالقوة الناعمة، أي المرأة يحملوننا على أن نريد ما يريدون، كانوا من قبل بالقوة المسلحة يجبروننا على أن نفعل ما يريدون، الآن لا داعي، اصعد إلى جبل قاسيون، وألق نظرة على دمشق، ماذا يشغل الناس؟ تعرف الجواب.

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها :

أيها الأخوة، ينبغي أن نعود إلى الله عز وجل، أقول لكم كلاماً من القلب إلى القلب: إذا كنت مهزوماً أمام شهواتك وأمام مصالحك فلا يمكن أن تقابل نملة، أما إذا كنت منتصراً على مصالحك وشهواتك، وكنت وربانياً عندئذ تستحق أن يتنزل عليك نصر الله عز وجل، فأنت بين الجهاد جهاد النفس والهوى وبين الجهاد الدعوي وبين الجهاد القتالي، أما حينما يجتاح العدو أرضنا فلا خيار لنا أبداً في الجهاد القتالي. فلنجهز أنفسنا بأن نجاهد أنفسنا وأهواءنا، ونجاهد الجهاد الكبير في نشر الحق بين الناس، يوجد أزمة علم، وأخلاق، وإيمان، أنت حينما تعزز قيم الإيمان، وقيم العلم، وقيم الأخلاق في المجتمع تكون قد أعنتهم على أنفسهم، وأنا حينما أدعو أقول: اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا.

أيها الأخوة، هذا الإسلام دين عظيم، إذا حذفنا منه شيئاً ضعفنا، وإذا أضفنا عليه أشياء تفرقنا، فإن أضفت عليه أصبح الإسلام طوائف وشيعاً، وإن حذفت منه أصبحنا ضعافاً، فلا بد أن نأخذه كما جاء في أول الأمر، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها.

((إنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

كنت أقول سابقاً: هناك عقبات كبيرة جداً أمام الناس منها الشاشة، والمناهج العلمانية، في الجامعة يدرسون أن الإنسان جاء من القرد، وهذا خلاف الكتب السماوية، فالمناهج عقبة، والشاشة عقبة، والأسرة أحياناً عقبة، لأنها ألفت المعاصي والآثام، فإذا أراد الشاب أن يتوب إلى الله كانت العقبة من أهله أحياناً، فلا بد من إصلاح ذات البين، فاتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(36-69): تفسير الآية 77 ، أنواع الجهاد وخشية الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-01

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، لأن هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، ولأن الإنسان مخير، ولأنه أودعت فيه الشهوات، ولأنه أعطي منهجاً، هو مخير أودع فيه الشهوات ومعه منهج، فلو تحرك بدافع شهواته وفق المنهج فلا شيء عليه، وعم السلام العالم، لكن بعض الناس رفض المنهج واتبع الهوى، فصار عدواً حكماً لمن طبق المنهج واتبع الحق.

إذاً: هناك في الأرض نموذجان، إنسان عرف الله، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن ربه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، كنتيجة حكمية لجهله ولغفلته عن ربه ولإتباعه الهوى أساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة. لا بد أن تقوم معركة بين هؤلاء وبين هؤلاء، هذه المعركة قديمة قدم وجود البشر، ومستمرة مادام على سطح الأرض بشر، وهذا شيء طبيعي.

الإنسان حركي فكلما وصل إلى شيء يريد شيئاً أكبر :

لذلك أيها الأخوة، لو أن نبياً كريماً جاء بمنهج إلهي، ودعا الناس إليه فالذين استجابوا له مؤمنون به، خيرون، محسنون، منضبطون، مستقيمون، والذين رأوا أن هذا المنهج يقيد حريتهم، ويعيق ملذتهم، ويحد من نشاطهم الاستمتاعي في الحياة لا بد أن يكذبوا هذا النبي، والإنسان حركي، أي ديناميكي، بالتعبير المعاصر حركي، فكلما وصل إلى شيء يريد شيئاً أكبر، وكلما زلت قدمه في طريق تابع الزلل، وكلما سار في طريق الإيمان تابع سيره في طريق الإيمان، إذاً هذا تمهيد، لأنه لا بد من وجود معركة في الحياة الدنيا بين الحق والباطل، يقول الله عز وجل:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

[سورة الأحزاب]

وفي آية أخرى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

الجهاد القتالي إنما هو تمهيد للجهاد الدعوي :

لكن أيها الأخوة، إن أحكام القتال دقيقة جداً فلا بد أن يكون هناك تكافؤ نوعاً ما بين الفريقين، أما إذا كان أحد الفريقين صفراً والثاني مليوناً فهذا ليس قتالاً ولكنه انتحار، لذلك أمر القتال لا يشرع إلا عن أولي الأمر، المسلمون في مكة مُنعوا أن يقاتلوا، تقتضي الحكمة ألا يقاتلوا، يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

متى يقال لإنسان: كف يدك؟ إذا مد يده، مع أن الظلم الذي كان في مكة لا يحتمل، الظلم، والقهر، والقسوة، والمقاطعة، والإفقار، والإذلال شيء لا يحتمل، ومع ذلك لو سمح الله جلت حكمته بالقتال في مكة لكانت حرباً أهلية تأكل الأخضر واليابس، ففي البيت الواحد شباب مؤمنون وشباب غير مؤمنين، و لانتقلت المعركة من بيت إلى بيت، ومن حي إلى حي، لكن حكمة الله جل جلاله تقتضي في مكة منع أن تمد يدك إلى الكافر، أو أن تقاتله، أما في المدينة فحينما كان هناك كيان للمؤمنين وقوة وقيادة سُمح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقاتل الكفار والمشركين في المدينة، فلذلك أيها الأخوة، فيما أرى أن مشكلة المسلمين هذا الاندفاع غير المنضبط اندفاع عاطفي، فقد تندفع اندفاعاً عاطفياً من دون تطبيق لمنهج الله، ومن دون تخطيط فقد تسبب الويلات للمسلمين، لعل الاندفاع العشوائي العاطفي يسبب فرحاً من قبل المؤمنين، ولكن قد تكون عواقب هذا الاندفاع خطيرة جداً على مجموع المؤمنين، فليست العبرة بعمل فردي طارئ يعقبه ألم شديد، العبرة بهذا الشأن الخطير؛ أن نتبع منهج الله عز وجل، فالله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

حينما يسمح الله لك تقدم، وإذا منع امتنع، لكن المشكلة اليوم أيها الأخوة طبيعة الحياة تسمح بجهاد دعوي، وحينما تتعمق في مفهوم الجهاد ترى أن الجهاد القتالي إنما هو تمهيد للجهاد الدعوي، فإذا كان الجهاد الدعوي متاحاً لنا جميعاً، ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

لا نستطيع تحقيق الجهاد الدعوي إلا إذا تحقق جهاد النفس والهوى :

ألا تعتقد أن هؤلاء المسلمين الذين يعدون ثلث سكان الأرض هم في أمس الحاجة إلى أن يعرفوا الحقيقة، ذكرت لكم قبل أسبوعين فيما أذكر أن خطيباً من دمشق ذهب إلى بلد أوربي، وألقى خطبة في أكبر مسجد هناك، ولولا أنني سمعت القصة من فمه لشككت في القصة، اعتلى المنبر، وخطب خطبة رائعة جداً، بكى كل من في المسجد، ومن شدة تأثرهم بما ألقاه الخطيب أخذوا من جيوبهم زجاجات خمر فشربوا وهم يبكون، ألا ترى أن هؤلاء المؤمنين يحتاجون إلى توعية، يحتاجون إلى تعليم، الجهاد الدعوي سماه الله الجهاد الكبير.

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

مسموح لك أن تختار جامعاً تثق بخطيبه، وبعلمه، وباستقامته، وورعه، وإخلاصه، اختر جامعاً تظن بخطيبه هذا الظن الحسن، ثم استمع إلى خطبته بإتقان ووعي، ثم حاول أن تنقل هذا الذي سمعته إلى من حولك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى أصدقائك، إلى زملائك، إلى جيرانك، تكون قد ساهمت بتوسيع دوائر الحق وتضييق دوائر الباطل، فهذا الذي يتحرك لكي يقاتل نقول له: هل جاهدت نفسك جهاد النفس والهوى؟ لماذا حينما نذكر جهاد النفس والهوى لا نصغي إليه؟ هل تصدقون أنه مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تنهزم أمام نفسك، أن تنهزم أمام شهوتك، أن تنهزم أمام مصلحتك، مستحيل أن تواجه نملة بعد ذلك، هذه المشكلة، هذا الذي هزم أمام شهواته، أو هزم أمام مصالحه، أو أمام ملذاته، أو نزواته، أنى له أن يواجه عدواً؟! فلذلك أول جهاد يجب أن ننفع إليه جهاد النفس والهوى، وهذا جهاد متاح لكل مسلم في أي مكان وزمان، أول جهاد ينبغي أن نسارع إليه، وهذا لا يكلفنا إلا الصدق في طلب الحقيقة، فإذا استطعت أن تحمل نفسك على طاعة الله، أن تلزمها حدود الله، أن تقيم الإسلام في بيتك، أن تعتني بأولادك، أن تربي أولادك، أنا أتكلم الآن كحل واقعي لما يعاني منه المسلمون، أنا أتكلم الآن لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في هذا الظرف الراهن البالغ التعقيد، يستطيع كل مسلم أن يحمل نفسه على طاعة الله، ويحمل من حوله من زوجة، أو ولد، أو بنت، أو صديق، أو جار، أو زميل، هذا هو المطلوب الأول؛ جهاد النفس والهوى، والحديث الذي قاله عليه الصلاة والسلام وربما لا ينظر الناس إلى هذا الحديث على أنه الحل الأمثل، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ جهاد النفس والهوى، إن تحقق هذا الجهاد فينبغي أن تنتقل إلى مرحلة ثانية، إلى مرحلة الجهاد الدعوي، لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

والله أيها الأخوة، أخ كريم لا يحسن أن يدعو إلى الله لا يحسن، لم يحصل من العلم ما يمكنه من أن يكون داعية، لكنه وزع بعض الأشرطة التي هو قانع بها، ومتأثر بها، فشكل دعوة وحده، وسائل الدعوة الآن ميسرة جداً، أن تنقل للإنسان فكرة سمعتها، أو كتيباً قرأته، أو شريطاً سمعته، أو ندوة حضرتها، يمكن أن تكون داعية، والدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وحينما يتاح لنا إن شاء الله الجهاد القتالي نبادر إن شاء الله جل جلاله لكسر شوكة العدو، لكن قبل أن تحضر الدكتوراه خذ الشهادة الابتدائية أولاً، وقبل أن تتحدث عن موضوع الأطروحة التي ينبغي أن تعالجها خذ الشهادة الإعدادية أولاً، وقبل أن تفتخر أنك أخذت هذه الدكتوراه من جامعة تنتمي إلى دولة عظيمة، أو إلى دولة أخرى خذ الشهادة الثانوية، أما أن تتحدث عن الدكتوراه وعن الأطروحة التي ينبغي أن تعالجها، وعن الجامعة التي ينبغي أن تنتسب إليها، وعن اللقب الذي ينبغي أن تحمله، وأنت لا تزال أمياً، فهذا شيء مضحك، هناك مليون مرحلة، مليون عمل قبل أن تقول: أريد أن أجاهد جهاداً قتالياً، أنا لا أثبط العزائم، ولكنني أحب أن أكون واقعياً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

لحكمة أرادها الله، ولحكمة مطلقة راجحة أرادها الله عز وجل منع المسلمين من القتال في مكة، وكلمة:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

أي بعض المسلمين لا يحتملون، لا يحتملون القهر والضغط، مَدوا أيديهم، فلما مدوا أيديهم أو هموا بمد أيديهم جاءهم التوجيه القرآني:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

الصحابة الكرام في مكة المكرمة نُهوا عن أن يقاتلوا :

ليست العبرة أن أعمل عملاً تعود تبعته على المسلمين ألف ضعف، ليس هذا هو العمل الطيب، أن أعمل عملاً يتحمل جميع المسلمين نتائج لا تحتمل، العبرة أن يكون العمل وفق منهج الله، والصحابة الكرام في مكة المكرمة نُهوا عن أن يقاتلوا:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

لم يقاتلوا، ماذا ينبغي أن يفعلوا؟ الإنسان حركي ما دامت قد كفت يده عن أن يقاتل فينبغي أن يقيم الصلاة، وأن يؤتي الزكاة، والحقيقة حينما تأتي الصلاة بديلاً للقتال، معنى ذلك أنها شيء عظيم، لأن المسلمين حينما فرَّغوا الصلاة من مضمونها، وحينما ظنوا أن الصلاة ركعتان تؤديان هكذا، أما حينما نفهم معنى الصلاة أن تستطيع أن تتصل بالله، أن تستطيع، ولن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا آمنت به، إلا إذا آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، إلا إذا آمنت أن الأمر كله بيده، إلا إذا آمنت ـ طبعاً لئلا يقول أحدكم: حينما نواجه العدو يجب أن تحرق المراحل، ليس هذا الكلام مطبقاً في كل بلد إسلامي، حينما يقتحم العدو علينا فلا بد أن نقاتله من دون أي مراحل تسبقه، هذا شيء مفروغ منه، أما في بلد لا نقاتل فيه الأولى أن نجاهد أنفسنا وأهواءنا أولاً، ثم أن نتبع الجهاد الدعوي ثانياً، وحينما يتاح للمسلمين أن يجاهدوا الجهاد القتالي يكرمهم الله جل جلاله بأعلى مراتب الإسلام، فالجهاد ذروة سنام الإسلام.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي بشكل جريء من دون مجاملة، هذا الذي يأكل مالاً حراماً لا يستطيع أن يصلي الصلاة التي أمر الله بها، يصلي كما يصلي عامة الناس، بإمكانك بكل بساطة أن تتوضأ، وأن تصلي، وأن تقف في الصلاة، وتقرأ القرآن، وأن تركع، وأن تسجد، ولكن أن تصلي الصلاة التي أمرت بها، على النحو الذي ينبغي أن تكون هذا يحتاج إلى أن تعرف الله أولاً، وإلى أن تستقيم على أمره ثانياً.

المعنى الحقيقي لكلمة وأقيموا الصلاة :

كلمة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي ينبغي أن تعرف أنك تصلي لمن؟ قد تكون الصلاة عادة من عوائد المسلمين، قد تكون الصلاة عملاً لا معنى له عند معظم المسلمين، ولكن حينما يقال لك:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي ينبغي أن تعرف لمن تصلي، ينبغي أن تعرف أن الذي تصلي له بيده مقاليد السماوات والأرض، ينبغي أن تعرف أن الذي تصلي له عنده مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ينبغي أن تعرف أن الذي تصلي له يعاقب بنار إلى أبد الآبدين:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي ينبغي أن تعرفوا الله وأن تطيعوا أمره، وأن تنتهوا عما عنه نهى، وأن تحكموا اتصالكم بالله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

من هنا ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

الدين بمجمله حركتان حركة نحو الخالق وحركة نحو المخلوق :

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

إيتاء الزكاة دفع المال لمعاونة أخوانك المؤمنين، سمى الله الزكاة صدقة لأنها تؤكد صدق إيمانك، فلا بد من حركتين، حركة نحو الله، وحركة نحو الخلق، وكأن الدين بمجمله حركتان: حركة نحو الخالق، وحركة نحو المخلوق، حركة نحو الخالق عبادة، وحركة نحو المخلوق إحساناً:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

ثم يقول الله عز وجل:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ)

الآن كانوا يتحرقون على أن يقاتلوا، وكل شيء تتشوق إليه إذا كان بعيداً عنك، والتشوق سهل جداً، هؤلاء الذين أرادوا مد أيديهم، أرادوا القتال في مكة، وجاءهم توجيه الله عز وجل:

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

بدل أن تقاتلوا:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

أي طبقوا المنهج بحذافيره، وكونوا من أهل الإحسان.

على الإنسان أن يخشى الله أكثر من أي شيء آخر :

قال تعالى:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ)

لما جاء الأمر بالقتال لما سمح الله بالقتال، وقد أصبحوا في المدينة، ولهم كيان، ولهم قيادة، والأمل بالانتصار صار مقبولاً ومعقولاً:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى رسم لنا في هذه الآية معالم شخصية، الشيء إذا كان بعيداً عنا هناك تشوق إليه، فإذا وصل إليه ابتعد، ما بال هؤلاء الذين يتشوقون إلى القتال وإلى الانتصار، وإلى مقاومة العدو لما قيل له: تعال تفضل، تعال قاتل إذًا:

(فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)

وينبغي أن تخشى الله أكثر من أي شيء آخر.

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

[سورة التوبة: 13]

الله عز وجل هو الجهة الوحيدة التي بيدها كل شيء والتي ينبغي أن تخشاها :

الحقيقة الجهة التي تملك كل شيء هو الله عز وجل، يملك وجودك، يملك سمعك وبصرك، يملك حركتك، يملك عقلك، يملك ما حولك، يملك من حولك، يملك من فوقك، يملك من تحتك، فهذه الجهة التي بيدها كل شيء ينبغي أن تخشاها، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَوَ اللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً))

[البخاري عَنْ مَسْرُوقٍ]

فكيف أيها الإنسان الذي كنت قبل حين تتشوق إلى القتال، وإلى مقارعة الكفار، لماذا ترى أن قوتهم لا تقابل، وأنك أضعف من أن تقف أمامهم، هذا نموذج، يتشوق إلى ما هو بعيد عنه، فإذا وصل إليه فر منه، هذا نموذج يتكلم كثيراً ولا يفعل شيئاً، يتشوق ولا يسعى، يقول ولا يفعل، يتمنى وليست همته بمستوى أمنياته:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

دققوا في هذا الحكم الموضوعي، لم يقل كلهم، قال:

(فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ)

الآن حينما يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 173]

الحقيقة الآن هناك قطب قوي جداً، بإمكانه رصد كل حركة في الأرض، وبإمكانه أن يقصف كل مكان في الأرض بأسلحة فتاكة لا نظير لها.

ثقة الإنسان المطلقة بالله تزيد إيمانه :

قال تعالى:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً)

[سورة آل عمران: 173]

زادهم إيماناً لأن الله فوقهم، زادهم إيماناً أنهم في قبضة الله، زادهم إيماناً أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، زادهم إيماناً أنه إليه يرجع الأمر كله، زادهم إيماناً أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، زادهم إيماناً أن الله له الخلق والأمر، زادهم إيماناً أنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، زادهم إيماناً أن الكفار حينما يعتقدون خطأً أنهم سبقوا، أي فعلوا شيئاً ما أراده الله، أو تفلتوا من عقاب الله هم واهمون.

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة الأنفال: 59]

زادهم إيماناً:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران]

أي يخوفكم من أولياءه.

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة آل عمران: 175]

يستحيل أن يسلم الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين للأقوياء الظالمين :

أيها الأخوة الكرام، هذا هو القرآن، ونحن في امتحان، حينما يصدر تهديد من هذا القطب القوي لبلد من البلدان فأهل ذاك البلد بحسب إيمانهم، إن كان إيمانهم ضعيفاً:

(يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)

وإذا كان إيمانهم قوياً يخشون الله، ويعدون للعدو ما استطاعوا من قوة، أما أن يسلم الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين للأقوياء الظالمين فهذا مستحيل، وألف ألف مستحيل أن يسلمك الله إلى عدوك؟ حر فيما يفعله معك، يقتل، ويهدم، ويبطش، والله عز وجل لا علاقة له بهذا؟!

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران: 175]

أي يخوفكم بأوليائه:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 175]

علامة الإيمان أن تخشى الله وعلامة النفاق أن تخشى الناس :

أيها الأخ الكريم، علامة إيمانك أن تخشى الله، وعلامة النفاق أن تخشى الناس ولا تخشى الله، أو أن تكون خشية الناس أشد من خشية الله، هذه علامة نفاق، فالمؤمن لا يخشى إلى الله، والمؤمن موقن أن الأمر بيد الله، وأن أحداً في الكون لا يستطيع أن يفعل شيئاً من دون إذن الله، وأن أمرك بيد الله ولا يسلمه لجهة أخرى، وأن الله حينما يسلمك لجهة أرضية عدوة ماكرة حقيرة منتقمة كيف تعبده، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

إذاً:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ)

كأن هؤلاء الضعاف ما أحبوا أن تكتب عليهم هذه الفريضة، تمنوا أن يموتوا على فرشهم.

الحياة الدنيا التي يحرص عليها الناس متاعها قليل جداً :

سيدنا خالد يقول: خضت مئة معركة أو زهاءها، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، وهاأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

(لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ)

أي نتمنى أن نموت على فرشنا، نتمنى لا أن نموت قتلاً، أن نموت موتاً طبيعياً، فالله سبحانه وتعالى أجابهم إجابة رائعة:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

هذه الحياة الدنيا التي تحرصون عليها متاعها إلى متاع الشهيد قليل جداً، لا شيء، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

هذا الذي تحرصون عليه عند الله قليل.

الله عز وجل عادل لا يظلم أحداً :

دقق في قوله تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

وفي قوله تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً* نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

[سورة الإنسان: 27 - 28]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى)

لمن اتقى أن يعصي الله، لمن أعطاه، لمن آمن به، لمن أحبه، لمن أقبل عليه:

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

ما من شيء لا وزن له ولا قيمة له كالفتيل، خيط رفيع جداً بين فلقتي نواة التمرة:

(وَلَا تُظْلَمُونَ)

لا قيمة له.

ينبغي ألاّ تكون أفعال المسلمين ردود فعل غير مدروسة وعشوائية :

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

أيها الأخوة، هذه آية دقيقة جداً، ينبغي ألا تكون أفعال المسلمين ردود فعل غير مدروسة وغير مخطط لها وعشوائية، وانطلاقاً من نزوة طائشة، من انفعال شديد، وقد يجر هذا الاندفاع والانفعال على المسلمين ويلات لا يعلمها إلا الله، فلا بد من تطبيق منهج الله.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننطلق جميعاً إلى مجاهدة النفس والهوى، الآن يسمونه التعليم الأساسي، هذه المرحلة الأساسية، فإن تمكنا من جهاد النفس والهوى، وعرفنا ربنا المعرفة الكافية التي تحملنا على طاعته فلننتقل إلى الجهاد الدعوي، وهذا الجهاد الدعوي سماه الله جهاداً كبيراً، فإذا أتيح لنا، ونرجو الله أن يتاح لنا الجهاد القتالي بادرنا إلى كسر شوكة عدونا.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(37-69): تفسير الآيتان 78-79 ، إرادة الله المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الخوف من القتال في حقيقته هو خوف من الموت :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثامنة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ)

ما علاقة الآية بالتي قبلها؟ يقول الله عز وجل:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

خوفهم من القتال في حقيقته هو خوف من الموت، إذاً هم يحرصون على الحياة، فالله في الآية السابقة أنبأهم أن الحياة قصيرة، قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

الحياة مصممة عند الله أن تنتهي بالمؤمن إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أما حينما لا يعرف الإنسان الله ولا يطيعه تنتهي حياته إلى عذاب النار وبئس المصير، فليست العبرة أن أحيا سنوات عدة، العبرة أن تنتهي حياتي إلى الجنة، لذلك من أجمل الأدعية: اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة.

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت :

يقول الله عز وجل:

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ)

اعتراضاً:

(لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)

أي نموت على فراشنا:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً*أَيْنَمَا تَكُونُوا)

لو أنكم لم تقاتلوا، لو أنكم استنكفتم عن أن تقاتلوا وعشتم فلا بد من الموت، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر:

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم أنك بعدها محمول

* * *

بوابات الخروج من الدنيا لا تعد ولا تحصى وكل من عليها فان :

قال تعالى:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا)

في أي مكان كنتم، في حصن، في قلعة، في غنى فاحش، في قوة كبيرة، في مركز كبير، في قمة مجتمع:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا)

في أي مكان كنتم، في مكان آمن أم في مكان خطر، في بر أو في بحر، في جو أو في يابسة، في راحة أو في غير راحة، مع مرض أو بغير مرض، يضاف إلى هذا المعنى وفي أي مكانة كنتم، فسبحان من قهر العباد بالموت، وسبحان من قهر الجبابرة بالموت.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

أنت تفرُّ منه وهو يدركك، بل إن الموت قد يفاجئك وأنت هارب منه، وأنت تتصور أنه يتبعك فتفاجأ أنه أمامك، كيف؟ إنسان مريض، كل توقعاته أن يموت بهذا المرض، قد يكون المرض عضالاً، فيفاجأ أن الموت جاء بغير المرض العضال، قد يكون بحادث، قد يكون بهدم أو بحريق، فالموت يدرك، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

[سورة الجمعة: 8]

بدل أن تتوقعوه وراء ظهوركم يتبعكم، وقد تفاجؤون أنه أمامكم، وبوابات الخروج من الدنيا لا تعد ولا تحصى، قد يموت الإنسان في ثانية، ولا يشكو شيئاً، وقد يموت بعد مرض عضال دام ثلاثين عاماً، ليس هناك قاعدة، القاعدة أنه ليس هناك قاعدة، الموت يأخذ الكبير والصغير، والصحيح والسقيم، والغني والفقير، والذكي والأحمق، ومن كان في منصب رفيع ومن كان في منصب وضيع، يأخذ الناس جميعاً، كل من عليها فان:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

الموت واعظ وكل الذي يُحصلّه الإنسان يخسره في ثانية واحدة :

لذلك قيل:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنــعت بالحجاب والحرس
فما تزال سهام الموت نافــذةً فـي جنب مدرع منها ومتـرس
أراك لست بوقاف ولا حــذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إن السفينة لا تجري على اليبــس

* * *

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

[سورة الجمعة: 8]

أخ كريم أحسن الظن به أصيب بمرض عضال، وأجرى عملية معقدةً جداً، ونسبة نجاح العملية أقلُّ من عشرين بالمئة، ونجا في هذه العملية الجراحية العويصة، حين اتصل بي ولده وقال: والدي توفي رحمه الله، أنا ظننت أنه مات بالمرض الذي أصابه، ثم فوجئت أنه مات بحادث، هو يتوقع أن يموت بهذا المرض، وكل من بلغه نبأ الوفاة متوقع أن يموت بهذا المرض، ثم مات بحادث:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

[سورة الجمعة: 8]

فالموت له أبواب لا تعد ولا تحصى، العلم اخترع أسماء متعددة، سكتة دماغية، سكتة قلبية، هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، تشمع في الكبد، هذه أسماء أمراض وبيلة، إنها في حقيقتها بوابة الخروج، فالإنسان لا بد أن يخرج، وأنا أقول لكم هذه الكلمة، وأنصح بها نفسي: مستحيل وألف ألف مستحيل أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله، فلا بد من يوم ترى شيئاً لم يكن من قبل في الجسد، إن باب الخروج يتفاقم إلى أن ينتهي بالنعي، لذلك ما من شيء يعظ الإنسان كالموت، لم أرَ كالموت واعظاً يا عمر، الموت واعظ، وكل الذي يحصله الإنسان يخسره في ثانية واحدة.

الله عز وجل يطمئن المؤمنين في كتابه العزيز :

أيها الأخوة، أنا لست متشائماً، من كان مؤمناً بالله الإيمان الصحيح، وله عمل طيب، وقد ضبط حواسه وجوارحه وفق منهج الله وعمل الصالحات هذا تغطيه الآية الكريمة:

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 62]

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل لنا نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة، والله عز وجل يطمئن المؤمنين فيقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة: 51]

ما كتب الله لنا لا علينا تفيد الخيرات.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ)

قصص الموت عجيبة جداً، قد ينام إنسان فلا يستيقظ، قد يموت وهو ساجد، وقد يموت وهو يرتكب معصية، وقد يموت في بيته، وقد يموت بعيداً عن بيته، وقد يموت فلا يعلم به أحد، حتى تكشف موته رائحة جسمه، وقد يموت بين أهله وأحبابه، لكن الأثر ورد أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

في الآية إشارة إلى موضوع القضاء والقدر :

أحياناً يتقي الإنسان أن يقتل فتأتيه أسباب القتل من الداخل، لو أنه تحصن بحصن منيع يأتيه ملك الموت، ملك الموت يتخطى كل الحصون، ويتخطى كل السدود.

قصة رمزية لرجل كان في حضرة نبي الله سليمان، وكان عند سليمان ملك الموت، فصار ملك الموت يحد النظر برجل في مجلسه، فهذا الذي رأى ملك الموت يحد النظر فيه سأل سليمان أن يأخذه إلى طرف الدنيا الآخر ـ قصة رمزية ـ على بساط الريح، فنقله إلى الهند، فتوفي هناك، فلما سأل هذا النبي الكريم ملك الموت: عجبت لك لما كنت تحدق فيه، قال: عجبت، أنا معي أمر بقبض روحه في الهند، فما الذي جاء به إليك.

ملك الموت جاهز، يتجاوز الحصون والقلاع والسدود، يتجاوز كل حاجز، كيف أن الإنسان يموت بطلقة من الخارج، قد يموت بطلقة من الداخل، هذه الطلقة من الداخل تتجاوز كل الحصون والقلاع:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنــعت بالحجاب والحرس
فما تزال سهام الموت نافــذةً فــي جنب مدرع منها ومتــرس
أراك لست بوقاف ولا حـــذر كالحاطب الخابط الأعواد في الغرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إن السفينة لا تجري على اليبــس

* * *

الحقيقة خوف القتال هو خوف من الموت ورغبة في الحياة، هذا الأمر يسوق إلى موضوع القضاء والقدر، وقد عولج هذا الموضوع في هذه الآية بطريقة رائعة، يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

كلام جيد كلمة حق.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ)

أنت السبب، فرد الله عليهم بقوله:

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

أول حقيقة في القضاء والقدر أن كل شيء يقع في ملك الله هو بإرادة الله وبفعله :

أول حقيقة في القضاء والقدر أن ما من شيء يقع في ملك الله إلا بإرادة الله، وبفعل الله، فالذي وقعَ وقع بإرادة الله، والذي وقعَ وقع بفعل الله، والإنسان ضعيف لا يملك حولاً ولا طولاً، لكن لماذا وقع الذي وقع؟ الذي وقع له أسباب، فمثلاً حينما يرسب طالب في صفه من الذي وقع قرار الرسوب؟ المدير، من الذي أمر بالرسوب؟ المدير، من الذي أدخل في السجلات أنه طالب راسب؟ المدير، لماذا رسب هذا الطالب؟ من حيث الفعل هو فعل المدير، ومن حيث السبب هو من الطالب، بسبب تقصيره وكسله رسب في صفه، فالفعل إذا نظرت إليه من زاوية الخلق فهو من عند الله، وإن نظرت إليه من زاوية السبب فهو من عند الإنسان، فإذا قلنا: إن إدارة المدرسة قررت رسوب هذا الطالب من حيث الفعل، ثم إذا قلت: إن هذا الطالب رسب لأنه كسول فهذا صحيح أيضاً، وقد ذكرت مرة الفاعل، ومرةً ذكرت السبب، أي شيء يقع في الكون من حيث الفعل فهو من عند الله، أما كل شيء يقع في الكون من حيث السبب فهو من عند الإنسان.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يا عِبَادِي..مَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عن أبي ذر]

قالوا: الجنة محض فضل والنار محض عدل، فلو أن طالباً وعده والده بمكافأة ثمينة جداً إذا هو نجح، الآن نجح، فهل يكفي نجاحه لأن ينال هذه الهدية الثمينة؟ لا، لولا أن الأب دفع ثمنها ونفذ وعده لما نالها، إذاً نجاحه ليس سبباً كافياً لنيل هذه الهدية، فكرة دقيقة، أب وعد ابنه بدراجة غالية جداً إذا هو نجح، فحينما نجح الابن وأخذ النتيجة توجه مباشرةً إلى بائع الدراجات، وقال له: أعطني هذه الدراجة، وهذه النتيجة، لا يعطيه، الخير هو فضل من الله، ولا بد من أن يدفع الأب ثمن هذه الدراجة وينفذ وعده، لكن نجاح الابن وحده غير كافٍ لامتلاك الدراجة، أما حينما ينزل عقاب بإنسان فيكون الإنسان هو السبب فقط، لولا أنه فعل هذه المعصية لما نال هذا العقاب، لذلك مطلق العقاب هو النار، ومطلق الثواب هو الجنة، فالجنة محض فضل، والنار محض عدل.

كل أعمال المؤمن الصالحة في الدنيا هي سبب لدخول الجنة وليست ثمناً لها :

لو وهبك إنسان بيتاً في أرقى أحياء دمشق، وثمنه خمسون مليوناً، وكلفك أن تدفع ثمن المفتاح، أنت ماذا دفعت ثمناً؟ هل دفعت ثمنه؟ لا، دفعت سببه، دفعت قيمة سبب دخوله، لذلك المؤمن كل

أعماله الصالحة في الدنيا هي سبب لدخول الجنة وليست ثمناً لها، والفرق كبير بين أن تشتري مفتاحاً بعشرين ليرة تدخل به بيتاً ثمنه خمسون مليوناً، وبين أن تدفع الخمسين مليوناً.

نحن كل أملنا في الدنيا أن ندفع ثمن سبب دخول الجنة، بينما ثمن الجنة لا يملكها أحد، لذلك الجنة محض فضل من الله عز وجل، أنت مستقيم، متعك الله بصحة جيدة، وهبك ذرية صالحة، أعطاك ملكات عالية، أعطاك رزقاً وفيراً، هل إمكاناتك وحدها سبب كاف لما أنت عليه؟ لا، ما أنت عليه بفضل الله عز وجل، وبتقدير الله، وبعطاء الله، وبكرم الله، المشكلة أنك حتى لو تفوقت في عملك، في ملكاتك هذه ليست سبباً كافياً لما أنت فيه، إنما هي سبب وسيط، وليست ثمناً لما أنت فيه، هذا معنى الحديث المروي عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَداً الْجَنَّةَ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ))

[البخاري، مسلم، النسائي أبو داود، ابن ماجه، أحمد، مالك عن عائشة]

فالجنة برحمة الله، ادخلوها برحمتي، واقتسموها بأعمالكم، العمل سبب دخول الجنة، وفضل الله ثمن الجنة، لذلك ما معنى الآية:

(خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ)

[سورة الأنعام: 128]

المعنى أن ثمة احتمال أن نخرج منها، ما معنى الآية؟

(خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ)

[سورة الأنعام: 128]

العلماء قالوا: معنى هذه الآية إنك إن اشتريت بيتاً، ودفعت ثمنه بالتمام والكمال، وبسعره الحقيقي، وما أنقص لك صاحبه درهماً، فحينما تتملك البيت، وقد دفعت ثمنه كاملاً هل تشعر أن هذا الذي باعك البيت له فضل عليك؟ لا، قبض الثمن بالتمام والكمال، وقبض أعلى ثمن، أما حينما تدفع ثمن مفتاحه فقط، والبيت ثمنه خمسون مليوناً كلما رأيته بالطريق تذوب شكراً له.

الجنة محض فضل والنار محض عدل :

الجنة لا يمكن أن ندفع ثمنها لكن يمكن أن نقدم سبب دخولها، استقامتنا إن شاء الله والأعمال الصالحة هي سبب دخول الجنة، هذا معنى قول الله عز وجل في الآثار القدسية: ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم. أصل الدخول برحمة الله، أما مكانك في الجنة فبحسب عملك، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَنْ يُدْخِلَ أَحداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْراً، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فالجنة محض فضل، والنار محض عدل، إذاً قال تعالى:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك هذا فهم مغلوط:

(قُلْ كُلٌّ)

كل شيء وقع من عند الله حدوثاً إيقاعاً خلقاً:

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

أما سبب الوقوع فمن عند أنفسكم.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً)

الآن التفصيل من زاوية الفعل، قل كل من عند الله من زاوية السبب، ما أصابك من حسنة فمن الله، لو نجحت أيها الطالب وقد وعدك أبوك بدراجة لو لم يدفع أبوك ثمنها لا تتملكها، فهذه الدراجة تملكتها بثمن دفعته أنت؟ لا، تملكتها بنجاحك بالامتحان، وقد وعد أبوك الذي ينجح بهذه الدراجة، فالقضية واضحة تماماً.

أروع ما في الإيمان التوحيد وأروع ما في التوحيد أنك لا تحقد على أحد :

قال تعالى:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ

الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

أروع ما في الإيمان التوحيد، وأروع ما في التوحيد أنك لا تحقد على أحد، وفي كل مشكلة تعاني منها ترد الكرة إلى ملعبك، لا يعقل، ولا يقبل أن يحقد إنسان على العصا التي ضرب بها، هذه أداة، قطعة من الخشب، ينبغي أن تحقد إن كنت حاقداً على من ضربك بها، ومن حقد على العصا فهو متهم في عقله، لو ضربت إنساناً، وأمسك هذه العصا، وبدأ يكسرها، ويشتمها، فهو أحمق، ينبغي أن تشتم الذي ضربك بها.

المكارم والعطاءات هي فضل من الله بسبب استحقاقنا لها :

إذاً الأداة لا علاقة لها بالنتيجة، من الذي أمسك هذه الأداة؟ إذا اعتقدت اعتقاداً جازماً أن الطغاة في الأرض عصي بيد الله، وأن هؤلاء الطغاة تسلطوا على بعض المؤمنين لخلل في إيمانهم، ولضعف في استقامتهم، وقد ورد في الأثر القدسي: أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم.

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

لو كنت مستقيماً فإكرام المستقيم فضل من الله عز وجل، لو كنت منضبطاً فإكرام المنضبط فضل من الله، وانضباطك ليس سبباً منطقياً لما أنت فيه من إكرام، فما أنت فيه من إكرام إنما هو فضل من الله، لكن الأمر الآخر ليس كذلك.

(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

الله غني عن تعذيبنا، لا يقبل، ولا يعقل أن نعذب بلا سبب، بدليل قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

المصائب غير المكارم، المكارم والعطاءات هي فضل من الله بسبب استحقاقك لها، كلام دقيق، العطاءات من الله عز وجل هي عطاءات منه، لكنه منحك إياها بسبب استحقاقك إياها استحقاقاً عبادياً لا استحقاقاً مادياً، بينما المصائب هي بسبب من الإنسان فقط.

أي شيء تراه أعيننا هو من فعل الله خلقاً ومن الإنسان سبباً :

قال تعالى:

(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

أخواننا الكرام، حينما تفهم هذه الآية تنتهي علاقتك بالخلق، وتبدأ علاقتك مع الحق، هؤلاء البشر أمامي كلهم دمى بيد الله، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

إذاً ألزم الله ذاته العلية بالاستقامة:

((... يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي...))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

هذه الآية في سورة النساء أصل في مفهوم القضاء والقدر، وكل ما وقع أراده الله، بمعنى سمح به، وكل شيء أراده الله وقع، لأن الله فعال لما يريد، فأي شيء تراه عينك هو من فعل الله خلقاً، ومن الإنسان سبباً.

مطلق العطاء الجنة ومطلق العقاب النار :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي..مَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[ابن عساكر عن البراء]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

هذا المعنى مريح يلغي الحقد، ويلغي الاعتراض، علاقتك مع نفسك، علاقتك مع ربك، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، دائماً راجع نفسك، دائماً اتهم نفسك، فقد كان بعض الصالحين يقول: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، إذا كنت مع الله محكم الصلة، وقافاً عند كتاب الله، غاضاً للبصر يلهم الله هذه الزوجة أن تكون مطيعة لك، محبة لك، تراها بعينك جميلة، ولا تتمنى غيرها، أما إذا كان هناك من معصية متعلقة بالمرأة، ولو أن

زوجتك كانت جميلة فلا تراها كذلك، لو أنها وديعة تبدو لك قاسية ومتغطرسة، فأعرف مقامي عند ربي من مقام زوجتي، هكذا قال بعض العارفين، طبعاً لا يعني هذا أن كل إنسان يعاني من متاعب عنده مشكلة مع الله، قد يكون الله جعلها عنده ليستفيد منها.

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

ذكرت أن مطلق العطاء وهو الجنة محض فضل وأن مطلق العقاب وهي النار محض عدل.

(وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

هاتان الآيتان هما أصل في القضاء والقدر، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الحقد مدمر :

أيها الأخوة، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وكنت أقول دائماً: إن العبرة في تفسير الحدث، قصة وقعت قبل ثلاثين عاماً فيما أذكر؛ أن موظفاً عند تاجر شكاه إلى بعض الجهات المسؤولة، فرتبوا عليه مصالحةً بمبلغ يفوق حد الخيال، حقد هذا التاجر على هذا الموظف فأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً، فحكم ثلاثين عاماً في السجن، تحليل هذه القصة لو أن هذا التاجر كان موحداً لم يرَ هذا الفعل جاءه من هذا الموظف، بل يراه من الله، فيعيد أوراقه مع الله، ويفتح مع الله صفحة جديدة، وقد يعوض الله عليه، أما حينما لا ترى أن الله فعال ترى الناس يفعلون ما يشاءون عندئذ ينشأ الحقد، والحقيقة الحقد مدمر، لأنك ترى إنساناً أقوى منك، ويملك أمرك، وأنت في قبضته، ولا يحبك، ويريد تدميرك، والله هذه الأفكار وحدها تسحق، أما حينما ترى أن الله بيده كل شيء، وأن الله عز وجل لا يسلمك إلى أحد، ولا يكل أمرك إلى أحد، ولو أنه أسلمك إلى أحد من خلقه لا يستحق أن تعبده، وأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

ينتهي الحقد، لذلك قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس38-69): تفسير الآيات 80-83، طاعة الرسول والنهي عن الإشاعات الكاذبة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-11-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

طاعة رسول الله عين طاعة الله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثمانين، وهي قوله تعالى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)

أيها الأخوة الكرام، طاعة رسول الله طاعة حكمية لله، طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله عز وجل تقتضي طاعة رسول الله، لقول الله عز وجل:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

الذي يفرق بين طاعة الله وطاعة رسول الله ويهمل الثانية فقد أتى أمراً عظيماً لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

كلّ كلام النبي وحي يوحى لذلك طاعته من طاعة الله :

في القرآن كليات، أما التفصيلات ففي السنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يطاع استقلالاً، أما أولو الأمر الذين هم العلماء أو الأمراء فلا يطاعون إلا طاعة تبعية لرسول الله، فإذا جاؤوا بأمر لم يأتِ به النبي فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بينما النبي عليه الصلاة والسلام لأن الله عصمه، ولأن كل كلامه وحي يوحى لذلك طاعته من طاعة الله، وطاعته عين طاعة الله قال تعالى:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)

أنت لست مكلفاً أن تحصي عليهم أخطاءهم كما يفعل بعضهم الآن، أنت يا محمد، وأنت سيد الخلق، وأنت سيد الأنبياء والمرسلين لست مكلفاً أن تحصي على الناس أخطاءهم، أنت داعية، ولست وصياً عليهم:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الأنعام: 107]

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

[سورة ق: 45]

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة الأنعام: 104]

هم مخيرون، مهمتك تنتهي بدعوتهم إلى الله.

ما كلف الله عز وجل الإنسان ديناً مع الإكراه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[سورة النور: 54]

إذا كان سيد الخلق تنتهي مهمته في التبليغ فلماذا تنصب نفسك وصياً على المسلمين، وتكفر من تشاء، وتبدع من تشاء، وتتهم من تشاء؟ وما كلف الله عز وجل الإنسان ديناً مع الإكراه، قال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

يخاطب نبيه ورسوله، يخاطب سيد الخلق، يخاطب الذي أوتي المعجزات، أوتي القرآن يقول له:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة الأنعام: 104]

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية: 21-22]

ما أنت عليهم بمسيطر، ما أنت عليهم بحفيظ، ما أنت عليهم بوكيل:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

[سورة ق: 45]

الله عز وجل ما أجبر عباده على طاعته بل خيَّرهم فالإنسان مخير :

المعنى دقيق جداً، عود نفسك أن تبين، دع الإنسان يتخذ القرار، عليك أن تبين، وأن توضح، وأن تذكر الحكمة، تذكر مضار المعاصي والآثام، منافع الطاعات، هنا مجالك أيها الداعية، بيِّن، واشرح، وتعمق، وحلل، وفسر، وأوّل دون أن تجبر، فإن الله عز وجل ما أجبر عباده على طاعته

بل خيّرهم، فالإنسان مخير. ومن يطع الرسول فقد أطاع الله حكماً، بل إن من لوازم طاعة الله طاعة رسوله، بل إن طاعة رسوله عين طاعة الله، لكن من دون أن تجبر.

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)

لا تجبرهم، لا تكن وصياً عليهم، لا توزع عليهم ألقاب الكفر والشرك والفجور، فإن الله يتولى أمرهم، أنت تبلغ والله يحاسب، أنت تبلغ والله يقيّم، أنت تبلغ والله يعلم الطائع مِن العاصي؟

الآن هؤلاء المنافقون الذين جاء الحديث عنهم في سياق الآيات، قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

تحدثهم عن أمور الدين، عن منهيات الدين، عن أوامر الله عز وجل يجلسون ويستمعون ويقولون: طاعة، أيْ شأننا مع هذا الكلام الطاعة، شأننا وحالنا مع دعوتك وبيانك طاعة، شأننا الطاعة.

للمنافق وجهان :

قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

لو قلنا: ويقولون طاعة ـ بالنصب ـ فلها وجه في اللغة، أي نطيعك طاعةً أما يقولون طاعةٌ ـ بالرفع ـ أبلغ طبعاً، الفعل يدل على الحدوث، أما التركيب الاسمي فيدل على الثبوت، شأننا مع ما تقول طاعةٌ، تقول: دخل، الدخول يتم وينتهي، لكن فلان طويل القامة، هذا التركيب اسمي، فالتركيب الاسمي يدل على الثبوت والاستمرار، بينما التركيب الفعلي فيدل على الحدوث والانقطاع، وفي اللغة لك أن تقول: ويقولون طاعةً، أي نطيعك طاعةً، لكن الآية جاءت:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

أي شأننا مع ما تقول طاعة. المنافق ذكي، والمنافق أساساً له وجهان:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

قال:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ)

معنى بيّت تآمر، والإنسان حينما يكون في بيته في الأعم الأغلب في الليل وقت راحته يفكر، ويخطط، ويتآمر، ويدبر، فبيَّت هنا بمعنى تآمر.

ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً :

قال تعالى:

(فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ)

غير الذي تقول لك في حضرتك، تقول لك في حضرتك: طاعة، نحن مطيعون لك، أما إذا برزوا من عندك، أي خرجوا من عندك، ودخلوا بيوتهم، وخلوا إلى أنفسهم بيّتوا كلاماً وموقفاً غير الذي قالوه لك، فيا محمد ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

(وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ)

سجل عليهم ما يبيتون، وما يبيتون في علم الله.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

مسجل، تصور أن فئة أرادت أن تتآمر، فكتبت، وخططت، وأعطت المناصب، وهيأت، فإذا نسخة من هذا الذي كتب عند القوي، وسوف يقطع رؤوسهم.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: 46]

مكرهم سجل عليهم، وصف رائع:

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ)

تحدثهم عن الله، تحدثهم عن الدين، تحدثهم عن طاعة الله، تحدثهم عن الحلال والحرام، يقولون: شأننا مع ما تقول هو الطاعة، فإذا برزوا من عندك، أي خرجوا من عندك، ودخلوا بيوتهم، ولقوا الذين كفروا بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول، تداولوا واستقر رأيهم على موقف ليس فيه طاعة بل فيه معصية، على موقف فيه إنكار وتكذيب.

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان :

قال تعالى:

(بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ)

لك في حضرتك يا محمد.

(وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ)

لذلك لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه خير له من أن يسقط من عين الله، حينما يخلو الإنسان بنفسه ينبغي أن يعلم أن الله معه، وأن كل خططه الجهنمية في علم الله، والله مطلع عليه، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، قال تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

لا تعبأ بهم، فما ضر السحاب نبح الكلاب، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام حجراً، أعرض عنهم، ولا تعبأ بهم، لا تهتم بهم.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

فيما يبيتون لك، هم أرضوك بلسانهم، أما لما خلوا بأنفسهم تآمروا عليك، لكن الله عز وجل يعلم كل خططهم:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

إذا توكلت على الله كفاك به وكيلاً فهو القوة المطلقة في الكون :

إذا كان الله مع الإنسان فمن عليه؟ وإذا كان عليه فمن معه؟ الله جل جلاله الذات الكاملة، القوة المطلقة، فتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، ولو أسقطنا هذه الآية على واقع المسلمين المسلم يرى أن أعداءه يتمتعون بقوة لا توصف، وأنهم بقوتهم هذه أملوا إرادتهم، وعولمتهم، وإباحيتهم، وجريمتهم على كل الشعوب، فبالمنظور الأرضي لا نستطيع مواجهتهم لكن الله يقول:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

من التوكل أن تعد لهم ما تستطيع من قوة والله يتولى الباقي، ومن التوكل أن تعد لهم ما تستطيع من قوة:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

إذا توكلت على الله كفاك به وكيلاً، فهو القوة المطلقة في الكون، وللتقريب لو أن عدوين بينهما جدار عظيم، هذا يتآمر على هذا، وهذا يتآمر على هذا، لو أن أحد الفريقين مؤمن والله معه فكل ما يتآمر به الطرف الآخر بعلم الله، والله مع المؤمنين، إذاً الله عز وجل يلهم المؤمنين خططاً تحبط تآمرهم، تفسير لطيف: من توكل على الله كفاه، لأن الله عز وجل قدرته مطلقة، ويستنبط من قدرته المطلقة أن الخيارات مطلقة، لو أن عدوك يتمتع بقوة لا توصف يمكن أن يلقي في قلبك الرعب، قال تعالى:

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

[سورة الحشر: 2]

يمكن أن تنتصر على العدو بإلقاء الرعب في قلبه، ولهذا أمثلة في التاريخ كثيرة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

لكن أمته حينما عصت ربها، ولم تطبق منهج نبيها هُزمت بالرعب مسيرة عام، أي تهديد من وحيد القرن تنقطع له الرقاب، لأنهم ليسوا على ما يريد الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً)

والله أعلم.

معنى التدبر :

التدبر شيء، والفهم شيء، والتلاوة شيء، والعمل به شيء، فالقرآن منهج الله ينبغي أن تتلوه تلاوةً صحيحة، وينبغي أن تتلوه إن كان مجوداً، أن تعطي الحروف مخارجها، والمواقف أحكامها، وفضلاً عن تلاوته تلاوةً صحيحة، ثم تلاوته مجوداً وفق أحكام التجويد ينبغي أن تفهمه، وفضلاً عن فهمه ينبغي أن تتدبره، والتدبر أن تسأل نفسك دائماً: أين أنا من هذه الآية؟ يقول الله عز وجل:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الذاريات: 17-18]

أين أنت من هذه الآية؟ الله عز وجل يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

أين أنت من هذه الآية؟ الله عز وجل يقول:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة: 83]

أين أنت من هذه الآية، والله عز وجل يقول:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

أين أنت من هذه الآية؟ التدبر أن تحاول أن تعلم ماذا انتفعت من هذا الكتاب، وما الذي قصرت فيه، أن تعرض نفسك على كتاب الله.

لو كان هذا الكتاب من عند غير الله لاختلف الوعد عن الواقع :

قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)

[سورة محمد: 24]

لو قال لك أحد من الناس: على كتفك عقرب شائنة، فابتسمت وشكرته على هذه الملاحظة اللطيفة، وبقيت هادئاً معنى ذلك أنك لم تتدبر كلامه إطلاقاً، على كتفك عقرب شائنة، ولدغة العقرب قاتلة، وقال: على كتفك عقرب، وتبقى واقفاً، وتبقى هادئاً، وتبقى مبتسماً، وتجامله، وتقول: شكراً لك على هذه الملاحظة، لو تدبرت معنى ما قال لقفزت من توّك، ونفضت ثوبك، التدبر أن تضع نفسك على مقاييس القرآن، أن تسأل نفسك: أين أنا من هذا الذي أقرأه؟

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً)

الحقيقة لأن الله عز وجل يعلم الغيب، فإذا قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة الروم: 2-4]

الله عز وجل لأن الأمر بيده، ولأن النصر بيده، الذي وعد به تحقق، لو كان الذي وعد بهذا النصر عبد ضعيف لا يتحقق الوعد، يكون هناك اختلاف بين الوعد وبين وقوعه، الله عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة، والحياة الطيبة من فعل الله، فلو كان هذا الكتاب من عند غير الله لاختلف الوعد عن الواقع، كلام دقيق، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

لو أن هذا القرآن من عند غير الله، إنسان ووعدك بحياة طيبة، لكنه ضعيف، لم يستطع إنجاز وعده.

إذاً هناك اختلاف بين وعده وبين تنفيذ وعده، لو كان من عند غير الله فغير الله لا يستطيع أن يفعل ما يريد، والله وحده فعال لما يريد لكن ما سواه ليس فعالاً لما يريد، فلو وعدك من ليس فعالاً لما يريد ربما لا يقع هذا الإنجاز، إذاً لوجدت اختلافاً بين الوعد وبين تحقيق الوعد:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً)

وعد المؤمن بحياة طيبة، والحياة الطيبة من فعل الله، فلو آمنت كما ينبغي لكنت في حياة طيبة، لأن الذي وعد هو إله ضامن وقادر، أما لو كان من عند غير الله قد يعدك ولا يحقق وعده، ولكان هناك اختلاف كبير بين الوعد وتحقيقه.

الإشاعة الكاذبة تفعل فعل السلاح المدمر :

الآن هناك آية من أدق الآيات الاجتماعية، هؤلاء المنافقون إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف، أي جاءهم خبر، تناقلوا خبراً متعلقاً بما يوجب الأمن، أو ما يوجب الخوف، من صفات المنافقين أنهم يذيعونه ويبالغون، وفي إذاعة هذه الإشاعة خطر كبير، فقد تكون كاذبة، وقد تكون مبالغ بها، وقد تكون لا أصل لها إطلاقاً، لذلك عَنْ حَفْص بْن عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ حَفْص بْن عَاصِمٍ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وهذه صفة المنافقين، يسمع خبراً ليس متأكداً من مصدره، ولا من صحته يذيعه بين الناس، والخبر ينتشر كالنار في الهشيم، فإذا كان هذا الخبر مما يدعو إلى الأمن والطمأنينة، وانتقل إلى العدو ضاعفوا جهدهم في الإعداد لكم، وإذا كان هذا الخبر مما يدعو إلى الخوف، وقد نقل مبالغاً فيه ضعف معنويات المسلمين وانهاروا، لذلك الذي يروج الإشاعات الكاذبة هو عند الله منافق، لأنه يطعن المسلمين في ظهورهم، ولأنه يثبط العزائم، فالأخبار التي تأتي ينبغي ألا تروج إلا إذا سمح بترويجها رسول الله، ومن يعتمدهم من صحابته الكرام لأن الإشاعة الكاذبة تفعل فعل السلاح المدمر، قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ)

جاءهم خبر يوجب الأمن والطمأنينة، أو خبر يوجب الخوف ينبغي ألاّ ينتشر، وألا يذاع، فإن كان خبراً يوجب الأمن وأذيع إذاً العدو يستعد، والذي يحصل الآن أشياء ملفقة مزورة لم يقل فلان هذا الكلام، لكن يقال: ليكون كلامه حجة على ضرب المسلمين، لا تروج هذه الأخبار، إن كان الأمر يوجب الأمن وأذعته، وبالغت به، وانتقل هذا إلى الأعداء ضاعفوا من قوتهم ومن استعدادهم، واتخذوا من هذا الخبر حجة لضرب المسلمين، وإذا كان الأمر موجباً للخوف، ونشرته ثبطت عزائم المسلمين، وحطمت معنوياتهم، فإذا بلغ العدو أن المعنويات منهارة انقض على المسلمين.

مهمة نقل الإشاعات مهمة المنافقين لذلك لا تروج خبراً يضعف الثقة بالدين :

الذي روج هذه الإشاعة هو مخطئ خطأً كبيراً، فإن كان لا أصل لهذه الإشاعة، كذب بكذب، وافتراء بافتراء فعلت شيئاً لا أصل له، وأضفت إلى تثبيط العزائم الكذب والبهتان، لذلك عَنْ حَفْص بْن عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ حَفْص بْن عَاصِمٍ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم وأبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

قبل أن تنقل الخبر راجع الأمر، تثبت من قال هذا الكلام، من روَّجه؟ أية إذاعة أذاعته؟ ما مصدر الخبر؟

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ)

ماذا ينبغي أن يعملوا؟ ينبغي أن يصمتوا وكأنهم لم يسمعوا شيئاً، ويسألوا رسول الله أو من يوكله النبي في أن ينطق باسمه.

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ)

إلى أولي الأمر من المؤمنين الذين اعتمدهم النبي في أن يوضحوا للناس الحقيقة، أنا أنتظر ما رأي النبي الكريم في هذه الإشاعة؟ أنا لا أنقلها، ولا أروجها، ولا أضعف ثقة المسلمين، ولا أثبط عزائمهم.

ما كل خبر ينقل أيها الأخوة، وما كل إشاعة تنقل، مهمة نقل الإشاعات مهمة المنافقين، أحياناً قصة لا أصل لها مثلاً قصة قديمة جداً قبل عشرات السنين، إنسان دخل مسجداً فكتب اسمه، فإذا روجت هذه الفكرة الذي عنده رغبة بحضور درس علم فقد ثبطت بهذا عزيمته، والقصة لا أصل لها إطلاقاً، ليس لها أصل، وهذا الذي يحصل خبر من فعل الشيطان، ومن ترويج الشيطان، حينما يروج يزداد ضعاف الإيمان ضعفاً به، فلا تروج خبراً يضعف الثقة بالدين، ينبغي أن يكون صحيحاً، فإن كان صحيحاً فاسأل رسول الله، أو من ينوب عنه: أيسمح لنا بترويج هذا الخبر؟ قد يكون من الحكمة ألا تنقل هذا الخبر.

إنسان له أخت وقعت في الزنا، أقيم عليها الحد، وتابت إلى الله، بعد حين جاءها خاطب، فجاء سيدنا عمر يسأله: أأذكر له ما كان منها؟ فقال له: والله لو ذكرت له لقتلتك.

عند سماع الإشاعة علينا أن نسأل من اعتمده النبي في توضيح الحقائق :

أحياناً كلمة لا تلقي لها بالاً يهوي بها الإنسان في جهنم سبعين خريفاً، كلمة واحدة، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قال:

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قريباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيماً....... فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[الترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل]

ترويج الإشاعات، نقل الأخبار الكاذبة، نقل أخبار العدو هذا من فعل المنافقين، أنت اسكت، واسأل من أنابهم رسول الله في ترويج أو عدم ترويج هذه الأخبار، هذه آية متعلقة بالإشاعة، وهذه في التعبير الشائع متعلقة بالطابور الخامس، هذا الذي يروج الإشاعات الكاذبة، ويضعف همة المسلمين. الموقف الكامل قوله تعالى:

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ)

لنسأل رسول الله.

(وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)

هناك من المؤمنين العقلاء المتمرسين في معرفة بواطن الأمور، هؤلاء يستنبطون الحقيقة إما بعقلهم، وإما بتوجه النبي لهم، فأنت في هذه الحالة اسأل من اعتمده النبي في توضيح الحقائق.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

إن الله عز وجل أنزل هذا الكتاب، وبيّن فيه كل شيء، وأرسل هذا الرسول الذي دلنا على كل شيء، ولولا فضل الله عليكم بهذا الرسول، وبهذا الكتاب ورحمته لاتبعتم الشيطان في تثبيط العزيمة، وفي إشاعة الكذب، وفي إضعاف النفوس، وفي تقوية الأعداء.

أي إشاعة تضعف المسلمين ينبغي ألا تذيعها إلا بالتنسيق مع من أوكله الله بهذا الأمر :

قال تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

من هم هؤلاء القليل؟ الإنسان يهتدي بالكتاب وبالنبي، لكن لو أنه كان ذو عقل راجح لهداه عقله إلى الحق، كيف أن ورقة بن نوفل قبل أن يأتي الإسلام عرف الحقيقة، لأن هناك من كان صادقاً في طلب المعرفة، وقد يهتدي إليها بعقله.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

قليل منكم طلبوا الحقيقة وطلبوها بصدق، وسألوا الله الحقيقة، فألهمهم الله رشدهم.

أيها الأخوة، والله لا أرى من آية يحتاجها المسلمون كهذه الآية الآن، لأن المعلومات التي يسمعها الناس كثيفة جداً، وغزيرة جداً ومعظمها معلومات يضعها علماء النفس لتثبيط العزائم، وكم من حدث مفتعل، وكم من جريمة مفتعلة، افتعلها من يندد بها من أجل تشويه سمعة المسلمين، أنت لا تروج هذه الأخبار، لا تروج هذه الإشاعات الكاذبة.

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ)

أي أمر يوجب الأمن:

(أَوْ الْخَوْفِ)

أذاعوا به، أحيانا تعجب كيف أذيع هذا الخبر، هذا الخبر إذاعته ليست في صالح المسلمين، تذاع أحياناً برامج حول ما يفعله هؤلاء الذين يستشهدون كيف يعدون هذه الأسلحة، ما فائدة هذه الأخبار؟ هذه تعطي العدو حذراً وقوةً بعد هذه المعلومات، أنت مسلم، وأنت سفير المسلمون، وأنت على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبلك، فأي خبر إذاعته تضعف المسلمين، أو تقوي أعداءهم ينبغي ألا تذيعه إلا بالتنسيق مع من أوكله الله بهذا الأمر.

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(39-69): تفسير الآيتان 84-85، حقيقة الشفاعة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-11-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان هو المخلوق الأول الذي أودعت فيه الشهوات ثم منح العقل وأعطي المنهج :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

حكمة الله اقتضت أن يكون في الأرض حق وباطل، وخير وشر، وعدوان وسلام، ذلك أن الإنسان وهو المخلوق الأول أودعت فيه الشهوات، ثم منح العقل وأعطي المنهج، فينبغي أن يتبع المنهج، وأن تمارس الشهوات وفق منهج الله، فإن لم يكن ذلك كذلك كان العدوان بين البشر، الإنسان في جسمه دوافع إلى الطعام والشراب والجنس، وأشياء كثيرة، وهذه تحتاج إلى أموال، فحينما يتحرك بدوافع من شهوته ومن دون ضابط من منهج أو قيم فلا بد أن يأخذ ما له وما ليس له، فالعدوان بين بني البشر والقتال بينهم أساسه أن تأخذ ما ليس لك، وما يجري في العالم اليوم من حروب هدفها السيطرة على الثروات كي توفر لشعوب المعتدين حياة عالية جداً، فلو دخلنا في أعماق القتال فإننا نجده ناتجاً من طبيعة الإنسان، فهو مخلوق أول أودعت فيه الشهوات، وأعطي حرية الاختيار، وأعطي عقلاً، وأعطي منهجاً، فتحرك بدافع من شهوته من دون أن يحكم عقله، ومن دون أن يسير على منهج رباني، فلا بد أن يأخذ ما ليس له، فإن كان قوياً استغل قوته في العدوان على الآخرين، هذا منطق الحروب في العالم اليوم.

القتال شرعه الله تعالى في القرآن لهدفين :

القتال شرعه الله تعالى في القرآن بهدفين:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

حينما يكون المسيطر هو الكافر سوف ينشر الفتنة في الأرض كما ترون بأعينكم:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

ينبغي أن يخضع الناس لمنهج الله، السماء فيها دعوة إلى الله، والأرض ينبغي أن تكون مساوية للسماء، لا ينبغي أن تكون أرض بلا سماء ولا سماء بلا أرض، كمال هذا الدين أن يكون لكل أرض سماء، ولكل سماء أرض.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

حتى لا تستغل المرأة التي شرفها الله وكرمها، وجعلها شريك الإنسان في حياته وشقه الثاني، لئلا يتاجَر بها فتكون في بيوت الدعارة، ومواقع الرذيلة، وما ترونه وتسمعونه اليوم، هذه الفتنة الكبرى.

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ))

[صحيح البخاري عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا]

المرأة لها دور خطير في الإسلام :

حينما أطلقت اليد للكفار ماذا فعلوا؟ حاربوا بالمرأة، والذي نسمعه من أخبار أنه حينما يفتح بلد إسلامي أول شيء يبيحون فيه الأفلام التي لا ترضي الله عز وجل، ينشرونها، ويأمرون بخروج المرأة سافرة، الشيء الذي يلفت النظر أن أعظم إنجاز لهم إذا انتصروا أن يفتتحوا دوراً لتزيين النساء، معنى ذلك أن الكفار يحاربون بالمرأة التي تبيع جسمها مقابل المال، وهذا انحطاط شديد بالمرأة، فالمرأة لها دور خطير في الإسلام، فالمرأة زوجة، وأم، وأخت، وبنت، ليس في الإسلام امرأة معشوقة.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

في مبدأ آخر:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة: 190]

فإذا قاتلك الكافر ينبغي أن تقاتله كما يجري في فلسطين.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة: 190]

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

ويوجد كلام دقيق جداً، الله عز وجل قال:

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

فالذي يكره الناس على كفر يجب أن تقاتله حتى تحقق الآية أنه:

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

القتال في الإسلام لا بدّ منه لردّ العدوان :

الجهة الطاغية التي تكره الناس على عبادة أشخاص، أو أوثان، أو شهوات ينبغي أن تقاتلها كي تتحقق حرية الإنسان في اختيار الدين الذي يريد، لأنه:

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين)

[سورة البقرة: 256]

فالقتال في الإسلام لا بد منه لرد العدوان.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة: 190]

وقد قال الله عز وجل:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال: 60]

جاءت حكمة الاستعداد الحربي:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

الفتنة أشد من القتل :

السلاح المتطور أحياناً له دور كبير في الردع، ربما لا تستخدمه أبداً، ولكن قد يؤدي دوره كاملاً دون أن تستخدمه لأنه قوة رادعة، فالآية اليوم:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذا أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وكل أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام موجه حكماً لكل المؤمنين، لكن قاتل في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمة الله، وفي سبيل أن يكون الدين لله، وأن تمحق الفتن التي هي أشد من القتل، كيف تكون الفتنة أشد من القتل؟ لو أن جاهلاً من الجاهلية وأد ابنته، وهي في عمر بسيط، وسنوات معدودة، كان يحفر حفرة في الصحراء ويدفعها فيها، ويهيل عليها الرمل، وتقول: أبي، أبي! هذه التي وئدت إلى أين مصيرها؟ إلى الجنة، لأنها لم تكلف بعد، لكن هذه التي كبرت، وأطلقت لها العنان، وفجرت، وزنت، وفتنت الشباب، وأغوت الناس، ثم ماتت إلى أين مصيرها؟ إلى جهنم، أيهما كان أشد عليها؛ أن تئدها أم أن تفتنها؟ والفتنة أشد من القتل، والله عز وجل يقول:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ)

[سورة الأنفال: 39]

ماذا يفعل الكافر؟ قال:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

[سورة الفجر: 11-12]

طغوا بعدوانهم، وأفسدوا بأقلامهم.

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر: 13-14]

الإنسان مخير :

القتال شرع لتقاتل من يكره الناس على شيء ما أراه الله، لأن هذا عطل الحرية الدينية، أن تقاتل الذي يقاتلك، والذي يشيع في الأرض فساداً وعدواناً، والذي يحول بين الناس وبين أن يخضعوا لدين الله، الآية هنا:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ)

أنت لا تستطيع أن تحمل الناس على أن يقاتلوا، لك أن تدعوهم، وأن تحرضهم، لكن ليس لك أن تجبرهم، لأن الإنسان مخير.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

[سورة الأنفال:65]

لكن المسؤولية تقع عليك وحدك، وكل إنسان مسؤول عن فعله.

(لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ)

هذا أصل، الإنسان مسؤول عن فعله فقط، لكن يحرض، ويدعو، ويشجع، هذا شيء مطلوب، أما من حيث المسؤولية لو أن واحداً دعوته أتحاسب عنه؟ لا.

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ)

إن قاتلت في سبيل الله، وإن قاتل معك المؤمنين بعد أن حرضتهم ما الذي يكون؟ قال تعالى:

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

المؤمن واثق من الله عز وجل ومن تأييد الله له لأنه مع القوي :

الكافر لا تردعه القيم، ولا الأخلاق، ولا المنطق، ولا الذوق، بل هو وحش، يريد أن يأخذ ثروتك، وبلادك، وإمكاناتك، ويجعلك عبداً له.

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

فبأس الذين كفروا، وبطشهم، وجبروتهم، وطغيانهم، وعدوانهم كيف يكون؟ بأن تحاربهم، وتقاتلهم، وتحرض المؤمنين على قتالهم، لكن المؤمن واثق من الله عز وجل، ومن تأييد الله له، لأنه مع القوي قال:

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

تسمعون في الأخبار أحياناً زلزال سبع درجات لا يبقي شيئاً، إعصار خسائره ثلاثين مليار دولار.

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

أنت مع القوي، والقوي قوته ظاهرة، قبل أيام اجتاح إعصار الأخضر واليابس، زلزال واحد يهدم ما عمره الإنسان في مئة عام، لثوان معدودة.

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

أمرنا الله سبحانه بإعداد القوة المتاحة للعدو لا القوة المكافئة :

الله بيده أمراض، كيف هزم نابليون؟ بالطاعون! مرض! الطاعون من جنود الله، كل المصائب من جنود الله، الله عز وجل يطمئنك أنت مع القوي لا تضعف، ولا تيأس، ولا تحزن.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

عسى من ألفاظ الرجاء:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

عسى الله أن يهديك، إذا قلتها أنت فلعله يهتدي، أما إذا قالها الله فعلى سبيل الوقوع، إذا نسبت عسى ولعل إلى الله عز وجل فعلى سبيل الحصول.

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

بالمناسبة أيها الأخوة، الله عز وجل إن كنت ضعيفاً لا يطالبك بأن تعد لعدوك القوة المكافئة، هذا فوق طاقتك، إن كنت ضعيفاً ربما كلفت أن تعد للعدو القوة المتاحة، والله جل جلاله بحكمته يرمم ما نقصك من قوة، فقد تنصر بالرعب، وقد تنصر بتفتيت قوة العدو، وقد تنصر بفتنة تقع بصفوف العدو، أنت عليك أن تعد للعود عدة بقدر ما تستطيع، وعلى الله الباقي، ويجب أن تعلم أنك المنتصر.

في الإسلام قصص لأنها وقعت فعلاً نصدقها أما هي فلا تصدق :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)

في الإسلام قصص لأنها وقعت فعلاً نصدقها، أما هي فلا تصدق، سيدنا الصديق رضي الله عنه جاءه كتاب من سيدنا خالد بن الوليد، وكان في معركة طاحنة، الروم ثلاثمئة ألف، وهم خمسون ألفاً! طلب منه المدد! بعد حين جاءه صحابي جليل اسمه القعقاع معه كتاب، أعطاه الكتاب، وقال له: أين المدد؟ قال: أنا المدد! واحد! فتح الكتاب، قرأه، فإذا فيه قول سيدنا الصديق: يا خالد لا تعجب أني بعثت لك بالقعقاع، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، وانتصروا. أين اليوم مليار ومئتا مليون؟ أمرهم ليس بيدهم، ولا يقدمون ولا يؤخرون، ولا أحد يستمع إليهم. واحد! هذه الآية:

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ)

لكن لك أن:

(وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

شيء مما نقرأه في القرآن نراه أحياناً في الواقع، أناس ضعاف، شاب ضعيف يزلزل كيان أمة قوية مستكبرة جبارة طاغية، شاب ضحى بحياته، فزلزل كيان الغرب كله. استمعت لتحريض ضابط كبير في البنتاغون يقول: ماذا نفعل بهذه الطائرات العملاقة، وهذه الصواريخ والأسلحة، لم يعد هناك عدو على مستوى دولة؟ العدو مواطن، إنسان واحد يقلقهم، اختلف الوضع، حرب بين دول تكاد تنتهي، بقيت بين إنسان مظلوم مقهور يضحي بحياته، وبين قوة جبارة عاتية.

حقيقة الشفاعة :

أيها الأخوة، آية ثانية يقول الله عز وجل:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً)

أي مقتدراً، أحياناً إنسان يتوسط في أمر ما، يترتب على هذه الوساطة دفع ضر أو جلب نفع، هذه حقيقة الشفاعة ابتغاء لوجه الله تعالى، وحمل المؤمنين على القتال نوع من الشفاعة، أنت تتوسط بين جهتين تقنع الأولى بالثانية، فإذا نجحت بهذه الشفاعة دفعت ضراً، وجلبت خيراً، بدفع الضر وجلب الخير لك أجر كبير، قال تعالى في أمر مباح، أو مطلوب، أو في واجب ديني، أو فريضة دينية:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)

أما الشفاعة السيئة فهي بخلاف المنهج.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

فإذا كنت وسيطاً بين أداء عمل مشروع، أو خدمة إنسانية، أو تأمين رزق لطالب علم، أو تأمين علم لشاب ناشئ في طاعة الله، أو لحل مشكلة، أو لقضاء دين، أبواب الشفاعات لا تعد ولا تحصى، فإذا كنت ممن يشفع شفاعة حسنة فلك من هذه الشفاعات حصة ونصيب كبير، لأنك كنت السبب، لو شفعت لتزويج شاب بفتاة مؤمنة صالحة، وشاب مؤمن كذلك، قربت بينهما، أو دللت أحدهما على الآخر، وكنت وسيطاً بينهما إلى أن تم هذا الزواج، هذه شفاعة حسنة، ورد أن أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح.

الله عز وجل فتح لنا باب الشفاعة :

لكن سلوك الناس الآن سلوك سلبي، لا يحبون الخير، وليسوا مستعدين أن ينطقوا بكلمة في سبيل الله، ولا أن يذهبوا، ولا يمشوا بخطوة.

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها عبادة سنة، قام ليلها وصام نهارها))

[ورد في الأثر]

الناس يزهدون في الشفاعات الآن، أنت ممكن أن تكون شفيعاً بزواج، وشفيعاً بشراكة، شاب يتحرق على مبلغ من المال يعمل به، وإنسان آخر يتحرق على استثمار هذا المال، صاحب المال عاجز عن استثماره، وهذا الشاب عاجز عن العمل يحتاج إلى مال، فإذا أقنعت صاحب المال أن يعطي هذا المال للشاب المؤمن، الشاب حلت مشكلته، وهذا الذي يملك المال حلت مشكلته، وأنت لك أجر.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

من يشفع في شركة حلَّ مشكلة صاحب المال ومشكلة الشاب العاطل عن العمل، لو شفعت في زواج وأسست أسرة حللت مشكلة أسرة عندها بنت لم تخطب حتى الآن، وحللت مشكلة شاب يبحث عن فتاة مؤمنة، وأنجب من هذه الأسرة أولاد صالحين، كل الخير بصحيفتك.

أحياناً إنسان مسجون بخطأ مدني، أقام في بلد زيادة عن الحد فأودع في السجن، مع أن المبلغ بسيط، أحياناً ألف ليرة لا أحد يبحث عنه، فأنت شفعت لدى من هو مسؤول عن هذا العمل، ودفعت عنه المبلغ، وأطلقت سراحه، أبواب الخير ولا تحصى، كلها تحتاج إلى شفاعة، والإنسان الذي له مكانة في المجتمع، له جاه، واسم طيب، هذا قد تحل به العقد، وتحل به مشكلات كبيرة جداً، خصومات بالقضاء عمرها عشر سنوات تحل بجلستين، من إنسان له كلمة بالمجتمع، فكأن الله فتح لنا باب الشفاعة.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

أبواب الشفاعة لا تعد ولا تحصى :

زوجان متخاصمان، الزوج امتلأ كرهاً لزوجته لأنها عنيدة، والزوجة امتلأت كرهاً لزوجها لأنه لم يسأل عنها، والأهل يغذون ابنتهم ضد زوجها، وأهل الزوج يغذون ابنهم ضد زوجته، الأولاد هم الضحية، فجئت أنت وزرت أحد البيتين، وأقنعت الطرف الأول بالطرف الآخر، وحسنت صورة الطرف الآخر، ولينت قلب الطرف لأول، وعقدت لقاء بينهما، ثم حلت المشكلة، فنعم الزوج بزوجته، والزوجة بزوجها، وفرح الأولاد، أنت ماذا فعلت؟ فعلت أعظم عمل! الآن كم خصومة زوجية يوجد في البلد؟ بالألوف، وأسمع نصف المتزوجين متحاربين، فإذا دخلت أنت شفيعاً بين خصومة زوجية، أو بين خلاف بين شريكين، أو بين خلاف بين أبوين، بين خلاف بين أب وابنه، بين خلاف بين زوجة وزوجها، أبواب الشفاعة لا تعد ولا تحصى.

حدث عدوان على سطح إحدى البيوت، دخلا في القضاء عشر سنوات، المبالغ المدفوعة للمحامي لا تعد، جاء رجل صالح، وحل المشكلة بينهم، وأسقطت الدعاوي كلها، وانتهى الأمر، فهذا باب من أبواب الخير كبير جداً:

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

يقرب زوجين، أو شريكين، أو جارين، أو أخوين، أو شقيقتين، الخير الذي حصل من هذه الشفاعة لك مثله إلى يوم القيامة.

شجعنا النبي الكريم بالشفاعة الحسنة في سنته الشريفة وحذرنا من الشفاعة السيئة :

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْداً يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعبَّاسٍ:

((يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ رَاجَعْتِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ، قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ))

[صحيح البخاري عَن ابْنِ عَبَّاسٍ]

النبي تدخل شخصياً في مشكلة زوجية، الحقيقة الحكم الشرعي أنه ما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة. حدث عدوان جنسي، وأودع المعتدي في السجن، هذا له في الإسلام عقاب كبير جداً، قد يصل إلى القتل، فأنت بكل طاقتك عند قاضي التحقيق، وعند القاضي، تريد أن تخرجه من السجن، فهذه شفاعة سيئة، لأنك تشفع في حد، وفي

معصية، كما أنني أحببكم بالشفاعة يجب أن أخوفكم أشد التخويف من أن تشفع في أمر باطل، في تعطيل حد من حدود الله، أي في حب رسول الله.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

فكما أن الله سبحانه وتعالى حببنا وشجعنا بالشفاعة الحسنة حذرنا من الشفاعة السيئة، لا تشفع في معصية ولا في حد.

على الإنسان أن يشفع لوجه الله ولردّ حقّ المسلم :

من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر، وإن لم يشفع دققوا: ما قال: لم يشفع شفاعة حسنة، الفرق بين شَفِع وبين شُفّع، شَفَع طلب أما شُفع قبض طلبه، الحديث أو الآية لم تكن تريد من يشفّع شفاعة حسنة، لا من يَشفع، شفع يشفع فعل ثلاثي، أنت لمجرد أن تذهب إلى زيد تقول له: هذا الإنسان عندك مظلوم، وأنا أقترح عليك أن ترفع عنه الظلم، ولك عند الله أجر كبير، وأطلب منك ذلك، رفض**!** أجرك ثابت ولو رفض**!** من يشفع لم يقل من يُشفَع شفاعة حسنة، هذه دقة اللغة، لمجرد أن تتحرك، وأن تطالب ثبت الجرم حقق الطلب أو لا، استُجيب لك أو لم يُستَجَب، من يشفع شفاعة حسنة يكن له كفل منها.

بعض العلماء يقول: من يشفع شفاعة حسنة هي التي رعُي فيها حق مسلم، ودفع عنه بها شر، أو جلب إليه خير، وابتغي به وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز، لا في حد من حدود الله، ولا في حق من حقوق البشر، هذه الشفاعة واجبة على كل مسلم كي تراعي بها حق امرأ+ مسلم، تدفع بها عنه شراً، أو تجلب له بها نفعاً، تبتغي بها وجه الله، لا تأخذ عليها رشوة، وفي أمر جائز، لا في حد من حدود الله، ولا في حق من حقوق البشر هذه الشفاعة واجبة عليك، والشفاعة السيئة بخلاف ذلك.

أهدي أحد العلماء هدية فغضب وردها، وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك، تشفع شفاعة من أجل مبلغ، هذا رشوة**!** ينبغي أن تشفع لوجه الله ولرد حق المسلم، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَدْ أَتَى بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا))

[سنن أبي داود عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

عَن ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِماً أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.))

[صحيح البخاري عَن ابْنِ شِهَابٍ]

الله عز وجل أنعم عليك بنعمة فوظفتها في الخير أدامها الله عليه، إن لم توظفها بالخير أخذت منك.

قضاء حوائج الناس في الدنيا لها عند الله أجر عظيم في الآخرة :

ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم، أعطاك مالاً غزيراً، وجاء الناس يطرقون بابك، فتبرمت، أعطاك جاهاً عريضاً، وساق إليك الناس فتبرمت:

((ما أنعم الله على عبد من نعمة وأسبغها عليه ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس فتبرم بها إلا وقد عرض تلك النعمة للزوال))

[ابن النجار عن ابن عباس]

قصة من التراث: بيت من بيوت دمشق القديمة الكبيرة فيها شجرة ليمون تحمل كميات مخيفة، عجيب أمر هذه الشجرة، ما من إنسان في هذا الحي يطرق هذا البيت لأخذ حبة ليمون إلا ويلبى طلبه، تحمل أربعمئة إلى خمسمئة حبة! وأي إنسان طرق البيت في وقت عصيب، في ليل، في مرض يعطى، هذه الجدة صاحبة البيت توفيت، وبقي في البيت كنّتها، طرق الباب مرة فرفضت، طرق الباب فرفضت حتى يبست الشجرة وماتت، قصة واقعية، لكنها معبرة.

أعطاك الله جاهاً، ووضعك بمنصب رفيع، وبيدك حل مشاكل المسلمين، وجاءك الناس إلى البيت، وإلى المكتب زرافات ووحدانا، تبرمت بهم، وأغلقت بابك دونهم، بالوزارة الثانية لا يظهر اسمك، تزاح عن هذا المنصب! أما إذا كنت في خدمة الخلق يزداد مكانك قوة:

((ما أنعم الله على عبد من نعمة وأسبغها عليه ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس فتبرم بها إلا وقد عرض تلك النعمة للزوال))

[ابن النجار عن ابن عباس]

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام))

[الحسن بن سفيان وابن حبان وابن عساكر عن عائشة]

لك صاحب بمركز حساس، وثمة مسلم له عند صاحب هذا المركز مشكلة، وهو مظلوم، لكن هذا المسلم ضعيف، فذهبت أنت إليه فرحب بك، وأكرمك، وقلت له: هذه قصة فلان قال: على العين والرأس، حلت، خرجت أنت.

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر...))

[الحسن بن سفيان وابن حبان وابن عساكر عن عائشة]

أحاديث من السنة الشريفة تؤكد أهمية قضاء الحوائج :

السلوك المعاصر يقول: والله هو صاحبي، لكن لم أعود نفسي أن أبذل له ماء وجهي أبداً، فاعذرني، يكون في القضية إحقاق حق، حل مشكلة، إنقاذ أسرة، يقول: لا يمكن أن أطلب منه شيئاً شخصياً، هذه ليست لك، لمسلم لا يستطيع قال:

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام))

[الحسن بن سفيان وابن حبان وابن عساكر عن عائشة]

وفي رواية:

((من كان وصلة لأخيه إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو إدخال السرور رفعه الله في الدرجات العلى من الجنة))

[الطبراني وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الآن:

((من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم))

[رواه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

أحياناً يكون إنسان معين بمكان بعيد، وله أهل وأولاد، والذي بأمره النقل صديقك، فذهبت إليه، وكلمته في شأن نقله إلى بلده فنقل، صار الأب بين أولاده، أدخلت على هذه الأسرة كل السرور، فلك أجر كبير.

((من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم))

[رواه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

وفي رواية أخرى:

((أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن))

[رواه الطبراني عن عمر رضي الله عنه]

أفضل عمل.

الكفالة فيها دفع أما النصيب ففيه قبض :

أيها الأخوة، بقي شيء في هذا الدرس:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

النصيب سهم حصة:

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

فالكفالة فيها دفع، أما النصيب ففيه قبض، لك نصيب معنا ثلاثون بالمئة، أعطني إياهم، أعطوني المبلغ، أنت كفلت فلاناً فتفضل، فالله عز وجل ذكر الكفالة مع الشفاعة السيئة، عد للمليون قبل أن تكون وسيطاً في منكر، وفي معصية، وفي خلوة، شخص يريد أن يخصص محل تزيين للنساء، رجل فاسق، فاجر يريد رخصة، والذي يعمل في الرخص منعه، فتوسطت له فحصل عليها، جرى في هذا البيت من المنكرات ما لا يعد ولا يحصى، كلها في صحيفتك، لو توسعنا أكثر: واحد عنده بيت مغلق لا يؤجره، وشخص فاسق فاجر يريد أن يستأجره لشيء لا يرضي الله، وأنت توسطت بأن يؤجره هذا البيت، أُجر البيت، وجرت فيه المنكرات، كلها في صحيفتك، فقبل أن تتوسط عد للمليار، ينبغي أن تتوسط لمؤمن ملتزم، ولمؤمن لا يعصي الله عز وجل، والذي شاع الآن البيت يؤجر مفروش الليلة الواحدة بعشرة آلاف! في الشيراتون بخمسة آلاف! يوجد مشكلة هنا، ليست قضية بيت للنوم، ولا لغير النوم، أنا لا علاقة لي، لا، أنت مسؤول، ما يجري في هذا البيت تحاسب عنه، هذا المبلغ ليس نظير نوم، بل نظير فاحشة، فأنت مسؤول.

والله أيها الأخوة، أنا أقول لكم إلى درجة أن صاحب مكتبة في بعض الكتب فيها ضلالات إذا باعها فله وزر كبير، شيء خطير، مكتبة فيها مجلات فاضحة، وقصص جنسية، وأدب إباحي، وكتب فيها ضلالات، وفساد عقيدة، وكتب فيها إنكار السنة هذه كتب، ما هو ذنبي أنا؟ لا، كل كتاب تشتريه وتبيعه أنت بهذا وسيط، فيه ضلالات أو إباحية فأنت محاسب عنه، أبلغ من ذلك الآن شاعت أماكن ومحلات الأقراص المدمجة، تجد إنساناً يصلي في الجامع يبيع الأفلام الإباحية، يقول: هذا عملي، ويبيعها! هذا تحاسب عنه، أي شاب فسد بهذا القرص، وأي بيت تصدع بهذا القرص فأنت مسؤول.

قبل أن تشفع وتسعى لأي شخص احذر لأن ما يفعله في صحيفتك :

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ...))

[سنن الترمذي عَن ابْنِ عَبَّاسٍ]

ما الذي شيبه في هود؟ آية واحدة:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

[سورة هود: 112]

فقبل أن تشفع، وتبيع طاولات نرد، وتنصب خيمة رمضانية، وتفتح مقصف نساء كاسيات عاريات، قبل أن تفتح مطعم حديثاً، الإضاءة خافتة، من يأتي لهذا المطعم؟ من معه صاحبة يأتي بها، وأنت بالنسبة لك مطعم، لا، ليس مطعماً، فيوجد أشياء لا تعد ولا تحصى، من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيباً منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، والله كل الآثام التي ترتكب في الأماكن الموبوءة بصحيفة مالك البناء، وفي صحيفة من استأجره، ومن يعمل فيه! لأن الله لعن الخمر، وشاربها، وبائعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، ويضاف الآن، والمعلن عنها، قال لي أحدهم: عملي بالإعلان، سألته هل تستطيع أن ترد عملاً فيه فسق؟ قال: لا، هل يمكن أن ترفض إعلانَ خمر فيه عرض مغر؟!

هذه الآية دقيقة جداً:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)

أحياناً يقول: ابنتي ضعيفة جداً بالرياضيات، والله يوجد أستاذ جيد ما شاء الله، أنت ماذا فعلت؟ أقمت خلوة بين فتاة وشاب، ما الذي يجري في هذه الخلوة في صحيفتك؟ فأي شفاعة من إيجار بيوت، وإيجار مطاعم، وإيجار بنوك، من وساطة لوظيفة، أحياناً وساطة لتعيين فتاة في عمل العمل كله رجال، وهذه فتاة جميلة، وساخرة، ومتبذلة، أنت توسطت وعينتها بهذه الوظيفة، كل يوم ترتدي لوناً، أصبحت فتنة لكل من في هذه الدائرة، أنت السبب! أحضر أمثلة من واقعنا لأن الآية خطيرة جداً، فإياك، ثم إياك، ثم إياك أن تكون وسيطاً في شر، أحياناً تسعى لإنسان بالسفر إلى أماكن بعيدة وكافرة، وهذا الشاب لا يقاوم نزعته من بين أهله، وأرسلته، فإذا به زنى هناك، ففي صحيفتك، وإذا ارتكب الفواحش، وأكل المال الحرام، وشرب الخمر هذا كله في صحيفتك، لأنك أنت سعيت له بهذا السفر بجهدك، أمنت له إشارة دخول، فقبل أن تسعى بين شيئين عد للمليار، هل في هذا السعي معصية أو بعد عن الله عز وجل؟!

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(40-69): تفسير الآية 86 ، أحكام السلام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-11-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

شعار المسلم أنه يبدأ الناس بالسلام :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية السادسة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)

من شعار المسلم أنه يبدأ الناس بالسلام، ويسلم على من يعرف وعلى من لا يعرف، ويستخدم الصيغة القرآنية في السلام، والصيغ الأخرى التي يستعملها أناس آخرون بعيدون عن الدين يترفع عنها تأدباً مع أدب الإسلام. الله عز وجل قال:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)

[سورة الأحزاب: 44]

والحقيقة كلمة السلام تعني السلامة، والسلامة مطلقة، تعني سلامة الدين، وتعني سلامة الصحة، وتعني سلامة العرض، فإذا قلت لإنسان: السلام عليكم فأنت تدعو له بكل أنواع السلامة! بدءاً من سلامة الدين والعقيدة إلى سلامة الصحة إلى سلامة العرض والسمعة.

والله عز وجل من أسمائه السلام، فأنت إذا كنت مطبقاً لمنهجه نالك هذا الاسم، فقد تحيا حياة طيبة، كما قال الله عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

تحيا حياة طيبة، وإذا انقلبت إلى الآخرة فلك جنة عرضها السماوات والأرض.

الحكمة من ذكر آيات السلام ضمن آيات الحرب :

فالجنة أساساً هي دار السلام، أنت في الدنيا في سلام، فإذا انتقلت إلى الرفيق الأعلى كنت في دار السلام، والتعامل مع الله كله سلام بسلام، والله يدعو إلى دار السلام، والسلام كما قلت: كلمة تحتمل كل المعاني التي يمكن أن تندرج تحتها.

والحقيقة حكمة أن تأتي آيات السلام ضمن آيات الحرب هناك حكمة بالغة! ذاك أن الذي تحاربه هو إنسان، فإذا سلّم عليك، أي طلب منك أن تعامله بالإحسان فلا ينبغي أن تقتله، فأي إنسان يسلم على مسلم في الحرب ينبغي أن يكف عن قتاله، فلعله يسلم على يديه، وقد غضب النبي أشد الغضب

حينما قتل أحد الصحابة مشركاً وقد تلفظ بالشهادة: قال: قالها تقية يا رسول الله، قال: أشققت على قلبه؟

فحكمة أن تأتي آيات السلام ضمن آيات الحرب، أي أنك تحارب لا من أجل أن تبيد الطرف الآخر، ولا من أجل أن تزهق روحه، إنما تحاربه من أجل أن تأخذ بيده إلى الله، وأساس الجهاد أنه لا يقبل الجهاد قبل أن يمر بالمراحل التالية: بادئ ذي بدء تعرض عليه الإسلام، واضحاً جلياً بيناً مدعماً بالأدلة، لذلك قال بعض العلماء: من عرض الإسلام عرضاً سطحياً، عرضاً غير متين، عرضاً هزيلاً، عرضاً غير متماسك، ثم إنه لم يستخدم الأسلوب الصحيح التربوي أو العلمي، واستخدم أسلوباً آخر مبنياً على الخرافة والخدع، وعلى المنامات والكرامات، ثم إن هذا المدعو إذا لم يجد في الداعي مصداقية في سلوكه لا يعد هذا المدعو مبلغاً عند الله، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة. السلام يعني أن تعرض على الناس الإسلام أولاً، فإن قبلوه فهم منا ونحن منهم، أي مشرك أو كافر إذا عرضت عليه الإسلام فقبله أصبح جزءاً منك، له ما لك وعليه ما عليك، أما إذا رفضه تدعوه لدفع الجزية، وهو حل وسط.

لأن في الإسلام جهاداً، وغير المسلم لا يكلف بالجهاد، لأن الجهاد بالإسلام جهاد عقائدي لا جهاد نفعي، لا يقاتل إلا من يعتقد بالله عز وجل، وبأركان الإيمان، وبأركان الإسلام، ويجاهد لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولئلا تكون فتنة ويكون الدين لله.

فهذا المشرك الذي لم يسلم لا يحق له أن يجاهد، لكن المسلمين مكلفون أن يحفظوا له حياته ومصالحه، فلا بد من دفع البدل النقدي وهو الجزية، فإن أبى أن يسلم، وإن أبى أن يدفع الجزية فلا بد من أن يقاتل!

نظام الجهاد :

الآن: حينما تقاتل الكافر ليس القصد أن تقتله، وليس القصد أن تبيده، ليس في الإسلام حرب إبادة، الإسلام دين إنساني، وكلمة إنساني رائعة جداً، قد تجد بعض الدول في العالم الغربي تعتني بشعوبها عناية تفوق حد الخيال، أما مع الشعوب الأخرى فيذبحونهم، ويقتلونهم، وينهبون ثرواتهم، ويشيعون الفوضى في حياتهم، ويقهرونهم ليستغلوا ثرواتهم، هؤلاء ينبغي ألا تحترمهم لأنهم ليسوا إنسانيين. لذلك ورد في حديث شريف عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَنَس]

من أخوه؟ اختلف العلماء! بعضهم قال: أخوه النسبي، بعضهم قال: أخوه الإيماني، لكن الصحيح أخوه في الإنسانية، لا يمكن أن تكون مقبولاً عند الله إلا إذا عاملت كل البشر كما تحب أن يعاملوك، لأن الإنسان على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبله.

متى تقاتله؟ حينما يرفض الإسلام، وقد عرضته عرضاً صحيحاً دقيقاً متماسكاً عميقاً مدعماً بالأدلة والشواهد، وعرضته بأسلوب علمي وتربوي، وكنت صادقاً في عرضك، لأنك مطبق لما تقول، الآن هذا المدعو يعد مبلغاً عند الله، إن أبى على كل هذه الميزات فينبغي أن تأمره بدفع الجزية، فإن رفض وجب أن تقاتله، فإن قاتلته ليس القصد أن تبيده، ولا أن تمحقه، القصد أن تأخذ بيده إلى الله عز وجل، فينبغي أن يقع أسيراً قبل أن تقتله، إذا وقع أسيراً فرزته لأحد بيوت المؤمنين، تعلم الإسلام العملي، من كان عقله مغلقاً، وأبى أن يؤمن، ربما يؤمن لا بالإقناع النظري ولكن بالمعاملة الطيبة.

أيها الأخوة، القصص التي تروى عن أصحاب رسول الله تنفيذاً لتوجيهات النبي في معاملة الأسرى لا تصدق!

لا يمكن لمؤمن أن يؤثر الأسير بطعامه، وبشرابه، وبلباسه، فحينما رأى الأسير معاملة فائقة في الكمال، معاملة فائقة في الإنسانية دخل الإسلام إلى قلبه، فإن آمن الأسير أصبحوا أخواننا! لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، هذا هو النظام في الجهاد.

لكن أحياناً تلتبس الأمور أنت تقاتل، وينبغي أن تنتصر، ويغيب عنك أن هذا الذي تقاتله قد يأخذ قرار بالإسلام، وهو في المعركة! يقول لك: السلام عليكم، عندئذ ينبغي أن تكف عن قتله، لأنه لعله اهتدى إلى الله، وهو يقاتل. إذاً جاءت هذه الآية ضمن آيات القتال كي تعلمنا أنه ليس المقصود أن تقتل، المقصود أن تهدي، لم يبعث الله النبي عليه الصلاة والسلام قاتلاً للكفار، بل بعثه هادياً لهم لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 6]

ينبغي أن تُسمِع هذا الطرف الآخر كلام الله.

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)

[سورة التوبة: 6]

أحاديث كثيرة وردت في السنة الشريفة عن وجوب إفشاء السلام :

أيها الأخوة، في السنة الشريفة وردت أحاديث كثيرة عن وجوب إفشاء السلام، فعَنْ مُعَاوِيَة بْن سُوَيْدٍ قالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا:

((أَمَرَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ...))

[صحيح البخاري عَنْ مُعَاوِيَة بْن سُوَيْدٍ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[صحيح مسلم وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

عوّد نفسك أن تسلم على كل إنسان، بل إن بعض الصحابة الكرام يسلك على أخيه، ويمشي معه، فتعترض طريقهما شجرة تفرقهما في المشي، فإذا التقيا ثانية سلم أحدهما على الآخر**!** أرأيت إلى هذا؟**!!**

كنت في مجلس، قمت لشأن من شؤونك، وعدت إليه تقول: السلام عليكم، عود نفسك أن تفشي السلام، وكلمة سلام هي اسم الله، والسلام يعني السلامة في كل مفاهيمها وفي كل حدودها. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ:

((لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَهُ، وَقِيلَ: قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثاً، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

[سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ]

وهو حديث صحيح:

((أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

نماذج من صيغ السلام التي وردت في القرآن الكريم :

الآن كيفية السلام: أعرض لكم أيها الأخوة نماذج من صيغ السلام التي وردت في القرآن:

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا)

[سورة هود: 48]

وعن الخليل قال:

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

[سورة مريم: 47]

أنت بسلام منا، أو سلام عليك، وفي قصة لوط قال:

(فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[سورة الذاريات: 25]

وعن يحيى:

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)

[سورة مريم: 16]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)

[سورة النحل: 59]

وعن الملائكة قال:

(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

[سورة الرعد: 23-24]

وعن ذاته العليا قال:

(سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

[سورة يس: 58]

(فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)

[سورة الأنعام: 54]

ومن سلامات القرآن:

(وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

[سورة طه: 47]

وهذه فيها لفتة ذكية جداً، قد تضطر لتخاطب إنساناً كافراً لمصلحة المسلمين، كيف تبدأ السلام؟

(وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

[سورة طه: 47]

فإن كان مهتدياً فالسلام يقع عليه، وإن كان غير مهتد فلا يعنيه السلام. وعن عيسى عليه السلام قال:

(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

[سورة مريم: 33]

لك أن تقول: سلام عليكم، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

طرح السلام مندوب لكن ردّ السلام واجب :

الآية الكريمة:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا)

طرح السلام مندوب، لكن ردّ السلام واجب، يرقى إلى مستوى الواجب، ومن لم يرد السلام يقع في إثم كبير، طرح السلام مندوب، تطرحه أو لا تطرحه، أما رد السلام فهو واجب. عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ:

((أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرٌ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِشْرُونَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثَلَاثُونَ))

[سنن الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

ثلاثين حسنة! قال الترمذي: حديث حسن، في رواية أبو داود عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قال:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ جَلَسَ، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرٌ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فقالَ: عِشْرُونَ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ فقالَ: ثَلَاثُونَ... زَادَ ثُمَّ أَتَى آخَرُ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ، فقالَ: أَرْبَعُونَ، قالَ: هَكَذَا تَكُونُ الْفَضَائِلُ))

[سنن أبي داود عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)

طرح، إذا حيّاك إنسان غير مسلم:

(أَوْ رُدُّوهَا)

إذا حيّاك إنسان مسلم تقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته. وفي حديث آخر عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ:

((أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرٌ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِشْرُونَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثَلَاثُونَ.))

[سنن الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

حكم السلام في مجلس العلم :

في رواية أخرى عن ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((أن رجلاً مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، ثم مر آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، ثم مر آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون، فقام رجل من المجلس ولم يسلم....))

[ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

بالمناسبة إذا كنت في مجلس علم لا ينبغي أن تسلم! كلما دخل إنسان السلام عليكم! يرد عليه معظم الحاضرون، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ألغي الدرس! ففي مجلس العلم، ادخل واجلس، له حكم خاص.

يروي ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((أن رجلاً مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، ثم مر آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، ثم مر آخر فقال:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون، فقام رجل من المجلس ولم يسلم فقال عليه الصلاة والسلام: ما أوشك ما نسي صاحبكم))

[ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

إذا جاء أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، وإن قام فليسلم، عليك أن تسلم إذا حضرت، وأن تسلم إذا غادرت، لكن مجلس لا مجلس علم.

دخلت بيت فيه ضيوف، أو لقاء، أو وليمة السلام عليكم، غادرت، السلام عليكم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ))

[سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي إذا غادرت ينبغي أن تسلم، لكن يوجد بعض التوجيهات: أنك إذا دخلت سلم، وصافح الناس واحداً واحداً، أما إذا غادرت فلك أن تسلم دون أن تصافح:

((أبخلُ الناسِ من بَخِلَ بالسلامِ))

[الديلمي عن أبى هريرة]

بخيل جداً! تركب بالمصعد مع رجل آخر يتأمل بك، يزورك فقط، قل له: السلام عليكم، تلتقيان في مدخل بيت..

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في السلام :

من علامات قيام الساعة أنك لا تسلم إلا على من تعرف! أما الذي لا تعرفه فلا تسلم عليه.

((أبخلُ الناسِ من بَخِلَ بالسلامِ))

[الديلمي عن أبى هريرة]

أبخل الناس من بخل بالسلام،

((إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر))

[الطبراني في الأوسط عن حذيفة]

وفي حديث آخر:

((إذا التقى المؤمنان فسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصافحا كان أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه ونزلت بينهما مئة رحمة للبادي تسعون وللمصافح عشر))

[البيهقي عن عمر بن الخطاب]

سلمت عليه بحرارة، وابتسمت، أقرب الرجلين إلى الله من كان سلامه أشد حرارة وبشراً وطلاقة، فإذا تصافحا نزلت عليهما مئة رحمة، للبادئ منهما تسعون وللمصافح عشرة.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ))

[سنن أبي داود وعَنْ أبي أُمَامَةَ]

الذي يبدأ بالسلام هو الأقرب لله عز وجل، يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، خمسة يسيرون في الطريق، ورجل جالس، ليس هناك من مبرر أن يقول كل واحد من هؤلاء لهذا الجالس: السلام عليكم، من هؤلاء الجمع يكفي أن يسلم واحد منهم نيابة عن بقية إخوانه.

ومن توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام: لو كان جمع يجلسون ومر جمع أو واحد، الواحد ألقى السلام، أو واحد من الجماعة ألقى السلام نيابة عن الجمع، يكفي أن يسلم من الجلوس واحد نيابة عن الجلوس، واحد بواحد، وكأنه بفرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل. ومن أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا قال لك مثلاً: كنت والله في حلب، والتقيت بصديق لك، وبلغني أن أقرئك السلام! ماذا تقول له أنت؟ وصل! تقول له: عليك وعليه السلام.

يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام، قالت: وعليه السلام ورحمة الله، يا رسول الله ترى ما لا نرى، هو رأى جبريل وسمعه، وقرأ عليها السلام قالت: وعليه السلام ورحمة الله.

من أحكام السلام :

عن غَالِبٌ الْقَطَّانُ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ:

((أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَنْهَلٍ مِنَ الْمَنَاهِلِ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْإِسْلَامُ جَعَلَ صَاحِبُ الْمَاءِ لِقَوْمِهِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ عَلَى أَنْ يُسْلِمُوا فَأَسْلَمُوا وَقَسَمَ الْإِبِلَ بَيْنَهُمْ وَبَدَا لَهُ أَنْ يَرْتَجِعَهَا مِنْهُمْ فَأَرْسَلَ ابْنَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: ائْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَإِنَّهُ جَعَلَ لِقَوْمِهِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ عَلَى أَنْ يُسْلِمُوا فَأَسْلَمُوا وَقَسَمَ الْإِبِلَ بَيْنَهُمْ وَبَدَا لَهُ أَنْ يَرْتَجِعَهَا مِنْهُمْ أَفَهُوَ أَحَقُّ بِهَا أَمْ هُمْ؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ: نَعَمْ أَوْ لَا، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ وَهُوَ عَرِيفُ الْمَاءِ وَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ لِيَ الْعِرَافَةَ بَعْدَهُ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكَ السَّلَامَ فَقَالَ: وَعَلَيْكَ وَعَلَى أَبِيكَ السَّلَامُ...))

[سنن أبي داود عن غَالِبٌ الْقَطَّانُ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

أيها الأخوة، من أحكام السلام: إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حجر، ثم لقيه فليسلم عليه.

أحياناً الإنسان يركب مركبة مع بعض إخوانه المؤمنين ينزل منها لشأن ثم يعود، إذا عاد إليها يقول: السلام عليكم، هذا من أدب الإسلام. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال:

((إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ))

[سنن أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ومن الندب أيضاً أنه من سلم عليه إنسان، ثم لقيه عن قرب ندب التسليم عليه ثانياً. رآه على الرصيف المقابل قال: السلام عليكم، بعد حين هذا الصديق انتقل للرصيف الأول، والتقى بأخيه ثانية، يجب أن تعيد عليه السلام مرة ثانية.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

من أدب السلام في الجماعات الدينية! عَنْ أَنَسٍ قال:

((مَرَّ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَلْعَبُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا صِبْيَانُ))

[مسند الإمام أحمد عَنْ أنَس]

الابتعاد عن المصطلحات الغير إسلامية والتسليم بسلام رسول الله :

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام: إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم، قال لك: السلام عليكم، أراد شيئاً آخر، قل له: وعليكم، كما قال.

أحياناً يكون في السوق تجمع حول حاجة، دخلت أنت للتجمع، قلت: السلام عليكم، لا يعنيك أن يكونوا كلهم مسلمون أو نصفهم أو أكثرهم. عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ أَخْبَرَهُ:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِمَجْلِسٍ وَفِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ))

[سنن الترمذي عَنْ عُرْوَةَ]

أيها الأخوة، أحكام السلام: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا ما قاله العلماء قاطبة، لقوله تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)

كلمة حسيباً: إن لم ترد السلام يحاسبك، وإن بدئتَ بالسلام، وأنت في المعركة، وقتلته تحاسب! معنى هذا أنه استسلم لك، وانصاع لدينك فلا ينبغي أن تجعل الهدف هو القتل، ينبغي أن تجعل الهدف هو الهداية.

أيها الأخوة الكرام، هناك أناس يتوهمون أنهم راقون يقول لك: باي، كل السلامات الذي يستخدمها الطرف الآخر ينبغي ألا تستخدمها، مصطلحات كثيرة مرحباً، باي، هاي، هذه كلها سلامات ينبغي علينا أن نبتعد عنها، ونسلم بسلام رسول الله، وباسم الله السلام، نطرح السلام بود على من نعرف وعلى من نعرف.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(41-69): تفسير الآيتان 87-88 ، صحة الرؤية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-12-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الذي خلق الإنسان وأمدّه بكل شيء وسيَّره هو ذاته سيحاسبه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

هناك معنىً دقيق مستفاد من مقطعين في الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أي هو الواحد، هو الفرد المتصرف، إليه يُرجع الأمر كله، منهجه واحد، هداه واحد، الحق واحد، الإله الذي خلق، والذي سيَّر هو نفسه سيسأل، وسيحاسِب، وسيعاقِب، تكون في بلد، وقوانينه تطولك بعقاب أليم، فتنتقل إلى بلد آخر، في البلد الآخر قوانينه لا تطولك، لكن المعنى المستفاد هنا في هذه الآية هو أن الذي خلق الإنسان، والذي أمده بكل شيء، وأن الذي بيده كل شيء، وسيَّره هو ذاته سيحاسبه، لذلك ما من عاصٍ يعصي الله وهو يعصيه يرى العقاب فيعصيه، لكن الذي يعصي الله يتوهم أن الله لا يعاقبه، وأنه سيتفلت من عقابه، ولن يسبق أحد الله عز وجل:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

[سورة الأنفال: 59]

معنى سبقوا أي تفلتوا من عقاب الله عز وجل.

التلازم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر :

أيها الأخوة، الشيء الذي يلفت النظر هو أنه ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن تلازماً كثيراً كتلازم الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يكفي أن تؤمن بالله، خالق هذا الكون، رب هذا الكون، إله هذا الكون، لا بد أن تضيف إلى إيمانك بالله إيماناً باليوم الآخر، الإيمان باليوم الآخر هو الذي يضبط الناس، هو الذي يحجزهم عن معاصي الله، هو الذي يمنعهم أن يأكلوا المال الحرام، هو الذي يمنعهم أن يعتدوا على أعراض الناس، هو الذي يمنعهم أن يحتالوا، أن يغشوا، أن يكذبوا، أن ينتقموا، أن يظلموا، ما من إنسان تراه يعتدي على أموال الناس، أو على أعراضهم، أو يظلمهم، أو يكذب عليهم، أو يحتال عليهم، إلا وهو ضعيف الإيمان باليوم الآخر، لو أن الإيمان باليوم الآخر

كان دقيقاً ومحققاً لما عصى إنسان ربه، إنك مع قوي في الدنيا إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه، وربما لا تحبه، لكنك تحب نفسك، فلا يمكن أن تضع نفسك في مجال عقابه، هذا مع إنسان قوي في الدنيا فكيف مع خالق الأكوان؟ الرحمن الرحيم ذي الجلال والإكرام.

أيها الأخوة الأحباب:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هذه كلمة الإسلام الأولى، هذه كلمة التوحيد، لا رافع ولا خافض، ولا معطي ولا مانع، ولا معز ولا مذل، ولا شافي ولا قابض ولا باسط إلا الله، هذا الإله العظيم الذي بيده كل شيء له منهج، افعل ولا تفعل، وأنت محاسب يوم القيامة على منهج الله وحده، أي منهج أرضي لا تحاسب عليه، تحاسب على منهج السماء، لذلك قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: 185]

الفوز أن تفوز بالجنة، والخسارة أن تخسر آخرتك.

كل مقاييس الأرض معطلة يوم القيامة ولا قيمة لها :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ)

هو الذي منحكم الوجود، ومنحكم الإمداد، هداكم وأرشدكم، أعطاكم تشريعاً، هو نفسه سيسألكم عنه، أحياناً في التعليم تدرس في مدرسة، وتقدم امتحاناً عامّاً، الذي أعطاك الدروس لن يسألك، ستسألك جهة أخرى، لا يمكن أن يكون هناك ازدواجية في المناهج، منهج واحد؛ منهج الخالق عنه تحاسب يوم القيامة.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25-26]

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

وقد تعلمنا من القرآن الكريم أن تأخذ إخبار الله على أنك تراه، لأن الله سبحانه وتعالى أصدق القائلين:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

ترَ أي ينبغي أن تستقبل إخبار الله لك على أنك تراه، فلذلك:

(يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

لا ريب في وقوعه، ولا ريب في أحقيته، ولا ريب في أنه في هذا اليوم يكرم المحسن ويعاقب المسيء، وأن كل مقاييس الأرض معطلة يوم القيامة، هناك ألقاب عالية اخترعها الإنسان، هذه يوم

القيامة لا قيمة لها، هناك أشخاص أغنياء الغنى لا ينفعهم يوم القيامة، لو أنه يملك ما في الأرض جميعاً لافتدى بما يملك من سوء العذاب، هناك أقوياء جداً، قوتهم لا تمنعهم من عذاب الله يوم القيامة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

جئتمونا فرادى، لا يأتي القوي بجمعه يوم القيامة، لا يأتي القوي بمن حوله يوم القيامة، القوي يأتي فرداً ضعيفاً، الغني يأتي فقيراً.

أخطر شيء في حياة الإنسان رؤيته :

أيها الأخوة الكرام، إله واحد، خالق واحد، رب واحد، منهج واحد، يوم حساب واحد، هذه حقيقة هذه الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

أي إنسان أقدم على معصية لو أنه استحضر عظمة الله، لو أنه استحضر أنه سيوقف يوم القيامة ليُسأل لمَ عصيت؟ لم أكلت أموال الناس بالباطل؟ لم غششتهم؟ لم احتلت عليهم؟ لم أفسدتهم؟ الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، ما من إنسان يستحضر يوم القيامة في كل حركاته وسكناته إلا استقام على أمر الله، والويل لمن لا يستحضر هذه العظمة يوم القيامة، لمن لا يستحضر عظمة يوم القيامة في الدنيا، المجرم لماذا يرتكب الجريمة؟ لأنه يغلب على ظنه أنه سيسلم من العقاب، وأنه سيتمتع بهذا المال، ولو أنه استحضر الإعدام لما أقدم على هذه الجريمة، سارق، لماذا يقدم على السرقة؟ لأنه يغفل عن العقاب، يستحضر الجانب الذي يتوهمه صحيحاً، أنه سيستمتع بهذا المال، ولو استحضر أنه يلقى القبض عليه ويودع في السجن لما سرق، لذلك ضعف رؤية، وأخطر شيء في حياة الإنسان رؤيته، ماذا ترى أنت؟ ألم يدعو اللهم أرنا الحق حقاً، لماذا دعا بهذا الدعاء؟ لأن من الناس من يرى الحق باطلاً، ومن الناس من يرى الباطل حقاً، من الناس من يرى كسب المال الحرام غنيمة، وإيقاع الأذى بالناس غنيمة، والاحتيال على الناس مغنم كبير، ما من خطأ يقع من الإنسان إلا لخطأ في رؤيته، لو رأى الحق حقاً فاتبعه، ورأى الباطل باطلاً فاجتنبه لما شقي لا في الدنيا ولا في الآخرة، قضية الرؤيا، مرة أقول: لا تحب أحداً أحب نفسك. إن كنت مفرطاً في حب ذاتك فلا بد أن تستقيم على أمر الله، لأن الخير كله في طاعة الله، ولأن الشر كله في معصية الله، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وأن تعصيه وتربح، صحح رؤيتك، الناس يعيشون لحظتهم ولا يعيشون مستقبلهم، يريد مالاً وفيراً، بيتاً كبيراً، زوجة رائعة، مركبة فارهة، يعيش لحظته، فإذا جاء يوم الحساب نـدم أشد الندم.

البطولة أن ترى مستقبلك قبل أن تصل إليه :

إذا جاء يوم الحساب يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَد* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: 24-26]

كل بطولتك أن ترى مستقبلك قبل أن تصل إليه، أن ترى العقاب قبل أن تناله، أن ترى الثواب قبل أن تأخذه، أن تعيش المستقبل:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ألا ترون ما يجري في العالم؟ ألا ترون ما يجري من انتهاك لحقوق الإنسان؟ من قتل وتدمير؟ من إذلال وتقتير؟ من إفقار وتجهيل؟ هؤلاء الذين يفعلون هذا ليس لهم رؤية صحيحة أبداً، يرون الفوز في السيطرة، يرون القوة في الغطرسة، أما حينما ترى أن لهؤلاء إلهاً سوف يحاسبك عن كل قطرة دم أريقت، وعن كل دمعة هطلت من عين بائس، وعن كل طفل، لو رأى الطاغية الذي يفعل هذه الأفعال ما ينتظره من عقاب لصعق ومات.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

كلما ازداد علمك بالله صحت رؤيتك وصحّ عملك فسعدت في الدنيا والآخرة :

قضية رؤية أيها الأخوة، أنت حينما ترى الحق حقاً تتبعه، وحينما ترى الباطل باطلاً تجتنبه، قضية رؤية فقط، إن صحت الرؤية صح العمل، وإن فسدت الرؤية فسد العمل، سيدنا يوسف هذا النبي الكريم حينما دعته امرأة العزيز ماذا رأى حتى قال: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين؟ مليون إنسان يوضع في مثل ظرفه فيرى الإقبال على الأمر مغنماً كبيراً، ماذا رأى؟ رؤيا**!!** صحح رؤيتك، كلما ازداد علمك تصح رؤيتك، لماذا يأتي إنسان يأكل فاكهة دون أن تغسل ولا يشعر بشيء، أما الطبيب الذي يرى الأمراض الفتاكة والأمراض الإنتانية، وعدوى الأمراض والجراثيم، وما تفتك بالإنسان، لا يأكلها قبل أن يغسلها؟ علم الطبيب أكسبه رؤية، فغسل كل شيء وعقمه قبل أن يأكله، والجاهل بأمور الجراثيم والعدوى والأمراض جهله جعل رؤيته منطمسة، فأكل فاكهة دون أن يغسلها، فمرض**!!** مشكلة الرؤية، قد يأتي إنسان يجهل القانون فيرتكب حماقة تدمره، يأتي إنسان متمكن من القوانين فيمشي وفق القوانين فيسلم في دنياه، قضية رؤية، قد يرى هذا الإنسان أنه أنجب هذا الولد وانتهى الأمر، ولن يكون عبئاً عليه، أما حينما يكتشف بعد حين أنه خسر ولده وأن ولده غارق في الموبقات والمعاصي والآثام، يندم ندماً لا حدود له، أما إذا رأى أنه لا يسعد إلا

بسعادة ابنه، ويشقى بشقائه، هذه رؤية، كلما ازداد علمك بالله صحت رؤيتك، وإن صحت رؤيتك صح عملك، وإن صح عملك سعدت في الدنيا والآخرة، وكلما ضعف علمك فسدت رؤيتك، وإن فسدت رؤيتك فسد عملك، وإن فسد عملك شقيت في الدنيا والآخرة.

الله وحده يحاسب الناس يوم القيامة :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ليس في الكون إلا الله، وليس في الأرض إلا الله، وليس من متصرف إلا الله، وليس من معطٍ إلا الله، وليس من مانع إلا الله، أما هذه القوى التي تتبجح وتهدد وتتغطرس هي بيد الله، هي في قبضة الله، لا ترى الوحش الكاسر لكن انظر من يملك زمامه، إليه يرجع الأمر كله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ*إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

أيها الأخوة، أبرز ما في هذه الآية أن الذي خلق، ومدَّ، وسيَّر، ووضع لك منهجاً هو وحده سوف يحاسبك يوم القيامة، ليس من إله آخر يحاسبك حساباً آخر، ليس من إله آخر يسوي مشكلات الناس تسوية أخرى، إله واحد، خالق، مربٍ، مشرع، واضع المنهج، يعلم وسيحاسب وسيعاقب، هذا معنى الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

الله عز وجل إن أخبر عن شيء فينبغي أن يؤخذ وكأنه وقع :

طبعاً كلكم يعلم إن درستم علم البلاغة أن الكلام خبرٌ وإنشاء، فالإنشاء كالأمر، والنهي، والتمني، والترجي، والاستفهام، والحض، هذا كلام، لو قلت لأحدهم: كم الساعة؟ هل يمكن أن تقول له: كذاب؟ الكلام الذي لا يحتمل الكذب والصدق يقال له كلام إنشائي، أي كلام لم يقع بعد، أسألك: ما اسمك؟ كم الساعة؟ السؤال، والاستفهام، والتمني، والترجي، والحض، هذه أساليب الإنشاء، لأنها لا تحتمل الصدق والكذب، أما هناك نوع آخر من الجمل هي الجمل الخبرية، مثال: سافر أخي، قد يكون سافر، أو يكون لم يسافر، هذا الكلام الخبري يحتمل الصدق والكذب، لكن إذا كانت الآية خبرية الصيغة مثل هذه الآية:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

هو كلام خبري بحسب علم البلاغة، يحتمل الصدق والكذب، لكن لأنه كلام الله عز وجل:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

يجب أن تأخذه وكأنك تراه، يجب أن تأخذه وكأنه وقع، ألم يقل الله عز وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

معنى هذا أنه لما يأت بعد، يجب أن تأخذ أمر الله الذي لم يأت وكأنه أتى.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

[سورة المائدة: 116]

هذا القول سيكون يوم القيامة، لأن الله عز وجل إن أخبر عن شيء فينبغي أن يؤخذ وكأنه وقع.

لولا الإيمان باليوم الآخر لكان بطن الأرض خيرٌ لنا من ظهرها :

قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

لا ترتاح النفوس أيها الأخوة إلا بالإيمان باليوم الآخر، والله الذي لا إله هو إن ما يجري في العالم اليوم لولا أن هناك يوماً آخر، يوماً تسوى فيه الحسابات، يوماً يعاقب فيه الظلمة، يوماً يكافأ فيه المحسنون، يوماً يؤخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من القوي، لكان بطن الأرض خيراً من ظهرها، لولا الإيمان باليوم الآخر، لولا الإيمان أن هؤلاء الذين يتجاوزون الحدود ويذلون الشعوب، لولا أننا نؤمن أنهم خاسرون يوم القيامة، لكان بطن الأرض خيرٌ لنا من ظهرها.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً * فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

(ما لكم) استفهام تعجبي، لماذا أنتم هكذا؟ ما لك لا تدرس؟ ما لك لا تستجيب؟ ما لك لا تأخذ بالأسباب؟ ما لك لا تدرس؟ أنا أعجب من عدم دراستك، الأمور كلها ميسرة، أنت في ثانوية جيدة، ولك أب ينفق عليك، ويتمنى أن تكون من الأوائل، والكتب بين يديك، والأساتذة متفوقون، والمدرسة رائعة جداً، ما لك لا تدرس؟ ما لكم استفهام تعجبي.

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ)

لماذا تعددت رؤيتك للمنافقين؟ لماذا وقعتم في حيرة من موقفكم منهم؟ لماذا ذهب فريق إلى رأي وفريق إلى رأي آخر؟ لمَ لمْ توحدوا موقفكم منهم؟ لمَ لمْ تكن لكم رؤية واحدة تجاه المنافقين؟

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ)

المنافق مكانه في الدرك الأسفل من النار لأن إيمانه شكلي :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

أركسهم بمعنى أعادهم، كانوا كفاراً فأسلموا، ونافقوا، وقد أعادهم الله كفاراً، بل إن عذابهم يوم القيامة أشد من عذاب الكفار، لقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء: 145]

أركسهم بالعدل، أركسهم بما ظلموا، أركسهم بما كسبوا، هذا الذي يقطف ثمار المؤمنين وهو ليس مؤمناً، ويقطف ثمار التفلت من منهج الله، وهي مكاسب الكفار كما يتوهمون، هذا الذي يجمع بين مكاسب المؤمنين وهو ليس مؤمناً، وبين ما يتوهمه الكافر أنه مكاسب وهو كذلك، هذا مكانه في الدرك الأسفل من النار.

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

أي أعادهم إلى سيرتهم الأولى، هم أرادوا بالنفاق أن يغنموا لا أن يوحدوا، أحياناً الإنسان يرى مصلحته أن يكون مع أهل الإيمان، قد يرى مصلحته التجارية فقط، وقد يرى مصلحته الأسرية فقط، فكم من إنسان أسلم ليتزوج من امرأة رائعة؟ ولا ينعقد العقد إلا إذا أسلم، فالمنافق بالتعبير المعاصر وصولي يبرر الوسائل غير الشريفة لأهداف غير شريفة، المنافق همه المصلحة، همه الهوى والدنيا، إذا آمن إيماناً شكلياً فلمصلحة راجحة تتحقق عنده.

الإضلال إذا عُزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

قال تعالى:

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

أي أن نفاقهم مكشوف عند الله عز وجل:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة: 14-15]

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

أقول دائماً أيها الأخوة: إن الإضلال إذا عزي إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، كقوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: 5]

الإنسان حينما يختار طريقاً آخر كي يصل إلى الله فلن يصل إليه :

الإضلال إذا عزي إلى الله في بعض الآيات قال العلماء: إنه الإضلال الجزائي، الذي يبنى على ضلال اختياري، تماماً كما لو أن طالباً في الجامعة لم يدرس، ولم يداوم، ولم يشتر الكتب، ولم يحضِّر، ولم يذاكر، ولم يؤدِّ الامتحان، وجاءه إنذارٌ تلو الإنذار كي يعود إلى الجامعة، فيداوم، ويدرس، وهو يرفض أشد الرفض، ثم صدر قرار بترقين قيده، أليس هذا القرار تجسيداً لرغبة الطالب؟ هذا الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، المنافق أراد الدنيا، لكن أراد الدنيا من خلال اندساسه في صفوف المؤمنين، أراد الدنيا من خلال المؤمنين، هو منافق إذاً:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

قد يفهم من الآية أنه أضل نفسه عن الله عز وجل، أراد الدنيا، أراد أهل الدنيا، أراد مال الدنيا، أراد متع الدنيا، أراد شهوات الدنيا، أعرض عن الدين، وعن بيوت الله، وعن تلاوة كتاب الله، وعن طلب العلم، وعن الاستقامة والعمل الصالح، أراد الدنيا:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

أي أن الله عز وجل رسم طريقاً إليه، لا يمكن أن تصل إليه إلا من خلال هذا الطريق، كيف أن الدولة اليوم رسمت طريقاً للطبيب، لا بد من شهادة ثانوية بمجموع عالٍ، لا بد من سنة في العلوم، وسنة في التشريح، وسنة في الفيزيولوجيا، وسنة في علم الأمراض، وسنة في الأدوية، هذا هو الطريق، لا يمكن لإنسان كائنٍ من كان أن يزاول مهنة الطب إلا من خلال هذا الطريق، فالذي أراد أن يكون طبيباً من خلال قراءة بعض المجلات الطبية يودع في السجن، لا يمكن أن تفتح عيادة وتقول: أنا طبيب، وثروتك في الطب قراءة بعض المجلات الطبية، فلذلك الله عز وجل رسم طريقاً إليه، لا يمكن أن تصل إليه إلا عن هذا الطريق، وهذا معنى قوله تعالى:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

أي أن الإنسان حينما يختار طريقاً آخر كي يصل إلى الله فلن يصل إليه.

أيها الأخوة الكرام نتابع هذه الآيات في درس قادم إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

النفاق نوعان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية التاسعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

أيها الأخوة الكرام، كما قلت سابقاً المؤمن واضح، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْن عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ:

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا...))

[الإمام أحمد عن العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ]

والكافر واضح، أنكر وجود الله، أنكر شرعه، أنكر الوحي، أنكر البعث، أنكر النشور، وسلك سلوكاً ينسجم مع ما يعتقد، فالكافر خطر بقوته على المسلمين، لكن ليس خطراً بأفكاره على المسلمين، لأن المسلم معه الحق، من هو الخطر؟ المنافق!! الذي يتكلم بما يتكلم به المسلمون ويفعل بخلاف ذلك، هؤلاء المنافقون كما قلت من قبل نوعان؛ نوع هو كافر يقيناً، بل هو في الدرك الأسفل من النار، هو كافر لكنه أراد أن يجمع بين ميزات المسلمين وبين تفلته من شرع الله فكان في الدرك الأسفل من النار، النوع الآخر من النفاق ضعف إما في العقيدة أو أمام الشهوة، إما أن الشبهات تراكمت في عقله، أو أن الشهوات غلبته على يقينه، النوع الثاني من المنافقين يرجى لهم النجاة إذا تابوا، ورجعوا، وانضموا تحت لواء المؤمنين، لكن النوع الأول هم أكفر الكفار، بل إنهم أخطر من الكفار، لأنهم ليسوا واضحين.

المنافقون لا يقيَّمون عند الله بما يقولون بل يقيَّمون بما يفعلون :

قال تعالى:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

يقول الله عز وجل: إن هؤلاء المنافقين لا يقيَّمون عند الله بما يقولون بل يقيَّمون بما يفعلون، وهذه حقيقة، الإنسان لا يقيَّم عند الله بما يقول بل يقيَّم بما يفعل، لو قيَّمنا فرعون بما يقول:

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

[سورة غافر: 29]

هذه أقواله، ينبغي أن تقيّمه بأفعاله، كيف أنه ذبح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، يجب أن يقيَّم الإنسان بأفعاله، فلذلك هؤلاء المنافقون:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

ماذا حصل؟ المودة من فعل القلب، رغبة، طموح، يطمح المنافق الكافر أن يكون المؤمن كافراً مثله، لماذا؟ هذا الدين أيها الأخوة هو دين الفطرة، تطابق أحكام الدين مع تطابق بنود الفطرة تام كامل، أي أن النفس ترتاح لما يأمر به الدين، وتضطرب إذا فعلت ما نهى عنه، أعلمت أم لم تعلم، لمجرد أن تخرج عن مبادئ الدين أنت في الوقت نفسه خرجت عن مبادئ فطرتك، في الوقت الذي تخرج فيه عن مبادئ الشرع تخرج فيه عن مبادئ الفطرة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

[سورة الروم: 30]

الكآبة مرض المعصية :

أن تقم وجهك للدين حنيفاً أي أن تهتم، أن تشد النظر إليه، أن تميل إلى هذا الدين هو نفسه فطرتك.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم: 30]

أنت حينما تطبق تعاليم الدين تشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهلك، حينما تكون صادقاً تنام آمناً، حينما تكون أميناً تنام مطمئناً، حينما تنام عفيفاً تنام آمناً، حينما تعطي بالحق تكون مرتاحاً، حينما تأخذ الذي لك فقط تكون مرتاحاً، حينما تنصف تكون علماً دون أن تشعر، لمجرد أن تكون مطبقاً لتعاليم هذا الدين تنعكس عليك راحة كبيرة، أي بمثل بسيط جداً، مركبة غالية جداً، فاخرة جداً، حديثة جداً، إلا أنها مصممة للطرق المعبدة، إن سرت فيها في طرق وعرة فيها صخور وأكمات وانهدامات تنزعج أشد الانزعاج، تستمع إلى أصوات لا عهد لك بها، ترى السرعة بطيئة جداً، أصوات مزعجة، تعثر في السير، الذي يصمم لهذا الطريق المدرعات والمجنزرات، أما هذه المركبة مصممة للطريق المعبد، فلمجرد أن تسير بها على طريق معبد تختفي كل الأصوات، وتنطلق السرعة بأعلى درجة، وتشعر بقيمتها، هذه في أصل تصميمها للطرق المعبدة، فلمجرد أن تخرج عن الطريق المعبد، قرأت تعليمات الصانع أم لم تقرأ تنزعج، لو أنك عالم بتعليمات الصانع تنزعج، ولو أنك جاهل بتعليمات الصانع تنزعج، أي أن هذه المركبة خرجت على أصل تصميمها، فلذلك كثيراً ما نستمع اليوم إلى مرض الكآبة، مرض الكآبة هو أي إنسان خرج على مبادئ فطرته،

لم يؤمن بالدين، ولم يعبأ بالدين، فعل ما يشتهي، فلما فعل ما يشتهي عاقبته نفسه، وقع بالكآبة، لما أكل ما له وما ليس له وكان قوياً، كإنسان وصي على مال أيتام، وله مكانة كبيرة، ولا يجرؤ أحد أن يحاسبه، فأكل أموالهم بالباطل، لم يحاسبه أحد، لا قانون، ولا دولة، ولا أولاد، لكنه يقع في انهيار داخلي، وتعذبه نفسه، تؤنبه، وينهار داخلياً، يسقط من عين نفسه، يصاب بالكآبة، الكآبة مرض المعصية، أنت حينما تعصي الله!! هذه المركبة أزعجتك حينما سرت بها على الطريق الوعر، أعلمت تعليمات الصانع أم لم تعلمها، كلاهما واحد، مصممة على الطريق المعبد، فالإنسان حينما يأكل أموال الناس بالباطل، حينما يعتدي على أعراضهم، حينما يحتال، حينما يغش المسلمين، حينما يبني مصلحته على أنقاض الناس، حينما يبني غناه على فقرهم، لو لم يحاسبه أحد، لو لم يسائله أحد، هو منهار أمام نفسه، لذلك انعكاس هذا الانهيار كآبة، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

الإسلام دين الفطرة :

والله أيها الأخوة، يوجد في نفس العاصي أو الشارد عن منهج الله من الكآبة ما لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، هذه الكآبة تقود إلى الانتحار أحياناً، هذه الكآبة تقود إلى ردود فعل قاسية جداً، هذه الكآبة تقود هذا المكتئب إلى أن يشقى ويشقي، بيته جحيم، عمله فيه مفارقات حادة، فهذا المنافق يوم نافق استغل طيب المؤمنين، ولم يعبأ بتعاليم الدين، وقع في نفسه خلل، انهيار داخلي، مثال: أنت طبيب، والمريض بين يديك مفتوح البطن، مفتوح الصدر، وضعت له دسام من أسوأ الأنواع، وسجلت عليه دساماً من أغلى الأسعار، هل يمكن لهذا المريض أن يحاسبك؟ تركب الدسام في قلبه، والقلب مفتوح، ثم خيط الجرح، ولا أحد يطلع على ما فعله الطبيب، مثلاً، ينبغي أن يشعر هذا الطبيب بكآبة، لا أحد يمكن أن يحاسبه، لكن فطرته تحاسبه، إن أردت الراحة النفسية، إن أردت أن تكون أسعد الناس، إن أردت أن تنام مطمئناً، إن أردت أن تكون متفائلاً، إن أردت أن تكون حراً، إن أردت أن ترى أنك أسعد الناس في الدنيا، إن أردت أن ترى أن الدنيا شيء رائع جداً، فانسجم مع قوانين فطرتك، وقوانين فطرتك مطابقة لقوانين الله عز وجل، لذلك قالوا: الإسلام دين الفطرة، وكان أصحاب النبي عليهم رضوان الله كما وصفهم القرآن يفرحون بما أنزل الله إليهم، نفوسهم على فطرتها السليمة، فلما كان أمر لم ينزل فيه تشريع يتناقض مع فطرتهم يتألمون، فلما جاء التشريع يحرمه يفرحون، وعلامة أن فطرتك قد بقيت سليمة، الفطرة قد تنطمس أيها الأخوة، علامة أن فطرتك قد بقيت سليمة أنها تنسجم مع أوامر الله، فإن لم تنسجم صف نفسك بأنك لا سمح الله مطموس الفطرة، إذا حافظ الإنسان على سلامة فطرته هذا من نعم الله عز وجل، أي أن ينكر المنكر. الدليل: لماذا سمى الله المعصية منكراً؟ ولماذا سمى الله الطاعة معروفاً؟ ولماذا أمرنا أن

ننكر المنكر، وأن نأمر بالمعروف؟ ذلك أن المعصية تنكرها النفوس السليمة بحسب فطرتها، وأن الطاعة تحبذها الفطر السليمة بحسب فطرتها، بل لماذا في بعض البلدان يأتون بالمحلفين؟ المحلف إنسان من قارعة الطريق، تعرض عليه جريمة فبحسب الفطرة يدلي برأيه، هذا المحلف ليس قاضياً ولا مختصاً، ولا متبحراً في الحقوق، بل هو إنسان عادي، لكن بحسب فطرته قد يكشف الحقيقة.

الله يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين :

هذا التمهيد أيها الأخوة، لمنافق خرج عن شرع الله، عن علم أو عن غير علم، فلما خرج عن علم أو عن غير علم اختلت فطرته، ألا تلاحظ الهرة حينما تطعمها قطعة لحم تأكلها أمامك؟ لأنها تفعل شيئاً مشروعاً، أما حينما تخطف لحمة أين تأكلها؟ بعيدة عنك، لأن فطرتها سليمة، أكلت ما ليس لها، فابتعدت عنك، وهربت بها، فأنت بالعقل تعرف الله، وبالفطرة تعرف خطأك، فالمنافق لما خرج عن قوانين الله، وعن أحكام الشرع، ومبادئ فطرته اختل توازنه، الحالة المرضية سمها كآبة، سمها اختلال توازن، سمها انهياراً داخلياً، حالة مرضية، كيف تعالج؟ أي إنسان في بلد من البلدان، جريمة قتل، لكنها ذكية جداً، أي بشكل سم بطيء، ومات الإنسان، وجاء الطبيب، وعرف الحقيقة، لكن دفع له الملايين، فأفاد أن هذا الموت موت طبيعي، هل تراه مرتاحاً؟ لا أحد كشفه إطلاقاً، لو أن محامياً عرض عليه موكل قضية خاسرة مئة بالمئة، وأوهمه أنها تنجح في خلال هذه السنوات ماذا يشعر هذا المحامي؟ لو أن مدرساً أعطى أسئلة فوق مستوى الطلاب جميعاً، كي ينالوا درجات متدنية جداً، وكي يلجؤوا إليه في دروس خصوصية مثلاً، أتراه مرتاحاً؟ كنت أقول مرة: إن فندقاً في ألمانيا كتب على السرير: إن لم تنم، وتقلبت طول الليل فالعلة لا في فرشنا، بل في ذنوبك.

الإنسان المؤمن المستقيم الذي لم يبن مكانته على أنقاض الآخرين، ولم يبن غناه على فقرهم ينام مطمئناً، هذه السكينة، هذه السعادة، هذه الطمأنينة، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

هذا المنافق خرج عن مبادئ الدين أو عن مبادئ فطرته، وقع في الكآبة، وقع في انهيار داخلي، وقع في خلل مع نفسه، فرد الفعل الطبيعي أن يتمنى أن يكون الناس جميعاً كذلك، شيء طبيعي، أين وظيفتك؟ أستاذ لم نكتب!! أنت كم واحد؟ أستاذ لم نكتب!! يتمنى الكسول أن يوسع دائرة التقصير، حتى يكون طبيعياً، أحياناً يكون في المنزل يستقيم شاب، ويغض بصره، ويصلي، ويكون دقيقاً في معاملته مع الآخرين، فيكشف من حوله فيحاربونه، يحاربونه حرباً شعواء، لأنه قد كشفهم، كان عندهم خلل، لكن الخلل قد صار واضحاً، موظف مستقيم لا يرتشي، يُحارَب من كل من حوله لأنهم قد انكشفوا، واختل توازنهم.

الإنسان حينما يختل توازنه فهناك ثلاثة ردود فعل يفعلها دون أن يشعر :

الإنسان حينما يختل توازنه أيها الأخوة فهناك ثلاثة ردود فعل يفعلها دون أن يشعر، رد الفعل الصحيح أن يتوب إلى الله، رد الفعل الكامل أن يتوب إلى الله، لكن الذي يحصل أنه يحاول أن يفسد من حولـه كما كان فاسداً، متوهماً أنها تقوم الحجة على الله، لا يوجد أحد جيد، دائماً المنافق لا يرتاح لمديح مؤمن، لا تصدق، أنت لا تعلم كل شيء عنه، المنافق لا يرتاح لمديح مؤمن، لأنه منافق ومنهار أمام نفسه، لأنه لو كان أحد ما مستقيم يكشفه، فيحاول بشكل أو بآخر أن يطعن بالآخرين، تجد المنافق بشكل أو بآخر يطعن بالآخرين، كي يرتاح، لأنه قلق، هل يوجد إنسان مستقيم؟ يوجد! لا أصدق!! هو لا يصدق أن في الأرض إنساناً مستقيماً، لا يصدق ذلك، الحالة الثانية أن يطعن بالمحسنين الجيدين الملتزمين، الطعن وسيلة، وتوسيع الباطل والفساد وسيلة، والتوبة وسيلة، أكمل شيء لمن اختلت فطرته، أكمل شيء لمن سقط من عين نفسه، لمن اختل توازنه، لمن نافق، أن يتوب إلى الله، لكن الذي يفعله معظم المنافقين أنهم يتهمون الطيبين أنهم ليسوا طيبين، إن هو إلا رجل يريد أن يتفضل علينا، هذه تهمة اتهم بها نبي، أو أن يغري الناس بالفسق.

أوضح مثال المرأة المصابة بالإيدز، تبيع نفسها بلا ثمن، من أجل توسيع دائرة المصابين بهذا المرض، تعاني حالة نفسية، أنها تنقل المرض للمئات بل للألوف، من أجل أن تتسع هذه الدائرة، وكل إنسان واقع في انحراف يتمنى الناس جميعاً أن يكونوا منحرفين، وكل إنسان واقع في الفساد يتمنى أن يكون الناس جميعاً فاسـدين، وكل إنسان مبتلى بمعصية يقول لك: هذا هو الأصل، هناك مشكلة لا تحل، لا يصدق أن هناك إنساناً من هؤلاء الناس قد نجاه الله من هذه المعصية، لذلك هؤلاء المنافقون الآن بدأ المعنى الدقيق لهذه الآية:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا)

بأعماق المنافق يتمنى أن يكون الناس جميعاً مثله:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)

القرآن الكريم نهى المسلمين عن اتخاذ الكفار والمنافقين أولياء من دون الله عز وجل :

هذا المنافق العدو الذي يتمنى أن تكفر كما كفر، لا يعقل، ولا يقبل، ولا يجوز أن تتخذهم أولياء، ما معنى أن تتخذ إنساناً ولياً؟ أن ترجع إليه، أن تستشيره، أن تهتدي بأفكاره، أن تحاوره، أن تعتمد عليه بشأن مادي، تحتمي به، ينبغي أن لا تتخذه ولياً، لا استشارة، ولا اعتماداً، لأنه يتمنى أن تكون مثله، إن رأى في حياتك ثغرة شمت بك ووبخك وأغراك أن تكون مثله في المعصية:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ)

نهي، فكل نهي في القرآن ينبغي الترك، فلا تتخذوا منهم أولياء، لا ترجع إليهم في مشكلاتك، لا تستشرهم، لا تصغي إلى نصائحهم، هم منقطعون عن الله عز وجل.

أخواننا الكرام، أقول لكم كلمة، والله من أعماق نفسي أتمنى أن تكون واضحة عندكم: هذه العين التي وهبنا الله إياها، ترى كل شيء حولك، لولا الضوء لا قيمة لها إطلاقاً، لو وضعنا إنسانين في غرفة مظلمة ظلاماً دامساً، أحدهما بصير، والآخر كفيف البصر، إنهما سواء، كيف أن العين لا يمكن أن ترى الأشياء إلا بنور الشمس، بضوء ما، كذلك العقل لا يمكن أن يعرف الحقيقة إلا من خلال الوحي، فالوحي للعقل كالنور للعين، فالإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل يصبح أعمى، هل يستشار الأعمى؟ إن رأيت أعمى غريب تقول له: أين المكان الفلاني؟ أعمى غريب!! فاقد الشيء لا يعطيه، إذاً ينبغي أن لا تتخذه ولياً، أي مستشاراً، مرجعاً، ألاّ تصغي إلى اقتراحاته، اقتراحاته كلها مخالفة للوحيين الكتاب والسنة.

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ)

لا ينبغي أن تستعين به، ولا ينبغي أن تسترشده لأنه لن يرشدك، وهذه مشكلة المسلمين في العالم، يريدون أن يعتمدوا على الطرف الآخر، والطرف الآخر أكبر عدو لهم، لن يمدهم لا بفكر، ولا بعلم، ولا بقوة، يريد أن يستغلهم، يريد أن يستثمرهم، نهي إلهي:

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ)

أعلى أنواع الطاعة أن تهاجر :

أنت منهي عن أن تتخذ منافقاً ولياً، فلأن تكون منهياً عن أن تتخذ كافراً فأن تتخذه ولياً من باب أولى، لكن هذا المنافق هل أغلق باب التوبة أمامه؟ لا! لو أنه تاب، ما علامة توبته؟ السلوك، مئات الأشخاص يعلنون إسلامهم وهم على ما هم عليه، معنى ذلك أن هناك مصلحة يرجونها، أما لو أن امرأة أعلنت إسلامها فينبغي أن تتحجب، لو أن إنساناً أعلن إسلامه فينبغي أن يصدق، أن يقلع عن أكل الربا، لا قيمة للإسلام إلا بالطاعة، فلذلك أعلى أنواع الطاعة أن تهاجر، الهجرة حركة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، أي ترك أرض الكفر، وانتقل إلى أرض الإيمان، ترك صحبة الكفار وصحب المؤمنين، ترك المال الحرام وكسب المال الحلال، الهجرة انتقال جذري، انتقال نوعي، من مكان إلى مكان، من قوم إلى قوم، من علاقات إلى علاقات، من ولاء إلى ولاء:

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

إذاً أي منافق، ولو كان من أصعب أنواع النفاق إذا تاب إلى الله، ورجع إليه، وهاجر، وانتقل من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان، انتقل من صحبة الكفار إلى صحبة المسلمين، من الولاء للكفار إلى الولاء للمؤمنين، هذا أصبح من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم.

في القرآن أخلاق الجهاد وأخلاق الدعوة :

قال تعالى:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا)

إن أصروا على كفرهم وعلى نفاقهم:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ)

أي إن كنتم في حرب معهم، فخذوهم أسرى:

(فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

عندنا في القرآن أخلاق الجهاد، وأخلاق الدعوة، أخلاق الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

هذه أخلاق الدعوة، أما أخلاق الجهاد:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة التوبة: 73]

الآية التالية متعلقة بالجهاد :

هذه الآية هنا متعلقة بالجهاد:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ)

أسرى.

(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

لا تستهدوا بهديهم، أو لا تستهدوا بفكرهم، ولا تعتمدوا عليهم، لكن هناك حالات دقيقة جداً، يوجد إنسان له وضع خاص، هو ينتمي إلى قوم بينكم وبين القوم معاهدة، قال:

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)

فالمسلمون عند شروطهم، والمسلمون يحافظون على عهودهم ومواثيقهم، لو أن هذا الإنسان ينتمي إلى قوم بينه وبين المسلمين معاهدة ينبغي أن تكف عنه:

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ)

هناك حالة ثانية، كشخص هو في الحقيقة مؤمن لكنه لا يستطيع في قومه أن يبوح بإيمانه، كما أنه لا يستطيع أن يحارب قومه، يوجد حالات كثيرة جداً، لا تستطيع أن تكون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، هو في الظاهر ينتمي إلى قوم غير مسلمين، لا يقوى على أن يبوح بإيمانه، كما أنه لا يقوى على محاربة قومه، ضعيف، ضعيف عند قومه وعند المسلمين، فهذا مع أنه لم يهاجر ينبغي أن لا تقاتله وأن لا تأخذه، إما إنسان منافق لكنه ينتمي إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو جاءوكم وأباحوا لكم.

في التوحيد حقيقة خطيرة جداً هي حقيقة التسليط :

قال تعالى:

(أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ)

لا يستطيع أن يواجه قومه كما لا يستطيع أن يواجهكم، هذا أيضاً دعوه، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، فالله عز وجل هو القوي، هو الذي ينصر وهو الذي لا ينصر، ولو شاء الله لسلطهم عليكم، نفهم من هذه الكلمة حقيقة في التوحيد خطيرة جداً، هي حقيقة التسليط، حينما تضعف أمام كافر ولست موحداً تظن أنه قهرك، ولكن إذا كنت موحداً تعتقد أنه سلط عليك، سلط عليك لسبب منك، الكرة بملعبك، سلط عليك لسبب منك، والمسلمون اليوم في أمس الحاجة لهذا المعنى، هذا الذي يرونه من أعدائهم ليس قهراً بل هو تسليط، والتسليط بيد الله عز وجل، وحينما يصلح الإنسان يزاح عنه هذا التسليط.

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

إذا قال: نحن لا نقاتلكم، ولسنا نقوى على مقاتلة قومنا فاعذرونا، هذا ينبغي ألاّ تقاتله:

(وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ)

أي وعدوكم ألا يقاتلوكم.

(فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

ادعاء بعض الفئات السلم و هم كاذبون :

وقوم آخرون:

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

أي الفئة الثانية يريدون أن يأمنوكم، ويأمنوا قومهم، لكن إذا أتيحت لهم الفرصة انقضوا عليكم، هؤلاء كاذبون في ادعائهم السلم.

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا)

أي سقطوا فيها، وتآمروا عليكم:

(فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ)

هؤلاء قاتلوهم في الحرب:

(فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(43-69): تفسير الآيتان 92-93 القتل الخطأ في الإسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-01-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

نفي الشأن هي أشد صيغ النفي في اللغة العربية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الثانية والتسعين، وهي قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أيها الأخوة الكرام، ما من صيغة في اللغة العربية من صيغ النفي أشد من هذه الصيغة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً)

هذا شيء مستحيل على أهل الإيمان، مستحيل على من آمن بالواحد الديان، مستحيل على من آمن بالجنة والنار، مستحيل على من آمن بالله الواحد القهار، مستحيل!

ينبغي أن يكون عدو المؤمنين عدواً لله أما أن يكون عدوهم ولياً لله فهذا مستحيل :

الشأن، ليس من هناك صيغة للنفي أشد من هذه الصيغة، وهذه اسمها في اللغة العربية نفي ليس يتصور، ولا يتخيل، لك أن شأن المؤمن ولا من طبيعته، ولا يرضى، ولا يقر، ولا يسمح، ولا .تحميل هذه الصيغة تستخدم عشرات الأفعال بل بضع عشرات الأفعال في

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً)

لذلك يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً، ما دام لم يسفك دماً فهو بخير، لأن هذا الدم المسفوح لا بد من جهة تتحمله، ترون وتسمعون كيف أن الألوف تقتل، يظن المتوهم أن القضية هكذا، قتل وانتهى الأمر، ما من دم مسفوح إلا وتتحمله جهة، الإنسان المقتول بحد شرعي يتحمله الله لكن ما سوى هذا الحد لا بد من جهة تتحمل هذا الدم، لذلك الله عز وجل حينما قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

أي أيها المؤمنون ينبغي أن يكون عدوكم عدواً لله، أما أن يكون عدوكم ولياً لله هذا مستحيل أن يكون، لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً)

مستحيل.

الموت والقتل والفرق بينهما :

أيها الأخوة، القتل عدوان على العضوية، هذا الجسم فيه نفس هي ذات الإنسان، هي المعني بالخطاب، هي المكلفة، هي المشرفة، هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي التي تسمو، هي التي تسفل، هذه النفس هي ذات الإنسان، هي الإنسان، هذه لا تموت ولكنها تذوق الموت.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: 185]

هي التي تخلد في النار أو في الجنة، هي التي تعاقب أو تكافئ، هي التي ترتقي إلى الله، هذه النفس في الدنيا في وعاء هو الجسد، الجسد يستقبل الروح، القوة الإلهية المحركة، فإذا اعتديت على بنية الجسد لم يبقى الجسد صالحاً لاستقبال الروح فيموت الإنسان، هذا هو القتل. ولكن الموت شيء آخر، هذه القوة التي تمد هذا الجسم تتوقف، فالموت أن تتوقف القوة الممدة لهذا الجسم، أما القتل أن تعتدي على بنية هذا الجسم فلا يبقى مؤهلاً لاستقبال قوة الله.

مصباح كهربائي متألق لو كسرته لا يعود المصباح مؤهلاً لاستقبال التيار الكهربائي فينطفئ، أما لو منعت عنه التيار الكهربائي ينطفئ أيضاً، ينطفئ إذا منعت عنه التيار الكهربائي، أو إذا كسرت زجاجته، في الحالتين ينطفئ، لكن في حالة واحدة أن تعتدي على بنيته المادية فلا يصلح لاستقبال القوة الكهربائية فينطفئ، أما في الحالة الثانية القوة الكهربائية التي تمده بالنور قطعتها عنه.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلَّا خَطَأً)

أي الخطأ كحوادث السير، الذي يتسبب بقتل إنسان لا ينوي قتله إطلاقاً، ولا يتمنى، ولا يفكر، ولا يتصور، لكن خطأ في القيادة، أو طفلاً ارتمى أمام مركبة، أو سرعة زائدة، حصل ما حصل.

أيها الأخوة هذا القتل الخطأ، مع القتل الخطأ ينتفي العمد، وينتفي التصور، وينتفي التصميم، وينتفي القصد، أبداً، هذا يقع بين المؤمنين.

الناس رجلان مؤمن يقوم كيانه على العطاء وكافر يقوم كيانه على الأخذ :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً)

لأنه المؤمن هذا من أولياء الله، أي كيف الإنسان إذا كان منتمياً إلى جهة قوية، وهذه الجهة القوية عادلة، كيف أن العدوان عليه له عقوبات كبيرة جداً، هكذا الحال، هذا مؤمن، هذا عنصر صالح، هذا عنصر خير، هذا عنصر معطاء، هذا عنصر منصف، هذا عنصر يعيش للناس لا يعيش الناس له، هذا عنصر صالح وليس مفسداً، أي الناس رجلان صالح ومفسد، رجل يعيش للناس ورجل يعيش الناس له، رجل يعيش لشهواته ورجل يعيش لمبادئه، رجل معطاء ورجل مغتصب، رجل يأخذ ورجل يعطي، إنسان ينصح وإنسان يغش، إنسان يخلص وإنسان يخون، إنسان ينصف وإنسان يظلم، فالمؤمن مظنة صلاح، مظنة عدالة، مظنة صلاح، مظنة إنصاف، مظنة رحمة، مظنة خير، المؤمن يقوم كيانه على العطاء، بدليل قول الله عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل: 5-6]

والطرف الآخر يقوم كيانه على الأخذ، يأخذ أموال الناس بالحق أو بالباطل، يغتصب أموالهم، يحتال عليهم، يعتدي على أعراضهم، أن يعيش على أنقاض الناس هو الكافر، أن يغتني على إفقار الناس، أن يصلح أحواله على إفساد الناس، أن يبني حياته على موت الناس، فالكافر عبء على الحياة، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمن إذا مات استراح من عناء الدنيا مرت جنازة فقال عليه الصلاة والسلام:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، فَقَالُوا: مَا الْمُسْتَرِيحُ وَمَا الْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدّنْيَا وَأَذَاهَا وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ ـ كما ترون في الطغاة الذين يبنون مجد أممهم على أنقاض الشعوب ـ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشّجَرُ وَالدّوَاب))

[متفق عليه عن أبي قتادة]

كل شيء يستريح منه، لأنه عبء على المخلوقات، يعيش على مص ما عندها.

تصنيف الناس عند الله بحسب رقعة تأثيرهم :

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً)

الآن مؤمن، الحد الأدنى رب أسرة ينفق عليها، يربيها، يأخذ بيدها إلى الله ورسوله، نفعه متعلق بأسرته، وإن كان متعلماً نفعه متعلق بتلاميذه، وإن كان تاجراً نفعه متعلق بمن كان يبيعهم، فالمؤمن خير وخيره متعدد، قد يكون الخير محصوراً في أسرتك، وقد يكون محصوراً فيمن يتعاملون معك،

وقد يكون في أهل بلدتك، وقد يكون في أمتك، وقد يكون في البشرية جمعاء، نبينا عليه الصلاة والسلام أرسله الله إلى الناس كافة، أرسله الله رحمة للعالمين، وكلما اتسعت الدائرة التي ينتفع بها الإنسان ارتقى عند الله، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل: 120]

اسأل نفسك هذا السؤال: أنت في قلوب من؟ في قلوب أولادك؟ والعياذ بالله قد تجد أباً أقرب الناس إليه لا يحبونه، لأنهم يعيشون له ولا يعيش لهم، كلما اتسعت الدائرة التي تنتفع منك كنت أقرب إلى الله عز وجل، كلما عم خيرك كلما ارتقيت عند الله عز وجل، فهذا المؤمن في الحد الأدنى أسرته، في الحد الأوسع أهله الأقربون، والحد الأوسع من يتعامل معه، في الحد الأوسع من ينتفع بدعوته، في الحد الأوسع أهل بلدته، في الحد الأوسع أمته، في الحد الأوسع البشرية جمعاء، فالناس مصنفون عند الله بحسب رقعة تأثيرهم، لذلك الذي ألّف كتاباً وعنونه بالمئة الأوائل جعل النبي عليه الصلاة والسلام والمؤلف ليس مسلماً، وليس منحازاً إلى الإسلام إطلاقاً، لكن بالمقاييس الموضوعية التي وضعها وجد أن النبي صلى الله عليه وسلم أعمق الأبطال الأوائل في البشرية أثراً، أعمقهم أثراً، وأطولهم أمداً، وأوسعهم رقعة، يعني أثر النبي عليه الصلاة والسلام كان على رقعة واسعة جداً، وأثر النبي عليه الصلاة والسلام كان بألف وخمسمئة عام تقريباً، وأما تغلغل دعوته في أعماق الإنسان فقد وصلت إلى بُعد لم يستطعه أحد من البشر، أي يأتي تشريع تحريم الخمر وينتهي الناس، ودولة عظيمة ألقت بكل ثقلها، وبكل إمكاناتها، وبكل ما عندها من قوة، وبكل ما عندها من إغراء، حرمت الخمر فلم تفلح.

الحكمة من تحرير رقبة مؤمنة في حال القتل الخطأ :

أيها الأخوة، لعمق التأثير، ولامتداد أمد التأثير، ولاتساع رقعة التأثير، كان عليه الصلاة والسلام على رأس المئة الأوائل، فلذلك هذا الذي يقتل مؤمناً أي قتل عنصراً نافعاً، الكافر ضال، ضال مضل، فاسد مفسد، ظالم يدعو إلى الظلم، فاجر يدعو إلى الفجور، يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني حياته على موتهم، يبني غناه على فقرهم، يبني أمنه على خوفهم، أفسد الطبيعة، أفسد الحياة، أفسد النفس البشرية، أفسد الصغار، أفسد الكبار، هذا هو الكافر، الخلاص من الكافر راحة، بينما ذهاب المؤمن مصيبة، من هنا قال:

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً)

هذا المؤمن إنسان خيّر، إنسان معطاء، إنسان منصف، إنسان عادل، إنسان رحيم:

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً)

كما أفقدت المجتمع الإسلامي عنصراً طيباً معطاءً خيراً رحيماً أن تدخل في هذا المجتمع الإسلامي عنصراً مكانه طيباً رحيماً.

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

العبد حركته مقيدة بسيده فإذا أطلقت حريته نفع المسلمين، أصبحت حركته من تلقاء ذاته، فلذلك إذا حررت رقبة مؤمنة فقد عوضت عن الذي أخذته من المجتمع بعنصر جديد:

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

الحق الشخصي والحق العام :

هذا حق المجموع، هذا الحق العام، هذا حق الأمة، معمل، أو مؤسسة، أو مدرسة، أو مستشفى، مجتمع، في مئة طبيب، قتل طبيب خطأ، هذا الطبيب ضعف أداء المستشفى، قتل معلم خطأ، هذا المعلم الذي قُتل خطأ ضعف أداء هذه المدرسة، معمل فيه موظف مهم جداً قتل خطأ، ضعف أداء هذا المعمل، لا بد من أن تضيف إلى هذه المدرسة، أو إلى هذه المستشفى، أو إلى هذا المعمل عنصراً جديداً يحل محله، هذا الحق العام، هذا حق المجموع، هذا الحق الجماعي:

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

صار هناك تعويض، أزهقت روح مؤمن فأدخل إلى المجتمع إنساناً أصبح حر الحركة، وما دام مؤمناً حركته في خدمة المجموع، قال:

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

هذا معيل، عنده أولاد ينفق عليهم، عنده زوجة، قُتِل فقدت هذه الأسرة المعين الذي يعطف على أفراد أسرته، ينفق عليها، يربيها، لا بد من تعويض، الحق الشخصي هو الدية، والحق العام هو تحرير رقبة مؤمنة، لكن في شيء بالإسلام رائع جداً، أن هذه الدية من يدفعها؟ يدفعها عاقلة قومه، من هم العاقلة؟ قومه الأقوياء الأغنياء، فالدية تدفع من قبل عاقلة القوم، يعني أيها القريب أي واحد من أفراد أسرتك إذا قتل مؤمناً خطأ أنت متكفل أن تدفع جزء من الدية، ما معنى هذا التشريع؟ معنى هذا التشريع أن كل أسرة ينبغي أن تتفقد شبابها، فإذا كان في شبابها شاب طائش أرعن ينبغي أن يهذبوه، أن يوجهوه، أن يكونوا معه، أن يرقوا به، أن يدلوه على الطريق الصحيح، فإن أهملوه وقتل مؤمناً فعليهم دية هذا المقتول، وهذا نوع من التضامن الجماعي، الآن يقول لك: أنا لا علاقة لي، ليس لك علاقة بابن أخيك الطائش الأرعن؟ الذي يأخذ سيارة أبيه ليلاً، وينطلق بها في الشوارع بسرعة كبيرة، لا علاقة لك؟ إن لم تبادر لتنبيهه، وتنبيه أبيه، ونصحه، والقسوة عليه أحياناً فسوف تتحمل جزءاً من المسؤولية.

القصاص من حق ولي المقتول لكن الحدود من حق الله وحده :

ما في أروع من هذا التشريع الذي يعطي المجتمع هذا التضامن إذا قتل هذا الشاب مؤمناً خطأ بحادث سير مثلاً فلا بد من أن تتحمل عائلته وأقرباؤه الأدنون هذه الدية:

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

الدية مئة ناقة، الناقة ثمنها مئة ألف، يعني عشرة ملايين، معين أسرة، قد يكون طبيباً، قد يكون مهندساً، قد يكون مدرساً، قد يكون تاجراً له دخل جيد، ينفق زكاة ماله، ينتفع المسلمون بماله، يرعى أهله، ينفق على الفقراء والمساكين، أنت قتلته خطأ، أنت جعلت من حوله بلا شيء، بلا معين، بلا منفق، فلا بد من دية تعوض ما فعلت:

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

طبعاً هذا البحث لا علاقة له بقوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

الآية الثانية تعني القتل العمد، القتل عن سابق تصور وتصميم، لأن هذا القاتل فكر في قتل هذا المقتول قبل أن يقتله، رسم خطة محكمة ثم نفذها، وكان في هذه الفترة غائباً عن الله عز وجل، لو كان مع الله لما فكر في إزهاق روح إنسان مؤمن، مستحيل، مادام قد غابت عنه فكرة الإله، ومحاسبة الله عز وجل فليدفع الثمن:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

فلذلك قضية القصاص من حق ولي المقتول، لكن الحدود من حق الله وحده، أما القصاص فمن حق ولي المقتول، لأنه قد يعفو ولي المقتول، ويقبل الدية.

القتل العمد و القتل الخطأ :

موضوع آخر: لو كان هناك قتل عمد، فالجزاء أن يُقتَل القاتل، هنا لا يُقتَل، هنا الذي يقتل خطأ لم يفكر بالقتل أبداً، ولم يخطر على باله، ولم يتصوره، لكن القاتل العمد قتل عن سابق إصرار وتصميم، والقتل العمد جزاؤه القتل، والقتل من حق ولي المقتول، إلا أن يعفو، إذا عفا، وقبل الدية فهذا شأنه، لكن حينما يقتل المؤمن مؤمناً خطأً لا نعاقبه بالقتل أبداً، لأنه ما فكر بالقتل إطلاقاً، ولكن نؤدبه بدفع الدية، ونؤدبه بتحرير رقبة مؤمنة، هكذا الحق العام والحق الخاص.

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

هناك حالات، طفل قفز أمام المركبة، والسائق منضبط إلى أعلى درجة، ومات الطفل، والسائق فقير، وأهله فقراء، وولي الطفل ميسور الحال، فبدافع من رحمته وخطأ ابنه عفا، ولم يقبل أن يأخذ الدية، هذا شأنه، وهذا مثاب عليه، وهذا أرقى عند الله عز وجل.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

فإذا وجد العفو يقرب المعفو عنه إلى الله عز وجل، يصلحه فأجره على الله:

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

إذا عفوت عن حق لك فكأنما كتبت لك صدقة :

الآن هناك معنى رائع جداً، الصدقة أن تدفع المال، دفعت مئة ألف فهذه صدقة، لكن لو أن لك مئة ألف من حقك تستحقها، وعفوت عن الذي ينبغي أن يدفعها لك كأنك تصدقت بمئة ألف، كيف لو أنك فتحت صندوقك الحديدي وأخرجت مئة ألف، ودفعتها لإنسان فقير هذه عند الله صدقة من دون استثناء، من دون شك، لو عفوت عن من قتل إنساناً خطأ، وأنت وليه، لو عفوت عنه فأعفيته من أخذ الدية فكأنك تصدقت بمئة ألف، بالضبط قال: (إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)، كان من الممكن أن تكون الآية: إلا أن يعفوا:

(إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

معنى إذا عفوت عن حق لك فكأنما كتبت لك صدقة:

(إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ)

هذا مؤمن مقيم مع أعداء للمؤمنين، وقتل خطأ:

(فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

لأن المال إذا أدي إلى قوم هذا المؤمن وهم كفار فهذا المال يقويهم على المؤمنين، فلذلك إذا كان المؤمن مقيماً مع قومه الكفار، وقتل خطأ فالعقاب تحرير رقبة مؤمنة فقط:

(فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ)

أي في حالة حرب بينكم وبين قوم، وفيهم مؤمن قتل خطأ فهذا المؤمن الذي قتل خطأ. أولاً: لأنه أقام مع قوم كفار، وهو ليس على صواب. ثانياً: لو أعطينا الدية إلى أهله لتقووا بها على محاربة المسلمين، إذاً لا يعطون الدية، لكن الذي قتل خطأ ينبغي أن يحرر رقبة مؤمنة.

حكم من لم يجد عبداً رقيقاً ليعتقه :

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)

أي دولة معاهدة، فيها تمثيل دبلوماسي بينهما، في معاهدات.

(فدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)

الدولة المعاهدة لن تستخدم هذا المال لإيقاع أذى بالمسلمين.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

ما قال الله عز وجل: فمن لم يستطع:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

كأن الله أشار في هذه الآية إلى أنه سيأتي يوم لا تجد عبداً رقيقاً تعتقه، هذه مرحلة وانتهت الآن عبودية الأمم للأفراد، هذه المرحلة قال: فإن لم يجد، أي أنه سيأتي زمان لا تجد رقبة تعتقها.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ)

صيام شهرين متتابعين، هذا تأديب لهذا الذي قاد مركبة وأسرع، وقتل مؤمناً خطأ، الإنسان شيء ثمين جداً عند الله أن تزهق روحه، فما بالكم من الذي يقتل الألوف المؤلّفة والملايين عمداً، لا لذنب ارتكبوه إلا لأنهم مسلمون، ما قولكم؟!!

إذا جاءت التوبة من الله فلها معنيان أن الله شرَّعها وأن الله قبل التوبة :

قال تعالى:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

الله عز وجل جعل هذه الدية وجعل تحرير الرقبة، أو صيام الشهرين المتتابعين تشريعاً للتوبة، وكأن الإنسان إذا فعل هذا تاب الله عليه، (تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ)، إذا جاءت التوبة من الله فلها معنيان: أن الله شرعها، وأن الله قبل التوبة، وإن عزيت إلى العبد معنى ذلك أنه تاب إلى الله:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً)

عن سابق تصور وتصميم، عاش فكرة القتل قبل أن يقتل، وهو يعيش فكرة القتل، ويخطط، وهو غائب عن الله كلياً، غائب عن أن الله موجود وسينتقم منه، وهذا عبد من عبيده، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، هذا الذي يقتل متعمداً مقطوع عن الله كلياً لم يدخل مفهوم الألوهية في حسابه إطلاقاً، ولا مفهوم العقاب، ولا مفهوم الجزاء، ولا مفهوم الثواب ولا العقاب، ولا الجنة ولا النار إطلاقاً.

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

الجنة أن تعيش النعيم المقيم وتنظر إلى وجه الله الكريم وتنعم برضوان من الله أكبر:

إنسان يحكم بالسجن، يتوهم الناس أن العقوبة هي السجن، قد يكون مع السجن أشغال شاقة، وقد يكون مع السجن إذلال، إرهاق فلذلك هنا:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ)

كيف أن الإنسان في الجنة، الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها فوق ذلك نظر إلى وجه الله الكريم.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

وفوق ذلك: ورضوان من الله أكبر، أي أنت في مكان جميل جداً فيه ما لذ وطاب من الطعام، والشراب، والمناظر، والفواكه، وصاحب البيت جميل الصورة إلى درجة لا تصدق، وفوق كل ذلك: صاحب البيت يرحب بك ترحيباً لا حدود له، لعل أعظم شيء في هذا الإكرام ترحيبه، فالجنة أن تعيش هذا النعيم المقيم، وأن تنظر إلى وجه الله الكريم، وأن تنعم برضوان من الله أكبر، هنا:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ)

أبعده:

(وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

وهو في النار.

بعض التعليق على الخلود والخلود مع الأبد :

كيف أن الإنسان يعاقب بالسجن ثم يعاقب بالأشغال الشاقة:

(وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

وهو في النار، أما أن هذا الخلود في النار موضوع خلاف، وثمة ملمح أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة الطلاق: 11]

وحينما يقول:

(خَالِداً فِيهَا)

فبين الآيتين معنىً دقيق، سيدنا ابن عباس مرة سئل في مجمع من الصحابة: هل لقاتل المؤمن خلود في النار؟ قال: نعم، ثم سئل هذا السؤال فقال: لا، فقالوا: عجبنا لك يا ابن عباس، تجيب مرة بنعم، ومرة بلا، فقال: السائل الأول لم يقتل بعد، أما السائل الثاني فقد وقع في هذه المعصية الكبيرة، فيبدو كلمة " خالداً فيها أبداً " أي الأبدية، أما الخلود تعني أن يكون في النار إلى مسافة طويلة جداً، هذا

بعض التعليق على الخلود والخلود مع الأبد. على كلٍ أعاذنا الله وإياكم من أن يكون الإنسان مشمولاً بهذه الآية:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

يظل المؤمن بخير ما لم يسفك دماً :

أيها الأخوة:

((عذبت امرأة في هرة حبستها))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

في هرة ليس إنساناً مؤمناً، له أولاد، له أهل.

((في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا سقتها حين حبستها، ولا أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض))

فما قولكم فيما فوق الهرة؟ وقولكم فيما فوق الهرة إذا كان مؤمناً؟ أعود وأقول: يظل المؤمن بخير ما لم يسفك دماً، واللغة العربية دقيقة جداً، بعضهم تفاصح، وقال:

ولستُ أبالي حين أقتُل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

هو في جهنم، الشاعر ما قال هذا، بل قال:

ولست أبالي حينما أقتَل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

حركة واحدة نقلته من الجنة إلى النار، هذه دقة اللغة العربية، حركة واحد نقلته من الجنة إلى النار. أيها الأخوة، في درس قادم إن شاء الله نتابع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(44-69): تفسير الآية 94، عَرض الدنيا وجوهرها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

العقد الإيماني :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الرابعة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، لا بد من وقفة متأنية عند قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا هو العقد الإيماني، أنا حينما آمنت أن الله سبحانه وتعالى خالق ورب ومسير، وأنت حينما آمنت أن أسماء الله كلها حسنى، وحينما آمنت أن منهجه منهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا هو العقد الإيماني، فعليك أن تتحرك لطاعة الله مبدئياً من دون أن تبحث عن علة الأمر وعن حكمته، لو بحثت عن حكمته وأنت موقن أنه أمر لا شيء عليك، لكن حينما تعلق تطبيق هذا الأمر على معرفة حكمته أنت عندئذٍ لا تعبد الله، ولكن تعبد مصلحتك.

علة أي أمر أنـه أمر :

أضرب لكم مثلاً: إنسان يشرب الخمر، ثم اكتشف أن التشمع قد تفشى في كبده، وأنه على وشك الموت، وأنه لا بد من استئصال ثلثي كبده، وأنه إذا امتنع عن شرب الخمر فوراً لعل الكبد ينمو، ويعيد بناء نفسه، ويعيش حياة سليمة، الآن هذا الشارب يمتنع عن شرب الخمر، هل يمتنع تعبداً لله عز وجل؟ إطلاقاً، هو يعبد مصلحته، لما أيقن أن بقاءه متوقف على الامتناع عن شرب الخمر ترك الخمر.

يجب أن تفرق بين إنسان لا يأتمر ولا ينتهي إلا إذا وجد أن مصلحته محققة فيما أمر أو فيما نهى، أنا لست ضد من يبحث عن حكمة الأمر، لا ما في مانع، لكن حينما تتجه إلى تعليق التطبيق على معرفة الحكمة أنت عندئذٍ لا تعبد الله أنت تعبد مصلحتك، وتعبد ذاتك، فلذلك قال علماء الأصول: علة أي أمر أنه أمر وكفى، أي هناك مثلاً من يتعمق في موضوع تحريم لحم الخنزير، شيء جيد،

ولكن يبني التحريم على علل علمية، يبنيها، فيناقش إنسان، يقول لك هذا الإنسان: الدودة الشريطية انتهت، عقمنا اللحم، كلما جئته بعلة لتحريم هذا اللحم يأتيك بالحل، فلو جاءت الحلول مناقضة للعلل ألغى التحريم، ينبغي أن تقول له بملء فمك: لا آكل هذا اللحم لأن الله حرمه، لأن الخالق حرمه، لأن العليم حرمه، لأن الحكيم حرمه، لأن الخبير حرمه، هكذا ينبغي أن نفهم أوامر الله عز وجل، علة أي أمر أنه أمر.

وأعيد على أسماعكم قصة أرويها كثيراً، أن عالماً من الشرق يحاور عالماً في أمريكا حول تحريم لحم الخنزير، بعد أن شرح له ساعات وساعات عن مضار أكل لحم الخنزير قال له هذا العالم المسلم حديثاً ـ وكأنه أشد فقهاً ممن يحاوره ـ قال له: كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرمه، وكفى.

أنت مع طبيب تثق بعلمه، يقول لك: دع الملح، تترك الملح، حينما يعطيك أمراً من تثق بعلمه، من تثق بخبرته، فهنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ما كان الله عز وجل ليوجه الخطاب بالأمر أو النهي إلا للمؤمنين، أما الذي لم يؤمن بالله، ولا بحكمته، ولا بعلمه، ولا بخبرته، أنى له أن يستجيب؟ لذلك الله عز وجل يخاطب عموم البشر بكليات الدين، أما دقائق التشريع الأمر والنهي، وتفاصيل المحرمات، يخاطب الذين آمنوا، أي هذا مؤمن.

لا بدّ من أن يتلازم التعريف بالله مع التعريف بأمره :

أيها الأخوة، هذا الكلام ينقلنا إلى شيء يعانيه الدعاة إلى الله، قد تعرض أمر تعبدي، أو أمر تشريعي على إنسان ثقته بهذا الدين ضعيفة، مفهوم الألوهية عنده مهتز، إيمانه بالله عز وجل ضعيف، فيعرض هذا الأمر على مقاييس العصر، يقول لك: أنا لست قانعاً أن أقرض إنساناً قرضاً بلا فائدة، هذا المال له قيمة والوقت له قيمة، أتريدني أن أخسر؟ هذا القرض الحسن ليس موجهاً لشخص عادي، هذا موجه لمؤمن، يعرف ما عند الله من ثواب كبير في الآخرة لو أنه أقرض قرضاً حسناً، هذا الأمر موجه إلى مؤمن يعرف ما عند الله من عذاب شديد إذا هو عصى الأمر، هذا الأمر موجه للذين آمنوا، لذلك الخطأ الكبير أن توجه أمراً إلهياً تفصيلياً لمن كان إيمانه بالله ضعيفاً، أن توجه نهياً إلهياً لمن كان إيمانه بالله ضعيفاً، عندئذٍ يعرض هذا الأمر بعيداً عن إيمانه بالله، بعيداً عن وعد الله، بعيداً عن وعيد الله، يجد أن الطريق الآخر أكثر راحة له، وأكثر تحقيقاً لمصالحه من منهج الله عز وجل، لذلك هذه المشكلة الكبرى لا بد من أن يتلازم التعريف بالله مع التعريف بأمره، أما إذا اكتفينا بالتعريف بأمر الله عز وجل فإنك سوف تجد تقصيراً وتردداً في تطبيق الأمر، كل هذه المعاني ينبغي أن تستحضرها حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بي، يا من أمنتم بجنتي، يا من آمنتم بالنار التي أعددتها للعصاة، يا من آمنتم بعلمي المطلق، يا من آمنتم بحكمتي المطلقة، يا من آمنتم بخبرتي، يا من آمنتم بمحبتي لكم، إيمانك بوجود الله، وإيمانك بوحدانيته، وإيمانك بكماله، وإيمانك بوعيده، وإيمانك بوعده، وإيمانك بعلمه، وبخبرته، وبحكمته، تقتضي أن تتحرك نحو تنفيذ الأمر بشكل مباشر دون تردد، ودون أن تعلق التطبيق على معرفة الحكمة، أنا مع معرفة حكمة الأمر، ولكن بعد أن تستسلم للأمر.

أعلى مرتبة في الدين أن تستسلم لرب العالمين :

عندنا أشخاص ثلاثة؛ شخص لا يطبق أمر الله إلا إذا انكشفت له حكمته، إذاً هو الآن يتحرك نحو مصلحته، كهذا الذي ترك الخمر بعد تشمع كبده، ترك الخمر لا طاعة لله، ولا عبادة له، ولكن اتباعاً لمصلحته، وإنسان آخر، والموقف الكامل أنه يبادر إلى طاعة الله، لأنه أمر، ولأن الله أمره، أو لأن الله نهاه من دون أن يعلق تطبيق الأمر أو ترك النهي على معرفة الحكمة، هذا نموذج آخر. النموذج الثالث هو ينصاع على طاعة الله دون أن يلقي بالاً لحكمة الأمر، لكن الله يكرمه بكشف حكمة هذا الأمر فيغدو عالماً، يحقق مرتبة العبودية لله بانسياقه لأمر الله، ثم يحقق مرتبة العلم بكشف حقيقة هذا الأمر لذلك بادر إلى طاعة، وتأكد أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لك حكمة الأمر، تجمع بين مرتبة العبادة، وتجمع بين مرتبة العلم، ولا شك أن الله عز وجل حينما قال:

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الحجرات: 14]

لكن في آية أخرى يبين الله عز وجل أن أعلى مرتبة في الدين أن تستسلم لرب العالمين.

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سور البقرة: 131]

ولا يخفى أيها الأخوة، أن في القرآن الكريم ومضات تؤكد هذا المعنى، فالأمر الذي لا يمكن أن يقبل، والأمر الذي لا يمكن أن يفهم، والأمر الذي يتناقض مع طبيعة الإنسان، ومع إنسانيته، ومع أبوته أن يقول الله عز وجل لنبي كريم اذبح ابنك.

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات: 102]

أعلى درجة من الانصياع لله عز وجل أن يأتيك أمر لا يقبل، ولا يعقل، ولا ينطلق من طبيعة إنسانية، فهذا النبي الكريم يعد قمة في الانصياع لأمر الله، نحن في حياتنا هذه كل الأوامر معقولة واضحة بينة حكمتها، والناس مقصرون، فكيف إذا كان الأمر غير معقول، وغير مقبول، لكن الذي وجه إليه هذا الأمر يعرف من هو الله، يعرف ما عنده، يعرف فضل الاستسلام له، يعرف فضل طاعته.

ينبغي أن تأخذ أمر الله بعيداً عن كل منفعة :

أيها الأخوة، أتمنى من كل قلبي أنكم كلما قرأتم في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أن تعتقدوا اعتقاداً جازماً أن هذا عقد إيماني بينك وبين الله، أي أنا آمرك بتنفيذ هذه الأمور بناء على معرفتك بي، بناء على إيمانك بي، بناء على استسلامك لي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن توسع الناس في اعتقادهم أن الصلاة رياضة، وأن الوضوء منشط، وأن الصيام صحة، هذا كلام طيب، ولكن حينما تنطلق لتصلي من أجل تدريب جسمك على الحركات اللينة، وحينما تنطلق للتوضؤ كي تحس بالنشاط، وحينما تنطلق لتصوم من أجل أن تصح أجهزتك، أنت والله لا تعبد الله، ينبغي أن تأخذ أمر الله بعيداً عن كل منفعة، وعن اتقاء كل مضرة، أن تأخذ أمر الله على أنه أمر، ولا مانع أن تأتيك الفوائد المادية من تطبيق هذا الأمر، لكن المنطلق هو أنك تعبد الله، المنطلق هو أنك تأتمر بأمر الله، المنطلق هو أنك تنتهي عما نهى الله عنه.

الضرب في سبيل الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله)

الحقيقة: (إذا) كما تعلمون تفيد تحقق الوقوع، بينما (إن) تفيد احتمال الوقوع، أي إذا جاءت (إذا) قبل جملة يعني هذا الذي سيأتي بعدها لا بد واقع لا محالة، لأن هناك معركة بين الحق والباطل أزلية أبدية، كما ترون وتسمعون، معركة الحق والباطل قديمة قدم الإنسان، وأبدية إلى أن ينتهي الدوران، فشيء طبيعي وقد يقول قائل: كان من الممكن افتراضاً وكل ما سوى الله ممكن، الله عز وجل واجب الوجود، لكن ما سواه ممكن الوجود، ممكن الوجود وممكن عدم الوجود، ممكن الوجود وممكن أن يوجد على غير ما هو كائن، كان من الممكن أن يجمع الله الكفار جميعاً في قارة بعيدة، وأن يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة الفريدة، وحوله مؤمنون صادقون، طيبون، أتقياء، صالحون، يسارعون إلى الإيمان به وهم معه، وليس هناك معركة بدر، ولا معركة أحد، ولا معركة الخندق، ولا صلح الحديبية، وليس هناك مكر اليهود، ولا شيء من هذا، ما الذي يحصل؟ أين ثمن الجنة؟ شاءت حكمة الله أن يكون حق وباطل، وخير وشر، شاءت حكمة الله أن يصطرع الحق بالباطل كي يرقى أهل الحق، وكي يرتدع أهل الباطل، أو كي يهتدي أهل الباطل حينما يحتكون مع أهل الحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله)

أيها الأخوة، الضرب حركة عنيفة، هناك من يضرب في سبيل الرزق، يسافر يتجشم المشاق، ينام في غرفته وحيداً في البلد الذي سافر إليه، يأكل أخشن الطعام، يعمل طول النهار من أجل أن يجمع مالاً ليشتري به بيتاً، فالضرب حركة عنيفة، حركة فيها نشاط، حركة فيها فعل قوي:

(إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله)

فالضرب في سبيل الرزق ممكن وفي سبيل الله ممكن، ممكن أن تسافر من أجل أن ترتزق، وهذا سفر مشروع، ويمكن أن تسافر من أجل أن تنشر الحق، وهذا سفر جهادي، هنا الحديث عن الضرب في سبيل الله.

الجهاد رسالة :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله)

أي هذا الجهاد لا يمكن أن يكون مقبولاً عند الله عز وجل إلا إذا كان في سبيل الله، في سبيل إعلاء كلمة الله.

(حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)

[سورة البقرة: 193]

لو أن الطرف الآخر بيده أزمة الأمور لنشر الفساد في الأرض كما يجري الآن، حينما تُحتَل دولة إسلامية أول شيء يشاع فيها الفساد، والفجور، والاختلاط، والسفور، والأفلام، والبرامج التي تدعو إلى المعاصي والآثام، الجهاد:

(حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)

[سورة البقرة: 193]

الجهاد من أجل أن يخضعوا الناس لله عز وجل، الجهاد رسالة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

أنت حينما تنطلق لتحارب أخاك بعد أن تعرض عليه الإسلام فيرفض، وبعد أن تعرض عليه الجزية فيرفض، وبعد أن يصر على مقاتلتك، وعلى إطفاء نور الله عز وجل هنا شرع القتال، فأنت لا تقاتل من أجل أن تكره الناس على أن يكونوا مسلمين، هذا مستحيل، وهذا غير موجود في القرآن إطلاقاً.

لا يجب القتال من أجل إكراه الناس على الإسلام بل من أجل توفير الحرية للإنسان

قال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة: 256]

أنت لا تقاتل من أجل أن تكره الناس على أن يكونوا مسلمين، لكنك تقاتل لتمنع طاغية يحول بين الدين وبين أتباعه، أنت تقاتل لتوفر الحرية للإنسان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

أي الذي تحاربه لو أنه شهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله عصم دمه منك، لا تستطيع أن تقاتله لأنه أسلم، إنما نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، لمجرد أن يعلن هذا الذي تقاتله يعلن الشهادة ينبغي أن تكف عن قتاله، لأن هذا الذي تقاتله إذا دخل في الإسلام، وأصبح واحداً منكم، له ما لكم، وعليه ما عليكم.

(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا)

[سورة آل عمران: 20]

فإن أسلموا فإخوانكم في الدين، وانتهى الأمر، فلمجرد أن ينطق هذا الذي تقاتله بالشهادة ينبغي أن تكف عنه فوراً.

معنى القتال :

وقعت بعض الأخطاء من أصحاب رسول الله، وهم كما تعلمون ليسوا معصومين، هم معصومون في نقلهم عن النبي، في هذا كلهم عدول، ثقات، ولكنهم ليسوا معصومين في سلوكهم، النبي وحده معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، وفرق كبير بين العصمة وبين الحفظ، الولي محفوظ، بمعنى أنه لا تضره معصية، لأنه سريعاً ما يتوب منها، ولا تضره معصية، لأنه لا يصر عليها، ولا تضره معصية، لأنها لن تكون أبداً في أشياء كبيرة، في أشياء طفيفة غير مقصودة، إذاً الولي محفوظ بينما النبي معصوم، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها.

((لا يجمع أمتي على ضلالة))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر]

لذلك هذا معنى الإجماع، والإجماع نوعان؛ إجماع إعلاني، وإجماع سكوتي، قد يلقي إنسان كلمة في جمع غفير من المسلمين، والكل معجبون بهذا الكلام، ولا أحد يتكلم بكلمة اعتراض، سكوتهم إجماع، ما قال كلاماً يفتقر إلى دليل، أو يعاكس آية قرآنية، أو حديثاً صحيحاً، فهناك إجماع

سكوتي، وهناك إجماع بياني، إذا أجريت استفتاء فهذا إجماع بياني، أما إذا سكت المسلمون على دعوة صادقة فسكوتهم إجماع سكوتي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي إذا كنتم في الجهاد القتالي، وكما تعلمون هناك جهاد النفس والهوى، وهو الأساس، كيف أن للبناء أساساً، كيف أن للبناء هيكلاً إسمنتياً، هذا الأساس والهيكل جهاد النفس والهوى، يبنى على جهاد النفس والهوى الجهاد الدعوي.

(وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: 52]

ويبنى على الجهاد الدعوي الجهاد القتالي، إن حالت قوة غاشمة طاغية بينك وبين الدعوة إلى الله هذه القوة الطاغية الغاشمة أجبرت الناس على الكفر، وحملتهم على الشرك، وحالت بينهم وبين التوحيد، أنت تقاتل هذه القوة الطاغية من أجل أن توفر للإنسان حرية التدين، هذا هو القتال.

قصة سيدنا نعيم بن مسعود :

الجهاد يحتاج إلى ولي أمر، ويحتاج إلى كيان وله شروط كثيرة ليس هذا الوقت مجال الحديث عنها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

الحرب مستعرة، وكل ما وقف أمامك تقتله، هذا ليس سلوك المؤمنين، تبينوا، لعل هذا الذي تقاتله في لحظة سريعة فكر فأسلم.

كلكم يعلم قصة سيدنا نعيم بن مسعود، كان زعيم غطفان، وجاء لقتال النبي عليه الصلاة والسلام، وكان قائد فرقته، زعيم غطفان، وهو في خيمته عشية معركة الخندق، جرى حوار بينه وبين نفسه، قال: يا نعيم أنت ذو عقل، لمَ جئت إلى هذا المكان لتقاتل هذا الإنسان الكريم؟ هل سفك دماً؟ هل انتهك عرضاً؟ هل أخذ مالاً؟ لمَ تقاتله؟ أنت ذو عقلٍ يا نعيم، لحظة تفكير صادقة وسريعة، نهض من فراشه وتوجه إلى معسكر النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجئ النبي به، قال له: نعيم! قال: نعيم، قال له: يا نعيم ما الذي جاء بك، قال: جئتك مسلماً، زعيم الطرف الآخر، قال: أنت واحد نعيم، قال: لم يعلموا بإسلامي، فأمرني بما تريد، قال: أنت واحد، خبر عنا ما استطعت.

هذا الإنسان الكريم الذي في لحظة تفكير صادقة واضحة وجد أن الحق يقتضي أن يتبع، وأن سلامته وسعادته في إتباع الحق، وأن هذا الإنسان الكريم نبي كريم جاء يدعو إلى السلام، إلى حقن الدماء، إلى حفظ الأموال، إلى حرمة الأعراض، فدخل عليه مسلماً، هل تصدقون أن هذا الصحابي الجليل وحده استطاع أن ينهي هذه المعركة، لم يعلموا بإسلامه، فأوغر صدر اليهود على قريش،

وأوغر صدر قريش على اليهود، واستطاع بذكاء ما بعده ذكاء أن يشق صفوفهم، وأن يلغي اجتماعهم على رسول الله، وجاءت الرياح العاتية قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

[سورة الأحزاب: 25]

في لحظة تفكير واحدة واضحة مخلصة صادقة انتقل من الكفر إلى الإيمان.

علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر :

أنت حينما تقاتل، ثم قال أحد الذين تقاتلهم: أشهد أن لا إله إلا الله انتهى الأمر، ينبغي أن تقبل منه هذه الشهادة، ولست مسؤولاً عما إذا كانت منطبقة عما في نفسه، أو غير منطبقة، لست مكلفاً أن تشق عن صدره، فلذلك غضب النبي أشد الغضب من أحد أصحابه من الذين قتلوا رجلاً أعلن الشهادة في ساحة المعركة، ثم تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أن بينهما بغضاء وشحناء، فما كان من موقف هذا الذي يقاتل إلا أن قتله على الرغم من إعلان الشهادة، فلذلك أبى النبي أن يستغفر له، ومات بعد أيام، وقال بعض علماء التفسير: إن هذه القصة سبب نزول هذه الآية، أي أنت تقاتل لتمثل دين، تمثل مبدأ إسلامي، أنت تقاتل لا تشفياً لأحقاد سابقة، لا تقاتل انتقاماً، لا تقاتل استعلاء، إنما تقاتل الفئة الباغية، تقاتل من حال بين الناس وبين التدين الصحيح، تقاتل الذي منع حرية التدين، أما الذي قبل هذا الدين فهو منا ونحن منه، وهذه عظمة الإسلام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً)

أشققتم على صدره؟ علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، قال بعض العلماء: نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن ظلماً، ولئن تخطئ في العفو أفضل ألف مرة من أن تخطأ في الحكم:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الدنيا فيها شيء عرض، وشيء جوهر، الجوهر باقي، أي أحياناً عندك جوهرة تضعها في صندوق، تضعها في كيس، تضعها في علبة، العلبة شيء زائل، أما الجوهرة فهي الثابتة، الإنسان قد يرتدي ثوباً شتوياً، قد يرتدي ثوباً صيفياً، قد يرتدي ثوباً خفيفاً، ثوباً غالياً فالأثواب أعراض، والإنسان هو الجوهر، أما الإنسان أمام الجبل فعرض والجبل هو الجوهر، الجبل وجوده طويل جداً، فالعرض الشيء الزائل، والجوهر الشيء الباقي، فمال الدنيا عرض يأتي ويذهب، ومتع الدنيا عرض، بينما معرفة الله في الدنيا جوهر، والأعمال الصالحة جوهر لأنها تبقى.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء: 88 - 89]

الذي يبقى بعد الموت هو جوهر الحياة الدنيا والذي يزول هو من أعراض الدنيا :

إذاً:

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

كل شيء زائل في الدنيا من عرضها، ما الذي يبقى؟

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف: 46]

لكن لا تبقى.

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

[سورة الكهف: 46]

معنى ذلك الشيء الذي يبقى بعد الموت هو جوهر الحياة الدنيا، والذي يزول عند الموت هو من أعراض الدنيا، بيتك الفخم عرض بدليل أنك تتركه عند الموت، التحف التي في بيتك، الأموال التي بحوزتك، المركبة التي تمتلكها، كل شيء تتركه عند الموت من عرض الدنيا، ولا قيمة له، ولا يمكن أن تكون الدنيا عقاباً لمؤمن، ولا إكراماً لإنسان، إنها أقل من ذلك، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء.

جوهر الحياة الدنيا في العمل الصالح :

قال تعالى:

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

تبتغون شيئاً زائلاً لا قيمة له، تبتغون مالاً، تبتغون جاهاً، تبتغون متعة، الشيء العرض الزائل الذي لا يبقى، ما الذي يبقى؟ تبقى معرفة الله، تبقى الأعمال الصالحة، تبقى طاعة الله عز وجل، يبقى بر الوالدين، يبقى تربية الأولاد، الشيء الذي يبقى بعد موتك هو جوهر الحياة الدنيا، جوهرها في العمل الصالح.

((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

[مسلم عن أبي هريرة]

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ)

كل ما عند الله شيء لا يصدق، عند الله جنات تجري من تحتها الأنهار، عند الله في الآخرة نظر إلى وجهه الكريم، عند الله في الآخرة رضوان من الله أكبر، هذا الذي ينبغي أن نبحث عنه:

(فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)

هذا الذي تقتله وقد نطق بالشهادة، ألم تكن يا من فعلت هذا مشركاً مثله قبل أن يأت محمد عليه الصلاة والسلام؟ منَّ الله عليك بالهدى، فما دام قد اهتدى ينبغي أن تكف عنه، إنك بهذا تخرج عن حكمة القتال.

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله يعلم :

قال تعالى:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)

فإذا خضع إلى الله ولو شكلاً ولو صورة ينبغي أن تكف عنه:

(فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

كلام دقيق، هذا الذي نطق بالشهادة أمامك فلم تقبلها منه بدعوة أنه قالها تقية، هل أنت متأكد؟ لكن لعلك تبتغي أن تأخذ الغنائم منه، إذاً الله عز وجل خبير بنيتك من هذا القتل، الله عز وجل خبير بينك وبينه شحناء في الماضي، وأحقاد فتشفيت منه، ولم تقبل شهادته، هذا يعلمه الله عز وجل. على كلٍ أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله يعلم، حينما تعلم أن الله يعلم تكف عن معصيته:

(فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

خبير بالذي تفعله، خبير بالبواعث، خبير بالخلفية، إنسان تبرع بمسجد، والله شيء رائع جداً! ما شاء الله! بارك الله به! هل تصدقون أن بعض الذين لا يصلون عندهم أراض إذا تبرع بمسجد لا بد من تنظيمها، وإذا نظمت ارتفع سعرها، من يعلم ذلك؟ الله وحده يعلم ذلك.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

لا تخفى عليه خافية.

الحكمة من القتال توفير جو الحرية في التدين :

كأن هذه الآية تهديد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي بعد أن تعرضوا الإسلام على الناس، فإن رفضوا أن يسلموا تعرضوا عليهم الجزية، فإن رفضوا أن يدفعوا وأصروا على قتالكم، وعلى إطفاء نور الله تقاتلونهم، لا لتجبروا الناس على أن يسلموا، لا، لتحولوا بين الناس وبين من يمنعهم أن يسلموا، لتوفروا جو الحرية في التدين:

(إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا)

في أثناء القتال أحد من الناس نطق بالشهادة، انتهى، عصم بهذه الكلمة دمه منك:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

إما تشفي صدرك منه أو تأخذ ماله غنيمة:

(فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(45-69): تفسير الآيتان 95-96، مفهوم الجهاد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-01-17

بسم الله الرحمن الرحيم

حجم الإنسان عند الله عز وجل بحجم عمله الصالح :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

أيها الأخوة، مطلع هذه الآية يبين بكلام واضح أن حجم الإنسان عند الله عز وجل بحجم عمله الصالح، بعد أن يؤمن وبعد أن يلتزم، وبعد أن يسير على منهج الله، بعد أن يأتمر بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر، بعد هاتين المقدمتين الخطيرتين، أن يؤمن وأن يستقيم، أن يؤمن وأن يلتزم.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت: 30]

تفاوت المؤمنين بأعمالهم الصالحة :

الآن بعد الاستقامة المبنية على الإيمان الذي أراده الله عز وجل رادعاً للإنسان، حاجزاً عن كل عدوان، كيف يتفاوت المؤمنون؟ بأعمالهم الصالحة، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

كل مؤمن على وجه الأرض، من آدم إلى يوم القيامة، له مرتبة عند الله بحجم عمله الصالح، العمل الصالح ما من كلمة أوسع دلالة من هذه الكلمة العمل الصالح؛ العمل الذي يصلح للعرض على الله، العمل الذي إذا قابلت الله به يبيض وجهك، العمل الذي إذا قابلت الله به تقبل عليه، العمل الذي تحس في أعماقك أن الله راضٍ عنك، إذا بدأنا بالبيت أن تكون أباً صالحاً، وزوجاً رحيماً، أن تكوني أمّاً رؤوماً، وزوجة صالحة هذا عمل صالح، أن يكون الابن باراً هذا عمل صالح، أن يكون الأب شفيقاً، هذا عمل صالح، أن يكون التاجر صدوقاً نصوحاً هذا عمل صالح، أن يكون الموظف خدوماً لمن أمامه هذا عمل صالح، أن يكون الطبيب رحيماً، أي العمل الذي يليق بإنسانيتك، الذي يمتلئ قلب الآخرين امتناناً لك هو العمل الصالح، ما من كلمة ذات مدلول واسع كهذه الكلمة،

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، لعل إتقان عملك من العمل الصالح، لعل تحديد السعر المناسب لهؤلاء الفقراء من العمل الصالح، لعلك كمعلم إذا علمت هؤلاء الطلاب تعليماً دقيقاً وعميقاً، وجهتهم أخلاقياً ودينياً من العمل الصالح، ما من كلمة تحتاجها كل ثانية كالعمل الصالح تحتاجها في بيتك، تحتاجها في الطريق، تحتاجها في عملك، تحتاجها في علاقاتك، تحتاجها في أفراحك، تحتاجها في أتراحك لا سمح الله كالعمل الصالح، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، الجار الذي يرعى حق الجوار هذا من العمل الصالح، الذي يكفل الأيتام هذا من العمل الصالح، الذي يرعى الأرامل من العمل الصالح، الذي يطعم الجياع من العمل الصالح، الذي يحكم بين الناس بالعدل من العمل الصالح، الذي ينصح المسلمين من العمل الصالح، الذي ينطق بالحق من العمل الصالح، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من العمل الصالح، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم من العمل الصالح، لَا يَسْتَوِي.

الإيمان الذي أراده الله عز وجل هو الذي يحجب صاحبه عن معصية الله :

قبل أن نتحدث عن التفاوت والتفاضل والترجيح بين المؤمنين ينبغي أن نظن أن هؤلاء المؤمنين تعرفوا إلى الله المعرفة التي حملتهم على طاعته.

((الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ))

[مسند أحمد عن ابن الزبير]

الإنسان الذي يفتك بالناس ليس مؤمناً، إنسان يتجاوز الحدود، يأخذ ما ليس له، يعتدي على الناس ليس مؤمناً، ليس مؤمناً الإيمان الذي أراده الله، إبليس مؤمن.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

إبليس مؤمن قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف: 12]

إبليس مؤمن بالآخرة قال:

(فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف: 14]

ليس هذا هو الإيمان الذي أراده الله عز وجل، الإيمان الذي أراده الله عز وجل هو الذي يحجب صاحبه عن معصية الله، الإنسان حينما يعصي الله ليعلم علم اليقين أن في إيمانه خللاً، أن في إيمانه ضعفاً، بعد أن تؤمن الإيمان الذي أراده الله، والإيمان الذي أراده الله هو الذي يمنعك أن تعصي الله، الآن كيف نرجح بين المؤمنين، كيف يرتقي مؤمن إلى درجة أعلى من درجة مؤمن آخر؟ قال:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أولو الضرر مستثنون من حكم الجهاد :

يروى أن زيد بن ثابت كان من كتاب الوحي، وحينما جاء الوحي النبي عليه الصلاة والسلام قال: اكتب يا زيد: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، وكان ابن أم مكتوم حاضراً حين نزول هذه الآية، وسمع قول النبي لسيدنا زيد: أن اكتب يا زيد، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله: ما يفعل من أقعدته العاهة عن الجهاد؟ فجاءه الوحي مرة ثانية، ليس استدراكاً ولكن تبيناً أن هذا الصحابي الجليل حينما استمع إلى الآية أقلقته، كأن الله أراد أن يعلمنا أن المؤمن إذا استمع إلى آية ينبغي أن يضع نفسه في موضع الفحص، أين أنا من هذه الآية؟ فجاء الوحي ثانية وقال:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

من كان من أولي الضرر، من كان ذا عاهة، من ابتلاه الله بشيء من ضعف في بنيته، هذا معذور، هذا مستثنى من الحكم، إذاً الموازنة:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

مؤمن قعد ماذا يقابل القعود؟ القيام، المؤمن ينبغي أن يكون قواماً للحق، قائماً في العمل في سبيل الله، إذاً:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأكبر :

من هو المفضل؟ المجاهد، وهذه أيضاً كلمة واسعة جداً، أول درجات الجهاد، وأساسيات الجهاد أن تحمل نفسك على طاعة الله، ودائماً وأبداً أيها الأخوة الإنسان له طبع ومعه تكليف، وشيء واضح لديكم أن الطبع يتناقض مع التكليف، وقد ذكرت هذا مراراً، الطبع يقتضي أن تبقى نائماً والتكليف يقتضي أن تستيقظ لتصلي، والطبع يقتضي أن تأخذ المال والتكليف يقتضي أن تنفقه، والطبع يقتضي أن تملئ عينيك من محاسن النساء والتكليف يقتضي أن تغض البصر، الطبع يقتضي أن تخوض في فضائح الناس شيء ممتع والتكليف يقتضي أن تصمت، ألا تشيع الفاحشة بين الناس، فلأن الطبع يتناقض مع التكليف صار لا بد من جهد جهيد لإيقاع الحركة وفق منهج الله، هذا الجهد الجهيد في إيقاع الحركة وفق منهج الله عز وجل هو الجهاد، هذا جهاد النفس والهوى:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ما دمنا في الحديث عن الجهاد فالبناء، أهم شيء في البناء هيكله الاسمنتي، هذا الهيكل الاسمنتي يشبه النفس والهوى، قبل أن تفكر في جهاد الأعداء، قبل أن تفكر في الجهاد الدعوي ينبغي أن تنتصر على نفسك بادئ ذي بدء، إن لن تستطيع أن تنتصر على نفسك لا تستطيع أن تقاتل نملة،

والناس الذين اتبعوا شهواتهم، وساروا مع حظوظهم هؤلاء لا يستطيعون مقابلة أعدائهم، والقصة التي وردت في القرآن الكريم قال:

(إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ)

[سورة البقرة: 249]

عصوا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ، فلما واجهوا العدو:

(قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

[سورة البقرة: 249]

الإنسان يرقى عند الله بطريقتين إما بالصبر أو بالعمل الإيجابي :

المعنى واضح جداً، الإنسان حينما يعصي لا يستطيع أن يواجه العدو، هو أضعف من أن يواجهه، لذلك علة ضعف المسلمين أن حبهم للدنيا استحوذ عليهم، آثروا الدعة والخلود إلى الأرض على الجهاد في سبيل الله، (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، و(غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) استثناء صاحب هذا الأمر المعذور، والله عز وجل عذره، والله عز وجل أعطاه أجراً لا على أنه جاهد، لكن على أنه ابتلي فصبر، وأنت ترقى عند الله بطريقتين، إما أن تأتي المصيبة فتصبر عليها صبراً جميلاً، وتستسلم لمشيئة الله عز وجل، وتصبر على قضائه وقدره، كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف فقال: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي، فإما أن تصبر على مصيبة ألمت بك، فترقى عند الله، فهؤلاء أولوا الضرر لم يجاهدوا، لكنهم ارتقوا بصبرهم، فالصبر يرقى بك، والعمل الإيجابي يرقى بك.

نعود إلى الجهاد، فجهاد النفس والهوى هو الجهاد الأكبر، هو الجهاد الذي ليس قبله جهاد، أنت حينما تضبط أمورك وفق منهج الله، حينما لا تسمح بمخالفة في بيتك ولا في عملك، ولا تسمح لجارحة من جوارحك أن ترتكب معصية، لا بلسانك، لا غيبة، ولا نميمة، ولا محاكاة، ولا بهتاناً، ولا افتراء، ولا سخرية، ولا بعينيك، فلا تملأ عينيك من الحرام، ولا بأذنيك، فلا تستمع إلى ما حرم الله من غناء، أو ما شاكل ذلك، ولا بيدك، فلا تحركها إلا وفق مرضاة الله، ولا برجلك، فلا تقودك رجلك إلا إلى طاعة الله، فأنت حينما توقع حركتك اليومية وفق منهج الله فأنت في الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى، إن أتقنت هذا الجهاد وكنت سيد نفسك وكنت متمكناً من تصرفاتك، وكنت ضابطاً لشهواتك، وكنت متحكماً بجوارحك، وكنت دقيقاً في قبض مالك، في دخلك وفي صرفك، الآن تسأل ماذا أفعل بعد هذا، نقول لك هناك جهاد آخر.

المرحلة الثانية في الجهاد مرحلة الجهاد الدعوي :

هناك جهاد آخر متاح لكل مسلم، عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بحديث جامع مانع قصير فقال عليه الصلاة والسلام:

((بلغوا عني ولو آية))

[البخاري عن ابن عمرو]

وعبرت عنه الآية الكريمة في سورة العصر:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر: 2]

وأكدته آية أخرى فقال الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

وأشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أنه:

((من لقيَ اللهَ بغير أثرٍ من جهادٍ لقيَ اللهَ وفيهِ ثُلمةٌ))

[ابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يمتلئ إنائك ثم لا يفيض على من حولك، إذا امتلأ الإناء فلا بد من أن يفيض على من حوله، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بدعوة إلى الله، في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء: 214- 215]

الآية التالية تعطينا منهجاً في الترجيح :

أيها الأخوة، هذه الآية تعطينا منهجاً في الترجيح:

(لَا يَسْتَوِي)

أي لا يمكن أن يكون عند المؤمن إعجاب سلبي للإيمان، ما شاء الله، دين عظيم، دين الفطرة، دين الإسلام هو الدين الصحيح في الحياة، كلام، ماذا فعلت؟ ماذا قدمت لله عز وجل؟ لو أن الله سألك يوم القيامة ماذا قدمت من عمل صالح بين يدي يوم القيامة؟ ما فعل شيئاً، هذا الإعجاب السلبي، والانتماء الشكلي، والعواطف الإسلامية، والاتجاه الإسلامي، والفكر الإسلامي، والمشاعر الإسلامية، والاهتمامات الإسلامية من دون تقديم عمل ملموس لخدمة المسلمين في حل مشكلاتهم، في التخفيف عنهم، في تنفيس كربهم في الدنيا، في تعليم أبناءهم، لا يرقى بك الإيمان المبني على إعجاب سلبي، كما قلت بعد أن تجاهد نفسك وهواك، وتحقق الجهاد الأكبر، وتنتقل إلى جهاد آخر، هو الجهاد الدعوي، كيف أن الله عز وجل قال:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل: 120]

أنت في كم قلب؟ هل أنت في قلب أحد، هل أنت في قلب عدد من الناس؟ هم يحمدونك في السحر، جزى الله عنا فلاناً كل خير، هل ساهمت في نقل الحق لإنسان؟ هل ساهمت في إقناع إنسان في هذا الدين العظيم؟ هل وصلت الناس بالله؟ هل دفعتهم إلى باب الله؟ هل حرضتهم على طاعة الله؟ هل بينت لهم عظمة هذا الدين؟ هل شجعتهم؟ هل كنت قدوة لهم؟ هل جلست معهم؟ هل آنستهم؟ هل زرتهم في بيوتهم؟ هل جمعتهم في بيت الله؟ هل دفعتهم إلى بيت من بيوت الله؟ ماذا فعلت؟ تنتقل بعد جهاد النفس والهوى، وكأنه الهيكل الأساسي للبناء إلى الجهاد الدعوي، ثم إذا أتيح لك أن تنشر هذا الدين في الآفاق، إذا أتيح للمسلمين أن يحملوا هذا الدين العظيم إلى الشعوب والأمم كما فعل أسلافهم.

المرحلة الأخيرة الجهاد في سبيل الله :

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

[سورة البقرة: 143]

إذا أتيح لك ذلك، وعرضت الإسلام على قوم فدخلوا فيه فلك كل الأجر والثواب عند الله عز وجل.

((يا علي! لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

وإن أبوا، ودفعوا الجزية فقد حموا أنفسهم وأموالهم وأهليهم، وإن أبوا إلا قتال المؤمنين يقول الله عز وجل:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا)

[سورة البقرة: 190]

تقاتل من حال بين الناس وبين التدين، تقاتل من حال بين الناس وبين أن يعبدوا الله، ونستبق الأمور الذين لا يستطيعون أن يعبدوا الله عز وجل في مكان، لأن قوة غاشمة تمنعهم من عبادة الله، هذا الذي يمنع حرية التدين هو الذي يقاتَل، ليتيح للإنسان حقه الطبيعي في الحرية، أن يعتقد ما يشاء، وأن يسلك الطريق الذي اختاره لنفسه.

أيها الأخوة، هذه هي المفاهيم الثلاثة: مفهوم الجهاد، جهاد النفس والهوى، ومفهوم الجهاد الدعوي، وهو متاح لكل إنسان مسلم يرتاد بيوت الله عز وجل. وأنا أذكر لكم أن بعض الأخوة الكرام استطاع أن يقنع من حوله من أهله، ومن أخوته، وأصهاره، وأبناء عمه، هناك من أقنع زملاءه بالعمل، هناك من أقنع أصدقاءه القدامى، هذا جهاد كبير، جهاد الدعوة، جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طبعاً بأسلوب عصري، بتلطف ما بعده تلطف، لأن الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة: 73]

هذا السلوك أين؟ في ساحة المعركة فقط، أما في الحياة المدنية:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

المؤمن القاعد لا يرقى إلى مستوى المؤمن المجاهد فالفرق كبير بينهما :

أنت يا محمد سيد الأنبياء والرسل، سيد ولد آدم على الإطلاق، أنت يا محمد أوتيت القرآن، ومثله معه، أنت يا محمد أوتيت المعجزات، أوتيت البيان، أوتيت الحكمة، أوتيت الفطنة، أوتيت الرحمة، أوتيت اللطف، كل هذه الميزات أنت بالذات:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: 159]

كيف لمن ليس نبياً، ولا رسولاً، ولا معه معجزات، ولا معه وحي، ولا معه كتاب، وليس فصيحاً، وليس أصيلاً، وليس منتسباً، وهو فظ غليظ القلب، اختلاط الأمور، اختلاط آيات أخلاق الجهاد مع آيات أخلاق الدعوة يسبب مشكلات كبيرة، المؤمن في دعوته إلى الله في غاية الرقة، كان عليه الصلاة والسلام يصلي، فسمع صوت طفل يبكي ينادي أمه ببكائه، فاختصر الصلاة، وقال: سمعت طفلاً ينادي أمه ببكائه، فأردت أن أرحمها وأرحمه، لطف ما بعده لطف، تواضع ما بعده تواضع، رقة ما بعدها رقة، هذه أخلاق الدعوة، وأخلاق القتال شيء آخر، فلذلك الله عز وجل يدفعنا إلى الأعمال البطولية:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

أي المؤمن لا يقدم شيئاً، لا يفكر أن يقدم شيئاً للمسلمين، يعيش الناس له ولا يعيش للناس، يعيش ليحقق مصالحه، يصلي، ويصوم، ويحج، ويزكي، ولكن لا يفكر بعمل صالح إطلاقاً، لا يخرج عن دائرة مصالحه، ولا عن دائرة اختصاصه وعمله، مثل هذا المؤمن قاعد، ولا يستوي مع مؤمن مجاهد، مثل هذا المؤمن لا يرقى إلى مستوى المؤمن المجاهد، فرق كبير، أين الثرى من الثريا؟

فضل الله عميم ولا ينسى الله أحداً من فضله :

قال تعالى:

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ)

يمكن أن تجاهد نفسك وهواك، ويمكن أن تجاهد بمالك، ويمكن أن تجاهد بلسانك، ويمكن أن تجاهد بأن تضع حياتك في سبيل الله، هذه أنواع الجهاد، ثم يقول الله عز وجل:

(فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)

قد تكون هذه الدرجة أبعد ما بين السماء والأرض:

(فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)

لكن كرم الله عميم.

(وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)

أي المؤمن المستقيم على أمر الله له عند الله شيء، فضل الله عميم، لا ينسى الله أحداً من فضله.

المقصود من كلمة (عظيم) :

قال:

(وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

إذا قال الله عز وجل:

(أَجْراً عَظِيماً)

فكم هذا العظيم؟ يعني أنت لو استمعت إلى طفل يقول أنا عندي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ من طفل؟ إذا استمعت إلى جهة تنطق باسم دولة غنية جداً، فقال: رصدنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، كم؟ طفل قال: عظيم، وناطق باسم دولة غنية جداً تنوي أن تقوم بحرب ظالمة، قال: رصدنا مبلغاً عظيماً، بألوف المليارات هناك، هنا بعشرات الليرات فقط، كلمة عظيم، فإذا قال الله عز وجل:

(وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

كم هذا العظيم؟ فلذلك لو يعلم الإنسان ماذا ينتظره بعد الموت ما أكل طعاماً عن شهوة، ولا شرب شراباً عن ظمأ، ولا دخل بيتاً يستريح فيه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعى إلى اللعب وهو صغير فكان يقول: لم أخلق لهذا، وحينما جاءته الرسالة واختاره الله ليكون نبي هذه الأمة جاء إلى بيته فطلبت منه السيدة خديجة رضي الله عنها أن يأخذ قسطاً من الراحة، فقال عليه الصلاة والسلام: انقضى عهد النوم يا خديجة، ماذا فعل؟ عاش بعد الرسالة ثلاثة وعشرين عاماً قلب وجه الأرض من الضلال إلى الهدى، من الضياع إلى السعادة. واحد: أنت اسأل نفسك ماذا فعلت أنا؟ ماذا قدمت لهذه الأمة؟!!

ينبغي على الإنسان ألا يقعد مع القاعدين :

النبي عليه الصلاة والسلام أقسم الله بعمره قال له:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

أقسم بعمره، أنت ماذا فعلت؟ هل ربيت أولادك، هل نصحت الناس في بضاعتهم أم غششتهم؟ هل ربيت أولادك أم سيبتهم بالطرقات والمسلسلات ولأصدقاء السوء؟ هل نصحت أخوانك؟ هل أتقنت عملك؟ هل دفعت من مالك؟ هل أعنت المتضررين؟ هل بكيت لبؤس البائسين؟ ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟

(وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

لذلك ينبغي ألا نقعد مع القاعدين، قال المنافقون فيما بينهم:

(وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[سورة التوبة: 46]

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة: 24]

قعود الكسل، قعود الهمة المتدنية، قعود الضعف، قعود اليأس، قعود التشاؤم، هذا القعود.

الأجر العظيم درجات وكل درجة ما بين السماء والأرض :

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)

لذلك يوم القيامة هناك أصحاب اليمين وهناك:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[سورة الواقعة: 10-11]

لماذا أنت في الدنيا؟ تبتغي أن تكون في أعلى مقام، ولا تقبل إلا أن تكون رأساً في كل موضوع، لا تقبل إلا أن تكون رأساً في دنياك، وترضى أن تكون في مؤخرة الركب، لماذا؟ لماذا ترضى من الآخرة كما يقول معظم الناس وراء الباب، وراء باب الجنة، ولا تقبل في الدنيا إلا أجمل شيء وأكمل شيء، هذا خلل كبير في تفكير الإنسان:

(وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[سورة التوبة: 46]

ثم يقول الله عز وجل:

(دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

هذا الأجر العظيم درجات، وكل درجة ما بين السماء والأرض. مثلاً إنسان جالس في بيته متنعم يأكل ما لذ وطاب، يستمتع بكل شيء، فقط يوزع ألقاب على الناس، يدلي بآرائه في كل موضوع، يوزع ألقاب، يتهم إنسان، يقدس إنسان، ولا يقدم شيئاً، وإنسان غارق إلى رأسه في خدمة الخلق، هل يستوي هذا مع هذا؟

الطموح الحقيقي أن تكون طموحاً في الآخرة :

قال تعالى:

(دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

أيها الأخوة الكرام، ليس الطموح أن تكون طموحاً في الدنيا، ولكن الطموح الحقيقي أن تكون طموحاً في الآخرة، العبرة أن تكون مع السابقين السابقين لا أن تكون مع أصحاب اليمين الذين نجوا، إن كان الخيار بين أن تكون مع أصحاب اليمين، وبين أن تكون مع الطرف الهالك ينبغي أن تكون مع أصحاب اليمين، أما إذا كان الخيار بين أن تكون مع أصحاب اليمين وبين أن تكون مع السابقين السابقين ينبغي أن تكون مع السابقين، والأمر بين أيديكم، الله عز وجل الذي رفع شأن أصحاب رسول الله موجود، وهو إلهنا وربنا، والظروف متشابهة، وأبواب الخير لا تعد ولا تحصى، والأعمال الصالحة بين أيدي كل الناس، ولكن أزهد الناس من زهد بعمل صالح.

أخواننا الكرام، سيدنا كعب بن مالك الذي تخلف عن الغزو في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فلما عاد النبي إلى المدينة وجلس يستمع إلى أعذار المتخلفين، ثمانون إنساناً أبدوا أعذارهم لرسول الله، والنبي قبلها، ولعله قبلها مجاملة لهم، فلما جاء كعب بن مالك، وقد تخلف عن الجهاد خاطب نفسه، وقال: والله لقد أوتيت جدلاً؛ أي أوتي قوة إقناع، القدرة على الإقناع هذا شيء يتميز به بعض الأشخاص، أوتي هذا الصحابي الجليل قدرة على الإقناع، فقال: والله لو أنني خرجت من سخطه، أي أدليت بسبب مقبول محكم، ونجوت من سخطه ليوشكن الله ليسخطه علي، رأى أنه لو كذب على هذا الرسول الكريم فإن الله يكشفه، وسوف يلقي بقلب النبي بغضه، رأى أن يد الله تعمل وحدها، قال: فأجمعت صدقه، أي أخذ قراراً أن يكون صادقاً، فلما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله، والله حين تخلفت عنك ما كنت في حال أقوى مني أو أنشط، ولكنني تخلفت، أي لا عذر لي، فجاء الوحي بأن يقاطع النبي وأصحابه هذا الصحابي إلى إشعار آخر، لم يكلمه أحد، هم ثلاثة صدَقوا النبي، قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة: 118]

حال المسلمين اليوم في تقصيرهم بالطاعات :

أيها الأخوة، إذا قصر الإنسان في الجهاد، في بذل روحه في سبيل الله فكيف إذا قصر في الطاعات، هو في بيته آمن، مطمئن، في البيت خمسون معصية، ومعاصي بالبنات، ومعاصي بالزوجة، ومعاصي بالأولاد، ومعاصي بالبيع والشراء، ونحن مسلمون، نحن من أمة محمد، وأمة محمد مرحومة، مثلاً، ما هذا الكلام؟ هذا كلام غير مقبول، إذا كان الصحابي الجليل تخلف عن أن يبذل روحه في سبيل الله قوطع خمسين يوماً من قبل النبي وأصحابه، فكيف بهؤلاء المسلمين المقصرين، إذا كان بعض الأصحاب عينه النبي قائداً ثالثاً في معركة مؤتة، وهو عبد الله بن رواحة، فلما جاء دوره في القيادة طبعاً تسلم القيادة زيد، فأمسك الراية بيمينه، وقاتل بها حتى قتل، ثم تسلم الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل بها حتى قتل، فجاء دور عبد الله بن رواحة، وكان شاعراً، تردد عشر ثوان، قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ وإن توليتِ فــقد شقيتِ

* * *

عشر ثوان، وإن توليتِ فقد شقيتِ، أو خمس عشرة ثانية، قال عليه الصلاة والسلام: أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإني لأراه في الجنة يطير بجناحين، لأن العدو قطع كلتا يديه، ثم سكت النبي، سكت خمس عشرة ثانية، بمقدار تردد عبد الله، فقالوا: يا رسول الله ما فعل عبد الله؟ قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، نحن ترددنا لبذل نفسنا؟ مترددين في طاعة الله عز وجل، مترددين في كسب المال، يقول لك: لا تدقق، الدنيا كلها غلط، عندي أولاد مثلاً، مترددين بالسماح أن نمارس بعض الشهوات التي لا ترضي الله عز وجل، فوضع المسلمين في حال يرثى له، إذا أردت أن تقول: لماذا تخلى الله عنا؟ هناك ألف سبب وسبب لتخلي الله عنا.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(46-69): تفسير الآيات 97-100 ، الهجرة في سبيل الله والهجرة في سبيل الشيطان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه النفس التي هي ذات الإنسان هي أمانة بين يديه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية السابعة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

أيها الأخوة، اللَّهُ عز وجل يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، أي أن هذه النفس التي هي ذات الإنسان وضعت في أمانته في الحياة الدنيا، وكلف أن يعرفها بربها، وأن يحملها على طاعته، وأن يطهرها ويزكيها بالقرب منه، وقد قال الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

إلا أن هذه الأمانة ليست إلى أبد الآبدين، هي أمانة بين يديك إلى وقت معلوم، النجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، في أن تزكيها، أي أن تعرفها بربها، وأن تحملها على طاعته، وأن تسعدها بالقرب منه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: 9-10]

هذه النفس أمانة لا إلى أبد الآبدين ولكن إلى وقت معلوم :

من تركها جاهلة غير منضبطة بمنهج الله، تملؤها الشهوات والأدران هذه أشقى النفوس، لكن الإنسان لا بد من وقت تسترد فيه الأمانة، ولعوام الناس كلام يقترب من هذا المعنى يقولون: صاحب الأمانة أخذ أمانته، نفسك أمانة بين يديك، كل بطولتك أن تزكيها، أما هي أمانة لا إلى أبد الآبدين، إلى وقت معلوم، الله عز وجل قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران: 133]

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة: 11]

نعود إلى الوفاة، الذي يأمر بالوفاة هو الله، الآمر الأعلى، والأمر يتوجه إلى ملك الموت:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة: 11]

الله عز وجل هو الذي يأمر وملك الموت مشرف على التنفيذ وله أعوان :

الله عز وجل إذا قال:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)

[سورة الزمر: 42]

أي هو الذي يأمر، وإذا قال الله عز وجل:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة: 11]

أي هو المنفذ، وإذا قال الله عز وجل:

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)

[سورة الأنعام: 61]

هؤلاء أعوان ملك الموت، الحقيقة الله عز وجل هو الذي يأمر، وملك الموت مشرف على التنفيذ، وله أعوان أشير إليهم في قوله تعالى:

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

[سورة الأنعام: 61]

على كل هذه النفس التي أودعت في الجسد، والتي خلق لها الكون من أجل أن تعرف الله، والتي أعطيت العقل من أجل أن تهتدي إليه، والتي فطرت فطرة تتوافق مع منهج الله، وقد أودعت فيها الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، وقد أعطيت حرية الاختيار، وقد وضع لها منهج قويم تسير عليه هذه النفس البشرية المعنية بالخطاب.

من ظلم نفسه ضيع عليها الأبد و سعادة الآخرة :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)

أي جاءهم ملك الموت وهم ظالمو أنفسهم، الإنسان متى يظلم نفسه؟ حينما يضيع عليها خيراً كثيراً، هي خلقت للأبد، خلقت للجنة، فغفلت عن الله عز وجل، واهتممت بالدنيا، والدنيا محدودة، الدنيا أمدها قصير مركبة على المتاعب، أما الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[سورة يونس: 7]

هؤلاء هم الخاسرون. فمن هم الذين ظلموا أنفسهم؟ هم الذين قهروا على أن يعصوا الله عز وجل، أي وضع استثنائي، وقد مر في التاريخ الإسلامي حالات كثيرة جداً أن بلداً من البلدان لا يستطيع فيه المؤمن أن يطيع الله عز وجل، يجبر على معصية الله، هذا الإنسان إذا بقي في هذا البلد، في البلد الذي يجبر فيه على معصية الله، ولا يتاح له أن يطيع الله، ولا أن يعبده إذا بقي في بلد، وضحى بالجنة من أجل أن يبقى فيه، آثر ماله، آثر من حوله، آثر بلداً ألف فيه، هذا يموت ظالماً لنفسه، لأنه استعجل العاجل، وضيع الآجل، لأن هذه الآية جاءت في سياق الجهاد، فالبلد الذي لا تستطيع أن تعبد الله فيه ينبغي ألا تبقى فيه، لأنك مخلوق في الدنيا من أجل العبادة، كلام دقيق، لأن علة وجودك في الأرض من أجل أن تعبد الله، فإذا حيل بينك وبين أن تعبده، إذا حيل بينك وبين أن تؤدي الغاية التي خلقت من أجلها، إذا حيل بينك وبين أن تطيعه، لا شيء يعذرك يوم القيامة، ينبغي أن تهاجر، هذه الهجرة في سبيل الله، هذه الهجرة فراراً بدينك، هذه الهجرة صون لعرضك، هذه الهجرة ضمان لمستقبل أبنائك، كلام دقيق واضح كالشمس، أي بلد في الأرض حال بينك وبين أن تعبد الله ينبغي ألا تبقى فيه، وبقاؤك فيه تعرض دينك، وتعرض أهلك، وتعرض من حولك للشقاء في الدنيا والآخرة.

فهؤلاء الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم أي ضيعوا على أنفسهم الآخرة، ضيعوا على أنفسهم سعادة الآخرة، ضيعوا على أنفسهم الأبد، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فأقاموا في بلد لم يستطيعوا أن يطيعوا الله فيه، أي أقاموا في بلد لا يستطيع أن يمنع ابنته أن تتزوج بفاسق، إذا وجد مع ابنته شاباً في السرير، وعنفه يقاد إلى المخفر ليوقع تعهداً أنه لم تكن حضارياً في تعامله مع صديق ابنته، في مثل هذا البلد الذي ترتكب فيه الفواحش على قارعة الطريق، ولا يستطيع الإنسان أن يضمن مستقبل أبنائه، ولن يكون أبناؤه مسلمين، لذلك قال بعض العلماء، وأنا معه بهذا القول: إن لم تضمن أن يكون ابنَ ابن ابنك مسلماً فلا يجوز أن تبقى في بلاد الكفر، ومن أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله، والقصص التي يعاني منها أبناء الجاليات في بلاد الغرب أكثر من أن تحصى، لأن أثمن شيء في حياة الإنسان أولاده، ولن يكون قرير العين على مستقبل أولاده إذا أقام في بلاد يعبد فيها الدرهم والدينار، وتعبد فيها الشهوات، ويضام الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

من يضحي بدينه ودين أولاده من أجل دخل أكبر فهذه بمثابة هجرة في سبيل الشيطان:

أيها الأخوة الكرام، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله، ولا أطمئنكم بل أقرر حقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام في أكثر من ثلاثين حديثاً صحيحاً دعا المسلمين في آخر الزمان إلى السكنى في الشام فقال: هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذ. وقال:

((رأيت عمود الإسلام قد سلّ من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو بالشام))

[الطبراني والحاكم عن ابن عمرو]

طوبى لمن له فيها مربط شاة، الداخل إليها برضائي والخارج منها بسخطي، إذا كان لك في الشام مربط شاة فطوبى لك، إن كان لك في الشام مورد رزق يكفيك طوبى لك، وترون هذا التجمع في مسجد، في درس ربما لا يوجد في بلاد أخرى، في بلاد أخرى قد تسأل سؤالاً إذا دخلت المسجد مرة واحدة، نحن والحمد لله كما ترون الجوامع مكتظة بالمصلين، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يضاف إلى هذا التجمع التقوى والصلاح، فلذلك هذا الذي يؤثر بيتاً مريحاً، ومركبة فارهة، وحديقة غناء، ومسبحاً خاصاً، ودخلاً فلكياً، ولا يهتم لدين أبنائه، ولا لإسلامهم، ولا لمستقبلهم فهذا إذا توفته الملائكة فهو ظالم لنفسه، لأن أثمن شيء في حياة الإنسان أولاده، وكنت أقول دائماً: لو بلغت أعلى منصباً في العالم، ولو جمعت أضخم ثروة في العالم، ولو نلت أعلى شهادة في العالم، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، لأن ابنك امتداد لك، لأنك لن تسعد إلا إذا قرت عينك بأولادك، ولو فرضنا جدلاً أنك نجوت بدينك في بلاد الغرب فلن ينجو أبناؤك، أبناؤك سوف يكونون ويشكلون تشكيلاً آخر لا ترضى عنه، أي هذه الآيات يمكن أن تفهم في هذه المعطيات التي نجدها في عالمنا المعاصر:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

من أجل الدنيا أنا أسميها دائماً هجرة في سبيل الشيطان، تضحي بدينك، أو تضحي بدين أولادك، أو تضحي بأهلك، وقد قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم: 6]

بعض من علامات آخر الزمان :

من أجل دنيا عريضة، من أجل دخل كبير، من أجل أن تركب كل عام مركبة فارهة، من أجل أن تجلس، وأن ترى العالم كله على الشاشات، هناك متع كثيرة في بلاد الغرب، إنها على شبكية العين جنة الله في الأرض، ولكنك إذا نقلت هذه الصورة إلى الدماغ وجدتها جهنم، وقد ورد في بعض الأحاديث أن الأعور الدجال الذي يرى الدنيا ولا يرى الآخرة، والذي يكذب ويدجل، ناره جنة وجنته نار، من علامات آخر الزمان أن الرجل يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ، فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً، وَيُمْسِي كَافِراً، أَو يُمْسِي مُؤْمِناً، وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

كل المتاعب التي تعاني منها في بلد من العالم الثالث ليست بشيء أمام نار جهنم، كل المتاعب التي تعاني منها في بلد من العالم الثالث ليست بشيء أمام ضياع الجنة، كل المتاعب التي تعاني منها في بلد من العالم الثالث ليست بشيء، كل المتاعب التي يعاني منها من كان في العالم الثالث ليست بشيء أمام أن ترى أبناءك ليسوا مسلمين، والله ذهبت إلى بلاد الغرب مرات عديدة، والله استمعت إلى الآباء كلاماً يعتصر القلب من الألم، شيء يقلقهم إلى حد لا يوصف، أن أولادهم على شيء آخر، لا ينتمون لا إلى أمتهم، ولا إلى عروبتهم، ولا إلى دينهم، ولا إلى قيمهم، شكا لي أحد الآباء أنه كلما عنف ابنه على خلق لا يرضي الله عز وجل سخر من أبيه.

فيا أيها الأخوة الكرام، الإنسان أحياناً يتخذ قراراً مصيرياً، فأن تعقد العزم على أن تقيم إقامة دائمة في بلاد يفتخر علية القوم أنهم شاذون، مدينة بأكملها من أجمل مدن العالم ثلاثة أرباع سكانها من الشاذين، حاكم ولاية، قاض كبير، مدير شركة، ويكفي أن سفير إحدى هذه الدول عندما حضر حفل إعطائه أوراق اعتماده ليقدمها إلى رئيس البلد الذي عين فيه كان في رفقته شريكه الجنسي، أي الفاحشة هناك لا وزن لها إطلاقاً، يمكن أن ترتكب الفواحش كلها، ولك مكانة علية في القوم، بعيدون عن الله بعد الأرض عن السماء، لكن لا يمنع هذا، وأنا أتكلم بشكل واقعي، أن تسافر إلى هناك لتأتي بشهادة تنفع بها المسلمين، لا يمنع أن تذهب إلى هناك لتأتي بخبرة تنفع بها المسلمين، أنا أتحدث عن الإقامة الدائمة، أنا أتحدث على أن تقيم إقامة دائمة، هذا الذي حظره النبي، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله.

الفرق بين أن تحس بالضعف دعوى وأن تحس به حقيقة :

يوجد شيء آخر أن هذا اللحم الذي نبت في كتفك هو من بلادك، من بلاد المسلمين، ألا ينبغي أن تعود خبرتك على المسلمين؟ ألا ينبغي أن يكون طبك للمسلمين؟ ألا ينبغي أن يكون ذكاؤك للمسلمين؟ ألا ينبغي أن تكون إمكاناتك بين أيدي المسلمين؟ ولن تستطيع أن ترى توافقاً بين بلاد نامية وبين بلاد نعمت بالاستقرار مئتي عام، هناك مسافة كبيرة، لكن ألا تستحق الجنة أن نعاني بعض المتاعب من أجل ضمان سلامة دين أولادنا؟ ألا تقتضي الآخرة أن نعاني بعض المتاعب من أجل سلامة دين أهلنا؟ هذا معنى الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

إما أنهم في بلد فيه حريات تفوق حد الوصف إلى درجة التفسخ والإباحية، أو فيه قهر إلى درجة الظلم كلاهما واحد، في حالة القهر والقمع لا تستطيع أن تقيم شعائر دينك، وفي حالة الانحلال لا تستطيع ذاتياً أن تقيم شعائر دينك، المحصلة واحدة إن كنت في بلد يحول بينك وبين أن تصلي، يحول بينك وبين أن تحجب ابنتك، يحول بينك وبين أن تطلب العلم الشرعي، يحول بينك وبين أن تدخل المسجد، هذا البلد حال بينك وبين عبادة الله، وإن كنت في بلد آخر فيه من الحريات ما لا

يوصف، لكن هذا البلد الآخر لا يستطيع ابنك أن يستقيم على أمر الله، لأن البيئة فاسدة، ولأن المعصية ضمن يديك، في متناول يديك، أينما توجهت ترى المعصية على قدم وساق، أي سواء أكان الذي منعك من أن تعبد الله قوة قاهرة أو انحلال وحرية فالمحصلة واحدة:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)

أيها الأخوة، قال بعض العلماء: أن تكون مستضعفاً، هما حالتان؛ أن تحس بالضعف دعوى، وأن تحس بالضعف حقيقة، إذا كنت ضعيفاً حقيقة لا تستطيع أن تغادر، ولا يسمح لك أن تغادر، وليس معك مال يعينك على المغادرة فهذه حالة أخرى هذا ضعف حقيقي، أما يوجد ضعف دعوى، أي ألفت حياة ناعمة، ألفت بيتاً واسعاً، ألفت دخلاً كبيراً، ألفت تيسيرات في الحياة لا توصف، ألفت أن الحياة رغيدة ناعمة كل شيء تناله باتصال هاتفي، ويمكن أن تحل كل مشكلاتك وأنت على الشاشة، ويمكن أن تسافر، وأن تعقد الصفقات، وأن تجدد جواز السفر بسهولة ما بعدها سهولة.

جواب الله عز وجل على من آثر الدنيا على الآخرة :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)

هل قبل الله حجتهم؟ لا، هل نجاهم الاستضعاف من عذاب النار؟ لا:

(قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

كلما التقيت بإنسان مقيم هناك ويشكو تفلت أولاده؛ انحرافهم، وانغماسهم في محرمات يحرمها الشرع، وهم متألمون أشد الألم أقول لهم: غادروا، عودوا إلى أوطانكم، عودوا إلى بلدكم، يقول: لا يعاش في بلدنا، البيوت غالية جداً، يوجد أزمة مواصلات، أزمة ركوب، ويوجد أزمة سكن، ويوجد جو ملوث، إذاً أنتَ آثرت الدنيا على الآخرة:

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

هذا جواب الله عز وجل:

(فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

أرأيتم إلى هذا الحكم الشرعي؟ أرأيتم إلى مصير هؤلاء الذين طابت لهم السكنى في بلاد الأرض، ومدحوا جمالها، ومناخها، وأمطارها، ولونها الأخضر، ورخص أسعارها، وسهولة التعامل مع بعض الناس، قال:

(فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

لا توازن بين بلد متقدم وبلد في الشرق الأوسط ولكن وازن بين الدنيا والآخرة :

كلما ألتقي مع إنسان، وأحضه أن يعود ليسهم في بناء وطنه يقول: الحياة هنا مريحة جداً، أقول له: لا توازن بين هذا البلد الذي أنت فيه، وبين بلدك في الشرق، وازن بيد الدنيا والآخرة، هذه الموازنة خطأ كبير، طبعاً لو أردت أن توازن بين بلد متقدم جداً، وينعم بالاستقرار أكثر من مئتي عام، وقد جمع أموال الدنيا عنده، طبعاً لا يوازَن مثل هذا البلد مع بلد نامٍ يعاني من مشكلات لا تنتهي، صنعها له الطرف الآخر، أقول له: لا توازن بين بلد متقدم وبلد في الشرق الأوسط، ولكن وازن بين الدنيا والآخرة، فالذي يهاجر من بلد يستطيع أن يعبد الله فيه كما ترون يوجد شيء اسمه خجل، حياء، يوجد بقية وفاء، يوجد بقية تماسك أسرة، الأب عندنا مقدس، همه الأول تزويج أولاده، الأم عندنا أم، أي هناك صفات في الأسرة في الشرق تتمتع بها لا نراها هناك إطلاقاً، مرة وقف رئيس دولة عظمى هي قطب العالم غير الذي هو على كرسي الحكم الآن، قال: إننا نعاني من مشكلات مدمرة، قفز إلى ذهني ما المشكلات المدمرة التي يعاني منها؟ بلد يتربع على عرش القوة في العالم، تصورت الصين أو أوربا فالمفاجأة كانت أن أضخم هذه المشكلات تفكك الأسرة، والمخدرات، وشيوع الجريمة، إذاً يوجد إيجابيات في بلادنا أيها الأخوة من الصعب جداً أن يكتشفها الإنسان إلا إذا غادر بلده إلى بلد آخر، يوجد إيجابيات كثيرة، والإنسان المنصف ينبغي أن يكشف الإيجابيات والسلبيات، أما أن يبقى في السلبيات، وأن يكثر التشكي ليس هذا من الإنصاف في شيء:

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

هذا كلام من؟ كلام خالق الأكوان، كلام رب العالمين، أي إذا طابت لك الحياة في بلد، ولم تطب لك العبادة، أولم تستطع أن تعبد الله إما قهراً أو إغراء، الإنسان تحت ضغطين قد يضغط، وقد يغرى، كلاهما يخرجانه عن استقامته.

الله سبحانه وتعالى يرحم أولئك الذين كانوا مستضعفين حقاً لا دعوى بل حقيقة :

لكن الله سبحانه وتعالى يرحم أولئك الذين كانوا مستضعفين حقاً، لا دعوى بل حقيقة، قال:

(إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً)

أي يوجد إنسان لا يستطيع، إما لا يسمح له، أو لا يملك ثمن السفر، أو لا يملك موافقة الإقامة في بلد آخر، الأمور معقدة جداً، ربما لا يستطيع أن يغادر، أو لا يملك ثمن المغادرة، أو لا يسمح له أن يقيم هناك، هذا معذور عند الله، أما إنسان بإمكانه أن يعود إلى بلده، بإمكانه أن يخدم أمته، بإمكانه أن يضع علمه وخبرته في خدمة المسلمين، لأن الحياة راقت له هناك، يأبى أن يعود هذا الإنسان توعده الله بجهنم والتي وصفها بأنها ساءت مصيراً، لكن هذا الكلام لا ينسحب على كل من أقام في

بلاد الغرب، قد يقيم أحدهم مضطراً، وربما لا يستطيع أن يعود شيء آخر، أنا أتكلم عن إنسان بإمكانه أن يعود، وأن يضع علمه في خدمة أمته، بإمكانه أن يخفف من أخطار تفلت أولاده، لا أمدح البلاد الأخرى، لأن الفساد عمّ الأرض كلها:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

[سورة الروم: 41]

لكن يوجد بيئات أفضل من بيئات، يوجد بيئات احتمال الانحراف أقل من بيئات أخرى.

يجب على المؤمن أن يقيم في بلد يستطيع أن يعبد الله فيه :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ذكرت في مقدمة هذا الدرس هناك هجرة في سبيل الشيطان من أجل الدرهم والدينار، من أجل التمتع، من أجل الحرية بمعنى التفلت هذه هجرة في سبيل الشيطان، ومن كان في بلد لا يستطيع أن يعبد الله فيه إما إغراء، وإما قمع، وكلاهما سيان، ينبغي أن يغادر إلى بلد يستطيع أن يعبد الله فيه قال:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي فراراً بدينه، أو صوناً لدينه وإنقاذاً لأهله وأولاده:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

المراغم: جمع، وهو اسم مفعول، وهو من مادة رغم، والرغام هو التراب، رغم أنفه أي لامس التراب، مراغماً كثيرة أي إذا هاجر في سبيل الله، وأقام في بلاد المسلمين، وصان دينه وعرضه يكون قد أرغم عدوه، ومرغ أنف عدوه في التراب، لأنه نجا بدينه، لأنه ضمن آخرته، لأنه أصلح حاله.

أيها الأخوة الأكارم، أخوة كثر أخذوا قراراً مصيرياً بالعودة إلى بلادهم وخدمة أمتهم، في البدايات عانوا من بعض المتاعب امتحاناً لهم، وتأكيداً لإخلاصهم في قرارهم، لكن بعد حين وفقوا في حياتهم، وهم يلهجون بالشكر دائماً على أن الله مكنهم وأعانهم على أن يعودوا إلى بلادهم، هذا كلام دقيق أقوله.

أهمية الهجرة في سبيل الله :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

كلام خالق الكون:

(يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً)

أي يجد إلى البلد الذي هاجر إليه في سبيل الله ما يرغم عدوه على احترامه، أو ما يجعل أنف عدوه يلامس التراب، لأن عدوه أراد أن يضيع عليه آخرته، الطرف الآخر أراد أن يضيع دينه، أراد أن يجعل أولاده متفلتين، أراد أن يعيشوا إباحيين، كلام دقيق أي حينما يؤسس مدرسة في بلاد الغرب لا تعلم فيها الدين، ولا اللغة القومية، يعطون على كل طالب مبلغاً فلكياً، أما إذا علمت اللغة القومية، وعلمتهم الدين لا تأخذ شيئاً كمساعدة، إذاً حينما يريد الطرف الآخر أن يكون أبناؤك إباحيين، وأن يقيموا علاقات محرمة في الإسلام من أجل تأخير سن الزواج، وحينما تعقد المؤتمرات؛ مؤتمرات السكان بأن يعود الإنسان إلى حيوانيته تماماً، أنت حينما تعود إلى بلدك، وتصون أهلك وأولادك تكون قد أرغمت أنفه، تكون قد انتصرت عليه:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

والله أيها الأخوة، أخ كريم أرسل لي رسالة قال: أنا سمعت أشرطة كثيرة في بلاد الغرب، هذه الأشرطة ملخصها بأن أعود إلى بلدي، واتخذ قراراً بطولياً، وأنهى علاقاته، وعاد إلى بلده ليضمن دينه، بعد أيام من عودته توفاه الله بحادث، سبحان الله:

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

أخذ نيته.

ملخص لما ورد في درس اليوم :

أي أخ جاء من بلاد الغرب، وحدثني عن قصته، وقرأ رسالته، استمع إلى أشرطة كثيرة وجد أن هذا الكلام كلام دقيق وخطير، فلا بد من أن يكون له موقف، فالموقف الذي يرضي الله أن يعود إلى بلاد المسلمين لينجو بدينه، ليفر بدينه أولاً، ليضمن دين أهله ثانياً، بعد عودته بأيام مات بحادث، سبحان الله هذه الآية تشير إلى هذه الحالة:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

أيها الأخوة، هاتان الآيتان المتعلقتان بالهجرة أحكام عامة، وتوجيهات عامة لكن لكل إنسان مقيم أو مسافر، مهاجر أو غير مهاجر، حالة يعلمها الله، فأنا أضع قواعدَ عامة لا يعقل أن تأتيني حالات كثيرة، ويوجد إنسان ليس بإمكانه أن يعود إلى بلده لسبب أو لآخر، هذا لا تنطبق عليه هذه الآيات، أو إنسان لا يستطيع أن يغادر بلداً حال بينه وبين طاعة الله، هذا ورد ذكره في القرآن الحكيم، والسفر إلى هناك من أجل طلب العلم، أو كسب الخبرة لتقوية المسلمين لا شيء فيه، أنا أتحدث عن

الإقامة الدائمة، ولا أتحدث عن سفر طارئ، ولا عن بعثة، ولا عن طلب علم، ولا نيل شهادة، ولا كسب خبرة، هذا كله مباح، أنا أتحدث عن إنسان راقت له الحياة هناك فنسي دينه، ووطنه، وأمته، ونسي مستقبل أولاده، ونسي دين أهله، وراقت له الحياة فآثرها عن الآخرة، هذا الذي أتحدث عنه، أما قد ينشأ من هذا الدرس آلاف الأسئلة أنا لا أتحدث عن حالات خاصة، أتحدث عن معنى آيتين وردتا في القرآن الكريم حول الهجرة في سبيل الله، وفي سبيل الشيطان، أما هناك أسئلة وردتني لتوها، هذه الأسئلة كل حالة تعالج على حدة، هذه أحكام عامة، وكل إنسان له وضع، وله أعذار، وله معطيات، لعل الله يقبلها منه. بالمناسبة الله عز وجل استثنى فقال:

(إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، من كان مقيماً في بلد يستطيع أن يطلب العلم الشرعي، وأن يحضر مجالس العلم، ويوجد بقية حياء، ويوجد بقية خجل، ويوجد بقية حجاب عند النساء، وبقية دين، أقول: بقية، فهو بخير، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه: إذا فسدت الشام فسدت الأرض، أي آخر البلاد فساداً بلاد الشام، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا أن نكون في رضوان الله عز وجل.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(47-69): تفسير الآيات 102-104 ، صلاة الخوف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-01-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية من أبلغ الآيات التي تحض على صلاة الجماعة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثانية بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمْ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

أيها الأخوة، بادئ ذي بدء هل من حالة أصعب في حياة الإنسان من أن يكون في مواجهة عدو وجهاً لوجه، وفي ساحة المعركة، وبالسلاح الأبيض؟ ومع ذلك ينبغي ألا يغفل المؤمن عن الصلاة، وأن لا يغفل المؤمن عن صلاة الجماعة، المسلمون وهم في ساحة المعركة، ويشتبكون مع العدو وجه لوجه ينبغي أن لا تفوتهم صلاة الجماعة، ينبغي ألاّ يغفلوا عن الصلاة، وينبغي ألا تفوتهم صلاة الجماعة، فكيف في حالة السلم؟ لا يوجد قتال، ولا اشتباك، لا يصلي! لا يصلي في المسجد ولا يكون مع الجماعة!

ورود الآية السابقة في بيان كيفية صلاة الخوف :

أيها الأخوة، هذه آية من أبلغ الآيات التي تحض على صلاة الجماعة، ما من حالة في حياة المسلمين أصعب من أن يكونوا في مواجهة العدو، وهم مشتبكون معه، والقتال دائرة رحاه، ومع ذلك ينبغي ألاّ تفوتهم الصلاة، ولا صلاة الجماعة، لأن الصلاة هي الفرض الوحيد الذي لا يسقط بحال، ولا في أثناء مواجهة العدو، وأركان الإسلام الخمسة النطق بالشهادتين، وأداء الصلاة، وصيام رمضان، وحج البيت، ودفع الزكاة، خمسة أركان، أربعة منها تسقط، الشهادة تؤدى مرة واحدة، الصيام يسقط عن المريض والمسافر، والحج يسقط عن الفقير والمريض، والزكاة تسقط عن الفقير، أما الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال هو فرض الصلاة. وقد قال بعض العلماء: في الصلاة من معاني الحج التوجه لبيت الله الحرام، وفي الصلاة من معاني الصيام أنك في الصيام تدع

الطعام والشراب، وفي الصلاة تدع الطعام والشراب والحركة والكلام، ومن معاني الزكاة أن الوقت أصل في كسب المال وها أنت تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لتصلي.

أيها الأخوة:

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ)

هذه صلاة الخوف! صلاة الخوف وردت هذه الآية في بيان كيفيتها، النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الصدوق، وهو الذي ينبغي أن نأخذ ما أمرنا وننتهي عما عنه نهانا، شرع لنا قصر الصلاة في السفر، القرآن شرع لنا قصر الصلاة في الخوف، والنبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا قصر الصلاة في السفر، نحن في السفر نؤدي الرباعية ثنائية، صلاة الظهر والعصر والعشاء تؤدى ركعتين، بينما صلاة الفجر هي في الأصل ركعتان، والمغرب يبقى ثلاث ركعات، فالنبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا صلاة السفر، والقرآن الكريم شرع لنا صلاة الخوف، والحقيقة قصر الصلاة في السفر قصر كمي، بينما صلاة الخوف قصر كيفي، الكيّف في صلاة السفر عنه في صلاة الخوف.

ثلاث كيفيات لصلاة الخوف :

قال تعالى:

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ)

الصلاة مع رسول الله شرف عظيم، من نال شرف الصلاة مع رسول الله فهذا في مكانة علية عند الله عز وجل، لذلك لا يمكن أن يصلي المسلمون في الحرب، والعدو ينتظر حتى هذه اللحظة في صلاتهم لينقض عليهم، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن كيس فطن حذر.))

[القضاعي عن أنس]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

الفرض فرض لا بد أن يؤدى، إذا نحن في ساحة المعركة ينبغي أن نؤدي هذا الفرض أداء خاص، أداء قصر نوعاً لا قصر كماً. كما أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، قال:

(فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ)

يقسم الجنود لقسمين، قسم يصلي خلف رسول الله ركعتين فقط في الصلاة الرباعية، ويسلم النبي في القعود الأول يسلم فينهض الذين صلوا خلفه لأخذ مواقع إخوانهم في حراسة هؤلاء المؤمنين، نصف يحرس ويتوجه نحو العدو ومعه أسلحته وهي ملقنة وجاهزة، ونصف يصلي، النبي يصلي أربع ركعات، وحده! نصف الجيش يصلي معه ركعتين، ونصف الجيش الآخر يصلي بعد قعوده الأول ركعتين، يتابع بهما الصلاة، هذه كيفية أولى.

قد تؤدى صلاة الحرب أيضاً قصراً ركعتين، فرقة تصلي ركعة واحدة خلف النبي، وفرقة ثانية تصلي ركعة واحدة خلف النبي، والنبي يصلي ركعتين، فإما أن يصلي النبي ركعتين كل فرقة تصلي ركعة معه، وإما أن يصلي النبي أربع ركعات كل فرقة تصلي ركعتين معه، وإما أن يصلي الفريق الأول ركعة، والفريق الثاني ركعة، ثم يأتي الأولون فيصلون الركعة الثانية مع رسول الله في ركعته الثالثة، ويأتي الفريق الثاني ليصلي مع رسول الله ركعته الثانية في ركعة رسول الله الرابعة ثلاث كيفيات لصلاة الخوف!

في كل عصر يوجد نظام ووسائل يجب أن نأخذ بها :

على كل هذا النظام رائع، نظام تفوق، نؤدي الصلاة لكن ونحن حذرين، ونقف مواجهين للعدو من أجل ألاّ يغدرنا، لذلك قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

[سورة النور: 37]

معنى ذلك أنهم يتاجرون، ويشترون، ويبيعون، ويكسبون المال، وينفقون المال ولكن كسبهم للمال لا يلهيهم عن عبادة ربهم، ومن السهل جداً أن تكون متطرفاً في باب واحد، من السهل أن تدع العمل وتصلي، أو تعمل ولا تصلي، أن تغرق في دنياك إلى قمة رأسك، أو أن تعتزل الحياة كلها فلا تصلح أن تكون أباً، ولا زوجاً، ولا منتجاً في المجتمع، لذلك ليس بخيركم من ترك دنياه لأخرته للأسف، ولا من ترك آخرته لدنياه إلا من يأخذ منهما معاً فإن الأولى مطية للثانية.

(وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ)

في كل عصر يوجد نظام ووسائل يجب أن نأخذ بها، على كل رأى بعض المفسرين أن هذا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه رسول الله، ولأن الصلاة معه شرف عظيم، ولكن لو كنا بعده في معركة ولكل مجموعة من الجنود إمام، فيمكن أن تصلي كل مجموعة مع الإمام صلاة الظهر والعصر مقصورتين صلاة كاملة، وتأتي مجموعة ثانية فتصلي مع إمامهم الظهر أو العصر قصراً.

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ)

بعضهم استنبط، ما دامت الصلاة مع رسول الله شرفاً عظيماً، يقسم الجند قسمين، قسم يصلي مع رسول الله نصف الصلاة، والقسم الآخر يصلي معه القسم الثاني، إما تتابعاً أو تفرقاً، ركعة بركعة بركعة، أو ركعتان بركعتين، أما إن لم يكن رسول الله بين صفوفنا وجيش كبير، ولكل مجموعة إمام، يوجد ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة وقلب، الجيش خمس فرق، لكل فرقة إمام، ما الذي يمنع أن تصلي الفرقة الأولى وبقية الفرق تحرس، وتأتي الثانية فتصلي، والباقون يحرسون، على كل المؤمن كيس فطن حذر، وأروع ما قاله سيدنا عمر: "لست بالخبّ، ولا الخبّ يخدعني ".

الله عز وجل جعل الدنيا ثمن الآخرة :

يقول: عدوان غادر! شيء مضحك، متى كان العدوان معه نصيحة، أنا سأضربك، إلا في حالات نادرة مع القوة العظمى التي لا تقابل فرضاً، يقول: أنا سأضرب، أما بأساس العدوان يوجد مفاجأة، والحرب خدعة، وإذا قلت: عدوان غادر، كلام لا معنى له، العدو من خصائصه أن يفاجئك بالحرب، ومن لوازم إعدادك للحرب حتى لا تفاجأ:

(وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ)

قد يقول قائل: أنت مكلف أن تكون حذراً، ألم يتولى الله حفظ المؤمنين، أن يجعلك الله خليفته في الأرض.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

[سورة محمد: 4]

وألغى كل الحروب، ولكن لتكسب شرف البذل في سبيل الله، فرق كبير بين أن تبذل من جهدك، ووقتك، وفكرك، وتخطيطك، لتنال عند الله القرب. مثلاً: ألا يستطيع المدرس، وهو يفحص طلابه أن يأخذ ورقة أحد الطلاب، ويكتب الإجابة الكاملة بخطه، ويأخذ الطالب مئة درجة؟ هل لهذا النجاح من قيمة بربكم، فرضاً مدرس رياضيات في الامتحان، وهو صعب، طالب يحبه أخذ ورقته، وكتب الإجابة الكاملة، والمسائل كلها صحيحة، وأخذ العلامة التامة، مئة بالمئة، هل لهذا النجاح قيمة؟ لا قيمة له إطلاقاً، متى نقيم احتفال لهذا الطالب ونقدم له الهدايا؟ إذا اجتاز امتحاناً صعباً، فالله عز وجل جعل الدنيا ثمن الآخرة، جعل الدنيا مطية الآخرة، جعل الحياة الدنيا مكان لدفع ثمن الآخرة.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

من حكمة الله عز وجل أنه جعل معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

مثل آخر: أليس بالإمكان والله هو الخلاق العليم أن يخلق الكفار جميعاً في قارة واحدة، ولتكن أمريكا فرضاً؟ ويخلق المؤمنين في قارة آسيا؟ لا يوجد حروب، ولا منازعات، ولا مناوشات، ولا بدر، ولا أحد، ولا الخندق، ولا اليرموك، ولا القادسية، ولا شيء، أناس مؤمنون مع بعضهم بعضاً، عندها لا يوجد جنة، الجنة ليس لها ثمن، فقدنا ثمنها، فمن حكمة الله عز وجل أنه جعل معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، حتى الأنبياء، فتروي بعض الكتب أن سيدنا موسى عليه السلام في أثناء المناجاة قال: يا رب لا تجعل لي عدواً، قال: يا موسى هذه ليست لي، الله عز وجل له أعداء، لا يوجد إنسان إلا له أعداء حتى الأنبياء، قال دخلت عليك، وما على وجه الأرض أبغض إلي منك! أحدهم دخل على النبي قمة الكمال، قمة الرحمة، قمة العدل، قمة الإنفاق، العداء بين الحق والباطل

شيء طبيعي جداً، أنت حينما يكون ولاؤك للباطل تعادي أهل الحق بسبب وبلا سبب، مهما كانوا كاملين معك، تعاديهم لأنك في خندق آخر ومحور آخر وفي أنظمة أخرى، شيء طبيعي هذا الصراع بين الإيمان والكفر.

الإنسان إذا كان مؤمناً وولاؤه للمؤمنين له طريقة في التفكير، وطريقة في القبول، وطريقة في التبرير، تختلف عن طريق ولائه للكفار، هذا لا يصدق كل تهمة للمسلمين، هذا يتألم أشد الألم لمصاب ألمَّ بالمسلمين، يفرح أشد الفرح لخير أصاب المسلمين، هذا لا يقبل تهم الطرف الآخر للمسلمين، يفند أدلتها، و يدحضها، ويقوي أدلة المؤمنين، هذا هو الولاء والبراء، نستنبط من هذه الآية أنه إذا كنت في حرب مواجهة في ساحة معركة لا بد من أن تصلي الصلاة في وقتها وتحرص على صلاة الجماعة، فكيف بالسلم؟! لا يوجد قتال، ولا طعن بالسكاكين، ولا إطلاق رصاص، ولا خوف! فكم هي الصلاة عظيمة عند الله عز وجل.

الفرق بين الاختصار والاقتصار :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل:

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً)

هذا شأن الكافر، يتمنى أن يكون لك نقطة ضعف، يستغلها أبشع استغلال يبني مجده عليك، يشهّر بك، فلذلك المؤمن حينما يقصر، أو حينما يغفل، أو يتهاون يقوي كفر الكافر، وما من آية في هذا المجال أدق من قوله تعالى في دعاء القرآن الكريم:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

الكافر حينما يرى المؤمن مقصراً، وهو لا يقصر، يرى المؤمن لا يتكلم بالحقيقة، يرى المؤمن لا يتقن عمله، المؤمن المقصر الذي لا يتقن عمله يقنعه أن الكفر أولى من الإيمان، فالذي جعل هذا الكافر يتشبّث بعمله هو المؤمن المقصر.

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ)

أخواننا يوجد ملاحظة لطيفة: أن هناك فرقاً بين الاختصار وبين القصر، الاختصار أن تجمع كلمات الموضوع في كلمات قليلة، أما القصر فأن تأخذ بعض أفكار الموضوع وتدع بعضها الآخر، فرق بين الاختصار وبين الاقتصار.

يروى أن أديباً كبيراً اعتذر عن إطالة رسالته لعدم وجود وقت يختصر فيه، معنى ذلك أن الكلام المختصر يحتاج لجهد كبير، وقد سئل أحدهم وهو في منصب كبير جداً: كم تعد لخطاب يستغرق خمس دقائق؟ قال: ثلاثة أيام؟ قال: خطاب يستغرق ساعة؟ قال أعد له: ساعتين! قال: خطاب مؤلف من خمس ساعات؟ قال: لا أعد له أبداً، فالشيء المختصر فيه دقة بالغة، والحقيقة أن الإنسان حينما

يختصر، يعني أنه أتى بكل الأفكار في كلمات قليلة، أما الإطناب فكلام سهل جداً لا ينتهي، بلا تخطيط، أقسم لي أحد الأخوة أنه حضر خطبة الخطيب فتح ثمانية وعشرين موضوعاً لم يغلق واحداً! خواطر تأتيه تباعاً، فالكلام المركز يجلب الانتباه، هذا الفرق بين الاختصار والاقتصار، كتاب أريد اختصار فصل أو فصلين، أريد اختصاره لا بد من ذكر كل أفكار الكتاب في عشر صفحات! هذا عمل صعب جداً، على كل هذا هو الفرق بين الاقتصار والاختصار، الصلاة أربع ركعات أصبحت ركعتين.

الكافر يجب أن يعذب عذاباً مهيناً ليذوق وبال أمره :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ)

السلاح يجب أن يحمل في أثناء الصلاة، طبعاً السلاح الفردي، إلا إذا كان هناك مطر شديد، وإنسان مريض يؤذيه السلاح فرضاً فيوضع السلاح أمامك، أو فرضاً في حرز فتصلي.

(وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

الإنسان إذا تألّه:

العزة ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني منهما شيئاً أذقته عذابي ولا أبالي، الإنسان إذا ادعى الفوقية، وتغطرس، وتأله هذا يحتاج لا إلى عذاب أليم، بل إلى عذاب مهين، الله عنده عذاب أليم، وعذاب عظيم، وعذاب مهين، المتكبر عذابه في إهانة، أما يوجد إنسان يعذب عذاباً أليماً، ومكانته علية، ألم داخلي، يوجد أمراض لها آلام لا تحتمل، هذا عذاب أليم، أما الكافر يجب أن يعذب عذاباً مهيناً ليذوق وبال أمره.

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ)

أنتم في أشد حالات الخوف والقلق ومواجهة العدو لا بد من أن تصلوا، وتصلوا جماعة.

على المؤمن أن يبالغ في أداء الصلوات والصلوات النافلة عند انتهاء الحرب :

قال تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

هذا معنى قوله تعالى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

(سورة الشرح:7-8)

إنسان قد يكون مشغولاً بتأسيس محل، بأداء امتحان، بعمل مشروع، ينبغي أن يصلي، ولكن إذا انتهى هذا المشروع، وهذا الامتحان ينبغي أن يبالغ في أداء الصلوات، والصلوات النافلة.

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً*وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(48-69): تفسير الآيتان 105-106، موضوع الحق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-02-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل إن تحدث عن أفعاله العظيمة كان الحديث بضمير الجمع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

أيها الأخوة الكرام، الله جل جلاله إذا تحدث عن أفعاله جاء ضمير الجمع:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)

[سورة يس: 12]

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

[سورة الزمر: 2]

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر: 9]

حيث ما كان الحديث عن أفعال الله جاء ضمير الجمع، لأن كل أسماءه من قدرة وعلم وخبرة ورحمة ولطف كل هذه الأسماء لها نصيب من أفعاله، فالفعل الواحد من قبل الله عز وجل فيه علم وفيه رحمة وفيه حكمة وفيه خبرة وفيه عدل، فالذي نجده في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى مرة يتحدث عن نفسه بضمير الجمع " إنا " ومرة يتحدث عن نفسه بضمير المفرد:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

الله تعالى إن تحدث عن ذاته العلية كان الحديث بضمير المفرد لأنه واحد أحد فرد صمد:

قال علماء التفسير: إذا تحدث الله عن ذاته العلية كان الحديث بضمير المفرد، وإذا تحدث الله عن أفعاله العظيمة كان الحديث بضمير الجمع، الحكمة المستقاة من استخدام ضمير الجمع تارةً ومن استخدام ضمير المفرد تارةً أن الله إذا تحدث عن ذاته العلية كان الضمير ضمير مفرد لأنه واحد أحد فرد صمد، وإذا كان الحديث عن أفعاله العظيمة كان الضمير ضمير جمع لأن كل أسمائه الحسنة تشترك في أفعاله، هذا عن كلمة: "إِنَّا أَنْزَلْنَا" الحقيقة أن كلمة أنزلنا لا تعني النزول المادي

ولكن تعني أن في الكون جهة خالقة كاملة واحدة واجبة الوجوب علمها مطلق، رحمتها مطلقة، خبرتها مطلقة، وفي الأرض ما سواه من مخلوقات، حينما يقول الله عز وجل: " إِنَّا أَنْزَلْنَا " أي هذه رحمة السماء إلى الأرض، هذا علم السماء إلى الأرض، هذه خبرة الله إلى الأرض، أي هناك اتصال بين الأرض والسماء، نحن بشر والحديث عن البشر، فالأرض تعني هذا الإنسان الذي جُبِل من الطين، هذا الإنسان الذي فيه نوازع نحو الأرض، نوازع نحو الشهوات، هذا الإنسان أودعت فيه الشهوات، وسوف يتحرك، قد يتحرك بدافع من شهواته، وقد تكون هذه الشهوات مدمرة لصاحبها، لذلك الله سبحانه وتعالى أنزل كتباً، أنزل وحياً، أي هذا من عند الله عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

فهناك المنزل وهو الله عز وجل، وهناك المنزَل إليه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، وهناك الذي نزل، الذي نزل هو الكتاب، والإنسان الذي أُنزل عليه هو رسول الله، أنزل عليه بالحق، يعني هو مؤهل أن يتلقى هذا الوحي، كماله وصدقه ومحبته وإخلاصه وعبادته تقتضي أن يتنزل عليه هذا الكتاب، والكتاب منهج يضبط حركة الناس، في حركة كما تشاهدون في العالم قوي وضعيف، حركة عدوان، حركة شهوات، حركة احتيال، الحركات التي يتحركها الإنسان لا تعد ولا تحصى.

المنهج الإلهي هو الذي ينبغي أن يحكم حركة الحياة :

قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

أي آلاف، مئات الألوف، ملايين، ملايين الملايين من حركات الناس في الأرض، مهمة الكتاب الذي هو من عند الله من السماء، من الكمال المطلق ليحكم حركة الأرض، فما دام الناس في الأرض يحكمهم منهج السماء هم في خير، هم في خير عميم، أما حينما يتحركون كما يتحركون الآن بلا منهج، بلا ضابط، بلا ميزان يتحركون بحسب ما عندهم من قوة، فالقوي يعتدي على الضعيف، والغني يبني غناه على إفقار الفقير، والذكي يجمع مالاً ويستخدم ذكاءه ليبقي الفقير فقيراً، حركة الحياة من دون منهج إلهي ظلم ما بعده ظلم، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه سوف تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً لأن حركة البشر لا يحكمها وحي السماء، لا يحكمها هذا المنهج لماذا هذا المنهج؟ من أجل ألا يعتدي أحد على أحد، من أجل ألا يستغل أحد أحد، من أجل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، من أجل ألا يبني الإنسان مجده على أنقاض الناس، هذا المنهج هو الذي ينبغي أن يحكم حركة الحياة:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

هو حق وهو من عند الحق، وإنما أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام بالحق، الحق الشيء الثابت، الشيء الثابت والهادف.

صفة الباطل أنه زهوق سواء أكان باطلاً اعتقادياً أو باطلاً سلوكياً :

قد ننشئ جناح في معرض لأسبوعين من القماش، أما حينما ننشئ جامعة هذه الجامعة بنيت لتبقى مئات السنين، فرق كبير بين إنشاء جناح في معرض وبين إنشاء جامعة في بلد، الحق هو الشيء الثابت، والحق هو الشيء الهادف، أي هذا الجدار حينما يبنى على الشاقول بناء ثابت، أما حينما لا يبنى على الشاقول يبنى جزافاً لا بد من أن يقع، فالباطل زهوق، ألصق صفة بالباطل أنه زهوق، سواء أكان باطلاً اعتقادياً أو باطلاً سلوكياً، إن كان اعتقادياً سينهار وسيسقط، وإن كان سلوكياً سيفتضح وينتهي، لأنه باطل، لأنه لا يستمر.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

في تاريخ العالم كل الحركات الباطلة تلاشت وانهارت وأصبحت في مزبلة التاريخ، أما الدين ففي نمو دائم، هذا الدين الذي جاء به عليه الصلاة وأتم التسليم يتنامى كالطود الشامخ، بل إنه كلما قاومته يزداد شموخاً لأنه دين الله، وهذه معركة البشر اليوم بين الحق وبين الباطل، بين وحي السماء وبين تنظيمات الأرض، بين من يعمل لآخرة أبدية سرمدية وبين من يعمل للدنيا:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً*وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 80-81]

كلمة الحق وردت في القرآن مئات المرات، الحق الشيء الثابت، أي الجامعة حق لأنها تخرج قادة، لأنها تعلم العلم، هكذا ينبغي أن تكون، لكن الملهى أنشئ ليفسد الأخلاق، ليحرف الناس عن الطريق القويم، ولو كان بناء الملهى قوياً إلا أن رسالته حقيرة تعطي المتعة العاجلة، تعطي شيئاً لم يشرع في منهج الله عز وجل، على كلٍ الحق شيء ثابت وشيء هادف، والباطل شيء زائل وشيء ساقط، زائل مع السقوط وثابت مع الخلود ومع السمو، إذا قلت فلان على الحق يعني على مبدأ ثابت، وهذا المبدأ أخلاقي، فلان على الباطل ليس معه حجة، حجته قوته، حجته احتياله، وهدفه مادي محض، الكافر على الباطل لأن هدفه مادي، هدفه استغلال، هدفه العلو، هدفه الغطرسة والسيطرة، نعم، فكلمة حق كبيرة جداً، الله هو الحق، الشيء الثابت والهادف، أي ثبات وسمو، والباطل زوال وانحطاط، الله عز وجل وصف الحق بأنه ثابت، من أين عرفنا هذا الوصف؟ من الباطل.

اللعب لا يتماشى مع الحق :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

[سورة ص: 27]

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

[سورة الدخان: 39]

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الدخان: 38]

فاللعب لا يتماشى مع الحق، إذاً:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

هذا الكتاب فيه حدود، كل إنسان له حدود، أية علاقة بين جهتين يضبطها الكتاب، العلاقات المادية يضبطها الكتاب:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

[سورة النساء: 29]

النبي قمة البشر والكتاب أنزل بالحق :

أما الربا فيه استغلال:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

[سورة آل عمران: 130]

الله عز وجل توعد آكل الربا بحرب من الله ورسوله، فالربا باطل لأنه فيه استغلال، فيه منفعة على مضرة، أما التجارة فيها منافع متبادلة، وهذا الذي يضبط العلاقات المالية بين الناس، المنافع المتبادلة مباحة بل هي من الحلال، أما إذا بنيت منفعة على مضرة هذا محرم بالإسلام:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

أي أنت مؤهل أن ينزل عليك هذا الكتاب، لكمالك ولطاعتك ولعبوديتك ولمحبتك ولإخلاصك، والنبي قمة البشر، والكتاب وفق الحق، وقد قال الله عز وجل في وصفه:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

[سورة الأنعام: 115]

قال علماء التفسير: هذا الكتاب من دفته إلى دفته لا يزيد عن أن يكون أمراً أو خبراً، فأمره عدل وخبره صدق:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

[سورة الأنعام: 115]

منهج الله لبني البشر فإذا طبق بين الناس سعدوا في الدنيا :

قال تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

أنت على حق، والذي أنزله هو الحق، وهذا الكتاب الذي أنزل عليك هو الحق، لذلك العالم كله الآن مع معركته مع هذا الكتاب، يكاد يكون الصراع في العالم كله بين الحق والباطل، بين منهج الله وبين منهج البشر، بين الشهوة وبين الحقيقة، بين الدنيا وبين الآخرة.

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

دققوا أيها الأخوة لم يقل الله عز وجل لتحكم بين المؤمنين:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

أي أنت في أمور الحق ينبغي ألا تفرق بين مسلم وغير مسلم، هذا منهج الله لبني البشر فإذا طبق بين الناس سعدوا في الدنيا، فإن طبقوه تعبداً لله سعدوا في الدنيا والآخرة، وقد تأتي جهات لا تؤمن بالله أصلاً فتأخذ منهج الله وتطبقه فتقطف ثماره يانعة في الدنيا، بل إن هذا المنهج الذي بين أيدينا منهج موضوعي بمعنى أن الكافر لو طبقه لا تعبداً بل منفعة قطف ثماره، والدول القوية أحد أسباب قوتها أنها بدافع من عقلها تطبق أحكام هذا المنهج لمصالحها فإذا هي قوية، منهج موضوعي لو طبقه ملحد لقطف ثماره، العدل أن تعطي الإنسان حقه، أن تصون له كرامته، أن تهيئ له أسباب العيش أي إلى ما هنالك، إذاً:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

ما صرف الناس عن الدين إلا لأنهم فرقوا بين مسلم وغير مسلم :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

من غش مطلقاً، ولو غششت كافراً، ولو غششت عابد صنم فلست من المسلمين، هذا الكتاب لتحكم بين الناس، فلذلك أيها الأخوة حينما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة ليقيم تمر خيبر أراد اليهود أن يغروه بحلي نساءهم لعله يخفض التقييم فيفوز بربح وفير، فقال هذا الصحابي الجليل: جئتكم من عند أحب الخلق إلي من عند محمد بن عبد الله ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا، والآن والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن ننتصر على أعدائنا إلا إذا كنا على حق، إلا إذا كنا

منصفين، إلا إذا أزلنا المظالم فيما بيننا، خذ الطبقة التحتية تعبير مصطلح جديد، الناس يظلمون بعضهم بعضاً، خذ الطبقة التحتية، مسلمون موحدون يتجهون إلى قبلة واحدة، يشهدون أنه لا إله إلا الله، ومعظمهم يأكل حقوق بعضهم البعض، فهذا الإنسان حينما يعتدي على أخيه الإنسان يسقط من عين الله، ولئن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله، حينما يهون أمر الله على المسلمين نهون على الله عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

لك جار مسلم، غير مسلم، مستقيم، غير مستقيم، هو إنسان ويجب أن تعامله بالحق وبالعدل وبالصدق، وما صرف الناس عن الدين إلا لأنهم فرقوا بين مسلم وغير مسلم.

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)

أنت وإراءة الله للإنسان أرقى إراءة، العلم المطلق، الحكمة المطلقة، العدل المطلق بما أراك الله.

الآية التالية نزلت في قصة وقعت في عهد رسول الله لتُظهر عدل الإسلام :

الآن أيها الأخوة حول قوله تعالى ولا تكن يا محمد:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

هذه الآية نزلت في قصة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجب أن تعلموا أن كل الأحداث التي وقعت في عهد رسول الله وقعت بشكل مركز من الله، لتكون هذه الأحداث سبباً للتشريع، تشريع حيوي، لم يأتِ التشريع كلاماً مجرداً في كتاب بل جاء التشريع عقب حوادث، القصة لا يعنينا التفاصيل والجزئيات يعنينا منها المغزى، كان عليه الصلاة والسلام في المدينة، من هم الذين استقبلوه وأكرموه ونصروه ورفعوا راية هذا الدين، وفدوه بأرواحهم وأموالهم؟ الأنصار، فالنبي عليه الصلاة والسلام مدين لهم بالفضل.

أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقتم ولصُدِّقتم: "أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك". هكذا قال النبي، هؤلاء الأنصار استقبلوه ونصروه وآمنوا به وصدقوه ومنعوه من أعدائه، في أنصاري له درع ثمينة سرقت، وسرقها منه إنسان منافق، إلا أنه محسوب على المسلمين، وكان يصوغ أبياتاً في هجاء أصحاب رسول الله وينسبها إلى الأعراب ليشفي غليله منهم، هذا المنافق سرق هذا الدرع، ووضعه في البيت، تفقد الدرع فلم يجده صاحب الدرع فبحث عنه، خاف هذا المنافق أن يكتشف أمره ويفتضح فهو من الأنصار من قوم نصروا رسول الله، فوضعه في كيس فيه دقيق ونقله إلى بيت يهودي من يهود المدينة، لكن هذا الكيس مثقوب والدقيق نزل منه ورسم الطريق من بيت هذا الذي سرق الدرع إلى بيت اليهودي، ثم اتهم اليهودي بأنه هو السارق بدليل أنه عنده، أما هذا الأنصاري المنافق رجاه أن يضعه عنده وديعة فلما بلغ اليهودي أنه متهم بسرقة الدرع علا صوته وأنكر أشد الإنكار، تتبع الناس الخيط الذي رسمه الدقيق من بيت هذا الأنصاري

إلى بيت اليهودي وقع الناس في التباس شديد من السارق؟ في طريق مرسوم من بيت الأنصاري إلى بيت اليهودي، واليهودي ينكر أشد الإنكار، من هم اليهود؟ الذين ائتمروا على قتل النبي، الذين كادوا للنبي، الذين تآمروا مع أعداء النبي، الذين تمنوا أن تزول هذه الدعوة، الذين ركبوا رؤوسهم وكابروا بما يعتقدون من أجل أن يكذبوا دعوة النبي، تصور في إنسان ينتمي إلى الأنصار، وفي إنسان ينتمي إلى أعداء رسول الله، وفي درع مسروقة، هي في بيت اليهودي وديعة وقد أشيرت إليه الأصابع سرقة، وهذا الأنصاري له أهل من أصحاب رسول الله، ولهم مكانة عند رسول الله، فما كان من أهل هذا الأنصاري إلا أن قابلوا النبي عليه الصلاة والسلام واسمه أريقط، وقالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله نحن أهلك ونحن أنصارك ونحن أتباعك وهذا اليهودي سرق، هكذا أوحى إليهم السارق، فلا ينبغي أن تسكت عنه، ولا أن تفضح هذا الذي اتهم بالسرقة، تكلموا مع النبي عليه الصلاة والسلام والنبي لأنه بشر، قال: إنني بشر، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد ومالك عن أم سلمة]

لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، مشكلة كبيرة سرقة، هناك جهتان واحد متهم بها ظلماً وهو ينتمي إلى أعداء النبي، وواحد يدافع عنه من قبل أحباب النبي، والنبي بشر، فكاد النبي أن يميل إلى الأنصار لأن الدرع موجودة عند اليهودي وهذا دليل، أما تفاصيل الدليل أنه أخذت من بيت أريقط إلى بيت اليهودي والطحين رسم خطاً بين البيتين، هذا لم يرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام، على كلٍ أراد الله من هذه القصة أن يظهر عدل الإسلام، فقال الله عز وجل يعاتب نبيه عليه الصلاة والسلام:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

من هم الخائنون؟ الذين هم من أتباع النبي، هذا من أتباع النبي لكنه منافق، على من يدافع القرآن؟ عن اليهودي لأنه لم يسرق، أرأيت إلى هذا الدين، أرأيت إلى هذه الآية:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

لا تدافع عنهم، لا تنتصر لهم يا محمد، لا تأخذ بأقوال من حولك، هذا اليهودي لم يسرق، والقرآن نزل ليدافع عنه لأنه لم يسرق، الآن يضج بالظلم، تكون صاحب حق لانتمائك يذهب حقك، أما هنا هذا هو العدل عدل الإسلام:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

علينا إقامة الحق فيما بيننا حتى نستحق أن ننتصر :

أيها الأخوة، الحقيقة هذه القصة مؤثرة جداً، وذات دلالة كبيرة جداً، وأن هذا الدين دين الله، وأنه دين الحق، وأنه دين العدل، وأنه دين الإنصاف، فما معنى أن ينزل الوحي على رسول الله ليدافع عن يهودي، وما معنى أن يسمى هذا الذي حسب على النبي أنه ممن يخونه، هذا هو العدل والعدل يسع الجميع، ولا يمكن أن نرى رائحة النصر إذا كنا نظلم بعضنا بعضاً، لا نروح رائحة النصر حتى نقيم الحق فيما بيننا ودعك من أي جهة أخرى، الطبقة التحتية الطبقة الأولى في المجتمع فيها ظلم شديد، القوي يظلم الضعيف، والغني يأكل حق الفقير، والذكي يستغل محدودية الغبي ويأخذ ما عنده، وحينما نفعل هذا فيما بيننا نسقط جميعاً من عين الله، أما حينما نؤدي الحقوق لا نكذب ولا ندلس ولا نغش ولا نبخس الناس أشياءهم، مثلاً إنسان يصلي بالصف الأول استطاع بطريقة أو بأخرى أن يشتري بيتاً ثمنه سبعة ملايين بسبعمئة ألف، بعدة طرائق، ما قيمة صلاته؟ السيدة عائشة تقول ـ إنسان في عهدها ارتكب مخالفة في التعامل ـ فقالت: قولوا لفلان إنه أبطل جهاده مع رسول الله، أصل الدين أن تستقيم على أمره، أن تقول الحق ولو على نفسك، أن تنصف الناس من نفسك، أن تعطي كل ذي حقٍ حقه، حينما نتظالم، حينما يظلم بعضنا بعضاً، حينما يأكل بعضنا حقوق بعضنا الآخر، حينما نعتدي على حقوق الآخرين وندعي أننا مؤمنون مسلمون، نصلي بالمساجد، ونحج بيت الله الحرام، ونعتمر، ونضع اللوحات في بيوتنا، هذه اللوحات لا تقدم ولا تؤخر، فالله عز وجل بوحي منه يعاتب نبيه أنه دافع عن أنصاري محسوب عليه، والأنصار لهم مكانتهم الكبيرة في الإسلام، والدفاع عن يهودي ينتمي إلى أمة تكيد للنبي منذ أن ظهرت هذه الدعوة وحتى الآن، هذا هو العدل، العدل أن تقف موقفاً نزيهاً.

يروى أن قاضياً طُرق بابه، فتح الغلام الباب فإذا بطبق من الرطب، والرطب التمر في بواكيره، والقاضي يحب هذا التمر كثيراً فسأله ممن؟ قال: من رجل دفعه إلي، قال: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، فعرف أنه أحد المتخاصمين، فقال: رده، في اليوم التالي التقى بالخليفة وطلب منه أن يعفيه من منصب القضاء، قال: ولمَ؟ قال: والله طُرق بابي البارحة وقُدم لي طبق من الرطب في بواكيره وأنا أحب الرطب في بواكيرها، فعلمت أن الذي قدمها أحد المخاصمين، رددته في اليوم التالي وتمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم لي طبق الرطب، فلهذا أطلب أن تعفيني من هذا المنصب.

على كلٍ موضوع الحق، الله هو الحق، وهذا الدين دين الحق، والقرآن حق، والنبي حق، والأوامر حق، والنواهي حق، وحينما نعتدي على بعضنا بعضاً ينبغي ألا نطمع أن ينظر الله لنا، أو أن يرحمنا، والمظالم في بلاد المسلمين لا تعد ولا تحصى، أي الضعيف يُستَغل، ضعيف التفكير

يُستَغل، ضعيف القوة يُستَغل، فإذا أردنا أن ننتصر يجب أن نقيم الحق فيما بيننا حتى نستحق أن ننتصر.

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً*وَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(49-69): تفسير الآيات 105-110 ، علاقتنا مع الله وحده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-02-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لما ورد في الدرس الماضي :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع الأربعين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

أيها الأخوة الكرام، تحدثت في الدرس الماضي عن هذه الآية تحدثت عن أن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن ذاته العلية يأتي ضمير المفرد، قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: 14]

وإن تحدث عن أفعاله فكل أسماءه الحسنة منطوية في أفعاله:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

أما قوله تعالى:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ)

هذا الكتاب يسع المؤمنين وغير المؤمنين وأنت حينما تتعامل مع الخلق ينبغي أن تكون معاونتك وفق منهج الله، بصرف النظر عن هويتهم، وعن انتمائهم، وعن إسلامهم، أو عن أي شيء آخر، ووقفت وقفةً متأنيةً عند قوله تعالى:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

وذكرت أن الأحداث التي تقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مقصودة لذاتها لتكون متكئاً لتشريع حي، فهناك قيمة هي قيمة العدل، هذه القيمة تبدو واضحةً جليةً في هذه القصة.

قصة الدرع المسروقة :

أيها الأخوة الكرام، كان في بني ظفر واحد اسمه طعمة بن أبيرق، بنو ظفر قوم من الأنصار يسكنون المدينة، وقد بينت في الدرس الماضي أن الأنصار نصروا رسول الله، آووه، نصروه، آمنوا به، عزروه، أكرموه، هم أهله، ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

((وما سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً آخر إلا سلكت شعب الأنصار))

[البخاري والنسائي عن أبي هريرة]

هناك أحاديث كثيرة تتحدث عن الأنصار، وعن فضلهم، وإيمانهم، وسبقهم.

شاءت حكمة الله عز وجل أن واحداً من الأنصار من بني ظفر اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعاً، وهذا الدرع كان لقتادة بن النعمان، أنصاري، كان هذا الدرع في كيس فيه دقيق، وهذا الكيس فيه ثقب بسيط، هذا الثقب رسم خطاً من ساحة المعركة إلى بيت طعمة بن الأبيرق، فلما تفقد صاحب الدرع قتادة بن النعمان تفقد درعه، أشير بإصبع الاتهام إلى الأبيرق من آثار الطحين، لكن ابن الأبيرق خاف أن يحتفظ بالدرع في بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع، يبدو أنه كان منافقاً، ويبدو أنه كان سارقاً، فذهب إلى يهودي وأودع عنده الدرع، وتروي القصة أن الدرع كما قلت قبل قليل كان في جراب دقيق، وحينما خرج به طعمة بن الأبيرق وحمله صار الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، وتكوَّن من الدقيق أثراً في الأرض إلى بيت اليهودي، وهذا اليهودي اسمه زيد بن السمين، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة، ولكنه حلف بالله أنه ما أخذها وما له بها من علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الأثر إلى منزل اليهودي، فأخذوها وقالوا: لقد سرق ابن السمين.

الآن التهمة وجهت إلى اليهودي لأن الدرع وجدت في بيته، ولأن أثر الدقيق انتهى إلى بيته، وهنا قال ابن السمين: أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندي طعمة بن الأبيرق، وذهبوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام في قضية، قضية درع مسروقة ويبدو أنها ثمينة، والتهمة بين اليهودي التي وجدت عنده الدرع وبين ابن الأبيرق الذي انتهى الخط إلى بيته، وجاء بن ظفر وهم أهل ابن الأبيرق وجاءوا بني ظفر وهم مسلمون ومن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وطعمة بن الأبيرق منهم وقالوا يا رسول الله لو حكمت على المسلم ضد اليهودي فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجه العار للمسلمين دافعوا عن قريبهم ولعلهم ظنوا أنه لم يسرق.

قضية شائكة في دليل يؤكد أنه عند اليهودي ودليل آخر أن خط الدقيق يصل إلى طعمة بن الأبيرق قضية شائكة. لو حكمت يا رسول الله على المسلم ضد اليهودي فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجه العار إليهم.

أسباب هلاك الأمم :

أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو لو أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فهموا الإسلام كما يفهمه المسلمون اليوم والله ما خرج الإسلام من مكة إلى المدينة، لا يصل، ولأنه وصل إلى أصقاع الدنيا وصل بقيم إنسانية رفيعة.

الآن هناك إنسان ينتمي إلى أشد القوم عداوةً لرسول الله، إنسان ينتمي إلى أشد القوم عداوةً لرسول الله، ائتمروا على قتله وفعلوا الأفاعيل وهو بريء من هذه التهمة بالذات، وهناك إنسان ينتمي إلى قوم النبي، إلى الأنصار الذين نصروه وأيدوه وآمنوا به وصدقوه وعزروه، والأنظار تتجه إلى اليهودي، فإذا كان اليهودي هو السارق فهذا نصر للمسلمين وتبريئاً لهم ورفع لرؤوسهم، وإذا كان الأنصاري هو السارق فهذه وصمة عار بحق الأنصار واليهودي يرفع رأسه عالياً، هل تصدقون أيها الأخوة أنه إذا سرق الشريف ترك وإذا سرق الضعيف أقيم عليه الحد، هذا من أسباب هلاك الأمم لو تتبعتم أسباب هلاك الأمم.

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إن من أسباب هلاك الأمم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، إن من أسباب هلاك الأمم قوله تعالى:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

[سورة الإسراء: 16]

من أسباب هلاك الأمم ترك الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر، من أسباب هلاك الأمم الظلم، وإن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

معظم أسباب هلاك الأمم موجودة في المسلمين اليوم :

قال بعض العلماء: الدنيا تصلح بالكفر والعدل ولا تصلح بالإيمان والظلم، يؤيد هذا قول الله عز وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

أما إذا ألبس المؤمن إيمانه بالظلم ليس آمناً، وليس ناجياً، وسوف يعذب أشد العذاب، قال تعالى:

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

[سورة الكهف: 59]

ما قولكم أيها الأخوة، أن معظم أسباب هلاك الأمم موجودة في المسلمين، وأنا أعني ما أقول، الأقوام السابقون كان الله عز وجل يهلك الأمة لمعصية واحدة، فإذا اجتمعت كل المعاصي في المسلمين فشيء طبيعي جداً أن يتخلى الله عنا، لا يلتفت إلى دعوانا، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

ما قبل الله دعوى محبته إلا بالدليل، والذين قالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

رد الله عليهم وقال:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

عدل الله المطلق :

إذا قال المسلمون اليوم: نحن أمة محمد عليه الصلاة والسلام، نحن أمة سيد الخلق، نحن أمة حبيب الحق، نحن أمة خاتم الأنبياء، نحن أمة سيد الرسل، الجواب نفسه:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

لا قيمة لكم إطلاقاً، أنتم مع دهماء الأمم، وأنت أيها المسلم إن لم تكن مطبقاً لمنهج الله عز وجل أنت مع دهماء الناس ولا يلتفت إليك، كل انتماءاتك لا قيمة لها، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

ما الذي يحصل؟ موقف عصيب واحد ينتمي إلى أقرب الناس إلى رسول الله، ينتمي إلى الذين نصروه وعزروه وآمنوا به وصدقوه وبذلوا له كل شيء، وواحد ينتمي إلى ألد أعداء رسول الله، وفي أدلة متقاربة، اليهودي رفض هذه التهمة، والأبيرق جاء قومه إلى النبي، بني ظفار: يا رسول الله نحن قومك أيعقل أن يسرق هذا؟ لعل النبي عليه الصلاة والسلام مال إلى تصديق الأنصار واتهام اليهودي، الآن ينزل من السماء وحي يعاتب النبي على أنه مال إلى دعوة الأنصار، ويبرئ اليهودي ألد أعداء رسول الله، هذا هو العدل.

وأنا عقبت على هذا في الدرس السابق أنه والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن نشم رائحة النصر إذا كان بعضنا يظلم بعضنا الآخر، دعك من الذين فوق الناس، خذ الناس، خذ عامة الناس، كم من زوج يظلم زوجته؟ وكم من رب عمل يظلم عماله؟ وكم من صاحب أرض يظلم فلاحه؟ وكم من قوي يأكل الضعيف؟ وكم من غني يستغل الفقير؟ وكمْ؟ وكم؟ حينما يظلم بعضنا بعضاً لا يمكن أن

نشم رائحة النصر، أرأيت إلى هذا الدين العظيم، أرأيت إلى قرآن الله يبرئ عدواً لرسول الله ويلوم النبي على أنه مال إلى دعوى الأنصار.

حينما يفهم الناس الدين فهماً صحيحاً يستحقون نصر الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

لا تكن مدافعاً عنهم، لا تحكم لصالحهم، الإسلام لا يرتفع بهذا، يرتفع الإسلام إذا أقيم الحق، يقول عليه الصلاة والسلام:

((... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

تروي الأخبار أن حد الرجم أقيم على ولد أحد أصحاب رسول الله خاطبه وقال: إذا انتقلت إلى الدار الآخرة قل للنبي الكريم إن أبي أقام علي الحد. هذا هو الإسلام، هذا هو الدين، الدين عدل وما لم يرجع المسلمون إلى دينهم حقيقة، وما لم يكونوا صادقين، وما لم يكونوا أمناء، وما لم يكونوا أعفة، فإن النصر لا يأتي، لعل الناس يغترون بعباداتهم، العبادات التي تؤدى من دون استقامة ومن دون التزام لا قيمة لها عند الله، رب تال للقرآن والقرآن يلعنه، قم فصل إنك لم تصل:

((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

[البخاري عن أبي هريرة]

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 53]

((من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله له: لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك))

[الشيرازي في الألقاب وأبو مطيع في أماليه عن عمر]

قال بعض العلماء: والله ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، هذا هو الدين، درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، حينما يفهم الناس هذا الفهم يستحقون نصر الله عز وجل.

لا يعقل ولا يقبل أن تنكشف الحقيقة ويحكم النبي بخلاف العدل :

حينما جاء ابن رواحة إلى اليهود ليقدر تمرهم أغروه بحلي نسائهم فقال لهم: جئتكم من عند أحب الخلق إلي ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا.

هذا هو الدين، الدين أن تعامل هذا الشاب الذي في محلك التجاري كما تعامل ابنك تماماً، الدين أن تعامل هذه الفتاة التي هي زوجة ابنك كما تعامل ابنتك تماماً، أما هذه التفرقة وهذا الكيل بمكيالين هذا يفقدنا كل ميزة نستحق بها النصر.

أيها الأخوة الكرام، لا أجد من درس بليغ أدق من هذا الدرس الذي لقنه الله لأصحاب رسول الله، قال تعالى:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

لا يعقل ولا يقبل أن تنكشف الحقيقة ويحكم النبي بخلاف العدل، ولكن النبي قال:

((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار))

[البخاري عن أم سلمة]

أي مال إلى تصديق الأنصار وهو بشر، ورغب أن تكون التهمة محققةً في اليهودي، فجاء العتاب الإلهي:

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

النبي بشر ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر :

أيها الأخوة الكرام:

(فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً)

[سورة النساء: 64]

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

حينما يعاتب الله سيد الخلق وحبيب الحق هذا العتاب من أجل أن يكون هناك فرق بين مقام النبوة ومقام الألوهية، مقام النبوة مقام عصمة، وقد ترك للنبي الكريم هامشاً اجتهادياً طفيفاً، فإذا أصاب باجتهاده أيده الوحي في ذلك، وإن لم يصب صحح الوحي له اجتهاده.

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

النبي بشر ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف: 110]

أي إذا انتزعت من فم النبي الشريف فتوى لصالحك أو حكماً لصالحك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، فما بال أولئك المسلمون الذين يتكئون على فتوى ضعيفة لإنسان منتفع، أو موظف، أو جاهل، يعتمدون على هذه الفتوى وهم آمنون مطمئنون، لو أن النبي الكريم أفتى لك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله.

(وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

علمنا النبي هذه الحقيقة: الحق أحق أن يتبع، لا تتصور أنك إذا اتهمت مسلماً وبرأت كافراً هذا يضع من شأن المسلمين، لا، هذا يرفع من شأن المسلمين، وما أهلك الناس إلا التعصب الأعمى.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

* * *

مع قومه، كم من أب وكم من أم مع ابنها ولو كان على باطل، كم من أب وكم من أم على زوجته ولو كان ظالماً لها، وكم من إنسان مع شريكه ولو كان ظالماً، إذا ضاعت الحقوق فقد تودع من هذه الأمة.

الذي يخون الناس يخون نفسه لأنه يوردها موارد الهلكة :

أيها الأخوة الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، إذاً هو سيد البشر.

(وَلَا تُجَادِلْ)

أي لا تدافع، الجدل غزل الخيوط كي تصبح حبلاً مفتولاً قوياً، والجدال إظهار الحجج وإحكام الرأي دفاعاً عن جهة ما.

(وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ)

من أدق المعاني لهذه الآية أن الذي يخون الناس يخون نفسه لأنه يوردها موارد الهلكة، الذي يخون الناس يخون نفسه بادئ ذي بدء لأنه يوصلها إلى الشقاء، إن أشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه، وإن أشد أنواع الخيانة أن يخون نفسه لذلك.

ولا تجادل يا محمد عن الذين أي لا تدافع عن الذين يختانون أنفسهم، يختان لِمَ لمْ يقل يخون؟ يخون من خان ثلاثي، أما يختانون من أختان، أختان خماسي وكل زيادة في المبنى زيادة في المعنى، في افتعال، إذا قلنا: فلان كتب، أي كتب مرة واحدة، أما إذا قلنا: فلان اكتتب، هو كاتب يعمل في الكتابة، فالإنسان حينما يخون الناس عن قصد، وعن تصميم، وعن تكرار، وعن معاودة، ويكذب ويحتال هذا يختان، أما إذا أخطأ مرةً واحدة نقول له: خان، أما إذا كانت الخيانة طبعاً وأسلوباً في حياته هذا يختان، الفعل مزيد وفي الزيادة معنى الافتعال والمبالغة.

من علامات الإخلاص :

يروى أن سيدنا عمر جاءه رجل سارق فقال: أقيموا عليه الحد: قال: والله يا أمير المؤمنين إنها المرة الأولى قال: كذبت إن الله لا يفضح من المرة الأولى، فكانت الثامنة.

يختان أي أَلِف الخيانة، عاودها، كررها، جعلها طبعاً فيه، جعلها أسلوباً متميزاً في حياته.

(وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً)

مع الخيانة في أثم، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تقترف معصية دون أن تظلم إنساناً، لو أنك طبقت منهج الله عز وجل بالذي لك والذي عليك، أما عندما تأخذ ما ليس لك ظلمت إنساناً، حينما تعتدي على عرض فتاة ظلمت فتاةً، فلذلك إن الله لا يحب من كان خواناً شديد الخيانة، وخوان صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني مبالغةً في الكم أو مبالغة في العدد، إما أنه يرتكب خيانات كثيرة، أو أنه يخون أمته، يخون دينه.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً)

في كل أنظمة الأرض الخائن يعدم، يقولون: خيانة عظمى، فالذي يخون المسلمين أو الذي يتعاون مع أعداء المسلمين أو الذي يسلم المسلمين إلى أعدائهم أو يعطيهم الأخبار التي تضعفهم هذه خيانة عظمى، هو في الحقيقة يخون نفسه، يوردها موارد الهلكة.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ)

هذا من ضعف التوحيد، من ضعف التوحيد ورد أن الله سبحانه وتعالى في بعض الأحاديث القدسية يقول: طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة.

هذا الذي يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ليس مخلصاً، من علامة إخلاصك أن عملك لا يختلف إذا كنت في جلوة أو كنت في خلوة، من علامة إخلاصك أن عملك لا يتأثر بمديح الناس أو بذمهم، بمكافأتهم أو بعقابهم، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً)

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان :

أيها الأخوة الكرام، أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، لمجرد أن تشعر أن الله معك تستحي منه، تستحي أن تقول قولاً لا تفعله، تستحي أن تعظ بما لست متعظاً به، تستحي أن تبيت خطة فيها إساءةً لمسلم أو لغير مسلم والله مطلع عليك.

شخص سأل شيخاً عن معصية الله عز وجل، فقال له الشيخ مقولة غير مقبولة إطلاقاً، قال: اعص الله ما شئت ولكن إذا عصيت الله فاحرص على أن لا تسكن أرضه، قال له: وأين أسكن؟ إذاً قال له: أتسكن أرضه وتعصيه، قال له: هات الثانية، قال: إذا عصيته فلا تأكل شيئاً من نعمه، قال: وماذا آكل؟ إذاً قال: تسكن أرضه وتأكل نعمه وتعصيه، قال: هات الثالثة، قال: إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكان لا يراك فيه، قال: هو معنا أين ما كنا، قال: تسكن أرضه وتأكل خيره وتعصيه وهو يراك، قال: هات الرابعة، قال: إذا عصيته وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه لا ترضى، قال:

لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل خيره وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمتنع عن ملك الموت، قال: هات الخامسة، قال: إذا عصيت الله عز وجل وجئت يوم القيامة فلا تدخل النار أيضاً لا ترضى، قال: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل خيره وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تمتنع عن ملك الموت ولا عن زبانية جهنم أين عقلك؟!!

فلذلك بعض العلماء قرأ حديثاً قال: استغنيت به عن مئة ألف حديث، اعمل للدنيا بقدر بقاءك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها.

مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك :

قال تعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ)

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء: 79-80]

ثم يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

[سورة الشعراء: 213-218]

لذلك مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

كل إنسان مؤمن يجب أن يهيئ جواباً لله عز وجل عن كل أفعاله :

قال تعالى:

(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً)

أنت إذا جادلت عن هؤلاء من يجادل الله عنهم يوم القيامة، علاقتك مع الله ولا ينفعك بشر كائن من كان: والدليل قل لهم يا محمد:

(لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

في أبلغ:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فلئن لا يملك لأحد من باب أولى.

(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً)

موظف له عمل حساس يستطيع أن يوقع الأذى بأناس كثيرين ضمن عمله، فمرةً استنصحني، قلت له: افعل ما تريد ولا تعبأ، ضع الناس في السجن، قال: هكذا تقول؟ قلت: هكذا أقول، ولكن إذا كنت بطلاً تهيئ لله جواباً عن كل فعل تفعله وكلهم عباده. المشكلة أن تهيئ لله جواباً لمَ فعلت كذا؟ لمَ ظلمت فلان؟ لمَ أعطيته؟ لمَ حرمته؟ لمَ ابتسمت في وجهه؟ لمَ عبست في وجهه؟ لمَ وصلته؟ لمَ قطعته ما السبب؟ فكل إنسان مؤمن يجب أن يهيئ جواباً لله عز وجل عن كل أفعاله وإلا فالله شديد العقاب، وإن بطش ربك لشديد.

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)

أيها الأخوة الكرام، في درس قادم إن شاء الله نتابع تفسير هذه الآية.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(50-69): تفسير الآيات 111-113
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

الكذب والبهتان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

الحقيقة أن الإنسان مخير، ولأنه مخير كل خصائصه وكل حظوظه حيادية، يمكنه أن يوظفها في الخير كما يمكن أن يوظفها بالشر، ولأن الإنسان مخير فأخطاؤه وآثامه من كسبه ولا يستطيع أن يلقيها على جهة أخرى، لا يستطيع أن يتنصل منها، ولا أن يعزوها إلى غيره، فإن فعل هذا فهو أجهل الجهلاء، ومن يكسب خطيئة؛ والخطيئة تكتسب كسباً من كسبك أي من اختيارك، من تصورك، ومن اختيارك، ومن فعلك بمعنى أنك أردت أن تفعل هذا فأمدك الله بقوة ليحقق اختيارك.

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ)

من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، في الأعمال الصالحة تأتي لام الاختصاص وفي الأعمال السيئة تأتي (على)، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

(لنا) تفيد الاختصاص، هذا مما خصصنا به أو الملكية، المعنيان متقاربان بينما (على) تفيد المسؤولية.

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً* وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً)

كما فعل الأبيرق كسب خطيئة أو إثماً، سرق درعاً ثم رمى به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً، والبهتان أشد أنواع الكذب، كذب اختلاق لا كذب مبالغة، قد تكون الكذبة لها أصل لكن الكاذب يبالغ، يضخمها، وقد تكون الكذبة لا أصل لها إطلاقاً فيختلقها صاحبها اختلاقاً، اختلاق الكذب هو البهتان.

الله عز وجل هو الحق وهو متكفل أن يظهر الحق :

أيها الأخوة، أحد أصحاب رسول الله في بعض الغزوات الصعبة تخلف عن رسول الله، فلما عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان من عادته أن يستمع إلى أعذار المتخلفين، فجاءه ثمانون منافقاً واعتذروا أعذاراً متباينة ومحكمة، فلما جاء سيدنا كعب قال: والله ـ في نفسه ـ إني أوتيت جدلاً، أي أوتيت قدرةً على الإقناع، وهذه قدرة بالإنسان قد يملكها قدرة الإقناع، ولكنني خشيت أن أخرج من غضبه فيغضب الله علي، لأن الله يرى الحقيقة، قال: فأجمعت صدقاً، أي أخذ قراراً أن يكون صادقاً معه، فلما جاء دوره في الاعتذار قال: والله ما كنت أقوى ولا أشد حينما تخلفت عنك ولكنني تخلفت ولا عذر لي، فقال عليه الصلاة والسلام بإشارة ذكية: أما هذا فقد صدق، أي الثمانون الذين حدثوه كانوا كاذبين، ولأنه صدق جاء الوحي من السماء بأن يقاطعوا، وقد قوطعوا خمسين ليلة ثم تاب الله عليهم وغفر لهم وعادوا إلى ما كانوا عليه.

رويت هذه القصة لأن الإنسان عندما يكتسب إثماً أو خطيئة ثم يرمي به بريئاً الله عز وجل هو الحق وهو متكفل أن يظهر الحق، فبعد حين تنكشف الأمور ويظهر البريء بريئاً والمذنب مذنباً.

(وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

جاء بأشد أنواع الكذب وهو كذب الاختلاق وإثماً مبيناً.

من يطلب الحق بفضل الله وبرحمته يمكّنه منه ويعطيه إياه :

أيها الأخوة، هذه القصة قصة الأبيرق التي جاءت هذه الآيات تتحدث عنها وتعطي للمؤمنين درساً بليغاً أن الإسلام عدل وينبغي أن تعدل ولو مع خصمك قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

ينبغي أن تكون عادلاً مع من تكره، ومع من تبغض، ومع الذين يناوئونك، فكيف بالمؤمنين؟ يقول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ)

وهذه آية عامة.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ)

[سورة النور: 21]

أي كل الذي تتمتع به من فهم لهذا الدين، من استقامة على أمر الله، من عمل صالح، من قيم تتمثلها، من مبادئ تعتنقها، من سلوك تفعله، كل هذا الخير التي أنت فيه هو من فضل الله عليك، وقد تسأل لمَ لم ينله غيري؟ أنت أردته لا بد من أنك أردته فمنحه الله إياك، وفرق كبير بين أن تطلب شيئاً وبين أن تناله، هذه الدنيا أمامك اطلب ما شئت هل تنال كل الذي تطلبه؟ لا، لكن الله

سبحانه وتعالى برحمته وفضله إن طلبت الحق مكنك منه وأعطاك إياه، وإذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الفرق بين همّ التنفيذ وهمّ التزيين :

قال تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ)

أيها الأخوة، في هذه الآية ملمح دقيق هم هذه الطائفة، قال العلماء: هناك همّ إنفاذ وهناك هَمّ تزيين، أحياناً يكون همي أن أحمل فلاناً على عمل لا يرضي الله هذا هم تنفيذ، الله عز وجل حفظ نبيه من هم التنفيذ، لم يفعل شيئاً خلاف منهج الله، ولم ينطق بكلمة لا ترضي الله، ولم يحكم حكماً ليس فيه العدل، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم والنبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها، فهذه الطائفة التي همت أن تضله كان همها ـ والفضل لله عز وجل والكمال لله عز وجل ـ كان همها هم تزيين لا هم إنفاذ، لأي لم يستطيعوا أن يحملوه على أن ينطق بكلمة فيها حكم ظالم، ولكنهم استطاعوا أن يزينوا له أن الأبيرق بريء، فرق كبير بين هم التزيين وبين هم الإنفاذ، يعني الصاحب السيئ قد يحمل صاحبه على فعل المنكر، فهمّه أن يسقطه في الهاوية، والصاحب الآخر منع من أن يحمل صاحبه فعل المنكر ولكنه زين له المنكر وانتهى الأمر عند هذا، ولم يستجب الصاحب لتزيين صاحبه.

إذاً من فضل الله العميم على رسول الله الكريم أن همّ هذه الطائفة كان همّ تزيين لا همّ تنفيذ، ولولا أن الله حفظ رسوله، ولولا أن الله سبحانه وتعالى وفق رسوله إلى الحق لهمّت طائفة منك أن يضلوك، كيف يضلوك؟ هذا موضوع دقيق جداً لو أن النبي عليه الصلاة والسلام الذي يوحى إليه، الذي يأتيه الوحي من عند الله عز وجل، لو أنه حكم على بريء بالجرم، وحكم على مذنب بالبراءة، ماذا يقول المذنب الذي حكم عليه بالبراءة؟ كيف انطلى عليه ذلك؟ يقيس هذا الخطأ على وحي السماء فيسقط عنده وحي السماء، وهذا الذي حكم عليه النبي بالذنب وهو بريء ماذا يقول؟ أين الوحي؟ كيف حكم علي ظلماً؟ الآن أنتقل معكم نقلة خطيرة جداً، إنسان دعا إلى الله لو تكلم كلاماً في موطن أو مواطن ليس قانعاً به، لو تكلم في شأن آخر ليس شأن الدين كلاماً لا يرضي الله، لو مدح من لا ينبغي أن يمدح، لو ذم من ينبغي أن لا يذم، فرضاً هو لمصلحة راجحة عنده، سقط الحق الذي يحمله، فبذلك الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

المؤمن لا ينطق إلا بالحق وإذا نطق يتحفظ :

هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله هم خلفاء النبي في نقل الحق للناس، لو أنهم خافوا من غير الله فنطقوا بالباطل وسكتوا عن الحق ماذا بقي من دعوتهم؟ سقطت دعوتهم، أنت ائتمنت فلاناً على خبر السماء لو أنه كذب عليك في خبر الأرض تشك بمصداقية خبر السماء، نقطة دقيقة جداً أراد هؤلاء أن يزينوا للنبي أن الأبيرق ليس بسارق، لو أنهم مكنوا أن يهموا برسول الله أن ينطق بحكم ظالم على إنسان بريء، وأن يبرأ ظالماً، فهذا الظالم الذي حكم عليه بالبراءة ومن حوله ماذا يظنون بهذا الإنسان الذي يوحى إليه؟ يشكون في الوحي الذي يأتيه من السماء، وهذا البريء الذي حكم عليه ظلماً بأنه مذنب؟ هو ومن حوله كيف يقبلون من النبي أنه مؤتمن على وحي السماء وقد حكم على بريء ظلماً شديداً.

لذلك أحد أنواع المطبات الخطيرة التي يقع فيها من ينطقون بالحق بعد رسول الله هو هذا، أي أنت كنت بعقد قران وأثنيت على الشاب الخاطب ثناءً لا حدود له، وأنت لا تعرفه، فأقرباء هذا الشاب يرون هذا المقام؛ مقام العلم، يثني ثناءً كاذباً على إنسان سيئ جداً، تهتز عندهم صورة هذا الإنسان، بل إن الذي يقوله وهو حق سقط عندهم، إذا مؤامرة خبيثة جداً أن هذا الذي يأتيه وحي السماء حكم على بريء بالذنب وحكم على مذنب بالبراءة إذاً أين وحي السماء؟ أين النور الذي ألقاه الله بقلبه؟ أين أثر الوحي بسلوكه؟ إذاً هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ)

لذلك دائماً وأبداً كن متحفظاً، هل بعد عمر من خليفة راشد بعد أبي بكر رضي الله عنهما، ومع ذلك عندما ولى أبو بكر سيدنا عمر جاء من يشتكي، لقد وليت علينا إنساناً شديداً، فقال، أتخوفونني بالله عز وجل، والله لو أن الله سألني لمَ وليت عليهم عمر؟ أقول: يا رب وليت عليهم أرحمهم قال الصديق: هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب.

هذا درس بليغ لكل من يدعو إلى الله، لكل من يحمل الحق، تحمل الحق لو تكلمت في شأن عام كلاماً غير صحيح، لو تكلمت كلاماً لا ينبغي أن تقوله، لو تكلمت كلاماً لا يرضي الله عز وجل، لو مدحت فاسقاً وينبغي أن لا تمدحه، لو ذممت مؤمناً وينبغي أن لا تذمه هذا الجانب من كلامك غير الصحيح يسقط ما عندك من صحيح، لذلك المؤمن لا ينطق إلا بالحق وإذا نطق يتحفظ. سيدنا الصديق قال: هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب.

الحق لا يتجزأ والخلق لا يتجزأ والقيم لا تتجزأ :

إذاً هؤلاء أرادوا أن يزينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يوهموا رسول الله تزييناً لا فعلاً أن الأبيرق بريء، فلو أنه حكم على الأبيرق بالبراءة وهو السارق، وحكم على اليهودي بالذنب

بالسرقة وهو الذي لم يسرق، ما قيمة الوحي عند هذين الرجلين ومن حولهما من أقاربهما ومن يلوذ بهما؟ ثم قد يفشو الخبر، ما من مثل يوضح هذه الحقيقة كما لو أن إنساناً أكرمه الله بالدعوة إليه، وفي مكان آخر، في مناسبة معينة، تكلم كلاماً لا يرضي الله، أو تكلم كلاماً غير صحيح، أو مدح من لا ينبغي أن يمدح، أو ذم من ينبغي أن يمدح، فهذا الخطأ الكبير في أحكامه في شأن آخر غير الدين يسقط ما عنده من حق، أي أنت حينما تأتي بخبير بحرفة معينة ويرتكب كذبة كبيرة أمامك في شأن خاص ماذا تفعل أنت؟ لا تثق بخبرته، ولا تثق بولائه، ولا باختصاصه.

هذا الذي أوهم فرساً أن في ثوبه شعيراً كي يأتي إليه، فلما اقترب منه ـ سافر من المدينة إلى البصرة ليأخذ عنه الحديث ـ ورآه يكذب على الفرس، عاد إلى مكان مجيئه، ولم يسأله عن شيء لأن الحق لا يتجزأ، والخلق لا يتجزأ، والقيم لا تتجزأ، فالذي يكذب على فرسه ليس أهلاً أن ينقل عن رسول الله حديثاً، هذا هو الأصل، فالآية الكريمة:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ)

يزينوا لك براءة الأبيرق وذنب اليهودي، لو تكلمت بخلاف الحق انسحب هذا الخطأ على دعوتك، وانسحب هذا الخطأ على الحق الذي تحمله، فاهتزت صورة النبي عليه الصلاة والسلام. أنت في حياتك اليومية حينما تثق بإنسان ثم تراه يحكم حكماً جائراً في موضوع دنيوي ألا تهتز عندك صورته؟ ألا ينسحب هذا الاهتزاز على العلم الذي يحمله وعلى مكانته؟

مثلاً لو سألت إنساناً عالماً عن إنسان وذمه ابتداءً ولم يلتق به، ولم يستمع منه، ولم يقرأ كتاباً له، ذمه هكذا كي يبعدك عنه، ألا تهتز صورة هذا العالم؟ لم يكن واقعياً، لم يكن منصفاً، هل العلم معلومات تحفظها أم مواقف أخلاقية تفقهها؟ العلم في حقيقته حكم فيه إنصاف النبي عليه الصلاة والسلام، حينما رأى صهره في صف المشركين وجاء ليقاتله وقد وقع أسيراً نظر إليه، وقال: والله ما ذممناه صهراً، أي كان صهراً جيداً.

كيد الله تدبير حكيم يردع الكفار عن أن يضلوا المؤمنين :

قال تعالى:

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)

كيداً:

(وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق: 16]

كيد الله تدبير حكيم يردعهم عن أن يضلوا المؤمنين، وما يضلون إلا أنفسهم أي هم حينما أرادوا هذا العمل السيئ، أو حينما أرادوا أن يزينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم براءة الأبيرق وذنب اليهودي، ولو أن بعضهم أراد من هذا أن يقع النبي عليه الصلاة والسلام في حكم ظالم فيبرئ مذنباً

ويتهم بريئاً، ولعل بعضهم وهم قلة أراد من هذا أن تهتز صورة النبي عليه الصلاة والسلام أمام هؤلاء الذين اجتمعوا على هذه القضية، قال: لولا أن الله حفظه من هم التنفيذ وسمح لهم بهمّ التزيين لكانت مشكلة كبيرة جداً.

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ)

الله عز وجل هو الأصل في كل سعادة، وفي كل أمن، وفي كل راحة، وفي كل توازن، وفي كل سكينة، فإذا أسأت إلى خلقه حجبت عنه، أنت الذي دفعت الثمن باهظاً، أضللت نفسك عن مصدر السعادة، وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء لأن الله يحفظك.

الآمر ضامن حينما أرسل الله هذا النبي الكريم أرسله وقد عصمه من أن يضله أحد، عصمه من أن يقتل، عصمه من أن يضل:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

الحكمة من أن القرآن الكريم جاء منجماً وليس جملة واحدة :

إذاً كل محاولات الطرف الآخر باءت بالخيبة لأن الله عصم النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

أخواننا الكرام، في حقيقة خطيرة جداً أتمنى أن أوفق في شرحها، كان من الممكن أن ينزل هذا القرآن جملة واحدة، مرة واحدة، كل هذه الأحكام في كتاب هو القرآن الكريم، ولكن الله شاءت حكمته أن ينزل منجماً، أي يقع حدث يأتي وحي يوجه النبي لهذا الحدث، فالأحكام جاءت مرتبطة بوقائع، هذه الطريقة من أجل تثبيت قلب النبي، أضرب لكم على ذلك مثلاً؛ أنت عندك كتاب في البيت قرأته مرتين، قدمت به امتحاناً، لكن بعد حين تنساه كله، لماذا؟ لأن هذه الأحكام بقيت نظرية لم تتعامل معها تعاملاً واقعياً، لو أنك عانيت مشكلةً ولا بد أن تعرف الحكم الشرعي وقلبت الكتب التي في مكتبتك، ثم سألت بعض العلماء، ثم استقر رأيك على حكم شرعي يتناسب مع هذه الحادثة، لأنه في حادثة وقعت، لأنه في ارتباط بين النص وبين الواقع، هذا الحكم الشرعي لا تنساه مدى الحياة، أنت تذكر أن الذي لا تنساه أبداً هي مشكلة عانيت منها ثم بحثت لها عن حل شرعي، فالأحكام الشرعية التي توصلت إليها بعد معاناة مشكلة لا تنساها أبداً، لأنها ارتبطت بمشكلة، علماء التربية يقولون: ارتبطت بخبرة.

لو أنك لا سمح الله ولا قدر أخطأت في مجال ما فدفعت ثمناً باهظاً هذا الدرس لا تنساه حتى الموت، فالحكم الشرعي حينما يأتي في كتاب، حينما يأتي حكماً نظرياً، حينما لا يرتبط بواقع، حينما لا يرتبط بمعاناة، حينما لا يرتبط بتجربة، سريعاً ما تنساه، واسأل الذين نالوا شهادات عليا كم كتاباً قرأ في الجامعة؟ وكم كتاباً نجح فيه في الجامعة؟ قد لا يذكر منه شيئاً، أما المشكلات التي

عاناها، والقضايا التي عاينها، والأزمات التي مر بها، فكل ما قيل فيها من أحكام شرعية يحفظها غيباً.

القرآن الكريم نزل منجماً ليثبت الله به قلب النبي الكريم :

إذاً كان من الممكن أن ينزل الله على رسوله هذا القرآن جملةً واحدة، مثلما هو قرطاس من السماء كل شيء فيه، لكن الذي فعله الله عز وجل وهو ما ينبغي أن نفعله نحن أنه نزل منجماً بحسب الوقائع، فحديث الإفك فيه آيات عن الإفك، حديث الأبيرق فيه آيات عن الأبيرق، في أحد في آيات عن الحرب وعن السلم، وعن النصر وعن الهزيمة، فهذا القرآن نزل منجماً ليثبت الله به قلب النبي، وأنت أيها الأخ إذا كنت مربياً أو معلماً أو مرشداً لا يمكن أن ترسخ هذه الحقائق التي تتلوها على أخوانك أو على طلابك إلا بحالة واحدة أن ترتبط بمشكلة تعانيها.

كم من حديث شريف يتحدث عن أشراط الساعة؟ لو قرأته قبل عشرين عاماً لا تتأثر له إطلاقاً، أما حينما ترى الأحداث صارخةً، وحينما ترى أن هذا الحديث جاء به النبي وكأنه يعيش معنا، تتفاعل معه تفاعلاً عجيباً لأن الواقع أيده، والواقع دعمه، وهذا ما يسميه العلماء فقه الحياة، فقه الكتب شيء وفقه الحياة شيء آخر، أنت مثلاً دائماً عندك قناعة المعالجة واجب، بل ترتقي إلى مستوى الفرض ثم تفاجأ بحكم شرعي أن المعالجة ليست واجبة، أنت لا تقبل هذا لأنه أنت بخبرتك في التهاب زائدة، والعملية سهلة جداً، في أمراض من السهل جداً أن يشفى الإنسان منها، أما المعالجة غير واجبة، لم ترضَ بهذا الحكم أنت، أما حينما تعلم أن طفلاً يحتاج إلى معالجة تكلف ثمانية ملايين بدولة أجنبية، والأب موظف لا يملك شيئاً، لو باع بيته، وباع كل شيء، وباع أولاده، لا يستطيع أن يعالج ابنه، هذه مشكلة يغطيها هذا الحكم الشرعي، لا تتفاعل مع هذا الحكم الشرعي إلا بهذه المشكلة، هذه المشكلة لولا أن الله تعالى أنطق النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءته امرأة وقالت: يا رسول الله ابني أصيب بالصرع، قال: إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك، فاستنبط العلماء على أن المعالجة ولو بالدعاء والرقية ليست واجبة إنما هي على الاختيار، هذا يغطي أحياناً أنه قد توقف المنفسة عن إنسان، كل يوم تكلفتها عشرون ألفاً، وموت الدماغ ثابت، كادت الأسرة أن تبيع كل ممتلكاتها، هنا ليست متابعة المعالجة فرْضاً في مثل هذه الحالة.

فالأحكام الشرعية النظرية التي هي في بطون الكتب لا تذكرها إطلاقاً، ولا تحفظها، بل لا تتفاعل معها، أما إن حصلت مشكلة، إن كانت تجربة، إن كانت معاناة، ثم جاء وحي السماء وبين هذه لا تنساها حتى الموت، وأنا أقول لك مرة ثانية الأحكام الفقهية التي تذكرها دائماً هي أحكام فقهية متعلقة بمشكلات تعانيها، الآن أعلى أنواع التروية أن تعالج المشكلة بالقواعد النظرية، لذلك بعض الجامعات ليس فيها تدريس إطلاقاً، فيها بحث، هذا الطالب يكلَّف ببحث، كلما وقع أمام عقبة كأداء

سأل أستاذه: ماذا أفعل؟ راجع البحث الفلاني، راجع البحث الفلاني، لخص البحثين، اجمع بينهما وأجب عن هذه النقطة، فلذلك:

من أخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

* * *

كل شيء تدرسه ولا تتفاعل معه تنساه :

كل شيء يأتيك بسهولة، بلا معاناة، بلا مشكلة، بلا تجربة، لذلك الأفكار التي ينبغي أن نجتمع حولها واضحة لا نجتمع، هؤلاء الأجانب بعد حروب ومعاناة دافعين ثمن ما هم فيه الآن، ثمن من دماء أبنائهم، أي هم يتعاونون، هم بعيدون عن المهاترات بسبب أنهم دفعوا ثمن هذا باهظاً فيما مضى فاتعظوا، والتفتوا إلى تقوية أنفسهم، وبناء مجتمعاتهم، حتى ملكوا ناصية العالم.

فيا أيها الأخوة، حكمة الله عز وجل من أن القرآن نزل منجماً أي نزل بوقائع، ونزل بخبرات، لذلك أحكامه لا تنسى، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة الفرقان: 32]

أي نزل منجماً ليثبت الله به فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام.

أذكر مرة أنني قرأت كتاباً في دراسات عليا تربوية عن الأمراض النفسية، فكانت هذه الأمراض ثلاثمئة مرض، والله لا أذكر منها الآن مرضاً واحداً إلا مرضاً واحداً شاهدناه مصوراً في مقطع مسجل هو الصراع، كيف إنسان أراد أن يتجاوز مركبة ففوجئ بمركبة أمامه فوقع في صراع يتابع أم يتراجع؟ تصور امرأته تجري في جنازته، تصور أبناءه في المياتم، لأن هذا الموضوع رأيته بصورة مع مشكلة ومعاناة حفظته، أما كل شيء تدرسه ولا تتفاعل معه تنساه.

الأحداث التي وقعت في عهد النبي وقعت بشكل مقصود لتكون منطلقاً للأحكام الشرعية :

فكان من الممكن أن يأتي هذا القرآن، أن ينزل هذا القرآن على قلب النبي جملة واحدة، أما جاء منجماً بحسب الوقائع، حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ

الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

إذاً الأحداث التي وقعت في عهد النبي وقعت بشكل مقصود ومركز من الله عز وجل بشكل لا نهائي لتكون منطلقاً للأحكام الشرعية، ومنطلقاً للوحي المنزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً هذه القصة مبعث هذه الآيات وهذه المواقف، وكيف أن طائفة أرادت أن تضل النبي، وكيف أنه سمح لها أن تهم بتزيين الأمر له، ولم يسمح لها بأن تحمله على فعل ما تريد لأن الله يحفظه، الله عز وجل إذا قال:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

لولا أن حالة جرت لكن النبي لم يتأثر بها إطلاقاً، ثبت بالفعل أنه محفوظ من الله عز وجل، وأنه معصوم، فالواقع حينما ينطقُ ينطق بحجة دامغة، فلذلك الوحي نزل منجماً بحسب الوقائع التي عاشها النبي، وهذه الوقائع كانت مركزة في أعلى مستوى من قبل الله عز وجل.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

إن عرفت الله خضعت لمنهجه وسعدت بقربه في الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

لو معك ألف مليار تموت وتتركها في الأرض، متاع الدنيا قليل، كم تأكل؟ الذي معه بالمليارات كم يأكل؟ يأكل كما يأكل أي إنسان، على كم سرير ينام؟ كم ثياب يرتدي؟ كم مركبة يركب؟ الدنيا لها سقف، مهما كنت غنياً في الدنيا عند الله قليل، أما إذا علمك الله الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم سمى الله هذا الفضل فضلاً عظيماً، وأنا مرة ذكرت أن طفلاً بالحضانة لو قال لك: يا أبت أنا معي مبلغ عظيم، بعد العيد، يقدر هذا المبلغ بمئتي ليرة، أنت كم تتوهم المبلغ من طفل يقول: معي مبلغ عظيم؟ مئتي ليرة، إذا قال مسؤول بالبنتاجون: نحن رصدنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً، كم تتصوره؟ مئتي مليار، انظر كلمة عظيم واحدة، قالها طفل فظننت مئتي ليرة، وقالها مسؤول فظننتها مئتي مليار دولار، إذاً كلمة عظيم بحسب قائلها أليس كذلك؟ إذا قال الله عز وجل:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

ما هو أعظم شيء في الأرض؟ أن تعرفه، إنك إن عرفته خضعت إلى منهجه وسعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذه البطولة، وهذه الآية والله ينبغي على كل أخ كريم أن يضعها في صدر بيته.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

الشرك عم الأرض، تسعمئة مليون يعبدون البقر في بعض القارات، يعبدون الحجر، يعبدون الشمس والقمر، يعبدون شهواتهم، يعبدون النساء، فإذا سمح الله لك أن تعبده فأنت على هدىً كبير.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

في بلاد لعل هذه العادة بدأت تنقرض إذا مات الزوج ينبغي أن تحرق معه زوجته وهي حية، هكذا تقاليدهم، لا، نحن تتزوج بعد موته، ليس هناك مشكلة أبداً، انظر الشرع الإلهي، في بلاد يأكلون الجرذان أما الله سمح لنا أن نأكل أطيب الطعام، فنحن في نعمة لا تعدلها نعمة لكن ينبغي أن نعرفها.

أيها الأخوة، قضية أن ينزل القرآن منجماً قضية مهمة جداً، وقضية أن الأحداث التي وقعت في عهد النبي وقعت مقصودة لذاتها من قبل الله عز وجل لتكون متكئاً للتشريع.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(51-69): تفسير الآيتان 114-115، الكلمة الطيبة ومشاققة النبي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-03-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

من دلائل تكريم الله للإنسان أنه علمه البيان أي اللغة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الرابعة عشر بعد المئة وهي قوله تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

الحوار، الكلام، والإنسان مخلوق مكرم، ومن دلائل تكريمه أنه علمه البيان.

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-3]

تصور مجتمع بلا لغة كيف نعيش؟ أوضح مثل الطفل يبكي ساعة لا تعلم مما يشكو، تطعمه يبقى باكياً، تسقيه الماء يبقى باكياً، تنظفه يبقى باكياً، ما في لغة يحكي معك، أما الكبير يقول لك: أنا جائع، أنا متألم، أشعر بدوار، أشعر بألم في الرأس، فهذه اللغة من تكريم الله لنا:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

اللغة أداة اتصال بين أفراد النوع، اتصال راقي جداً، لو أننا مثلاً أردنا أن نمنع التجول في بلد وما في لغة، إذا فيها خمسة ملايين إنسان بالمدينة نحتاج إلى خمسة ملايين شرطي، يمسك كل شرطي إنسان يدفعه إلى البيت، ما في طريقة ثانية، أما في اللغة بلاغ من خمس كلمات بالإذاعة انتهى كل شيء، لا تجد إنساناً في الطريق، أرقى أداة اتصال بين أفراد النوع اللغة أداة تعبيرية تعبر بمقتضاها عن الفكر، وعن المشاعر، فأنت باللغة تعبر عن مشاعرك، وباللغة تعبر عن أفكارك، وباللغة تفهم أفكار الآخرين، وباللغة تفهم مشاعرهم، وباللغة تتصل مع من حولك، هذه اللغة.

اللغة أيها الأخوة من مظاهر تكريم الله لهذا الإنسان، وهي كشأن أي حظ من حظوظه، قد تكون أداة خير، قد تكون سلماً يرقى به الإنسان، وقد تكون دركات يهوي بها، ولحكمة أرادها الله لأن الإنسان مخير كل حظوظه حيادية، وكل قدراته حيادية، وكل إمكاناته حيادية، وكل شهواته حيادية، أية شهوة أودعها الله بالإنسان، وأي حظ آتاه الله للإنسان، وأية قدرة منحها الله للإنسان، يمكن أن تكون سلماً يرقى به إلى الجنة، أو دركات يهوي بها إلى النار، المال حظ الطريق للجنة بإنفاقه في سبيل الله، وطريق إلى النار بإنفاقه في سبيل الشهوات، والمرأة حظ طريق إلى الجنة بأن تتزوجها وأن تحسن إليها، وطريق إلى النار بأن تزني بها.

الكلام يمكن أن يرقى بالإنسان أو يهلكه :

الآن اللغة حظ، القدرة على الإقناع، الحوار، التكلم، فإما بهذا اللسان تعرف الناس بخالق الأكوان فترقى عند الله، وإما أنه بهذا اللسان تعرف الناس بمسالك المعصية والفسوق والفجور فيهوي بها إلى أسفل السافلين، اللغة حيادية، فيقول الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

أي اللغة نشاط، من أوسع نشاطات الإنسان، لا يوجد إنسان لا يتكلم، ليلاً نهاراً، في بيته، وفي الطريق، ومع من حوله، ومع من فوقه، ومع من دونه، ومع أصدقائه، ومع أعدائه، أوسع نشاط بشري هو الكلام، والذي يجب أن نلتفت إليه أن هذا النشاط البشري الواسع جداً وهو الكلام يمكن أن يرقى بالإنسان أو يهلك الإنسان.

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

ورد في الأثر أن قذف محصنة تهدم عمل مئة سنة، قذف محصنة إنسانة مؤمنة شريفة طاهرة أنت اتهمتها ظلماً ولو إشارة، التعبير أنواع، في تعبير لفظاً، في تعبير إيماء، في تعبير إشارة:

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ...))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[سورة إبراهيم: 24-25]

أفضل صدقة عند الله كلمة طيبة :

كلمة طيبة طارت في الآفاق، كلمة طيبة عمّ خيرها في العالمين، الأنبياء بماذا جاءوا أيها الأخوة؟ الآن في صواريخ، حاملات طائرات، كمبيوتر، في منجزات، في أقمار صناعية، في مركبات فضائية، ومع ذلك البشرية شقية من أقصاها إلى أقصاها، الأنبياء بماذا جاءوا؟ بالكلام، بكلمة طيبة، وأفضل صدقة عند الله كلمة طيبة، فالكلمة الطيبة صدقة، والكلمة الطيبة دعوة، والكلمة الطيبة نصح، والكلمة الطيبة تعريف بالله، والكلمة الطيبة إصلاح بين إنسانين، والكلمة الطيبة عمل لا ينتهي:

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى عدّ في إحيائه سبع عشرة معصية أساسها الكلام، فالغيبة من معاصي اللسان، والنميمة، والبهتان، والسخرية، والمحاكاة، والكبر، معاصي اللسان لا تعد ولا تحصى، بل نقطة هنا أن أحد أصحاب النبي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

لذلك المؤمن يعد كلامه جزءاً من عمله، يضبط لسانه، فبكلمة قد ترقى عند الله:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

وعلامة المؤمن منضبط، لا غيبة، ولا نميمة، ولا محاكاة، ولا تقليد، ولا سخرية، ولا فحش، ولا تفحش، هذا المؤمن، بل إن الفرق الصارخ بين مؤمن وغير مؤمن، أن المؤمن منضبط في كلامه، قد تعاشره أربعين عاماً فلا تسمع منه كلمة نابية، ولا تجريحاً، والمنافق لربع ساعة تلتقي به مزاح منحط، وطعن، وكلمة بذيئة، وسباب فاحش هذه من صفات أهل الدنيا، فالله عز وجل في هذه الآية يقول:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

الآن جلسات الناس، سهرات الناس، لقاءات الناس، لقاءهم مع بعضهم بعضاً ماذا يقولون؟ إما أن يكون حديثهم في سفاسف الأمور، أو في المعاصي والآثام، لو لم يكن هناك معصية حديثهم في سفاسف الأمور، أما النبي عليه الصلاة والسلام وصفه الله عز وجل بأنه في الأفق الأعلى، وكلما ارتقيت إلى الله عز وجل كنت في أفق أعلى.

العمل الصالح هو علة وجودنا في الدنيا :

أيها الأخوة، مرة ثانية: كما أن البيان من مظاهر تكريم الله للإنسان كذلك البيان مزلق خطير إلى جهنم عن طريق اللسان فقط، وقد تجد ما يسمى بزنى اللسان الآن، وهو شائع، أي قد يصل الإنسان في حديثه إلى مستويات منحطة جداً، على كلٍ يقول الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

يستنبط من هذا الكلام أن قلة من الناس وهم المؤمنون كلامهم طيب، وكلامهم عمل صالح، وكلامهم رقي إلى الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

أحياناً تجلس مع أناس جلسة لا ترى فيها حديثاً قيماً، شيء سخيف، وشيء تافه، وكلام فارغ، وكلام لا معنى له، ومضيعة للوقت، وتبديد للعمر، أما كلما ارتقى مقامك عند الله تحاسب نفسك على الكلمة، تحاسب نفسك على الحرف، (إلا) استثنى الله عز وجل من هذه النجوى، وقد نفهم من معاني النجوى الكلام السري، أي في لقاء سوف نفعل غداً كذا، نفعل بفلانة كذا، وسوف نفعل المطب الفلاني بفلان، النجوى يغلب عليه السرية والتكتم.

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أي أمر بعمل صالح لأن علة وجودك في الدنيا هو العمل الصالح، علة وجودك، والدليل: أنه حينما يأتي ملك الموت يقول الإنسان:

(رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون: 99-100]

إذاً علة وجودك هو العمل الصالح.

الدعوة لله عز وجل من أجلّ الأعمال الصالحة بل هي من صنعة الأنبياء :

الصدقة مطلق العمل الصالح، تتكلم بزواج امرأة برجل، تسعى بزواج شابة مؤمنة بشاب مؤمن هذا عمل صالح، تسعى بتأمين عملٍ لإنسان عاطل هذا عمل صالح، تسعى بدلالة إنسان على منبع للحق هذا عمل صالح، تدعو إنساناً لطاعة الله هذا عمل صالح، تعرفه بعظمة الله هذا عمل صالح، تبين له منهج الله في شأن معين هذا عمل صالح، تبين له شيئاً من سيرة النبي هذا عمل صالح، شيئاً من أخلاقه العلية هذا عمل صالح، أي حينما تدعوه إلى عمل صالح، حينما تدعوه إلى طاعة، حينما تدعوه إلى تضحية، حينما تدعوه إلى إيمان، حينما تدعوه إلى الالتزام، هذا كله عمل صالح، لذلك الدعوة لله عز وجل من أجلّ الأعمال الصالحة، بل هي من صنعة الأنبياء:

(إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ)

أي بعمل يؤكد صدقك مع الله، أمرت إنساناً بعيداً أو قريباً أو صديقاً أو جاراً أمرته بعمل يؤكد صدقه في طلب الحقيقة، يجب أن توسع هذه الكلمة، صدقة، بمعناها الضيق بإنفاق المال، بمعناها الواسع بشيء يؤكد صدق الإنسان، لأن الصدقة برهان على أنك مؤمن.

(أَوْ مَعْرُوفٍ)

تعارف الناس بفطرتهم السوية السليمة على أن هذا العمل طيب، والله أخبرني إنسان في محافظة في أقصى شمال شرق سوريا، توفيت زوجته عندهم تقليد رائع أن كل معزٍ يعزي طبعاً الوفاة مصيبة، وقد يكون المعزَّى رقيق الحال، فالمعزون يدفعون شيئاً من أموالهم معاونة لهذا الذي أصيب بفاجعة، شيء لطيف، شيء تقره الفطر السليمة، أنبأني أخ بإفريقيا أن هذا مطبق عندهم المعزون يبذلون شيئاً من أموالهم لمن فجعوا بهذا المصاب، فالذي فجع بموت والده أو موت أمه أو

موت شقيقه يتلقى بعض المساعدات من إخوانه المؤمنين وهذا يعينه على حل مشكلاته، فأي عمل تقره الفطر السليمة، أحياناً يكون في تعاون بين الناس على شيء ما، وهذا باب مفتوح مَفتوح على مصراعيه، أي عمل فيه نفع للمسلمين هو عمل صالح، والفطر السليمة تقره، وينبغي أن نقف قليلاً عند قول الله عز وجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ما المعروف؟ ما تعارفت عليه الفطر السليمة، ما المنكر؟ ما أنكرته الفطر السليمة.

العرف دائماً تقره الفطر السليمة :

إذاً: إما أن تدفع الناس بكلامك إلى عمل يؤكد صدق إيمانهم، أو يؤكد صدق إخلاصهم لله، أو بالمعنى الضيق إلى إنفاق أموالهم في سبيل الله، أو معروف أي شيء لم يرد في الدين لكن الأعراف تصدقه وتؤكده.

مرة حدثني أخ أنه في بعض البلاد الإسلامية أحد أنواع الوقف وقف الإصلاح بين الزوجين، أي مؤسسة فيها علماء، وفيها خبراء اجتماعيين، ومرصود مبالغ لها، فأي مشكلة بين زوجين يأتي المشرف، يأتي الشيخ يقنع الزوج، يقنع الزوجة، يعيد هذه الأسرة إلى وئامها، هذا عمل صالح، وقف للإصلاح بين الزوجين، فأي شيء يرقى بالمؤمنين يرقى بالمسلمين، يحل مشكلاتهم هذا أيضاً مما يرد بالمعروف. أي شيء لا نص فيه المرجع هو العرف، والعرف دائماً تقره الفطر السليمة.

(أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أن تصلح بين أخوين، بين شريكين، بين زوجين، أن تصلح بين إنسان وربه، أن تصلح بين أخوين مؤمنين، فهذا كلام يحتاج إلى لقاء، وإلى حديث، وإلى بيان، وإلى أدلة، وإلى قصص، وإلى تخويف، وإلى ترغيب، وإلى تحذير، هذا كله كلام، فحينما ينطلق لسانك بالإصلاح بين الناس، أو ينطلق لسانك لحل مشكلات المسلمين من خلال معروف تفعله، أو حينما ينطلق لسانك بدفع الناس إلى عمل صالح يقربهم من ربهم، هذه النجوى إن كانت علانية أو سرية محمودة عند الله عز وجل:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أول صفات المؤمن أنه منضبط بلسانه :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)

أي هو حينما يوفق إنسانين، يصلح بين إنسانين، يدفع إنساناً إلى طاعة الله، يحمله على العمل الصالح، يحمله على فعل الخيرات وترك المنكرات، قال:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

إذاً يجب أن تعد أن كلامك من عملك، نحن متوهمون أن العمل فعل، أما هذا كلام بكلام، كلامك فعل أيضاً، بدليل أنك لو تكلمت كلمة بسخط الله تهوي بهذه الكلمة سبعين خريفاً في النار، أي هذا رئيس المنافقين ماذا قال؟ قال كلاماً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا الكلام جعله يهوي في جهنم سبعين خريفاً، كلمة قالها، فينبغي أن تعد ـ دقق ـ كلامك من عملك، بكلامك ترقى وبكلامك تسقط عند الله، وأول صفات المؤمن أنه منضبط، منضبط بلسانه، ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

شاقق الرسول؛ أي خرج عن منهج النبي، منهج النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله، النبي عليه الصلاة والسلام جاء بمنهج، عقلك إذا أعملته في الكون دلك على أن هذا الكون لا بد له من خالق، لكن هذا الخالق ماذا يريد منا؟ جاء الإيمان برسول الله الذي يبلغ عن الله، أي عقلك أوصلك إلى الله، ورسول الله أوصل إليك مراد الله منك، فالعقل والنقل يتكاملان، أنت بالكون تؤمن وبالشرع تعبد.

مشاققة الرسول :

كلمة التوحيد والرسالة لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا إله إلا الله آمنت أن لهذا الكون إلهاً، رباً، خالقاً، مسيراً، واحداً في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، حسناً ماذا يريد مني؟ لماذا خلقني؟ ماذا بعد الموت؟ ماذا ينبغي أن أفعل؟ مليون سؤال، جاء رسول الله وأبلغك عن الله، مراد الله منك، لذلك الإسلام كله مضغوط بكلمتين؛ لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهذا المنهج الذي جاء به النبي منهج الإنسان الذي ينبغي أن يسلم ويسعد، فلو أن الإنسان شذ عنه يكون قد شاقق رسول الله:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ)

الرسول لو عصيت أمره أنت المتضرر الوحيد، هو في أعلى عليين، مشاققة الرسول هو أن تخرج عن منهجه، ومنهجه منهج كل إنسان يريد السلامة والسعادة، فالمشاققة أن تخرج عن منهجه، ألا تعتد بسنته، ألا تقيم وزناً لأمره، هذه مشاققة للرسول، لأن الرسول ما جاء بشيء من عنده إطلاقاً:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى)

الأمر واضح، الآن أخواننا الكرام، الأمور واضحة جداً بقي أن نعمل، أي ولاسيما بعد الأحداث الأخيرة، كان في أبيض وأسود ومئة ألف لون رمادي بينهما، الآن في أبيض وأسود أبداً، إما أن تخاف من الله أو من وحيد القرن، ما في إما أن تطلب الآخرة أو أن تطلب الدنيا، إما أن تحكم مصالحك وإما أن تحكم مبادئك، إما أن تكون مطيعاً وإما أن تكون عاصياً، إما أن تلهث وراء الشهوة وإما أن تلهث وراء رضوان الله عز وجل، الأمر واضح جداً.

الآية التالية آية تهديد :

لذلك:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى)

الأمر واضح وكل شيء أصبح واضح إلى درجة غير معقولة، ومع ذلك يتبع غير سبيل المؤمنين، هذا هو الإجماع، يتبع غير سبيل المؤمنين، المؤمنون لا يكذبون، المؤمنون لا يعينون كافراً على بعضهم، مستحيل**!** المؤمنون لا يسهلون العدوان على أخوانهم المؤمنين، مستحيل**!** المؤمن له سبيل، المؤمن يتحرج أن تموت هرة بسببه فكيف بما فوق الهرة؟ أي في تقديرات أولية أن أول يوم فيه مليون قتيل وأربعة ملايين شريد، فهذا الذي يعين هذه القوة الغاشمة، يسهل لها، يقدم لها الدعم، يقدم لها الأرض، يقدم لها كل ما تحتاج أين هو من الدين؟

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

((المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ لا يَخونُهُ وَلا يَكْذِبُهُ وَلا يَخْذُلُهُ، كُلّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ ومَالُهُ وَدَمُهُ))

[متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

أي الحد الأدنى الذي يؤكد أنك مؤمن أنه لا يمكن أن تساعد الآخر على أخيك المؤمن، ولو لم يكن طائعاً لله، الحد الأدنى الذي يؤكد أنك مؤمن ألا تساعد عدواً على أخيك المؤمن، هذا الحق، فلذلك:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

شق عنهم، شذ عنهم، خرق منهجهم، لم يعبأ بهدى رسول الله:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

أنت مخير، نعطيك ما تريد، لكن:

(وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

هذه آية تهديد، هكذا تريد؟**!** ليكن ما تريد، لكن انتظر العقاب.

الإنسان مخير في أن يكون في خدمة الخلق أو أن يكون في إيذائهم :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

هذا الإنسان مخير.

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)

[سورة الإسراء: 20]

ماذا تريد؟ تريد أن تكون في خدمة الخلق، لك ذلك، تريد أن تكون في إيذاء الخلق، لك ذلك، لا تؤذي من تريد، إنك تؤذي من يعد الأذى في حقه حكمة بالضبط، أدق كلام أن إنسان نوى أن

يسرق، أنت مخير، لك ذلك، لكن الله يسوقه إلى من إذا سرق ماله اتعظ من هذه السرقة، يسوقه إلى من تعد سرقة ماله معالجة له، بالضبط، الله ينسق.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام: 129]

الله ينسق.

الله تعالى يوظف الشر لمعالجة الآخرين :

أنت تريد الشر، لكن الله يوظف لك الشر بمعالجة الآخرين، أوضح مثل:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص: 4-6]

هذا ترتيب الله عز وجل، إذا عصاه من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، إلى أن يعود الذي يعرفه وقد عصاه، فإذا عاد إليه قواه ومكنه من الذي ظلمه إلى أن يعود الظالم إلى الحق، يسوق هؤلاء لهؤلاء، وهؤلاء لهؤلاء، لذلك سألوا مرة تيمورلنك: من أنت؟ أجاب إجابة رائعة، قال: أنا غضب الرب، يعني الإنسان يغضب يعلو صوته، قد يكسر آنية بيده، وإذا غضب الله يرسل تيمورلنك، يرسل هولاكو، يرسل وحيد القرن، أبداً، أنا غضب الرب، أنا ملك الملوك ومالك الملوك.

في الأثر القدسي: "قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم".

أساليب المؤمن في الحياة :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ)

لمجرد أن تخرج عن منهج النبي شاققته، انسلخت عنه، خرقت منهجه، لم تستقم على منهجه:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

المؤمنين لهم سبيل، لهم نظم، لهم قيم، لهم مبادئ، لهم أساليب في الحياة أساسها الصدق والأمانة والعفة والانضباط والإحسان والإنصاف والعدل، هذا سبيل المؤمنين:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

لأنه مخير:

(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

لك ذلك، لكن لك ذلك لا على من تشاء أنت على من نشاء نحن، حينما يريد الإنسان أن يظلم إنساناً هو أراد أن يظلم لكن الله يسوقه إلى من يعد هذا العمل في حقه حكمة:

(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

كما تريد:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف: 79]

لك ذلك وادفع الثمن.

هان أمر الله علينا فهنّا على الله :

قال له: عظني ولا تطل، قال: قل آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذاً فاستعد للبلاء، تحمل، يا ربي كم عصيتك ولم تعاقبني، قال: عبدي كم عاقبتك ولم تدر.

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

الذي يقوله المسلمون اليوم نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قل: فلم يعذبنا بذنوبنا، لأننا لم نتبع منهج النبي، نحن بشر ممن خلق، من دهماء الأمم، هان أمر الله علينا فهنا على الله، والله ما من أمة في هذه المرحلة أشد هوناً من المسلمين أبداً، لا قيمة لقتلاهم أبداً، قتلاهم بلا ثمن، أما أي إنسان آخر إذا قتل تقوم الدنيا ولا تقعد، أما مئات وألوف الأشخاص بلا ثمن، لأن أمر الله هان عليهم فهانوا على الله:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

أنت اتخذ قراراً:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف: 79]

أردت أن تفعل هذا افعل وادفع الثمن، اعملوا ما شئتم:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25- 26]

لا بدّ للإنسان من أن يدفع ثمن اختياره :

قال تعالى:

(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

لك ذلك، لكن المصيبة في دفع الثمن، إنسان يرتكب جريمة يحقق ربح كبير، يتمتع يومين أو ثلاثة، ثم يلقى القبض عليه، يحاكم بالإعدام، يساق للمشنقة، وصل إلى طريق مسدود، يحب أن يضحك؟ يضحك، لا بد من أن يعدم، يحب يبكي؟ يبكي، لا بد من أن يعدم، يحب أن يتوسل؟ يتوسل، لا بد من أن تعدم، فأنت تختار لكن بعد الاختيار دفع الثمن، اعملوا ما شئتم:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية:25- 26]

أيها الأخوة الكرام، هذه آية خطيرة وهي مناسبة:

(وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(52-69): تفسير الآيات116-118 ، الشرك وتغيير خلق الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-03-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الذنوب ثلاثة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية السادسة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

أيها الأخوة، الذنوب ثلاثة؛ ذنب يغفر وهو ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك وهو ما كان بينك وبين العباد، وذنب لا يغفر وهو الشرك.

وحقيقة أن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك أنك تتجه في الأصل لمن بيده مغفرة ذنبك، تتجه لمن بيده أن يرحمك، ولمن بيده أن يرزقك ويشفيك، فإذا اتجهت لغيره فلا رحمة ولا شفاء ولا رزق ولا مغفرة، معنى الآية: كيف يغفر لك ربك إذا اتجهت إلى غيره؟ كنت قد ضربت على هذا مثلاً: لو أن الإنسان في طريقه إلى مدينة ليقبض فيها مبلغاً ضخماً وركب القطار الموصل لهذه المدينة قد يقع بأخطار كثيرة في ركوب القطار، فقد يقطع بطاقة من الدرجة الأولى ويجلس في عربة من الدرجة الثالثة هذا خطأ! لكن القطار في طريقه إلى هذه المدينة وسيأخذ هذا المبلغ، قد يجلس مع أناس ليسوا على المستوى الذي يليق به فينزعج، لكن القطار في طريقه لهذه المدينة، قد يتلوى من الجوع ولا يعلم أن في القطار عربة فيها طعام يباع وهذا خطأ ثالث! لكن القطار في طريقه إلى المدينة، وقد يجلس في مقعد على عكس اتجاه القطار فيصاب بالدوار وهذا خطأ خامس، لكن القطار في طريقه إلى المدينة، هذه أخطاء مزعجة لكن الهدف الكبير تحقق ووصل إلى المدينة وقبض المبلغ الكبير، أما الخطأ الذي لا يغفر أن يركب قطاراً باتجاه آخر لا شيء! الهدف تلاشى!

الشرك هو الذنب الذي لا يُغفر :

هناك أخطاء وأنت في طريق الله عز وجل تُغفَر، وأخطاء وأنت في طريقك إلى الله يسامحك الله بها، يوجد أخطاء وأنت في الطريق إلى الله يكفر عنها، أما في خطأ مدمر هو أن تتجه لغير الله، لا شيء، أنت فقير وتتجه إلى فقير، أنت ضعيف وتتجه إلى ضعيف، أنت في قبضة الله وتتجه لمن هو

في قبضة الله مثلك، لا شيء! فقضية عدم المغفرة ليس من نوع أن الله لا يحب أن يرحمك، لا، عدم المغفرة من نوع أنه كيف يغفر لك وأنت متجه إلى غيره؟ كيف تشفى وأنت معلق الأمل على غيره؟ كيف ترزق وأنت تتجه إلى الفقير؟ كيف تعلم وأنت تتجه إلى الجاهل؟

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

كل خطأ مع التوحيد مغفور، لكن كل صواب مع الشرك مدمر، الصواب أحياناً، لو ركبت قطاراً فخماً جداً لا يوجد مشكلة لكن باتجاه معاكس لهدفك، لا شيء!

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

أخواننا الكرام، أساس هذا الدين التوحيد، وما يرتكب الإنسان من معصية إلا بضعف توحيده، ولا يقع في النفاق إلا بضعف توحيده، ولا يجر إلى اليأس إلا بضعف توحيده، ولا يمتلئ قلبه رعباً ولا يقلق إلا بضعف توحيده، ولو أردنا أن نعدد الأمراض التي يعاني منها المسلمون وما أكثرها هي في الحقيقة ليست أمراضاً إنما هي أعراض لمرض واحد هو الشرك، ليس من باب التيئيس لكن من باب الواقع.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

قانون عند الله عز وجل أن الشرك يقترن بالرعب والإيمان يقترن بالأمن :

هذا الذي يرتكب معصية من أجل أن تروج بضاعته أليس مشركاً؟ لا يرى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، يرى أن الإعلان عن البضاعة بمعصية صارخة يجعلها رائجة هذا نوع من الشرك، هذا الذي يتاجر بمواد حرمها الله هذا نوع من الشرك، لو بحثت في حياة المسلمين لوجدت حياتهم ممتلئة بالشرك، والإنسان حينما يشرك يلقي في قلبه الخوف!

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران: 151]

بسبب شركهم، أي شرك مؤداه الخوف والرعب، ولو كنت أقوى إنسان في الأرض يمتلئ القلب خوفاً، ولو كانت الدولة أقوى دولة في العالم يمتلئ قلب قيادتها رعباً، هذا قانون عند الله عز وجل؛ الشرك يقترن بالرعب، والإيمان يقترن بالأمن:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

أبسط مثل، أنك حينما تعلم أن قضيتك لا تحل إلا مع المدير العام فمن الغباء ومن الجهل ومن الحمق أن تتجه لحاجب عند أحد الموظفين وتبذل ماء وجهك أمامه وقضيتك لا تحل إلا بمن هو على رأس هذه الإدارة، فالذي يعقل يتجه لمن هو بيده الأمر.

أيها الأخوة، النتائج التي يقطفها الإنسان من التوحيد لا تعد ولا تحصى أولها الأمن، علاقتك مع واحد بيده كل شيء إن أرضيته خضع لك كل شيء، إن أرضيته استجاب لك كل شيء، من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف من الله أخافه الله من كل شيء، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

أحد أكبر أسباب عذاب النفس أن تدعو مع الله إلهاً آخر :

أيها الأخوة، أكاد أقول إن المشاعر المؤلمة مشاعر الضيق والقلق والحزن واليأس والإحباط وغيرها، إن هذه المشاعر المدمرة يمكن أن تعزى إلى الشرك، والشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، أو أن تبغض على عدل، تحب إنساناً ليس على ما ينبغي أن يكون لكنك منتفع منه هذا نوع من الشرك، أو تبغض إنساناً وقد أصدق لك نصيحة صادقة وهذا نوع من الشرك.

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

أحد أكبر أسباب عذاب النفس أن تدعو مع الله إلهاً آخر ذلك أن الإنسان لا يعلم، وإن علم لا يرحم، وإن أراد أن يرحم لا يستطيع، يقول لك: العين بصيرة واليد قصيرة لا يرحم! لكنك إذا اتجهت لله عز وجل بيده كل شيء.

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ.... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآَخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

لمجرد أن تؤمن أن الله بيده كل شيء، وبيده أقوى الأقوياء، وبيده أغنى الأغنياء وأنه عليم حكيم، هذه الفكرة وحدها تملأ القلب طمأنينة ورضى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

حينما تتجه لغيره أنّى يغفر لك؟ وأنّى ترزق؟ وكيف تشفى؟ وكيف تعلم؟ هو مصدر العطاء والشفاء والسعادة والأمن، فإن اتجهت لغيره لا ترى شيئاً.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

ما سوى الشرك يُغفر، إن كان مع العباد لا بد أن تؤدي ما عليك أو يسامحونك، وإن كان الذنب بينك وبين الله فينبغي أن تقول: يا رب لقد تبت إليك، والله عز وجل يقول: وأنا عبدي قد قبلت.

من شاء المغفرة عمل في أسبابها :

الحقيقة أن الله ما أمرك أن تستغفر إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تتوب إلا ليتوب عليك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، أمرك أن تدعوه كي يجيبك، أمرك أن تستغفره كي يغفر لك، أمرك أن تتوب إليك كي يتوب عليك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَ دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

من شاء المغفرة عمل في أسبابها، النقطة الدقيقة: أنه في القرآن الكريم في آيات أعتقد أنها تزيد على ثمانية آيات:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأعراف: 153]

أما أن تفهم المغفرة فهماً ساذجاً أن الله غفور رحيم، لكن إذا تبت إليه، وأصلحت بينك وبين الناس، وإذا عقدت العزم على أن لا تقع في الذنب مرة ثانية، أما لمجرد أنك لا تستغفر، أو تستغفر وليس في النفس عزيمة على ترك هذا الذنب، أو تستغفر ولا تصلح، معظم المسلمين يذهبون إلى الحج وهو فريضة ويتوهمون أن كل الذنوب التي على كاهلهم تغفر إذا أدوا فريضة الحج، هذا وهم كبير! يرجع الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه في الذنوب التي بينه وبين الله فقط، أما التي بينه وبين العباد لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، لذلك حينما يقف الحاج في عرفات يغفر الله له ويلقي في روعه أنه غفر له، وينطلق إلى الحج بشرط أنه تائب من كل ذنب، الذنوب التي بينه وبين العباد ينبغي أن تصحح وتسوى قبل أن يذهب إلى الحج، عندئذ يلقى في روع الحاج أن الله قد غفر له.

حقوق العباد مبنية على المشاحة بينما حقوق الله مبنية على المسامحة :

أيها الأخوة، كدليل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، فَقَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئاً؟ قَالُوا: لَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئاً؟ قَالُوا: ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ تَرَكَ

شَيْئاً؟ قالُوا: لَا، قالَ: فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قالُوا: ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ، قَالَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَلَيَّ دَيْنُهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ .))

[البخاري عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّه عَنْهم]

وهل تصدقون أن أعلى عطاء على الإطلاق أن تضحي بحياتك في سبيل الله، الشهيد يغفر له كل ذنب إلا الدَّين لأنه حق متعلق بالعباد، وحقوق العباد مبنية على المشاحة، وبينما حقوق الله مبنية على المسامحة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

ذنب لا يغفر وهو الشرك، وذنب يغفر وهو ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك وهو ما كان بينك وبين العباد، هذه حقيقة ينبغي أن تكون بين أيديكم.

الآن يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

الحقيقة لو أنك أرسلت شيئاً إلى هدف وانحرفت الزاوية درجة واحدة، كلما تحرك هذا الشيء لهدفه ابتعد عن الهدف، لو أطلقت قذيفة بهدف وكان خط في إطلاقها زاوية، وكلما قطعت مسافة هذه القذيفة تبتعد عن الهدف، فالإنسان حينما ينطلق أن الأمر بيد فلان هذا خطأ، فكلما حاول أن يصل لهدفه ابتعد عنه، لذلك ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ومن ابتغى أمر بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى.

الضلال البعيد والضلال المبين :

أنت حينما تريد شيئاً وتتوسل إليه بمعصية أو بترك واجب إنك تبتعد عن هدفك، الحقيقة يوجد ضلال بعيد وضلال مبين، قد تقرأ لوحة عرضها كعرض الطريق أن مكة من هنا، توجد لوحات على عرض الطريق عالية جداً لو أنك قرأت هذه اللوحة وسرت في طريق آخر فهذا اسمه ضلال مبين، الأمر واضح وضوح الشمس، ومع ذلك ضللت الطريق، لكن الضلال البعيد أن تتجه لغير هذا الهدف، وتبقى في الطريق مدة طويلة جداً، فإذا بك تنحرف عنه مثلاً ألف كيلو متر، هذا ضلال بعيد، فأنت حينما تنطلق في شؤون حياتك، في كسب رزقك، وتأسيس بيت، واختيار زوجة وعمل، حينما تنطلق من شرك المرأة الجميلة تسعدك ولو لم تكن ذات دين، هذا منطلق شركي بالأساس، فكلما سرت في المضي في هذا الزواج ابتعدت عن السعادة التي ترجوها، لأن النبي يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ.))

[البخاري عَنْ أبي هريرة]

لن تسعدك لا في بيتك ولا خارج البيت، حينما تختار طريقة لكسب المال أساسها المعصية هذا شرك، فكلما أوغلت في هذا الطريق ازددت فقراً:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

حينما تبني منفعة على مضرة الآخرين لا تحقق أهدافك ولو كنت أذكى الأذكياء .

التوحيد قضية الدين :

أيها الأخوة، قضية التوحيد قضية الدين، الدين كله توحيد، بل إن الأديان السماوية كلها توحيد.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

فحوى دعوة الأنبياء جمعياً أنه لا إله إلا الله، ومشكلة العالم اليوم هو الشرك، أنهم يرون أن هذه الجهة القوية إن أرضيتها فأنت في الجنة، وإن أغضبتها فأنت في النار، وهذا الأعور الدجال ناره جنة وجنته نار، إن تمتعت بحمايته فإلى جهنم وبئس المصير، وإن أغضبته فأنت إلى الجنة، جنته نار وناره جنة، هذه مشكلة المسلمين من كل مستوياتهم قاعدة وقمة، حينما لا ترى الله ترى عبد الله، حينما ترى القوي وتظن أن كل راحتك بإرضائه ولو على حساب دينك فهذا أقبح أنواع الشرك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

ابتعد عن الحقيقة بعد الأرض عن السماء.

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً)

كان العرب في الجاهلية يتخذون أصنام الآلهة ولها أسماء بصيغة الأنثى:

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً)

من أشد أنواع العقاب الإلهي للإنسان أن يلعنه ويبعده عن حضرته ورحمته :

هذا الشيطان عتا عن أمر ربه وعصاه كبراً، وفرق كبير بين أن يعصي الإنسان ربه غلبة وبين أن يعصيه كبراً، الذي يعصيه غلبة يرجى له التوبة، أما الذي يعصيه كبراً هذا على درب الشيطان المريد الذي عتا عن أمر ربه، لعنه الله وأبعده، ومن أشد أنواع العقاب الإلهي للإنسان أن يلعنه ويبعده عن حضرته ورحمته وتوفيقه وعن مودته.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

لعنه الله وقال:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

وقال تعالى:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

وفي آية أخرى:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

مادام العبد غارقاً في المعصية فالشيطان مستريح منه ويريحه، أما إذا أراد هذا العبد أن يسلك طريق الله عز وجل يأتيه الشيطان ليوسوس له:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

حينما يتوب الإنسان لله عز وجل يبدأ فعل الشيطان بالوسوسة :

الشاب الغارق في المعاصي والآثام يتوهم أنه مرتاح لأنه يفعل كما يتمنى الشيطان، لا داعي لإزعاجه، أما حينما يتوب لله عز وجل يبدأ فعل الشيطان بالوسوسة.

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

أحد ضلالات الشيطان أن يزين له العصرنة والتقدم والعلم وعصر الفضائيات والمعلوماتية والكمبيوتر والحرية والتفلت، لا يوجد قيود، يقول لك: هذه الأديان الإنسان اخترعها حينما كان يخاف من الطبيعة وعندما سيطر عليها فلا داعي لها.

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

التراث قد يكون وثني، تراث! الخلفية تاريخية أيضاً، حينما تعتز بتراث وثني هذا من الضلال.

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

يأتيه من باب الدين لم تصح صلاتك يدخله في الوسوسة في عباداته، قد يتعبه لدرجة غير معقولة إما في وضوئه أو في صلاته، يقول له: في الفاتحة أربع عشرة واحدة أنقصت واحدة فصلاتك مرفوضة!

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

الله عز وجل لا يغفر لك، يذكره بذنب قديم وبتقصير قديم يحجبه عن الله عز وجل.

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف: 16]

وهي الآثام.

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 17]

البيت الذي تؤدى فيه الصلاة وتقام فيه أوامر الله عز وجل بيت مرزوق :

قال تعالى:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

سأدخل في طعامهم وشرابهم، وأدخل في تجارتهم، وأوسوس لهم كسباً محرماً، لذلك إذا دخل الرجل لبيته ولم يسلم قال الشيطان لإخوانه: أدركتم المبيت في هذا البيت، في البيت خصومات ونزاعات وتسليم من قبل الزوج، فإذا جلس إلى الطعام ولم يسمي، قال الشيطان لأخوانه: أدركتم العشاء، طعام لا يكفي فإذا دخل ولم يسلم وجلس إلى الطعام ولم يسمي، قال الشيطان لأخوانه: أدركتم المبيت والعشاء في هذا البيت:

((..إذا لم يسلم أحدكم إذا دخل ولم يذكر اسم الله على طعامه قال الشيطان لأصحابه: أدركتم المبيت والعشاء.))

[مسلم عن جابر بن عبد الله]

ففي بيوت فيها شياطين وخصومات ومتاعب ومشاجرات وكيد وتباغض، بيت فيه شيطان، أما إذا أقيمت الصلاة في البيت فدخل الزوج وسلم على أهله، ودخلت الزوجة وسلمت على أولادها، كان هذا البيت محفوفاً بالرحمة، يقول الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه: 132]

استنبط العلماء أن البيت الذي تؤدى فيه الصلاة وتقام فيه أوامر الله عز وجل بيت مرزوق.

الأماني بضاعة الحمقى وهي من الأخطاء المدمرة في الدنيا :

قال تعالى:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً* وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

عن طريق التوحيد يضلهم بالشرك، فلان مصيرك بيده أرضه ولو نفاقاً تفوز بالدنيا.

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

يعيشون في الأماني، والأماني بضاعة الحمقى، يتصور بيت معين، أو قصر معين، أو مركبة معينة تجارة واسعة جداً، يعيش في الأماني، والأماني في الدنيا من الأخطاء المدمرة، يكون قد نسجت أكفانه وهو لا يدري، قد يعمل عملاً ليرتاح لعشرين سنة قادمة.

والله ذكر لي أخ مشاريعه لعشرين سنة سأذهب وسأسافر وسآتي بثروة وسأعود وسأحال على المعاش وسأنشئ مركز تجاري ويكبر أولادي ويديرون هذا المحل، لكن قرأت نعوته في اليوم نفسه والله**!!!**

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ)

هذه الآية إن شاء الله في درس قادم نقف عندها وقفة متأنية في محاولة لتغير خلق الله وأكثر ما تعاني منه البشرية اليوم تغيير خلق الله، أوضح مثل: نسهر طوال الليل وننام لساعة متأخرة، هذا من تغيير خلق الله، نظام الحياة على خلاف ما صممها الله عز وجل، لهذا الموضوع صلة في درس قادم إن شاء الله، تغير خلق الله حتى في طعامنا وشرابنا، وفي أنماط حياتنا، وفي كسب أموالنا، وفي اللحوم الذي نأكلها في تغيير لخلق الله عز وجل.

تغيير خلق الله هو تغيير في أصل التصميم الإلهي :

قال تعالى:

(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً*يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً*أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً)

لهذه الآيات إن شاء الله في الدرس القادم وقفة متأنية لأن هناك تفاصيل مدمرة في حياتنا سببها هذا الإنسان المتأله الذي يريد أن يغير خلق الله، وآخر صرعات هذا التغيير الاستنساخ**!**

صمم الله الإنسان من ذكر وأنثى، أرادوه من دون ذكر أو من دون أنثى، هذا تغيير لخلق الله عز وجل، صمم الله البقر لتأكل حشيشاً نباتاً، فلما أطعموها طحين اللحم جنت**!** وما جنون البقر إلا من جنون البشر، هذه البلاد التي أطعمت البقر طحين اللحم اضطرت إلى أن تحرق ثلاث عشرة مليون بقرة، ثمنها ثلاثة وثلاثين مليار جنيه**!** لأنها أطعمتها طحين اللحم وهي مصممة أن تأكل النبات، والآن هذه الأمراض المستشرية وارتفاع نسب الأورام الخبيثة إلى عشرة أضعاف سببها تغيير خلق الله عز وجل، ولو دققنا في طبيعة حياتنا لوجدنا خطأ في العصر لا عند الأفراد، الجو ملوث، والماء ملوث، والعلاقات ملوثة، والأسرة متفككة، والأولاد متفرقون، والحياة معقدة وصعبة وشاقة، وضغوط اجتماعية لا يعلمها إلا الله، هذا من تغير خلق الله عز وجل:

((لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.))

[البخاري عن أبي هريرة]

يلهث الناس وراء صرعات الغرب ولو دمروا حياتهم، الفتاة فسدت، والشاب فسد، العلم أصبح نفعياً فقط لا يوجد علم للعلم، العلم نفعي وهكذا إلى أن حصد الناس نتيجة أعمالهم شقاء على مستوى الفرد والمجتمع، هذا من تغير خلق الله عز وجل، نظام الأسرة فسد، اخترعوا أسرة أساسها

رجلين أو امرأتين في مؤتمرات السكان، أرادوا أن يكون الإجهاض آمناً مباحاً مسموحاً به حتى في المستشفيات كي تتفلت الفتاة كما تريد، أرادوا أن يكون عقد الزواج عقداً بين شخصين لا بين ذكر وأنثى في مؤتمرات السكان، وهذه العولمة التي يتحدثون عنها، يريدون أن يعمموا إباحيتهم وانحرافهم وماديتهم وشهواتهم المنحطة على العالم كله.

فيا أيها الأخوة، كلمة يغيرون خلق الله يغيرون أصل التصميم الإلهي، وهذا أكبر خطأ يعبر عنه بكلمة العولمة أي الحيونة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(53-69): تفسير الآيتان 119-120، التصميم الإلهي ووساوس التصميم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-03-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

همّ الشيطان الأول إضلال بني آدم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية التاسعة عشرة بعد المئة، وكان الذي قبلها قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

هؤلاء الذين أشركوا مع الله عز وجل إن يدعون من دونهم إلا إناث، الملائكة عند العرب إناث، والأصنام التي تعبد من دون الله لها أسماء إناث؛ اللات والعزى.

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً)

والشيطان هو الذي ابتعد عن الله عز وجل ولعنه الله عز وجل وقال:

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

الحقيقة كلمة مريد أمرد ناعم الملمس، لا تستطيع أن تأخذه من جهة، والشيطان همه الأول إضلال بني آدم، يأتي الإنسان بما يرضيه.

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

[سورة الأعراف: 21]

أساليب الشيطان المتنوعة في إضلال الإنسان :

هذا الشيطان أراد أن يقعد لبني آدم طريقهم المستقيم.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

ما دام الإنسان غارق في المعاصي والآثام الشيطان بعيد عنه لأنه يحقق الهدف على أتم وجه، أما حين يزمع هذا الشاب أن يتوب لله عز وجل ويسلك طريق الحق يأتيه الشيطان ليوسوس له:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

[سورة الأعراف: 16]

وبيّن الله عز وجل في آيات أخرى أساليب الشيطان المتنوعة في إضلال الإنسان.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

أحدثهم عن التقدم، وعن عصر العلم والحرية، كلها قيم اخترعها الشيطان كي يضل بها الإنسان عن منهج ربه، وتستمع أحياناً من الناس كلاماً عجيباً، المعصية الصريحة الصارخة هذه تلبس عندهم ثوباً رائعاً، الاختلاط يسبب تهذيب للنفوس، ويخفف من جموح الشباب وما شاكل ذلك، والمرأة نصف المجتمع، وهي إنسانة ينبغي أن تشعر بحريتها، وينبغي أن تعبر عن ملكاتها، وجمالها من ملكاتها، فلا بد من أن تظهر مفاتنها تأكيداً لشخصيتها، الشيطان يطرح فكر مناقض لقيم الدين بشكل مزخرف ومقبول، لذلك قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

[سورة الأنعام: 112]

وهذا القول نسمعه كثيراً، نستمع عن حرب إنسانية أو تنموية، كله كذب بكذب، الحرب حرب، والحرب دمار وعدوان، فالشيطان يأتي بقيم من اختراعه يطرحها بين الناس تناقض قيم الدين.

كلما ارتقى الإنسان يحكمه البيان وكلما انحط يحكمه الواقع :

قال تعالى:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

أزين لهم التقدم وعصر العلم والحرية والديمقراطية وكن واقعياً! وكأن الواقعية إله يعبد من دون الله، معنى واقعي ليحكمك الواقع، وخير إجابة عن هذا أنني ضربت مثلاً أن إدارة المرور مثلاً لو وضعت لافتة في بلدة عدرا أن الطريق لحمص ليست سالكة بسبب تراكم الثلوج، فإذا ركبت مركبة وتوجهت إلى حمص ماذا تفعل؟ تعود من عدرا! لو أن دابة تمشي أين تقف؟ عند الثلج في النبك، هذه الدابة يحكمها الواقع لأنها دابة، أما الإنسان يحكمه البيان لأنه إنسان، فكلما ارتقيت يحكمك البيان، وكلما سفلت يحكمك الواقع.

المدخن متى يدع التدخين؟ عند إصابته بسرطان الرئة أو بأزمة قلبية، هذا إنسان واقعي يحكمه الواقع دابة، أما الإنسان العاقل يكفي أن يقرأ موضوع عن مضار التدخين ليدع التدخين، يحكمه الواقع، بل إن العاقل يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، فحينما تتفكك الأسر، ويضيع الأولاد، وتفسد الأخلاق، وتسوء العلاقة بين الزوجين، وتنتشر المخدرات وتشيع لا تقل: والله لقد ابتعدنا عن منهج الله بعد فوات الأوان!

فالمؤمن لماذا هو مؤمن؟ آمن بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً رحيماً خبيراً عليماً وأن لهذا الخالق منهجاً حكيماً، فأنت إذا قرأت منهجه وائتمرت بأمره وانتهيت عما عنه نهى فقد حكمك البيان، إذاً أنت عاقل، ليس من الضروري أن تتعظ بعد أن تدفع الثمن باهظاً، يقال: الحياة مدرسة، أحياناً

الإنسان يجد ما يشبه القنبلة، يا ترى قنبلة أم ليست قنبلة؟ لا بد من أن يعرفها، فإذا عالجها بنفسه وانفجرت وفقد حياته في ثانية لم يبق من حياته ثانية ينتفع من هذا الدرس، أما لو استعان بخبير متفجرات فعرف الحقيقة دون أن يدفع الثمن، الإنسان إذا قرأ القرآن يعرف الحقيقة من دون أن يدفع الثمن، أما إذا تعامل مع الحياة وأكل الربا وفقد ماله كله الآن يتعظ، تطلع لغير زوجته فعاش في شقاء لا يحتمل عندئذ يتعظ، أكل المال الحرام فدمَّر ماله عندئذ يتعظ، فهذه الحقائق إما أن تأتي بياناً في وقت مبكر، وإما أن تكتشفها من المعاناة، وفي معظم الحالات لا يبقى في حياة الإنسان ما ينتفع بدروسه التي تلقاها من الحياة مباشرة.

فرق كبير بين الذي يتعلم بمنهج الله وبين الذي يتعلم بتجربته الشخصية :

لماذا نربي أولادنا؟ لو أن الإنسان لم يربِّ ابنه، الابن سوف يتربى لكن بعد فوات الأوان، بعد أن يمضي كل عمره في معصية الله، وفي الشقاء والبعد عن الله يكتشف أحقية الدين، متى اكتشفها بعد فوات الأوان.

هذا هو الفرق الدقيق بين الذي يتعلم بمنهج الله عز وجل وبين الذي يتعلم بتجربته الشخصية، المرأة التي تذل قدمها وتساق في متاهات الرذيلة وترى امرأة صالحة، زوجة محجبة، تذوب ندماً على فعلتها، إذاً هي أدركت الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.

أيها الأخوة الكرام، القضية قضية أن يحكمك البيان أو الواقع، الناس جميعاً يحكمهم الواقع ويدفعون ثمن الحقائق التي يتعلمونها باهظاً، بينما المؤمن صدق أن هذا كلام الخبير، وأن الله عليم خبير، وأن هذا المنهج لصالح الإنسان، وأن الإنسان مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، فلا بد من أن يطبق هذا المنهج.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

من بين أيديهم المستقبل والتقدم والحرية والمرأة نصف المجتمع، وينبغي أن تعبر عن ذاتها بإظهار مفاتنها كي تتزوج، هذا جمال والله يحب الجمال هكذا يقولون.

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

التراث والتاريخ وما قبل الجاهلية، والعهد الروماني والآرامي والأصنامي، نعتز بتاريخ قبل الإسلام، فيه الأصنام والبعد عن الواحد الديان.

الوساوس كلها بعد عن حقيقة الدين :

قال تعالى:

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

يأتيهم الشيطان من الدين، ييئسه من رحمة الله، يلقي فيه أن هذا الإمام الفلاني صلى الفجر أربعين عاماً بوضوء العشاء وأنت لا تستطيع أن تحيي ليلة واحدة!! ييأس! من قال لك أن هذه القصة صحيحة؟ النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق وحبيب الحق قال:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفَراً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم عَنْ أَنَس]

يلقي في روعك قصصاً لا أصل لها، أو يأتيك بأحاديث موضوعة: كل الناس هلكى إلا العالمون! ما شاء الله، قال: والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم لم يبق أحد، بركت! هذه عن أيمانهم، أو بالفاتحة يوجد أربع عشرة شدة، توجد شدة لم تأتي بها صلاة باطلة! ممكن، فيأتيه بالوسواس إما بعباداته أو بمعاملاته أو يأتيه بوسواس عجيب، يصطاد سمكة يقول له: لعل إنساناً صادها فوقعت في البحر فهي ملكه، وأنت الآن مغتصب مثلاً! هذه وسوسة، النتيجة يوجد وساوس لا تعد ولا تحصى، وقد يبقى في الحمام ساعتين ليتوضأ وهذا كله بعد عن حقيقة الدين.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 17]

دائماً الإنسان يشكو، وكأن الشكوى مركبة في دمه.

أي هذا المشتكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا

أي هذا المشتكي وما بك داء كن جميلاً ترى الوجود جميلا

* * *

الله أغفل جهتين جهة العلو وجهة الدنو لأنهما محميتان من قبل الله عز وجل :

الشيطان له مداخل كثيرة يبدأها حين يعقد الشاب توبة مع ربه شيء طبيعي جداً.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ*ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف:16- 17]

التقدم والتراث، لكن الله أغفل جهتين؛ جهة العلو وجهة الدنو، سبحان الله! هاتان الجهتان محميتان من قبل الله عز وجل، جهة العلو جهة الالتجاء إلى الله والاستعانة به والتوكل عليه والإخلاص له، والدنو جهة التواضع، فباب التواضع محمي من الله عز وجل، باب الله محمي من الله عز وجل، يوجد ست جهات يمين ويسار أمام وراء أعلى أدنى، ذكر الله الجهات الأربع.

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

لي من عبادك يا رب جزء كبير، (من)، لم يقل: لأتخذن عبادك، بل قال: من عبادك. قال تعالى:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

[سورة الحجر: 42]

خطأ الاستكبار وخطأ الغلبة :

قال تعالى:

(لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ)

هذا الكلام يخاطب به رب العزة ولم يكن إلا آدم وحواء، وكيف عرف أنه سيكون له من عباده في المستقبل نصيب مفروض؟ قال علماء التفسير: قاس على أبو البشر وأم البشر! استطاع أن يغريهم بالمعصية، فلأن يستطيع أن يغري أبنائهم من باب أولى، آدم وحواء معهم توجيه من الله مباشرة، لكن الفرق الكبير بين معصية آدم ومعصية إبليس، أن آدم عليه السلام ـ وهو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ـ يأتي بعد رسول الله في المقام:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

[سورة طه: 115]

أغراه الشيطان فصدقه، أن آدم عليه السلام عصى معصية غلبة، ومعصية غلبة ما أسرع قبول توبتها سريعة جداً، يا رب أنا عبد ضعيف سامحني، يا رب اغفر لي، الإنسان حينما يقر بما في القرآن ولا يرفضه ولا يستكبر أن يعبد الله ويخطئ، هذا الخطأ سماه العلماء خطأ غلبة، وخطأ الغلبة سريعاً ما يتوب الإنسان منه، أما إذا عصى استكباراً وتأبياً واستعلاء هذا خطأ من نوع خطأ إبليس ولا توبة لصاحبه، خطأ الاستكبار شيء وخطأ الغلبة شيء آخر.

(لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)

لذلك إذا تبع ابن آدم الشيطان هذا يذكرنا بقوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

[سورة سبأ: 20]

هو ظن ذرية آدم سيتبعونه إلا قليلاً منهم، فالذي يتعامل مع الشيطان وينصاع له يصدق عليه ظن إبليس.

معنى الضلال المبين :

قال تعالى:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

[سورة سبأ: 20]

الهدف أن تسلم وتسعد في الدنيا والآخرة، لأن الله سبحانه وتعالى خلقك لسعادة الدارين.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

ماذا يفعل الشيطان؟ يبعدك عن هذا الهدف، ويزين لك المعصية، والمال الحرام، والعلاقة الحرام، والخوض في أعراض الناس، ويزين لك كسب الأموال بالباطل، هذه المعاصي تحجبك عن الله، والحجاب عن الله عز وجل يسوق صاحبه لضلال مبين، أنت حينما تخطئ في الزاوية كلما تقدمت خطأ في الزاوية تزداد بعداً عن الهدف! لو أن إنساناً اتجه من دمشق إلى حلب بطائرة فلو أخطأ في درجة واحدة لجاء في دير الزور، في درجتين لجاء في الحسكة، فكلما تقدم خطوة ازداد بعداً، وهذا معنى الضلال المبين.

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

مهمة الشيطان أن يبعدنا عن أسباب السلامة والسعادة :

يصله عن طريق سعادته وسلامته، الإنسان كائن من كان يتمنى لنفسه السلامة والسعادة، بل إنك لو شققت على صدر أي إنسان على وجه الأرض من كل المِلل والنحل والمذاهب والأديان والأجناس والأعمار ما منا واحد إلا ويتمنى السلامة والسعادة، هذا الهدف مركب في أصل تكوينه، مهمة الشيطان أن يبعدك عن طريق سعادتك ويبعدك عن طريق سلامتك، فلذلك تأتي المصائب بسبب الذنوب.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

مهمة الشيطان أن يبعدك عن أسباب سلامتك وسعادتك.

أيها الأخوة الكرام، كل ما يجري في الأرض وكل ما تسمعونه أو ترونه إنما هو من انحراف الإنسان عن ربه وحينما ينحرف الإنسان عن ربه يدفع ثمن انحرافه باهظاً لذلك:

((عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ

السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ]

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)

مهمة الشيطان الأولى أن يضلك عن هدفك الكبير، وعن سلامتك وسعادتك فتشقى، لذلك إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها.

الغفلة والأمل أخطر شيئين على إيمان الإنسان :

قال تعالى:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

تجد يعيش الإنسان في أماني، والحقيقة أن الغفلة والأمل أخطر شيئين على إيمان الإنسان**!** يعيش في آمال تحتاج لعشرات السنين ويكون أجله قد جاء، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي فيما أذكر أن إنساناً حدثني عن مشاريعه لعشرين عام قادمة وقرأت نعوته في اليوم نفسه**!** فهذا الذي وضع فوق رأسه قدرة عسل وقال: غداً أبيع العسل وأشتري بها رؤوس الغنم وأصبح راعياً والغنم يتوالد، وأصبح غنياً وأتزوج امرأة تروق لي وأشتري بيتاً وأنجب منها ولداً وأربي هذا الولد، فإذا ضربته فانكسرت القدرة فسال العسل فوقه، فانتهى الأمر**!!**

(وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

ضربت مثلاً آخر لعله طريف؛ أن دابة واقفة في أيام الحر الشديدة ولها ظل، جلس واحد في ظلها قام ليشرب فجلس مكانه واحد، فتلاسنا هذا مكاني لا مكانك، ثم تماسكا، ثم تضاربا، ثم سارت الدابة انتهى الأمر**!!** فقد تجد حروباً وخصومات ومنازعات، والموت يحصد الطرفين، وكل واحد يحاسَب عن عمله في أدق الموازيين.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

لذلك أيها الأخوة: لو كنا ضعافاً ومغلوب على أمرنا ولو مظلومين، أما إذا لم نكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إضلال المسلمين أو إفسادهم أو إفقارهم أو إذلالهم فأنت من السعداء، لو عانيت في حياتك الدنيا مشكلات لا تعد ولا تحصى، يكفي عند الله أن تكون بريئاً، لأن قتل الشعوب قضية سهلة جداً:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

نريد أن نحرك الأسواق فنهدم هذا البلد الإسلامي كي نعيد إعماره بمناقصات، أما أن يموت مليون مئة إنسان، ويهجّر أربع ملايين مشكلة بسيطة جداً. فإن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين وإضلالهم وإفسادهم وإذلالهم فأنت من الموفقين ولو كنت مغلوب على أمرك ومظلوماً وضعيفاً لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

التوبة النصوح والدعاء اللحوح هذا الذي يملكه المسلمون اليوم :

أيها الأخوة الكرام: بالمناسبة لم يبق في أيدينا شيء إلا شيئان يملكهما كل واحد منكم؛ التوبة النصوح والدعاء اللحوح، تب وادعُ، هذا الذي يملكه المسلمون اليوم، لأن الذي حل بهم كما قال الله عز وجل:

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

[سورة النجم: 58]

حل أرضي لا يوجد، ما نحن فيه، حالتنا، ليس لها من دون الله كاشفة!

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ)

يعبدون الأصنام، ولا بد من الأنعام تخصص للأصنام، يقطعون آذانها لأنها قربة للأصنام.

(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً)

الفساد في الأرض سببه تغيير خلق الله عز وجل :

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل متحدثاً عن الشيطان:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

الله عز وجل خلق الذكر والأنثى مصممين ليكونا زوجين لا ليكونا عشيقين، خلق المرأة لتكون أماً وليست عاهرة، خلق الطفل ليكون ابناً باراً وليس منحرفاً، فالله عز وجل كل شيء خلقه لهدف كبير، فالكافر يصرف هذا الهدف لهدف آخر، فتفسد البنت، طبعاً وسائل الشيطان في إخراج الفتاة عن عفتها وحيائها وشرفها وأصل تصميمها، وفي إخراج الطفل عن عفته وأصل تصميمه، هو ابن بار، خلق الله الأنثى لتكون زوجة وليست ألعوبة بيد الرجل، وخلق هذه الشهوة في الرجل ليكون أباً رحيماً لا ليكون عابساً ولاهياً، هذا معنى واسع جداً، خلق الله الليل كي ننام لا كي نسهر إلى ساعة متأخرة منه، خلق النهار كي نعمل به، وخلق الأنعام كي ننتفع بها ونطعمها وفق ما صممت من أجله، فلما أطعمنا البقر طحين اللحم جن البقر، وكما قلت في الدرس الماضي وما جنون البقر إلا بسبب جنون البشر! حينما أبحنا العلاقة بين الذكر والأنثى كان مرض الإيدز! هذا المرض الذي يزيد مصابوه عن خمسين مليون في العالم، وينمو في متوالية انفجارية، وهو المشكلة الأولى في العالم، فتغيير خلق الله أي البعد عن التصميم الإلهي.

المال هذه الكتلة النقدية خلقها الله عز وجل كي تكون متداولة بين جميع الناس، فأبى الشيطان عن طريق الربا أن يجعلها في أيد قليلة ويحرم منها الكثرة الكثيرة، وهذه مشكلة الأرض الأولى، عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثروات العالم وتسعين بالمئة من سكان الأرض يملكون عشرة بالمئة من ثروات العالم! وهذه الحروب التي ترونها لا تلتفت لكل ما يقال عنها من أجل الثروة فقط وامتلاك النفط، أخذ النفط في الخليج وفي بلاد أخرى وفي قزوين واليوم في العراق، قضية السيطرة على منابع النفط في العالم هذا كل شيء، فأصل التصميم أن يكون المال متداولاً بين كل الخلق فصار متداولاً بين قلة قليلة.

تفكك الأسرة، وانتشار الدعارة، وانتشار الجريمة بسبب الفقر، وقد يكون الفقر وراء معظم مشكلاتنا في الأرض، لأنهم أفسدوا أصل التصميم وغيروا خلق الله، جعلوا هذا المال عن طريق الربا وفي أيد قليلة وحرمت منه الكثرة الكثيرة، فحينما تغير نفسية الإنسان فتاة أو شاباً، طفلاً أو راشداً، حينما تغير أصل العلاقة بين الذكر والأنثى، تجد بحالات كثيرة أن الإنسان يفرغ ما عنده من شهوة لا عن طريق مشروع بل عن طريق غير مشروع هذا هو الفساد في الأرض، وحينما يكون أصل المال في خدمة الإنسان صار الإنسان في خدمة المال، وحينما يكون الحيوان في خدمة الإنسان صار الإنسان أحياناً في خدمة الحيوان، صار تغيير جذري في خلق الله.

على الإنسان أن يعود في نمط حياته لأصل التصميم :

حينما صمم الله الإنسان أن يكون من ذكر وأنثى، وأن يكون هناك ثلاثة وعشرين جيناً من الذكر وثلاثة وعشرين جيناً من الأنثى مجموعهم ست وأربعون، أراد الإنسان من باب التحدي والحمق أن يستنسخ إنسان لا من ذكر وأنثى بل من أحد الجنسين وحده! كيف سمح الله بذلك؟ الجواب بسيط جداً: لو أن إنساناً ادعى الآن أن بإمكانه أن يضرب عرض الطريق بنظرية الإسمنت المسلح، قال: هذه خرافة، أنا مستعد لأبني بناء شامخاً من دون حديد، هذه ثورة في عالم البناء، الحديد يكلف ألوف الملايين، فأنت بين أن تحاوره بالعلم وبين أن تسمح له أن يبني بناء وفق نظريته، الأسلوب الثاني أبلغ في الرد عليه، فلما بنى البناء وأنهاه سقطت النظرية نهائياً! قد يسمح الله للإنسان أن يغير أصل التصميم لا لأن هذا التصميم الجديد أكمل، لا، ولكن ليؤكد كمال أصل التصميم، حينما يسمح الله لإنسان متأله أراد أن يتحدى ويصمم تصميم جديد يسمح الله له ليثبت في النهاية أن أصل التصميم هو الكمال المطلق وأن أي خروج عنه نحو الأسوأ!

لذلك أيها الأخوة: ينبغي أن نعود في نمط حياتنا لأصل التصميم، ولمنهج الله عز وجل، ولشريعة خالق الأرض والسماوات، إلى القرآن الكريم هذا من عند الخبير، وأي خروج عن منهج الله عز وجل نحو الأسوأ، وهذا الخروج هو الجهل بعينه، قال سيدنا يوسف:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف:33]

فالإنسان إذا صبا لامرأة لا تحل له هو عند الله جاهل، وإذا أحب ما لا ينبغي أن يحب هو عند الله جاهل، وإذا أخذ ما لا ينبغي أن يأخذ هو عند الله جاهل.

الله عز وجل يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو القرآن الكريم :

أيها الأخوة، أصل التصميم هو هذا المنهج القويم، وأي خروج عنه نحو الأسوأ، وإذا سمح الله لإنسان متأله أن يخرج في بحوث عن أصل التصميم فهو لا يخرج إلا نحو الأسوأ وهذه حقيقة، وقبل أشهر ظهرت تسمية اسمها فرقعة إعلامية في الاستنساخ، ثم غابت الأخبار كلها، ماذا حل بهؤلاء الأطفال الذين استنسخوا؟ قضية فرقعة ليس غير. فالله عز وجل يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، والقول الثابت هو القرآن الكريم.

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً)

خسران واضح كالشمس، يعدهم بدنيا ممتعة، يعيش بالأماني، يعده إذا طلق هذه الزوجة وله منها أولاد وتزوج هذه الفتاة الجميلة التي في سن بناته يسعد سعادة لا حدود لها، فبعد أن يطلق امرأته ويتزوج هذه الفتاة تصبح حياته جحيماً لا يطاق! خسر أولاده وزوجته وسئم الحياة مع هذه الفتاة اللعوب. يعده إذا سرق يعيش مدى الحياة في بحبوحة كبيرة، بعد سبعة أيام يعدموه، يعده إذا امتلك هذه المرأة فهي النعيم المقيم، فبعد أن يمتلكها يصبح من أشقى الأشقياء.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

الغرور شيء له ظاهر وليس له مضمون، واحد يعمل في محل تجاري وعنده روح الدعابة، فكان يجمع قمامة المحل ويضعها في علبة أنيقة ويلفها بورق فخم ويضع لها شريط أحمر بعقدة ويضعها على الرصيف، يأتي إنسان ينظر شيء ثمين جداً يتوقعه قطعة ذهب أو ألماس، لفت لف هدية رائعة، يأخذها ويسرع، يتبعه بعد أن يقطع مئة متر يفك الشريط الأحمر، وبعد مئة متر أخرى يفك الورق، وبعد مئة متر ثالثة يفتح العلبة فإذا بها قمامة المحل، فيلعن ويسب ويفعل مالا يفعله!! هكذا الدنيا تغر وتضر وتمر.

الشيطان يزين المعصية :

سمعت عن إنسان جمع عندما كان الدولار بثلاث ليرات ثمانمئة مليون من القمار، وهو على فراش الموت طلب إنسان على علم بالدين أن يلتقي به، قال: ماذا أفعل؟ فالذي لقيه هكذا قال له ـ موضوع أن قال صواب أو خطأ موضوع ثاني ـ والله لو أنفقتها كلها لا تنجو من عذاب الله.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

سائق تكسي يركب سيارته أشارت إليه امرأة وقف لها صعدت مركبته، سألها: إلى أين؟ قالت: خذني لأي مكان تريد! فعد هذه غنيمة ما بعدها غنيمة، وبعد أن قضى حاجته منها أعطته ظرفين في الأول خمسة آلاف دولار! وفي الثاني رسالة من سطر واحد مرحباً بك في نادي الإيدز!!! ذهب ليصرف الدولارات فإذا هي مزورة فأودع في السجن.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

الشيطان يزين المعصية، مرة أناس سرقوا في إحدى أقبية دمشق من بائع ذهب ثلاثة عشر كيلو ذهباً، هم خمسة، فيما أذكر في أقل من عشرة أيام أعدموا في مكان السرقة جميعاً! هم حينما أقدموا على السرقة بماذا فكروا؟ فكروا بثروة عريضة جداً، وبحياة وبحبوحة ومركبات ونساء جميلات، فكان الإعدام مصيرهم.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

لذلك الإنسان في نهاية حياته بعد أن يمضيها في معصية الله يأتيه عذاب ينسيه كل متع الدنيا، المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويرى مكانه، مقامه في الجنة، يقول دون أن يشعر: لم أرَ شراً قط، وحينما يمضي الإنسان حياته في معصية الله ويرى مكانه في النار، يقول: لم أر خيراً قط، فالبطولة أن تضحك أخيراً، أناس كثيرون يضحكون أولاً، يسيطرون على بلد ويأخذون النفط وثرواتها، ويعدون أنفسهم منتصرين، يضحكون أولاً وسيبكون كثيراً، عن هؤلاء الذين قصفوهم باليورانيوم المخضب لستة مليارات سنة لا ينقطع تأثير هذا اليورانيوم! هذا بحث علمي! وقد قصفت به بعض البلاد الإسلامية، يده صغيرة بسبب تشوه في الخلق واضطراب في الأجهزة، سيحاسب:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير]

الله عز وجل سيسأل كل إنسان عن عمله يوم القيامة :

من أجل النفط والثروة والعلو في الأرض، لذلك أيها الأخوة: ذكرت هذا في مرة سابقة وأعيدها: قد يقودك عقلك وذكاؤك وتحصيلك وعلمك ومخترعاتك ومنجزاتك لأن تكون قوياً فتخضع كل من حولك، وتأخذ أموالهم، وتستحي نسائهم، وتذلهم، أنت إذاً أذكى إنسان، هذا إن لم يكن هناك آخرة، قد تكون قوياً فتستخدم قوتك لتبني مجدك على أنقاض الآخرين، وتبني حياتك على موتهم، وغناك على فقرهم، وأمنك على خوفهم، وعزتك على إذلالهم أنت أذكى إنسان بشرط واحد ألا يكون هناك آخرة، فإذا كان هناك آخرة أنت أغبى إنسان على وجه الأرض! لأن الله عز وجل يقول:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة الحجر:92]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

و:

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر]

إذا مات من عندهم إنسان ديته خمسمئة مليون ليرة سورية، أما يموت من المسلمين ملايين والدية صفر لا شيء أبداً، هذا كله سيحاسبون عنه، نحن الآن نملك الدعاء فقط، لا نملك شيئاً إلا الدعاء والتوبة فقط، فتوبوا إلى الله وادعوا لإخوانكم في شتى أقطار المسلمين أن يحفظهم الله عز وجل.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(54-69): تفسير الآيتان121-122 ، حكمة الله المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-03-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

جهنم هي جزاء ومصير أبدي لهذا الذي والى الشيطان في الدنيا :

أيها الأخوة الكرام؛ مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً)

بعد أن قال الله عز وجل متحدثاً عن إبليس حينما قال:

(لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً*وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً*يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)

سراباً بسراب، أولئك الذين اتبعوا الشيطان وأفتنوا بوساوسه:

(أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً)

كانت جزاء ومصيراً، أحياناً الإنسان يجازى لكن لا يبقى في الجزاء دفع غرامة، يسجن شهر شهرين، سنة سنتين ثم يخرج، أما جهنم هي جزاء ومصير أبدي، لهذا الذي والى الشيطان في الدنيا.

النصر الواقعي والنصر المبدئي :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً)

أيها الأخوة، يجب أن نوقن أن هؤلاء البشر على اختلاف مللهم ونِحَلِهم وأديانهم وأجناسهم وأعراقهم ومذاهبهم هم في النهاية إما إلى جنة يدوم نعيمها أو نار لا ينفذ عذابها، كانوا في الدنيا إما أن يعرف الإنسان ربه وينضبط بمنهجه ويحسن لخلقه فيسعد في الدنيا والآخرة، وإما أن يغفل عن الله ويتفلت من منهج الله ويسيء لخلقه، فيشقى في الدنيا والآخرة.

القضية واضحة وضوح الشمس، المؤمن غر كريم والكافر غب لئيم، المؤمن بين أن يستقيم ويحسن فيسعد في الدنيا والآخرة، والكافر يتفلت ويسيء فيشقى في الدنيا والآخرة، فالبطولة من يضحك آخراً.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين: 34]

هذا ينقلنا الآن ما يسمى بالنصر الواقعي والنصر المبدئي، إنسان مسلم يوجد ظروف معقدة جداً ما سمحت له أن ينتصر لكنه مؤمن وعقيدته سليمة وملتزم ومطبق لكلام الله وسنة رسول الله يسعى في فعل الخيرات ما استطاع، هذا إنسان لو لم ينتصر على أرض المعركة هذا انتصر مبدأه ومات مؤمناً فاستحق الجنة، إنسان آخر حقق نصراً مؤزراً واحتل مساحات شاسعة، وكانت كلماته هي الغالبة، لكن لم يكن مطيعاً لله فهو المنهزم عند الله.

الأمر بيد الله وحده :

أرأيتم إلى أصحاب الأخدود بمقياس الأرض لم ينتصروا، بل إن ملكهم أحرقهم والله سبحانه وتعالى أثنى عليهم، قد يأتي على المسلمين وقت صعب جداً جداً، القوة ليست بيده وهذا امتحان صعب، فالقوة ليست بيده بل بيد أعدائه.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما التقى بعدي بن حاتم قال له كلمات سبحان الله تنطبق علينا جميعاً، قال له: يا عدي لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، من فقرهم، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ويا عدي لعله ما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ـ القوة ليست بيد المسلمين بل بيد الكافرين ـ وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة لهم، و يا عدي لعله ما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، والله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، وعاش عدي ورأى كل هذه البشائر التي بشر بها النبي عليه الصلاة والسلام.

المشكلة الآن لا أستطيع أن أنسلخ من الأحداث التي تجري حولك أن الله موجود، وأنه في السماء إله وفي الأرض إله، وأن الأمر والنصر والقوة بيده، وأن المصير إليه، وأنه هو الذي ينصر، وهو الذي لا ينصر إلا لحكمة بالغة جداً، مادام الأمر بيد الله.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً)

[سورة الكهف: 26]

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،

وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[سنن الترمذي عَن ابْن عَبَّاس]

الله عز وجل وضع بين أيدينا قصصاً في القرآن عن معاني التوحيد :

نحن الآن أيها الأخوة، في أمس الحاجة إلى معاني التوحيد، وإلى أن نخاف من الله لا من الطغاة.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ*فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 173-175]

هذا فيصل إما أن تخاف من الواحد الديان خالق الأكوان، وإما أن تخاف من طاغية جبار. أيها الأخوة، الله عز وجل وضع بين أيدينا قصص في القرآن أصحاب موسى شرذمة قليلون، هائمون على وجوههم، من عدوهم؟ فرعون! وما أدراكم ما فرعون بطغيانه وأسلحته، بجنوده، بحقده، بظلمه، ببطشه، وبغطرسته، بحسب مقاييس الأرض فرعون وراء شرذمة قليلون، يوجد فرق كبير جداً كما هو الآن تماماً ولعله أشد، وإذا بأصحاب موسى يصلون إلى البحر، فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم، والله بحسب القوانين والمعطيات ليس أمامهم إلا القتل واحداً واحداً، فالقرآن يقول:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

الله عز وجل أوحى لموسى أن اضرب بعصاك البحر فإذا هو طريق مشوا فيه، اتبعهم فرعون، فلما خرجوا من البحر دخل هو في البحر وعاد الطريق اليبس ماء كما كان فأغرق فرعون! هذه القصة لمن؟ هذا الذي يقول لك: يستحيل أن تنهزم هذه القوة الطاغية، هذه القصة لمن؟ هذه قصة في القرآن الكريم.

الدعاء سلاح المؤمن :

قصة أخرى: إنسان وجد نفسه فجأة في بطن حوت، احتمال النجاة كم؟ صفر، لا أمل، لقمة صغيرة في فم حوت وزنه مئة وخمسون طناً، وجبته الخفيفة شطيرة أربعة طن، الإنسان كله مئة كيلو! وجد نفسه في بطن حوت في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت! فالله عز وجل قال:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 87-88]

القصة انتهت وانقلبت لقانون، وقال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 88]

هذه القصة في القرآن، لا يمكن أن تكون مشكلة كمشكلة سيدنا يونس وانحلت بدعاء، والآن والله الذي لا إله إلا هو ما نملك إلا توبة نصوح ودعاء لحوح، لأن الله يحب الملحين في الدعاء، تسمعون الله عز وجل أرسل رسائل فبعث لنا رسالة العاصفة الرملية، أليست هذه عاصفة عطلت آلياتهم وعطلت القصف، بعث رسالة ثانية رصاصة صغيرة من بندقية قديمة تنزل طائرة بخمس ملايين دولار! أحدث طائرة هليكوبتر في العالم، ما هذه الرصاصة؟ هذه رسائل!! قصص كثيرة، الله ألقى في قلوبهم الرعب مع أنهم أقوى دولة في العالم، الدعاء سلاح المؤمن، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب لا ترد، ادعُ لإخوانكم في العراق أن ينصرهم الله عز وجل.

إذا سألنا الله النصر نسأله نصراً تفضلياً ولا نجرؤ أن نسأله نصراً استحقاقياً :

أيها الأخوة، هذه القصص بين أيدينا، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق ومعه نخبة البشر، إن الله اختارني واختار لي أصحابي.

لم ينتصر في أحد لماذا؟ لأن أصحابه عصوا أمراً لا تشريعياً بل عصوا أمراً تنظيمياً، أنت معك أمر بعدم شرب الخمر هذا تشريعي، عندك أمر بأداء الصلوات هذا تشريعي، أمر بالصدق أمر تشريعي، ويوجد لوحة لا تقترب من هذا المكيف، لا تستند عليه، هذا ما اسمه؟ أمر تنظيمي، أصحابه عصوا في أحد أمراً تنظيمياً فلم ينتصروا، لو انتصروا لسقطت طاعة رسول الله، أبسط مثل: لو أعطيت الطلاب وظيفة وفي اليوم التالي لم تشاهدها فكان سواء الذي كتبها والذي لم يكتب، لا أحد يكتب بعد ذلك!

لو أن الله نصرهم على معصيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لسقطت طاعة رسول الله، في حنين لم يعصوا ولكن أشركوا قالوا: لن نغلب من قلة، هذا شرك خفي، وفيهم رسول الله وأصحاب النبي فلم ينتصروا، لو أنهم انتصروا لسقط التوحيد، فإذا كان سيد الخلق وحبيب الحق ومعه نخبة الخلق لم ينتصروا في أحد لسبب سلوكي، ولم ينتصروا في حنين لسبب توحيدي فانهزموا، فإذا كان المسلمين عندهم ألف معصية سلوكية وألف شبهة توحيدية، أنّى لهم أن ينتصروا؟؟

نحن إذا سألنا الله النصر نسأله نصراً تفضلياً ولا نجرؤ أن نسأله نصراً استحقاقياً.

فيا أيها الأخوة، الآن نحن في محنة عظيمة وقد أقول كلاماً والله أعني ما أقول: حينما ينتصر هؤلاء الطغاة لا يسمح لأولادكم أن يقرؤوا كل القرآن! أبداً كل آيات الجهاد ممنوع أن تتلى لا في الإذاعة ولا في المدارس ولا في الكتب، والله وقد وقع هذا، يجب أن توزع الخطبة على الخطباء من السفارة لو أنهم انتصروا، القضية ليست انتصاراً عسكرياً بل انتصاراً ثقافياً، لذلك في هذه الأيام نحن في أمس الحاجة أن نسأل الله أن ينصرهم.

نور الدين الشهيد وهو يواجه التتار سجد وقال: يا رب من هو الكلب نور الدين حتى تنصره؟ انصر دينك، الآن الدين في محنة، والحرب حرب إبادة للمسلمين، ألقوا اليورانيوم المخضب وهذا تبقى آثاره ستة مليارات سنة، فالقضية خطيرة جداً، نحن يجب أن نوحد صفوفنا ونلغي خلافاتنا ونتعاون ويضحي بعضنا من أجل بعض، ويحب بعضنا بعضاً، ونقيم أمر الله في بيوتنا، ونلغي كل مخالفة في حياتنا، في أعمالنا وكسب أموالنا.

هذا الدين لو حذفنا منه نضعف ولو زدنا عليه نتمزق :

الشيء خطير جداً أيها الأخوة: هؤلاء سوف ينتقلون من بلد لبلد، بدؤوا بالعراق بلد بَلد، والنتائج خطيرة جداً، أقول هذا من أعماقي وأنا متألم ألماً لا حدود له: لا بد لنا من أن نصحو من غفلتنا، هذا الإسلام الشعائري، لا نأبه بالتعاملات، لسنا جادين بتطبيق منهج الله الكامل، أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الضربة المؤلمة جداً باعثاً لنا على تجديد إيماننا وتجديد عهدنا مع الله، وعن إذابة كل الخلافات فيما بين المسلمين.

أيها الأخوة الكرام، الأمر خطير جداً لأنه قضية حياة أو موت، دين أو محق هذا الدين، مئات المعاهد أغلقت في بعض البلاد في شرق آسيا، معاهد دينية، التدخل حتى في المناهج، في الكتب والجوامع، وفي أدق خصوصياتنا، التدخل في قانون الأحوال الشخصية، الزواج يجب أن يكون عقد بين شخصين لا بين ذكر وأنثى، مقبول عندهم بين أنثى وأنثى أو ذكر وذكر، وذكر وأنثى، حتى في أشد الأمور خصوصية سوف يتدخلون.

كيف تسمعون عن تيمورلنك وهولاكو والتتار نفس البلاء، لا في قيم ولا مبادئ ولا منطق ولا شيء!

ثور هائج مصاب بجنون البقر وقوي جداً ولا يرى بعينيه.

فيا أيها الأخوة، أسأل الله لي ولكم التوبة، التوبة النصوح، وأن ندعو لأخوتنا في العراق جميعاً أن ينصرهم ويحفظهم ويرد كيد الأعداء عنهم.

لو سألت ما السبب؟ يوجد تقصير وفريضة معطلة من أربعمئة عام في الإسلام تعطيل كامل! هذا الدين لو حذفنا منه نضعف، ولو زدنا عليه نتمزق، بالبدع نتمزق وبالحذف نضعف، هذا الدين ينبغي أن يبقى كما كان عليه أصحاب رسول الله، بالحذف نضعف، حذفنا فريضة الجهاد، انظر لما

آل إليه حال المسلمين لا يستطيعون التكلم بكلمة، تسلب ثرواتهم، كم نظام قمعي بآسيا وأمريكا اللاتينية لم يقتربوا، لكن هنا يوجد نفط، القضية قضية ثروة وقضية سيطرة على النفط واضحة كالشمس، تسلب ثرواتهم، تنتهك أعراضهم في البوسنة والهرسك، تقتلع أشجارهم، تهدم بيوتهم، يقتل أطفالهم، تسبى نسائهم، وباسم الإنسانية وإحلال السلام ونقل الحضارة الحية وهذا شيء يزيدنا غيظاً، باسم السلام نقصفهم بقنابل عنقودية، والقنابل الماسحة الماحقة، كيلو متر لا تبقي فيه شيئاً، عندهم قنابل والعياذ بالله شيء مخيف باسم الإسلام نقصفهم من المتوسط، الآن القنابل تنهال على بعض الأماكن من المتوسط! هناك طائرة (ب52) هذه صنعت عام (1962) صالحة لعام (2040)، لا يستطيع مطار في الأرض أن يتحملها، تنطلق من بلادها وتطير خمسة وثلاثين ساعة بلا توقف تقصف وتعود، وقنبلتها بالأطنان، يمكن أن تسير ثمانمئة كيلو متر بالأقمار الصناعية، آتاهم الله قوة ما بعدها قوة.

قصة هلاك عاد الذين تفوقوا في كل شيء :

حينما ذكر الله عاداً ما ذكر قوماً أهلكهم إلا ذكر أنه أهلك من هو أشد منهم قوة! إلا عاد قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

[سورة فصلت: 15]

ما كان فوقهم إلا الله، وعاد الثانية لا يوجد فوقها إلا الله عز وجل تفوقت في شتى الميادين، لم يخلق مثلها في البلاد، غطرسة ما بعدها غطرسة، من أشد منا قوة؟ تفوق عمراني مذهل.

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

[سورة الشعراء: 128-129]

تفوق صناعي وعسكري:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء:130]

تفوق علمي، وكانوا مستبصرين، ماذا فعلوا؟ طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، طغوا بأسلحتهم وأفسدوا بأفلامهم.

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر:13-14]

(فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

[سورة الحاقة: 6-7]

هذه عاد الأولى، والله عز وجل قال: أنه أهلك عاد الأولى، يعني وجود عاد ثانية، هذه الثانية! فالأمر واضح في القرآن الكريم.

الله عز وجل لا يقبل أن ننتمي لهذا الدين انتماء شكلياً :

فرعون وما أدراكم ما فرعون! آتاه الله مالاً وزينة في الحياة الدنيا، سيدنا موسى قال:

(رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

[سورة يونس: 88]

فنحن في محنة كبيرة جداً، لا يكفي أن نستمع للأخبار، اعمل شيء للمسلمين، لا يوجد إنسان إلا يستطيع أن يفعل شيئاً للمسلمين، فهذه الدنيا دار بلاء، وشاءت حكمة الله أن تكون الحرب معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، من آدم ليوم القيامة! والآن صار الباطل واضحاً جداً وجريئاً ووقحاً ومكشوفاً لا يوجد أقنعة، كان يوجد أقنعة أما الآن لا يوجد! نريد أن نحتل بلادك ونقتل المدنيين والآمنين والأطفال ونأخذ الثروة ونبقيك مستهلكاً فقط، فلذلك أقول كلام لعله قاسي لكن هذه الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح: إذا الإنسان لم يعمل ثورة ببيته، بحياته، بعقيدته، بسلوكه، بتربية أولاده، بعلاقته مع زوجته، بكثرة ماله، بإنفاق ماله، بعلاقته مع المؤمنين ومع المسجد، إذا ما بدل علاقاته تبديلاً جذرياً لا ننجو من عذاب الله، الله عز وجل لا يقبل أن ننتمي لهذا الدين انتماء شكلياً، وهذا الذي حدث في الحقيقة فيه إيجابيات لأنه وقع، ولا يقع شيء إلا إذا أراده الله أن يقع، فمن بديهيات العقيدة لا يمكن أن يقع شيء إلا وسمح الله به، فمادام سمح الله به فيوجد حكمة ما بعدها حكمة، ندركها أو لا ندركها، ما هي الإيجابيات من الذي وقع؟ والله يوجد إيجابيات كثيرة جداً لخصتها في ثلاث إيجابيات، أول إيجابية وأكبر إيجابية واضخم إيجابية هو أن الغرب سقط، بقي قوة غاشمة، أما كحاضرة تنافس الدين سقط، كقيم أو كمصداقية، كحقوق إنسان، كإشاعة السلام، كديمقراطية سقط، كل هذه الأقنعة سقطت، رأيتم كيف أنهم وحوش، فأكبر نصر للدين أن الذي كان يخطف أبصار الناس إليه وينافس الدين وجعل الناس يتطلعون لبلادهم ودخول بلادهم والإقامة عندهم، هذا الغرب سقط في الوحل، هذا أكبر نصر!

أربع إيجابيات تبين أنه لا يمكن أن يقع شيء إلا وسمح الله به :

قال تعالى:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

أعانونا على أن نكفر بهم، الحمد لله، كان قلة قليلة من المثقفين يعرفون الحقيقة، الآن كل العالم الإسلامي حتى الأطفال يعرفون الحقيقة، هذا نصر كبير لكن لم نعرف قيمته الآن، الآن لم يبق في الساحة إلا الله! كان يوجد فكر شرقي تهاوى كبيت العنكبوت، والآن الفكر الغربي تهاوى وبقي بيت كبير قوي، لكن الفكر تهاوى وسقط.

فرضاً إنسان يدعي المثالية والخلق ضبط بسرقة أو بزنى عند أبناء حيه انتهى كإنسان محترم انتهى، فهذا أكبر نصر حقق الآن.

1 ـ الغرب سقط في الوحل ولم يبقَ إلا الإسلام :

أول إيجابية أن الغرب سقط سقوط مريع في الوحل الحمد لله، ما بقي إلا الإسلام.

2 ـ هذه الأحداث قربتنا من بعضنا البعض ووحدتنا :

الإيجابية الثانية: أن هذه الأحداث قربتنا من بعضنا بعضاً، هم واحد، عدو واحد، قلق واحد، كنا متفرقين فاجتمعنا من دون أن يشعروا جمعونا ووحدونا.

3 ـ كل إنسان كُشف على حقيقته :

الإيجابية الثالثة: أن كل إنسان كشف على حقيقته.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

4 ـ لم يبق من حلٍّ كي نستعيد استقلالنا وكرامتنا إلا ببذل أرواحنا :

والإيجابية الرابعة: هذه الفريضة المعطلة قد أحييت، صار التعلق بهذه الفريضة ببذل النفس سخية في سبيل الله.

صار عندنا أربع إيجابيات إيجابية سقوط الغرب بقيمه وطروحاته، وإيجابية توحدنا، وإيجابية انكشاف الأقنعة وسقوطها، والإيجابية الرابعة أنه لم يبق من حل كي نستعيد استقلالنا وكرامتنا إلا ببذل أرواحنا، هذه أربع إيجابيات لم تكن من قبل، وكل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، فالآيات التي بعد هذه الآية:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً)

إن عدنا لربنا، واصطلحنا معه، وتبنا إليه، وعملنا الصالحات، نستحق دخول الجنة، وهذا هو النصر الحقيقي، أن يسمح لك بدخول الجنة، والدليل:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

[سورة آل عمران: 185]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(55-69): تفسير الآيات 123-126 ، ثمن النصر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الأماني بضائع الحمقى :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

هذه آية حاسمة، الأماني بضائع الحمقى، أنا أقول لكم أيها الأخوة: ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويتمنى النصر، والله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

وما من مسلم إلا ويتمنى الجنة، قضية التمني قضية سهلة جداً، يستطيعها كل مقصر، يستطيعها كل منافق، يستطيعها كل عاصٍ، فالله عز وجل في آية حاسمة يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

تمنى ما شئت، تمنى أن تكون سيد البشر، تمنى أن تكون في أعلى درجات أهل الجنة، تمنى أن تكون في الفردوس الأعلى، تمنى أن تنتصر على أكبر قوة في الأرض، تمنى ما شئت، التمنيات لا تقدم ولا تؤخر، التمنيات لا تحرك ساكناً، لا تشفي مريضاً ولا تجلب عفواً ولا توبةً، تمنى ما شئت، الأماني بضائع الحمقى.

إن لم نغير ما بأنفسنا لا يغير الله أحوالنا :

الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

المسلمون اليوم يتمنون دخول الجنة ولا يدفعون ثمن الجنة، يتمنون النصر، والله حينما أستمع إلى أدعية الدعاة في هذه الأيام العصيبة دعاء يقشعر منه الجلد، الله ألا يسمعنا؟ والأمر بيده، لمَ لا يتغير الحال؟ لأن الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

تمنى ما شئت، فالآية الحاسمة الأخرى التي تلتقي مع هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

لا تغيِّر لا يغيِّر، قضية واضحة كالشمس، حاسمة تماماً، إن لم نغيِّر لا يغيِّر، الإنسان ضيق الأفق، ضعيف التفكير، يتمنى أن يغيِّر الله وهو لا يغيِّر، لذلك مهما دعونا، ومهما ابتهلنا، ومهما علا صوتنا بالدعاء، ومهما نمقنا الدعاء، ومهما بكينا في الدعاء، الأمر لا يتغيَّر، إن لم نغيِّر لا يغيِّر، فإن غيّرنا رأيت العجب العجاب، إن غيّرنا رأيت موازين القوى تنقلب رأساً على عقب، إن غيّرنا رأيت كيف أن الله يتدخل، إن غيّرنا رأيت كيف أن الله ينصرنا على ضعفنا، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، الصحابة كانوا قلة قليلة قلبوا وجه الأرض، لأنهم غيّروا، لمَّا غيّروا غيَّر الله ما بهم:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

الله عز وجل ما كلفنا ما لا نستطيع بل كلفنا ما نحن عليه قادرون :

أنا أقول كلمة جامعة مانعة موجزة قاطعة، إن لم يفكر أحدنا أن يغِّير فهذا الوضع من سيئ إلى أسوأ، وكل فترة يوجد بلد تنتهك حرماته، وتسلب خيراته، وتقتل أبناءه، وتهدَّم أبنيته، ورأيتم رأي العين ماذا يحل بالمسلمين، والله موجود والأمر بيده، ويد الله فوق أيديهم هذا هو التوحيد، الله عز وجل لا يغِّير إلا إذا غيّرنا، هذه الآية واضحة وضوح الشمس:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

العجيب كيف أن الشيطان وسوس لهؤلاء الناس، يدفعهم إلى ما لا يستطيعون فعله، ويزَّهدهم بما يستطيعون، كل مسلم يستطيع أن يتوب إلى الله ولا أحد يسائله، ولا أحد يتهمه، وليس هناك مشكلة، كل مسلم إذا دخل إلى بيته بإمكانه أن يقيم الإسلام، أن تؤدى فيه الصلوات، أن يأمر بالمعروف، كل مسلم بإمكانه أن يضبط بناته، وبإمكانه أن يحمل أهل بيته على الصلاة، كل مسلم بعمله بإمكانه أن يكون صادقاً وأميناً، وصادقاً وعفيفاً، الله عز وجل ما كلفنا مالا نستطيع، كلفنا ما نحن عليه قادرون، قال لنا:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

الأمر بقدر ما هو بسيط بقدر ما هو بعيد عن الناس، نريد أن نرغم أكبر قوة في الأرض أن تكف عن العدوان، لا نستطيع، لا نحن ولا غيرنا، ولا أهل الأرض، الطغيان بلغ درجة من التعقيد ليس له من دون الله كاشف، الآن حل أرضي غير موجود، لا يوجد حل أرضي، نحن غفلنا أن نعد لأعدائنا أربعمئة عام، هذه الغفلة، وقد أمرنا الله عز وجل وقال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

نحن ما أعددنا لهم، ما أعددنا لهم فأصبحوا أقوياء، فأملوا إرادتهم على كل البشر.

لا تتمنى النصر إن لم تدفع ثمنه :

إذاً أيها الأخوة الكرام هذه آية صدقوني، جامعة مانعة، قاطعة واضحة:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

مسلم ينتمي إلى جماعة إسلامية، له شيخ، ينتمي إلى جامع:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

مما ورد في الأثر: يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لا يسرع به نسبه.

قضية حاسمة، كيف أن هذه الآية جاءت في مثل هذه الأيام، هي أنسب آية لمثل هذه الظروف، لا تتمنى النصر إن لم تدفع ثمنه، لا تتمنى النصر إن لم تزل المنكرات، لا تتمنى النصر إن لم تحجب الفتيات، لا تتمنى النصر إن لم تمنع بيع المسكرات، ما دام هناك معاصي على قدم وساق متفشية بين المسلمين والمسلمون راضون ساكتون:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

الانتماء لا يقدم ولا يؤخر، لذلك المسلمون يعجبون، يا رب ألا ترى ما يفعلون بنا؟**!!**

الشدة التي يسوقها الله للبشر من أجل أن يتوبوا إلى الله :

حدثني طبيب صديق كان يستمع إلى بعض الإذاعات في منتصف الليل، فإذا بمقابلة مع مفتي البوسنة، الحوار عجيب، يقول هذا المفتي: لا يعتب أخوتنا في المشرق على الله من أجلنا، نحن لسنا مسلمين، هكذا قال**!!** نأكل الخنزير، نشرب الخمر، نتعامل بالربا، وليس هناك فرق بيننا وبين الآخرين إطلاقاً، بعد هذه الأزمة الطاحنة أصبحنا مسلمين. حقيقة نطق بالحق، والرجل من شدة تأثره من هذا اللقاء حفظ الكلام حرفياً، فهذه الشدة التي يسوقها الله إلى البشر من أجل أن يتوبوا إلى الله، فإذا تابوا رفع عنهم كل مكروب، الكرة بملعبنا، الخلل عندنا، فإن غيِّرنا يغيِّر، وإن لم نغير لا يغير:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

دققوا الآن:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

ما عند الله لا ينال بالتمنيات، ما عند الله لا ينال بأن تحلم بأنك من أهل الجنة، القضية أخطر من ذلك، إله عظيم وشرع حكيم وعدل مطلق، إن لم نغيِّر لا يغيِّر:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

فعل الشرط وجواب الشرط:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله :

تدعو، تصرخ، تبكي، تنمق الدعاء، تأتي به مسجعاً، ادعُ ما شئت، إن لم تعلق ما عند الله على العمل لا يأتيك الله بالنصر، هذه حقيقة، هذا قرآن، هذه قوانين إلهية:

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

[سورة الحج: 18]

إذا هان أمر الله علينا هنا على الله، إذا كان الله معنا فمن علينا، وإذا كان الله علينا فمن معنا، ما معنا أحد، ليس معنى هذا أن الذي قهرنا قريب من الله، لا، هو أفسق بكثير، إن الله يسلط الذي لا يعرفه على الذي يعرفه وهو لا يطيعه، هذه قاعدة ثابتة، جاء في الأثر: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

يسلط الذي لا يعرفه أصلاً على الذي يعرفه ويحيد عن أمره، يوجد إنسان طرح سؤالاً محرجاً، قال لي اليوم عقب الخطبة: جميع أهل الأرض قاموا من كبوة أصعب من كبوتنا ووقفوا على أقدامهم ونهضوا، فما بال المسلمين كذلك؟ الحقيقة يوجد إجابة دقيقة جداً، أرجو أن تكون واضحة عندكم، المؤمن الملتزم، المطبق، الطائع، المخلص، مرتاح ومتوازن مع الله، لا يوجد عنده مشكلة، أما الكلمة الدقيقة التي قد لا تقبلونها، والكافر حينما كفر بالله والتفت إلى الدنيا فقط متوازن ومرتاح، هو أراد الدنيا انتهى الأمر، ولم يرد الآخرة، لذلك بلغ أعداؤنا درجة عالية من الدنيا، لأنهم أرادوا الدنيا فقط، وألغوا كل منهج إلهي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

الذي يؤدبه الله تعالى هو المؤمن العاصي :

الأمر واضح، المؤمن مرتاح وواضح ـ اسمحوا لي بهذه الكلمة ـ ومتوازن، والكافر واضح ومرتاح في الدنيا فقط، ومتوازن، ليس عندهم آخرة أبداً، في الدنيا نظام عمل كل إنسان في مكانه، قوة اختراع، من هذا الثالث الذي تأتيه المصائب من كل جانب، هذا المؤمن العاصي، فيه خير ليس مع المؤمنين لأنه ليس ملتزماً وليس كافراً، أي أنت كأب لا سمح الله ولا قدَّر عندك ابن معتوه، هل تؤدبه كل يوم؟ أبداً، وعندك ابن متفوق وذكي هل تؤدبه؟ لا! فعندك ابنين مرتاحين، الذكي المتفوق والمعتوه، لا يوجد مشكلة، من هذا الذي تعاقبه كل يوم؟ الذكي المقصِّر، فيه خير لكنه غير ملتزم، هذه هي القصة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

مال لا تأكلها النيران، بلاد جميلة، أمطار غزيرة، قوة قوية، غارقون في متع لا يعلمها إلا الله، وأمرهم نافذ:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

هؤلاء في الدنيا لا يعالجون، تماماً كما لو جاء مريض مصاب بورم خبيث من الدرجة الخامسة، وسأل الطبيب ماذا آكل؟ يقول له: كُلْ ما شئت. أما هذا الذي أصيب بالتهاب حاد في المعدة يعطيه الطبيب قائمة ممنوعات، ويسأله كل يوم إياك أن تأكل هذا الطعام، هذا يزيد في التهاب المعدة، من هذا الذي يشدَّد عليه؟ من هذا الذي يحاسَب حساباً عسيراً؟ من هذا الذي يقسو عليه الطبيب؟ هو الذي عنده مرض قابل للشفاء، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون مرض المسلمين قابل للشفاء.

لا أحد ينصرنا إلا الله تعالى إن أطعناه :

لذلك هذه الشدة يجب عليكم أن تعرفوا من هو عدوكم:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: 119]

هناك من لم يصدق الله عز وجل في هذه الآية!! يحبهم!! أرأيت جريمتهم! أرأيت وحشيتهم! أرأيت قتلهم للمدنيين! قتلهم للأطفال! قتلهم للنساء! أرأيت قصفهم لمستودعات الغذاء! أرأيت إذلالهم للمسلمين! أين الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام؟ أين كل هذا الكلام المعسول الذي يتبجحون به؟ الحقيقة أن هذه الأحداث كشفت عن لؤمهم، وعن وحشيتهم، وعن بعدهم عن مبادئهم كبعد الأرض عن السماء، أمر واضح.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

لا أحد ينصر المسلمين الآن، حتى الذين اعترضوا على هذه الحرب اليوم أيدوا، وتمنوا أن يكون النصر للأعداء، من أجل مصالحهم، لا أحد يقف معنا إلا الله، والله عز وجل لا يقف معنا إلا إذا أطعناه، هذا كلام دقيق، لا يحتمل أي مناقشة ولا اعتراض:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

لا يوجد إنسان يتولاه بالنصح والإرشاد ولا إنسان ينصره.

حال المسلمين اليوم لا يُحتمل كله كلام بكلام :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

إذاً أول آية:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

بالمقابل:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

يوجد تمنيات ويوجد عمل، لذلك أيها الأخوة:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة القصص: 105]

الآن هناك من يتفلسف، أنت ماذا قدمت؟ لا بد من الجهاد، أنت ماذا قدمت؟ إلى متى نتفلسف؟ أنت ماذا قدمت، هل قدمت شيئاً؟

((عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا))

[صحيح مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ]

من تمنى أن يجاهد ولم يتح له فكأن الله يكتب له أجر الشهيد، اعمل عملاً، لا تقف عند الكلام، حال المسلمين الآن لا يحتمل إطلاقاً، كلام بكلام، لا يقدم ولا يؤخر، والذي يؤلم الآن هذا الاستنكار العالمي، استنكار فقط، نراقب بقلق، خير إن شاء الله، نشجب، ننـدد، نشدد على كذا وكذا، لا شيء آخر نفعله!! لا أحد يقدم شيئاً، هذا كلام بكلام.

من معاني كلمة (الصالحات) :

قال تعالى:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً*وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

الإيمان أصل، هناك من يعمل صالحاً وليس بمؤمن، منطلقاً من ذكائه ومصلحته، هذا له الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، هناك أناس أذكياء يعملون الصالحات تمتيناً لمكانتهم، ودعماً لجهودهم، وجلباً لثناء الناس عليهم، هذا يكافئه الله على عمله الصالح في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ)

الصالحات كلمة جامعة مانعة، من معانيها الاستقامة، والانضباط، ومن معانيها البذل والعطاء، أنفق ماله، أنفق علمه، أنفق خبرته، أنفق جاهه، أنفق وقته في طاعة الله:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

في هذه الآية إشارة إلى أن المرأة مساوية تماماً للرجل في التكليف والتشريف وفي المسؤولية، لو أن الله عز وجل قال: من يعمل من الصالحات من المؤمنين تعني المؤمنات حكماً بقاعدة التغليب، ولكن أراد الله أن يؤكد على أن المرأة كالرجل تماماً، يمكن أن ترقى إلى أعلى مستوى.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

ما هو النقير؟ أكلت تمرة ثم أمسكت بالنواة، في أحد طرفيها نتوء مؤنف كالإبرة تماماً، أي حجمه واحد على خمسين من الميليمتر، إبرة، قال: في مستوى هذا النقير لا تُظلم:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

حقيقة الدين الذي أراده الله وارتضاه :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً)

حقيقة الدين الذي أراده الله، حقيقة الدين الذي يرتضيه الله، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: 55]

أي دين يرتضيه الله؟ هذا الدين:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً)

حقيقة هذا الدين الذي يرتضيه الله عز وجل قال:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

أي أولاً اتجه إلى الله، توكل عليه، طلب رضاه، طبق أمره، ترك نهيه، ترك ما نهى عنه، أسلم وجهه، قبل بمنهج الله من دون أن يعترض عليه، لم يقدم بين يدي الله ورسوله، لم يقل قطع اليد توحش، هذا الذي جاء به القرآن وجاءت به السُّنة هو عين الكمال، وقمة الكمال، والحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، هذا أسلم وجهه لله أي عرفه وأقبل عليه، ثم صدق كل ما جاء به من أحكام.

قصة من التاريخ عن أحد الصحابة الكرام :

قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

أي يوجد شيء اعتقادي وشيء سلوكي، بالسلوك يوجد إحسان، يوجد صدق، يوجد أمانة، يوجد عفة، يوجد إنجاز للوعد، يوجد حفاظ للعهد، يوجد رأفة ورحمة، يوجد عدل وإنصاف، هذا المؤمن، أي بمعتقداته سليمة، وبسلوكه محسن، هذا هو الدين الصحيح، هذا هو الدين الذي يمكّنه في الأرض، هذا هو الدين الذي يمكّن في الأرض، هذا هو الدين الذي يقلب الله موازين القوى من أجله، من عمل به غلب أعداءه ولو كانوا قلة:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 249]

سيدنا الصديق رضي الله عنه جاءته استغاثة من سيدنا خالد يريد المدد، وسيدنا خالد يطمع بخمسين ألف مدد، لأنه يواجه عدواً أكثر من عشرين ضعف، معه ثلاثين أو أربعين ألفاً، والعدو ستمئة ألف، فطلب المدد من سيدنا الصديق، قصة كالخيال، سيدنا الصديق أرسل له المدد واحداً**!!** اسمه القعقاع بن عمرو، لما وصل القعقاع إلى نهاوند قال له: أين المدد؟ قال له: أنا. دهش سيدنا خالد**!!** قال له: أنت؟**!!** قال له: أنا. وهذا الكتاب من الصدّيق. هكذا يروي التاريخ، يقول الصدِّيق لسيدنا خالد: لا تعجب يا خالد فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، وانتصروا بواحد، كان أصحاب النبي واحد كألف، بينما إذا ترك الناس سنة النبي يصبحون مليار بواحد، عدد المسلمين مليار ومئتي مليون، ليس أمرهم بيدهم، وليست كلمتهم هي العليا، هم يُعتدى عليهم في بلادهم، وتنهب ثرواتهم، ويقتل أبناءهم، وتهدم منشآتهم، مليار ومئتي مليون أين هم المسلمون اليوم؟ متفرقون، تحكمهم الأهواء والمصالح، هذا فضلاً على من يعاون الأعداء على قتل المسلمين بتقديم التسهيلات.

تطبيق النبي الكريم منهج الله عز وجل الذي جاء به إبراهيم عليه السلام :

الدين الذي ارتضاه الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً)

الدين الذي يرتضيه الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

آمن به، وأقبل عليه، وقبل منهجه، وانطلق إلى تطبيق هذا المنهج، وعمله فيه إحسان، أي متمثل بالمكارم الأخلاقية من صدق، وأمانة، وعفة، وإحسان، وإنجاز للوعد، وحفاظٍ على العهد، وإنصاف وما شاكل ذلك:

(وَاتَّبَعَ مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

أي طبق منهج الله عز وجل الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وفصَّله النبي العدنان عليه الصلاة والسلام أيضاً، وكان هذا النبي الكريم حنيفاً أي مائلاً لله، لذلك من تعريفات العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، فمن أطاع الله ولم يحبه ما عبده، ومن أحبه ولم يطعه ما عبده:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)

الود بين العبد وبين ربه من لوازم الإيمان :

قال عليه الصلاة والسلام مما ورد في الأثر: أنا بشارة أخي عيسى:

(وَمُبَشِّرَاً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

[سورة الصف: 6]

ودعوة أبي إبراهيم:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة البقرة: 129]

(وَاتَّبَعَ مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

حنيفاً أي مائلاً إلى الله عز وجل، طاعة مع الميل، طاعة مع الحب:

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم: 96]

الود بين العبد وبين ربه هو من لوازم الإيمان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾

[سورة مريم: 96]

ملكية الله لما في الكون ملكية مطلقة تملكاً وتصرفاً ومصيراً :

ثم يقول الله عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

أي هي ملك لله، لكن ملكية الله عز وجل لما في الكون (السماوات والأرض تعني الكون) ملكية الله لما في الكون ملكية مطلقة، تملكاً وتصرفاً ومصيراً، قد تملك الرقبة ولا تملك المنفعة، كمن يشتري بيتاً ويؤجره، والمستأجر لا يخرج، هذا مالك رقبة، أما المنفعة ليست ملكه، وقد تملك المنفعة ولا تملك الرقبة، وقد تملك المنفعة والرقبة لكن مصير هذا البيت قد لا تملكه، يفتح شارع فيهدم البيت، مثل للتقريب، تملك منفعة ولا تملك رقبة، أو تملك رقبة ولا تملك منفعة، أو تملك المنفعة والرقبة ومصير هذا البيت ليس إليك، أما ملكية الله عز وجل يملك ويتصرف والمصير إليه:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً ﴾

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾

[سورة إبراهيم: 46]

الله موجود:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾

[سورة إبراهيم: 42]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(56-69): تفسير الآيات 123-126، القرآن والسُّنة مرجع المؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-04-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا بما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الربوبية والألوهية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآيات التي تم تفسيرها في الدرس الماضي ثانية لأن هذه الآيات تتصل أشد الاتصال بواقع المسلمين.
أيها الأخوة، المسلم من هو؟ آمن بالله رباً، آمن به رباً وإلهاً، الربوبية أنه خلقه وأمدّه، أما الألوهية أنه متصرف، بيده الأمر.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

القرآن والسُّنة مرجع المؤمن :

ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها، ورقة شجر إذا سقطت يعلمها! ما من عقيدة نحن في أمس الحاجة إليها الآن كعقيدة التوحيد، الله عز وجل خالق ورب وإله، موجود وواحد وكامل، بيده الخلق والأمر.

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: 17]

هذا المسلم الذي آمن بالله رباً، ثم بالإسلام ديناً إنه دين الله ودين الحق، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، جاء بالقرآن منهج الإنسان في سيره، وجاء في شرحه وتبيانه سنة الله في خلقه.
هذه أيها الأخوة من مسلمات الإيمان، المسلم من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.
الآن لا تجد مسلماً واحداً يحاول تفسير الذي حدث بعيداً عن القرآن والسنة، وإلا لم يؤمن بالله رباً ولا بالإسلام ديناً ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، الحد الأدنى من إسلام المسلم أنه يرجع إلى القرآن في تحليل ما حدث، يستنطق القرآن يا رب لما الذي حدثَ حدثْ؟ أين الخلل؟ وعدك حق، والنصر من عندك، والأمر بيدك، ولا راد لقضائك، الذي حدث لمَ حدث؟ المسلم الصادق لا يرجع لأي تحليل آخر إلا لتحليل القرآن، المسلم الصادق لا يصنع مشاجب يعلق عليها مشكلاته.
أكثر المسلمين يقول: الاستعمار، الصهيونية، الماسونية، أين الله؟ الخلل من عندنا والبطل هو الذي يعزو الخلل لا إلى غيره بل إلى ذاته، المسلم يرجع إلى القرآن لفهم ما حدث، والمسلم يرجع للقرآن لتحليل ما حدث، ويرجع للقرآن يتلمس طريق الخلاص مما نحن فيه، والمسلم يستشف من القرآن مصير المعتدين الظالمين، القرآن مرجعنا.

الله عز وجل لا يحابي أحداً :

أيها الأخوة، الله جل جلاله له سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتغير، والإنسان مهما حاول أن يتجاوزها ويتجاهلها ويقلل من قيمتها هي محكمة فيه.
أوضح مثلاً، قانون السقوط، هذا قانون كيف نستفيد منه؟ نستخدم المظلات، فالذي يريد أن يسلم من هذا القانون يأخذ به، ويتأدب معه فيستخدم مظلة فيسقط للأرض سالماً، أما الذي لم يعبأ به ولم يحترمه ويصدقه ونزل من دون مظلة عدم تصديقك وتوقيرك لهذا القانون لا يلغي فعله**!** الفكرة دقيقة**!** قانون واقع، إن آمنت به استفدت به، وإن لم تؤمن به وقع مفعوله بك شئت أم أبيت، إلى متى لا نتعامل مع هذا الكتاب على أنه قوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تعدل ولا توقف ولا تتغير ولا تجمد، سنة الله عز وجل ثابتة واقعة لا محالة.
الله عز وجل لا يحابي أحداً، في مجتمع البشر هناك محاباة فقد تسكت عن خطأ لزيد لأنه قريبك، وقد تبرر خطأ عبيد لأنه شريكك، وقد تتعامى عن جريمة زيد من الناس لأنه من عشيرتك، هذا في بني البشر ولكن عند خالق البشر الله عز وجل لا يحابي أحداً.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

أيها الأخوة، هذا الذي حصل في العالم الإسلامي في كل بقاعه لا يسر عدواً فكيف بالصديق؟! فلا بد من صحوة ويقظة ومراجعة حساب ومسح لتصوراتنا، هل هي مطابقة للكتاب والسنة أم هي مخالفة؟ لا بد من أن نهتدي بتحليلات القرآن، أنا لا أسمي أحداً ولا جهة ولكن أتحدث عن قوانين الله عز وجل.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

هذا قانون وسنة من قوانين وسنن خالق الأكوان.

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

الذي عمل سوءاً ولم يجزَ به سيجزى به إلا إذا تاب، لا تقل مساكين أهل هذا البلد، وأي بلد آخر كان على شاكلته وفعلوا ما فعلوا لا بد أنه واقع بهم، إذا وقع بهم هذه قاعدة عامة!

إن أردنا النصر فعلينا أن ندفع الثمن :

لذلك يا أيها الأخوة، لو رجعنا للقرآن الكريم:

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: 165]

النعامة دائماً تخفي رأسها بالرمل كي لا ترى الحقيقة، والإنسان غير الموفق في حياته دائماً يبحث عن مشجب يعلق مشكلاته عليه فيتهم جهات أخرى وهي كافرة، والكافر واضح يريد أن يأخذ كل شيء ولا يبقي شيء، يريد أن يكون أقوى جهة في الأرض مهما كان الثمن، وأغنى جهة في الأرض مهما كان الثمن، لا يوجد قيم، عندهم قيمة في بلاد الغرب هي دينهم؛ القوة تصنع الحق فقط! أنت قوي يعني أنك على حق ولو كنت مجرماً وسفاكاً للدماء ولو كنت سبب بلاء الناس، ما دمت قوياً فأنت على حق هذا شأنهم، أما شأننا أن نطبق منهج ربنا.

لذلك أيها الأخوة، كأن المسلمين يعيشون التمنيات، يتمنون على الله الأماني، والتمنيات كما قلت في درس سابق بضائع الحمقى، فالأحمق يتمنى ويتسلى، ويقعد ولا يتحرك ويراقب ولا يستجيب، هذا واقع المسلمين، والحقيقة المرة أقولها دائماً أفضل ألف مرة من الوهم المريح، إنسان يستحق التأديب من الله يدعو بدعاء فصيح فيه سجع أو لا يدعو، العلاج لا بدّ واقع به، طبعاً الدعاء الصادق يرد القضاء أما الدعاء غير الصادق فلا يرد القضاء، ما لم يغير الله لا يغير، هذه حقيقة أتمنى أن تكون واضحة وضوح الشمس، كل واحد منا إن أراد لهؤلاء المسلمين انتصاراً وعزة، إن أراد أن يستمع لخبر يملأ قلبه فرحاً، إن أراد أن يفرح فرحاً حقيقياً بنصر من الله عزيز علينا أن ندفع الثمن، الثمن إسلام التزام لا إسلام مظاهر.

التأديب من فضل الله عز وجل :

الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

هناك من المسلمين من يقول: يا رب أمرتنا فعصينا، نهيتنا فارتكبنا، ولا يسعنا إلا فضلك هذا النموذج المعاصر، الأمر معروف عنده والنهي معروف لا طبق الأمر ووقع بالنهي، ولا يسعنا إلا فضلك هذا فضل الله، فضل الله التأديب، والله عز وجل يقول:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

[سورة الأنفال: 25]

الفتن آتية إلى كل بلد، قبل حين من جهة الغرب والآن من جهة الشرق، وقبل حين من الجنوب، هذه الفتن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الكلام الذي يلقى في العالم الإسلامي لا نهاية له، أما الكلام الذي ينبغي أن يلقى بعناية فائقة هو أن كل واحد منا إن أراد لهذه الأمة النصر، وإن أراد ألا يصاب بأزمة قلبية إذا استمع إلى الأخبار، حدثني طبيب قال: عشرات الأشخاص جاؤوا بمرض أزمة قلبية طارئة بسبب ما سمعوا من أخبار وما رأوا من مشاهد، هؤلاء كانوا يعيشون كما نعيش نحن فجأة حصل الذي حصل، فالله عز وجل إله عادل ونحن علينا أن نأخذ الحيطة:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

الدعاء من دون عمل لا يقبله الله :

إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر الله عز وجل لينزلن بالمؤمنين عذاباً يدعونه فلا يستجيب لهم، هذا مر في بعض الأحاديث، فالدعاء من دون عمل لا يقبله الله.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

كنت أقول دائماً: هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، وكل واحد على مستوى تفكيره، إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً، وإذا عقد العزم على طاعة الله، وإذا أصلح بيته وعمله، وربى أولاده، يجد من الله معاملة جديدة لم يكن يعرفها من قبل، يجد توفيقاً وصدقاً ومناصرة وأمناً وراحة، حينما لا تستطيع أن تقنع الناس بالتوبة إلى الله انجُ بنفسك، وتب إلى الله، وأصلح ذات بينك، وأقم الإسلام

في بيتك وعملك، وانصح بقية المسلمين أن يفعلوا كما تفعل، فلعل الله جل جلاله يزيح عنا هذه الغمامة السوداء.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

الله عز وجل قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

إيمانه عمل صالح.

المؤمن لا يضره كيد الكفار شيئاً :

قلت في مناسبة أخرى: أن خلاص المسلمين في كلمتين؛ لهذه الآية التي فيها كلمتان آية مقدمة قال تعالى:

(َقدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

الله جل جلاله يصف مكر الكفار بطريقة تقشعر منها الأبدان، لمكر الكفار تزول الجبال.

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

هذا المكر الذي تنهدُّ منه الجبال، ببساطة ما بعدها بساطة يمكن أن ننجو منه إن كان الله معنا، قال:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران: 120]

أي أن المؤمن بحسب نص هذه الآية ومعناها لا يضره كيد الكفار شيئاً، هذا المكر الذي تنهدَّ منه الجبال لا يتأثر به المؤمن إطلاقاً، لأن الله إن كان معك فمن عليك؟ وإن كان عليك فمن معك؟ هناك رسائل من الله؛ عاصفة واحدة عطلت مئة وخمسين طائرة، لو استمرت عشرين يوماً أليس هذا في قدرة الله عز وجل؟ الأمر بيد الله فلا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه.

لا يمكن أن ننتصر على عدونا إلا بطاعتنا لله سبحانه :

أيها الأخوة، وقت الكلام الطويل والخطابات انتهى، الآن وقت العمل، والله الذي لا إله إلا هو لو أن كل مسلم طبق واحد بالعشرة آلاف مما يعلم لكنا في حال غير هذا الحال.

أحد الصحابة الكرام كلفه النبي الكريم أن يدعو لله في قبيلة من قبائل العرب، فعاد للنبي وقال: يا رسول الله إنهم كالإبل المستوحشة لا يفهمون شيئاً، قال: أعجبت من هؤلاء؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: أعجب منهم من علم ولم يعلم هذا أشد توحشاً، أنتم تلاحظون هذه المنكرات التي تواجهونها في الطرقات، هؤلاء الفتيات اللواتي يرتدين الثياب الفاضحة، أليس لهن آباء يرتادون المساجد؟ أليس

لهن أمهات؟ أليس لهن أخوة؟ أين آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم؟ هذه منكرات، فحينما تكثر المنكرات لا سبيل لرد العدوان، تحدثت في الخطبة اليوم عن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى كيف أنه استطاع أن يرد سبعة وعشرين جيشاً أتوا من بلاد النصارى! هذه الجيوش يقودها الملوك ردهم بإزالة المنكر قبل كل شيء، فنحن لسنا مكلفين بغيرنا، إذا كل مسلم من رواد المساجد فقط؛ لو كل واحد عاد لبيته ودقق في بيته، في تصرفات زوجته وبناته وأولاده، وفي طريقة كسب ماله ودخله، وإنفاق ماله، وطريقة زوجته، إذا أراد أن يوقع هذه الحركة وفق منهج الله فليطمئن لنصر الله وتوفيق الله، فكأنما زمن الكلام انتهى وليس للكلام من معنى بعد الآن، رأيتم مسيرات ملأت أطباق الأرض هل نفعت؟ استنكارات لا تعد ولا تحصى، شجب لا يعد ولا يحصى، تشديد على أن هذا العمل مخالف للشريعة الدولية، خيراً إن شاء الله! لم يحصل شيء!!! نريد الشيء الفاعل إن الله هو الفعال، وفعال لما يريد، وإذا سلط جهة على جهة ليس في الأرض قوة تمنعها من طغيانها لأن الله سلطها، لكن هذه القوة الطاغية لمجرد أن يتوب العبد إلى الله تنحسر عنه، والأمثلة كثيرة جداً والتاريخ شاهد وينطق، فأنا أردت أن أبقى في هذا الدرس بهذه الآية:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

إن أردتم أن تكحلوا أعينكم بأخبار سارة في المعركة بين الحق والباطل أنتم المسؤولون بادئ ذي بدء عن أسباب النصر بطاعتكم لله، ولسيدنا عمر رضي الله عنه كلمة رائعة يقول: إنما ننتصر بطاعتنا لله ومعصية عدونا لله، فإذا استوينا في المعصية كان لهم النصر علينا لقوتهم، والحقيقة الفرق في طريقة الحرب بين العتاد بين المسلمين وأعدائهم فرق كبير جداً، وهو في أطباق الجو العليا يرى المدينة بأكملها ملونة، فإذا رسم الهدف تقترب وتقترب حتى يرى المسبح في البيت، يكفي أن يضع إشارة الرادار على هذا الهدف ويضغط فإذا به يفجر، يوجد تقنية عالية جداً، أعدوا لنا ولم نعد لهم، أعدوا لنا قوة لا تقابل، وليس فوقهم إلا الله، والله فوق الجميع، إذا كنا معه كنا فوقهم، فإن لم نكن معه فهم فوقنا، وهذه حقيقة ثابتة.

التمنيات لا تقدم ولا تؤخر ولا بدّ من استجابة لله وللرسول :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة البقرة: 212]

إذا لم نكن مع الله عز وجل فهم فوقنا بقوتهم، لذلك هذه التمنيات؛ ماذا تعمل يا أخا العرب وجملك أجرف؟ قال: يا أمير المؤمنين أدعو الله أن يشفيه، قال: ماذا ينفع الدعاء، هلا جعلت مع الدعاء قطراناً.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

الهجرة حركة، إذا لا يوجد حركة لا يوجد شيء، قناعة وشعور وبكاء وتعاطف هذا انتهى فهو لا يقدم ولا يؤخر، إنسان يحتاج لعملية جراحية يبكي يبتسم يتجشم يتجلد ينهار لا بد من عملية جراحية، فالبطولة الآن أن ندع الكلام.

والله أيها الأخوة، ما تمنيت في حياتي أن أصمت كما أتمنى الآن! تكلمنا كثيراً، فإن لم يكن هناك استجابة لله وللرسول إذا دعانا لما يحيينا فلا أمل في الحديث عن أي شيء.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

يوجد أخبار طيبة في هذه البلدة وبذل وعطاء لكن نحتاج لتوجيه وترشيد وبيان ليوضح الحقائق، هذا درس بليغ إن لم يحدث فينا موعظة فمصيبتنا في أنفسنا أكبر، تحدثت في الخطبة اليوم أن صلاح الدين الأيوبي حينما فتح القدس لم يأخذ جنده حاجة من الأعداء إطلاقاً، بل إنهم اشتروا بعض حاجاتهم ودفعوا ثمنها كاملة، وهذا الذي يجري الآن لا يصدق، أين البناء الإيماني؟ جامعات تحرق، كل شيء ينهب ويحرق هذا من فعل من؟ يوجد تآمر كبير جداً.

آيات قرآنية كثيرة تحض على العمل :

أيها لأخوة، المصير أسود والليلة سوداء والله، وهذا المصير يخطط له من سنوات طويلة، ولا أستبعد أن يكون كل بلد إسلامي ضمن خطة من هذا القبيل، فالقضية قضية صحوة والتزام وحركة وطاعة لله عز وجل وتعاون، وليست القضية قضية كلام وتعاون ورفع الصوت في الدعاء، الكلام كله على العمل.

(مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

[سورة طه: 112]

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة الإسراء: 19]

الآيات كلها على العمل لا يوجد آيات استماع فقط، آيات تفاعل نفسي الآيات كلها عمل وأوضح آية:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

معرفتنا لله توصلنا إلى محبته ومحبته توصلنا إلى طاعته :

يجب أن تأخذ موقف! قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

علة هذه الخيرية أنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، لو أننا عطلنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا خيريتنا، أصبحنا أمة كأية أمة على وجه الأرض، لا شأن لنا عند الله عز وجل وهذا مصداق قوله تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

الله عز وجل لم يقبل دعواهم أنهم أحبابه، ولو قبل دعواهم لما عذبهم، ولأنه يعذبهم هم لا يحبونه.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

محبتنا لله دعوة، لو أننا أحببناه لأطعناه، ومن أعجب الأشياء أن تعرف الله ولا تحبه، ومن أعجب الأشياء أن تحبه ثم لا تطيعه، معرفة محبة طاعة، معرفة بلا محبة غير صحيحة، محبة بلا طاعة غير صحيحة، أنا أشك بالمعرفة إن لم يكن معها محبة، وأشك بالمحبة إن لم يكن معها طاعة، هذا الكلام.

خطوات عملية نحتاجها لتوصلنا لرحمة الله ونصره :

الخطوات عملية أيها الأخوة، إتقان العبادات، ذكر الله عز وجل، غض البصر، ضبط اللسان، التعاون، النصح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضبط الأهل والبنات بالذات والبيوت والدخل والإنفاق هذه خطوات عملية ويمكن أن تكون سبباً لرحمة الله ونصره.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

لا ظلم اليوم، لا تظلمون فتيلاً ولا نقيراً ولا حبة من خردل، فما كان الله ليظلمهم والله لا يظلم أحداً، حينما قال الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

هذا الدين الذي ارتضاه الله لنا له تعريف دقيق، يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

أنت أيها الأخ الكريم هل أنت مستسلم لما في القرآن والسنة ولا تقبل خلافهم مقولة تسمعها أو تقرؤها؟ معنى القلب السليم هو القلب الذي سلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، كلما تعتقد وتتصور وفق الكتاب والسنة أم أن هناك تصورات تتصورها واعتقادات تعتقدها مخالفة لمنهج الله عز وجل، هذه واحدة.

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

الدين الحقيقي أن تتوجه لله وتأخذ من كتابه وسنة نبيه كل ما فيهما وتدع كل ما سواهما::

جعل اعتقاده لما في كتاب الله، جعل ميزانه ميزان القرآن لا ميزان أهل الدنيا وهو محسن وعمله طيب، وأنت أيها الأخ الكريم تعرف بفطرتك التي فطرك الله عليها الخطأ من الصواب، وكل واحد قادر أن يعرف الخطأ من الصواب ذاتياً من دون توجيه أو تبديل، والدين الحقيقي أن تتوجه لله وتأخذ من كتابه وسنة نبيه كل ما فيهما وتدع كل ما سواهما، هذا معنى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

أما هذه المجاوزة، مسلم لكنه غير مقتنع بعدم الاختلاط ويأتي بحجج واهية، هذا الذي لا يريد أن نكون مع بعضنا يفرق العائلة، كيف أنت مسلم ومصدق لما في كتاب الله، لما قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((الحمو الموت))

[البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر]

ثم تجعل كل المناسبات فيها اختلاط، هذا لعب بدين الله، كيف تقول أن الربا بنسب قليلة لا ضرر فيها؟ كيف ترتاح لفتوى قالها رجل في مصر من القطاع العام قالها إرضاء لمن يأمره وتصدقها وتأخذ بها وكأنه شفيعك يوم القيامة؟ هذا حال المسلمين**!!** أنا أضع يدي على مشكلات كبيرة جداً ولعلها هي سبب تخلي الله عنا.

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

استسلام لله في العقيدة والتصور، وفي حقيقة الكون، والحياة الدنيا، والإنسان، وحقيقة اليوم الآخر، والنبوة، والكتاب، والعمل بكل ما اعتقده، ثم الإحسان للخلق، هذا هو الدين بلا تعقيدات، هناك من يعقد هذا الدين، والذي يعقده ليس فقيهاً به، هذا الدين كالهواء ينبغي أن يستنشقه كل إنسان ببساطة**!** لذلك البطولة في تبسيطه وتطبيقه والإخلاص فيه، بسطه وطبقه وكن مخلصاً.

ملكية الله عز وجل ملكية تامة خلقاً وتصرفاً ومصيراً :

قال تعالى:

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

حنيفاً أي محباً لله عز وجل ومائلاً إليه ومائلاً عما سواه.

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)

وقد ذكرت في درس سابق أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى..))

[ورد في الأثر]

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

[سورة البقرة]

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً* وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الله عز وجل له الملك وله الحمد، هناك من يملك كما ترون كالطغاة ولا يحمدون، يملك ولا يحمد، وهناك من يحمد ولا يملك، لطيف لكنه ضعيف، فالإنسان يريد إلهاً عظيماً يملك ويحمد، له الملك وله الحمد وملكية الله عز وجل ملكية تامة، الله عز وجل يملك خلقاً وتصرفاً ومصيراً، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع والمصير ليس إليك.

لله الخلق والأمر وبيده مقاليد السماوات والأرض :

لكن الله حينما يقول:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ملكاً وتصرفاً ومصيراً، له الخلق والأمر.

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

بيده مقاليد السماوات والأرض.

(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه الأحداث الجسيمة التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية ينبغي أن توقظنا وتحفزنا على أن نفعل شيئاً، هذا الشيء هو رجوع لله ولكتابه وسنة نبيه، كيف نمضي السهرات؟ دقق؟ هؤلاء الناس كيف يمضون سهراتهم؟ في طاعة أم في معصيته؟ وبعض هذه المعاصي أن تنظر لامرأة لا تحل لك حقيقة أو على الشاشة مثلاً، كيف يتحدثون؟ هل في حديثهم غيبة أو نميمة؟ كيف يكسبون أموالهم؟ هل في كسبهم شبهات؟ كي يلتقون؟ هل في لقاءاتهم اختلاط؟ كيف يفرحون؟ هل في أفراحهم معاصي؟ ومعاص كثيرة! كيف يحزنون؟ هل في أحزانهم مخالفات للسنة؟ القضية بسيطة جداً:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

كم من شيء حرام يفعله المسلمون وهم ساهون لاهون؟ قال: يا رسول الله عظني ولا تطل، فقال عليه الصلاة والسلام: قل آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخف من ذلك، قال: استعد للبلاء.

خطة الله عز وجل تستوعب خطة الكفار و لن يفلتوا من عقابه :

قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

وقد لقي المسلمون ذلك الغي**!** بربكم هل يوجد أشد من الغي الذي وقع للمسلمين؟ أراضي وثروات نفطية أكبر مخزون نفطي في العالم بأقل تكلفة، كلفة البرميل في بعض البلاد ثماني دولارات، كلفة البرميل في هذه البلاد ثمانين سنتاً فقط**!** خيرات لا يعلمها إلا الله واستولوا عليها كلها، وكل شيء من منجزات هذه الأمة أحرقت، وبددت، وأتلفت، ودمرت، هل من إذلال فوق هذا الإذلال؟

أيها الأخوة، المصاب كبير وخطير وقريب ولا ينفعنا إلا أن يكون ثورة في حياتنا، وفي معتقداتنا، وفي علاقاتنا، وكسب أموالنا، ومحبتنا لبعضنا.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

[سورة الصف: 4]

هذه الـ (أنا) الانتماء الفردي والانتماء لفقاعة صغيرة هذه ضعها تحت قدمك، أنت كمؤمن تنتمي لجميع المؤمنين وفق منهج الله، فلعل الله سبحانه وتعالى ينظر إلينا نظرة عطف ورحمة، لعله ينصرنا ويرينا من قوته وبطشه بأعدائنا ما يثلج صدورنا إن شاء الله.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة الأنفال: 59]

الذي فعله الكفار لم يفعلوه بخلاف إرادة الله، إن خطة الله استوعبت خطتهم ولن يتفلتوا من عقاب الله، ووعدت في خطبة سابقة أن أتحدث عما في القرآن الكريم من أخطار تنتظر الكفار، الله عز وجل وعدهم بالدمار والخذلان، وفي أقوام سابقة فعلوا ما فعل هؤلاء ودمرهم الله عز وجل.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(57-69): تفسير الآيات 127-130 ، الاستفتاء والعدل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-04-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا تعرف الإنسان إلى الله يتفانى في طاعته ويبحث عن أمره ونهيه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية السابعة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً)

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى من هذه الآية: أنه إذا تعرفت بالله تشعر بدافع كبير أن تبحث عن أمره ونهيه، وهذا منطلق هذه الآية، من هذا الذي يسأل؟ ما حكم الشرع في هذا الموضوع؟ ما الفتوى في هذا الموضوع؟ ماذا ينبغي أن أفعل هل هو حرام أم حلال؟ هل يرضي الله أم لا؟ هذا الإنسان بعد أن عرف الله عز وجل نوعاً من المعرفة يندفع قطعاً إلى التقرب إليه بالائتمار بأمره واجتناب نهيه، وما لم تكن هذه المعرفة فالإنسان لا يعبأ أكان دخله حراماً أو حلالاً، أكان يرضي الله أو لا يرضيه، من الذي يعبأ بمراد الله منه؟ هو الذي آمن بالله، لذلك أنت حينما تؤمن تسأل، والسؤال علامة طيبة، أنك تخاف أن تعصي الله أو تغضبه، أو أن لا يأتي عملك مطابق لمنهج الله، منطلق هذه الآية أن الإنسان إذا تعرف إلى الله تفانى في طاعته، وإن لم يتعرف إليه تفنن في معصيته.

الفرق بين السؤال والاستفتاء :

الصحابة الكرام بعد أن رباهم النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً يعرِّفهم بخالق السماوات والأرض ويُعرِّفهم بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، الآن بدءوا يسألون!

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

[سورة البقرة: 219]

(ماذا ينفقون قل العفو)

[سورة البقرة:219]

(يسألونك عن المحيض قل هو أذى)

[سورة البقرة: 222]

مرحلة السؤال مرحلة طيبة، مرحلة أن هذا الإنسان بدأ يعرف الله ويفكر في التقرب منه، وبدأ يسأل عن أمره وحكمه الشرعي، والذي يرضيه والذي لا يرضيه، والذي يسخطه والذي لا يسخطه.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ)

لكن العلماء فرقوا بين السؤال والاستفتاء، السؤال أن تسأل عن مجهول، لكن الاستفتاء الحكم معروف فيه، لكن هذه الحالة التي أنا فيها أي حكم يناسبها؟ الاستفتاء يتجه لتطابق الحكم مع الواقعة، هل هذا الدخل شرعي أم ربوي؟ حكم البيع والشراء معروف وثابت، وحكم الربا حرام، أنا إن اشتريت جزءاً من بيت هل لي أن أتقاضى أجرة من هذا الجزء؟ الربا حكمه معلوم، حرام قطعاً، والآجار حكمه معلوم حلال قطعاً، أنا حينما أسهم مع إنسان في شراء بيت هل لي أن أتقاضى أجراً عن حصتي في هذا البيت؟ إن ضمنت المبلغ الذي ساهمت فيه فالأجرة ربا! دفعت معه مليون وضمن لك في أية لحظة تريد يعطيك المليون، وطلبت على هذا المبلغ أو الحصة أجراً هذه ربا، أما إن لم يضمن لك المبلغ بعد حين بعد عام بعد عامين قيّم البيت هبط سعره أو ارتفع الذي أعنته على شراء هذا البيت إن لم يضمن لك المبلغ لك أن تتقاضى أجرة، فالاستفتاء حكم البيع والشراء معروف، وحكم الآجار والربا معروف، أما أن أشتري مع إنسان بيت هل لي أن أتقاضى أجراً على حصتي؟ هل ينطبق عليها حكم الإيجار أم حكم الربا؟ فالسؤال عن مجهول، أما الاستفتاء عن معلوم.

معنى الاستفتاء :

الاستفتاء مدى علاقة الأحكام الشرعية بهذه الحالة، هذا هو الاستفتاء.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ)

طبعاً حينما يستفتونك هم مؤمنون، أرادوا التقرب من الله عز وجل، أرادوا أن تكون علاقاتهم بالنساء علاقات شرعية جيدة.

(قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ)

لكن الله سبحانه وتعالى في سورة سابقة حدثكم عن هذا الموضوع:

(ا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ)

هذه "ما" معطوفة على لفظ الجلالة قل:

(قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ)

والكتاب الذي بين أيديكم يفتيكم أيضاً، إنسان عنده يتامى جميلات غنيات يتمناهن لنفسه أو واحدة منهن، ولأنه وكيلها ووصيها ووليها قد لا يعطيها حقها، فالإنسان حينما يكون ولياً أو وصياً على فتاة وهضمها حقها وقع في معصية كبيرة، لذلك ورد في سورة سابقة في آل عمران أنك إذا خفت ألا تعطيها حقها تزوج غيرها! كان هناك ردعاً شديداً أن تظلم المرأة، هي لأنها في حجرك وتحت

وصايتك ورعايتك وتخجل أن تطالبك بحقها أنت استفدت من هذه الوصايا فلم تعطيها حقها وقعت في ظلم شديد، فالله عز وجل أشار أنك إن أردت أن تتزوج فتاة تحت وصايتك، كانت غنية فطمعت بمالها أو جميلة طمعت بها، لعلك لا تعطيها حقها أو تنتفع بها، لعلك ظلمتها، فالله عز وجل أشار لهذا.

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يستقل بالفتوى عن العلماء :

هناك أناس كثيرون يتوهمون أنهم يقيمون العدل، لكن العدل الذي يقيمونه هم، أخطر شيء في حياة الإنسان أن يستقل بالفتوى عن العلماء، يتوهم مصلحته شرعاً أو هواه منهجاً، أما الإنسان حينما يحضر مجلس العلم ويسأل ويستفتي في الأعم الأغلب لا يقع في خطأ كبير، كم من إنسان وضع أمواله عند أناس يقولون نحن لا نجري حسابات على الألف كذا بالشهر؟ يقول الحساب صعب ولست متفرغ لأدقق في الحساب! هذا الربا بعينه!! إذا لم يكن حساب أرباح حقيقية ولا يوجد عقد واضح بينك وبينهم، ويوجد اتفاق على نسبة ثابتة بينك وبينهم هذا المبلغ المقطوع شهرياً هو الربا بعينه دون أن تشعر، فأكبر خطأ الإنسان أن لا يسأل، أو يستقل بوجهة نظره عن الذين أوتوا العلم،

والله عز وجل يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل:43]

إنسان تحت يده يتيمة، هو الوصي عليها ومكلف بإدارة شؤونها، لها مال وفير تزوجها طمعاً في مالها، أو على جانب من الجمال تزوجها طمعاً في أن يصل لمبتغاه من دون أن يتكلف ما تستحقه مثلاً وقع في ظلم شديد!

(قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً)

حكم مال اليتيم :

أحياناً طفل يتيم ماله في حوزتك ماذا يفعل بعضهم؟ يجعل مال اليتيم درءاً لماله في صفقة مجهولة، يستخدم مال اليتيم لهذه الصفقة فإن ربحت أرباحاً طائلة أنزل أمواله في هذه الصفقة، وإن خسرت يقول لك: لا يوجد نصيب سبحان الله قضاء وقدر، النبي عليه الصلاة والسلام أشار لهذا ولا تجعل مالك دون ماله، لا تجعل ماله دريئة لمالك، لا تجعل ماله جساً لنبض السوق أو تجربة، مالك لا

تستخدمه إلا في صفقة ربحها بنسبة عالية جداً، لكن مال اليتيم تجعله جساً لنبض السوق أو امتحاناً لهذه الصفقة، هذا أيضا يعلمه الله عز وجل.

لذلك العلماء حينما تحدثوا عن مال اليتامى قال: إن كنت غنياً ينبغي أن تستعفف أن تأخذ نصيبك من الربح وإن كنت فقيراً ينبغي أن تأكل بالمعروف، وما هو الأكل بالمعروف؟ أن تأخذ حاجتك أو أجر المثل أيهما أقل، عرف السوق للمضارب نصف الربح، فإذا كان الربح لا يغطي مصروفك ينبغي أن تأخذ نصف الربح فقط، وإن كانت حاجتك أقل من نصيبك من الربح ينبغي أن تأخذ حاجتك، هذا معنى أن يأكل بالمعروف. من كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف هذا هو الحكم الشرعي.

الله عز وجل أرادنا ألا نخلط مصالحنا ببنود الشرع، نزّه نفسك عن أن تستغل إنساناً أو طفلاً يتيماً أو فتاة يتيمة في حجرك أو مستضعفاً، هذا المستضعف واليتيم واليتيمة الله جل جلاله هو الذي يدافع عنهم.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

من يكشف أن هذا التاجر اتّجر بمال اليتيم ليمتحن هذه البضاعة؟ أتربح أم لا تربح؟ إن ربحت أدخل ماله الشخصي في هذه التجارة وإن لم تربح قال لليتيم: هذا الربح نصيب من الله لم نوفق لا يوجد قسمة أو نصيب، ويستخدم ألفاظ الشرع ليغطي خيانته لمال اليتيم، لكن الله يعلم وأنت حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم على أمره.

كلما شعرت أن الله لا تخفى عليه خافية تكون قد استقمت على أمره :

أمثلة كثيرة جداً أضعها بين أيديكم، يوجد حالات ليس على سطح الأرض إنسان واحد بإمكانه أن يكشف انحرافك إلا الله، الذي تفكر فيه وتصبو فيه والذي بعثك لهذا العمل والمغالطة التي تفعلها وإيهامك الناس كذا وكذا كل هذا عنده علمه.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

كلما كنت واضحاً وأمام الله بريئاً، وكلما شعرت أن الله لا تخفى عليه خافية تكون قد استقمت على أمره.

أضرب لكم بعض الأمثلة: إنسان له أخت توفي عنها زوجها وترك لها مبلغ من المال وضعته عند أخيها لتستثمره فهي واثقة به، جيد! أخوها خبرته بالخيوط، وعنده معمل نسيج اشترى لها بهذا المبلغ كذا طن من الخيوط، الآن احتاج أخوها لخيوط ماذا يفعل؟ الآن هو من جهة وكيل أخته ومن جهة مشتري، يشتري من نفسه كوكيل ويشتري لنفسه كأصيل صفقة داخلية، يضع سعر، من الذي

يعلم علم اليقين أن هذا السعر فيه إنصاف؟ الله عز وجل، لا تستطيع أخته أن تحاسبه، هذا السعر، لكن الله يحاسبه، فإذا تقصى الأسعار وأخذ الوسطية منها، وأضاف قليلاً تبرئة لذمته رضي الله عنه، العلاقة مع الله سهلة جداً، إذا كنت بريئاً الله عز وجل يرضى عنك ولم يحملك ما لا تطيق، أنت بحاجة لطنين خيوط سألت خمسة مصادر أخذت الأسعار الخمسة، أخذت السعر الوسطي وأضفت بالمئة اثنين احتياط واشتريت هذا الخيط من أختك من نفسك فأنت عند الله بريء، لكن هناك من يحتال ويكذب ويدلس، يوجد بيع شكلي مهمته أن تنزل الأسعار، الله عز وجل يعلم، فهذه الآية تشير أنك من جهة طيبة أنك إذا سألت أو استفتيت فهذه علامة طيبة للإنسان، هو تعرف لله وتقصى ارضاءه وعليه أن يتقصى حدود الشرع في ذلك، فيسأل أو يستفتي، يسأل فيما هو مجهول ويستفتي فيما هو معلوم، ولكن حينما يستغل وكالته أو ولايته لصالحه فالله عز وجل عليم بانحرافه أو باستغلاله لمهمة أوكلت إليه.

الطفل الصغير مستضعف واليتيم كذلك واليتيمة أشد ضعفاً وأنت الوكيل، لذلك أعظم ما في هذا الدين أن الله بين كل رجلين وبين كل شخصين.

الله جلّ جلاله حينما قرب المؤمنين منه ما قربهم إلا لأنهم منصفون محسنون :

مرة كنت عند قصاب والله أثني عليه، جاءه طفل عمره خمس سنوات طلب منه قطعة لحم من نوع نادر جداً لمريض، أعطاه هذه القطعة بحسب طلبه تماماً ثم فرمها بالآلة، وهذا القصاب يستطيع أن يعطيه أسوأ أنواع اللحم والطفل لا يعلم، طفل صغير طلب قطعة من الخروف مفيدة جداً للمريض وهي قطعة محدودة وقليلة، فهذا القصاب خاف من الله أعطاه ما طلب بشكل دقيق جداً هذا المؤمن، لا يهمه الطرف الثاني، حاسبه أو لم يحاسبه الله يحاسبه، أعظم ما في الدين أن الله بين شخصين، فكل طرف يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرف يرجو رحمة الله بخدمة الطرف الآخر، أما إذا لا يوجد دين القوي يأكل الضعيف، والغني يبتلع الفقير، والذكي يحتال على المحدود، صراع بين ذكي ومحدود، وبين قوي وضعيف، وبين غني وفقير، والذي يجري في العالم هذا، القوي يفعل ما يريد والناس كلهم معه خوفاً منه، والمستضعف لا أحد يلتفت إليه، أعور لا يرى إلا عدوه، يرى شوكة في عين عدوه ولا يرى جذعاً في عينه، هذا بالتعبير المعاصر الكيل بمكيالين، لكن الله جل جلاله حينما قرب المؤمنين منه ما قربهم إلا لأنهم منصفون محسنون.

بالمناسبة الفرق كبير جداً بين هؤلاء الأقوياء الذين يقربون إليهم كل من والاهم وبين الذات الإلهية التي لا تقرب عبداً إلا إذا كان كاملاً.

قيل يا رسول الله مثل بهم هؤلاء الذين مثلوا بعمك، قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً، أعظم ما في حياة المؤمن أنه منضبط، ويخاف من الله عز وجل، ولو كنت مستضعفاً ومهزوماً في معركة، سيدنا علي كرم الله وجهه له قول رائع قال: لا أدخل معركة المنتصر فيها شر من

المهزوم، المنتصر ربح الدنيا، لكن المنهزم إذا بذل كل وسعه ولم يستطيع، أعد الإعداد الأقصى ولم يستطع مات مؤمناً ربح الآخرة.

سمعت شاب في العراق يشير لمكان مات فيه عدد كبير من الذين جاؤوا يبتغون وجه الله في قتال المعتدين، قال هذا الشاب: أنه يوجد إنسان أقسم بالله أربعة أيام والحر شديد وكأنه نائم، فقال: حفرتُ حفرة وقبلته قبل أن أهيل التراب عليه، كل إنسان له عمل، هو أراد أن يموت في سبيل الله، ليس له علاقة بما يجري، هو ابتغى وجه الله عز وجل، فكل إنسان له عمله وكل إنسان له نيته، قال: أربعة أيام ملقى في مكان مع عدد كبير من الذين قتلوا وجاؤوا من بلاد مختلفة لعلهم يلقوا الله عز وجل، فقال: أربعة أيام كأنه نائم، حفر له حفرة وقبَّله ثم أهال التراب عليه، فالله عز وجل رب النوايا، في الآية شيئان حينما تسأل أو تستفتي هذه بادرة طيبة، أردت أن تحاسب نفسك أو تعرف ما الذي يرضي الله عز وجل، وحينما تكون وكيلاً أو وصياً ينبغي أن تكون الأمور واضحة جداً فلا تدخل مصلحتك بمهمتك.

التنازل من صفات المؤمن والتشبث والعناد من صفات المعرض :

ثم إن الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

الحياة قصيرة وليست لا نهائية، وهذه المرأة التي كانت شريكة حياتك وعشت معها مدةً من الزمن لو حصل مشكلة وانتهت هذه المشكلة بالصلح، فالله عز وجل يحب الصلح، هي خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً أو هو خاف من زوجته نشوزاً أو إعراضاً فأصلح أموره وأصلحت أمورها، تنازل قليلاً وتنازلت قليلاً، التقيا في منتصف الطريق فاصطلحا، المشكلة أن الإنسان يقف دائماً في موقع ويريد من الطرف الآخر أن يأتي إليه، والطرف الآخر تأخذه العزة، يتشبث في موقعه ويطلب من الطرف الآخر أن يأتي إليه لا يأتيان ولا يلتقيان، التنازل فضيلة فإذا تنازلت قليلاً وانتهى هذا التنازل بصلح بينهما، أو لو تنازلت قليلاً وانتهى هذا التنازل بصلح بينك وبين زوجك هذا الذي يرضي الله عز وجل، وحينما تضع نفسك مكان الآخر تكون منصفاً، حين تضعي نفسك مكان زوجك تكوني قد أنصفت.

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً)

الإنسان دائماً لا يقبل الحقيقة، يقفز عليها، لكن المؤمن يقبل الحقيقة المرة، مثلاً: إنسانة لا تنجب والعلة منها برأي الأطباء فإذا قبلت من زوجها أن يتزوج بأخرى لأنه يريد أن يرى له ذرية هذه امرأة عاقلة مؤمنة، لأنها قبلت هذه الحقيقة المرة أنها عقيم، وسمحت لزوجها بأن يتزوج بأخرى

لينال منها الذرية، فالتنازل دائماً من صفات المؤمن، والتشبث والعناد وركوب الرأس من صفات المعرض.

حينما يكون الإنسان موصولاً بالله تأتيه الحكمة كهدية من الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً)

لو يوجد سبب أنه تزوجها زواج مصلحة والآن مخير بين أن يعصي الله لا سمح الله ولا قدر وبين أن يبقى معها فسمحت له أن يبقى في منهج الله لا مانع، هذه امرأة بطلة لأنها حفظت دين زوجها، أنا لا أقول عن جهة واحدة أقول مشكلة في هذا البيت، فالمرأة حينما تعقل أن هناك مشكلة وأن هذه المشكلة لا بد أن تحل وقدمت بعض التنازلات هذه التنازلات هي عند الله أمر كبير جداً، والرجل حينما يعاين مشكلة في البيت ويقدم بعض التنازلات حفاظاً على هذه الأسرة وعلى راحة أولاده النفسية وحفاظاً على التئام الزوجين أيضاً شيء عظيم عند الله، لكن دائماً الحمق يأتي من التشبث والعناد ومن الشيطان، وكلمة باللغة الدراجة، الإنسان حينما ينقطع عن الله يرتكب حماقات ما بعدها حماقات ولو كان ذكياً، وحينما يكون موصولاً بالله تأتيه الحكمة كهدية من الله عز وجل.

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

أحياناً يتناطح اثنان في المحاكم، عشر سنوات أعصاب الطرفين مشدودة لا ينامون الليل وتحت رحمة المحامون والقضاة، وكم من دعوة تبدل فيها القضاة عشرات المرات، وعشر سنوات كلام يقال لهما كذب في كذب، فلو جمعا المبلغ الكبير الذي أنفق في هذه الدعوة وسامحا بعضهما بقدر هذا المبلغ لعاشا حياة مريحة، الإنسان أحياناً لا يضع ثمناً للقلق، القلق متعب جداً، أجمل كلمة قالها سيدنا معاوية لسيدنا عمر بن العاص قال: يا عمر ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت من مدخل إلا أحسنت الخروج منه، فقال له معاوية: لست بداهية، قال: أما أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه!

الشح مركب في أصل طبع الإنسان :

كلما كنت موفقاً أو عاقلاً تستفيد من خبرات الآخرين أو من حقائق الشرع:

(وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتْ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ)

كل إنسان عنده نوع من الشح، أيها الأخوة، حينما قال الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران:14]

محبة المال مزروعة في أصل طبع الإنسان، هو حريص على ما في يديه.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 19-21]

إذا مسه الخير منوع هذا معنى الشح، ومركب في أصل طبع الإنسان، لكن الإنسان المؤمن الذي آمن بالله خالقاً ورباً ومسيراً وآمن بالآخرة ينتصر على بشريته فيعطي كل ذي حق حقه، وإذا كان مستواه أرقى يحسن، فالإنسان حينما يعطي حقوق الآخرين وهي في يده وبإمكانه ألا يعطي يرقى عند الله، وإذا زاد على ذلك وكان محسناً يرقى عند الله عز وجل، فالناس جميعاً متساوون في حبهم للمال وحبهم للنساء وحبهم لكل شهوات أودعت فيهم، من هو النبي؟ هو الذي انتصر كلياً على دوافعه الأرضية، من هو المؤمن؟ هو الذي انتصر في الأعم الأغلب على دوافعه الأرضية.

الإنسان لا يرقى إلا عندما يغلب حظوظ نفسه :

قال تعالى:

(وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

إذا أدى الإنسان ما عليه من حقوق كمثال: أب ترك بيتاً في حي راق في الشام والورثة ابن وابنة، البنت متزوجة ولها زوج، وزوجها له بيت، وهذا البيت الذي ترك للأخ وأخته، كم أخ يقول لأخته: هذا بيت العائلة تعالي اسكني معنا، يسكن وحده مع زوجته فيه ويتمتع فيه وهو في حي راق جداً، ويقول لأخته: هذا بيت العائلة؟!! كم إنسان يقيِّم البيت فارغاً ويعطي أخته حقها الكامل من ثمن هذا البيت؟ فكل إنسان حريص على بيت أو على مبلغ كبير من المال أو على اقتناء أشياء ثمينة، أما حينما ينتصر على بشريته فيعطي كل ذي حق حقه ثم يحسن له عند الله مقام رفيع.

(وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

لذلك الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر: 9]

أنت لا ترقى إلا عندما تغلب حظوظ نفسك.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

العدل وأنواعه :

أنت لا تغنى عند الله إلا عندما تغلب حظوظ نفسك.

(وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً*وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)

العدل نوعان عدل مطلق وعدل تام، عدل مطلق في ميل القلب الذي عنده زوجتان أو ولدان لا بد من أن يميل لأحدهما أكثر من الآخر وهذا الذي قال عنه النبي الكريم:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ))

[سنن الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

قضية الميل أن يعدل في الميل لا يستطيعها إنسان، لكن الذي طالبك الله به العدل التام في المسكن والإنفاق والكساء وحسن المعاشرة، لك أن تبتسم للاثنتين وتجلس مع الاثنتين، ولك أن تؤنس الاثنتين، وتسكن كل واحدة منهن في بيت يليق بها، ولك أن تنفق على الاثنتين هذا مطالب به، أما ميلك لهذه لأنها أذكى أو أجمل هذا لن تحاسب عليه لذلك:

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)

هذا العدل المطلق، هذا ميل القلب، لكنكم مكلفون أن تعدلوا العدل التام في المسكن والإنفاق والمبيت وحسن المعاشرة.

لك أن تحب وتبغض ولكن إياك أن يحملك حبك على معصية وبغضك على ظلم :

قال تعالى:

(فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)

المعلقة ليست بلا زوج فتتزوج، وليست تأخذ نصيبها من الزواج، حالة صعبة جداً لا سلم ولا حرب، ليست متزوجة فتنعم بالزواج، وليست بلا زوج فتتزوج، هذا أشد أنواع الظلم إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان:

(فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)

لك أن تحب ولك أن تبغض، لكن إياك ثم إياك أن يحملك حبك على معصية، وإياك ثم إياك أن يحملك بغضك على ظلم، أحب من تشاء وأبغض من تشاء، مادام الحب والبغض لا يحملانك على معصية أو ظلم فلا مانع، سيدنا عمر دخل عليه قاتل أخيه قال له: اجلس لا ترني وجهك، فقال قاتل أخيه: أتحبني؟ قال: والله لا أحبك، لكن ما الذي فعله هذا القاتل؟ أسلم، فلما أسلم أنهى المشكلة، انتهى الأمر لم يبق مشكلة، لكن قال له: لا ترني وجهك، قال له: هل يمنعك بغضك لي أن تعطيني

حقي؟ قال: لا والله، فقال هذا الإنسان بلا حياء: إنما يأسف على هذا الحب النساء، هذا منهج، أحببته أو لم تحبه حقه واصل، نحن على توهم البغض نحرمه كل شيء، إنسان أحياناً يحمد الله ستين عاماً فيضار في الوصية فتجب له النار! عنده اثنتين الجديدة أصغر وسيطرت عليه أكثر طلبت منه أن يكتب بيتين باسم أولادها الصغار، والقديمة لها أولاد حرموا تجب له النار!

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[سنن الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فالحقيقة هنا لك أن تحب وتبغض، ولكن إياك أن يحملك حبك على معصية، ثم إياك أن يحملك بغضك على ظلم.

فساد البين بين الأخوة أخطر من الكفر :

قال تعالى:

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا)

ذكرت كم بند؟ ذكرت أن تعدل بين الزوجتين في السكنى ثم في الإنفاق ثم في المبيت في الوقت ثم في حسن المعاشرة.

(وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا)

تعدلوا وتتقوا أن تعصوا الله عز وجل.

(وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

مرة ثانية: الإنسان له ميول فطرية، من هو البطل؟ الذي ينتصر على ميوله الفطرية، فاتقى أن يعصي الله وأصلح قال:

((عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا سَلْمَانُ لَا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ؟ قَالَ: تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[سنن الترمذي عَنْ سلمان]

دققوا في هذا الحديث:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

[أبي الدَّرْدَاء عَنْ سنن الترمذي]

إذا إنسان كره مسلماً، والمسلم لم ينصفه وكان قاسياً والله لا أبالغ قد تنقلب هذه الكراهية للإسلام، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَن الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّه عَنْهم قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّين لَا حَالِقَةُ الشَّعَر وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[أحمد عَن الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

لذلك فساد البين بين الأخوة الكرام أخطر من الكفر تنتهي بهم لكراهية الدين، فإذا كنت منتمياً إلى مسجد فانتبه، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.

المحبة لا تكون إلا بالكمال والعدل والإحسان :

ذكرت مرة أن الأب يُحترم دائماً لأنه أب، لكن لا يُحَب دائماً إلا إذا كان كاملاً! لا تقل: أنا أب يجب أن يحبني أولادي، يحبونك إذا كنت عادلاً بينهم ومحسن، ينبغي أن تحترم لأنك أب، فقط احترام، أما محبة لا تكون إلا بالكمال والعدل والإحسان. قال:

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

الله عز وجل كريم، أبغض شيء إلي التفريق بين الزوجين، حينما أحضر فرقة بين زوجين لي كلمة مشهورة أقول: هيأ الله لك أيها الشاب خيراً من زوجتك هذه التي افترقت عنها، وأقول لأبيها هيأ الله لابنتك زوجاً خيراً من هذا الذي تركها.

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

الله عز وجل قدير! تروي الكتب قصة ذات مغزى فقط: أن إنساناً كان يجلس مع زوجته طرق سائل الباب وهما يأكلان الدجاج فهمَّت أن تعطيه بعض الطعام لأنه فقير، فنهرها وعنفها وقال: اطرديه، بعد حين العلاقة ساءت بينهما فطلقها، تزوجها رجل سعدت بقربه كثيراً، وهما يجلسان ويأكلان الدجاج طرق طارق، فلما فتحت الباب عادت مضطربة قال: من طرق الباب؟ قالت: سائل، قال: من هو هذا السائل؟ قالت: زوجي الأول! قال: هل تدرين من أنا؟ أنا السائل الأول! أحياناً الإنسان يكون متجبراً والله يذله، وأذلّ الله الأمريكان، الآن يا رب يكون متجبراً متغطرساً هذا عقابه عذاب مهين.

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

أجمل كلمة حكتها زوجة شريح قالت: يا أبا أمية لقد كان لي من رجال قومي من هو كفء لي وكان لك من نساء قومك من هي كفء لك، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، فاتق الله فيّ وامتثل قوله تعالى: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

تقول: لا يوجد غيري! يوجد مليون مثلك، تقول هي كذلك يوجد مليون مثلها، تواضع، بسبب النفاق تجد العي بين الأزواج.

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً)

الله عز وجل قادر في كل لحظة أن يعطي كل طرف أحسن من زوجته الحالية بمليون مرة، لكن الله امتحنك بهذه الزوجة، إنسان له زوجة سيئة جداً قيل له: طلقها، قال: والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(58-69): تفسير الآيات 131-134، التوحيد وأصل الفساد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-04-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

كل ما في الكون ملك لله عز وجل والعبرة أن ترضى بقضاء الله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً)

أيها الأخوة الكرام: آيات القرآن الكريم كما يقول بعض علماء الأمة آخذ بعضها برقاب بعضٍ، أي أن هناك ارتباط دقيق جداً يدركه من وفقه الله لفهم هذا الكتاب، فالله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)

[سورة النساء: 130]

أي كل ما في الكون ملك لله عز وجل، والله عز وجل قادر أن يهب التي طلقها زوجها زوجاً خيراً منه، وقادر أن يهب الذي أبت عليه زوجته أن تكون زوجة صالحة أن يهبه زوجة صالحة، وقادر على الذي رضي بقضاء الله وقدره فمنحه الله البنات من دون الذكور ورضي بهذا القضاء أن يهبه الله أصهاراً هم أقرب إليه من أولاده، وقادر على الذي وهبه الذكور من دون الإناث أن يعينه في شؤون حياته، العبرة أن ترضى بقضاء الله، العبرة أن تؤمن أن الأمور كلها بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى.

الخيارات عند الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى :

حينما تستقبل قضاء الله عز وجل بالرضا، فالله عز وجل له ملك السماوات والأرض، والأمر كله بيده، وبالتعبير القريب إلى أذهان الأخوة الكرام: الخيارات عند الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى، كما جعله رجلاً عقيماً، الله عز وجل قال:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ*أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً)

[سورة الشورى: 49 - 50]

هذا الذي جعله الله عقيماً لحكمة أرادها، لو أن هذا الإنسان استقبل هذا القضاء والقدر بالرضا، ورضي عن الله عز وجل فقد يسخر له ربنا من يخدمه خدمة تفوق خدمة الابن، أحياناً الإنسان ينجب أولاداً ذكوراً كلهم مسافرون ولا ينتفع بهم إطلاقاً، لذلك فهمَ بعض العلماء من قوله تعالى:

(وَبَنِينَ شُهُوداً)

[سورة المدثر: 13]

أي بنين معه، في معونته، وليسوا بعيدين عنه، فقد يهب الله الذكور، ولا تنتفع بهم، وقد يهب الله الإناث ولا ترضى بهنّ، وقد يجعل الله من يشاء عقيماً، فإذا قبل حكم الله عز وجل سخّر له من يخدمه أفضل من خدمة أولاده، العبرة أن ترضى عن الله، العبرة أن ترى أن الله بيده الخير، يؤتي الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، العبرة أن ترى الأمر كله بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى.

الموحد الحقيقي :

الآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

وقد ذكرت لكم من قبل أن (اللام) هنا في كلمة لله لامُ الملك، أي كل الكون ملك لله عز وجل، لكن ملكية الله لهذا الكون هي أعلى درجات الملكية، فهو يملكه خلقاً، ويملكه تصرفاً، ويملكه مصيراً، بينما البشر قد يملكون ولا ينتفعون، وقد ينتفعون ولا يملكون، وقد ينتفعون ويملكون، والمصير ليس لهم. وجاءت هذه الآية ثلاث مرات؛ المرة الأولى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)

[سورة النساء: 126]

المرة الثانية:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الآية الثالثة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

أي كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئننا، وهؤلاء الذين يضعف إيمانهم في هذه الأيام العصيبة يرون أن الأرض ليست بملك الله عز وجل، بملك أناس بلغوا ذروة القوة، وفرضوا إرادتهم على كل الشعوب، وأنهم آلهة الأرض، وهذا يبعث في النفس القلق والخوف والضجر، بينما الموحد متوازن، والبطولة أن توحد في مثل هذه المحن لا في الرخاء، في الرخاء جميع الناس موحدون، ولكن الموحد الحقيقي هو الذي حينما تشتد المحن يبقى متيقناً أن الأمر بيد الله.

عظمة الإيمان أن تشعر بكل خلية في جسمك أن الأمر بيد الله :

يروى أن أحد الطغاة استدعى صحابياً جليلاً في بدايات العهد الأموي ليقتله، فقال له هذا الصحابي، أو لعله تابعي، لا أذكر، قال له: لو علمت أن أجلي بيدك ما عبدت غيرك، لكن أجلي بيد الله عز وجل.

عظمة الإيمان أيها الأخوة أن تشعر بكل خلية في جسمك، وبكل قطرة في دمك أن الأمر بيد الله، أنت حينما تقرأ القرآن، وتقرأ قوله تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

تطمئن، وحينما تقرأ قوله تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

وحينما تقرأ قوله تعالى:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم: 47]

وحينما تقرأ قوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

معنى التوحيد :

في صفحة واحدة الله جل جلاله أعاد هذه الآية بصيغ مختلفة ثلاث مرات:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

نحن المؤمنون إن شاء الله نؤمن أن الله فعال، والآية الكريمة:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة البروج:14-16]

الذي يريده يفعله، ولا تستطيع قوة في الأرض أن تفعل شيئاً ما أراده الله، كما أنه لا تستطيع قوة في الأرض أن تمنع عنك خيراً أراده الله، كما أنه لا تستطيع قوة في الأرض أن تجلب لك منفعة حجبها الله عنك.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

هذا هو التوحيد، وما من وقت نحن في أمس الحاجة إلى علم التوحيد، أو إلى التوحيد كهذا الوقت، لأن الله جلت حكمته من امتحاناته الصعبة للمؤمنين أنه يقوي الكافر، والكافر يفعل فيما يبدو ما يريد، فيما يبدو لضعيف البصر، لكن الحقيقة أن يفعل الله ما يريد.

العبرة أن ترى أن يد الله تعمل وحدها وليس مع الله أحد هذه حقيقة التوحيد :

نحن مدعوون أيها الأخوة إلى التعمق في آيات التوحيد، الموضوع متعلق بالزواج، أنت تزوجت امرأة صالحة، أو تزوجت امرأة ليست صالحة، لو حصل فراق بينكما فالله عز وجل قادر أن يعطي المرأة التي طلقت زوجاً خيراً من زوجها، وقادر أن يعطي الرجل الذي لم تكن زوجته مقدرة له زوجة أخرى تقدره، وقادر لمن أنجب ذكوراً أن يملأ قلبه رضاً، ولمن أنجب إناثاً أن يملأ قلبه رضاً، ولمن جعله الله عقيماً أن يملأ قلبه رضاً، والعبرة أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، وليس مع الله أحد، ليس في الكون إلا الله، هذه حقيقة التوحيد، على شبكية العين هناك قوى لا تعد ولا تحصى، قوى طاغية غاشمة ظالمة تقتل، تدمر، تهدم، هذا على الشبكية، أما عند إدراك المؤمن العميق فإن الأمر كله بيد الله، والآية واضحة:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

ترون وتسمعون كيف ينزع الملك ممن يشاء، الذي كان قبل أيام في أعلى درجة هو يتخفى من مكان إلى مكان:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران: 196-197]

حينما ترى أن الله يعمل وحده، وأنه يعطي كل إنسان ما يستحقه، وأن حساب الله عسير.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

عندئذٍ ينبغي أن تخاف من الله، ولو وجدت الحبل مرخىً لك، هذا الحبل المرخى يشد في أيّة لحظة.

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة الأعراف: 183]

أصل الفساد ومصدره :

إن الإنسان مربوط بحبل لا ينقطع، في أية لحظة أرادها الله عز وجل يشد الحبل فإذا هو في قبضة الله، يسحب من تحته البساط فإذا هو بيد الله عز وجل، كأن هذه الآية:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

تطمين لكل زوجين افتراقا، كنت أقول دائماً: حينما يفترق زوجان أدعو لكل منهما أن يهبه شريكاً أفضل من الذي كان، وقد يحدث هذا:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)

هناك ملمح أيها الأخوة، وهو أن الذي سخره الله ليس فيه فساد إطلاقاً، هذه الأرض مسخرة، دورتها حول الشمس من ملايين السنين، لا تتقدم ولا تتأخر، أدق الساعات في العالم قد تقصر في العام كله ثانية واحدة، كيف نكشف أنها قصرت ثانية؟ على حركة نجم، فالكون يعمل بنظام عجيب، لأنه مسخّر، إذاً لا يتطرق الفساد إلى الكون أبداً، كل شيء ما سوى الإنس والجن ليس فيه فساد، لأنه مسخر بيد الله عز وجل، وتجد في حياة الحيوان وفي حياة النبات، وحتى في حياة الكواكب والأفلاك نظاماً دقيقاً دقة متناهية، وانسجاماً عجيباً، فالفساد من أين يأتي؟ من مخلوق سمح الله له أن يختار، وأودع فيه الشهوات، وأعطاه منهجاً، فهذا المخلوق وهو الإنسان والجن معه يتحركان انطلاقاً من شهواتهما من دون منهج يسيران عليه فكان الفساد.

ليس هناك فساد في خلق الله أبداً لأن الله كماله مطلق وشمولي :

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم: 41]

ليس هناك فساد في خلق الله أبداً، لأن الله كماله مطلق، وكماله شمولي، وكل شيء خلقه في أكمل مستوى.

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

مرة حدثتكم أن هذه البعوضة التي لا تنظر إليها لتفاهتها عندك في رأسها مئة عين، وفي فمها ثمانية وأربعين سناً، وفي صدرها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، تملك جهازاً لا تملكه الطائرات، مستقبلات حرارية، ترى بالأشعة تحت الحمراء، ترى الشيء في الليل بحرارته لا بلونه وشكله، عندها جهاز رادار، جهاز تخدير، عندها جهاز تمييع للدم، عندها محاجم، عندها مخالب، الله عز وجل قال:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

هذه البعوضة التي تزن واحداً على ألف من الغرام دقة صنعها ليست أقل من دقة صنع الحوت الأزرق، الذي يبلغ مئة وخمسين طناً، وجبته المتواضعة أربعة أطنان، ووليده رضعته تساوي ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات بطن حديد كل يوم:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

الفساد محصور فقط في الإنس والجن

لأنهما مخلوقان أعطيا حرية الاختيار :

الله عز وجل بيده الخلق والأمر، فلذلك من أين يأتي الفساد؟ هناك سمكة في البحر اسمها السمكة الطبيبة، كأن ثمة اتفاقاً بين كل أسماك البحر أن هذه السمكة لا تلتهم، ولا تؤكل، مهمتها معالجة الإنتانات على وجه الأسماك، والأسماك تقف في صف طويل تنتظر دورها في المعالجة، في البحر يوجد طب، وهذه السمكة العرف المكتوب عندها أن سمكة كبيرة لا تلتهمها أبداً؟ غذاؤها هذه الإنتانات التي في حراشف الأسماك، فكل سمكة كبيرة حتى ضمن فمها تفتح لها فمها وتدخل إلى فمها وتنظف هذه الإنتانات، وتريحها من هذه الأمراض:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

أين الفساد؟ في مخلوق أودع الله فيه الشهوات، ومنحه حرية الاختيار، وأعطاه منهجاً، فانطلق بدافع من شهواته من دون منهج يسير عليه، فكان الفساد في الأرض، فلذلك الله عز وجل يقول:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم: 41]

الفساد محصور فقط في الإنس والجن، لأنهما مخلوقان أعطيا حرية الاختيار، وأودعت فيهما الشهوات، وأعطيا منهجان يسيران عليه، فانطلقا بدافع من الشهوات من دون منهج يسيرا عليه، فكان الفساد في الأرض. الآية الكريمة:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

علاج الفساد :

كان من الممكن ألا يذيقنا الله بعض الذي نعمل، كان من الممكن أن يكون في الأرض إباحية بلا مرض الإيدز، لكن مرض الإيدز قدره الله عز وجل عقاباً للانحراف، العلة لعلهم يرجعون إليه:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)

أي إن أردتم ألا يكون هناك فساد فاتقوا الله، أنت آلة معقدة جداً، ولك صانع حكيم، ولهذا الصانع تعليمات، راقب نفسك بشكل عفوي، إن اشتريت آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، معقدة التركيب، لا تستعملها قبل أن تقرأ تعليمات الصانع، الأشخاص المحترمون إذا اقتنوا آلة غالية جداً، ولها فائدة كبيرة جداً لا يستخدمون هذه الآلة إلا بعد قراءة تعليمات الصانع، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها.

العلاقة العلمية والعلاقة الوضعية :

الله عز وجل يقول:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)

لعلك إن انطلقت من محبتك لذاتك، وما منا واحد على وجه الأرض إلا ويحب نفسه، يحب ذاته، أعلن هذا أم لن يعلنه، كل واحد منا يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب استمرار وجوده، ويحب كمال وجوده، فأنت حينما تنطلق من حبك لوجودك، ومن حبك لسلامة وجودك، ومن حبك لكمال وجودك، ومن حبك لاستمرار وجودك، ينبغي أن تتقي الله، لأنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، ينبغي أن تؤمن أن العلاقة بين المعصية وبين نتائجها علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، وكنت أضرب هذا المثل دائماً، أنت إذا تلقيت أمراً وأنت في مدرسة، مثلاً أن تخرج من هذا الباب دون هذا الباب، وخالفت الأمر تعاقب، لكن ليس هناك علاقة علمية بين العقاب وبين المخالفة، العلاقة وضعية، المنظم واضع نظام المدرسة ارتأى أن يكون هذا الباب للدخول، وذاك الباب للخروج، فإذا خالفت هذا الأمر تستحق العقوبة، ولكن ليس ثمة علاقة علمية بين العقوبة وبين السبب، العلاقة وضعية، نحن وضعناها.

الآن إنسان خرج من بلده معه مبلغ من المال حصَّله بجهد شرعي، في قوانين تعاقبه، طيب ما في علاقة علمية بين إنسان يحمل ألف بالعملات الصعبة وخرج بها وبين العقاب، العلاقة وضعية، القوانين تمنع ذلك، أما إذا وضع إنسان يده على مدفأة وهي مشتعلة تحترق يده، هناك علاقة علمية بين وضع اليد والاحتراق، يجب أن نفهم جميعاً أن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه وبين النهي الإلهي ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة.

لو فرضنا أن وزير الكهرباء كتب أو أعطى تعليمات أن يكتب على عمود يحمل تيار عالي التوتر: ممنوع الاقتراب تحت طائلة الهلاك، لو جاء إنسان وأراد أن يقترب، لكن خاف من الشرطي، رأى أن ثمة شرطة، ليس هنا موضوع شرطة، التيار نفسه يعاقبك، هنا لا تحتاج إلى شرطة، فالإنسان الأحمق يقول: لا أحد يراني، هذه العلاقة بين احتراق الإنسان واقترابه من التيار عالي التوتر علاقة

علمية، فلو كنت في منتصف الليل وحدك واقتربت تحترق. فحينما تفهم أنت منهج الله هكذا؛ أن هناك علاقة علمية بين المعصية ونتائجها، وبين الطاعة ونتائجها، تقبل على طاعة الله عز وجل.

الدين ضمانة لسلامتنا وما المشاكل إلا بسبب خروجنا عن منهج الله سبحانه :

حينما تمشي في مكان مفتوح ووجدت لوحة مكتوب عليها: لا تتجاوز "حقل ألغام"، أولاً: هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة؟ لا، بالعكس، تشعر بامتنان له، هل تعد هذه اللوحة تقييداً لحريتك؟ لا، هي ضمان لسلامتك. هذا هو الدين، الدين ضمانة لسلامتنا، لما أمر الله عز وجل بالحجاب، أمر بعدم الاختلاط، أمر بالزواج، أمر بالصدق، أمر بالأمانة، أمر بالعفة، بتلاقي مجتمع سليم متوازن مرتاح فيه تعاون، أما حينما تخرق حدود الله عز وجل، وحينما تنتهك حرمات الله عز وجل ندفع الثمن، ينتهي هذا الكلام بهذه القاعدة، وأنا والله صغتها صياغة أعني ما أقول، ما من مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، لو أردت أن تستقصي المآسي والمشكلات التي يعاني منها البشر، فما من مشكلة إلا بسبب معصية، وما من معصية إلا بسبب جهل.

أخ كريم أهداني كتاباً، ألف هذا الكتاب رجل كان مديراً للسجون، فذكر في الكتاب ثلاثاً وستين حالة من المساجين عنده، كل سجين وقصته وذنبه، لكن أجمل ما في هذا الكتاب أنه بعد أن يذكر قصة السجين والحكم الذي صدر بحقه، يذكر المخالفة الشرعية التي سببت له هذه الجريمة وهذه العقوبة، فما من مشكلة يعاني منها البشر إلا بسبب مخالفة شرعية. عند ضباط الأمن الجنائي قاعدة عند كل جريمة، يقولون: فتش عن المرأة، قد يكون وراء هذه الجريمة امرأة مثلاً، أو تنافس على امرأة، أو مشكلة، أنا أقول: فتش عن المعصية، هذا الأصح، ما من مشكلة تقع إلا وراءها معصية حتى العالم الإسلامي، على الإنسان ألا يكون كالنعامة يغمس رأسه في الرمل.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: 165]

لا تعتب على أحد، لا تكن مشجباً تعلق عليه أخطاؤك، تقول: يا أخي ماسونية، عالمية، استعمار، أخطاؤنا من عندنا، ما من مشكلة يعاني منها المسلمون في شتى أقطارهم إلا والسبب معصيتهم لله عز وجل، حتى في أمور الرزق.

الرزق بيد الله عز وجل وما علينا إلا أن نستقيم على أمره :

قال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

الله عز وجل في هذا العام أعطانا رسالة، أرانا شيئاً من فضله، الأنهار التي جفت من ثلاثين عاماً تفجرت الآن، نهر بردى من عشرين عاماً ما وصل إلى قرية العتيبة، الآن وصل، وأصبحت بحيرة ضخمة، الله عز وجل أعطانا رسالة أن الأمر بيده، الرزق بيد الله عز وجل، فما علينا إلا أن نستقيم على أمره، الفساد من عند أنفسنا، البطل لا يقفز على المشكلات بل يواجهها، فنحن تعوّدنا أن نحيل كل مشكلاتنا إلى غيرنا، وارتحنا من المسؤولية، مشكلاتنا من عند أنفسنا.

إن أحسنّا فلأنفسنا وإن أسأنا فعليها :

يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً)

هذه الآية معناها: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني عنكم، ولكن الله جل شأنه لا يرضى لعباده الكفر.

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

[سورة الزمر: 7]

((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

لا تظنوا أيها العباد أن إيمانكم ينفع الله عز وجل، إن آمنتم جميعاً أو كفرتم جميعاً عند الله سواء، لكنكم إذا أمنتم فلأنفسكم، وإن عصيتم فعليها، إن أحسنتمْ أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها، فالإحسان لك، والإساءة عليك.

كل الراحة والطمأنينة نجدها في طاعة الله عز وجل :

الآية دقيقة جداً:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

هذان الزوجان اللذان افترقا الله عز وجل قادر أن يهب كلاً منهما شريكاً أفضل من الذي تركه، مع وجود الله عز وجل وقدرته المطلقة، وحكمته المطلقة، ورحمته المطلقة، وغناه المطلق، ما من مشكلة في الأرض وفيها مشكلات لا تعد ولا تحصى إلا بسبب ضعف الإيمان وبسبب المعصية، أما لو آمنت بالله الإيمان الحق، واستقمت على أمره فالله عز وجل يعطيك ما تسأل، ولك عنده المكانة العلية. مرةً ثالثة:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

تطمين:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

دقق في هذا المعنى، أنت عبد الله عز وجل، أعطاك منهجاً، وقال لك: أطعني.

أطع أمرانا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا

وسلم إلينا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا، الخير كله، والسعادة كلها، والراحة النفسية كلها، والطمأنينة كلها في طاعة الله عز وجل، والآية الكريمة:

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك :

أنت حينما تشتد عليك الأمور عليك بطاعة الله عز وجل، الله ما كلفك فوق ما تطيق، أدق فكرة تكلمت بها اليوم في الخطبة أن من تلبيس إبليس أن الذي بمقدورك أن تفعله ضمن طاقتك، ولا تساءل، ولا تحاسب، و ليس هناك حرج، ولا ضيق، ولا مشكلة يزهدك فيه، والذي لا تستطيعه يقحمك فيه، كرجلٍ دخل بيته، ألا يستطيع أن يصلي؟ طبعاً، ألا يستطيع أن يضبط لسانه؟ أن يأمر أهله بالصلاة؟ أن يصلي قبل أن ينام؟ أن يقرأ القرآن؟ أن يسبح الواحد الديان؟ وأنه إذا أكل يسمي الله عز وجل، ويوجّه لأولاده نصائح ثمينة، يحضهم على معرفة الله عز وجل، إذا دخل إلى محله

التجاري أليس بإمكانه أن يكون صادقاً نصوحاً للذي يبيعه، متقناً لعمله؟ كله بإمكانك، هل هناك إنسان يسألك في الأرض لماذا أنت صادق؟ أنت متّهم أنك صادق، لا، هذا مستحيل، لا أحد يحاسبك على أن تكون صادقاً، أو أن تكون عفيفاً، وأن تكون أميناً، أو أن تكون متقناً لعملك، أو أن تكون أباً كاملاً أو زوجاً رحيماً بزوجتك، مليون عمل بإمكانك أن تفعله ضمن طاقتك، ضمن إمكانياتك دون أن تسأل، دون أن تحاسب، هذا الشيء السهل الذي بقدرتك أن تفعله يزهدك الشيطان به، والتي لا تستطيعه دولٌ يحمسك فيه، هذا من تلبيس إبليس، أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك، فأنا أملك أن أطيع الله، الله قال لي:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

أطعه وتوكل عليه،

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

[سورة الطلاق: 3]

يكفيه، هذه حالة مريحة جداً، ونحن في أمس الحاجة إليها الآن، قلق شديد، خوف، العدوان قريب من كل مسلم، ما من حدث يقع في أطراف الدنيا لا علاقة لك به، الأحداث لها تداعيات كما يقولون، فكل شيء يقع في طرف الدنيا يتأثر مَن في الطرف الآخر، ملخص هذا الكلام الطويل: أطع ربك، وتوكل عليه، وفوض أمرك إليه:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف: 144]

شأنك كعبد أن تطيعه، وشأنه كرب أن يرحمك، وأن يحفظك، وأن يوفقك، فأنت أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

إن أطعنا الله تعالى أتتنا الدنيا وهي راغمة :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً)

[سورة النساء: 133]

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد: 38]

الله عز وجل منحنا نعمة الوجود، ومنحنا نعمة الإمداد، ومنحنا نعمة الهدى والرشاد، فإن استنكفنا أن نعبده وإن تولينا عن طاعته يستبدل قوماً غيرنا، ثم يقول الله تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

من أراد الدنيا، من أراد التفوق في الدنيا، من أراد أن يكون ذا شأن في الدنيا، من أراد أن يكون متألقاً في الدنيا، من أراد أن يبقى ذكره في الدنيا، هذا الإنسان ليس طموحاً، لأن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة، أنت إذا أطعت الله أتتك الدنيا وهي راغمة، من آثر أخرته على دنياه ربحهما معناً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، أنت إذا أردت الله أتتك الدنيا وهي راغمة.

من يختر الله تعالى يكن في الدنيا وجيهاً وفي الآخرة وجيهاً :

قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

اطلب ثواب الدنيا والآخرة، الآن في علماء كبار اخترعوا أشياء نافعة ارتقى ذكرهم، وأشاد الناس بهم، ونصبوا لهم تماثيل، وأقاموا لهم حفلات تكريم بعد موتهم، لو أنهم بهذا الاختراع ابتغوا وجه الله عز وجل، وأرادوا خدمة البشرية، والتخفيف عن عباد الله لكسبوا الدنيا والآخرة، كل إنسان له مراد، هذا أراد السمعة فله السمعة، هذا أراد الشهرة فله الشهرة، هذا أراد المال الوفير من هذا الاختراع له ذلك، هذا أراد أن يبقى ذكره مستمراً له ذلك، لكنه لو أراد الله عز وجل له الدنيا والآخرة، كلام دقيق، لو اخترت الله لكنت في الدنيا وجيهاً، وفي الآخرة وجيهاً، وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة، أنت حينما تريد لقاء الله عز وجل يرفع الله لك ذكرك في الدنيا، الآن في الحرم النبوي لو دخل أكبر ملك يرى نفسه صغيراً أمام هذا المقام العظيم.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 4]

مرة إنسان أجنبي ما صدّق، لم يجد حركة في أحد الأيام في الشام، قال له: عندنا عطلة رسمية، قال له: ما المناسبة؟ قال له: والله عندنا عيد المولد، هناك تعطيل، قال له: من هو صاحب هذه المناسبة؟ قال له: رجل كان نبي هذه الأمة، قال له: من كم سنة مات؟ قال له: من ألف وأربعمئة سنة، صعق!! من ألف وأربعمئة عام يموت هذا الإنسان، ونحتفل كل عام بميلاده؟

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 4]

فإذا أردت الله لك الدنيا والآخرة، والله تأتيك الدنيا وهي راغمة، واللهِ هي أحقر من أن تكون عقاباً لإنسان، أو مكافأة لإنسان، لكنها تأتيك عرضاً.

حينما يريد الإنسان الآخرة يكسب الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا)

إنسان يريد الدنيا فقط، تأتيه أموال طائلة، بيل غيت يملك تسعين ملياراً، وهو شاب، عمره أربعون سنة، ثروته تسعون ملياراً، إذا مات ليس بشيء، أي إنسان لو أراد الدنيا فقط ومات انتهى كل شيء، فالإنسان عظمته بقطر شريانه التاجي، ميل وربع، كل مكانته وهيمنته وقوته وأمواله وأموال منقولة وغير منقولة على ميل وربع بالشريان التاجي، عندما يغلق يأتي النعي، انتهت الأمور، كل عظمته وثروته وأمواله المنقولة وغير المنقولة وهيمنته وشخصيته وملكه على سيولة دمه، إذا تجمد الدم في العروق انتهت الحياة، أو على نمو خلاياه، إذا نمت نمواً عشوائياً، صار معه ورم خبيث انتهى، فحينما يريد الإنسان الآخرة كسب الدنيا والآخرة.

يقول أحد العلماء: ما يفعل أعدائي بي، بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟ لذلك إذا أطعت الله عز وجل كسبت الدنيا والآخرة، وهذا بعض معاني قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

الشهرة في الدنيا لا قيمة لها :

أنا أختم هذا الدرس بهذه الآية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجاثية: 21]

في الآخرة مفروغ منهما، بالدنيا قال:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

[سورة الجاثية: 21]

فهل بيت المؤمن كبيت الكافر؟ زواج المؤمن كزواج الكافر؟ أولاد المؤمن كأولاد الكافر؟ عمل المؤمن كعمل الكافر؟ سمعة المؤمن كسمعة الكافر؟ سعادته كشقائه؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

من كان يريد ثواب الدنيا، الذي يريد مال الدنيا، منصب رفيع، بيت فخم، مكانة علية، إذا أراد الشهرة، أشهر مخلوق في الأرض إبليس، لا أحد أشهر منه في الأرض، بكل اللغات له مكانة، فالشهرة لا قيمة لها:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

العبرة في النهاية أن تكسب الآخرة :

أنت اختر أن تكون مع الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما اختار أن يلقى ربه بكى سيدنا الصديق، سيدنا بلال حينما جاءه ملك الموت قالت له ابنته: وا كربتاه يا أبتِ، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه، فالبطولة أن تختار الآخرة والله الذي لا إله إلا هو تأتيك الدنيا وهي راغمة، والتوفيق الذي يناله المؤمن يفوق حد الخيال.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل: 5-7]

الأمور ميسرة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

والله بلغني أن إنساناً من الذين ذهبوا في أحداث العراق ليدافعوا عن الإسلام قتل، أقسم بالله، وهو شاب، أربعة أيام والحر شديد وكأنه نائم، فقال صاحبه: أنا حفرت له حفرةً ودفنته وقبَّلته قبل أن أدفنه، هذا الشاب كسب الآخرة كلها، كسب الجنة، أربعة أيام، الجثة بالحر تتفسخ بعد ساعات، أربعة أيام وهو نائم، قال: والله كأنه نائم، حفر له حفرة في صحن مسجد ودفنه بها، وقبَّله قبل أن يدفنه، عطاء الله لا يقدر بثمن.

الآن واحد مثلاً ملك دولة فيها ستة آلاف بئر، أكبر مخزون نفط بالعالم، ملكها بكاملها، فرضاً، وواحد ملك الجنة، أيها أكثر ربحاً؟ اسمع الآية:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران:185]

يجب أن تكون مقاييسنا مقاييس قرآنية،

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ)

ليس معنى ذلك إذا دخل العدوان نقول: إنها مشيئة الله، لا، يجب أن يقاوم طبعاً، لكن أقول لك: في النهاية سوف نموت جميعاً، من هو المنتصر في الحقيقة؟ الذي كسب الآخرة.

هذا الغلام الذي قال للملك: لن تقتلني إلا إذا أخذت سهماً من جعبتي، وجمعت الناس في مكان عام، وقلت قبل أن تطلق السهم: بسم رب الغلام، فمات الغلام، ما الذي حصل؟ الناس آمنوا برب الغلام، ولم يؤمنوا بالملك، هو ضحى بحياته، لكنه كسب الآخرة، الآن عندنا نصر مبدئي يملكه كل واحد

منا، ولو أننا على صعيد الواقع ما انتصرنا، إذا مات الرجل مؤمناً مستقيماً موحداً له عمل صالح، هذا منتصر، ولو مات بقذيفة، العبرة أن تكسب الآخرة، هذا النصر متاح لكل واحد منا، أن يموت مؤمناً.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(59-69): تفسير الآيات 131-134 ، العدل والظلم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-09

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَو الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَو فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

أيها الأخوة الكرام، كما هو معلوم لديكم أن كل آية تتصدر بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، معنى ذلك أنه بعقدك الإيماني مع الله ينبغي أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، ذلك لأن الله جل جلاله يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين.

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله وأن تؤمن بما أراده منك :

لأنك آمنت بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، لأنك آمنت بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، لأنك آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، لأنك آمنت بكل ذلك، آمنت به خبيراً وعليماً وحكيماً ورحيماً وعدلاً، لأنك آمنت به الإيمان الصحيح ينبغي أن تنصاع لأمره وأن تقبل على معرفة مراده منك، هناك من يؤمن بالله ولا يبحث عن مراد الله منه هذا إيمان لا يقدم ولا يؤخر.

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله وأن تؤمن بما أراده منك، تؤمن بالله عن طريق الكون وإعمال العقل، ثم تتعرف إلى مراده منك عن طريق الرسول، فالإيمان بالله ورسوله متلازمان، الإيمان بالله أي آمنت بوجوده وكماله ووحدانيته، والإيمان برسوله أي آمنت بمراد الله منك، لماذا خلقك؟ ماذا ينبغي أن تعمل؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

قوّامين جمع قوّام، وقوّام صيغة مبالغة من قائم:

(قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)

الإنسان مثلاً لو كذب مرة واحدة يقال له: كاذب، أما إذا كان الكذب ديدنه يقال له: كذاب، صيغة مبالغة، فصيغة المبالغة تعني الاستمرار، فبين أن يقول الله: كن قائماً بالقسط، أي قد تكون مرة واحدة، أما: كن قواماً، أي دائماً وأبداً، كن قواماً بالقسط، والقسط هو العدل.

الفرق بين القسط والعدل :

لكن ما الفرق بين القسط والعدل؟ طبعاً قسط يقسط، ظلم يظلم:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

يروى أن أحدهم دخل على أمير وقال: أنت قاسط عادل، فقال هذا الأمير لجلسائه: أتدرون ماذا قال لي؟ قالوا: مدحك، قال: لا، قال لي: أنت ظالم كافر، قالوا: وكيف؟ قال:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

[سورة الأنعام: 1]

فقسط بمعنى ظلم، أقسط: بمعنى رفع الظلم، فلذلك العدل أن توزع حقوق الناس ابتداء فأنت عادل، أما إذا قلنا: أنت مقسط أي رددت الحقوق لأصحابها، رفعت الجور، رفعت الظلم، طبعاً العدل درجة ابتدائية، أنت حينما وزعت أموالك وزعتها وفق منهج الله بين أولادك فأنت عادل، لكن لو حابيت واحداً وظلمت الآخر، ثم جاء من يصحح لك القسمة فهذا الثاني يقال له: مقسط، أي رفع الجور عن بقي الأخوة، إذاً الله عز وجل يأمرنا أن نرفع الظلم والحيف، والحقيقة لا يمكن أن ينتصر أناس ولو آمنوا بربهم إذا كانوا ظلاماً، والدليل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام: 81]

قال:

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)

[سورة الأنعام: 82]

هناك من يؤمن ويلبس إيمانه بالظلم، لذلك: إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

الظلم أحد أكبر أسباب انهيار الأمة :

الظلم أيها الأخوة أحد أكبر أسباب انهيار الأمة، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيْمُ اللَّهِ لَو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

هذا البرمكي الذي كان في أعلى مقام في عهد هارون الرشيد أودع في السجن فجأة، فزاره زائر قال له: ما هذا؟ قال له: لعلها دعوة مظلوم أصابتني.

الظلم أيها الأخوة ظلمات يوم القيامة، إن بعض العلماء يقول: الدنيا ـ لا أقول الآخرة ـ تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم، ارفع أي شعار وسمِّ نفسك ما تشاء، قل: أنا مؤمن كبير، أنا مسلم، فإذا كنت ظالماً فهذا الانتماء لا قيمة له إطلاقاً، لذلك لما سيدنا ابن رواحة الذي كلفه النبي أن يقيّم تمر خيبر، وأهل خيبر من اليهود، وقد أغروه بحلي نسائهم كرشوة ليخفض التقييم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ:

((أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا))

[أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

الآن دققوا ماذا قالوا: قالوا:

((بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ))

حينما يظلم بعضنا بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل :

اسمعوا هذه الكلمة أيها الأخوة، والله، ثم والله، ثم والله لو فهم أصحاب رسول الله الإسلام كما نفهمه نحن الآن والله ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، كيف وصل إلى الصين شرقاً وإلى إسبانيا غرباً؟ كيف وصل؟ بالعدل، فحينما يظلم بعضنا بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل، والآيات واضحة كالشمس:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام:81-82]

يروي التاريخ أيها الأخوة أن قاضياً من كبار القضاة في بعض العهود الأموية اتصل بالخليفة طالباً منه أن يعفيه من منصبه، فلما سأله عن السبب، قال له: والله طُرق بابي البارحة فإذا بطبق من الرطب، وأنا معروف عند أهل البلدة أنني أحب الرطب في بواكيره، سألت الغلام: من جاء بهذا الطبق؟ قال: رجل، قال: صفه لي؟ قال: هو كيت وكيت، أي هكذا أوصافه، فعلم أنه أحد المتخاصمين عنده فردّ الطبق، في اليوم التالي يقول هذا القاضي: واللهِ لما دخل علي المتخاصمان تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أني لم آخذه، فكيف لو أخذته؟ هذا العدل، حتى التاريخ الحديث يروي أن بلداً كبيراً جداً في أوربا عقب الحرب العالمية الثانية، وقد دمر كل شيء، وقف رئيس الوزارة يسأل وزيراً وزيراً، سأل وزير الصناعة: كيف الحال عندك يا فلان؟ قال له: المعامل كلها محروقة، سأل وزير الزراعة؟ قال له: الحقول كلها محروقة، سأل وزير الخزانة قال له: والله الخزانة فارغة، سأل جميع الوزراء، فلما وصل إلى وزير العدل قال له: كيف العدل عندك يا فلان؟ قال له: العدل بخير، فقال: كلنا إذاً بخير.

قيمة العدل كبيرة، في العالم الإسلامي ظلم لا يعلمه إلا الله، ظلم من أب لأولاده، من زوج لزوجته، من صاحب عمل لعماله، الظلم والتفرقة من أسباب هلاك الأمم، لذلك عدل ساعة خير من عبادة ستين عاماً، ويروى في الكتب ـ وللمغزى فقط ـ أن حجراً ضج بالشكوى إلى الله، قال: يا رب عبدتك خمسين عاماً وتضعني في أس كنيف؟ فقيل: تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاض ظالم.

أكبر إنجاز للمؤمن أن ينام مساء دون أن يظلم أحداً :

حينما نعدل نستحق النصر، وحينما نظلم لا نستحق نصر الله عز وجل، ماذا قال اليهود لعبد الله بن أبي رواحة؟ قال: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:

((أَنْحَلَنِي أَبِي نُحْلاً فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشْهِدْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشْهَدَهُ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي النُّعْمَانَ نُحْلاً وَإِنَّ عَمْرَةَ سَأَلَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ: أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَ النُّعْمَانَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُحَدِّثِينَ: هَذَا جَوْرٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا تَلْجِئَةٌ فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا))

[متفق عليه عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أين العدل في حياة المسلمين؟ كم من أخ حرم أخواته البنات من الإرث؟ وكم من أب حابى أولاد زوجته الثانية وظلم أولاد زوجته الأولى؟ كم من صاحب عمل ما أعطى العامل ما يستحق؟ لأن العامل فقير، ومضطر إلى أن يعمل، أعطاه جزءاً يسيراً من حقه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أخواننا الكرام: أكبر إنجاز لك أيها المؤمن أن تنام مساء دون أن تظلم أحداً، وفي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، الله عز وجل يستجيب للمظلوم لا بأهليته للاستجابة ولكن باسم الله العدل، ويستجيب للمضطر ولو لم يكن أهلاً للإجابة، لا بأهليته للإجابة ولكن باسم الرحيم.

الله عز وجل عدل والعدل يأبى الظلم :

أيها الإخوان الكرام: ينبغي أن تعدوا للمليار قبل أن تظلموا نملة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

كم من بيت مسلم فيه ظلم؟ زوجة الابن قد تكون مظلومة وكلهم يعلو عليها ويسحقونها، وقد تكون البنت مظلومة مع أخوتها الذكور لا يعطونها شيئاً، حينما يشيع الظلم في حياة المسلمين، في بيوتهم، في أعمالهم، في بيعهم وشرائهم، لا نستحق جميعاً نصر الله عز وجل، إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة، ترون ماذا يفعل بعض المسلمين في بعضهم قبل أن ينكشفوا، هذا نموذج، الله عز وجل عدل، والعدل يأبى الظلم، وعد للمليار قبل أن تظلم نملة، دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطلقتها، ولا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فإذا كانت الهرة مظلومة يستحق من ظلمها نار جهنم، فكيف بما فوق الهرة؟ وكيف بأمم وشعوب تظلم؟ تُحتَل أرضها وتُنهَب ثرواتها، ويُسفَك دمها رخيصاً بلا سبب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

ما قال: كونوا قائمين بالقسط، قوّام صيغة مبالغة، فعل مستمر طوال حياتك، لا تنطق إلا بالحق، ولا تأكل حق أحد ولو كان ضعيفاً، ولو كنت أقوى منه، ولو كان ضعيف الحجة وكنت أفصح منه، الله وليه، يا رب كم عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، هذه الآلام العامة، هذا الظلم الذي يواجهه المسلمون من دول عظمى سببه أننا نظلم بعضنا بعضاً طبعاً، أموال طائلة تودع في بنوك الكفار ثم تجمد وتصادر والمسلمون في أمس الحاجة إليها، وإذا فتحنا ملف الظلم لا ينتهي الدرس بنا إلى الفجر، الظلم ظلمات يوم القيامة، حاول ألا تظلم أحداً ولو بكلمة، ولو بعبوس، ولو بإعراض، لأن الله سيحاسب، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام وصل في توجيهه إلى أنك إذا قبلت ابنك الأول ولم تقبل الثاني فقد ظلمت، إلى هنا وصل العدل، هلا سويت بينهما في العطية.

على المؤمن أن يشهد بالحق من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل :

قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ)

الآن ينبغي أن تشهد لله، أن تشهد الحقيقة، أي أن تقول الحقيقة لا من أجل زيد أو عبيد أبداً، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

أنت مكلف أن تشهد الحقيقة لماذا؟ فلان رجاني أن أشهد له، لا، لا من أجل فلان ولا من أجل علان، ولا ليرضى زيد ولا ليغضب عبيد، ينبغي أن تشهد لله أداء لحق الله عز وجل ولا تأبى أن تشهد، أحياناً مثلاً يركب الإنسان بمركبة والسائق ظُلِم ولم يرتكب أي خطأ، وصار هناك دهس، لا يتنازل هذا الراكب أن يقتطع من يومه ساعة أو ساعتين ليدلي بشهادة أمام قاضي السير، ارتكب أكبر معصية، أنا كنت راكباً والطفل قفز إلى أمام المركبة، والمركبة تسير ببطء شديد، كان هناك ازدحام، هذه الشهادة لا تقدر بثمن:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

اشهد ولا تأخذك في الله لومة لائم، ما قيمة حياتك من دون عدل؟ الكفار حينما عدلوا استحقوا النصر، والمسلمون حينما ظلموا استحقوا ألا ينتصروا.

إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)

القسط العدل، ومعنى القسط أيضاً أن ترفع الظلم، عدل من الدرجة الثانية، أن تعطي بالعدل فهذا عدل، أما أن تكون مقسطاً أن ترفع الجور:

(فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَو إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

[سورة البقرة: 182]

يروى أن سيدنا علي كرم الله وجهه اشتكى عليه يهودي لسيدنا عمر، وكان هذا الصحابي الجليل جالساً إلى جنب عمر، دخل اليهودي واشتكى على الإمام علي، فقال عمر: قم يا أبا الحسن فقف إلى جنب الرجل، فتغير لون سيدنا علي، بعد أن حكم بالعدل وصرف اليهودي، قال له: يا أبا الحسن أوجدت علي؟ قال له: نعم، ماذا فعلت؟ أوقفتك إلى جانبه، قال: لمَ قلت لي: يا أبا الحسن، ولم تقل لي يا علي، لقد ميزتني عليه؟ وصلنا إلى هذا المستوى، سيدنا علي يُسرَق درعه ويجده عند يهودي، ويرفع القضية إلى أحد القضاة، قال له: يا إمام ـ كان أمير المؤمنين ـ قال له: من يشهد لك؟ قال له: ابني،قال: ابنك لا تقبل شهادته، وبقي الدرع مع اليهودي، فلما رأى اليهودي هذا أعلن إسلامه، أمير مؤمنين يرفع قضيته أمام قاض، ويأتي بشاهد هو ابنه، وترفض شهادته، هكذا العدل، شخص من الصحابة في أثناء الهجرة ألقي القبض عليه، وقال للذين قبضوا عليه: عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه وصدقوه، فلما وصل إلى النبي، وأخبر النبي بما كان فرح به النبي، بعد حين كانت غزوة فانضم إليها، قال له: ارجع يا فلان، ألم تعاهدهم ألا تقاتلهم، هذا الإسلام، الإسلام لا كما يتوهم الناس بأداء شعائر أداء أجوف، أعود وأقول: والله، ثم والله، ثم والله، لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، نفهمه نحن مظاهر، نحج ونضع الزينة، وصار الحاج فلاناً، التعامل اليومي لا يوجد به دقة، الظلم شائع بين المسلمين، على مستوى العلاقات الشخصية، على مستوى الأعمال، على مستوى التجارة، يوجد أحياناً غش، مرة قال لي شخص كلمة عابرة، قال لي: اشتريت مئتي بيضة فاسدة بعناها بسرعة في سوق الجمعة، حينما يظلم بعضنا بعضاً نسقط من عين الله جميعاً ولا نستحق أن ينصرنا الله عز وجل، أعود وأقول: إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

إذا لم يتمثل المسلم قيم الإسلام فلا قيمة لإسلامه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

صيغة مبالغة أي القسط ينبغي أن يكون ديدنكم، سلوك مستمر:

(شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

اشهد الحقيقة، الأبلغ من ذلك:

(وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ)

أي أنت المخطئ، ولا يوجد شاهد عليك أبداً، تقول: أنا فعلت كذا، هذا هو الدين، المسلم إذا لم يتمثل قيم الإسلام ما قيمة إسلامه؟ ماذا قال سيدنا جعفر للنجاشي؟ قال له:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ وَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ))

[أحمد عن أم سلمة]

الإسلام فيه عدل لكن المسلمين ظلموا فلما ظلموا لم يستحقوا أن ينصروا :

الإسلام قيم أخلاقية، والله حدثني أخ قال لي: أعمل عند قريبي الغني ـ قصة قديمة جداً ـ والله يعطيني في الشهر ألفي ليرة، وينفق في اليوم الواحد عشرة آلاف، وأنا موكل بتأمين الحاجات للمنزل، أقل مما يستحق بكثير، يستغله، مادام فقيراً يستغله، إنسان يضع لابنه مدرسين بمليون ليرة وعنده موظف بسيط يتيم لا أحد له، يسأله أن يخرج من المحل قبل ساعة ليلتحق بمدرسة ليلية ليأخذ كفاءة فلا يوافق، يبقيه جاهلاً حتى ينتفع منه ويستغله.

حينما يبلغ الظلم مستوى كبيراً جداً نستحق جميعاً غضب الله عز وجل، أي الحمد لله الذي أخرجنا من ظلم الحكام ـ كما قال الصحابة الكرام ـ إلى عدل الإسلام، الإسلام فيه عدل، لكن المسلمين ظلموا، فلما ظلموا لم يستحقوا أن ينصروا، طبعاً:

(شُهَدَاءَ لِلَّهِ)

لا تشهد لا لزيد ولا لعبيد، ولا تعبأ بغضب فلان ولا علان، ينبغي أن تشهد لله إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل.

أيها الأخوة الكرام: كم من شهادة صدق تغير الحكم وتنصف وتزيل الظلم بشهادة؟

(شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ)

أحدهم تزوج امرأة دون أن يعلم زوجته، هي شعرت أنه يوجد امرأة أخرى بحياته، ثم تهيبت أن تفاتحه بالأمر، كان للزوج في القديم مكانة كبيرة، الآن لا يوجد مكانة أبداً، وتوفي الزوج، فأرسلت هذه الزوجة إلى ضرتها نصيبها من الإرث، فكان جواب الضرة أنه طلقني قبل أيام من وفاته، وليس لي عندكم شيء، هكذا الإسلام، حينما نعدل نعيش في جنة، هذا الذي يعطي هذا العامل هذا الأجر أيكفيه طوال الشهر، وهو ينفق بغير حساب، عرس ابنه بخمسة وثمانين مليوناً، ولا يعطيه إلا النذر اليسير لا يكفيه، يوجد قوة، المال قوة، والمنصب قوة.

حاشا لله أن نعدل فيما بيننا ثم يأتي من يأخذ أموالنا :

أيها الأخوة الكرام، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

يروي التاريخ أن أحد ملوك الغساسنة أسلم، اسمه جبلة بن الأيهم، جاء عمرَ مسلماً، طبعاً سيدنا عمر رحب به، النبي طلب النخبة، وليس خطأ أن تطلب النخبة، رحب به، في أثناء طوافه حول البيت بدوي من فزارة داس طرف ردائه، فانخلع رداء الملك من كتفه، فالتفت إلى هذا الأعرابي الفقير، وضربه ضربة هشمت أنفه، هذا الأعرابي الفقير من فزارة ليس له إلا سيدنا عمر ذهب يشكو جبلة، صاغ شاعر معاصر الحوار شعراً، سيدنا عمر استدعاه قال له: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح، قال له: صحيح لست ممن يكتم شيئاً، أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي، قال له: أرضي الفتى لا بد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك ـ أيها الملك ـ

وتنال ما فعلته كفك، قال له: عجيب كيف ذاك؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً، قال له: نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، فقال له جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني، قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى. حينما نظلم بعضنا بعضاً يأتي من يظلمنا، احفظوا هذه الكلمة، وحاشا لله أن نعدل فيما بيننا ثم يأتي من يأخذ أموالنا. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ....لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أكبر مخزون نفط في العالم في العراق، صودر كله:

((...لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ))

هذا الحديث من دلائل نبوة النبي.

إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان لله أن يخيفك من أحد :

أنت لست مكلفاً أن تعدل بين الأمة، مكلف أن تعدل بين أولادك، وإن كان لك عمل أن تعدل مع موظفيك فقط، هذا الذي تحاسب عليه، وأن تعدل بين زوجتيك، اعدل فيما أقامك الله عز وجل، قال له: أشهد غيري فإني لا أشهد على جور، حينما نعدل نستحق أن ننتصر، وحينما يظلم بعضنا بعضاً يأتي من يظلمنا، ويسحقنا، ويأخذ أرضنا، وثروتنا، وكرامتنا، وثقافتنا، وديننا.

أقول مرة ثانية أيها الأخوة: إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان لله أن يخيفك من أحد، وإذا لم تخف من الله إذا كنت قوياً فجأة تنقلب الموازين، أرأيتم كيف يؤتي الله الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، أرأيتم؟ إن لم تخف من الله فيما بينك وبينه يخيفك من أحقر خلقه، أما إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان لله أن يخيفك من أحد.

أيها الأخوة، أتمنى أن نعدل فيما بيننا، في أسرنا، بين أولادنا، مع موظفينا، اعدل فيما أنت قادر عليه، والله عز وجل لن يظلمك، ولن يخيفك من أحد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

والله أيها الأخوة شاب كان من إخواننا في هذا المسجد، وأنا أعتز به إلى أقصى الحدود، والده أنشأ له عملاً في بلد عربي، وهو يمشي في الليل بمركبته اصطدم بسيارة، حادث طفيف جداً، فيها رجل

بالتسعين من صدمة نفسية مات، فصار هذا الحادث سبب موت إنسان، اتصل بمدير المعمل، أي بالمدير التنفيذي، وهو صاحب المعمل، قال له: هكذا صار معي، قال له: لا تقلق تعال بعد ساعة إلى المخفر الفلاني، جاء بعد ساعة كل شيء منتهٍ، ضبط مكتوب كامل ولا يوجد عليه مسؤولية إطلاقاً، قال له: لا ما هكذا صار، أنا صدمته، الضبط: هو صدمه، قال له: عجيب أنا أخلصك وتوقع نفسك، قال له: أنا لن أوقع هذا الضبط، أنا صدمته، أنا لا أنجو من عذاب الله، يقول هذا المسؤول: أنا لم أشاهد بحياتي إنسان أنا أخلصه ويوقع نفسه، قال له: أوقعني لأنجو من عذاب الله، ودفع الدية الكاملة، وعين أولاده عنده بالمعمل، أنا أعتز بهذا الشاب، نحتاج إلى مسلم كهذا المسلم، لم يقبل ينجو من عقاب الدنيا ويقع في عقاب الله عز وجل، قال له: هذا الضبط غير صحيح، أنا الذي ضربت هذه المركبة وأنا تسببت بموت هذا الرجل، وأنا مستعد لدفع كل شيء علي، عندما نكون هكذا جميعاً نقيم العدل بيننا نستحق أن ننتصر على أعدائنا.

الشهادة إما أن تكون لله لإحقاق الحق أو أن تكون بدافع الهوى :

قال تعالى:

(وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

يروى أن شريح أحد القضاة الكبار اختصم ابنه مع أشخاص، فقال له:يا أبت أعرض عليك هذه القضية، فإن كنت محقاً نعرضها عليك، وإن كنت ظالماً أدفع لهم ولا نتقاضى أمامك، سمع منه قال له: لا، أنت محق اعرضها علي، فلما عرضها عليه حكم عليه، قال له: كنت سألتك، قال له: خفت ألا تعطيهم حقهم.

عندما يبلغ العدل في الإنسان أن يحاسب نفسه على الليرة، على القرش، يستحق أن ينصره الله عز وجل، بالأمانة لا يوجد حل وسط، ولا نسبية بالأمانة، أمانة أو خيانة، لذلك ورد عن بعض العلماء قالوا: والله ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام.

أيها الأخوة، الشهادة إما أن تكون لله لإحقاق الحق، أو أن تكون بدافع الهوى، فقد يشهد الإنسان مع صاحب له أو مع قريب له، سمعت قصة مؤثرة جداً، إنسان يجلس في بيت، وهو موظف دخله محدود، رفع الأجرة عدة مرات، لكن أصحاب البيت أرادوا البيت بطريقة غير صحيحة فأشار عليهم أحدهم أن يتهموه بالفساد الأخلاقي، والمستأجر في أعلى درجة من الأخلاق والالتزام والطاعة لله عز وجل وغض البصر، فالأمر رفع للقاضي طلب شهادة، عندهم طالبة تستأجر غرفة في بيته قيل لها: أتشهدين أنه يفعل أعمال لا أخلاقية؟ قالت لهم: أشهد، اعتنوا فيها عناية خلال شهر، الطعام والشراب وغسل الملابس، أعلى درجة من الخدمة، لأنها إذا شهدت أنه فاسد أخلاقياً يخلى البيت، وأنا أعرفه توفي رحمه الله محافظ على أوامر الدين بأعلى مستوى ويغض بصره عن النساء، وزوجته وبناته محجبات حجاباً كاملاً، إنسان ملتزم بأعلى مستوى والتهمة أنه فاسد أخلاقياً،

أي يتكلم بكلام بذيء جداً، ويكشف عورته أمام جيرانه، فهذه الطالبة وعدتهم أن تشهد معهم، طربوا لها أشد الطرب، وأكرموها إكراماً لا حدود له، يوم الشهادة قالت للقاضي: والله ما رأيت في حياتي إنساناً أعف منه، ولا أورع منه، فقيل لها: لماذا قبلت أن تشهدي معنا كما نريد، ثم رفضت؟ قالت: خفت أن تأتوا بشاهدة أخرى، وكانت شهادتها حاسمة وحسمت الدعوى لصالح المستأجر، والمستأجر ما ظلمهم أبداً لكن طمعوا، ولكن هذه الفتاة بذكائها وجدت أنها لو رفضت سيأتون بشاهدة أخرى تقبل، فقبلت أن تشهد كما يحبون هكذا قالت لهم، ثم نطقت بكلمة الحق، قالت له: والله ما نظر إلي في هذه الفترة كلها، يغض بصره، وفي بيته ملتزم، وما رأيت أعف منه، فكان الحكم افتراء على المدعي، وتحمل المدعي السجن.

اتباع الهوى يمنع من العدل :

أيها الأخوة، أحياناً الشهادة تفصل الحق، أي تكون حاسمة أحياناً، أنا مرة دعيت إلى شهادة خارج دمشق، ولبيت هذه الدعوة بكل ممنونية، هذا حق، أنا حكمت بين أخوين وبوثيقة بخط يدي، فقدمت بعد عشر سنوات للقاضي، فطلبني للشهادة، والله بادرت بكل نفس طيبة، لأن هذا حق، أن تشهد ما جرى هذا واجب ديني ـ لكن الشهادة لله ـ أما إذا هناك أهواء، قال له القاضي: أحضر شاهداً، فالشهود واقفون في الخارج ينتظرون، قال له: تشهد معي كذا؟ قال له: نعم أشهد، ماذا تريد؟ قال له: خمسة آلاف، لا بأس، دخل فوجد مصحفاً، ويوجد قسم، فقال له: قف أريد عشرة، فلذلك يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا)

ما الذي يمنعكم أن تعدلوا؟ اتباع الهوى:

(وَإِنْ تَلْوُوا)

أي تبدلوا الشهادة:

(وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

هذا تهديد من الله عز وجل، إذا أدليت بشهادة كاذبة لصالح زيد أو عبيد، أو مقابل مبلغ كبير، وغيرت ظروف الحدث، وأضفت، وحذفت، وغيرت، قال:

(وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(60-69): تفسير الآيات 136-141، الإيمان درجات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-05-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان درجات :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الستين من دروس سورة النساء ومع الآية السادسة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ باللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

أيها الأخوة، في الآية ملمح لطيف، وهو أن الله يخاطب الذين آمنوا ويأمرهم أن يؤمنوا، معنى ذلك أن الإيمان درجات، وأن من درجاته أنه لا ينجي، من بعض درجات الإيمان أنه لا ينجي صاحبه، الحد الأدنى المنجي للإيمان أن يحملك على طاعة الله، ومهما يكن إيمانك واضحاً في ذهنك ولم تستقم على أمر الله فإيمانك هذا لا ينجي، لأنه قد قيل: "كفى بالمرء علماً أن يطيع الله أو أن يخشاه، وكفى به جهلاً أن يعصيه"، فحينما يعصي الإنسان ربه فهو لا يعرفه، لو كان الله عز وجل عنده عظيماً لما عصاه، وحينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 41]

لو أردت أن تضع تحت كلمة إشارة إلى أنها أهم كلمة في الآية، تحت أي كلمة تضع خطاً؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

تحت كلمة كثيراً، لأن المنافق يذكر الله، بدليل قوله تعالى:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء: 142]

فالأمر منصب على الذكر الكثير.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله :

الآن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

يعني أنت مؤمن، ولكن إيمانك لا يكفي، لا بد من أن تجدد إيمانك، وعلامة الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

التوحيد يأتي على قمة درجات الإيمان، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى إلا الله، أن ترى الفعل فعل الله، التوحيد يعني أن تؤمن أنه لا معطي ولا مانع، ولا نافع ولا ضار، ولا معز ولا مذل إلا الله، التوحيد أن تتجه كل طاقاتك إلى الله عز وجل، التوحيد مريح لأن علاقتك بواحد، إن أرضيته انتهى الأمر، إن أطعته انتهى الأمر، هو الذي:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم الذي تسره، ويعلم الذي يخفى عنك، وإذا كانت علاقتك بالله متينة فلا تحتاج لا إلى أن تكون قلقاً، ولا إلى وثيقة، ولا إلى مستند، الله يعلم:

(وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة النساء: 6]

أهمية التوحيد :

ما من مستوى في الإيمان يحتاجه المسلمون اليوم كالتوحيد، من دون توحيد الإنسان قلق، هناك أقوياء كثر، وقساة لا يرحمون، ويتربصون بالمؤمنين، ومعهم قوة ترى بالعين المجردة، لكن الموحد يرى يد الله فوق أيديهم، الموحد يرى أن كل أفعالهم تستوعبها خطة الله عز وجل، يرى أن كل طغيانهم سمح الله به لحكمة بالغة.

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف: 49]

الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه، وأنا أقول لكم أيها الأخوة: إن أحد أكبر أسباب الأمراض الكثيرة هو الشدة النفسية، والشدة النفسية أساسها الشرك، أن ترى إنساناً أقوى منك، ولا يحبك،

ويريد أن يدمرك، المعاني الثلاثة كافية لإصابة الإنسان بأمراض مستعصية، أما إذا رأيت هذا الإنسان القوي بيد الله، كما قال أحد الأنبياء:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

أيها الأخوة، لا يعقل ولا يقبل أن يسلمك الله لغيره، كيف يأمرك أن تعبده وأمرك ليس بيده بل بيد غيره، الله عز وجل طمأنك قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود: 123]

الأمر كله، وهذا الذي يجري بالعالم الإسلامي، بنظر توحيدي سهل قبوله، أما بنظر شركي لا يحتمل، ما من مرحلة المسلمون في أمس الحاجة إلى التوحيد كهذه المرحلة.

حق الله على العباد وحق العباد على الله :

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

الإنسان لا يعلم، وإذا علم لا يرحم، وإذا رحم لا يستمر، أما حينما تؤمن أن الله بيده كل شيء، وأن علاقتك معه، فيكفي أن ترضيه، ويكفي أن تطيعه، والباقي عليه، المؤمن يتمتع بحالة أمن عجيبة، يتمتع بمشاعر أمنية لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، أنا علي أن أطيعه وعلى الله الباقي.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

ما كلفني إلا أن أطيعه، فإذا أطعته يتولى هو تدبير شؤوني، وقد قال بعضهم: دبر ألا تدبر، لك عليه حق، حقه عليك أن تعبده، فإذا عبدته حقك عليه ألا يعذبك. عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ـ كان عليه الصلاة والسلام مربيّاً ـ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ـ جيد ـ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ـ أي أن الله عز وجل أنشأ لك حقاً عليه ـ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أثمن نعمة على وجه الأرض نعمة الأمن :

أنت لك حق على خالق السماوات والأرض، أنت لك حقاً على ذاته العلية ألا يعذبك، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، لذلك المؤمن المصدق يتمتع بحالة من الأمن لا يعرفها إلا من ذاقها، وهذا مصداق قوله تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الأنعام: 81-82]

أي الذين آمنوا وحدهم.

(وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 82]

والله أيها الأخوة، أكاد أقول لكم: ما من نعمة على وجه الأرض أثمن من الأمن، قد يكون معك مال ولست آمناً، وقد تكون صحيحاً ولست آمناً، قال بعض العلماء: أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، فهذه النعمة نعمة خاصة بالمؤمنين:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن بالله كي تشعر أن الأمر بيد الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

التوحيد مريح، التوحيد ليس معه قلق، والتوحيد ليس معه خوف، والتوحيد ليس معه اضطراب، أمرك بيد واحد، والواحد مقتدر ويعلم، وحكيم، ورحيم، ومحب، كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر له دعاء قال: "لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا الله الرحمن الرحيم".

مستوى الإيمان :

الأمر بيد الإله، وهو رحيم، إذا كانت لك قضية في دائرة، وأبلغت أن الأمر بيد فلان، وفلان يخاف الله، ولا يظلم أحداً، ترتاح، وحقك يصلك، فهذه قضية:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا)

دائماً الإنسان لا يرضى عن رزقه لكن يرضى عن عقله، وعن مستوى إيمانه، البطولة ألا ترضى عن مستوى إيمانك، قال عليه الصلاة والسلام:

((جددوا إيمانكم))

[الحاكم عن أبي هريرة]

الإيمان يخلق كما يخلق الثوب، تجديد الإيمان أن يرتفع مستوى التوحيد، أن ترى يد الله وحدها تعمل.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

[سورة آل عمران:173-174]

لا ينبغي أن تقر أعيننا إلا بإيمان مؤدّاه الاستقامة على أمر الله :

كلمة:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان درجات كثيرة جداً، لكن أهم شيء أنه إذا كنت في درجة لا يقودك إيمانك إلى طاعة الله ينبغي أن تشمر وتجدد إيمانك، لا ينبغي أن تقر عينك إلا بإيمان مؤدّاه الاستقامة على أمر الله:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن بأن الله موجود. مرة في ندوة إعلامية طالبت الأخوة المشاهدين أن يستمعوا إلى الأخبار، وأن يستمعوا إلى تحليلاتها، وليقبلوا بعض التحليلات، وليرفضوا بعضها الآخر، لكن قلت لهم: لا تنسوا لثانية واحدة أن الله موجود.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

في زحمة المحن الإسلامية ينسى المسلمون أن الأمر بيد الله، يقعون في شرك خفي، يرون أن الأمر بيد وحيد القرن، فمن رضي عنه سلم، ومن لم يرض عنه عطب وهلك، هذا التفكير وحده يحطم الإنسان، الله عز وجل خلقك ولا يمكن أن يسلمك لأحد:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

القرآن فيه كليات والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن التفصيلات :

الله عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة إلزاماً ذاتياً، قال لك: أنا لا أظلمك:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

إذاً دعوة إلى تجديد الإيمان، دعوة إلى البحث عن مستوى في الإيمان يحملك على طاعة الواحد الديان، دعوة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، وإلى النظر في أفعال الله، وإلى تدبر آياته القرآنية، أما الإيمان بالرسول فهو الذي تولى شرح هذا القرآن.

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

[سورة النحل: 44]

هذا القرآن في كلياته من شرحه لنا؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، من بيَّن تفاصيل العبادات؟ من بيَّن تفاصيل المعاملات؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يعقل أن تكتفي بالقرآن، القرآن فيه كليات والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن التفصيلات، فينبغي أن تؤمن بالله الذي أوجدك من عدم، أن تؤمن بالله الواحد الكامل، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وأن تؤمن بهذا الإنسان المعصوم الذي أنزل عليه القرآن وأمره أن يبين أحكامه:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ)

هذا منهج.

شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الشرائع وهي لكل البشر إلى يوم القيامة :

قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

الكون في كفة والقرآن في كفة ثانية، والكتاب أي القرآن الذي نزل على رسوله وهذه الألف ولام العهد:

(وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ)

نؤمن بهذا القرآن، وبأن الله أنزل كتباً أخرى على أنبياء سابقين، والكتاب هو وحي الله لأنبيائه.

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

[سورة البقرة: 285]

الدين واحد والشرائع متعددة، لكن شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الشرائع، وهي لكل البشر إلى يوم القيامة:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ)

أي وملائكته أنهم يكتبون كل أفعالنا:

(وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

الإيمان بالله واليوم الآخر :

إخواننا الكرام، أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان في القرآن هما الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله وحده لا يكفي، الإيمان بالله واليوم الآخر فيه الحساب ودفع الثمن والعقاب، فيه جنة ونار، أؤكد لكم أيها الأخوة، أنه لمجرد أن تؤمن باليوم الآخر الإيمان الصحيح ينبغي أن تنعكس كل مقاييسك، علامة أنك مؤمن باليوم الآخر أن تبني حياتك على العطاء لا على الأخذ، تبني حياتك على بذل الجهد لا على استغلال جهد الآخرين.

إن لم تؤمن أن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي. فلا تنجو ما لم تؤمن أن الأمر بيد الله، وأن هذه الدنيا ممر، وليست بمقر، وأن هذه الدنيا دار عمل وليست دار أمل، وأن هذه الدنيا دار تكليف، وليست دار تشريف، أنت حينما تؤمن بحقيقة الدنيا وبحقيقة الآخرة تنعكس كل المقاييس.

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً)

إنسان يعيش للدنيا فقط، هذا أكبر ضلال في الأرض، لأن في الحياة قوياً وضعيفاً، وغنياً وفقيراً، وصحيحاً ومريضاً، وطويل العمر وقصير العمر، ووسيماً ودميماً، لو أنه ليس هناك آخرة فما ذنب الدميم؟ وما ذنب الفقير؟ وما ذنب الضعيف؟ وما ذنب المريض؟ وما ذنب قصير العمر؟ لا بد من دار أخرى تسوى فيها الحسابات.

أكبر عزاء للمستضعفين في الأرض أن الحسابات كلها تسوى يوم القيامة :

لا تبتعدوا كثيراً دولة كبيرة عملاقة، معها سلاح فتاك مدمر، لا تستطيع دولة في الأرض أن تقول لها: لا، وتستغل قوتها لسلب ثروات الآخرين، ونهب ممتلكاتهم، وبناء مجدها على أنقاضهم، وتنتهي الحياة، ولا شيء بعد الحياة؟! هذا لا يقبله عاقل، بالمناسبة أيها الأخوة عند علماء العقيدة الإيمان باليوم الآخر إيمان إخباري، أي أن الله أخبرنا، لكن عند بعض العلماء، وأنا أقدره يقول: الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، لأن العقل البشري لا يصدق هذه الفتن وتلك الحروب، وهذه المنازعات، وهذا الظلم، وهذا القهر، وهذا القتل، وهذا التهديد، وهذا الكبر، وتنتهي الحياة هكذا، ماذا يقول هذا الفقير: لمَ لم أكن غنياً يا رب؟ لمَ لم أكن قوياً؟ لمَ لم أكن وسيماً؟ لمَ لم أكن طويل العمر؟ لذلك أيها الأخوة أن تنتهي الحياة الدنيا من دون يوم آخر هذا لا يقبله عقل سليم، لذلك أكبر

عزاء للمستضعفين في الأرض، أكبر عزاء لمن فاتته الدنيا وكان مؤمناً مستقيماً أن الحسابات كلها تسوى يوم القيامة:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

[سورة الروم: 27]

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

يعيد الخلق كي يجازي كل إنسان بعمله، قال تعالى:

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 77]

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 47]

لمجرد أن تؤمن بالله واليوم الآخر تنعكس كل الموازين :

تركيز على كلمة واليوم الآخر، إذا آمنت باليوم الآخر ينبغي أن تنعكس كل موازينك، أبداً، ترى الذكاء في العطاء لا في الأخذ، الذكاء في التعب لا في الراحة، الذكاء في خدمة الآخرين لا في استغلال جهودهم، ترى الذكاء في أن ترحم الناس لا أن يرحموك، لمجرد أن تؤمن بالله واليوم الآخر تنعكس كل الموازين.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا)

بعضهم آمن بموسى وكفر بعيسى كاليهود، وبعضهم آمن بعيسى، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً)

حينما كانوا منافقين.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

لأن الكافر واضح تحترز منه، والمسلم واضح، أما المنافق فـ:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

* * *

(ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)

بالمناسبة: النفاق أيها الأخوة نوعان؛ نفاق ضعف أمام الشهوات، ونفاق ضعف أمام الشبهات، هذا المنافق يرجى له الخير في المستقبل، هذا نفاق الضعف، لكن نفاق الكفر هو في الأصل كافر، كافر في أشد أنواع الكفر، لكنه ذكي، مصالحه مع المسلمين فقلد أهل الإيمان تقليداً دقيقاً، فأرضى

المسلمين وحقق مصالحه معهم، فنال من ذات المؤمنين، وما عرفوه أنه منافق، وكان في الأصل كافراً، لذلك لأنه نال ميزتين معاً هو يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار، في أسوأ درجات النار.

النفاق نوعان؛ نفاق ضعف ونفاق كفر وهو الأخطر :

قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)

هؤلاء منافقو الكفر، وليسوا منافقي الضعف، منافقو الضعف في عقيدتهم ضعف، أو ضعفوا أمام شهواتهم، هؤلاء يرجى لهم أن يحسن إسلامهم، ولكن الكافر إذا نافق هو في الأصل كافر، لكن أراد أن يستفيد من ميزات المؤمنين فأظهر الإيمان وأبطن الكفر، هؤلاء أساساً لا يتوبون:

(لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

أيها الأخوة، من منا يصدق أنه لمجرد أن تعتز بكافر، أو أن تستعين بكافر، أو أن تستنجد بكافر، أو أن توالي كافراً، أو أن تحب كافراً، فمثل هذا الإنسان محكوم عليه بالنفاق مئة بالمئة، قال تعالى:

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمً*الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

أشد وعيد في القرآن هو وعيد قتل المؤمن عمداً :

أنت فيما تسمع وفيما ترى كم عدد هؤلاء الذين يعتمدون على الكفار، ويتعزون بهم، ويستنجدون بهم، ويوالونهم، ويعادون أخوانهم المؤمنين؟ لا يعدون ولا يحصون:

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمً*الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

ولاؤه للكافر، محبته للكافر، قدوته الكافر، استعانته بالكافر، فكيف إذا أعان كافراً على مسلم؟ كيف إذا أعان كافراً على قتل مسلم؟ هيأ له السبل، أعطاه الأرض والأجواء وهيأ له كل ما يحتاج ليقتل المسلم، وهل تعلمون أن في القرآن وعيداً أشد من وعيد قتل المؤمن:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء: 93]

في جهنم، عذاب استثنائي، لو قرأت هذا الوعيد لا تجد في القرآن كله وعيداً أشد من وعيد قتل المؤمن عمداً، فالذي يسهل قتل المؤمن، يقدم له الأرض، يقدم له الإمكانات، يقدم له المياه الإقليمية، يقدم له الأجواء، من أجل أن يشعر بالطمأنينة، هو اعتز بالكافر، واطمأن إليه.

(بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً* الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

لو طبّق المؤمنون الآية التالية لكنا في حال أفضل من هذه الحال :

أيها الأخوة، بقيت آية، لكن والله الذي لا إله إلا هو لو أن المؤمنين طبقوها لكنا في حال غير هذا الحال، قال تعالى:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

أي الإنسان الكافر بأصل الصلاة لا يصلي ويسخر ممن يصلي، قد يزور أقرباءه المؤمنين، يرحبون به، ويكرمونه، ويستقبلونه، ويودعونه، ولا يعبؤون بأنه لا يصلي، بل ينكرها أصلاً، لو كل إنسان خالف منهج الله عز وجل فقاطعه من حوله، الآن فتاة سافرة تبرز كل مفاتنها في الطريق لو طافت على كل بيوت أقربائها تستقبل! ويرحب بها! ويثنى على ذكائها! وتسأل عن دراستها في الجامعة! وأين وصلتِ! طيب هذه حينما يرحب بها في كل مكان لماذا تستقيم على أمر الله؟ لو كل إنسان خرج على منهج الله نقاطعه، انظر إلى الآية ودقتها:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)

التساهل في العلاقات سبّب تساهلاً في التوبة :

تارك صلاة، قد يكون شارب خمر، قد يكون له أعمال من دون ذلك، وقد يكون ماله حرام، أينما ذهب يستقبل، ويكرم، ويرحب به، وكأن أمور الدين لا تعنينا إطلاقاً، يعنينا هذه العلاقات العائلية، وعلاقات النسب، وعلاقات العمل، أما إذا المؤمن الصادق رأى إنساناً منحرفاً، عقيدته فاسدة، أو سلوكه غير مستوٍ، بقي معه في حدود علاقات العمل، ولم يزد عليها أبداً. بالمناسبة: لا يجوز أن تقيم علاقة حميمة مع كافر، علاقة عمل يجوز، من دون ود، تؤدي واجبك، تسلم عليه، تأخذ التعليمات، تنفذها فقط، أما أن تقيم علاقة حميمة مع إنسان ينكر عليك أصل دينك، ينكر عليك شريعة ربك، لا يعبأ بما تعتقد به أنت، فهذا التساهل في العلاقات سبّب تساهلاً في التوبة.

هؤلاء الصحابة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا صادقين، وجاء الأمر بمقاطعتهم، لو كان كل المسلمين كذلك إنسان يجاهر بالمعصية جهاراً، لا يصوم، ويأكل أمام الناس، وقد يزور أخته التي ترحب به أشد الترحيب، وكأنه ولي، أما إذا قاطعته أخته وأخوه، ولم يُدعَ إلى طعام، ولم يبجل، ولم يحترم، يراجع نفسه.

يقسم بالله رجل كان غارقاً في شرب الخمر، اشترى الخمر ووضعه في محفظته واستوقف سيارة عامة، فلما وقفت له ورأى السائق أن في جعبته خمراً، أوقف المركبة وقال له: انزل، يقول هذا الإنسان: سبب توبتي هذا السائق، شعر بمهانة كبيرة جداً، فإذا أمر كل واحد منا بالمعروف ونهى

عن المنكر، وهذه هي الفريضة السادسة، ذكرت قبل قليل قد تأتي ابنة أخيك وتزورك، وثيابها فاضحة، ولا تعبأ بهذا أبداً، ولا تسأل إلا عن دراستها، وعن أبيها، وعن أحوالها المعيشية، وانتهى الأمر، مثل هؤلاء الناس سوف يحاسبون عند الله، وقد أمر الله عز وجل بإهلاك قرية، فقال بعض الملائكة: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، عجيب! قالوا: ولِمَ؟ قال: لأن وجهه لم يكن يتمعر لمنكر رآه، ما تأثر.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود: 117]

مصلحون لا يهلكون، أما صالحون يهلكون، صالح ولا يعبأ بالناس!! لو أنت أقمت علاقاتك مع الناس على أساس إيماني؛ تستقبل مؤمناً، ترحب به ولو كان فقيراً، تحترمه، تدعوه إلى غداء، والإنسان الذي ليس فيه دين، ويستهزئ بالدين طبعاً كحكم شرعي إذا كان الإنسان مقصراً في الدين فلك أن تكرمه، مقصراً ليس مستهزئاً، المقصر شيء والمستهزئ شيء، المقصر تستجلبه أما المستهزئ فينبغي أن تقاطعه.

المؤمن معه حجة قوية دائماً :

قال تعالى:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)

تجلس في سهرة يستهزَأ فيها بكتاب الله، يستهزأ فيها بحديث رسول الله، أو تطرح أفكار غير صحيحة، وتبقى ساكتاً؟ لا، أنا أتكلم، وآتي بالحجة.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

[سورة الأنعام: 83]

ليس هناك مؤمن ليس معه حجة، أما أن أسكت وأستمع إلى المنكر، إلى الكفر البواح، ولتحقيق مصالحي مع هؤلاء أبقى صامتاً، هذا يقع كل يوم، مدير شركة، مدير مؤسسة، الموظف جالسٌ أمامه وهو يتكلم كلاماً غير مقبول، خلاف القرآن، خلاف السنة، بالعكس يقول له: هذا صحيح، يبتغي عنده العزة، يبتغي تأمين مصالحه، هذه آية دقيقة جداً.

أنا أذكر دائماً قصة مشهورة مع أنها بسيطة جداً، وأعدتها عليكم كثيراً، سائق سيارة على خط دمشق بيروت، جاءه شاب وشابة يريدان الركوب إلى دمشق، فصعدا المركبة، قال له الشاب: سيأتي بعد قليل رجل ومعه محفظة، فانتظر قليلاً، قال له: حسناً، جاء بعد ربع ساعة رجل عمره سبعون سنة يحمل محفظة على رأسه، فجاء هذا الشاب، وضرب هذا الرجل على رأسه لتأخره في الحضور، السائق لم ينتبه، انطلق بمركبته، وصل إلى مسافة لا بأس بها في طريقه إلى الشام، تقول

له زوجته: لماذا ضربت أباك؟ توقف، وقال له: هذا أبوك؟! انزل وهذه الأجرة، موقف بسيط جداً، أنت أركبت شخصاً يضرب أباه، هناك خطر على المركبة. فإذا أمرنا كلنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولم نعن كافراً، ولم نبتسم له، ولا رحبنا فيه، ولا استقبلناه، ولا دعوناه، وكان معنا حجة قوية، وأدلينا بحجتنا لكنّا في حال غير هذا الحال. أساساً حينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

هذه الخيرية لها علة قال:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

فإذا فقدنا علة الخيرية فقدنا الخيرية.

هان أمر الله علينا فهنّا على الله لذلك فقدت أمتنا خيريتها :

نحن الآن أيها الأخوة والله أمة ـ والله أستحي أن أقول هذا الكلام ـ لا يعبأ الله بها أبداً، لأن أمر الله هان عليها فهنّا على الله، الذي ترونه لا يحتمل، تؤخذ الأرض، تهدم البيوت، يقتل الشباب، تردم الآبار، تقتلع الأشجار، كل يوم قتل عشوائي، هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، أين؟

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

والله لهم علينا ألف سبيل وسبيل، أين؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

والله لسنا مستخلفين، أين؟

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: 55]

والله لسنا ممكنين، أين؟

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: 55]

والله لسنا آمنين، كل يوم تهديد، لا نرتاح يومين وفي اليوم الثالث تهديد، واعتبروا لما جرى، وما فعلنا بغيركم، اعتبروا، أين؟ هان أمر الله علينا فهنا على الله:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

لو عندنا إيمان قوي أي إنسان خرج عن منهج الله يُقاطع.

إن أردت تقوى الله عز وجل فعليك بمصاحبة المؤمنين :

أخواننا الكرام، كل الناس كانوا يؤدون الفجر في المسجد، إذا تخلف إنسان يأتون إلى بيته، عنده مشكلة، مريض، تجد المسجد يتسع لعشرة آلاف، صباحاً فيه سبعة أو ثمانية مصلّين فقط. فيا أيها الأخوة، هذه الآيات:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

لذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِناً وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

لذلك إن أردت تقوى الله عز وجل فالله يأمرك ويقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

صاحب المؤمنين، لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، صاحب مؤمناً، مر بالمعروف وانهَ عن المنكر، لا تكن وسيطاً لمعصية، لا تنصح بشيء لا يرضي الله عز وجل، اضبط لسانك، لأن الله عز وجل يقول:

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً)

[سورة النساء: 85]

الله عز وجل بيّن في آيات كثيرة عداوة الكفار للمؤمنين :

أي توجيه لك انتهى إلى معصية تتحمل أنت الوزر نفسه، من هنا قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

الله عز وجل في آيات كثيرة بيّن عداوة الكفار للمؤمنين، وما لم تصدق الله عز وجل لا يمكن أن تكون عند الله مقرباً، فإذا وثقت بكافر، بإنسان لا يصلي، لا تشاركه، لأنه ولو أعطاك من طرف اللسان حلاوة سوف يطعنك في الظهر، لا تطمئن إلا للمؤمن، يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

يتابعك، ينتظر أن تقع، يفرح إذا وقعت.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة: 50]

(وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران: 120]

المنافقون يحبون:

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة النور: 19]

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

يريدون الغنائم:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

المؤمن مظنة صلاح وصدق وأمانة وورع :

أيها الأخوة آية دقيقة جداً هنا مناسبة ذكرها، قال تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

إذا رأى الكافر مؤمناً يخلف وعده يحتقره ويعتز بكفره، إذا رأى مؤمناً أمره فرطاً يحتقره الكافر ويعتز بكفره، فالمؤمن حينما يقع في خطأ شنيع أمام غير مؤمن، غير المؤمن يتشبث بكفره، ما الذي أعانه على كفره؟ ما الذي جعله يتشبث بكفره؟ هذا المؤمن:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

مرة طُلب من الحُجاج أو من طالبي الحج أن يقدموا تصريحاً أنهم لم يحجوا من قبل، حينما تقدم عشرات الألوف من التصريحات الكاذبة، كيف يقول هذا الذي يدير شؤون الحج؟ حاج! قدم تصريحاً أنك لم تحج من قبل، فأنت حينما تكذب ـ لا سمح الله ـ حينما لا تتقن عملك، حينما تخطئ، حينما تعتدي، وأنت محسوب على المؤمنين، يأتي هذا الطرف الثاني ويحتقر كل هذا الدين، وأنا أقول لكم هذه الكلمة: هناك إنسان داعية، وهناك إنسان منفر، عمله عكس الداعية، لأن المؤمن مظنة صلاح، مظنة صدق، مظنة أمانة، مظنة ورع، مظنة عفة، هذا المؤمن، فإذا وجدنا مؤمناً يفعل خلاف ذلك، ما كل إنسان يفرق بين الدين وأهل الدين، عوام الناس يخلطون بين الدين وأهل الدين، فهم يحكمون على الدين من خلال الديّنين، القضية خطيرة جداً، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك، كل مؤمن ينبغي أن يكون سفيراً للمؤمنين، فالمؤمن حينما يخطئ مع غير المؤمن فغير المؤمن يتشبث بكفره، ويعتز بكفره، هذا الذي جرى من نهب وسلب عقب نهاية الحرب ماذا كان انطباعه عند العالم الغربي، هؤلاء المسلمون! نحن عندهم مسلمون بالمناسبة، كل

شيء دمر، كل شيء سرق، هكذا المسلم! أنت لا تفكر أن تقرأ كتاباً لإنسان تحتقره، تقرأ كتاباً لإنسان ديّن تحتقره.

فلذلك قضية الإسلام قضية كبيرة، أنا ذكرت في الخطبة الإذاعية اليوم، قلت والله، وأكدت هذا بالأيمان: إن الصحابة الكرام لو فهموا الإسلام كما نفهمه نحن الآن والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة إلى المدينة، فكيف وصل إلى أطراف الدنيا؟ بالأخلاق، بالقيم، بالمبادئ، بالصدق، بالأمانة، بالعفة، فقضية الدين قضية كبيرة، أن يصلي أحدنا ليس هذا هو الدين، الصلاة فرض، لكن أصل الدين العفة، والأمانة، والصدق، والوعد الصادق، والرحمة، والعدل، والإنصاف، إذا تمثلت هذه بالمؤمن استطاع أن ينشر هذا الدين:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

أي ينتظرون أن تسقطوا:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(61-69): تفسير الآيات 141-144، طرق المنافقين وصفاتهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-05-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية تتحدث عن المنافقين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

هؤلاء المنافقون، فقد قال الله في الآية التي قبلها:

(إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

وقلت في درس سابق: إن المؤمن واضح، وإن الكافر واضح، لكن هذا الذي ينحاز إلى المؤمنين تارةً ليحقق مصالحه وتارةً إلى الكافرين هذا هو المنافق، يظهر بخلاف ما يبطن، يقول بخلاف ما يعمل، هذا الازدواجي الذي له وجهان، ولسانان، وموقفان، وقناعتان، هذا المنافق خطير، الكافر واضح، والمؤمن واضح، المنافق حُسِب على المؤمنين فنال كل ميزاتهم، وكان مع الكافرين فأخذ منهم أيضاً مما يستطيع.

معنى التربص :

إذاً الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)

هؤلاء المنافقون ما موقفهم من المؤمنين؟

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

التربص أن أكون متيقظاً لأية معلومة تأتي من الطرف الآخر، ولا بد من أن أنتفع من هذه المعلومة، ولا بد من أن أبتز من خلال هذه المعلومة، ولا بد من أن أحقق مكاسب من هذه المعلومة، سواء أكانت من المؤمنين أم من الكافرين، هذا هو التربص:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ)

أي يتتبعون أخباركم، وهذه الأخبار التي يتتبعونها يوظفونها لمصالحهم، فتارةً يكونون مع المؤمنين، ويوهمونهم أنهم معهم، وأن لهم من الغنائم نصيباً، وتارةً يؤكدون للكفار أنهم معهم، فإذا انتصر الكفار، ولهم أيضاً من الكفار نصيب، فهؤلاء المنافقون يتربصون بالمؤمنين، والتربص الوقوف على أهبة الاستعداد لتلقي المعلومات ولتوظيفها لصالح المنافق تارةً مع المؤمنين، وتارةً مع الكفار والعصاة والفاسقين.

الفرق بين النصر والفتح :

قال تعالى:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ)

النصر الذي يحرزه المؤمنون سماه الله فتحاً:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

أي تحقيقاً للهدف الكبير من دعوة المؤمنين الناس إلى دين الله، هناك فتح:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ)

ولعل النصر يكون انتصاراً مؤقتاً، ولعل النصر انتصار ظاهري، ولعل النصر انتصار مادي، أما الفتح فنجاح الدعوة، ونجاح الجيش في إرغام الطرف الآخر على أن يخضع، ونجاح دين الله عز وجل ليحقق أهدافه، فكلمة الفتح أكبر بكثير من كلمة النصر، والدليل كما قلت قبل قليل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

قال:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ)

أي إذا نصركم الله عز وجل وجعل كلمة الذين آمنوا هي العليا، فالمنافق لا بد من أن ينتفع من هذا النصر، فهو يؤكد للمؤمنين أنه معهم، وأنه ساعدهم، وأنه يهدي لهم الطريق، ولا بد من أن يأخذ شيئاً من غنائم المعركة.

طرق المنافقين في ابتزاز المؤمنين والكافرين :

قال:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ)

أي نصيباً من النصر، أقل من النصر، قواتهم العسكرية انتصرت لكن سقطوا بقيمهم، نجحوا بقواتهم وسقطوا بقيمهم، ما سماه الله هذا نصراً، سماه نصيباً من النصر.

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ)

استحوذ عليهم الشيطان أي ملكهم، استحوذ عليهم الشيطان أي صاروا في حوزته، فيبدو أن المنافقين في المعركة يأسرون الكفار، فإن انتصر المؤمنون نحن أسرناهم من أجلكم، وإن انتصر الكفار قالوا: أسرناهم لنمنعهم من أن يقتلوا، ففي كلا الحالتين معهم حجة، يبتزون المؤمنين تارةً والكافرين تارةً أخرى:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ)

وكان من عادة المنافقين في الحروب التي خاضوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقوا بعض المقاتلين في قبضة الأسر من أجل أن يكونوا حجة لهم إذا انتصر المؤمنون، وحجة لهم إذا انتصر الكافرون:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

نحن أسرناكم كي لا تقتلوا، كي نحميكم من القتل.

الحكمة من أن الله سبحانه يحكم بين عباده يوم القيامة لا في الدنيا :

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

أيها الأخوة، قد تسألون: لمَ لم يقل الله عز وجل: فالله يحكم بينكم في الدنيا؟ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، قد تكون دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان.

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

[سورة يونس: 46]

قد لا يتاح للإنسان في الدنيا أن يكحل عينيه بانتصار المؤمنين، لأن دورة الحق والباطل ربما كانت أطول من عمر المؤمن، فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق قد لا يتاح له أن يرى النصر المبين الذي أكرم الله به المسلمين بعد بعثته عليه أتم الصلاة والتسليم، فكأن الله سبحانه وتعالى أرجأ أن يحكم بينهم إلى يوم القيامة، وأكبر خطأ يقع فيه المؤمنون أنهم ينتظرون أن يحكم الله بين المؤمنين والكافرين في الدنيا، فإذا تأخر هذا الحكم يئسوا، وسألوا أين الله؟ ولله عز وجل امتحانات صعبة، قد يقوي الكافر كما ترون، ويتمتع الكافر بأعلى قوة، وقد يقتل، وقد يبطش، وقد يهدد، وكأنه يفعل ما يريد، فمن كان ضعيف الإيمان يتساءل: أين الله؟ فالدنيا ليست دار جزاء، لكن الله سبحانه وتعالى إذا كافأ بعض المحسنين لتكون المكافأة تشجيعاً للباقين، وإذا عاقب بعض المسيئين ليكون العقاب ردعاً للباقين، لكن يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

أي أن اسم الله العدل لا يتحقق في الدنيا كلياً يتحقق جزئياً، أما هذا الاسم العظيم لا يتحقق تحققاً تاماً إلا يوم القيامة، دار تسوية الحسابات، دار أن يأتي الإنسان إلى ربه فرداً لا جماعة معه، ولا جيش معه، ولا ناصرين ولا أنصار معه، يأتي وحده يوم القيامة، ويحاسب عن أعماله كلها.

عظمة هذا الدين أنه بإمكانك أن تطبقه وحدك ولو لم يكن مطبقاًعلى مستوى الأمة:

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وهذا حكم الله عز وجل، لذلك الإنسان عليه أن يستقيم على أمر الله، وعليه ألا يستعجل نصر الله عز وجل، فلله حِكم لا نعلمها، مهمتك أن تعبده، فإذا عبدته انتهت مهمتك، وعلى الله الباقي، عليك أن تطيعه، وأن تعبده، والله عز وجل أنشأ لك حقاً عليه، ذكرت في الدرس الماضي فيما أذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام سأل سيدنا معاذ وقد أردفه خلفه، قال: يا معاذ ما حق الله على عباده؟ فبعد عدة أسئلة، قال: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سأله يا معاذ: ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه؟ قال: ألا يعذبهم، فكأن الله سبحانه وتعالى أنشأ لعباده المؤمنين حقاً عليه، أنت حينما تعبد الله عز وجل بصرف النظر عن مجموع الذين حولك يعبدونه أو لا يعبدونه، عظمة هذا الدين أيها الأخوة أنه بإمكانك أن تطبقه وحدك، لو لم يكن مطبقاً على مستوى الأمة، لو لم يكن منهجاً مطبقاً على مستوى الأمة بإمكانك أن تعبد الله وحدك، وأنت ضعيف مستضعف، وهذا اسمه النصر المبدئي، حينما يأتي ملك الموت ليقبض روح مؤمن، وقد كان مؤمناً حقاً، موحداً حقاً، عابداً حقاً، طائعاً حقاً، هذا الذي جاءته المنية وهو على هذه الحال يعد منتصراً انتصاراً مبدئياً، ولو ضاعت عليه الدنيا لأنه كسب الآخرة، لكن الخسارة الكبيرة التي لا تعوض خسارة الدار الآخرة.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

كنت أقول دائماً: إن العقل السليم لا يقبل ولا هو مستعد أن يقبل أن هذه الدنيا فيها القوي والضعيف، فيها الغني والفقير، فيها الصحيح والمريض، فيها الحاكم والمحكوم، وأن تنتهي الحياة هكذا، ولا شيء بعد الحياة الدنيا، هذا الكلام لا يتناسب مع كمال الخلق الذي نراه في الكون، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فكما أن في الكون إعجازاً ودقةً واتقاناً وإحكاماً، الإله الذي أحكم صنعته، وأتقن صنعته، وظهرت أسماؤه الحسنى في كل صنعته، هو في باب المعاملة؛ معاملة

عباده كماله مطلق أيضاً، فكمال الخلق يدل على كمال التصرف، ذلك أن معظم العلماء يعدون الدليل الإخباري دليلاً وحيداً على اليوم الآخر، بينما بعض العلماء يرى أن الدليل العقلي إضافة إلى الدليل الإخباري يعد حجة على وجود اليوم الآخر، لأن العقل السليم لا يقبل أن يكون في البشر قوي وضعيف، وأن يأكل القوي الضعيف، وغني وفقير، وأن يستغل الغني الفقير، والصحيح والمعلول، وأن تنتهي الحياة، الذي قتل قتل، والذي استمتع بالدنيا استمتع، والذي استعلى استَعلى، والذي تَغطرس تغطرس، وتنتهي الحياة هكذا.

أيها الأخوة، ما من قطرة دم تسفك إلا ويتحملها إنسان يوم القيامة، قتل عشوائي في مقياس الناس.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام: 59]

الأمر بغاية الدقة، والأمر بمنتهى الحكمة، ولكن لا يعقل أن تصل إلى حكمة الله بعقلك إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله.

الفرق بين دخول النار وورودها :

أيها الأخوة: نحن قد لا ننتبه إلا أن الخطأ موظف للصواب، الخطأ في أصل وجوده موظف للصواب، ويروى أن أكبر عالم في النحو سيبويه، كان عالماً بالقراءات، لحن في كلمة أمام جمع غفير، فذابت نفسه خجلاً، فعكف على قراءة النحو، وصار من أكبر علماء النحو، خطأه وظف ليكون أكبر عالم نحو، حتى الإمام الشاطبي أيضاً سبب عكوفه على علم أصول الفقه أنه أخطأ في مسألة في مقتبل حياته في علم الأصول، فعكف على دارسة العلم، وصار أكبر عالم من علماء الأصول.

والذي يحدث الآن شيء صعب جداً، لكن الله يوظفه لخير المسلمين، مع أن العالم كله يحارب المسلمين، مع أن هناك حرباً عالمية ثالثة معلنة على المسلمين، ولكن هذا لصالح المسلمين، هي إيقاظ لهم، هي دفع لوحدتهم، دفع لاستقامتهم، دفع لتوبتهم، دفع إلى يأخذوا دينهم مأخذاً تطبيقياً لا مأخذاً استعراضياً، لأن الذي وَقع أراده الله، لأن الذي وقعَ وقع بعلم الله، وقع بتقدير الله، وقع إذ سمح الله له أن يقع، ولا يعقل أن يقع في ملك الله ما لا يريد، إذاً:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

بالمناسبة: في آيات كثيرة، ومن أبرزها أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

[سورة مريم: 71]

هذه آية عجيبة جداً، فما من إنسان إلا ويرد النار، العلماء فرقوا بين دخول النار وورودها، قد يرد الإنسان النار ولا يتأثر بوهجها، لماذا يسمح الله لكل إنسان من خلقه أن يرد النار؟ ليرى المؤمن

مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً، تتضاعف سعادته في الجنة، إذ يشعر أنه نجا من هذه النار المحرقة، وليرى المؤمن في النار هؤلاء الذين طغوا وبغوا، وتغطرسوا واستعلوا كيف أن عدل الله يلاحقهم، أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

[سورة الأنفال]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

كل إنسان يأتيه ملك الموت تكشف له الحقائق التي كشفت للأنبياء ولو كان كافراً :

كل متوقع آت، وكل آت قريب، بل إن كل واحد يأتيه ملك الموت تكشف له الحقائق التي كشفت للأنبياء ولو كان كافراً، ألم يقل فرعون:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات:24]

ألم يقل:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

لما وافاه الأجل قال:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

لذلك قال تعالى:

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

أهمية الأخذ بالأسباب :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

فكيف إذا كان لهم علينا ألف سبيل وسبيل، في أصل سنة الله في خلقه أنه لا يمكن أن يكون للكافر على المؤمن سبيل، إلا إذا قصر المؤمن، الدنيا بالأسباب، لو أخذ الكافر بالأسباب وأتقنها قطف نتائجها، ولو عصى المؤمن ولم يأخذ بالأسباب ينتصر عليه الكافر، لأنه عصى بتركه الأخذ بالأسباب، وكأن الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست

بشيء، الكافر أخذ بالأسباب، وأتقن الأسباب، وأخذ نتائج الأسباب وقطف ثمار سعيه، فكان قوياً في الدنيا:

(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة: 200]

والمؤمن مأمور أن يأخذ بالأسباب لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

فإن عصى المؤمن هذه الآية، ولم يأخذ بالأسباب، بينما الكافر أخذ بالأسباب، وقوانين الله عز وجل واضحة ومشاعة بين المؤمنين والكافرين، فالذي يأخذ بالأسباب هو الذي ينتصر، والذي يعصي الله فلا يأخذ بها لا ينتصر.

المؤمن الكامل يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء:

أيها الأخوة، طبعا حينما تأخذ بالأسباب المتاحة لك فقط، ولو كان بينك وبين العدو فرق كبير في التسليح، فالله عز وجل يتولى ترميم هذا الفرق، أما إن لم تأخذ بها أصلاً فقد عصيت، فالقصة أيها الأخوة أن الغرب أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وألهها فأخذ ثمارها في الدنيا فقط، وبحسب القرآن الكريم:

(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة: 200]

وأن الشرق المسلم لم يأخذ بها عاصياً، وقع في المعصية، الذي أخذها بها واعتمد عليها وقع في الشرك، والذي لم يأخذ بها وقع في المعصية، وكلا الفريقين مخطئ، أما المؤمن الكامل يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء. قال:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

لكن المؤمن إيماناً صحيحاً، يحمله على طاعة الله، مؤمن أعد للعدو ما يستطيع من قوة، هذا المؤمن لا يمكن أن يكون لكافر عليه سبيل، أما إذا عصى المؤمن الله فلم يعدّ للكافر العدة التي أمر بها وقع في تقصير ومعصية.

تقريباً منهج الله عز وجل منهج موضوعي، فأي طرف أخذه يقطف ثماره، إن أخذه لمصلحته في الدنيا يقطف ثماره في الدنيا، وإن أخذه عبادة لله عز وجل يقطف ثماره في الدنيا والآخرة، إن أخذه من أجل الدنيا يقطف ثماره في الدنيا، وإن أخذه من أجل الآخرة يقطف ثماره في الآخرة وفي الدنيا، هذه آية دقيقة جداً، ولن تفيد تأبيد المستقبل:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

الذين آمنوا حق الإيمان والذين أعدوا لعدوهم الإعداد المتاح له، هؤلاء:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

فإن كان للكفار عليهم سبيل، بل ألف سبيل فهناك خلل خطير إنْ في عقيدتهم وإيمانهم أو في سلوكهم واستعلائهم.

أن يخدع الإنسان الله عز وجل فهذا شيء يدعو للسخرية :

ثم يتابع ربنا جل جلاله الحديث عن المنافقين فيقول:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

الإنسان لا يسمى خادعاً إلا إذا كان الطرف الثاني لا يعلم هذه الخديعة، فقد تخدع إنساناً مغفلاً، وقد تخدع إنساناً لم يحط علماً بخديعتك، شيء طبيعي، أما أن يخدع الإنسان الله عز وجل فهذا شيء يدعو للسخرية:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

معنى خادعهم؛ أي أبطل خديعتهم، لكن أسماء الله عز وجل توقيفية، لا نستطيع أن ننطق بأسماء الله إلا التي سمى الله بها نفسه، لا نستطيع أن نقول: هذا اسم لله إلا إذا سمى الله نفسه بهذا الاسم، أنا لا أستطيع أن أقول: إن الله خادع، مشتق من اسم الفاعل، من خدع، لكن حينما يخدعهم الله عز وجل؛ أي يبطل خديعتهم:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

أي من السذاجة بمكان أن هذا المنافق يصلي ويوهم المؤمنين أنه مؤمن، ثم يتوهم أن الله قبل هذه الصلاة، يعمل عملاً صالحاً أمام المؤمنين ويتوهم أن الله قبل هذا العمل، هذه سذاجة ما بعدها سذاجة.

أهمية الصلاة :

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

ولأنهم محجوبون عن الله بمعاصيهم فالاتصال بالله عز وجل لا معنى له، لكنه يصلي أمام الناس ليدفع عن نفسه تهمة ترك الصلاة هو حريص على الصلاة أمام الناس فقط:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

أي أن الصلاة معراج المؤمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه: الصلاة معراج المؤمن، يعرج بها إلى الله، الصلاة قرب من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

الصلاة وعي: "ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها"، وفي آية:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

الآية منسوخة، لكن ماذا نستفيد منها؟ (حتى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)، فالذي يصلي ولا يعلم ماذا يقول هو في حكم السكران، إذاً الصلاة عقل، الصلاة عروج إلى الله، والصلاة قرب منه، والصلاة ذكر له، والصلاة عقل، والصلاة نور كما قال عليه الصلاة والسلام، نور يلقى في قلب المصلي فيرى في هذا النور الحق حقاً والباطل باطلاً، ويصعب كثيراً أن يقع المؤمن في ورطة كبيرة لأن في قلبه نوراً، ولأن طاعته لله تحرسه من الوقوع في خطأ فاحش.

الصلاة نوروالصلاة طهور :

أيها الأخوة الكرام، الصلاة نور، والصلاة طهور، أما أنها نور فلأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الحديد: 28]

أي كفالة في الدنيا، وكفالة في الآخرة.

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

المؤمن في قلبه نور، هذا نور الله عز وجل، يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، يريه الخير خيراً والشر شراً، فالصلاة نور، والصلاة حبور وسعادة.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول:

((يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ]

المؤمن طهور، ليس هناك مؤمن حقود، مؤمن مخادع، مؤمن متكبر، مؤمن دنيء النفس، مؤمن كذاب، مؤمن خائن، مستحيل لأن الصلاة تطهر المؤمن من كل أدرانه، فالصلاة طهور، والصلاة نور، والصلاة حبور وسعادة، والصلاة معراج المؤمن، والصلاة ذكر، والصلاة وعي وعقل، والصلاة قرب.

المؤمن يقوم إلى الصلاة متشوقاًإلى الله أما المنافق فالصلاة لا معنى لها عنده :

قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

فالمؤمن يقوم إلى الصلاة متشوقاً إلى الله، المؤمن يقوم إلى الصلاة ولسان حاله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ]

المؤمن إذا صلى يرتاح، ولاسيما إذا صلى الصلاة على وقتها، يشعر أنه في رحمة الله، في حفظ الله، كأنه تحت مظلة الله عز وجل، أما المنافق فقال تعالى: (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)، لأن المنافق محجوب عن الله بنواياه السيئة وبعمله السيئ، فالصلاة لا معنى لها عنده، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة: 45]

هي كبيرة، ثقيلة (إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)، لأنه موصول مع الله عز وجل، (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ)، هذا الذي يبتغي بعمله سمعة أو مكانة، يبتغي بعمله أن يمدحه الناس، أن ينتزع إعجابهم، أن يأخذ ثنائهم، أن يأخذ من هباتهم، هو لا يبتغي الله عز وجل، يبتغي أهل الدنيا، فلذلك: (يُرَاءُونَ النَّاسَ)، المراءاة أن تبتغي عملاً لا تريد به وجه الله بل تبتغي به الناس، ليراه الناس، وهذا من الشرك الخفي، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: شَيْئاً سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ قَالَ نَعَمْ أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا حَجَراً وَلَا وَثَناً وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِماً فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

الشرك الخفي :

الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل؛ تحب إنساناً غير مستقيم، هذا من الشرك، أو أن تنزعج أشد الانزعاج من نصيحة مخلصة صادقة أزجيت إليك، كلاهما شرك، هؤلاء المنافقون يراؤون الناس، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً، والأمر الإلهي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الأحزاب: 41-44]

فالأمر ينصب على الذكر الكثير لا على الذكر القليل، القليل يفعله المنافقون، الذكر القليل يفعله المنافقون:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الأحزاب: 41-44]

إذاً:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

المؤمن واضح والكافر واضح أما المنافق فمتذبذب :

أخواننا الكرام، من باب التوضيح: المؤمن الكامل مرتاح، أموره واضحة جداً، آمن بالله، ووضع كل ثقله في طاعته، ونقل اهتمامه إلى الآخرة، وهو ملتزم بمنهج الله، ولا يفكر أن يعصي الله عز وجل، واضح، هدفه واضح، هدفه الآخرة، سلوكه يحكمه منهج الله عز وجل، لا يسوم ولا يناقش فيما هو طاعة لله عز وجل، أحياناً في المفاوضات يقول بعض الأطراف: هذه القضايا ليست خاضعة للمناقشة، وليست مدرجة بجدول الأعمال، فالمؤمن ممنوع أن يعصي الله، أن يأكل المال الحرام، أن يكذب، أن ينافق، أن يخون، هذا مستحيل، واضح، والشيء المؤسف والكافر واضح، الكافر آمن بالدنيا فقط، ولم ير أن الدين علاج لمشكلات البشر، آمن بالدنيا، آمن بالعلم فقط، علماني لكن واضح، لا يخدعك أبداً، كما أن المؤمن واضح الكافر واضح، الكافر وضع كل ثقله في الدنيا، أتقنها، ليس عنده شيء يحول بينه وبين إتقان الدنيا، أتقنها إتقاناً كافياً، ولا يعتقد إلا بالدنيا فقط، ومن ربحها ربح كل شيء، ومن حاز المال كان في جنة الدنيا، هكذا.

مرة التقيت بإنسان أوربي، فبدأت أتحدث معه عن أمور الدين، ما لبث أن قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقي لها بالاً، أنا لا يعنيني بالحياة إلا امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارهة، وانتهى الأمر، لا يخدعك، هذا واضح، له ميزة أنه لا يخدعك، ولا يمكن أن يؤثر فيك، بعيد عنك بعد الأرض عن السماء، أما هذا الإنسان الذي يصلي كما تصلي، ويصوم كما

تصوم، ويكون في بعض المجالس كما أنت فيها، وله لسان لطيف، إذا التقى بالمؤمنين يثني عليهم، ما شاء الله، الله ينفعنا من بركاتكم.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

المنافق محسوب على المؤمنين وهو مع الكافرين :

له وجهان، ولسانان، وموقفان، وظاهر وباطن، شيء يحير، لذلك الله عز وجل وصف المؤمنين في سورة البقرة بعدّة آيات، والكفار بآيتين، ووصف المنافقين بثلاث عشرة آية، لأن لهم ظاهراً وباطناً، لهم خلوة ولهم جلوة، يعني ذكرت اليوم في الخطبة أن المنافق إذا كان مع المؤمنين يتصنع غض البصر ليحافظ على مكانته عندهم، أما إذا لم يكن مع المؤمنين أطلق لبصره العنان، فقال الله عز وجل:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

[سورة غافر: 19]

العين تخون تنضبط مع المؤمنين ولا تنضبط بعيداً عنهم، لذلك الله عز وجل قال:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ)

المؤمن واضح، وقطف ثمار إيمانه في الدنيا وفي الآخرة، والله حفظه، ووفقه، وأعلى مقامه، ورفع ذكره، والكافر أنكر الآخرة، وأتقن الدنيا فقطف ثمار كفره في الدنيا فقط، الدنيا أتقنها إتقاناً شديداً، أما هذا المنافق فمحسوب على المؤمنين، وهو مع الكافرين، كما قلت قبل قليل: له ظاهر وله باطل، له موقف معلن وله موقف باطن داخلي، له جلوة منضبط بها مع المؤمنين وله خلوة متحلل بها من قيم الدين، عليم اللسان، جاهل القلب، معك بلسانه عدو لك بقلبه، هذا المنافق، لأنه أخذ ميزات المؤمنين وحسب عليهم، وأخذ ميزات الكفار في التفلت من منهج الله، هذا مكانه يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء: 145]

الله عز وجل يخدع المنافقين ويفضحهم ويحد من مؤامراتهم وخديعتهم :

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

لا بد من أن يفضحهم، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ:

((إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكاً بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ـ هو ليس مؤمناً إطلاقاً لكنه يعمل بعمل أهل الجنة من أجل الدنيا ـ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

فالله عز وجل يخدعهم؛ أي يكشفهم، ويفضحهم ويحد من مؤامراتهم وخديعتهم:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً*مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ)

أكاد أقول: إن الكافر أيضاً ارتاح في الدنيا، كيف ارتاح؟ نزع الآخرة من ذهنه إطلاقاً، ما عنده إلا الدنيا، لا يصلي، ولا يصوم، ولا يحضر درس علم، يتقن عمله فقط، يعبد المال، في الدنيا ليس عنده اضطراب، المؤمن كذلك، أما المنافق فلا يستطيع أن يكون كالكفار تماماً، ولا يستطيع أن يكون كالمؤمنين تماماً، لا قطف ثمار المؤمنين باستقامته، ولا قطف ثمار الكفار ـ إن صح التعبير ـ بأنه أزاح الآخرة من تخطيطه:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)

يقول الله عز وجل أيها الأخوة في آية فيها نهي واضح وضوح الشمس:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

الولاء أن تحبهم، الولاء أن تهتدي بمنهجهم، أن تستشيرهم، الولاء أن تأتمر بأمرهم، الولاء أن تستعين بهم على أخيك المؤمن.

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

هذه آية دقيقة جداً، إن شاء الله نشرحها بتوفيق الله في الدرس القادم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(62-69): تفسير الآيات 144-147 ، الإيمان والاستقامة على أمر الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-05-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

نواقض الإيمان ولوازمه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

لعل هذه الآية هي ألزم آية للمسلمين اليوم أن ينتهوا عن هذا النهي الإلهي، فالمؤمن حينما يتخذ الكافر ولياً، معنى يتخذه ولياً أي يعظمه، ويحبه، وينصره، ويطيعه، ويتبعه، لمجرد أن يتخذ المؤمن الكافر ولياً فقد وضع نفسه مع المنافقين، لأن في النفاق كفراً، والمنافق يلتقي مع الكافر، له ظاهر إسلامي، وله باطن كافر، فالمنافق يتخذ الكافر ولياً لأن هناك قواسم مشتركة بين المنافق والكافر، أما إذا اتخذ الكافر ولياً فمعنى ذلك أنه وضع نفسه في خندق المنافقين، ولو لم يكن هذا واقعاً أو يمكن أن يقع لما نهى الله عنه، وتكاد مشكلات العالم الإسلامي تنبع من هذه المواقف، أن نوالي كافراً على مؤمن، أن نعين كافراً على مسلم، أن نتعاون مع الكفر على أهل الإيمان، وهذا والعياذ بالله من نواقض الإيمان، هناك أشياء تضعف الإيمان، لكن هناك أشياء تنقض الإيمان، فمن نواقض الإيمان أن توالي كافراً ضد مسلم، أن تعين كافراً ضد مسلم، أن تحب كافراً، وأن تبغض مسلم، بل إن من لوازم الإيمان أن تحب المؤمن، ولو نالك ـ فرضاً ـ منه أذى، وأن تبغض الكافر ولو ـ نالك فرضاً ـ منه خير، بل إن من بعض الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "اللهم لا تجعل لي خيراً على يد كافر". لئلا يميل القلب إليه، لأنه من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً ، كنت أقول: إذا أعان المسلم كافراً على مسلم مثله كمنديل لا قيمة له، تمسح به أقذر عملية، ثم يلقى في المهملات، فينبغي أن توالي المؤمنين ولو كانوا ضعفاء، وينبغي أن تتبرأ من الكفار ولو كانوا أقوياء.

الولاء والبراء من أسس الدين :

أيها الأخوة، موضوع الولاء والبراء من أسس الدين، لا تكون مؤمناً إلا إذا واليت المؤمنين، ولا تكون مؤمناً إلا إذا تبرأت من الكافرين، أما أن يهوى الإنسان الكفار، وأن يكون معهم، وأن يؤمن بأفكارهم، وأن يعظم قيمهم، وأن يهتدي بإرشاداتهم، وأن يقلدهم في أنماط حياتهم، ثم هو يصلي ويصوم ويدعي أنه مسلم فهذا مما ينقض إيمانه، لأنك لو واليت كافراً ماله حرام، وعلاقاته علاقات شائنة، لا يحلل ولا يحرم، ولا قيمة للقيم عنده، فلذلك حينما يحب المسلم كافراً، حينما يعينه، حينما ينصره، حينما يأتمر بأمره، حينما ينتهي عما عنه نهى، إذاً هو مثله، لذلك يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: 13]

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: 51]

من نواقض الإيمان، مما يلغي إيمانك في قلبك أن توالي كافراً، فكيف إذا أعنته على مسلم؟ فكيف إذا أعنته على قتل مسلم؟!!

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء: 93]

لا أعتقد أن في القرآن كله آية فيها وعيد كهذا الوعيد، أليس الذي يجري في العالم الإسلامي موالاة للكافرين على بعض المسلمين؟!!

قضية الإنكار وعدم الإنكار قضية متعلقة بالدين :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

لكن الذي يحصل أن كل إنسان فيه خصائص، هذه الخصائص من صنع عقيدته وقيمه وسلوكه، فحينما تكون العقيدة فاسدة، وحينما يكون السلوك منحرفاً، وحينما تكون القيم مهزوزة، فهذه النقاط والخصائص تلتقي مع نقاط وخصائص أهل الكفر، تأتي المودة من نقاط اللقاء دائماً، فالإنسان إذا هوي الكفرة، إذا هوي إنساناً ماله حرام، أو هوي إنساناً يبني مجده على أنقاض الناس، أو هوي إنساناً يبني أمنه على خوفهم، أو هوي إنساناً يبني غناه على فقرهم، أو هوي إنساناً يبني حياته على موتهم، أو هوي إنساناً يبني عزه على ذلهم، أن تهوى مثل هذا الإنسان فأنت مثله، أن ترضى عن فعل هذا الإنسان فأنت مشترك معه في الإثم، لأنه من أقر بمعصية غابت عنه كان كمن شهدها، ومن رضي بمعصية غابت عنه كان كم شهدها أيضاً، فقضية الإنكار وعدم الإنكار قضية متعلقة بالدين، فآية واضحة قطعية الدلالة، صريحة، بينة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

وبشكل مصغر قد يكون لك قريب ذو شأن، ذو مال، أو ذو سلطان، وتستشيره، وتفتخر به على أنه لا يصلي أبداً، وقد يشرب الخمر، وقد يفعل الأعمال السيئة، حينما تعتز به، وتثني عليه، وتفتخر بالانتماء إليه، وحينما يشير لك بشيءٍ تفعله فوراً فأنت ممن تنطبق عليك هذه الآية، ينبغي ألا تعظم فاسقاً، ألا تعظم كافراً، ألا تعظم عاصياً:

((إن الله يغضب إذا مدح الفاسق في الأرض))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

إنسان فسقه ظاهر أن تقول عنه: لبق، ذكي، عنده حكمة، إذا سمع ابنك منك هذا الكلام يختل توازنه، يراه لا يصلي، يراه يملأ عينيه من محاسن النساء، يراه يمزح مزاحاً رخيصاً، وتقول أنت عنه: إنه لبق وذكي، وموفق في عمله، وله مكانة كبيرة، هذا المديح يحدث اضطراباً في القيم أيها الأخوة، ينبغي ألا ينطق هذا اللسان إلا بالحق، ينبغي إلا تمدح فاسقاً، ألا تثني على كافر، ألاّ تعتز بإنسان لا يعتز بالله عز وجل.

حينما تنعدم القيم الأصيلة تنشأ قيم مزورة :

أتمنى أن أوسع مفهوم هذه الآية، لأن معظم الناس على ضعف إيمانهم متلبسون بهذه المخالفة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

إذا كان إيمانك صحيحاً، وإيمانك متيناً، وكان إيمانك عميقاً، فلا يمكن أن ترتاح لإنسان عاصٍ، لا يمكن أن تجد مسوغاً أن تبتسم في وجهه، هذه اللباقة التي تشيع في الحياة المعاصرة لباقة نفاق، نشأ مصطلحان يتداولهما الناس، وفيهما تعمية للحقيقة، فالفتاة المتفلتة من أحكام الشرع أن تسمى بالتعبير الأجنبي سبور، هي متفلتة، هي فاسقة، والإنسان الذي يأكل مالاً حراماً يسمى شاطراً، والإنسان المنافق الذي يرضي جميع الفئات، وليس له مبدأ يستقر عليه يسمى لبقاً، مرناً، ذا حكمة، فحينما تنعدم القيم الأصيلة تنشأ قيم مزورة.

لكن أيها الأخوة، في القسم الثاني من الآية شيء دقيق جداً، قال:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

ماذا أقول في هذه الآية؟ حتى خالق الأكوان، حتى رب الأرض والسماء، حتى الإله الذي وصف نفسه بأنه لا يسأل عما يفعل، مقام الألوهية لا يليق به أن يسأله أحد، لكن الله سبحانه وتعالى ألزم نفسه العلية بالاستقامة، فقال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 55-56]

إلزام ذاتي، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا..))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

الاستقامة على أمر الله تنجينا من أي عقاب :

حتى الإله العظيم، حتى من بيده كل شيء، حتى الذي لا يسأل عما يفعل، حتى الذي هو فعال لما يريد، لا يمكن أن يسوق لك عذاباً من دون سبب منك.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

للتقريب إليكم هذا المثل، عندك محل تجاري، والبضاعة كلها وطنية، وكل البضاعة نظامية، والبضاعة كلها فيها فواتير صحيحة، ومحتفظ بها، ومر موظف الجمرك، هل تتحرك شعرة في جسمك، ما له عليك سلطان، لا يستطيع أن يسائلك، ولا أن يقول كلمة، كل عملك صحيح، أما الذي عنده بضاعة غير صحيحة، غير نظامية، ولمح إنساناً يعمل في الجمرك، واقترب من المحل تكاد تتقصف مفاصله، لأن لهذا الإنسان مقابل هذه المخالفات سلطاناً، فهذا المعنى دقيق جداً، وعميق جداً، ونحن في أمس الحاجة إليه، أنت حينما تستقيم على أمر الله، أنت حينما تنام ولم تؤذِ في نهارك أحداً، ولم تسئ إلى أحد، ولم تعتدِ على أحد، خالق الأرض والسماء لأن عدله مطلق، ولأن رحمته لا حدود لها ليس له عليك سلطان، فما من سبب من قِبلك يعاقبك، بدليل قول الله عز وجل:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ: 17]

أيعقل يا عبادي أن نعاقب إنساناً مستقيماً، هذا المعنى جاء في السنة أيضاً قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا معاذ ما حق الله على عباده؟ فقال: الله ورسوله أعلم ـ أعاد عليه السؤال ثانية وثالثة إلى أن قال النبي عليه الصلاة والسلام ـ: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئاً، ثم سأله مرةً ثانية: يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه؟ قال: الله ورسوله أعلم ـ أعاد عليه السؤال ثانية وثالثة ثم أجاب عليه الصلاة والسلام ـ يا معاذ حق العباد على الله إذا هم عبدوه ألا يعذبهم))

[متفق عليه عن معاذ بن جبل]

ليس هناك حجة.

قضية الأمن نعمة من أعظم النعم جعلها الله خاصة بالمؤمنين :

تصور أي أب جاء ابنه من المدرسة معه أوراق علاماته، المرتبة الأولى، وثيابه نظيفة، وأخلاقه حسنة، ويخدم أمه وأخوته، هل يوجد على وجه الأرض أب يضرب هذا الابن؟ ما من سبب، ولا عقاب إلا بسبب.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

من أجل أن تطمئنوا، قضية الأمن مهمة جداً، قضية الأمن نعمة من أعظم النعم جعلها الله خاصة بالمؤمنين، قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

لهم الأمن وحدهم، لو قال: أولئك الأمن لهم، ولغيرهم، أما:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

وحدهم، من أجل أن تكون مطمئناً، أنت حينما تعقد صلحاً مع الله، وحينما تخطب وده، وحينما تستقيم على أمره، وحينما لا تؤذي أحداً من خلقه، حينما لا تكذب بل تصدق، لا تخون بل تخلص، الله عز وجل يطمئنك أنت في مظلة الله عز وجل وفي رعايته، لذلك في القرآن الكريم آيات لطيفة جداً، قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

هذه لكل الخلق، معكم بعلمه، مع الكافر، مع الفاسق، مع القاتل، مع المجرم بعلمه، لكن هذه معية عامة، بينما المعية الخاصة، إن الله مع المؤمنين، أي معهم بالتوفيق والنصر والحفظ والهداية، إن الله مع المتقين، إن الله مع الصادقين، إن الله مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهذه معية خاصة، وإذا كان الله معك فمن عليك.

حينما تكون في معية الله يدافع عنك وينصرك ويلهمك الصواب :

والله الذي لا إله إلا هو في قلب المؤمن الصادق المستقيم من الأمن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، قال بعض العارفين بالله: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف، الله موجود، الله فعال.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود: 16]

أمرنا بيد الله لا بيد أعدائنا، سلامتنا وسعادتنا بيد الله، والله مطلع على أعمالنا، وعلى نوايانا، وعلى خواطرنا، وعلى سرائرنا، وعلى بواطننا، وعلى خلوتنا، وعلى جلوتنا، فلذلك أيها الأخوة المؤمن يتميز بميزة لا تعدلها أموال الدنيا، أنه ينام ناعم البال، ينام مطمئناً، بل إن الله عز وجل أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتحدى الكفار.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

أنت مع من؟ أحياناً جندي بجيش قوي جداً يشعر أن كل هذا الجيش يحميه، وأن كل هذه القوة الجبارة تصونه، وتدافع عنه، هذا إحساس ناتج من قوة جيش، وحينما يهم الإنسان أن يؤذي جندياً ينتمي إلى جيش قوي قد يكون متبصراً تماماً، لأن المضاعفات خطيرة جداً، وأنت حينما تكون جندياً لله، وحينما تكون في معية الله، وحينما تكون تحت مظلة الله، وحينما تكون مع الله معية خاصة يدافع عنك، وينصرك، ويلهمك الصواب، والله البارحة حدثني أخ قصة عن كيد عظيمٍ أريد بإنسان، وضع في بيته قطعة حشيش، وجاء من وشى به أنه مدمن مخدرات، وجيء بالضابطة، واقتحمت البيت، وفتشته عن آخره ثم في نهاية المطاف عثرت على قطعة الحشيش، ودخل السجن، وكل شيء يدل على أنه يحوز هذا الحشيش، القاضي ساعة النطق بالحكم رأى وجه هذا الإنسان ليس وجه إنسان مدمن مخدرات، فأطلق سراحه، وأبطل التهمة كلها، الله عز وجل معه خيارات لا تنتهي، أحياناً يلقي في قلب الناس محبة، أحياناً يلقي في قلب الناس هيبة، أحياناً يسوق لك حادثاً مؤسفاً يكون سبب نجاتك.

الدنيا مزرعة الآخرة :

قال:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

يجب أن تعتقد اعتقاداً صارماً أن الله لا يتخلى عنك، وأن عملك عند الله محفوظ، وأن استقامتك عند الله مثمنة، وأن الذي تفعله تقرباً من الله عز وجل لن يضيع عليك، بل إن قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

وأن الدنيا مزرعة الآخرة، أيها الأخوة الكرام:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

الخالق العظيم، من بيده كل شيء، من بيده الأمراض الوبيلة، من بيده الحوادث المدمرة، من بيده الزلازل، من بيده البراكين، من بيده الصواعق، من بيده الصواريخ، من بيده الألغام، من بيده كل

شيء، لا يصيب إنساناً إلا بما يستحق، و إلا بما فعله هو بنفسه، لأن الله عز وجل لا يمكن أن يسوق شراً في نظر الناس بلا سبب من الناس.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

الله عز وجل عدله مطلق ما من شيء يصيب شيئاً إلا بعلمه :

لذلك هذا الذي ادعى أمام عمر رضي الله عنه أن الله قدَّر عليه شرب الخمر، قال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله عز وجل لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

طبعاً الإنسان المتوحش الذي لا تنظمه قيم، ولا تردعه مبادئ قد يتحرك حركة عشواء، أما إله عظيم، عدله مطلق ما من شيء يصيب شيئاً إلا بعلمه.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام: 50]

الأمور عند الله ليست كما يتوهم الكفار، الحياة لمن كان قوياً، القوي يعطيه الحياة الدنيا، لكنه سيحاسبه حساباً عسيراً.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

أنتم لاحظوا أن إنساناً في حياته المهنية المدنية مستقيم، وفق القوانين كلها، حتى إذا أطاع أولي الأمر، ليس لأولي الأمر عليه سلطان، مستحيل، لا بد من مخالفة يبنى عليها حكم، لا بد من مخالفة يبنى عليها سجن، لا بد من مخالفة يبنى عليها حرمان، أما إنسان نظامي، ينقاد للقوانين، لا يخالف، هذا له شأن حتى عند أهل الأرض، فكيف عند الواحد الأحد، عند الديان، عند خالق الأكوان؟!!

طاعة الله ومعصيته :

أذكركم بالمثل، لأنه يوضح الآية، مادامت كل بضاعتك بمحلك التجاري صحيحة، ونظيفة، ونظامية، ومدعمة بالفواتير النظامية، لو مر ضابط جمرك هل تتحرك شعرة في جلدك؟ أبداً، لأن هذا الإنسان ليس له عليك سلطان، لأنك مستقيم، أما إذا وُجدت مخالفات كثيرة ترتعد فرائصك، وترتجف أعضاؤك، ويخاف قلبك، لأن هذا الإنسان له عليك سلطان.

مقام الألوهية هذا مقام عظيم، ومع أن الله عز وجل جل في علاه يقول لك عن ذاته: ليس لي عليك سلطان يا عبدي إذا أطعتني، معنى دقيق: يا عبدي إذا أطعتني ليس لي عليك سلطان، لذلك لما فسر المفسرون قوله تعالى:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

[سورة سبأ: 19]

بلاد اليمن كانت بلاداً خصيبة جداً، وأحياناً تركب مركبة، تمشي مئات الكيلومترات بلاد كلها خضراء، كلها أبنية، كلها مرافق، تقول البناء متصل، أماكن خصبة، الطريق كله مرافق، وبيوت فخمة، وفنادق، ومحلات للبيع تقول: يا أخي البناء متصل، فهؤلاء في اليمن قالوا:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

[سورة سبأ: 19]

أي اجعل هذه البلاد قاحلة، أحياناً تمشي من مدينة إلى مدينة مسافة مئة وستين كيلومتر معظمها صحراء، باعد بين أسفارنا، هل من إنسان على وجه الأرض يدعو على نفسه بالهلاك؟ لا، مستحيل، ما معنى الآية؟ قال المفسرون: أنت حينما تعصي الله يقول لسان حالك: يا رب دمرني، يا رب عاقبني، يا رب أذهب مالي دون أن تشعر، حينما يتكبر الإنسان يقول لسان حاله: يا رب دمرني، يا رب حطمني، لسان حاله يقول: يا رب أفقرني، لا أحد في الأرض يدعو على نفسه، ولكن العاصي كأن لسان حاله يقول: يا رب دمرني.

آيات كثيرة في القرآن الكريم تطمئن إلى عدل الله سبحانه :

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: إنسان يعيش حياةً هادئة مريحةً متوازنة، إن لم يغير الله جل في علاه لا يغير، اطمئن إلى عدل الله، اطمئن إلى رحمته، إن لم تغير فالله لا يغير، أما إذا غيرت فلا بد من أن الله يغير، لذلك في بعض الأدعية الشريفة:

((اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك وغضبك.))

[رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر]

قد تأتي المصائب تباعاً، بثانية واحدة يفقد حركته، بثانية واحدة يفقد بصره، أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك، هذه الآية مطمئنة أيها الأخوة، آيات كثيرة مطمئنة، احفظوها.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجاثية: 21]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35-36]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

آيات الرجاء يجب أن نتلوها من حين إلى آخر حتى نطمئن :

مستحيل وألف ألف مستحيل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: 20]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

خالق الأكوان:

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

أي مؤمن على منهج النبي عليه الصلاة والسلام هو في رعاية الله، وفي حفظه، آيات الرجاء يجب أن نتلوها من حين إلى آخر حتى نطمئن، الحقيقة السبب أن الأخطار التي نراها بأعيننا تفوق حد الخيال، أخطار ماحقة، أخطار مدمرة، فلا ينجينا من الخوف من هذه الأخطار إلا اعتصامنا بالله عز وجل، لا ينجينا من الخوف من هذه الأخطار إلا استقامتنا على أمره.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

البشر جميعاً يوم القيامة يأتون فرادى وحكم الله مطلق :

أحياناً إنسان يعاقبه إنسان، قد يتوسط بإنسان أقوى من المعاقب، فيعطي أمراً بالإفراج عنه، لكن القضية مع الله ليست كذلك، ما من جهة في الكون تستطيع أن تعقب على حكم الله.

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

[سورة الرعد: 41]

قد يحكم لك قاضي الصلح في القضية، يحكم لك، فيأتي قاضي الاستئناف فينقض هذا الحكم، وقد يحكم لك قاضي الاستئناف، فيأتي قاضي النقض فينقض هذا الحكم، وقد يحكم عليك حكماً مبرماً، فيأتي عفو من الملك يلغي هذا الحكم،

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

[سورة الرعد: 41]

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

لذلك الناس يوم القيامة يأتون فرادى، الآن هناك شخص يأتي وحوله ملايين، حوله مئات الألوف، حوله قوة جبارة، هذا يحسب له حساب، أما البشر جميعاً يوم القيامة يأتون فرادى:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام: 94]

لا تقبل توبة المفسد إلا إذا أصلح :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

ولكن فتح الله لهم نافذة النجاة.

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً)

حينما كان منافقاً كان مفسداً، حينما كان منافقاً كان مع الكفر على المؤمنين، حينما كان منافقاً كان كذاباً، لذلك أفسد بكذبه، وأفسد بمعاونته للكفار، وأفسد بتآمره على المؤمنين، وأفسد وَأفسد، قال:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا)

لا تقبل توبة المفسد إلا إذا أصلح.

من عظمة هذا القرآن أنه كلما يخوف الله عباده من المعاصي يبث فيهم الرجاء بالتوبة :

قال تعالى:

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ)

أي أطاعوه، تاب عن ذنوبه، وأصلح أخطاءه، ثم اعتصم بطاعة الله عز وجل:

(وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ)

لا خوفاً من بشر، ولا طمعاً في عطاء، ابتغاء رضوان الله، قال:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

فأولئك معهم ناجون:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

من عظمة هذا القرآن أنه كلما أوعد يعد، وكلما يخوف الله عباده من المعاصي يبث فيهم الرجاء بالتوبة، لأن الله عز وجل يريد أن يتوب على عباده، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء: 27]

(اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة: 222]

التوبة بلا إيمان ولا استقامة لا قيمة لها إطلاقاً :

كلما زلت قدم العبد فتح الله له نافذة للتوبة:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ)

هذا المفهوم الساذج أن الله غفور رحيم، يرتكب المعاصي والآثام، والله غفور رحيم، يهون على كل إنسان معاصيه، بدعوى أن الله غفور رحيم، لكن اقرأ القرآن، مثلاً:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الحجر: 49]

أكمل:

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

[سورة الزمر: 53 -54]

أكثر من ثماني آيات.

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النحل: 110]

هذه آية واضحة إلا الذين تابوا وأصلحوا كل أخطاء الماضي، واعتصموا بالله أطاعوه بإخلاص، وأخلصوا دينهم لله:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

أي توبة بلا عمل، توبة بلا امتناع، توبة بلا ثمن، توبة بلا عزيمة، توبة بلا إصلاح، توبة بلا إيمان، توبة بلا استقامة لا قيمة لها إطلاقاً:

(الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً)

حينما نؤمن بالمعطي ونشكره على عطائه نكون قد حققنا الهدف الأكبر من وجودنا:

أيها الأخوة: ثم يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

الحقيقة الآية دقيقة جداً، لأن علة وجودنا أن نؤمن به، وأن نسعد بقربه، فحينما نؤمن وحينما نشكر نكون قد حققنا الهدف من وجودنا، إذاً عندئذٍ تنتهي المعالجة، فلو أن طبيباً أقر باستئصال كلية واقفة عن العمل، هذا قرار حكيم، قبل إجراء العملية صور الكلية التي ينبغي أن يستأصلها فإذا هي تعمل بانتظام، هل يستأصلها؟ مستحيل، فحينما يؤمن الإنسان بالله، وحينما يشكر، حقق الهدف من وجوده، لأن الله منحه الحياة، ومنحه الجنة، ومنحه الكون، ومنحه القرآن، ومنحه العقل، ومنحه الفطرة، ومنحه الاختيار، ومنحه الشهوة الدافعة إليه، فهذا كله عطاء، فأنت حينما تؤمن بالمعطي، وحينما تشكر المعطي على عطائه تكون قد حققت الهدف الأكبر من وجودك، إذاً عندئذٍ تنتهي المعالجة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

بل إن هذا الكون مسخر مرتين، مسخر تسخير تعريف، ومسخر تسخير تكريم، لو أن صديقاً لك أهداك هاتفاً بالغ الفوائد، أولاً أهداه لك هدية، ثم إنك دهشت بخصائصه التي من تصميمه، فأنت حيال هذه الهاتف مثلاً عندك شعوران؛ شعور التعظيم لهذا الإنجاز، ثم شعور الامتنان، لأنه قدم لك هدية، فيجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيء في الكون مسخر لك أيها الإنسان، تسخير تعريف من أجل أن تعرف الله من خلاله، وتسخير تكريم من أجل أن تحبه على عطائه، فأنت حينما تؤمن بوجود الله، وبكماله، وبوحدانيته، وحينما تشكر نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، تكون قد حققت الهدف من وجودك، عندئذٍ هل هناك من مبرر للمعالجة والمصائب، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

المخلوق أحياناً ينتفع بتعذيب إنسان، يعذبه ليأخذ ماله، يعذبه ليأخذ زوجته، مثلاً، فالإنسان أحياناً ينتفع بتعذيب إنسان آخر، لكن خالق الأكوان لو أن عباده جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد في ملكه شيئاً، ولو أنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص في ملكه شيئاً.

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه آيات مطمئنة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

آمن واشكر، وتنتهي المعالجة، والآية واضحة.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(63-69): تفسير الآيتان 148-149، العفو ومراتبه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-06-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر البيئة في التربية الصحيحة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة النساء ومع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

أيها الأخوة الكرام، في هذه الآية توجيه لمجتمع المؤمنين من أجل أن يبقى نقياً طاهراً، وأن تبتعد عنه مقالة السوء، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

هناك دليل قوي على سلامة الإنسان، وسلامة نطقه، وحديثه إذا نشأ في بيئة منضبطة، لو أن ابناً نشأ في أسرة لسانها منضبط، هذا الطفل لا ينطق بكلمة سوء في كل حياته، الأسرة المنضبطة النظيفة في أقوالها وفي أفعالها تنعكس طهراً واستقامة على الأبناء، ولو نشأ طفل في بيئة منحطة، وفي أسرة متفلتة، وليست منضبطة ينطق بكلمات السوء بشكل غير طبيعي، إذاً أثر البيئة في ضبط لسان الإنسان كبير، أحياناً ينشأ الابن في أسرة نظيفة منضبطة فإذا بالأب يسمع منه فجأة كلمة نابية، يبحث من أين هذه الكلمة؟ من علمه هذا الكلام؟ ثم يكتشف أنه سمعها في الطريق من ولد متفلت، أو سمعها من رفيق في المدرسة، من طالب ليس منضبطاً بمنهج الله عز وجل، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن ننشأ في بيئة طاهرة طيبة منضبطة:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

من خصائص الإيمان الانضباط بالقول :

أيها الأخوة قد تعاشر إنساناً مؤمناً سنوات وسنوات، وقد تزيد على ثلاثين عاماً، ولا تسمع منه كلمة نابية، ولا كلمة فاحشة، ولا كلمة خسيسة، إذاً الإيمان من خصائصه الانضباط بالقول، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((... يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ...))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.))

[أحمد عن أنس]

وضبط اللسان من خصائص المؤمن، من صفات المؤمن.

أيها الأخوة، من عد كلامه من عمله نجا، كلامك من عملك:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

((قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة))

[ورد في الأثر]

أحياناً طرفة فاحشة تربك الجلسة، وتذهب بخواطر الحاضرين إلى أماكن ما كان لهم أن يرتادوها لولا هذه الطرفة الخسيسة، فلذلك:

((ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء))

[الترمذي عن ابن مسعود]

الكلام الفاحش لا يمكن أن يقوله المؤمن، "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه"، الإنسان أحياناً ترتقي نفسه إلى مستوى الشريعة، فلو أن هذا الكلام ليس النطق به محرماً ما تكلم به، "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه".

سمح الله للمؤمن إذا قيل فيه سوء أن يأخذ حقه :

النقطة الأولى أيها الأخوة، نحن نتكلم بما نسمع، فإذا سمعنا الحق نطقنا به، إذا سمعنا قصص الأبطال نطقنا بها، إذا سمعنا قصص المنحرفين نطقنا بها، إذا سمعنا قصص الظالمين نطقنا بها، إذا سمعنا قصص العصاة نطقنا بها، إذا سمعنا قصص الأبطال، قصص العلماء العاملين، قصص الفاتحين، قصص القادة العظام، كان هؤلاء قدوة لنا، فشيء خطير جداً ودقيق جداً أن يكون الحديث حديث سوء، والله عز وجل أراد أن ينقي هذا المجتمع من قالة السوء. ولكن الله خبير، طبيعة النفس البشرية أنها إذا جرحت تتألم، وإذا جرحت تريد أن تأخذ حقها، ولأن هذا القرآن كلام الخبير، قال تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

اعتدى عليك إنسان بلسانه، وجرحك، واتهمك بما ليس فيك، أنت كبشر لا ترضى أن تجرح دون أن تأخذ حقك منه، لا ترضى أن تتهم اتهاماً أنت منه بريء دون أن تأخذ حقك منه، لذلك سمح الله للمؤمن إذا قيل فيه سوء أن يأخذ حقه:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

لذلك علماء الفقه استثنوا المظلوم حينما يشتكي على من ظلمه أن يتكلم للقاضي ماذا حدث دون أن يعد هذا غيبة، حينما تشتكي على إنسان ظلمك بلسانه لقاض نزيه فلك أن تقول ما قال فيك، وهذه مقالة سوء، إنك معفو من أن تؤاخذ، لأنك تأخذ حقك بهذا، إذاً:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

والعياذ بالله قد تجلس مع أناس كل حديثهم متعلق بالجنس، وكل كلماتهم ملغومة، وكل طرفهم متعلقة بالقسم الأسفل من الإنسان، وكل مزاحهم مزاح رخيص، مثل هؤلاء بعيدون عن الإيمان، والشيء المؤسف أحياناً أنك تجد أناساً من رواد المساجد إذا مزحوا مزَحوا مزاحاً رخيصاً، ومزحوا مزاحاً يخجل الإنسان أن يستمع إليه وحده، فكيف في مجموع؟!!

ضوابط ينبغي الالتزام بها لمن أراد أن يأخذ حقه ممن ظلمه :

قال تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

الآية واسعة جداً، ممنوع أن تنطق بكلمة السوء، سواء أكانت غيبة أم نميمة أم مزاحاً أم الهدف إضحاك الآخرين، الكلام السيئ الذي يجرح الأشخاص ويثير الغرائز ممنوع أن تنطق به، ممنوع بحكم الشرع، لكن بعد أن ترتقي، بعد أن تتصل بالله عز وجل، بعد أن تصطبغ نفسك بصبغة الله عز وجل، بعد أن تسمو نفسك لا يمكن أن تنطق بكلمة السوء، ولو أنها ليست محرمة، نقول عندئذٍ: هذا الإنسان ارتقت نفسه إلى مستوى الشريعة.

أيها الأخوة، ولكن أنت حينما تريد أن تأخذ حقك الذي شرعه الله لك، هناك ضوابط قال تعالى:

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

[سورة البقرة: 194]

أما أن تقول للآخرين: سأكيل له الصاع صاعين فهذا الكلام ليس شرعياً، سأكيل له الصاع عشرة أصوع، هذا كلام جاهلي.

(جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا)

[سورة يونس: 27]

كلما صغر الإنسان عند الله ينتقم وكلما كبر يعفو :

لكن قد يجد الإنسان صعوبة بالغة في أن يأخذ حقه بالتمام والكمال، ولو كان ورعاً يخشى أن يزيد، يخشى أن يقع في الظلم، فيأخذ أكثر من حقه، لذلك فتح الله لنا باب العفو، والعفو أسلم، فحينما ترى أنه من الصعوبة بمكان أن تنال من الذي ظلمك بقدر ما ظلمك تميل إلى العفو، والله عز وجل يحب

أن تعفو عن أخيك، وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة: أن رجلين يختصمان يوم القيامة يقول أحدهما: يا رب خذ لي مظلمة من أخي، ثم ينظر فيرى قصراً في الجنة، يقول: هذا يا رب لمن؟ فيقول الله عز وجل: هذا لمن يدفع ثمنه، قال: يا رب ومن يملك أن يدفع ثمنه؟ قال: أنت، قال: وكيف يا رب، قال: بعفوك عن أخيك.

أنت حينما تعفو عن أخيك ترتقي إلى أعلى عليين، مرتبة العفو تفوق حد الخيال، مرتبة العفو مرتبة عالية جداً، بل إن الشعور المسعد الذي يتأتى من عفوك عن أخيك هو أضعافُ أضعاف شعور الفوز حينما تنتقم، كلما صغر الإنسان عند الله ينتقم، وكلما كبر يعفو.

أهل مكة أيها الأخوة نكلوا بأصحاب النبي عشرين عاماً، ما تركوا سبيلاً لإيذاء النبي وإيذاء أصحابه إلا سلكوه، وخاضوا معه حروباً عدة، فلما فتحت مكة وكانوا في عشرة آلاف سيف متوهجة تنتظر كلمة من بين شفتي النبي عليه الصلاة والسلام، قال لهم: ما تظنون أنني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، بعد أن كان مقتدراً أن يلغي وجودهم، بعد أن ملك ناصيتهم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، سمح الله لك أن تأخذ حقك ممن ظلمك، وهذا حق مشروع، والعدل قسري، بينما العفو طوعي، ولا تنسى أنك مأمور بالإحسان كما أنك مأمور بالعدل، بدليل آية يذكرها خطباء المساجد من مئات السنين:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 90]

كما أنك مأمور بالعدل أنت مأمور بالإحسان، لكن العدل قسري، بينما الإحسان طوعي، ما كلفك فوق ما تطيق، إن أردت أن تنتقم، أو إن أردت أن تأخذ حقك ممن ظلمك، ولكن إن أردت أن تأخذ حقك فينبغي أن تأخذه بالتمام والكمال من دون زيادة، وهذا شيء ليس سهلاً، لذلك فتح لك باب العفو.

أيها الأخوة: يبدو أن بعض النفوس حينما تأخذ حقها ترتاح، هذه جبلة جبل عليها الإنسان، الشرع ليس لقلة قليلة، وليس الشرع لخواص الناس بل هو لمجموع الناس، فهناك إنسان لا يقر له قرار إلا إذا أخذ حقه ممن ظلمه، قال له: أنت، لك أن تأخذ حقك ممن ظلمك:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى سمح للذي ظلم أن يجهر بالسوء عمن ظلمه :

لكن ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى سمح للذي ظلم أن يجهر بالسوء عمن ظلمه؟ قال: هذا الظالم بقوله وفعله، بأخذ مال أخيه، بالاعتداء على عرض أخيه، إذا ذكر فعله السيئ تجنبه الناس، واتقاه الناس، وسلم منه الناس، إذاً هناك حكمة اجتماعية أن هذا الذي ظلم، أو الذي اختلس، أو الذي اعتدى حينما يُذكر بين الناس بفعله السيئ، حينما يقول الذي ظلم: إنه فعل معي كذا وكذا أمام

القاضي، وأمام ملأ من الناس، الناس عندئذٍ يتحاشون أن يتعاملوا معهم، إذاً وقينا المجتمع من شر هذا الإنسان.

الآن هناك حكمة ثالثة: هذا الذي ظلم حينما يظهر عمله للمجتمع، وحينما يفتضح يرتدع، ثم إن الذي يريد أن يَظلم قبل أن يَظلم يعد للمئة، لأنه إذا ظلم سوف يفتضح، إذاً حكمة بالغة من أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

المظلوم ينفس عن كربه حينما يأخذ حقه، والظالم يُتَقى من قبل الآخرين فلا يتعاملون معه مرةً ثانية، والظالم نفسه حينما يفتضح عمله يكون ردعاً لبقية الظالمين أن يسيروا في الطريق، إذاً حِكَم الشرع لا تعد ولا تحصى، يعد الإنسان ذكياً وعبقرياً حينما يصيب عصفورين بحجر واحد، لكن تشريع الله عز وجل يصيب أهدافاً لا تعد ولا تحصى بحكم واحد، فالذي ظلم شفى غليله فأخذ حقه، والظالم نبهنا الناس إلى أنه ظالم لئلا يتورطوا معه، والظالم نفسه حينما يرى نتيجة عمله لا يتابع هذا الطريق، فيرتدع عن أن يظلم مرة ثانية، وهذا يذكرنا بقوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

حينما القاتل يُقتَل، الآن قاتل آخر قبل أن يَقتل يرى مصير القاتل فلا يَقتل، فحفظ نفسه من أن يقتل، وسلم الذي كان يزمع أن يقتله من أن يُقتل، فكأن القتل للقاتل تطهير للمجتمع وحياة لهم.

المسلم عزيز لا يسمح لأحد أن ينال منه :

مرةً رأيت في إحدى محاكم الجنايات آية وضعت فوق رأس القاضي يراها المذنبون، الآية:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

ووضعت آية فوق رأس المذنبين، من يقرأها؟ القاضي:

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

[سورة النساء: 58]

فهذا توجيه للقاضي، وتطييب لقلب المذنبين حينما ينزل بهم القصاص الأليم.

الآن هذه الآية:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

تذكرنا بآية ثانية:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

إذا مسلم خنوع، مسلم يُظلم فيسكت، يؤخذ حقه فيخاف أن يطالب بحقه، هذا ليس عند الله وجيهاً، من صفات المؤمنين:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

المسلم عزيز لا يسمح لأحد أن ينال منه، لأنه إذا نال منه في الحقيقة نال من إسلامه، ونال من دينه.

من عزة المسلم ومن كرامته عند الله أن الله سمح له إذا بغي عليه أن ينتصر :

حينما يؤذى إنسان مسلم قد يكون الإيذاء لا يستهدف هذا الإنسان بالذات بل يستهدف دينه، وهذا الذي يجري في العالم الإسلامي ليس الأشخاص هم المقصودين ولكن الدين الإسلامي هو المقصود، هناك أعمال ماكرة خبيثة يفعلها الطرف الآخر لا للتشهير بأشخاص معينين بل للتشهير بالمسلمين. فلذلك من عزة المسلم ومن كرامته عند الله عز وجل أن الله سمح له إذا بغي عليه أن ينتصر، والله عز وجل قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ*بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم: 4-5]

أما إذا انتصروا هنا المشكلة.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى: 40]

ثم يلفت الله نظر المؤمنين، قال:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

لهذه الآية ملمح لطيف، حينما يغلب على ظنك أن عفوك عن أخيك يصلحه، أنت كمؤمن ينبغي أن تعفو عنه، لأنك إن عفوت عنه أنقذته من بلاء لا ينتهي وعندئذٍ يتولى الله مكافأتك، فلو فرضنا أن ملكاً قال لإنسان: أنا سأعطيك شيئاً يرضيك، ماذا يعطي؟ يعطي قلم رصاص؟ يعطي بيتاً، أقل شيء بيت، أنا أضرب المثل للتوضيح، لما الله عز وجل يقول:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

أي يا عبدي أنا أتولى مكافأتك حينما تعفو عن أخيك، وحينما تقربه إلى الله، قد يكون الطفل طائشاً، قفز أمام سيارة ودهس، طبعاً الأب من حقه أن يأخذ كل ما شرع له الشرع والقانون، لكن إذا كان السائق صالحاً وخيّراً، والخطأ ليس منه أبداً، فجاء الأب وعفا عنه، أولاً هذا السائق حينما يرى أن في مجتمع المؤمنين من يقدر وضعهم، ومن يرحم، ومن يعفو، يتألق، في حالات حينما يغلب

على ظنك أن عفوك عن أخيك يصلحه ويقربه إلى الله، ويقربه من الإيمان، ينبغي أن تعفو عنه، العفو أيها الأخوة مرتبة عالية جداً.

بعض القصص عن عفو النبي الكريم عمن آذاه :

تروي كتب السيرة أن ثمامة بن أثال كان من ألد أعداء النبي، لم يكتفِ أنه عدو فكري، بل كان معتدياً على أصحاب النبي، وعدوانه شنيع، وقع أسيراً بيد قائد سرية، ولا يعلم من هم، فلما جاؤوا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، هو زعيم قوم، قال: هذا ثمامة، ربطوه إلى سارية المسجد، ومر به النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: يا ثمامة ما عندك؟ فقال: إن تَعفُ تعفُ عن ظالم، وإن تقتلُ تقتل ذا ذنب، وإن ترد المال فلك ما تشاء، وإن تعف تعفُ عن مسيء، وإن تقتلُ تقتل ذا ذنب، منطقي، فأمر النبي أن يقدم له طعام من بيت النبي، مرة ثانية مر به في اليوم التالي سأله أيضاً: ما وراءك يا ثمامة؟ قال له: إن تقتلُ تقتل ذا ذنب، وإن تعف تعفُ عن مذنب أو عن ظالم، وإن أردت المال فلك ما تريد، في اليوم الثالث قال: أطلقوا سراحه، فخرج ثمامة إلى ظاهر المدينة، واغتسل، وعاد إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: أشهد أنك رسول الله، وكان عفو النبي عنه سبب إسلامه، وقد نكل بأصحاب رسول الله.

النبي عليه الصلاة والسلام متميز أنه يقلب العدو إلى صديق، وثمة أشخاص متميزون يقلبون الصديق إلى عدو، الإنسان الأحمق يقلب أصدقاءه إلى أعداء، والإنسان الكامل يقلب أعداءه إلى أصدقاء.

دخل رجل آخر على النبي عليه الصلاة والسلام، وقد عفا عنه، قال له: والله ما كان على وجه الأرض رجل أبغض إلي منك، ولا من دينك، ولا من بلدك، وأنا أخرج من عندك وما على وجه الأرض رجل أحب إلي منك، ومن دينك، ومن بلدك، القضية قضية أن تحبب الناس بهذا الدين لا أن تكون قاسياً.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: 159]

على المؤمن أن يكون أمْيلإلى العفو منه إلى الانتقام :

سيد الخلق، وحبيب الحق، الذي أوتي المعجزات، أوتي القرآن، جاءه الوحي، كان فصيح البيان، جميل الوجه، كماله رائع جداً، هذا الإنسان النبي المرسل الذي يوحى إليه، الذي معه المعجزات، طليق اللسان، الحكيم، الرحيم، اللطيف قال له: أنت يا محمد:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: 159]

فإذا لم يكن أحدنا نبياً، ولا رسولاً، ولا يوحى إليه، ولا معه قرآن، ولا معه معجزات، وليس جميل الصورة، ولا فصيح اللسان وهو غليظ فكيف يكون الأمر؟!!

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: 159]

أيها الأخوة، هذه الآية دقيقة:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

فإذا انتصروا:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

أي أصلح أخاه بعفوه عنه

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

كن أمْيَلَ إلى العفو منك إلى الانتقام.

الفرق بين أخلاق الجهاد وأخلاق الدعوة :

أحياناً أيها الأخوة: تتداخل عند المؤمن أخلاق الجهاد بأخلاق الدعوة، أخلاق الجهاد تنظمها الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

في القتال لا يلين، القتال ليس فيه: شكراً، آسف، سامحني، القتال قتال، أخلاق القتال هكذا، أما أخلاق الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

ينبغي أن نفرق بين أخلاق الدعوة وأخلاق القتال، الآن إذا أصابك سوء من أخيك فلك ثلاث مراتب: أولاً: مرتبة لك أن تأخذ حقك منه ولا شيء عليك، وهذا من طبيعة النفس البشرية، لكن أرادك الله أن تسمو عن هذا، قال:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

أنت كالمرجل تغلي، لكنك كظمت غيظك، هذه مرتبة:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

فالإنسان في حالات كثيرة جداً يكون قوياً، والذي أساء له ضعيف، ويستطيع أن يفتته، لكن يضبط، وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه وأبو داود والحاكم في المستدرك عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

مراتب العفو:

في التاريخ الإسلامي بطولات رائعة، لما فتح سيدنا صلاح الدين القدس ما قتل إنساناً، بينما لما فتح الفرنجة القدس قتلوا سبعين ألفاً في أيام، ذبحوا سبعين ألفاً، فلذلك العفو مرتبة عالية جداً:

1 ـ الكاظمين الغيظ :

تبدأ:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

[سورة آل عمران: 134]

قد تكون كالمرجل، لكنك تضبط نفسك، ذلك أن:

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه وأبو داود والحاكم في المستدرك عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

وما الفرق بين المؤمن المنضبط وغير المؤمن المتفلت؟ غير المؤمن إن أصابته إساءة رد عليها الصاع صاعين، كفعل منعكس شرطي، أما المؤمن فعنده محاكمة، قد تأتيه إساءة فيعفو، وبعفوه يرقى عند الله عز وجل، وبعفوه يصلح أخاه، إذاً باب العفو باب عظيم.

2 ـ العافين عن الناس :

حالة ثانية بعد كظم الغيظ قال:

(وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاس)

[سورة آل عمران: 134]

ليس في أعماقه حقد ولا ألم، وكلما ازداد توحيد الإنسان قلّ غيظه، وقلّ انتقامه، ويرى أن يد الله تعمل في الخفاء، وأن هذا الذي أساء إليه لو أن الله سمح له لما أساء إليه، إذاً عنده مشكلة مع الله، دائماً وأبداً المؤمن يحاسب نفسه، طبعاً إذا جاءته إساءة من إنسان بادئ ذي بدء يقول: ماذا فعلت مع الله حتى سلط الله علي هذا الإنسان؟ بل إن بعض العارفين يقول: أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، أحياناً يسلس قيادها، وأحياناً تزعج، أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، فمن بديهيات التوحيد أن المؤمن موحد، فإذا أصابه من إنسان سوء يحاكم القضية على هذه الطريقة، لو

أن هناك خللاً عندي استوجب أن يسلّط فلانٌ علي لما سلط علي، إذاً هو يعفو، توحيده يدعوه إلى العفو.

3 ـ الإحسان :

لكن هناك مرتبة أعلى، أعلى من مرتبة الكاظمين الغيظ، وأعلى من مرتبة العافين عن الناس، المرتبة هي:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

هل تستطيع أن تقابل أحداً أساء إليك بالإحسان وكأنه ولي حميم؟ هذا هو الإيمان، لذلك أيها الأخوة أقسم بالله العظيم لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن الآن لما خرج من مكة الإسلام، من مكة ما خرج، كيف وصل الإسلام إلى أطراف الأرض، إلى الصين شرقاً، وإلى الأطلسي غرباً، وإلى أذربيجان شمالاً، وإلى اليمن جنوباً، لأن أصحاب رسول الله كانوا في أعلى مستوى أخلاقي، القضية قضية الإيمان، الإيمان قضية أخلاقية، درجة أخلاقية، والإيمان مرتبة علمية، والإيمان مرتبة جمالية، الإيمان وصف لإنسان فذّ، بالتعبير الدقيق شخصية فذة لها مقاييس جمالية راقية جداً، ولها مقاييس أخلاقية راقية جداً، ولها مقاييس علمية راقية جداً، إذاً مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة آل عمران: 134]

أعظم نعمة أن الله معنا يسمع ويرى ويعلم :

فعود على بدء:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

الله عز وجل يسمع قولك إذا تكلمت، وعليم بحالك إذا سكت، وأنت ساكت عليم بحالك، وأنت ناطق عليم بما تقول، فلذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، الله موجود، كم من إنسان موجود، الله يعلم أنه مظلوم، وينتصر له، ويدافع عنه، وأعظم نعمة أن الله معنا يسمع ويرى ويعلم.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

فلذلك الله عز وجل يقول:

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

تكلم ما شئت، وانتقم كما تريد، واعف كما تريد، إن عفوت يعلم، إن انتقمت يعلم، إن كان انتقامك بمستوى الإساءة إليك يعلم، وإن زدت بانتقامك يعلم، وإن كان بالإمكان أن تعفو فلم تعفو يعلم:

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

باب العفو باب كبير جداً :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً)

قدمت عملاً طيباً لمن أساء إليك، هذا العمل محفوظ عند الله عز وجل، وقد سمعت قصة، والقصة ذكرتها لكم كثيراً فيما أذكر، وليست حكماً شرعياً، عن موقف إحسان، بداية القصة أن أحد خطباء المساجد في دمشق رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: أبلغ جارك فلاناً أنه رفيقي في الجنة، هذا الخطيب تألم، أنا خطيب، لكن المنام ليس لي بل لهذا الجار، طرق بابه، قال له: لك عندي بشارة من رسول الله، ولكني لن أقولها لك إلا إذا قلت لي ماذا فعلت مع ربك حتى استحققت هذه البشارة؟ فلما ألح عليه، قال له: والله تزوجت امرأة، أظنها صالحة، وفي الشهر الخامس من زواجي كان حملها في الأوج، إذاً هذا الطفل ليس منه، قال له: بإمكاني أن أطلقها، وكان بإمكاني أن أفضحها، وكان بإمكاني أن أركلها بقدمي، وكانَ وكان، لكن آثرت أن تتوب على يدي، وجئت بقابلة وولدتها، وحمل الطفل تحت عباءته، ودخل إلى أحد مساجد دمشق، وبعد أن نوى الإمام فريضة الفجر وضع الطفل الصغير وراء الباب، وصلى مع الناس، فلما انتهت الصلاة بكى هذا الطفل، فتحلق الناس حوله، فجاء وكأنه لا يعلم ماذا حدث، قال: خيراً، قال: انظر طفل، قال: آتوني أنا أكفله، أخذ الطفل أمام الحي، وكفله ورده إلى أمه، ليس كل الانتقام يكون لك أجر فيه، أحياناً العفو والستر والتوبة، إذا زلت قدم من يلوذ به وقدر أن يتوب فله أجر لا يعلمه إلا الله، من السهل أن تنتقم، وأن تفضح، وأن تكشف الأمر، لكن الله ستير، فهذا الإنسان يبدو أنه اقتنع أنها زلة وخطأ، وهي بنت جيدة، لكنها زلت قدمها، وأعلنت عن توبتها، فأعانها على هذه التوبة، وبهذه الطريقة أعاد ابنها إليها، وأمام الحي هو كفل طفلاً لقيطاً، قال له: قل لجارك فلان: إنه رفيقي في الجنة. باب العفو باب كبير جداً، لذلك نعود إلى أول الآية:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً*إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(64-69): تفسير الآيتان 150-151 ، الإيمان بالله والرسل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

العقل توصل إلى أن هذا الكون يحتاج إلى قوة في الحكمة والخبرة والتسيير والتنظيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً*أُولَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

الكفر أيها الأخوة هو الستر، والإنسان حينما يستر شيئاً يؤمن به أولاً ثم يستره، فهذا الذي يكفر يحاول أن يستر شيئاً آمن به، القضية أيها الأخوة أن هذا العقل البشري إذا جال جولة في الكون يعود من جولته متيقناً أنه لا بد لهذا الكون من خالق، لا بد لهذا النظام من منظم، لا بد لهذا التسيير من مسير، لا بد لهذا العلم الذي يشف عليه الكون من عليم، لا بد لهذه الخبرة من خبير، لا بد لهذه الرحمة من رحيم، كطائر يقف على قدميه، ويحمل بيضة له، لا يتحرك، ولا يأكل، ولا يشرب أربعة أشهر، حفاظاً على هذه البيضة، لأنه يعيش في القطب الجنوبي، فإذا لامست هذه البيضة الثلج هلكت، في هذا الكون رحمة، من أودع هذه الرحمة حتى في الحيوانات؟ فهذا العقل يصل إلى أن النظام يحتاج إلى منظم، والتسيير يحتاج إلى مسير، الحكمة تحتاج إلى حكيم، الخبرة تحتاج إلى خبير، انتهى دور العقل، من هو هذا الحكيم وهذا القوي وهذا الخبير؟ توجد قوة في هذا الكون، قوة خلق، قوة نظام، قوة حكمة، قوة تسيير، الرسل عليهم صلوات الله عليهم أتوا باسم هذه القوة.

فحوى رسالات الرسل أن يكملوا تفكير العقل :

قال تعالى:

(اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأحقاف: 33]

فحوى رسالات الرسل أن يكملوا تفكير العقل، العقل توصل إلى أن هذا الكون يحتاج إلى قوة في الحكمة، والخبرة، والتدريب، والتسيير، والتنظيم، فالرسول يقول لك: هذه القوة اسمها الله، هذا الإله

ما مراده مني؟ لماذا خلقني؟ لماذا جاء بي إلى الدنيا؟ لماذا كان العمر قصيراً؟ لماذا هناك مصائب، هناك بلاء؟ لماذا هناك حروب؟ لماذا هناك موت؟ ما مراده مني؟ الرسول يقول: الله الذي خلق السماوات والأرض، هذه القوة التي توصل إليها عقلك هي الله، ما مراده مني؟ مراده أن تعبده، أن تطيعه في هذه الدنيا المحدودة كي تسعد بجنة عرضها السماوات والأرض، مراده أن تعبده، مراده أن تتوب إليه، مراده أن تستغفره، مراده أن تتبعه، مراده أن تتوكل عليه، مراده أن تصلي لأن الصلاة في حقيقتها صلة بين هذا المخلوق الفاني وهذه القوة الأزلية الأبدية، فالإنسان يلغى ضعفه إذا اتصل بالقوي، ويلغى خوفه إذا اتصل بالقوي، ويلغى قلقه إذا اتصل بالقوي، فالرسول مهمته ما مراد الله من خلقه، الآن كيف يستطيع هذا الإنسان أن يطبق هذا المنهج؟ يقول الله عز وجل في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

البيئة مهمة جداً:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

[سورة الكهف: 28]

لا يصح الإيمان بالله إلا من خلال الإيمان برسل الله :

لا يمكن الإيمان بالله إلا بالإيمان برسل الله، لو أنك تملك عقلاً وأمامك الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، قمت بجولة فكرية في هذه الآيات توصلت منها إلى الحقائق التالية: لا بد لهذا الكون من خالق، لا بد لهذا الكون من مربٍّ، لا بد لهذا الكون من مسير، انتهت مهمة العقل يأتي الرسول بما معه من كتاب، يخبرك أن هذا الذي أيقنت بوجوده هو الله، وأن الله مراده منك أن تعبده، وأنه خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك أية محاولة للتفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله محاولة تضعف الإيمان، بل تشوه الإيمان، لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي لا إله إلا الله، لا مسير للكون إلا الله، لا رافع ولا خافض، ولا معطي ولا مانع، ولا معز ولا مذل إلا الله، ما مراده منك؟ محمد رسول الله، هناك إنسان يُنتمى إليه معصوم، معه كتاب، في حديثه تبيان لهذا الكتاب، لذلك الكفار يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)

أحياناً يأتيك بأدلة على أن الله موجود ولكن لا يؤمن بالرسل، هذا نوع من الكفر، لأنه فرق بين الله ورسله، أيها الأخوة الرسل عقيدتهم واحدة، جاؤوا بكلام واحد:

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

[سورة الأعراف: 65]

هذه الآية وردت على ألسنة عدد كبير من الأنبياء:

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

[سورة الأعراف: 65]

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

تعدد الشرائع ولكن الدين واحد :

فحوى دعوة الأنبياء واحدة، الأنبياء والرسل جاؤوا بعقيدة واحدة، لذلك هذا دين الله لا يتعدد، ولكن كل أمة بحسب ظروفها، وبحسب مشكلاتها، وبحسب أمراضها، لها تشريع خاص، الشرائع تتعدد، ولكن الدين واحد، كلمة أديان غير صحيحة:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

[سورة آل عمران: 19]

إله عظيم، وكون عظيم، وفكر دقيق، هذا الكون يحتاج إلى الخالق، هذا الخالق له مراد، طاعة الخالق هو الدين، إن الدين عند الله يعني حقيقة الدين عند الله أن تعرفه، وتخضع له، هذا جوهر الدين، فلذلك أيها الأخوة لو قرأتم القرآن الكريم ما من نبي في القرآن على الإطلاق إلا ووصفه الله بأنه مسلم، لكن كل قوم لهم تشريع، الشرائع تتعدد وتتبدل، ولكن لماذا كانت شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الشرائع؟ لأن الله علم أن هذه الكرة الأرضية بقاراتها الخمس المترامية سوف تصبح بلدة واحدة، أو قرية واحدة، بل بيتاً واحداً، بل غرفة واحدةً، لذلك المساوئ سوف تعمم، بهذا التواصل المذهل المشكلات التي تعاني منها بلاد بعيدة نعاني منها نحن، الانحرافات نعاني منها، أكثر القضايا التي يقلق لها الناس أصبحت في كل العالم، مرض صغير يظهر في أقصى الصين ينتقل إلى أبعد بلد غربي، فلأن العالم بعلم الله المسبق سوف يغدو غرفة واحدة عن طريق التواصل، فالأمراض واحدة، الأخطاء واحدة، المشكلات واحدة، الانحرافات واحدة، الإنسان المطّلع على الوسائل الحديثة في التواصل يذهل، أي كأن الذي يجري في الأرض كله واحد، لذلك لعلم الله المسبق بهذا التواصل الشديد، كانت رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسالات وتشريعه لكل البشر.

معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزة عقلية وهي هذا الكتاب الذي بين أيدينا :

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ)

[سورة سبأ: 28]

بعثه الله رحمة للعالمين، لذلك كل نبي معه معجزة تتناسب مع عصره، بل إن معظم معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، وهذه المعجزات متعلقة بما تفوه الناس به، إذا كان هناك تفوق في

الطب فمعجزة السيد المسيح إحياء الموتى، هذا شيء فوق الطب، وإذا كان التفوق في السحر فمعجزة سيدنا موسى أن عصاه تصبح ثعباناً مبيناً، وهذا فوق السحر، ما من نبي إلا جاء بمعجزة حسية فيما تفوق قومه به، وفيها تحدٍ لهم ما بعده من تحد، لكن لأن البشرية ارتقت، وتطورت، ونمت مداركها، وتراكم علمها، فكانت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزة عقلية، هذا الكتاب الذي بين أيدينا معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من الإشارات التي جاء بها القرآن قبل ألف وأربعمئة عام، وأضرب لكم مثلاً بسيطاً وهو من دلائل نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، في حديث مقتضب يوجه النبي أصحابه إلى أن ذبح الدابة ينبغي أن يكون من أوداجها فقط دون أن يقطع رأسها، ولم يكن في عهد النبي أي مركز علمي في عصره، كالصين والهند والإغريق وأثينا، ولا بعد مئة عام، ولا بعد مئتي عام، ولا بعد خمسمئة عام، ولا بعد ألف عام ولا بعد ألف وأربعمئة عام في الأرض من مؤسسات علمية يمكن أن تكشف حكمة هذا التوجيه النبوي، لماذا نقطع أوداج الدابة دون أن نقطع رأسها؟ مع أن مسالخ الأرض ـ وهذا يرى رأي العين من خلال الصور ـ تعلق الدابة من أرجلها، ويقطع رأسها نهائياً، ولكن النبي نهانا عن قطع رأسها كيف؟ الآن كشف أن قلب الإنسان وقلب الدابة فيهما تشابه كثير، هذا القلب يتلقى أمراً لكي ينبض من مركز كهربائي مستقل عن الشبكة العامة لخطورة القلب، كما لو أن مستشفى يجري عمليات قلب، لو أن الكهرباء مرتبطة بالشبكة العامة وانقطعت الكهرباء فجأة لمات المريض، لذلك لا بد للمستشفى من توليد ذاتي، والقلب كذلك يتلقى النبض من مركز كهربائي من القلب ذاته، فإذا تعطل المركز هناك مركز احتياطي ثان، فإذا تعطل الثاني فهناك مركز احتياطي ثالث، إلا أن هذا المركز يمد القلب بالضربات النظامية، بالنبض النظامي، ثمانين نبضة في الدقيقة، الإنسان قد يواجه خطراً، قد يلحقه عدو، قد يواجه ثعباناً، فلا بد من جهد عضلي استثنائي، هذا الجهد يحتاج إلى كمية ترد إلى العضلات أكبر من الكمية الطبيعية، لا بد من أن ينبض القلب نبضاً أسرع، ليكون جريان الدم في الأوعية أسرع، لذلك إذا رأى الإنسان الخطر بشبكية العين، ثم أدركه بدماغه بحسب المفهومات السابقة، والدماغ ملك الجهاز العصبي يأمر ملكة الجهاز الهرموني وهي الغدة النخامية أن تواجه الخطر، الخطر يقوم بمواجهته، تقوم الغدتان فوق الكليتان اسمهما الكظر، الكظران، الكظر يعطي خمسة أوامر فورية، يعطي أمراً إلى القلب برفع النبض، فقد ينبض قلب الخائف مئة وثمانين نبضة، ليس هناك محرك في الأرض استطاعته تتبدل من حصانين إلى خمسين حصاناً، القلب تتبدل ضرباته من ثمانين ضربة إلى مئة وثمانين ضربة، الكظر يعطي أمر آخر للرئتين لرفع وجيبهما، فالخائف يرتفع نبض قلبه ويلهث، ثم إن هذا الكظر يعطي أمراً للأوعية الدموية من أن تضيق لمعتها كي يوفر الدم للعضلات، لا أن يكون جسم الإنسان وردي اللون، هذا أمر ثالث، فالخائف يصفر لونه، ثم إن هناك أمراً إلى الكبد بإطلاق كمية كبيرة من السكر كي يكون وقوداً لهذه الحركة الاستثنائية، هذا أمر رابع، ثم إن هناك أمراً خامساً للكبد يفرز هرمون التجلط

كي يكون الدم أقرب للزوجة منه للتميع، حتى يخرج الدم كله من ضربة واحدة، يعنينا من هذا أن الأمر الاستثنائي لرفع الدم إلى مئة وثمانين نبضة لا يأتي من المركز الذاتي للقلب، بل يأتي من الدماغ إلى الكظر إلى القلب، فلا بد من وجود الرأس موصولاً مع الدابة، الآن القلب مهمته بعد الذبح إفراغ الدم كله، فعلى ثمانين نبضة يخرج ربع الدم من الدابة، أما إذا بقي الرأس وقطعت الأوداج وجاء الأمر الاستثنائي إلى الكظر ثم إلى القلب يرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، عندئذ يخرج الدم كله خارج الدابة وهذه مهمة القلب بعد الذبح، هذا ليس من عند النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من ثقافة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من بيئة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا من معطيات بيئة النبي عليه الصلاة والسلام، إنما هو وحي يوحى.

القرآن يشهد لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أنه رسول الله :

الصحابي الجليل سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما قال: ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما ذلك أنا واحد من الناس؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى، فالنبي حينما يحتجم ليس معنى ذلك أنها طريقة بدائية كانت في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، لا هذا كلام غير مقبول إطلاقاً، النبي عليه الصلاة والسلام توجيهاته الصحية ليست من عنده، هي وحي يوحى، ومعجزة هذا النبي الكريم معجزة عقلية، في القرآن ألف وثلاثمئة آية في كتاب الله، هذه كلها تتحدث عن الكون، عن المجرات، عن الشمس، عن القمر، عن الليل، عن الأنهار، عن الأطيار، عن الأسماك، عن النبات، عن خلق الإنسان، هذه معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، وبشكل أدق يأتي رسول الله بمنهج افعل ولا تفعل، ما الذي يؤكد لهؤلاء الناس أن هذا الإنسان الذي يقول: أنا رسول الله هو في الحقيقة رسول الله؟ لا بد من أن يشهد الله له، وكيف يشهد الله له؟ يجري على يده خرقاً للعادات، وخرقاً لمألوف لا يستطيعه البشر مجتمعين، فإذا جاء الإنسان بهذا الخرق إذاً هذه شهادة الله لهذا الإنسان أنه رسوله، الآن الذي يشهد لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أنه رسول الله هذا القرآن، هناك إشارات مستحيل وألف مستحيل أن تعرف قبل هذا الوقت، أستاذ علم الأجنة في بريطانيا يملي على طلابه بأنه من الثابت خلال مئة عام بأن العضلات تشكل أولاً، ثم تشكل العظام ثانياً، وله كتابٌ يسمى في أوربا إنجيل علم الأجنة، لقوته ولعراقته، يدخل على طلابه مرة ويقول: هناك حقيقة اكتشفتها تناقض ما في كتابي، ألا وهي أن العظام تتشكل أولاً، ثم تكسى بالعضلات، وعنده طالب باكستاني، قال: هذا موجود في كتابنا المقدس، صعق الأستاذ، مستحيل، حقيقة أنا كشفتها بعد حين، وبعد أن استقرت هذه المقولة التي قالها في أرجاء العالم جاءه في اليوم التالي بالقرآن الكريم مترجماً مع شرحه، فلما قرأ قوله تعالى:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون: 14]

أسلم، هذا كلام الله، إعجاز القرآن شيءٌ دقيق جداً، فلذلك الأنبياء جاؤوا بمعجزات، هذه المعجزات شهادة الله لهم أنهم أنبياء ورسل، والأنبياء جميعاً من مشكاة واحدة، لو استطعنا أن نصل إلى الكتب المقدسة السابقة كما نزلت لرأيتها متوافقة مع القرآن الكريم مئةً بالمئة، لأننا لا نفرق بين أحداً من رسله، فهذا الذي يؤمن بهذا النبي ويكفر بهذا النبي هذا نوع من الكفر.

الإسلام منهج كامل لا يقبل أن تأخذ بعضه وأن تدع بعضه الآخر :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ)

أيها الأخوة الكرام: الآن هناك دعوات مشبوهة تريد أن تفرق بين الله ورسله، نؤمن بالقرآن فقط ولا نؤمن بالسنة، مع أن السنة متممة للقرآن، مع أن السنة تفصيل للقرآن، تبيان للقرآن، لتبين للناس ما أنزل إليهم، مع أن القرآن يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

هؤلاء وهم كثر يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بالسنة، هذا الإسلام منهج كامل لا يقبل أن تأخذ بعضه وأن تدع بعضه الآخر، إما أن تأخذه كله أو تدعه كله، هذا المذهب الانتقائي آخذ من الدين ما يعجبني وأدع ما لا يعجبني، هذا مذهب خطير جداً، اسمه المذهب الانتقائي، أنتقي من الدين الشيء الذي له سمعة، لا يكلف شيئاً أؤمن به، والشيء الذي يكلفني أن أضبط شهوتي لا أصدقه، بل أكفر به، فلذلك الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)

قضية الدين لا تتجزأ، قضية الدين قضية واحدة لا تتجزأ، إما أن تأخذه كله الكتاب والسنة، أو لن تنتفع بهذا الدين.

قضية الإيمان بالله فطرية أما قضية أن تنفذ مراده منك فهذا هو التدين :

قال تعالى:

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ)

التفريق نوعان: إما أن تؤمن بالله، ولا تؤمن بالرسل، علماء كثر في العالم الغربي، أينشتاين من أكبر علماء الفيزياء الذي جاء بالنظرية النسبية قال: كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، حكيمةً هي أحكم ما تكون، هو إنسان حي ولكنه ميت، هل آمن بالمنهج؟ لا، هل صدق المنهج؟ لا، أن تؤمن بالله الكون كله ينطق بوجود الله، بل حتى الكفار يعتقدون بأن لهذا الكون إلهاً، حتى الذين عبدوا الأصنام ماذا يقولون؟ ما

نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، قضية الإيمان بالله فطرية، أما قضية أن تنفذ مراده منك فهذا هو التدين، أن تقول لهذا الكون إله قضية فطرية، لا يختلف فيها اثنان حتى الذين كفروا، كفر أي ستر، أحياناً يكون في البيت شيء حريص ألا يراه الضيف، تستره، كأنك تكفر به، ولكن هو موجود، أنت ما سترته إلا لأنك مؤمن به بشكل أو بآخر، عندما يريد الإنسان أن ينحرف يحتاج إلى غطاء إيديولوجي، غطاء عقائدي، فمثلاً عند المسلمين الغطاء الذي يغطي الانحراف الشفاعة بمعناها الساذج، أي افعل ما شئت، نحن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، أمة محمد مرحومة، هذه عقيدة فاسدة، أنا أقول: مفهوم الشفاعة الساذج غير صحيح، كمفهوم أهل الكتاب:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

فالإنسان حينما ينحرف يحتاج أن يبقى متوازناً، إذاً يبحث عن عقيدة فاسدة تغطي انحرافه، أما إذا أراد أن يقتل شعوباً بأكملها يحتاج إلى عقيدة الإلحاد، يحتاجها مع أنه ليس مؤمناً بها.

مهمة الرسول :

إنسان يبني نفسه على أنقاض البشر، يبني حياته على موتهم وعلى قتلهم، ويبني غناه على إفقارهم، يبني عزته على إذلالهم، هذا الانحراف الشديد والإجرامي لا يحتاج إلى مفهوم الشفاعة الساذج، ولا إلى مفهوم أنه لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، يحتاج إلى إنكار وجود الله كلياً، إنكار مفتعل، والدليل يوم القيامة يقول هؤلاء وهم في النار:

(إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ* انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام: 23]

أنت لمجرد أن تكفر ـ لا سمح الله ولا قدر ـ حينما تكفر أنت مؤمن بالله، تغطي شيئاً أنت مؤمن به، فقضية الإيمان بوجود الله قضية لا تقدم ولا تؤخر، حتى الذين عبدوا الأصنام، حتى الذين قصفوا هؤلاء المقهورين في أطراف الدنيا، والحرب كانت في رمضان، فلما سئل وحيد القرن: كيف تقصف في رمضان؟ قال: بدر كانت في رمضان، هناك من يفهم الدين لمصلحته، قضية الإيمان بالله وحدها من دون أن تنفذ مراده منك لا قيمة لها إطلاقاً، إذاً مهمة الرسول أن يقول لك اسم هذه القوة المتناهية، التي آمن بها عقله بالله، وأن الله مراده منك كذا وكذا، وأنك لن تستطيع تنفيذ مراده إلا بالشروط التالية:

(اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

[سورة الكهف: 28]

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة النور: 31]

المحاور الثلاث الدقيقة التي جاء بها الأنبياء :

ثلاثة محاور دقيقة جاء بها الأنبياء؛ أول محور: مَن هذه القوة الكبيرة؟ لو التقيت بعلماء غربيين لقالوا: الطبيعة، أي أنتم سميتموها الطبيعة، نحن نسميها الله، قوة حكيمة أحكم ما تكون، رحيمة أرحم ما تكون، عليمة أعلم ما تكون، هذه القوة سماها الغربيون الطبيعة، وسماها المسلمون الله جل جلاله، فالنبي يقول: الله علمٌ على الذات واجب الوجود، الذي خلق السماوات والأرض. المهمة الثانية يخبرك أنك مخلوقٌ للجنة، وهذه الدنيا مكانٌ وزمانٌ تدفع فيهما ثمن الجنة، وأن أساس سلامتك وسعادتك تطبيق تعليمات الصانع، وأن سعادتك بالاتصال به هي الصلاة، وأن هذا الجسم يحتاج إلى الصيانة فكان الصيام، هناك عبادات منها الصيام والزكاة، ومنها الصلاة، وهناك انضباط أخلاقي لا كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا غش، ولا احتيال، ولا أكل مال الناس بالباطل، وهناك مصدر لسعادتك الحقيقة: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، هذا مرادك، فحينما لا تنفذ مراد الله منك فأنت لست مسلماً، ولست ديناً، أنت تقول: أنا مسلم، الله موجود، هذا كلام قاله الشيطان، قال: رب فبعزتك، قال له الشيطان: خلقتني، آمن به خالقاً، آمن به رباً، آمن به عزيزاً، وآمن باليوم الآخر:

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[سورة الأعراف: 14]

فلذلك الذي يفرق بين الله ورسله، يؤمن بالله خالقاً لهذا الكون، ولا يستجيب لمراد الله منه، مراد الله أن تعبده، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، مراده منك أن تعبده، ولكن لا تستطيع إلا بشروط إذا تحققت، كن مع الصادقين، مستحيل أن تجلس مع أناس متفلتين، زناة، شاربي خمر، يحبون الحياة الدنيا، دينهم مصلحتهم، أن تعيش معهم، وأن تحبهم، وأن تتجانس معهم، ثم تقول: وأنا مقصر! طبعاً مقصر:

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[سورة الأعراف: 14]

هناك توجيهات قرآنية، كيف تستطيع أن تصل إلى هذا المستوى؟ أنا أقول لك مثلاً: هذا هو الكتاب المقرر على أن تأتي بثمانين علامة من مئة مثلاً، فتقول: كيف أدرس؟ أقول لك: لا بد من تفرغ، لا بد من عشر ساعات في اليوم، لا بد من أستاذ، لا بد من كتب أمامك، قواميس، وكتب، وما شابه ذلك، ففي مع الأنبياء ثلاثة توجيهات، اسم هذه القوة المطلقة، ثم مرادها منك، ثم الشروط التي إذا حققتها وصلت إلى تطبيق مراده منك.

الإسلام لا يفتقر إلى من يمجد به بل يحتاج إلى من يطبق منهجه :

الكفار نوعان: نوع يؤمن بالله فقط، ولا يعبأ برسالات الأنبياء، وأصبح لدينا شيء اسمه إسلام فكري، باعتبار كل المذاهب الوضعية سقطت في الوحل، ليس هناك مذهب وضعي إلا وأصبح في الوحل، ساحة القيم فارغة إلا من قيم الدين الإسلامي، ساحة المبادئ فارغة إلا من مبادئ الدين الإسلامي، باعتبار كل شيء سقط وأصبح في الوحل، ولم يبق إلا الإسلام، فهؤلاء الذين يريدون التألق يتكلمون بالإسلام، لكنه كلام فكري فقط، سماه بعضهم إسلام صالونات، أحدهم لا يصلي ولا يصوم يتكلم عن أحقية هذا الدين، وعن أن هذا القرآن عظيم، وعن أن الإسلام منهج للبشرية، وأصبح هناك خلفية بشرية، وأرضية إسلامية، وتوجه إسلامي، وعاطفة إسلامية، ومنطلق إسلامي، وهموم إسلامية، ولكن لا يوجد إسلام إطلاقاً، العبرة من هذا الدرس أيها الأخوة إن لم تحقق مراد الله منك فلست مسلماً، أن تقول: الإسلام دين عظيم، فالإسلام غني عن أن تعظمه هو عظيم، إن قلت: إنه عظيم فهو عظيم، وإن قلت: ليس عظيماً هو عظيم، الإسلام لا يفتقر إلى من يمجد به الإسلام يحتاج إلى من يطبق منهجه.

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)

عين ملك رئيس وزارة، وهذا الوزير مع وزرائه، وله مؤسسة تابعة لوزير، الملك بعد سنتين أو ثلاث سنوات غيّر الوزارة، أقال رئيس الوزارة والوزراء، وعين رئيس وزارة جديد ووزراء، فتغير الوزير الذي تتبع له هذه المؤسسة، قال المدير: لا، أنا لا أعترف بهذه المؤسسة، أنا علاقتي مع السابق، فأنت مستعص، أنت بهذا تكفر بحكمة الملك، تكفر بأمر الملك، تكفر بتوجيه الملك، الملك غير الوزارة، في هذه المرحلة تشكلت وزارة جديدة، فهذا الذي يؤمن برسول ويكفر بالثاني هذا كفر، قال:

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً)

حينما ينتفع الإنسان من مبدأ من الغباء أن تناقشه لأنه لا يُناقش :

الدين أرادوه ورقة رابحة في أيديهم، الحقيقة هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، أنا أضرب مثلاً صارخاً، وجد أحدهم أمامه على الطاولة ورقة فارغة، مستطيلة الشكل، فاستخدمها كمسودة، جمع، وطرح، وضرب، ثم مزقها، وألقاها في المهملات، التمزيق كامل، أو فرمها بآلة الفرم، ثم اكتشف أن هذه الورقة شيك بمليون دولار، هو استخدمها، ولكن لم يستخدمها بمليون دولار، استخدمها كورقة مسودة، انتفع بها واحداً من مليار المليار من قيمتها، فهذا الذي يتعامل مع الدين كورقة رابحة بيده هذا يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، فهؤلاء لماذا يؤمنون بهذا الرسول ويكفرون بهذا الرسول؟ ليتخذوا بين ذلك

سبيل إلى أهوائهم، وإلى حظوظهم من الدنيا، كل إنسان منتفع لا يناقش أساساً، أنا كنت أضرب مثلاً، وهو مثل طريف، أن إنساناً يعمل في حمل الأشياء، وعنده دابة، وقد ماتت هذه الدابة، فقد مورد رزقه كلياً، وكاد يموت من الجوع، هذه الدابة دفنها في مكان، وأقام عليها أربعة جدران وقبة خضراء، وسماها باسم ولي، وجاء الناس إلى هذا المقام، وأغدقوا عليه من أعطياتهم، ومن اللحوم والخرفان، فعاش حياةً تفوق حد الخيال، هل يمكن لجهة في الأرض أن تقنعه أن المدفون هنا دابة، هو دفنها بيده، لكن المنتفع لا يناقش، فالإنسان أحياناً ينتفع من مبدأ يعيش في بحبوحة كبيرة جداً، ما من قوة تقنعه أن المبدأ غلط، مستحيل، فأحياناً الإنسان ينتفع بدعوة معينة، فإذا رأى الحق تمسك بالباطل حفاظاً على مصالحه، قال: يريدون أن يتخذوا إلى ذلك سبيلاً لتحقيق مصالحهم، نؤمن بهذا الرسول وبهذا لا نؤمن، فلذلك حينما ينتفع الإنسان من مبدأ لا يناقش، ونوع من الغباء أن تناقشه، قال:

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

كلمة

(الْكَافِرُونَ حَقّاً)

أي كفرهم هذا أشد أنواع الكفر، كيف؟ إذا كفر الإنسان بالأنبياء جميعاً يعني لم يعتقد أن لهذا الكون إلهاً، ولم يعبأ بهذه الرسالة، أما هو فمؤمن بدين معين، مؤمن بشيء اسمه إله، وجنة، ونار، ووحي، وكتاب مقدس، ونبي، ثم هو يكفر بنبي، ثم هو يكفر بنبي آخر، هو ليس بعيداً عن هذه الأجواء، الإنسان فرضاً أستاذ جامعي، فحينما يرتكب خطأ كبيراً جداً علمي، هو ضمن العلم وضمن الأسباب والمسببات، ضمن الأدلة والبراهين، ليس بعيداً عن الأدلة والبراهين، فإذا جاء بشيء ليس له برهان إطلاقاً فالعمل غير مقبول منه إطلاقاً.

لا يقبل إسلام مسلم إن لم يؤمن بجميع الأنبياء السابقين :

فيا أيها الأخوة إذا كفر الإنسان بكل الأنبياء لعل كفره أقل من أن يكون على اطلاع بتفاصيل الدين، والوحي، والرسول، والكتاب المقدس، ثم يكفر بدين فيه أدلته، وفيه معجزاته، وفيه تأكيداته، وهو من الناموس الأكبر الذي جاء به الأنبياء كلهم :

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً)

هناك عذاب عظيم، وهناك عذاب أليم، وعذاب مهين، لأنه لم يعبأ برسالته كلها:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة: 285]

أساساً لا يقبل إسلام مسلم إن لم يؤمن بجميع الأنبياء السابقين نبيّاً نبياً، والله عز وجل يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(65-69): تفسير الآيتان 153-154 ، الهدى والإيمان قرار داخلي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من ذكر ما حدث لبني إسرائيل مع نبيهم موسى في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً)

نحن أمام مجموعة آيات تتحدث عن بني إسرائيل، وقد يسأل أحدنا " ما الحكمة وما الغاية من أن يرد في القرآن الكريم ماذا حدث لبني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم؟ الحقيقة هم أهل كتاب، وإن المنزلقات التي انزلقوا بها كثيرة، والمسلمون يمكن أن ينزلقوا في المنزلقات نفسها، كيف؟ لماذا أهلك الله أهل إسرائيل؟ قال: لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فحينما تطبق الحدود على ضعاف الناس، وينجو منها كبارهم فهذا منزلق خطير وقع فيه بنو إسرائيل فأهلكهم الله عز وجل.

ماذا فعل بنو إسرائيل؟ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، كأن إنكار المنكر ألغي في حياتهم، فهناك مداهنة ومجادلة على حساب الدين، فلذلك أهلكهم الله عز وجل، ونحن حينما ننزلق في المنزلق نفسه فلا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر، أو لا نتناهى عن منكرات نفعلها، نستوجب سخط الله عز وجل. فالحكمة البالغة من إيراد قصص بني إسرائيل وتعنتهم وجمودهم وحرفية فهمهم، وأنهم نسبوا الظلم إلى الله عز وجل، وقالوا: قلوبنا غلف، هكذا خلقنا، إن معظم الأمراض التي أصابت بني إسرائيل هي في الحقيقة متفشية في عالم المسلمين، وكأن هذا أسلوب بليغ: إياك أعني واسمعي يا جارة.

مقام النبوة مقام محدد :

هؤلاء بنو إسرائيل أو أهل الكتاب، يقول الله عنهم:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ)

الحقيقة السؤال فيه خطأ ينبغي أن يقولوا: يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، ذلك لأن مقام النبوة مقام محدد:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأعراف: 188]

أول بند:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف: 188]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام:15]

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً)

[سورة الجن: 21]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

سبب تكذيب اليهود للقرآن :

هذا حجم النبوة لا يعلم الغيب، ولا يملك النفع ولا الضر لا لغيره ولا لنفسه، وهو لو أنه لا سمح الله ولا قدر عصى الله له عذاب عظيم:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 15]

هؤلاء أهل كتاب صدقوا أن التوراة أنزلت على سيدنا موسى فلمَ يكذبون بالقرآن؟ في عالمهم الديني كتاب منزل من السماء، لكن أرادوا أن يتعنتوا، وأن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يروا كتاباً من السماء يهبط.

هم حينما قرؤوا القرآن وهم أهل بلاغة وبيان لم يستطيعوا أن يجدوا فيه مأخذاً واحداً، ولو وجدوا مأخذاً في اللغة لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ولكن بلاغة القرآن أسكتتهم، إذاً لا بد من حيلة أخرى، لماذا أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام وقالوا:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

[سورة الزخرف: 31]

رأوه فقيراً، بمقاييس الأغنياء لا بد من أن يكون غنياً، ثم أرادوا أن يكون القرآن منزلاً دفعة واحدة، جملة واحدة، إذاً هم أرادوا أن يبقوا مع أهوائهم وشهواتهم، فحينما صعقهم القرآن بإعجازه وبلاغته اعترضوا على أنه نزل على رجل فقير، ثم اعترضوا على أنه نزل منجماً:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ)

وكأنه الله سبحانه وتعالى يخفف عن رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول له: يا محمد لا تحزن، لقد سألوا نبيهم ما هو أكبر من ذلك، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك:

(فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ)

لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقوي نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم يريد أن يخفف عنه الحزن الذي ينتابه حينما يكذَّب من قبل قومه.

إن أردت الحقيقة فأصغر شيء يدلك عليها :

إذاً إذا كان الإنسان في الأصل متبعاً لشهوته، وجاءه الحق، وليس له رد على هذا الحق يأتي باعتراضات سخيفة وجانبية ليبرر لنفسه بقاءه على باطله:

(فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً)

قالوا: يا إمام، متى كان الله؟ فقال: ومتى لم يكن؟!!

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

(فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ)

هذا تعنت ثم:

(ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

حينما لا يُعمل الإنسان عقله في آيات الله الكونية قد تأتيه النصوص وفجأة ينتكس، رأوا بأعينهم كيف أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه فأصبح طريقاً يبساً، رأوا بأعينهم كيف أن العصا أصبحت ثعباناً مبيناً، رأوا بأعينهم آيات بينات، رأوا معجزات حسية، ومع ذلك حينما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

[سورة الأعراف: 138]

إذاً هم ما أرادوا الحق، هذا الكلام يوجد منه استنباط لطيف: إن أردت الحقيقة فأصغر شيء يدلك عليها، هو قرار داخلي.

الهدى والإيمان قرار داخلي :

إن أردت أن تعرف الحقيقة فالبعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير؟ وإن لم ترد الحقيقة لو

كنت في أضخم قاعدة فضاء بالأرض، ورأيت المجرات بأم عينك من خلال التلسكوبات، لو كنت في مجهر إلكتروني تكبر الخلية أربعين ألف مرة، وترى الخلية عالماً قائماً بذاته، لو كنت في أرقى الأمكنة العلمية بالأرض، ولم تؤمن بالله، أو لم ترد الحقيقة لا تنتفع بكل هذه الحقائق، وللتقريب آلة تصوير بدائية جداً، إذا كان فيها فيلم تلتقط الصورة، بدائية جداً، وائتِ بأرقى آلة في الأرض، وليكن ثمنها فوق المليون، إن لم يكن فيها هذا الفيلم لا قيمة لها، أنت إذا أردت الحقيقة فكأن فيلماً في آلتك تنطبع عليه الحقائق، وإن لم ترد الحقيقة مهما تكن عبقرياً وذكياً فإنك لن تؤمن بالله عز وجل، لذلك الهدى قرار داخلي، وهذه الفكرة تفسر آيات كثيرة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة البقرة: 248]

إن أردت الإيمان هذه آية تعرفك بالله، أما إن لم ترد الإيمان فكل آيات الأرض لا تدلك على الله، لأنك ما أردت الإيمان بالله، حقيقة دقيقة: الإيمان قرار داخلي، صدق في الطلب، بحث عن الحقيقة، إن كان ذلك متوفراً فأقل الأدلة يوصلك إلى الله، وإن لم ترد الحقيقة يوجد الآن مخابر، يوجد مجاهر، يوجد تلسكوبات، يوجد مراكز علمية في العالم فيها شيء لا يصدق، وهؤلاء الذين في هذه المراكز الفضائية، ويرون كل يوم مجرة تأخذ بالألباب، هؤلاء الذين فوق المجاهر الإلكترونية ويرون دقائق بنية النسج البشرية لا يتأثرون، لأن آلتهم على أنها غالية جداً ليس فيها فيلم تنطبع عليه الحقائق.

كلما ارتقى الإنسان في سلم الإنسانية قاده البيان وكلما هبط قادته الوقائع :

قال تعالى:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ)

عبدوا صنماً بعد أن رأوا آيات الله الصارخة:

(فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً)

آتيناه المعجزات التي خضعت لها رقاب المتعنتين، ثم إن الله سبحانه وتعالى نوّع أساليب هدايتهم، هم لا يخافون إلا بأعينهم، الإنسان أيها الأخوة إما أن يخاف بعقله، وإما أن يخاف بعينيه، كلما ارتقى في سلم الإنسانية خاف بعقله، وكلما هبط إلى مستوى البهيمية خاف بعينيه، والدليل أضرب هذا المثل: إنسان مسافر إلى حمص في أيام الشتاء، وفي أيام الثلوج، فإن رأى لوحة في عدرا أن الطريق في حمص مغلق في النبك بسبب تراكم الثلوج، واللوحة موضوعة في عدرا ماذا يفعل؟ يعود، ما الذي حركه؟ البيان، لو أن دابة تمشي أين تقف؟ في النبك، ما الذي يحركها؟ الواقع، كلما ارتقيت في سلم الإنسانية قادك البيان، وكلما هبط الإنسان إلى درجات البهيمية قادته الوقائع، فكل

إنسان مثلاً حينما يدخن، ثم يصاب بمرض خبيث في رئتيه يقلع عن الدخان، لكن من هو الإنسان الراقي؟ هو الذي إذا قرأ بحثاً عن الدخان، أو قرأ حكماً شرعياً عن الدخان أقلع عنه، حركه البيان ولم يقهره الواقع، فنحن نؤمن بالغيب، لكن كل البشر هذه الملايين المملينة، الستة آلاف مليون يعيشون لحظتهم، يعيشون شهواتهم، لكن كلهم عند الموت سوف يؤمنون بما آمن به الأنبياء والمرسلون، ولكن بعد فوات الأوان، فالبطولة أن تؤمن بالغيب.

الواقع أمام المؤمن ملموس لكنه أعرض عنه وابتغى الآخرة :

أخواننا الكرام، الدنيا محسوسة تراها بعينك، ترى قصراً منيفاً، ترى امرأة جميلة، ترى سيارة فارهة، ترى طعاماً نفيساً، ترى عزاً وسلطاناً، هذا تراه بعينك، أما الآخرة فليست محسوسة، الآخرة مخبر عنها فقط، لذلك حينما يحكمك البيان هذا القرآن، وتصدقه، وتستقيم على أمر الله، وتعمل للآخرة فأنت ارتقيت إلى مستوى الإنسان، لم يكن الواقع هو المحرك لك، الذي حركك البيان الإلهي، هذا هو المؤمن، الواقع أمامه ملموس، لكنه أعرض عنه، وابتغى الآخرة:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

الدنيا محسوسة، لو أن الآخرة محسوسة لاستقام الناس على أمر الله، وليس لهم أجر إطلاقاً، ضع إنساناً أمام خيارين؛ رصاصة تقتله، أو مئة ألف دولار يأخذها؟ كم من شخص يختار الرصاصة؟ ولا شخص بالأرض، لو كان الأمران محسوسين لاخترت الآخرة، ولكن رقيك في الآخرة بسبب أن الآخرة خبر فقط، أما الدنيا فتراها بعينك محسوسة، فلذلك هذا الذي يؤمن بالغيب، يقرأ القرآن، يؤمن أنه كلام الله من إعجازه، يؤمن أن الذي جاء به رسول الله من قرآنه، يؤمن بأن الله موجود من كونه، هذا هو الإيمان بالغيب، فاستقام على أمر الله، له أجر لا يعلمه إلا الله.

الفرق بين المؤمن والشارد عن الله عز وجل :

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة: 3]

ما الفرق بين هؤلاء وبين الشاردين عن الله عز وجل، رأى امرأة فاستغرق في التأمل في محاسنها، رأى مالاً فأخذه بحق أو بغير حق، يعيش لحظته، تحركه شهواته، لا يرى أبعد من أنفه، هذا هو الإنسان الشارد عن الله عز وجل، أما المؤمن فيرى هدفه البعيد، وينسجم معه، ففي كل تفاصيل حياته يتبع منهج الله عز وجل، هؤلاء طبق الله عليهم مبدأ الشدة:

(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ)

[سورة البقرة: 63]

الجبل:

(وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً)

(وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

أي اخضعوا لمنهج الله عز وجل:

(وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)

[سورة البقرة: 189]

(وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

يوجد نقطة دقيقة جداً، أرجو الله أن يوفقني بشرحها، أحياناً تكون في ضائقة شديدة، وأبواب الحرام كلها مفتحة، وباب الحلال مغلق، هذا امتحان صعب وكبير، كان من الممكن أن تغلق أمامك أبواب الحرام، وأن تفتح أبواب الحلال، إذاً أنت لم تمتحن، فحينما تغلق أبواب الحلال، وتفتح أبواب الحرام تقول: أنا مضطر، عندي أولاد، ماذا أفعل؟ بلوى عامة، الله يغفر لي إن شاء الله، لو أنك صبرت قليلاً وقلت: والله لا آكل الحرام ولو مت من الجوع، الله الغني، والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أدع هذا الدين ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه، لجاءتك الدنيا وهي راغمة.

من سياسة الله مع خلقه أنه يضع أمامنا عقبات :

إخواننا الكرام: من سياسة الله مع خلقه أنه يضع أمامك عقبات، أمور الحرام سهلة، لو أن الحلال سهل جداً، وأن الحرام صعب جداً لأقبل الناس على الحلال لا حباً بالله ولا طاعة له ولا ابتغاء الجنة، ما لهم أجر، لكن شاءت حكمة الله أن يكون الحلال صعباً والحرام سهلاً، أي امرأة تعمل طوال النهار لتأخذ بضع مئات من الليرات، بينما تأخذ بغيّ أضعاف مضاعفة عن هذا المبلغ بمعصية تغضب الله عز وجل. فلحكمة بالغة بالغةٍ جعل المال الحرام سهلاً، تهريب كيلو مخدرات يغني ولد ولدك، لكن ماذا يفعل هذا الكيلو بهؤلاء الشباب؟ يدمر أسراً، أما التجارة الشرعية فمتعبة، وطريقها طويل، تعمل ليلاً نهاراً كي يأتي مصروفك فقط، هذا امتحان الدنيا، نحن في دار امتحان، فلذلك بنو إسرائيل امتحنوا، حرم عليهم الصيد يوم السبت، ويوم السبت الحيتان تتجول، وظاهرة وكأنها سفن، ممنوع أن يصطادوها، في أيام الصيد لا يوجد حيتان، هذا امتحان مطبق دائماً، طبعاً ليس دائماً هذا الامتحان، وإنما هو مؤقت، الحلال صعب، والحرام سهل، يأتي إنسان يقول: والله لا أفعل معصية ولو مت من الجوع، حينما يرى الله منه هذا الصدق، وهذا الورع يخضعه لقوانين لا يعلمها، قوانين العناية الإلهية، أي إنسان يبيع الخمر غلته مليون في اليوم مثلاً، تاب إلى الله

أصبحت غلته خمسة آلاف، لماذا هذا الهبوط؟ امتحان صعب، مع بيع الخمر يوجد مبلغ ضخم، من دون خمر لا يوجد شيء، فإذا قال: والله لا أعصي الله، وأنا أرضى بالكفاف من العيش، وأن يكون الله راضياً عني، وصلت إلى هذا المستوى، الآن يخضعك الله لمنظومة قوانين أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، فإذا بالله يغنيك غنى كبيراً، وأنت في طاعته، ما الذي حصل؟ بلغت مرتبة العابدين في طاعتك لله، وجاءتك الدنيا وهي راغمة، لذلك:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

من ترك الحرام يعوضه الله خيراً منه :

الامتحان ليس سهلاً، أحياناً دخل كبير، حدثني أخ قال لي: أقسم بالله لا أجد مبلغاً لأدفع رسوم سيارتي، عنده معمل موقوف نهائياً، لا يوجد معه رواتب العمال، جاءه عرض بحسب الحسابات البسيطة يأتيه من هذا العرض بضعة ملايين، لكن تصنيع شيء لا يرضي الله عز وجل، محرم، فجاء وسألني، قلت له: هذا امتحان صعب، لكنك إذا تركت الحرام عوضك الله خيراً منه، فقال: لا، وبقي على الشدة التي هو فيها، وبعد حين جاءه عرض آخر كله حلال في حلال واغتنى:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ)

فصنعوا أحواضاً يدخلها الحيتان يوم السبت ويغلقونها، يصطادونها يوم الأحد، انتهت العملية، وهذه الحيل التي يفعلها معظم المسلمين في شتى شؤون حياتهم هي سبب هلاكهم عند الله عز وجل.

(وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

أيها الأخوة، نتابع هذا الآيات في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، أسأل الله التوفيق لكم.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(66-69): تفسير الآيات 155-162 ، قصة السيد المسيح مع قومه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

من فضل الله عز وجل أنه يبين لعباده الأسباب التي وراء أفعاله :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الخامسة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، من فضل الله عز وجل أنه يبين لعباده الأسباب التي وراء أفعاله؛ إن إكراماً أو عقاباً، هذا فضل من الله عز وجل، فلو أن أباً ضرب ابنه ضرباً مبرحاً، ولم يذكر له لماذا ضربه، هل يعد الأب مربياً؟ الضرب ليس له معنى، أما حينما يقول له: يا بني فعلت كذا وكذا وكذا، ونبهتك مراراً، وأنذرتك، وشجعتك، وحذرتك فلم تنتبه، فهذا عقابك.

فالله عز وجل يبين في هذه الآية لماذا غضب على هؤلاء قال:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

بنقضهم ميثاقهم أي بسبب نقضهم ميثاقهم، ما استفهامية، أي كل أنواع المواثيق نقضوها:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

والميثاق هو العهد، وأوضح مثل الإنسان حينما يؤدي عمرة، أو يؤدي فريضة الحج، ويقف أمام الحجر الأسود يعاهد الله على طاعته، يا رب عهداً على طاعتك، عهداً أن أطبق سنة نبيك، عهداً أن أتوب إليك.

وسائل القربى من الله عز وجل :

ما من إنسان إلا وله عهد مع الله عز وجل، فالمؤمن يحافظ على عهده، والله عز وجل يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

من خصائص إيمانك أنك إذا عاهدت الله عز وجل تحافظ على هذا العهد، وكل إنسان في ساعة صفاء عقد توبة مع الله عز وجل، عاهد الله على شيء، نذر شيئاً، إذا كان مؤمناً حقاً يفي بوعده، يقول الله عز وجل عن نبي كريم:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

يقول عن نبي آخر:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

[سورة ص: 44]

أن تكون صابراً، أن تكون وفياً، أن تكون صادقاً، هذه وسائل القربى من الله عز وجل، هذا الذي يرفعك عند الله عز وجل:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

من علامة الإيمان الوفاء بالعهد :

كم من إنسان وقع في مشكلة وفي ورطة كبيرة في أثناء الشدة عاهد الله أن يتوب، عاهد الله ألا يعود إلى هذه المعصية، فبعد أن يزيل الله عنه هذه الشدة يعود إلى ما كان عليه.
هذه صفة وجدت في اليهود، بل وفي أهل الكتاب، ويمكن أن توجد في المسلمين، دقق أيها الأخ أنك إذا عاهدت الله عز وجل وقت الشدة والمحنة، عاهدته على الطاعة، عاهدته على العمل الصالح، عاهدته على المحافظة على الصلاة، عاهدته على إنفاق المال، عاهدته على غض البصر، هذا عهد، ومن علامة إيمانك أنك تفي هذا العهد.

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

لكن عامة الناس يقول الله عنهم:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

أي بسبب نقضهم كل عهودهم ومواثيقهم ساق الله لهم ما ساق من شدة، سبب آخر:

(وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

هذه الآيات هي الطريق الموصل إلى الله، يقول الله عز وجل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية: 6]

يريد أن ينال شهادة من دون أن يدخل مدرسة، مستحيل، الله عز وجل جعل لكل شيء طريقاً، فآيات الله طريق الإيمان به، هناك آيات تكوينية، آيات كونية، آيات قرآنية، مجمل آيات الله هي

الطريق الموصل إلى الإيمان به، فحينما يستهزئ الإنسان بآية كونية، أو بآية قرآنية، أو بآية تكوينية معنى ذلك أراد أن يسلك طريقاً غير موصل، مشى في طريق مسدود، فكيف يأتيه الله عز وجل؟ أي بشكل أو بآخر الدولة رسمت للإنسان طريقاً لكي يكون طبيباً، يحتاج إلى شهادة ثانوية، إلى مجموع معين، إلى أن ينتسب إلى كلية الطب، أول سنة علوم عامة، السنة الثانية تشريح وصفي، السنة الثالثة فيزيولوجيا، السنة الرابعة علم الأمراض، السنة الخامسة علم الأدوية، أخذ شهادة أولى في اختصاص، لا يستطيع إنسان أن يفتح عيادة، ويضع لافتة، ويسمي نفسه طبيباً، إن لم يسلك هذا الطريق.

المصيبة رسالة من الله :

الله عز وجل رسم للإيمان به طريق الآيات، فمن كفر بها فقد مشى في طريق مسدود:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآَيَاتِ اللَّهِ)

الشيء الذي ترونه أحياناً أنك كلما فسرت زلزالاً أحياناً، أو فقراً، أو اجتياحاً، أو حرباً أهلية، أو جفافاً، أو قحطاً، أو صاعقة، أو بركاناً، فقراً فسرته تفسيراً توحيدياً يشير إلى أن الله عز وجل غني عن تعذيبنا، ولكن إذا عذبنا فهذه رسالة لنا، الله عز وجل حينما قال:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

معنى ذلك أن المصيبة رسالة من الله عز وجل، سمعت بالأخبار أن عملاً موجهاً ضد مؤسسة، فصاحب المؤسسة جاء واطلع على التخريب، قال: وصلتني الرسالة، عدها رسالة.

الله عز وجل حينما يسوق مصيبة، حينما يسوق جفافاً، حينما يسوق قحطاً، حينما يسلط عدواً يأخذ ما في أيدي المسلمين، حينما تؤخذ ثرواتهم، حينما يحكمون، حينما تجتاح أراضيهم هذه رسالة من الله عز وجل، لكن نحن لا نقبل بهذا، نقاومه، لكن بالأساس رسالة، الإنسان كلما كان قريباً من الله عز وجل بالتعبير الدارج يفهم على الله، يفهم أن هذا الذي ساقه الله إليه رسالة منه، وينبغي أن يعي الرسالة، وأن يأخذ الموقف الكامل منها، لأنه من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

لا ينبغي أن نفهم الحوادث فهماً أرضياً شركياً بل فهماً توحيدياً علوياً :

لذلك حينما قال بعض المفسرين في قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: 37]

فقالوا: النذير هو القرآن، والنذير هو النبي العدنان، والنذير سن الأربعين، والنذير الشيب، والنذير المصائب، المصيبة رسالة من الله، أن يا عبدي أنت في طريق غير صحيح، أنت في طريق لا يؤدي بك إلى السعادة، هذه رسالة:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

المصيبة من آيات الله، والشمس والقمر من آيات الله، وما يسوق الله لعباده من مصائب من آيات الله، فينبغي أن نفهم الحوادث لا فهماً أرضياً شركياً، ينبغي أن نفهمها فهماً توحيدياً علوياً، والبطولة لا في أن ينتهي إلى علمك ما حدث، هذا يستطيعه كل إنسان على وجه الأرض، أحداث الحادي عشر من أيلول هل بقي في الأرض كلها إنسان واحد لم ينته إلى علمه هذا الحدث؟ لكن أين يتفاوت الناس؟ في تحليل هذا الحدث، في تفسيره، فلذلك قد تكون الآيات التكوينية، أي أفعال الله التي تعد شدةً في حق البشر هي رسالة من الله، قد تعد هذه آية من آيات الله الدالة على ألوهيته، وعلى تربيته، وعلى رحمته والدليل:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام: 147]

تقتضي رحمته الواسعة ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة :

أخواننا الكرام، أضع بين أيديكم هذا المثل: أب يمشي في الطريق، رأى ابنه، وابن أخيه، وصديق ابنه يدخنون، يغلي على من؟ على ابنه، وقد يضربه، ويقول لابن أخيه: سأقول لأبيك، أما الثالث فيقول له: اذهب، الغليان على من؟ على ابنه، كلما كان هناك علاقة رحمة وعلاقة محبة وعلاقة قريبة جداً يكون الدواء، ويكون العلاج، وتكون التربية، فحينما تكون ضمن العناية المشددة يسوق الله لك من المصائب لا سمح الله ولا قدر ما يحملك على طاعة الله، ما معنى تاب عليهم ليتوبوا؟ أي ساق لهم من الشدة ما يحملهم على التوبة.

لذلك من هو الإنسان الذي لا يعي على الله أفعاله؟ هو الذي يفسر آيات الله تفسيراً أرضياً، كم من مصيبة نزلت بمن حولنا هل تغير الأمر؟ هل عادوا إلى الله عز وجل؟ هل انضبطوا؟ ونحن كذلك، المصائب من آيات الله التكوينية، والمصائب رسالة من الله عز وجل، وكلما أهملنا هذه الرسائل ساق الله لنا رسائل أشد، ونحن في محنة كبيرة، ويسوق الله للمسلمين اليوم رسائل لا تعد ولا

تحصى، شدة ما بعدها شدة، الطرف الآخر يفقرنا، ويضلنا، ويفسدنا، ويذلنا، لأننا تركنا ديننا، ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

قد تعتدي على إنسان، لكن حينما تعلم علم اليقين أن هذا الإنسان مبعوث من قبل الله عز وجل، العدوان عليه بمليون ضعف، وقتلهم الأنبياء بغير حق، طبعاً ليس هناك قتل أنبياء بحق، لكن هذا قيد وصفي وليس قيداً احترازياً، فشأن من يقتل الأنبياء أنه يقتلهم بغير حق، يعدد الله أمراض هؤلاء:

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

وهذه عقيدة الجبر يتمسك بها كل منحرف، الله مقدر علينا، مقدر علي أن أعصيه، الأمر ليس بيدي، هكذا شاءت مشيئة الله عز وجل، عقيدة الجبر كفر.

عقيدة الجبر كفر :

أن تقول: إن الله أجبرك على أن تعصيه، ثم يحاسبك على هذه المعصية، ثم تدخل النار، ألم يقل الله عز وجل:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

هذا الذي يقول: لو شاء الله ما أشركت، لو شاء الله ما عصيت، لو شاء الله لصليت، لو شاء الله لما فعلت كذا وكذا، هذا الذي يعزو معصيته إلى مشيئة الله جبراً إيمانه ضعيف جداً، بل هناك ما ينقض إيمانه:

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

الباطل لا يخرج منها مصفحاً، والحق لا يدخل إليها، هكذا خلقنا، وهذه عقيدة عوام المسلمين، بل عقيدة بعض من يعمل بحقل الدعوة، كله فعل الله، طبعاً هذه كلمة حق، كله فعله، لكن بسبب المدير يرسب طالب وينجح طالب! لكن لماذا رسَّب فلاناً؟ بسبب، ولماذا أنجحه؟ بسبب.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

* * *

مجرد الأمر والنهي يقتضي أننا مخيرون :

لذلك أيها الأخوة: أن تقول: أنا خلقت هكذا، شاءت مشيئة الله أن أكون كذا، شاءت مشيئة الله أن أفعل كذا، هذا بالتعبير الفصيح، أما بالمعنى العامي طاسات معدودة بأماكن محدودة، الله مقدر عليك، لا تعترض، قضاء وقدر، انتهى الإنسان، قضية سهلة جداً أن تعزو كل المعاصي والآثام إلى الله، أنت ما فعلت شيئاً، تنفذ مشيئة الله فقط، فلماذا يحاسبك؟! أين قوله تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 8]

بشكل بسيط بسيطٍ جداً، هذا ذكرته كثيراً، لو بنينا حائطين بينهما فراغ مثل عرض كتفيك، وسرت بهذا الطريق، الحائط الأيمن يمس يدك اليمنى، والحائط الأيسر يمس يدك اليسرى، ثم قلنا لك: اذهب إلى اليمين، هل هناك يمين؟ لذلك العلماء قالوا: مجرد الأمر والنهي يقتضي أنك مخير، مادام هناك أمر في القرآن ونهي معنى ذلك أنك مخير، لو كنت مكرهاً أو مسيراً فلا داعي أن يكون في القرآن أمر واحد ولا نهي واحد، لمجرد وجود الأمر والنهي فأنت مخير. فهؤلاء يعزون معاصيهم وجرائمهم إلى الله عز وجل، والآن أكثر كلمة متداولة بين عوام المسلمين: ترتيب سيدك، هذا يشرب الخمر، هكذا كتب الله عليه، هذا لا يصلي حتى يريد الله، هذا سارق، هكذا جعله الله، شيء مريح جداً، فأنت لا تعرف شيئاً، الله قدر عليك السرقة أو المعصية أو الزنا، وأنت نفذت مشيئة الله، لماذا يحاسبك؟!!

قال رجل لسيدنا علي: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ قصده قضاء الجبر، قال: ويحك لو كان قضاءً لازماً وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، وانتهى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

إذاً آيات الله أحياناً هي المصائب، وينبغي أن تفهمها لا فهماً جبرياً بل فهماً توحيدياً، فهماً تفضلياً، سيقت هذه المصيبة كرسالة من الله عز وجل، علي أن أنتبه.

سمعت قصة أيضاً ذكرتها كثيراً عن إنسان ببلد من بلاد المسلمين، بدوي له أرض بعيدة عن مدينة مشهورة جداً، فلما توسعت المدينة اقتربت أرضه من ظاهر المدينة، فارتفع سعرها، نزل إلى السوق، وباع الأرض، واشترى الأرض منه مكتب خبيث جداً، اشتراها بربع قيمتها، وبنى بناء ـ والقصة واقعية ـ يزيد على عشرة طوابق، هم شركاء ثلاث، الشريك الأول وقع من أعلى البناء، فنزل ميتاً، والثاني دهسته سيارة، فانتبه الثالث، عدّ هذين الحادثين رسالة من الله، بحث عن صاحب الأرض أكثر من ستة أشهر حتى عثر عليه، ونقده ثلاثة أضعاف حصته، فقال له هذا البدوي: ترى أنت لحقت حالك.

إذا ساق الله لنا في الدنيا شدةً معنى ذلك أننا مؤهلون أن نتوب :

الإنسان أحياناً تأتيه رسالة من الله ينتبه، لا تفهمها فهماً أرضياً، لا تفهمها حياة معقدة، لا تفهمها صعوبات في الحياة، افهمها أن الله عز وجل ساقها إليك، فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك.
نحن نرتاح عندما نقول: ماسونية، واستعمار، وشارون، وبوش، ونحن ما فعلنا شيئاً، هؤلاء الطغاة، هم طغاة، لكن العلة موجودة عندنا حتى سلطوا علينا، لذلك المؤمن لا تنهار معنوياته، لا يحس بالقهر، لكن يؤمن بالتسليط، أن الله يسلط قوياً على مؤمن كرسالة من الله، انتبه، لأن القضية سهلة الآن، كل شيء يمكن أن يحل، يمكن أن تتوب مادام القلب ينبض، يمكن أن ترجع إلى الله، يمكن أن تدع هذا الدخل المشبوه، يمكن أن تدع هذه المعصية، كل شيء يحل ما دام القلب ينبض، إذا ساق الله لك في الدنيا شدةً معنى ذلك أنت مؤهل أن تتوب، أما الذي لا يتوب ذكره الله عز وجل:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: 44]

يقول لك إنسان: عند الأجانب الكفر والفجور والشذوذ والمال الحرام، وهم أقوياء، هؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

[سورة الأنعام: 44]

الكفر سبب الطبع :

قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

[سورة القصص: 4-5]

لا تقل طبع الله على قلبي، لا تقل هذا الكلام:

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)

أتمنى أن أوضح الفكرة، إنسان يحمل علم بمستوى رفيع جداً، وإنسان لا يعتد به يقول: هذا ليس فهماً، كيف لهذا الذي يحمل هذا العلم أن يعلمه؟ أأنت كافر به؟ الكفر سبب الطبع، طبيب اختصاصه متعلق بمرض مريض، والمريض لا يقنع بهذا الطبيب، هل يستطيع هذا الطبيب أن يقدم لهذا المريض شيئاً؟ لا يستطيع، مستحيل، لأن المريض كفر بهذا الطبيب، حجب المريض عن علم الطبيب، حجب عن خيره وفضله:

(غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)

لأنهم كفروا بالله عز وجل.

الكفر أنواع :

إنسان يمشي بطريق فوجد فرعين للطريق والرحلة خطيرة جداً، في الطريق وجد شخصاً يعرف حقيقة الطريقين فقال له: أنت كاذب، لا تفهم شيئاً، هل يعطيه هذا الشخص نصيحة؟ لا، لأنه كفر بعلمه، فكان كفره بعلمه حجاباً بينه وبينه، قال تعالى:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

[سورة البقرة: 88]

لأنهم كفروا فكان قلبهم مغلفاً فلا يؤمنون إلا قليلاً، وهذه رحمة من الله، هناك أمل، لكن هذا الأمل قليل، هناك أمل حتى لو طبع على قلبه أن يصحو من غفلته.

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً)

الكفر أنواع، الكفر بالله، هناك كفر بأسمائه الحسنى، هناك كفر ببعض أسمائه، هناك كفر بأنبيائه، هناك كفر ببعض أنبيائه، هناك كفر بكتبه، هناك كفر ببعض كتبه، وهناك كفر دون كفر، ليس في القرآن تكرار، قال تعالى:

(وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً)

اتهمت أنها جاءت بهذا المولود النبي الكريم من الزنا.

للآية التالية عدة تفاسير :

قال الله عز وجل:

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)

هناك عدة تفاسير:

1 ـ إما أن كلمة (رسول الله) من كلامهم وهذا يضاعف جريمتهم :

إما أن كلمة (رسول الله) من كلامهم وهذا يضاعف جريمتهم، قال:

(قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)

تعرفه موظفاً، وتعرفه تابعاً لجهة قوية جداً، وقتلته، هذا تحدٍّ، هذا معنى.

2 ـ أو أنـهم قالوها استـهزاءً :

المعنى الثاني: قالوها استهزاءً، هذا رسول قتلناه.

3 ـ أو أن كلمة (رسول الله) ليست من كلامهم إنـها من كلام الله عز وجل :

وهناك تفسير آخر: أن كلام رسول الله ليس من كلامهم، إنه من كلام الله عز وجل، على كلٍ قال تعالى:

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)

نفي الله أن السيد المسيح قُتِل ثم صُلِب ولكن شُبِّه لهم ورفعه الله إليه :

يقول الله عز وجل:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً)

نفى الله أنهم قتلوه ثم صلبوه، لكن الذي قتلوه ثم صلبوه شُبِّه لهم بالسيد المسيح، بل رفعه الله إليه، قال تعالى:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 55]

كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام رُفِع إلى سدرة المنتهى، ثم عاد، لكن إقامة السيد المسيح عند الله إقامة مديدة إلى آخر الزمان، وعودته علم بالساعة، من علامات قيام الساعة الكبرى نزول السيد المسيح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً حتى يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه]

ما من أهل الكتاب واحد إلا وسيؤمن بالسيد المسيح قبل موته :

قال تعالى:

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً*بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)

وقال:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

وإن نافية، أي ما من أهل الكتاب واحد إلا يؤمن به قبل موته، سيعود السيد المسيح إلى الأرض، وسيتلو صحفاً مطهرة، وسوف يؤمن به أهل الكتاب على أنه رسول من عند الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)

معظم أخطاء الذين كانوا قبلنا متفشية بين المسلمين اليوم :

ثم يقول الله عز وجل:

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

بظلم، أي بسبب ظلم، هذه الباء للسبب بسبب:

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً* وَأَخْذِهِمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

هذه أسباب مطولة، ساق الله لهؤلاء من الشدة نقضهم ميثاقهم، كفرهم بآيات الله، قتلهم الأنبياء بغير الحق، إنكارهم أن الإنسان مخير، قولهم قلوبنا غلف، قولهم على مريم بهتاناً عظيماً، قولهم قتلنا المسيح عيسى بن مريم، بظلم من الذين هادوا كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

بصدهم عن سبيل الله، أخذهم الربا وقد نهوا عنه، أكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما، هذه أخطاؤهم، بربكم أليست معظم هذه الأخطاء متفشية بين المسلمين؟ ألم يقل الله عز وجل:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة: 79]

أليست هذه المعصية التي هي عند الله سبب هلاكهم؟ أليست متفشية بين المؤمنين؟ أليس قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

أليست هذه المعصية متفشية بين المؤمنين؟!!

الإيمان وحدة لا تتجزأ لذلك ينبغي أن تؤمن بكل أنبياء الله :

قال تعالى:

(لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)

الإيمان وحدة لا تتجزأ، ينبغي أن تؤمن بكل أنبياء الله، لا أن تختار ما يعجبك، لا أن تؤمن ببعضهم وتكفر ببعضهم الآخر.

لكن الراسخون في العلم منهم من أهل الكتاب، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك، النبي عليه الصلاة والسلام لا يظنه الطرف الآخر نبياً، يظنونه عبقرياً، يظنونه مصلحاً اجتماعياً، يظنونه إنساناً ذكياً، هو رسول الله، هو نبي الله، كما أن لهؤلاء الذين ينكرون أنبياء، هو نبينا عليه الصلاة والسلام، لكن نبينا عليه الصلاة والسلام هو لكل الخلق، للناس كافة رحمة للعالمين.

الجاهل حينما يقبل أن يتعلم يصبح أحد أركان الدنيا :

قال تعالى:

(لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

مع ذلك أخطر شيء نصف العالِم، نصف العالِم لا هو عالم فينتفع بعلمه، ولا هو جاهل فيتعلم، ألم يقل الإمام علي رضي الله عنه: قوام الدنيا والدين أربعة رجال: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره. فالجاهل حينما يقبل أن يتعلم أحد أركان الدنيا.
قال تعالى:

(لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)

كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، كان من أحبارهم، وقصته مشهورة، آمن بما أنزل على سيدنا محمد، وطلب من النبي أن يخبئه في مكان من حجراته، وأتى بقومه اليهود، ما تقولون في عبد الله بن سلام؟ قالوا: هو سيدنا، وابن سيدنا، وعالمنا، وابن عالمنا، ومدحوه مدحاً يفوق حد الخيال، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: لا نصدق، خرج عليهم وقال: أنا أسلمت، قالوا: هو شرنا، وابن شرنا، وجاهلنا، وابن جاهلنا، هذا تعنت، قال الله عز وجل:

(وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(67-69): تفسير الآيات 163-170 ، التوازن بين البشارة والإنذار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات من الذكر الحكيم عن ذات الله العلية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الثالثة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً)

الله عز وجل حينما يتكلم عن ذاته العلية، يقول أحياناً:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: 14]

ويقول أحياناً:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

ويقول أحياناً أخرى:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

[سورة يس: 12]

من مقتضيات كمال الله عز وجل أن ينزل الكتب وأن يرسل الأنبياء والرسل :

إذا كان الحديث عن ذات الله:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: 14]

وإذا كان الحديث عن أفعاله، فأفعاله تشترك فيها معظم أسمائه، فقد يقع فعل من أفعاله فيه رحمة، وفيه علم، وفيه عدل، وفيه حكمة، فإذا كان الحديث عن أفعاله تستخدم أداة أنا أو نحن، وإذا كان الحديث عن ذاته تستخدم أداة إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني.

على كل أيها الأخوة: يقتضي كمال الله ألاّ يدع عباده من دون رسالات، كما أن الأب الذي ينطوي على رحمة إن رأى ابنه يقترب من مدفأة مشتعلة لا يمكن إلا أن يردعه، وينهاه، ويوجهه، شيء

طبيعي، من مقتضيات كمال الله عز وجل أن ينزل الكتب، وأن يرسل الأنبياء والرسل، لكن كل هؤلاء الأنبياء يدعون دعوة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة النساء: 64]

فالدين واحد الدين هو الإسلام:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

[سورة آل عمران: 19]

الدين كله ضبط :

جوهر الدين أن تخضع لله، الكفر أن تخضع لشهوتك أن تحقق مرادك، بينما جوهر الدين أن تحقق مراد الله عز وجل، العبد عبد، والرب رب، شأن العبد أن يطيع سيده، فحقيقة الدين خضوع، خضوع بماذا؟ وأنت في هذه الدنيا أودع الله فيك الشهوات، والشهوات يمكن أن تتحرك بسببها حركة واسعة جداً، كما هي حال أهل الدنيا، ولكن المؤمن منضبط بالقرآن الكريم، بالمنهج القويم، منضبط بما سمح الله له من هذه الشهوات أن يتحرك بها، فالدين كله ضبط، المؤمن لا يكسب إلا المال الحلال، يضبط دخله ولا ينفقه إلا في وجه مشروع، يضبط إنفاقه، ويضبط عينه فلا ينظر إلى عورة لا تحل له، ويضبط لسانه فلا ينطق بغيبة، ولا بنميمة، ولا ببهتان، ولا بمحاكاة، ولا بسخرية، ولا باستهزاء، وما شاكل ذلك.

إن أردت أن تضغط الدين كله بكلمة واحدة إنه الضبط، المؤمن منضبط، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، المؤمن يحاسب نفسه حساباً دقيقاً جداً، فإذا رأيت إنساناً متفلتاً فالتفلت من نتائج ضعف الإيمان، والإجرام من نتائج انعدام الإيمان، وإن رأيت إنساناً منضبطاً فالانضباط من لوازم أهل الإيمان. سيدنا نوح:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ)

أيها الأخوة، هناك عقل أودعه الله في الإنسان، العقل قوة إدراكية، لكن تعتمد على التحليل، والتركيب، والاستنباط، والاستنتاج، والمحاكمة، والتصور، ويوجد في الإنسان فطرة، الفطرة تكشف له الحقيقة، ولكن بشكل نفسي، بشكل روحي يحب ولا يحب، يرتاح ولا يرتاح، يقلق ولا يقلق، فالإنسان مفطور فطرة عالية جداً، وبهذه الفطرة تكشف له خطأه بشكل ذاتي، وأودع الله فيه عقلاً يكشف له الحقيقة، لكن العقل قد يذل، وقد يضل، العقل مرتبط بالواقع، والعقل مرتبط بالمصالح، والعقل مرتبط بالأهواء، إذاً العقل وحده من دون وحي يسدد لا يعد مرجعاً، كما أن العين وحدها من دون ضوء يكون وسيطاً بينها وبين المرئيات لا قيمة لها، والعقل كذلك، فالعقل قد يضل، هو أداة معرفة الله، لكن وحده لا يكفي، كيف لا يكفي عقلك؟ يقول: لا بد لهذا الكون من

خالق، الوحي يقول لك: الخالق هو الله، عقلك يقول: لا بد لهذه الحياة من هدف، الوحي يقول لك: الهدف هو أن تعبد الله في الدنيا، فتسعد بقربه إلى أبد الآبدين، العقل يقول لك: ينبغي أن تستمتع بكل شيء، الوحي يقول لك: ينبغي أن تستمتع بما لا يبنى الاستمتاع به على الإضرار بالآخرين، هناك حدود.

الوحي والعقل والفطرة :

لو أن إنساناً أغوى فتاة، هذه الفتاة حينما أغواها، ثم ألقاها جعلها ساقطة، هو استمتع، لكنه أسقطها من حساب قيم المجتمع، دائماً وأبداً لا تبنى منفعة على مضرة، فالإنسان يرغب أن يستمتع، لكن الوحي يقول له: استمتع فيما لا إضرار منه، المنفعة المتبادلة مشروعة، أما المنفعة التي تبنى على مضرة مرفوضة. الوحي يكمل العقل، والوحي يكمل الفطرة، الفطرة مقياس نفسي:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

الفطرة تنقبض، تتضايق، تنشرح، ترتاح، تنزعج، الفطرة جبلة نفسية مبرمجة وفق منهج الله، كل إنسان خرج عن منهج الله تعذبه فطرته، وكل إنسان أطاع الله فطرته تكافئه بالراحة، بالطمأنينة، الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة، لكن تشريعاتهم متباينة:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ)

طبعاً في القرآن الكريم ذكر عدد كبير من الأنبياء، ولعل هذه الآية من أطول الآيات التي ورد فيها ذكر أسماء الأنبياء، ولكن القاعدة أن الأنبياء والرسل منهم من قص الله علينا، ومنهم من لم يقص علينا، إذاً ما كل نبي ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً)

النقطة الدقيقة أن هؤلاء الأنبياء لا نفرق بين واحد منهم، دعوتهم واحدة، تشريعاتهم متباينة بحسب الظروف.

الإنسان مفطور ومجبول على خصائص منها أن الإنسان خلق ضعيفاً :

قال تعالى:

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)

الإنسان حينما يشعر أن هذه الدعوة واحدة يرتاح، بالمناسبة ما بال أناس يؤمنون بأديان من صنع البشر؟ الحقيقة الإنسان مفطور ومجبول على خصائص، من هذه الخصائص: أن الإنسان خلق ضعيفاً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج:19-22]

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

[سورة الإسراء: 11]

خلق عجولاً، وخلق هلوعاً، وخلق ضعيفاً، هذه نقاط ضعف في أصل بنية الإنسان، أو في أصل خلق الإنسان، لا يحاسب عليها، لكن هذه النقاط لصالحه، فالإنسان يشعر بحاجة قوية جداً إلى جهة يعتمد عليها، إلى جهة يركن إليها، إلى جهة تحميه، إلى جهة تسدده، إلى جهة تكافئه، هذا أصل التدين، وقد فطر الإنسان هذه الفطرة من ضعف إلى استعجال، إلى هلع، إلى جزع، من أجل أن يبحث عن خالقه فيسعد بقربه.

تفضل الله على الإنسان بالرسالة والإيمان وهي نعمة لا يعرفها إلا من فقدها :

الإنسان إن لم يهتدِ إلى خالق السماوات والأرض لعله يتخذ من دون الله إلها من الأرض يعبده من دون الله، حتى الذين يعبدون من دون الله آلهة إنهم يحققون رغبتهم، إلى أن يخضعوا إلى قوي يحميهم من الضعف الذي هم فيه.

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)

هؤلاء الرسل معهم منهج، قد يستغرب واحد منا مئات الملايين يتبعون ديناً من صنع البشر، التفسير سهل جداً، الأديان الوضعية ليس فيها تكاليف فيها طقوس، ليس فيها عبادات فيها طقوس، ليس فيها تكاليف فيها ولاء، الإسلام فيه تكليف؛ أمر ونهي وحرام وحلال وواجب، مجموعة تكاليف تقتضي جهداً ووقتاً، أما الأديان التي وضعها الإنسان ففيها بدل التكليف الولاء، أعلن ولاءك وأنت من أتباع هذه الديانة، وفيها بدل العبادة التي تعلل بمصالح الخلق فيها طقوس، حركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها.

فأنت حينما تطلع على ديانات أهل الأرض تشكر الله عز وجل أن هداك إليه، فأقوام كثر في شرقي آسيا يعبدون ماذا؟ يعبدون الجرذان، وعندي تحقيق في مجلة رصينة تصف هؤلاء، وتقدم صوراً دقيقة لمعابدهم، وأناس يعبدون النار، وأناس يعبدون الشمس والقمر، وأناس يعبدون الحجر، وأناس يعبدون الموج، وهكذا الإنسان، لضعفه ولضلاله عن خالقه يعبد جهةً يتوهمها قويةً، فالحقيقة أن الله عز وجل تفضل علينا بهذه الرسالة، وتفضل علينا بهذا الإيمان، وهي نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

سمعت أن مهندساً كبيراً في العالم يعد أحد خمسة مهندسين في العالم، أنشأ ثاني أطول جسر في استنبول، يربط بين قارة آسيا وأوربا، وفي يوم افتتاح هذا الجسر، وهو يعد من خمسة مهندسين في العالم، والجسر معلق بالحبال الفولاذية، ويجتازه في اليوم أربعمئة ألف سيارة، ألقى بنفسه في

البوسفور منتحراً، فلما ذهبوا إلى غرفته في الفندق وجدوا ورقة كتب فيها: لقد وصلت إلى قمة المجد، وذقت كل ما في الحياة، فلم أجد لها طعماً، فأردت أن أذوق طعم الموت.

المؤمن حقق السعادة لأنه عرف سرّ وجوده وغاية وجوده :

إنسان بلا هدف قد يحقق نجاحاً كبيراً، لكن المؤمن إنسان آخر، إنسان له هدف، هدفه واضح كالشمس، قد تأتيه متاعب، ولكن هدفه الكبير والوسائل التي يختارها لهذا الهدف نبيلة، قد تنسيه كل المتاعب لهذا الهدف، ما من شيء متعب كإنسان ضائع، كإنسان شارد لا يعرف لمَ خلقه الله عز وجل، خذ مئة شخص من الطريق واسألهم: لماذا أنت في الدنيا؟ لا يعرف سر وجوده، ولا غاية وجوده، لذلك حركته عشوائية، أنت حينما تعرف سر وجودك تنضبط الأمور، وبشيء بسيط جداً من المحاكمة أنت ذاهب إلى هذا البلد كي تعقد صفقة، كل نشاطك في هذا البلد منحصر بالصفقة، كل تطلعاتك إلى البضاعة، أسعار البضاعة، مصادر البضاعة، قيمة البضاعة، ونقل البضاعة، وشحن البضاعة فقط، ذاهب إلى هذا البلد للدراسة، كل نشاطك متعلق بالمناهج، والكتب، والمراجع، والسكن الجامعي، والأقساط، والأساتذة، والعلاقة معهم.

فأنت لمجرد أن تعرف الهدف الذي خلقت من أجله تأتي حركتك اليومية مطابقة لهذا الهدف، هذه السعادة، أما الذي يجهل سر وجوده الفكرة دقيقة؛ الله أعطاك عقلاً، العقل هداك إلى أن هذا الكون يحتاج إلى خالق، يأتي الوحي يقول لك: الخالق هو الله، كل سؤال أو كل حكم يتوصل إليه العقل ويحتاج إلى جواب يأتي الوحي ويجيبه عليه، فالمؤمن يتمتع بشيء لا يعرف قيمته لأنه موجود، أنه مرتاح إلى منظومة أفكار متناسقة مترابطة، عنده تفسير دقيق وعميق وواضح ومنسجم إلى الكون والحياة والإنسان، أما الإنسان الذي لم يطلب العلم عنده ضياع، يتحرك حركة عشوائية، من غير قيم تجمعه على هدف.

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

الله عز وجل خلق الإنسان، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم، كل شيء في الكون يدلك على الله، وكل شيء في الكون إكرام من الله، هناك دلالة، وإكرام تعريف وتكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر.

علة وجودنا وغاية وجودنا أن نؤمن وأن نشكر المنعم :

حينما تؤمن وتشكر حققت الهدف من وجودك، لذلك قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

يجب أن تعلم أن علة وجودك أن تؤمن، وأن علة وجودك أن تشكر المنعم، المؤمن مع المنعم، والكافر مع النعمة، هذا ملخص الملخص، الله سخر الكون تسخير تعريف وتكريم، أعطاك عقلاً لو أعملته في خلق الله لهداك إلى حقائق ناصعة، أعطاك فطرةً لو حافظت على صفائها لكشفت لك عن كل أخطائك، الإنسان لا يرتاح إلا إذا طبق منهج الله، اصطلح مع فطرته، صار في انسجام، يقول لك: وجدت نفسي، أعطاك كوناً وعقلاً وفطرة، أعطاك شهوة قوة محركة، لولا الشهوات ما رأيت على وجه الأرض شيئاً، لولا الشهوات التي أودعها الله في الإنسان لم تر حركة على وجه الأرض، هذه الشهوات قوى محركة، إما أن تدمر، وإما أن تبني، إما أن تكون سلماً إلى أعلى عليين، أو دركات إلى أسفل سافلين، أعطاك اختياراً ليثمن عملك، أعطاك كوناً وعقلاً وفطرةً وشهوة واختياراً، وفوق كل ذلك، وهذه كلها تكفي أعطاك تشريعاً، وأنزل كتباً وبعث رسلاً، الكتب والرسل هذه عطاء تفضلي، لئلا يكون على الناس حجة بعد الرسل.

أب ألحق ابنه بأعلى مدرسة، ودفع له أعلى قسط، وهيأ له غرفة خاصة، وهيأ له إنفاقاً جيداً، هذا يكفي أن ينجح بتفوق، فضلاً عن ذلك جعل له مدرساً خاصاً يتابع وظائفه، هذا إضافة، هذا الكلام من أين جاء؟ من قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

[سورة آل عمران: 164]

والمن عطاء زائد.

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

الله عز وجل كل شيء يدل عليه، وفوق هذا الذي يدل عليه، فوق الكون، وفوق العقل، وفوق الفطرة، وفوق الشهوة والاختيار أنزل كتباً وبعث رسلاً.

أكبر شيء يمتص متاعب المؤمن أن الله وعده بالجنة :

هؤلاء الرسل والأنبياء:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

يعطونك مشاهد في الكتب من يوم القيامة، من حال أهل الجنة، يبشرونهم بالجنة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

قال لي أحدهم: تقول: إن المؤمن سعيد، هو يريد أن يسأل، هو يرى أن المؤمن شأنه كشأن أي إنسان، لا يختلف عن عامة الناس بشيء، قلت له: ما رأيك بإنسان يعاني أشد أنواع الفقر، له قريب يملك ملايين مملينة، توفي بحادث، وهو وريثه الوحيد، فإلى أن يقبض المبلغ الأول بقي سنتين من

أجل تأمين المستلزمات القانونية لانتقال الثروة إليه، لماذا هو في هاتين السنتين أسعد الناس، مع أنه لم يقبض درهماً واحداً؟ دخل في الوعد، قال تعالى:

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

فالمؤمن أكبر شيء يمتص كل متاعبه أن الله وعده بالجنة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: 111]

أنت بعت، والله قد اشترى، والثمن هو الجنة، فالمؤمن لا تعنيه الدنيا كثيراً، يعنيه من الدنيا ما يقيم أوده، ويستر عورته، ويوفر له حاجته فقط، أما هذه المغالاة، وهذا التنافس على حطام الدنيا هو بعيد عنه.

في القرآن توازن بين الوعد والوعيد وبين البشارة والإنذار :

قال تعالى:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

هذا توجيه للدعاة إلى الله، بشر وأنذر، فالذي يعتمد الإنذار فقط يكون قد جانب الحقيقة، والذي يعتمد التبشير فقط يكون قد جانب الحقيقة، هناك دعاة يسهلون كل شيء؛ الله غفور رحيم، كأنه يدعو الناس إلى المعصية، لكن الله يقول:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[سورة الحجر: 49-50]

في القرآن توازن بين الوعد والوعيد، بين البشارة والإنذار، بين الرجاء والخوف، لذلك لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن خوف من الله، ومحبة له، وتعظيماً له، هذا التوازن:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

والمؤمن أيها الأخوة: إذا توسع في حسن الظن بالله لدرجة إلى أنه ترك الطاعات يأتيه تأديب من الله عز وجل، وإذا بالغ في خوفه من الله تأتيه الكربات، لا بد من التوازن بين الرجاء والخوف، وبين الرغبة الرهبة، وبين اعتماد البشارة واعتماد الإنذار.

الإله يحتاجه كل شيء في كل شيء :

قال تعالى:

(لِأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)

الشيء العزيز النادر، الشيء العزيز الذي قلما يوجد، ويصعب الوصول إليه، وتشتد الحاجة إليه، هذا الشيء إذا كان عزيزاً، أما إذا كان الله عزيزاً أي لا إله غيره، هو واحد أحد، فرد صمد، يحتاجه كل شيء في كل شيء، الإله يحتاجه كل شيء في كل شيء، أما أن يصعب الوصول إليه، يستحيل أن تشابه الإله، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تحيط به، هذا معنى قول الله:

(وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)

إن وصلت إليه وصلت إلى كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

هؤلاء الأنبياء جاؤوا بمناهج، وجاؤوا بكتب، والكتب فيها أمر وفيها نهي، ما الذي يؤكد لهؤلاء الناس أن هؤلاء الأنبياء هم أنبياء فعلاً، وأن هؤلاء الرسل هم فعلاً رسل؟ قال تعالى:

(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ)

إذا كان هناك من ينكر رسالتك:

(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

هناك عدة شهادات يشهد الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه :

أيها الأخوة، حينما يشهد الإنسان، يقول: أنا أشهد أن فلاناً أقرض فلاناً مئة ألف، يشهد بلسانه، كيف نفسر شهادة الله لأنبيائه؟ هناك عدة شهادات يشهد الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه، ويشهد الله لرسله أنهم رسله:

1 ـ تأييد الأنبياء بالمعجزات هي شهادة الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه :

حينما يؤيدهم بالمعجزات، والمعجزات التي يؤيد بها الرسل مما تفوق به قومه، قوم سيدنا موسى تفوقوا بالسحر، فجاء سيدنا موسى بشيء يفوق عمل السحرة، عصاه أصبحت ثعباناً مبيناً، قوم سيدنا عيسى تفوقوا بالطب، فجاء السيد المسيح بإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، فكل نبي يأتي بمعجزة هي خرق للعادات، وفيها تحدٍّ لقومه مما تفوقوا به، هذا نوع من الشهادة المعجزة شهادة الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه، وشهادة الله لرسله أنهم رسله.

2 ـ تطابق أفعال الله مع كلامه شهادة الله لأنبيائه أنهم أنبياؤه :

هناك شهادة أخرى، قال عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

آية بالقرآن، يأتي شاب يؤمن بالله، ويعمل صالحاً، يحس أنه متميز، يشعر بسعادة كبيرة، عنده فكر نير، عنده حكمة، له صلة بالله، مسرور، يكاد يطير سعادة، هذه الحياة الطيبة هي شهادة الله لرسوله ولقرآنه أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكتاب رسوله.

يأتي إنسان آخر يعرض عن ذكر الله، يعيش حياة ضنكاً، الأمور كلها ضده، أموره كله معسرة، جهده ضائع، حركته عشوائية، غير موفق، غير مسدد، كلما طرق باباً يغلق، كلما طلب شيئاً يخفق في تحقيق هذا الشيء، يتضايق، يضجر، اقرأ الآية:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

فهذه المعيشة الضنك التي هي من فعل الله، شهادة الله أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا القرآن رسوله، يأتي إنسان ثالث يأكل الربا، ويجمع أمواله من الربا، هو يقول: هذه الأموال تتنامى عندي، فإذا بمصيبة تمحق كل ماله، يقرأ قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

عندئذ يؤمن أن هذا الذي أتلف ماله هو الذي أنزل هذا القرآن، وهو الذي بعث هذا الإنسان كرسول، فتطابق حركة الكون مع آيات القرآن الكريم هي شهادة الله للبشر أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا القرآن رسوله، هذه أقوى شهادة. فإما أن تكون المعجزة هي الشهادة، وإما أن تكون تتطابق أفعال الله مع كلامه شهادة.

1 ـ الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة شهادة الله لعباده أن هذا القرآن كلامه :

في كتابنا شهادة ثالثة، حقيقة كشفت قبل سنوات، والذي كشفها كاد يطير تألقاً في المجتمع، فإذا بكتاب الله قد ذكرها قبل ألف وأربعمئة عام، هذا الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، الإعجاز العلمي شهادة الله لعباده أن هذا القرآن كلامه، أشياء كثيرة جداً في الإعجاز العلمي، الله عز وجل ذكر السمع والبصر، جاء بالسمع قبل البصر في سبع عشرة آية، والحقيقة أن السمع يشق في رأس الجنين قبل الولادة، أما البصر فبعد الولادة، فهناك سبق وتوافق بين كلام الله والحقائق العلمية.

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

[سورة المؤمنون: 14]

هذه كشفت قبل عشر سنوات، والذي كشفها عالم بريطاني كاد لا يصدق نفسه أنه كشف حقيقة لم يسبق إليها، فإذا بطالب عنده مسلم يقول له: هذه في كتاب الله قبل ألف وأربعمئة عام، أشياء كثيرة جداً كشفوا أن بين البحرين حاجزاً، ما معنى قول الله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[سورة الرحمن: 19-21]

رائد من رواد الفضاء ركب مركبة، وصعد بها إلى القمر، بعد أن تجاوز الغلاف الجوي صرخ عن طريق الاتصال اللاسلكي، قال: أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً، والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

[سورة الحجر: 14-15]

هذه حقائق من كان يعلمها؟ ليس هناك مجال للتطوير في هذا الموضوع، لكن هناك موضوعات في الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة كبيرة جداً.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*مِنْ نُطْفَةٍ)

[سورة النجم: 45-46]

الآن كشف أن الذي يحدد نوع الجنين ذكراً أو أنثى هو الحوين وليس البويضة.

أخطر إنسان هو الكافر المكفر لهذا يحمل أعماله السيئة وأعمال كل من أضلهم عن الله:

إذا قرأت القرآن الكريم، واطلعت على العلوم الحديثة تشعر أنه الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن، هذا معنى قوله تعالى:

(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

الملائكة يشهدون، سيدنا جبريل هو الذي أوكله الله بإلقاء الوحي على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، والذين يحصون عمل ابن آدم الملائكة أيضاً يرفعون إلى الله أعمالهم، فهم يشهدون المنهج كيف نزل، ويشهدون ردود الفعل كيف كانت، يشهدون في إنزال الكتاب، ويشهدون في رفع الأعمال إلى الله:

(وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً)

شهادة الملائكة لا تعزز شهادة الله، حاش لله، ولكن الله يشهد، والملائكة يشهدون.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً)

كفر وصد عن سبيل الله، لم يكتف أنه كفر حمل الناس على أن يكفروا، لم يكتف أنه ضل حمل الناس على أن يضلوا، لم يكتف أنه فسد حمل الناس على أن يفسدوا، أخطر إنسان هو الكافر المكفر، والضال المضل، والفاسد المفسد، لهذا يحمل أعماله السيئة وأعمال كل من أضلهم عن الله عز وجل.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً)

إذا مشى إنسان في الصحراء، وضل السبيل، ونفذ ماؤه وزاده، فمات، ضلاله انتهى به إلى الموت، فإذا دخل مؤمن الجنة مؤمن لكن الذي يضل عن الله عز وجل ضلاله يمتد به إلى أبد الآبدين، هذا معنى الضلال البعيد، أثر الضلال لا ينتهي في الدنيا، الأخطاء المادية في الدنيا تنتهي بالموت.

أمراض الموت تبدأ بعد الموت وتشقي صاحبها إلى الأبد:

لو أن إنساناً عنده كليتان، إحداهما عاطلة عن العمل، فجاء الجراح، واستأصل التي تعمل، انتهى الإنسان، هذا الخطأ انتهى بالموت، خطأ كبير انتهى بالموت، لكن الضلال عن الله عز وجل يمتد إلى أبد الآبدين، هذا معنى الضلال البعيد. كل إنسان قد يصاب بمرض، هذه الأمراض كلها تنتهي عند الموت، لكن أمراض الموت تبدأ بعد الموت، وتشقي صاحبها إلى الأبد، هذا معنى قول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا)

لما كفر تحرك حركة من دون منهج، لما تحرك حركة عشوائية من دون منهج، هذه الحركة الطائشة اقتضت أن يكون شقياً في الدنيا، وشقياً في الآخرة، هو ظلم نفسه حينما حملها على معصية الله، هو كفر وشقي بكفره، لو كانت قضية الكفر والإيمان لا علاقة لها بالسعادة والشقاء قضية سهلة، لكن الإيمان من لوازمه السعادة، والكفر من لوازمه الشقاء.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً)

ليس هذا من باب الإجبار، لا، هو عندما كفر بالله ولم يطلب ما عند الله إذاً ما عند الله حجب عنه باختياره، قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: 5]

فهؤلاء الذين كفروا، وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً*إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

ليس للأبد نهاية فهو طريق دائم:

ابن اختار ألا يدرس، فكل خيرات الدراسة حجبت عنه، أمامه طريق الانحراف مثلاً، طريق الفقر، طريق التفاهة في الحياة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

الأبد تعني: ليس لهذا الأبد نهاية، الأبد دائم.

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

الذي أعرض عن ذكر الله ليس أمامه إلا النار:

الآية الكريمة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

إذا لم يتعرف الإنسان إلى الله، ولم يستجب له فهو على طريق جهنم حتماً، هناك أناس عوام يتكلمون كلاماً لا معنى له، لا تعرف النهاية، إنسان ما توجه إلى الله في حياته أبداً، ولا استقام على أمر الله أبداً، ولا أكل الحلال بل أكل الحرام، فهذا ينتظره عذاب أليم، فهذا الذي أعرض عن ذكر الله ليس أمامه إلا النار.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً)

هناك معنى دقيق في الآية، الطريق الذي رسمه الله عز وجل إلى الجنة كفر به، بقي الطريق الآخر، لأنه رفض الدين، رفض الإسلام، رفض طاعة الله الواحد الديان، سلك الطريق الثاني حتماً، والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

الحق والباطل، إن اقتربت من الباطل ابتعدت عن الحق حكماً، إن اقتربت من الحق ابتعدت عن الباطل، فالذي التصق بالباطل إذاً هو في طريق النار، في طريق العذاب الأليم.

حينما ينطلق الإنسان من حبه لذاته ينبغي أن يؤمن:

آخر آية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

أين الإنسان؟ حينما ينطلق يَنطلق من حبه لذاته، ينبغي أن يطيع الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ)

أيها الأخوة: ما من وقت الحق واضح كهذا الوقت، الناس رجلان؛ مؤمن وكافر، شهواني ورحماني، مستقيم ومنحرف، صادق وكاذب، ولي أو إباحي، الحق واضح في الأرض كلها، أينما ذهبت:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ)

التواصل الذي نجده الآن، سيصل هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، مرة ذهبت إلى مدينة سيدني في أستراليا، وثمة إذاعة كأنك في دمشق، القرآن الكريم، والأحاديث الدينية، وكل شيء يدعو إلى الله عز وجل، في أقصَى أقصى الدنيا:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ)

حينما تنطلق من حبك لذاتك ينبغي أن تؤمن:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)

عليماً بحال كل إنسان، يعامله بالحكمة التي تليق بكماله جل جلاله.

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(68-69): تفسير الآيات 171-175 ، الغلو في الدين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الابتعاد عن الغلو في الدين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والستين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

أيها الأخوة الكرام، الله جل جلاله أنزل الدين من عنده على أنبيائه الكرام ورسله العظام، الله جل جلاله بعث بأنبيائه وأنزل معهم الكتاب، لكن الغلو في الدين إما أن نكذب، وإما أن نبالغ، والاعتدال بين التكذيب والمبالغة، فالحق جل جلاله يأمر أهل الكتاب ألا يغلوا في دينهم، والغلو هو الخروج عن حد الاعتدال في الحكم، لأن كل شيء له وسط وطرفان، وعندما ينفق شخصاً طرفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط، مشكلتنا وقعنا فيها نحن المسلمين، الإفراط والتفريط أي الغلو، أي الخروج عن حدّ الاعتدال، هذا الدين العظيم دين الفطرة دين وسطي، دين متوازن، فأهل الكتاب غلوا في دينهم، وقالوا عن السيد المسيح غير الحق، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

الحق ثابت أما الباطل فزائل :

الشجاعة وسط بين التهور وبين الجنون، الكرم وسط بين إتلاف المال وبين التقطير، كل شيء كماله في الوسط، وكل شيء اعتداله في الوسط، وكل حكم أو موقف أو سلوك يتجاوز الحد المعتدل إلى التطرف فهذا غلو في الدين، وموضوع الغلو في الدين موضوع طويل وطويل.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

يا أيها الأخوة، وقع أهل الكتاب في هذا المأزق فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط أو تفريط، لقد كفر اليهود بعيسى، واتهموا السيدة مريم بالزنى، وهذا غلو في الكره، وغالى الطرف الآخر في

الحب بسيدنا عيسى، فقالوا: إنه إله، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، وهذا غلو في الحب، وغلو في الكره، فكفروا بسيدنا عيسى، واتهموا أمه السيدة العذراء بالزنى، وهناك غلو في الحب، فجعلوه إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

أيها الأخوة، الله جل جلاله يطلب منهم أن يقولوا الحق، والحق الشيء الثابت المستقر الذي لا يتزعزع، والباطل الشيء الزائل، وما من شيء تم في الأرض من آدم إلى يوم القيامة وكان باطلاً إلا زال، حتى لو كان تشريعاً أرضياً فيه غلو، بعد حين يلغى هذا القرار أو يعدل لأن الحق من شأنه الثبوت، والباطل من شأنه الزوال.

(إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

(زهوق) كما يقول علماء اللغة صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني مبالغة في الكم أو النوع، أكبر باطل لو أنه يملك من السلاح النووي ما يدمر القارات الخمس خمس مرات تداعى من الداخل وتلاشى.

(إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

مليون باطل مصيره إلى الزوال، وكم من فرقة ضالة ظهرت وتلاشت، أي تصرف، أي فئة، أي جماعة، أي نظام أساسه باطل هو إلى زوال، أما الحق فهو ثابت.

من كان مع الحق فهو مع الله ومن كان مع الله كان الله معه :

أيها الأخوة، لو أنك كنت موثقاً وأنت مع الحق فأنت مع الله، ومن كان مع الله كان الله معه، أنت مع الثبوت لا الزوال، يوجد نعمة ينعم بها المسلمون لا يعرفها غير المسلمين**!** مهما امتد بك العمر فلن تظهر حقيقة تنقض القرآن الكريم، ولن يظهر فكر يسقّه هذا الدين، فأنت مطمئن، كلما امتد بك العمر تتأكد أنك مع الحق، وعلى الحق المبين.

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

[سورة الإسراء: 105]

أنت مع الثوابت التي لا تتغير، في تاريخ المسلمين كم من فئة ضالة ظهرت واحتلت بلاد شاسعة ثم اضمحلت؟**!!**

(إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

هذه القوة التي تتربع على عرش العالم أيضاً ليست مع الحق، هي تحقق مصالحها المادية على حساب الشعوب، مصيرها إلى زوال، وتأكدوا، وهذا من قوانين الله عز وجل، أن جهة ما مهما تكن

قوية نجاح خططها على المدى البعيد لا يتناقض مع عدالة الله فحسب، بل يتناقض مع وجود الله، والمؤمن متفائل ولا سيما بهذه الآية.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء: 81]

ديننا هو دين الوسطية والاعتدال :

أيها الأخوة، الحق الشيء الثابت لا يحتاج لأن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تبالغ فيه، وتبالغ في تسفيه خصومه، ولا أن تكبر رجاله، ولا أن تصغرهم، والحق لا يستحيا به، ولا يخشى البحث، لأنه حق، والله هو الحق. كنت أذكر لكم مراراً قصة رئيس وزراء فرنسي انتحر! أكثر من مئة صحافي درس سبب انتحاره فلم يجد سبباً وجيهاً! من أرقى أسر باريس، ولم يتورط في فضيحة مالية أو جنسية، وبلغ من العمر سبعين عاماً، وله سمعة طيبة، فلماذا انتحر؟ إلا أن صحفياً واحداً وضع يده على الحقيقة، هذا كان يعتنق مذهب لا إله، أمضى بهذا المذهب سبعين عاماً ثم اكتشف أن هذا المذهب باطل بباطل! احتقر نفسه..

المسلم مهما امتد به العمر يشعر أن أحداث العالم والتقدم العلمي لا يزيده إلا إيماناً بكتابه، وبمنهج رسوله، وبهذا الدين العظيم، هذه نعمة، ليس في حياة المؤمن مفاجئات، ولا كشف علمي ينقض دينه، وليس في حياة المؤمن كشف علمي يسفه تعاليم دينه، لذلك هذه نعمة كبرى، أننا مع الحق إن شاء الله.

النبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذا المنهج الواقعي، المنهج الذي يتوافق مع فطرة الإنسان، بهذا المنهج المعتدل الوسطي، فالغلو هو جنوح نحو الإفراط أو نحو التفريط.

لنأتي لعالمنا الإسلامي؛ الإمام علي كرم الله وجهه قصته تقترب من قصة سيدنا عيسى عليه السلام، فالخوارج كفروه وبعض المتشددين له ألهوه، من التكفير إلى التأليه، لذلك المسرفون جعلوه نبياً، وبعض ولاتهم جعلوه إلهاً، وبعضهم جعله كافراً، كل هذه الأوصاف ليست متوازنة، وليست طبيعية.

((يا علي إن فيك من عيسى مثلاً أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ـ أي اتهموها بالزنى ـ وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس بها))

[أبو يعلى وأبو نعيم والحاكم عن علي]

سيدنا علي رضي الله عنه قال: ألا إنه يهلك في اثنين محب يقربني بما ليس فيّ، ومبغض يحملني شنآن على أن يبهتني، ألا إني لست بنبي، ولا يوحى إلي، ولكنني أعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما استطعت، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما أحببتم أو كرهتم. حلنا في الوسطية والاعتدال، لا نريد دعوة تنطح، ولا دعوة تشطح، هذا خطأ، وهذا خطأ،

هذا غلو، وهذا غلو، كيف جاء النبي معتدلاً؟ كيف جاءت دعوة النبي متوازنة في الجانب الاعتقادي والسلوكي والجمالي وغير ذلك.

أيها الأخوة الكرام، هذا هو الغلو، الذين كرهوه اتهموا أمه السيدة مريم بالزنى، ولم يقبلوا نبوته، والذين أحبوه أشكل عليهم أنه بلا أب، فجعلوه إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة، والله عز وجل يقول:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

كل شيء خلقه الله له سبب فنظام السببية نظام أساسي في معرفة الله :

أيها الأخوة، شاءت حكمة الله أن يجعل من نواميس خلقه أن لكل شيء سبباً، لكن علماء العقيدة يقولون: إن تلازم السبب مع المسبب ليس تلازم خلقي ولكن تلازم توافق فقط! السبب لا يخلق النتيجة عند علماء التوحيد ولكنه يرافق النتيجة، شاءت حكمة الله أن يكون لكل شيء سبب. الآية الكريمة:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: 83-85]

كل شيء خلقه الله له سبب، أن تأكل هذه الفاكهة سببها بذرة ألقيتها في الأرض، واعتنيت بها حتى نبتت، أن تشرب كأس ماء له سبب، حفرت بئراً، واستخرجت ماء، أن ترى لك ابناً في البيت يحتاج لزواج، فمن أجل أن نفكر في هذا النظام نظام السببية أن لكل شيء سبباً، فإذا سرنا في سلسلة منطقية، هذه الدجاجة من بيضة، وهذه البيضة من دجاجة نصل في النهاية إلى بيضة أو دجاجة ليس قبلها شيء، من خلقها؟ إنه الله! كأن الله أراد أن ننتقل بلطف من هذه الأسباب المادية إلى مسبب الأسباب وهو الله، طريقة رائعة في الوصول إلى الله، لو أن الله خلق الأشياء بلا أسباب لا تقتنع أن لهذا الكون إلهاً، كما أن هذه الأشياء لا أسباب لها، كذلك هذا الكون ليس له سبب، فنظام السببية نظام أساسي في معرفة الله، لكن أشخاص كثيرون يؤلهون الأسباب، يعدونها خالقة للنتائج، يعتمدون عليها، يستغنوا بها عن الله عز وجل، إذا كان هذا الغلو في تعظيم الأسباب يأتي الله جل جلاله بحادثة من دون سبب، بحسب قوانين الخلق، لا بد للإنسان من أم وأب، فالسيد المسيح جاء من أم بلا أب، ألغي السبب مباشرة من الله عز وجل، هذا الإشكال أراد الله ألا نؤله الأسباب، وألا نعتقد أن السبب وحده خالق النتيجة، أرادنا أن نعتقد أن الله هو الخالق، لكن من خلال سبب، السبب واسطة، وليس هو الخالق.

في خلق السيد المسيح أراد الله أن ينقلنا من تأليه الأسباب إلى تأليه خالق الأكوان :

مثلاً قد يأتي شاب وشابة في ريعان الشباب لا ينجبان، وهذا السيد المسيح يأتي من أم بلا أب، في الحالة الأولى تعطل السبب لم يفعل، في الحالة الثانية ألغي السبب كلياً، أراد الله عز وجل أن ينقلنا من تأليه الأسباب إلى تأليه خالق الأكوان عن طريق هذه المعجزات، فالسبب إما أن يعطل وإما أن يلغى إنقاذاً للتوحيد، يقاس على ذلك:

أن سيدنا عمر رضي الله عنه عزل سيدنا خالداً، شيء عجيب، هو قمة في فنون القتال وتوفيق الله عز وجل، وخاض مئة معركة أو زهاءها، ولم يغلب في معركة واحدة، فلماذا عزله عمر؟ جاءه وقال له: يا أمير المؤمنين لماذا عزلتني؟ قال: والله إني أحبك! سأله ثانية: لماذا عزلتني؟ قال: والله إني أحبك، سأله ثالثة لم عزلتني؟ قال له: والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك لكثرة ما أبليت في سبيل الله، سيدنا عمر خاف على التوحيد، توهم أصحاب النبي ومن تبعهم أنه ما من معركة يقودها خالد إلا انتصروا بها، فكأنهم رأوا أن النصر يأتي من عند خالد، سيدنا عمر عزله وبقي النصر مستمراً من رب خالد. فيقول علماء التوحيد: هذا عزل أراد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أن يعزز معاني التوحيد عند الصحابة الكرام، فلذلك الله عز وجل حينما جعل هذا النبي الكريم بلا أب يعني أن الله هو الخالق، قد يخلق من أم وأب، لكن من الذي خلقنا؟ الله جل جلاله، والله قادر أن يخلق إنساناً من دون أب، بل وقادر أن يخلق إنساناً من دون أب ولا أم سيدنا آدم، لذلك يقول الله عز وجل:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران: 59]

الحكمة من ذكر اسم السيدة مريم في القرآن الكريم :

أما قول الله عز وجل:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

طبعاً بالمناسبة لم يذكر في القرآن الكريم كله إلا اسم امرأة واحدة مريم، تأكيداً أن هذا النبي الكريم هو عيسى بن مريم!

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ)

هويته بشر ورسول:

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

صار خلق السيد المسيح يحتاج لشيئين: نفخنا فيها من روحنا، وكلمته ألقاها لمريم، كائن مهيأ، وكلمة كن فيكون، هذا هو السيد المسيح!

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

هيأها وألقى إليها كلمته كن فيكون.

الله عز وجل له رسل وليس له أبناء :

قال تعالى:

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)

الله عز وجل له رسل وليس له أبناء.

(وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ)

إنه ثالث ثلاثة، سيدنا آدم قال:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

[سورة الحجر: 29]

شكلته من تراب على شكل إنسان، ونفخت فيه من روحي، ثم ألقى إلي كلمته كن فيكون، معنى جسد أي مهيأ لاستقبال كلمة الله.

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

هذا هو السيد المسيح، لكن أن تقول كلاماً عن بدء الخليقة: إن الإنسان الأول هو قرد تطور، هذا مخالف لما في القرآن الكريم، كيف رد الله عليهم؟ قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

لم يشهد إنسان بدء الخليقة لذلك لا يستطيع أحد أن ينقض كلام الله عز وجل :

لو فرضنا للتقريب: رجل اشترى محلاً تجارياً في أحد أسواق دمشق، بعد خمسين عاماً جلس في مجلس، تزوج بعدما اشترى المحل بعشرين عاماً، وأنجب مولوداً، ابنه إلى جانبه، قال: هذا المحل اشتريته بخمسة آلاف ليرة، قال له ابنه: لا يا أبت!! قال له: هل كنت أنت وقتها؟ انتهى الأمر:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

من كان يشهد بدء الخليقة حتى ينقض كلام الله عز وجل؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

إذا أخبر الله أن هذه البشرية بدأت من آدم وحواء فلا ينبغي أن نعتقد كما يقول من يؤمن بنظرية داروين، تلك النظرية التي أرادت أن تضرب الدين في أصله، خطأ داروين ليس خطأ علمياً بل خطأ أخلاقي، أراد تحطيم الكنيسة، شيء مفترى، ويوجد أدلة علمية قاطعة وبينة ومدعمة بالأدلة من عندهم أن هذه النظرية من أصلها باطل لمن شاء، لكن الحقيقة أن الإنسان حينما ينحرف يختل توازنه، فكيف يحقق توازناً جديداً؟ لا بد من أن يعتقد عقيدة تغطي انحرافه، أما إذا أراد أن يكون مجرماً، ويقتل مئات الملايين، اثنان وأربعين مليون مسلم قتلوا في بلد كبير، يرفع شعار لا إله، إذا أراد أن يفعل الإنسان كل أنواع الجرائم يحتاج لأي عقيدة، لعقيدة الإلحاد، وكيف يلحد؟ لا بد من أن يأتي بنظرية علمية تبطل ما في الكتب المقدسة من رواية بدء الخليقة، هذا الذي حدث، علماء يهود أرادوا تحطيم الكنيسة فجاؤوا بهذه النظريات، والآن ثبت بطلانها من عندهم وبأدلة قطعية، لكن الذي يتمسك بها هو الذي يتمسك بعقيدة تغطي كل جرائمه هذا هو الواقع.

في خلق السيد المسيح غاب الذكر أما في خلق سيدنا آدم فغاب الذكر والأنثى :

كلمة روح منه:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

الإشكال حصل أن روح منه، أي بعض منه، كيف نرد على هذه الشبهة؟ قال الله عز وجل:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

هل يعد الجبل ابن الله؟ مستحيل، لو أردنا أن نقول كلمة منه:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران: 59]

في خلق السيد المسيح غاب عنصر الذكورة، لا يوجد رجل في حياة السيدة مريم، أما في خلق سيدنا آدم فغاب عنصر الذكورة والأنوثة، بلا أب ولا أم، والآية صريحة في ذلك:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران: 59]

معنى التسوية :

بعضهم يقول: مرة ورد أن سيدنا آدم خلق من تراب، ومرة من ماء، ومرة من طين، ومرة من حمأ مسنون، ومرة من صلصال كالفخار، يا أخي هذا تناقض في القرآن كما يقول أعداء القرآن، القرآن لم يأت بخبر واحد، أتى بأخبار متعددة، فمثلاً أصل الخلق من ماء، مزج معه التراب، فصار

طيناً، ثم تخمر الطين فصار حمأ مسنوناً، ثم صار صلصالاً، مراحل تطور الماء والتراب والطين، حمأ مسنون، صلصال، بالتسلسل، لا يوجد تناقض أبداً، فإذا سويته أي شكله على شكل إنسان، هذه التسوية.

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

أنت يدك مسواة، لو لم يوجد فيها مفصل ما أمكن أن تأكل إلا كما تأكل القطة، تنبطح فوق الصحن، وتلحس ما في الصحن، لا يوجد طريقة ثانية، بهذا المفصل كرمك الله عز وجل، يوجد قصص لا تعد ولا تحصى عن التسوية.

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

لو أن عين الإنسان في ظهره مثلاً، غير مناسبة، وكان له عين واحدة لا يرى البعد الثالث، لو كان له أذن واحدة لا يسمع جهة الصوت، لو أنه إذا نام تعطلت أفعاله كلها لا ينام، ينام فيموت، لكن يوجد أفعال لا إرادية، التنفس لا إرادي، ضربات القلب لا إرادية، عمل الأجهزة لا إرادي، وأنت نائم دون أن تشعر يمتلئ فمك لعاباً، يذهب أمر للدماغ، اللعاب أصبح كثيراً، فالدماء يعطي أمراً للسان المزمار، فيفتح طريق المريء، فينزل اللعاب، ثم يغلق طريق المريء لمتابعة التنفس، وأنت نائم! يوجد بخلق الإنسان شيء عجيب جداً، قال:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

[سورة الحجر: 29]

هذا أصل خلق آدم! نفخ روح ثم إلقاء كلمة، وهذا أصل خلق السيد المسيح نفخ روح وإلقاء كلمة، كن فيكون، زل فيزول، أمر الله كلمة واحدة، ويا من أمره بين الكاف والنون، إذا قلت: كن فيها نصف ثانية، أمر الله لا يوجد زمن أبداً كن فيكون، زل فيزول.

أعلى مقام يبلغه الإنسان أن يكون عبداً لله :

أيها الأخوة الكرام: ثم يقول الله عز وجل:

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ)

أعلى مقام يبلغه الإنسان أن يكون عبداً لله:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[سورة النجم: 10]

وهو في سدرة المنتهى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

[سورة الجن: 19]

عبد الله أعلى مرتبة ينالها الإنسان، وكلما ازددت عبودية لله عز وجل رفعك الله:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً)

من لوازم الإنسان أنه عبد لله، نبياً كان أو غير نبي.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)

رسالة النبي عليه الصلاة والسلام خاتمة وهي لكل البشر :

الإنسان مخير، وهذا الحق واضح كالشمس، الآن كلام موجه لكل أهل الأرض، لأن رسالة النبي عليه الصلاة والسلام خاتمة، ولكل البشر:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

كلام واضح قطعي مؤيد بالأدلة والحجج يلغي كل الاختلافات والخصومات السابقة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

القرآن نور، أحياناً الإنسان يحمل ورقة فيها تعليمات تشغيل آلة، كأن هذه التعليمات نور يكشف له أساليب التشغيل، فالعلم نور، فحينما يأتي القرآن الكريم، ويحسم القضايا الخلافية السابقة بين الأديان هذا حسم نهائي، هذا الكلام من عند الله، ودليله إعجازه، وتحدثت في درس سابق كيف أن الله يشهد للناس أن هذا كلامه، فالقرآن معه دليله، ودليله تحقق وعده ووعيده في الدنيا، ودليله إعجازه، دليلان قويان يرقيان لمستوى الدليل القطعي، فهذا القرآن إعجازه دليل كلام الله عز وجل، ووقوع وعده ووعيده في الدنيا دليل أنه كلام الله عز وجل، فهذا فيه برهان على ما أورد القرآن من قصص لأنبياء الله كما هي دون غلو ودون إفراط وتفريط.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

هذا الذي جاء في هذه السورة عن قصة السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهذا كلام الله حق أنّى له أن يكون معه باطل!

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(69-69): تفسير الآيات 174-176 ، البرهان والاستفتاء وإرث الكلالة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الكمال في الخلق يدل على الكمال في التصرف :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والستين والأخير إن شاء الله تعالى من دروس سورة النساء، ومع الآية الرابعة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

برهان ونور، الله عز وجل خلق هذه الأكوان، وخلق الإنسان، في خلق الأكوان إتقان ما بعده إتقان.

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

الكمال في الخلق يدل على الكمال في التصرف، فما دام هناك إتقان في خلق الأكوان لا بد من أن يكون مع هذا الإتقان وهذا الكمال تصرف كامل مع الخلق.

إذاً من مسلمات المنطق أن كمال الله عز وجل يقتضي ألا يدع عباده من دون منهج يسيرون عليه، شيء طبيعي.

أيها الأخوة الكرام، هل تجد أباً في الأرض يرى ابنه يقترب من مدفأة مشتعلة ويبقى ساكتاً، يبقى جالساً، لا يتكلم، لا يتحرك، مستحيل، تقتضي رحمة الأب أن يسارع إلى إرشاد ابنه، أو إلى دفعه عن المدفأة، إما إرشاد، أو أن يمسكه وأن يبعده عن المدفأة، هذا مما تقتضيه رحمة الأب.

يقتضي الكمال والإتقان أن الله عز وجل يرسل لعباده منهجاً يسيرون عليه :

ما دام في الكون كمال ما بعده كمال وإتقان ما بعده إتقان يقتضي هذا الكمال وذاك الإتقان أن الله عز وجل يرسل لعباده منهجاً يسيرون عليه، يرسل لعباده كتاباً ينبئهم لماذا خلقهم؟ وماذا بعد الموت؟ وماذا عليهم أن يفعلوا؟ هذا الكتاب هو القرآن الكريم، لكن في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

بالمناسبة أيها الأخوة، التدين فطري، الإنسان خلق ضعيف، فلما خلق ضعيفاً يحتاج إلى قوة يحتمي بها، يحتاج إلى قوة تدافع عنه، يحتاج إلى قوة يطمئن لها، يحتاج إلى قوة تحميه، هذا أصل التدين،

لذلك من لم يهتدِ إلى إله عظيم يعبده قد يتجه إلى شمس، أو إلى قمر، أو إلى حجر، أو إلى وهم يعبده من دون الله، حتى الذين يعبدون الأصنام هم يحققون حاجة خلقوا فيها، وهي حاجة الضعف، والضعف يقتضي أن تلجأ إلى قوي وأن تحتمي بقوي، لذلك الديانات الأرضية لأن فيها الولاء فقط، وفيها الطقوس، الطقوس حركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها، ولاء فقط من غير منهج، لكن الدين الإلهي، لكن دين السماء يقتضي منهجاً، يقتضي أمراً ونهياً، الإنسان أودعت فيه الشهوات:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

برهان هذه الشهوات حيادية، ويمكن أن تتحرك بدافع من هذه الشهوات مئة وثمانين درجة، إن من حيث النساء، إن من حيث كسب المال، إن من حيث العلو في الأرض، لكن منهج الله سمح لك بزاوية معينة، إذاً ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة.

المعجزات براهين من الله عز وجل على أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياؤه ورسله:

ليس في الإسلام حرمان، ولكن فيه تنظيم، فحينما يأتي نبي من قبل الله عز وجل، ومعه منهج، وهذا المنهج يلزم أتباعه أن يتقيدوا به، ففي المنهج حرام وحلال، ومكروه ومستحب وأمر، من أمر واجب، إلى مستحب، إلى إباحة، إلى كراهة، إلى حرام، فهؤلاء الذين ألفوا أن يتحركوا بلا قيد ولا شرط حينما يأتيهم منهج السماء يحد من حريتهم، يحد من حركتهم، فطبيعي جداً أن يتهموا هذا الرسول بالكذب.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً)

[سورة الرعد: 43]

(قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[سورة الذاريات: 52]

وقالوا:

(بَلْ هُوَ شَاعِرٌ)

[سورة الأنبياء: 5]

إذاً لا بد من تكذيب الأنبياء والمرسلين، فكيف يعطيهم الله البرهان على أنهم أنبياؤه؟ بالمعجزات، المعجزات براهين من الله عز وجل على أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياؤه ورسله.

تتميز معجزة النبي الكريم أنها عقلية

فمنهجه القرآن ومعجزته القرآن :

سيدنا موسى جعل العصا ثعباناً مبيناً.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ)

[سورة الأعراف: 33]

ضرب البحر فصار طريقاً يبساً، برهانه على أنه نبي؛ العصا، ويده البيضاء، وجعل البحر طريقاً يبساً، منهجه التوراة.

سيدنا عيسى برهانه إحياء الميت، منهجه الإنجيل، لاحظوا البرهان غير المنهج، البرهان شيء، والمنهج شيء آخر.

هؤلاء الأنبياء والمرسلون بعثوا إلى أقوامهم فقط، إذاً لكل قوم هاد، ومعجزاتهم حسية، أي شيء حدث وانتهى، فأصبح خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه، انتهى، أما النبي عليه الصلاة والسلام فلأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولأن رسالته خاتمة الرسالات تقتضي أن تكون معجزته مستمرة إلى نهاية الدوران، إذاً تتميز معجزة النبي عليه الصلاة والسلام أنها عقلية، إذا كان النبي الكريم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معجزته العصا، ومنهجه التوراة، إذا كان سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معجزته إحياء الميت ومنهجه الإنجيل، فإن النبي عليه الصلاة والسلام معجزته عين منهجه، منهجه القرآن ومعجزته القرآن، إذاً القرآن الكريم كتاب معجز إلى نهاية الدوران، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم، أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله هو إعجازه.

هناك إشارات كثيرة جداً تصل إلى الألفين تقريباً، إشارات إلى حقائق علمية لم تكن معروفة في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ثم كشفت تدريجياً، ففي كل عصر كشوف علمية تؤكد أن الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من وحي هو من عند الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

البرهان أي الذي يثبت أن هذا الإنسان رسول الله، البرهان أي المعجزة.

كل ما يتعلق بحركة الإنسان في الحياة فيهمنهج :

قال تعالى:

(مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

النور هو المنهج، البرهان هو المعجزة والنور هو المنهج، كيف المنهج؟ أنت تمشي بالطريق، وجدت فرعين، في أي فرع تتجه؟ قيل لك: اذهب إلى بلدك من هذا الطريق، هذا نور، كأن الأمور

أظلمت عليك، وهذا التوجيه كأنه نور كشف الظلمة، العلم نور، ماذا أفعل؟ تزوج، إذا تزوجت وأصبحت الحياة لا تطاق، طلق، كيف أطلق؟ ثلاث مرات، في تفاصيل حياتك، تفاصيل كسب المال، تفاصيل إنفاق المال، تفاصيل الزواج؛ الخطبة، والزواج، والطلاق، والنفقة، وتربية الأولاد، وما إلى ذلك، العمل، الشراكة، الكفالة، الحوالة، كل ما يتعلق بحركة الإنسان في الحياة فيه منهج.

أيها الأخوة، ما من حركة يتحركها الإنسان مهما تكن ضئيلة إلا ويغطيها حكم شرعي، نبدأ من الفرض، ثم الواجب، ثم المستحب، ثم المباح، ثم المكروه كراهة تنزيهية، ثم المكروه كراهة تحريمية، ثم الحرام، ما من حركة ولا سكنة ولا موقف إلا وينبغي أن يغطى بأحد هذه الأحكام الستة فرض، واجب، مستحب، مباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، حرام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء، ولأن رسالته خاتمة الرسالات، ولأنه للعالمين جميعاً، فكانت معجزته عين منهجه، منهجه القرآن ومعجزته القرآن، معجزات الأنبياء السابقين حسية، بينما معجزة النبي عليه الصلاة والسلام عقلية علمية.

النبي عليه الصلاة والسلام معجزته في القرآن الكريم وفي أحاديثه الصحيحة

حينما أنزل هذا القرآن ورد في بعض آياته أن الإنسان كما قال الله عز وجل:

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

[سورة النساء: 125]

الآن بعد أن ركب الإنسان الطائرة، في أعالي الجو يقل الضغط الجوي، وإذا قلّ الضغط الجوي ظهرت أعراض خطيرة، وقد تكون مميتة، لذلك هذه الطائرات التي نركبها يضخ هواؤها ثمانية أمثال الهواء الذي على سطح الأرض من أجل أن تركب الطائرة دون أن تشعر، فلو تعرض جهاز ضخ الهواء إلى خطر وجب أن يهبط الطيار هبوطاً اضطرارياً، وإلا يموت الركاب، فمن أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام أن الصعود إلى الجو إلى أعالي الجو يصيب الإنسان بضيق شديد في صدره؟ إنه القرآن الكريم. الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التي تحدثت عن الجنين جاءت مطابقة لأدق البحوث العلمية في علم الجنين، من أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام؟

أضرب مثلاً، النبي عليه الصلاة والسلام أمر أن تذبح الدابة من أوداجها دون أن يقطع رأسها، لم يوجد في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أي مركز علمي في الأرض، ولا بعد عهد النبي بمئة عام، ولا بمئتي عام، ولا بألف عام، ولا بألف وأربعمئة عام، هناك في الأرض كلها جهة علمية يمكن أن تفسر هذا التوجيه النبوي، اذبح الدابة من أوداجها دون أن تقطع رأسها، إلى أن اكتشف أن القلب فيه مركز كهربائي يأمر القلب بالنبض ذاتياً، لأن القلب أخطر جهاز في الإنسان، أخطر عضو، لا يتعلق بالكهرباء العامة كهرباء الشبكة، له مولدة خاصة، له ثلاث مولدات؛ مولدة رئيسية،

ومولدة احتياط، ومولدة احتياط للاحتياط، أرأيت إلى إتقان صنعة الله عز وجل، لكن هذا الأمر الذاتي الداخلي يعطي أمراً بالنبض النظامي ـ ثمانون نبضة في الدقيقة ـ أما إذا احتاج الإنسان إلى أن يرفع النبض؛ خائف يركض يجري لا بد من أن يأتي أمر نبض استثنائي من الكظر عن طريق الدماغ، أو يبدأ من الدماغ إلى الكظر إلى القلب، مهمة القلب بعد الذبح إفراغ الدم من جسم الدابة، لأن الدم بؤرة صالحة للجراثيم والأوبئة، النبض الطبيعي لقلب الدابة لا يخرج إلا ربع الدم، فإذا بقي الرأس متصلاً بجسم الدابة يأتي الأمر الاستثنائي، يأتي من الدماغ عن طريق الكليتين إلى القلب فيرتفع النبض إلى مئتين وثمانين، عندئذٍ يخرج الدم كله من جسم الدابة، فيغدو اللحم وردي اللون شهياً.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام معجزته في القرآن الكريم وفي أحاديثه الصحيحة.

الرحمة مطلق عطاء الله عز وجل :

قال تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

وقع أحدهم في حفرة، وجدران هذه الحفرة ملساء، موته محقق، فإذا أدليت له بحبل فتمسك به وأنقذته من هذه الورطة الإنسان معنى ذلك أنه اعتصم بهذا الحبل، أي اعتصم بشيء ينقذه. إنسان كاد يغرق، أرسل له شيء يعينه على أن ينجو من الغرق، هذا اعتصام، فأصل تعبير الاعتصام أن تتعلق بشيء، أن تتمسك بشيء ينجيك من بلاء كبير، فهذا المؤمن فضلاً عن أنه آمن بالله اعتصم به، أي أن الله عز وجل نجاه من الشقاء، نجاه من الشقاء النفسي، نجاه من حياة لا معنى لها، نجاه من ضيق، نجاه من كرب، نجاه من سوداوية، نجاه من إحباط، اعتصموا به لأنهم طبقوا تعليمات الصانع، إذاً نجاهم الله بهذا.

(فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

الرحمة مطلق عطاء الله عز وجل، مطلق عطاء الله رحمته، فالصحة من الرحمة، وراحة الله من الرحمة، طمأنينة النفس من الرحمة، والتوفيق في الحياة من الرحمة، والبيت السعيد من الرحمة، والأولاد الأبرار من الرحمة، والسكينة التي تلقى على قلب المؤمن من الرحمة:

(فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

سلعة الله غالية ومن السذاجة بمكان أن نطلبها بعمل يسير :

إنسان يكون ضيفاً على مضيف من أعلى مستوى، تجد الإكرام فنوناً، الاستقبال، والغرفة، والطعام، والمقبلات، والعصير، والفواكه، والحلويات، والقهوة، والشاي، والترحيب والتكريم، والمجلس المريح، ألوان ملونة، وأنواع منوعة من الإكرام، هذا للتقريب، كلمة فلان في رحمة الله أي في حفظه، في تأييده، في توفيقه، في إسعاده، أي ملأ قلبه غنى، أي ألقى الأمن في قلبه، وأنزل السكينة على قلبه، ويسير شؤونه في كسب رزقه، في إنفاق ماله، في علاقاته الإيجابية، رحمة الله واسعة جداً، إذا منحك الله رحمته سعدت بها ولو فقدت كل شيء، وإذا حجب عنك رحمته شقيت بحجب هذه الرحمة ولو ملكت كل شيء:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

ولعل البدايات تحتاج إلى جهد، جاءت سين الاستقبال:

(فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ)

أي نجد في البدايات صعوبة، لأن سلعة الله غالية، يقول لك: فلان يحمل دكتوراه فرضاً، أنت هل تعلم هذا اللقب العلمي الذي يتميز به هل تعلم كم كتاباً قرأ؟ وكم فحصاً أجرى؟ وكم أزمة نفسية أصابته؟ وكم ليلاً سهر؟ وكم أستاذاً صعباً صبر عليه؟ وكم كتاباً صعباً فهمه واستعان على فهمه بأشياء كثيرة؟ ما وصل إلى هذا اللقب إلا كاد يموت من التعب، ومن الهم، ومن القلق والخوف والامتحانات، فسلعة الله غالية، من السذاجة بمكان أن تطلبها بعمل يسير، ما من إنسان بالأرض يقدم طلباً لا يقرأ ولا يكتب، يقدم طلباً للحكومة للتعليم العالي، يرجى منحي دكتوراه، فقط التوقيع فلان، هو لا يقرأ ولا يكتب، هذا طلب يستحق الابتسامة الساخرة، لا بد من عمل دؤوب لا من أجل الآخرة، من أجل الدنيا، من أجل أن يضاف لاسمك حرف الدال ونقطة فقط.

طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب واستخفاف بالجنة :

هكذا الحياة، من أجل أن يقال لك دكتور تبذل هذا الجهد، من أجل أن تدخل الجنة تطمع أن تكون بلا عمل، وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، استخفاف بالجنة، ألا إن سلعة الله غالية.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

هكذا تقول: آمنت، إغراءات، في امتحانات، المؤمن لا يتأثر أنه آمن بالله واعتصم به، وأصر على نيل رضوانه، لا يتأثر لا بسياط الجلادين اللاذعة، ولا بسبائك الذهب اللامعة، لا يؤثر فيه إغراء ولا تهديد، إنه مع الله عز وجل:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ)

رحمة، سعادة، فضل، يجري على يديك عمل صالح، إنسان بلا عمل هذا ليس مؤمناً، فقط إيمان سكوني، أخي دين عظيم، الإسلام دين الفطرة، الإسلام، وبعد ذلك ماذا؟!

مثلاً لو أن إنساناً عنده مرض جلدي لا يشفى إلا أن يتعرض لأشعة الشمس، هذا الإنسان جالس في غرفة مظلمة، وفي الخارج شمس ساطعة، لو قعد في هذه الغرفة المظلمة، وقال: يا لها من شمس ساطعة، إنها شمس مشرقة، إنها شمس منيرة، يا لها من شمس في كبد السماء، يا لها من شمس مشرقة في رابعة النهار، لو أتى بكل ألفاظ الأدب في الحديث عن الشمس وهو لم يتعرض لها لا ينتفع بكل هذه العبارات الطنانة، لا بد من أن يعرض جلده لأشعة الشمس.

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

الله عز وجل إذا أحبك أنطقك بالحق وأجرى الهدى على يديك :

قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

[سورة الإسراء: 19]

أي إسلام سكوني، إسلام تأملي، هكذا معظم الناس، مرتاح، يتابع الأخبار، يوزع تهماً على الناس، لا يقدم شيئاً، أعجبني قول أحدهم، قال لي: أنا أُعَظِّم شخصاً إلى درجة أنني لا أرى إنساناً في الأرض فوقه، إنه رسول الله، لا يخطئ، معصوم، قال لي: وأحتقر إنساناً لا يخطئ أيضاً، هو الذي لا يعمل، الذي لا يعمل لا يخطأ، ما قدم شيئاً لا عمل ولا محاولة، ما ضحى بشيء، ما غامر إطلاقاً، ما تحرك، ما فعل شيئاً، من لا يعمل لا يخطئ، لكن من يعمل يخطئ:

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس]

فيدخلهم برحمة منه، هذا العطاء النفسي، الشعور بالأمن، الشعور بالسكينة، الثقة بالمستقبل، التوازن.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

فضلاً عن ذلك عمل صالح، لعل الله عز وجل إذا أحبك أنطقك بالحق، أجرى الهدى على يديك، وظفك جندياً تدافع عن هذا الحق العظيم، في رحمة، وفي فضل، الفضل عمل صالح:

(وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

أي كإنسان يمشي على طريق واضح، أحياناً تجد سائقاً على خط، يحفظ الطريق متراً متراً، وفي أماكن في اليمين فيها حفر، انتقل إلى اليسار، وتلافى الحفرة، حفظها عن غيب، كيف أن هذا السائق

لشدة مراسه في هذا الطريق تجنب كل الحفر، كذلك المؤمن، طريقه واضح تماماً، الحلال واضح، والحرام واضح، والأعمال الصالحة واضحة، والوسائل أمامه واضحة، والأهداف واضحة.

لا يمكن للإنسان أن يستوعب الباطل لأنه متعدد :

قال تعالى:

(وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

بعد ذلك مستقيم، أقرب خط بين نقطتين الخط المستقيم، استيعاب الباطل فوق طاقة البشر، لو أردت أن تستوعب فرقة ضالة، تحتاج إلى عشر سنوات، تقرأ الكتب كلها، والخلفيات، والملابسات، والوقائع، والأحداث، والمعارك، والحروب، والنتائج، وما قيل، وما كتب، والمعلقين، والمؤرخين، إذا كانت فرقة ضالة تحتاج إلى عشر سنوات تستوعب، يقول لك دكتوراه بالفرقة الفلانية، أي خمس أو ست سنوات تأليفاً، وتصحيحاً، وتعقيباً، وتنقيحاً، لذلك لا يمكن للإنسان أن يستوعب الباطل، لأنه متعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

بين نقطتين لا يمكن أن أمرر إلا خطاً مستقيماً واحداً، الثاني يأتي فوقه، الثالث ارسم نقطتين، وائت بالمسطرة، ضع المسطرة على جانب النقطتين، ارسم خطاً، الثاني فوق الأول، والثالث فوق الثاني، بين نقطتين لا يمر إلا خط واحد، هذا الحق، الحق لا يتعدد، لكن الباطل يمر بين نقطتين مليون خط منحني، ومليون خط منكسر، ومليار خط يمر انحناء صغير، انحناء أشد، انحناء أشد، انحناء أشد، انحناء أشد، انكسار قليل، انكسار كبير، لذلك الباطل لا يستوعب، والطريق مسدود، استوعب الحق والحق مقياس، وفرت وقتك، ووفرت جهدك:

(وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)

الفرق بين السؤال والاستفتاء :

آخر آية في هذه السورة المباركة:

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

يستفتونك، الاستفتاء أن تطلب الحكم الشرعي لحالة لا تعرف فيها الحكم، أما السؤال يقتضي أي شيء، السؤال أوسع من الاستفتاء، الله عز وجل قال: يسألونك عن الميسر، يسألونك عن المحيض،

يسألونك عن الجبال، يسألونك عن الخمر، هناك أسئلة، وهناك استفتاء، الاستفتاء أن تطلب الحكم الشرعي لحالة أو لواقعة لا تعلم أنت ما حكم الشرع في هذا، هذا الاستفتاء.

حسناً ماذا يُفهم من هذه الآية؟ يُفهم أن الذي يستفتي، وأن الذي يسأل أراد أن يبني حياته على منهج الله، من هو الذي لا يسأل؟ لأنه لا يسأل لا يعبأ بهذا الدين، وبالتعبير العامي يقول لك: حط بالخرج، لا، المؤمن يسأل، لأنه يتمنى رضاء الله عز وجل، لأنه أخذ قراراً مصيرياً أن تكون حياته وفق متهج الله إذاً يسأل، فهذا الذي يسأل إنسان له عند الله مكانة كبيرة جداً، والذي لا يسأل إما أنه يعرف الحكم لا يسأل، وإما أنه لا يعبأ بهذا الموضوع كله، الذي لا يسأل إما أن يكون عالماً، أو أن يكون شارداً عن الله كلياً، أما الذي يسأل فإنسان ورع، والسؤال مفتاح العلم، وأنت حينما تستشير الرجال تستعير عقولهم، أنت لا تستطيع أن تدخل إلى عيادة طبيب، وليس في جيبك الأجرة، لا تستطيع أن تدخل مكتب محام، وليس في جيبك مقدم الأتعاب، لا تستطيع أن تدخل إلى أي بائع إلا وفي جيبك الثمن، لكنك تستطيع أن تسأل كل داعية إلى الله بلا ثمن، تسأله: ما حكم الشرع في هذا؟ هو يتقرب إلى الله بتوضيح الحق، وأنت تتقرب إلى الله بهذا السؤال، تبحث عن حكم الله عز وجل، وهو يقدم لك هذا الحكم، لذلك السؤال علامة الورع.

الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالنص :

اسألوا قال تعالى:

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

أهل الذكر هم أهل القرآن والسنة، يا أخي حكم الله في هذا حرام، قال لي إنسان اليوم: هل يجوز أن أؤجر بيتي لبنك؟ قلت له: لا يجوز، قال لي: ما الدليل، قلت: قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

ألا يجري في هذا البنك معاملات ربوية، أنت ماذا فعلت؟ قدمت له البيت، قدمت له المكان، هل بإمكانك أن تخيط مثلاً ثياباً فاضحة ترتديها النساء في الطرقات مثلاً؟ فيها إشكال، هل بإمكانك أن تزود ملهى بأجهزة صوت من أعلى مستوى؟ عمل متقن، أين؟ بالملهى، الله يعطيك العافية:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة: 2]

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

هناك حكمة بالغة بالغة من الأمر الإلهي، وهناك حكمة بالغة بالغة من النهي الإلهي، وهناك حكمة بالغة بالغة من الذي سكت عنه الشرع.

قال لي واحد: جاءتني بذلة صنعت في بريطانيا، يجوز أن ألبسها؟ قلت له: يجوز، أليست من عمل الكفار؟ قلت له: لا تلبسها، انتهى، كما ما تريد.

الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالنص، والأصل في العبادات الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل.

الأصل في العبادات الحظر فلا تشرع عبادة إلا بالدليل :

العبادات الأصل فيها الحظر، لا يجرؤ إنسان في الأرض أن يحدث عبادة إلا بالدليل، أما الأشياء الأصل فيها الحظر مادام ليس فيها نص، ما حكم ـ فرضاً ـ أكل الخضار مع الحلويات معاً؟ هذه ليس فيها حكم شرعي، الأصل في الأشياء الإباحة، أما الحظر في العبادات، فالذي أمر الله به ائتِ منه ما استطعت، أمرك بالصدقة، أما الذي نهاك عنه يجب أن تدعه كلياً، كلام دقيق جداً، أنت هيأت مستودعاً للوقود السائل هذا المستودع فيه عمليتان، إحكام وإملاء، املأه ما استطعت، يسع ألفي لتر، لا تملك ثمن الألفين، املأه مئة لتر، أما الإحكام ليس فيه حل وسط، الإحكام حدي، أما الإملاء فنسبي، ليس هناك مستودع محكم نوعاً ما، ما في نوعاً ما، محكم أو غير محكم، محكم بين بيْن، ليس هناك محكم بين بيْن، ولا نوعاً ما، ولا إلى حد، محكم، أما إملاؤه فبقدر ما تستطيع، فإذا أمرت بالصدقات فبقدر ما تستطيع.

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

أما إذا الله نهاك عن أكل الربا فهذا النهي حدي، فالنهي حدي، والأمر نسبي، والذي سكت الله عنه الأصل في الأشياء الإباحة، أنا لا أبحث عن شيء سكت الله عنه، الأصل الأشياء مباحة، لا يحرم شيء إلا بالدليل، الأصل في العبادات الحظر لا تشرع عبادة إلا بالدليل:

((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

دعوه كلياً.

حكم الله في الكلالة :

الآن:

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الْكَلَالَةِ، أي إنسان ليس له ولد، وليس له أب، العادة أن الأب يرعى الابن، والإنسان إذا كبر في السن رعاه ابنه، أنت بين رعاية أب ورعاية ابن، إنسان توفي ليس له ابن، وليس له أب، كيف يرثه من حوله؟!

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

بالمقابل:

(وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ)

ليس له أولاد، وليس له أب، ترك أختين فلهما الثلثان:

(وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

رجال ونساء، للذكر مثل حظ الأنثيين، ترك أختين فلهما الثلثان، ترك أختاً واحدة لها النصف.

بقدر طاعتك لله تنفذ أمر الله في الميراث :

قال تعالى:

(يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أي يبين الله لكم لئلا تضلوا المعنى:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

بالمناسبة أيها الأخوة، الله عز وجل ما سمح لسيد الخلق وحبيب الحق أن يوزع الميراث، تولاه بذاته، الفرائض من قبل الله بالذات، لماذا؟ الإنسان أحياناً يجتهد، هذا غني ليس بحاجة، احرمه، هذا فقير ضاعف له، تدخل الأهواء، والمنازعات، والخصومات، لا، هذا الشرع أحق أن يتبع، فلذلك إن الرجل يعبد الله ستين عاماً ثم يضار في الوصية فتجب له النار، البنات لا نورثهم، لماذا؟ راح المال من بيت فلان للأصهار، هذا كلام الشيطان، البنت لها الحق في الإرث بالتمام والكمال، فبقدر طاعتك لله تنفذ أمر الله في الميراث، هذا حكم الله في الكلالة، إنسان توفي ليس له أولاد، وليس له

أب، الأب كان يرعاه، والابن يرعاه في شيخوخته، فماله يذهب إلى أخته النصف، إلى الأختين الثلثان، إن كانوا ذكوراً وإناثاً:

(فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)

أيها الأخوة الكرام: بفضل الله تعالى تم تفسير سورة النساء في تسعة وستين درساً، وفي تسعة وستين شريطاً، وهذا من فضل الله علينا، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لمدارسة هذا الكتاب.

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

الفهرس